وقعا في فصول تاريخ الاجتماع الطبيعي ، ولكن لا مساس لهما بالجوهر لدى المحقق

ولا يتوهم من ذلك ان الاغلاط المطبعية كثيرة أو مهمة . وكأنها قليلة جداً في ما بدا لي حتى الآن ، مما يشهد ببراعة عمال المطبعتين الذين صفوا الجزئين ، خصوصاً في ما كان منقولاً عن مطبوع ، في ما خلا مواضع مخصوصة ظنوا هم انفسهم انهم يصلحون خطأً وقع مني أو ذهب عليَّ ، مثل لفظة « الاناث » عوضاً عن « الايناث » في الجزء الثاني. و « الاودان » بصيغة الجمع العامي المصري للاذن ، عوضاً عن « الاردان » في الجزء الاول . — والحق يقال ان اكثر ما وقع هذا الغلط هو في مخطوطاتي الحديثة ، وهم معذورون حينئذٍ بل فضلهم عظيم جداً في حل طلاسمها أحياناً كثيرة . وهي شهادة مني لهم ، وشهادة الحق واجبة . — وأما ورود « سعيت بهِ » في مقام « سعيت فيهِ » « او له » فمن محاسن الاتفاق للمتعقب ، لولا اني أنا نفسي اتعثر في السعي البسيط نفسه ، فكيف بي في ما يلزم له ذكاء ودهاء شرقيان فائقان ! وان سألتني ما هما هذان « الفائقان » ؟ قلت لك هما الناشئان عن كل ما يضغط على اللسان والجنان والقلب ، مما لا يزال حتى اليوم في الشرق اكثر منهُ في الغرب

﴿ الذي يضغط على اللسان والجنان والقلب ﴾

المدارس العمومية في كل الدنيا وجدت لتطمس على الاذهان غالباً • وكتابي وضع لكي ينيرها • فلا مطمع لي اذاً ان اراه متداولا بين ايدي طلاب مدارس الحكومة ومدارس الامة • فوفاءً ببعض ما عليَّ من الواجب نحو وطنيَّ الاول والثاني قد تبرعت بثلاثمائة نسخة من كل جزء من اجزاء مجموعتي تعطى مجاناً لادباء القطرين السوري والمصري وطلبة مدارسهما الذين لا تمكنهم وسائلهم من اقتنائه بدفع الثمن • نصفها لكل قطر • وبما ان الاجزاء غير متصل الواحد منها بالآخر اتصالا لازماً فالذي ينال الجزء الواحد لا يحق له ان يعطى باقي الاجزاء بل تعطى لسواه وذلك زيادة للنشر وتعميماً للفائدة ، ولا جود الا من الموجود ، ولا فضل بذلك

يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

واقدّم شكري ايضاً لاصحاب المساعي المشكورة ممن لم تمنعهم وفرة أشغالهم من ان يبذلوا من ثمين وقتهم للسعي معي في هذا السبيل وهم حضرات الافاضل : اخنوخ افندي فانوس . اسيوط ، الدكتور اسكندر جريديني . طنطا ، اسكندر صيقلي . اسكندرية ، ألفرد جدعون . بيروت ، انطون خوري . المنصورة ، داود افندي نحول . بيروت ، رزق الله افندي أرقش . بيروت ، سامي افندي قصيري . مصر ، عبد الله بك الخوري . لبنان ، الدكتور فتح الله دهان . طنطا ، وميشيل بك ايوب . اسكندرية ، نخله بك تويني . بيروت ، نقولا افندي أرقش . طنطا ، وغيرهم مما قد تكون الذاكرة خانتني فيهم

أما اسماء المشتركين بنسخة واحدة من هؤلاء الافاضل أو عن يدهم أو من سواهم رأساً فسأدرجها في الجزء الثالث

(تنبيه) السهو الذي قد يمكن ان يكون وقع ارجو ان انبه اليه لاستدركه في الجزء الآتي

أما الوقت الذي صرف في هذين الجزءين مع رغبتي الشديدة في الاسراع فهو ثمانية شهور وكان يمكن ان يكون اقصر لولا صعوبات لم يكن في الامكان تداركها . وما كنت ادري قبل الآن ان التأليف اسهل جداً من تجشم الطبع والنشر خصوصاً في بلادنا . وعساي بعد ذلك كلهِ أن لا اكون قد قصّرت

* * *

هذا ، واذا سمح لي الوقت واتسع مني الصبر ايضاً ، ربما وضعت فهرساً في آخر الجزء الثالث شاملاً لبيان الاغلاط التي تكون قد وقعت في الاجزاء السابقة ، مطبعية كانت أو ناشئة عن سهو أو سواه ، مما أنتبه له او أنبّه اليهِ ، ومما لا يسلم منهُ كتاب أو كاتب

على اني أقول اني في مراجعتي المسودّات كنت وحدي . ولم يكن لي همّ سوى مراعاة المعنى ، وقلما كنت ارجع الى المقابلة لمراعاة دقائق الالفاظ مع ان من الكتابات ما هو قديم جداً الا عند اضطراب المعنى عليّ . ولذلك اقدر أن اؤكد للقراء ان الخطأ من هذا القبيل لم يقع في ما أعلم ، أو هو في حكم النادر ، الاّ في مسألة تقديم وتأخير

## ﴿ تابع ما قبله ﴾

جنيه

٦ علي بك جنبلاط . بيروت

٦ يعقوب كرم . بيروت

---

٣ اندراوس بشاره . مصر

٣ انطون خوري . المنصوره

٣ موسى بسترس . بيروت

٣ نقولا دوماني ″

٣ يوسف خضير . اسكندرية

جنيه

٥ الشيخ ابو طالب جهرمي . البدرشين

٥ حبيب بك دبانه واخوته . مصر

٥ حبيب بك فرعون . مصر

٥ سليم طويل . اسكندرية

٥ محمد بك ابرهيم هلال . مصر

٥ ميشيل خوري . اسكندرية

٥ نجيب غناجه . مصر

٥ نعمان السوقي . طنطا

٥ نقولا دهان . رمل الاسكندرية

---

٢ نقولا حمصي . حلب

٢ يوسف هاني . بيروت

جنيه

٤ جاد بك عيد . مصر

٤ عادل افندي جبر . يافا

٤ نقولا سرسق . بيروت

---

« ثمن النسخة الكاملة من المجموعة »

( جنيه واحد )

## جدول اسماء حضرات اعواني الكرام مرتبة كما يأتي

اذكرها مجردة عن النواتيّ . مكتفياً بجمال الاعمال ، وكم يجمل بالناس ان يتعودوا ذلك اختصاراً للوقت وانصرافاً للجدّ ، وسيكون ذلك منهم متى غلب النظر الى الجوهر على الاستمساك بالعرض في كل أعمالهم

جنيه

٢٥٠ امين كرم . اسكندرية

٢٥ جورج كرم . اسكندرية

٢٥ خليل باشا خياط . اسكندرية

١٢ الياس صباغ . بيروت

جنيه

٥٠ ادريس بك راغب . مصر

٢٠ محمد بك وحيد . مصر

١٠ اسماعيل باشا عاصم . مصر

١٠ بولص طراد . بيروت

١٠ جورج قرداحي . اسكندرية

١٠ حسين باشا واصف . مصر

جنيه

٤٠ نجيب يوسف سرسق . اسكندرية

١٥ بطرس افندي داغر . بيروت

٨ جورج بك متري سرسق . بيروت

٧ اسعد نقولا . مصر

*
* *

اما الثالث فهو الخواجا امين وهبة كرم من الاسكندرية ، مَن الكرم بهِ سجية ، ومَن

اذا الناس مدُّوا بأيديهم    الى المجد مــدَّ اليهِ يدا
فنال الذي فوق ايديهم    من المجد ثُمَّ مضى مُصعِدَا

فما لبث ان ذكر مشروعي له وخاف عليه من الحبوط حتى ضمن له الحياة ، فبذل له عن سخاء ، ووفى له خير وفاء

*
* *

فشكراً لجميع هؤلاء الافاضل على ما اولوني من الجميل . فان كان في عملي هذا بعض الفائدة فليحمدهم الناس فالفضل كل الفضل لهم . وان لم يكن فيهِ ذلك فليحمدوهم ايضاً انما الاعمال بالنيات ، وليلحقوا التبعة كل التبعة بي

مصر ١٠ يونيو ( حزيران ) سنة ١٩١٠    الدكتور شبلي شميل

(تنبيه) الآية الواردة في صفحة ٨٧ في الحاشية في السطر الثالث هي هذه «فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون» اه . فلتصلح هناك

متشجعاً بهم اعرضهُ على كل من عهدتُ به نجدةً لانجاح مثل هذه المشروعات من كرام القطرين ، من كل مَنْ

ترى المجد يَهـدي الى بيتهِ      يرى افضل المجد ان يُحمدا
وانْ ذُكرَ المجد ألفيتهُ      تأزَّر بالمجد ثم ارتدى

او ذكر البذلُ الباذخ اشرأبّت اليهِ الاعناق وطوَّقتهُ الاحداق وفاضت بهِ الذاكرة . فما لقيت منهم الا كل من لبى متصاغراً كأنهُ المفضول شأن الجوَاد الكريم . فحق لهم عليَّ تجاه هذا الفضل « كلمة شكر » انقشها على « صحيفة فخر » تحفظ لهم اعترافاً بجميلهم وتخليداً لذكرهم

ولكني ، وحقي ، حرتُ كيف أذكرهم لادلّ على فضلهم ، فانَّ عددهم لكثير لدى من يرى « ان الكرام قليلُ » ، وفضلهم في هذا المقام أعظم ايضاً والناس بيننا على ما تعوَّدوا ، والفضـل الكثير يعقل اللسان الطليق ، فكيف بي وانا حليف العيّ وارى الواجب اكبر مني . فلم اجد حيال هذا الحَصَر ، انطق للفضل بياناً واثبت للجميـل عرفاناً من ذكرهم بفضلهم متبرعين كانوا او مشتركين او ساعين ، فالجميع بالفضـل عليَّ سواء ، ليحفظ ذلك لهم في سجلّ مجموعتي أثراً خالداً يفي عني من الواجب بقدر ما يذيع لهم من حسن الذكر

***

على اني لا اكون من المنصفين ان لم استأذن حضراتهم لاذكر هنا اسماء ثلاثة من بينهم كانوا لمشروعي من اهم الاركان ومن اكبر الاعضاد لابرازه الىٰ الوجود

الاول الخوري بواص الكفوري ، رجل الجد والعمل المكافح في سبيل الاصلاح ، صاحب جريدة المهذب في زحلة من لبنان، فقدكان الواضع لمشروعي والعقل المدبر له

والثاني الدكتور ايوب ثابت من بيروت ، من أشد رجال النهضة الاصلاحية فيها اخلاصاً ، فانه كان اليد العاملة فيهِ

# كلمة شكر واجبة

في صيف عام ١٩٠٩ قصدت ربوع الشآم ، وطني الاول ومسقط رأسي ، بعد ان رحلت عنها منذ نحو اربعين سنة ، لم ازرها في خلالها الا مرتين اياماً معدودة ، اخرهما منذ سبع وعشرين سنة قضيتها في القطر المصري ، وطني الثاني ومَبسَط افكاري . فلم يشأ اهل سورية ان تنفرد مصر وحدها بالفضل عليَّ ، فاغتنموا فرصة وجودي بينهم فغمروني باحسانهم ، وطوّقوني بجميلهم مما لا انساه لهم على مدى الاعوام

وزادوا على ذلك ان بعض اولي الفضل منهم ، ارادوا ان يتناهوا في الكرم فحثّوني مجاملة لي وتشجيعاً لسواي ، على ان اجمع ما تيسر من كتاباتي المتفرقة في الكتب والمجلات والصحف منذ اكثر من ثلاثين سنة في مجموعة اطبعها في اجزاء على حدةٍ ، وكان قد طلب مني مثل ذلك قبلهم بعض افاضل المصريين وغيرهم من بعض الاقطار العربية الاخرى ، وكنت انا نفسي غير قليل الميل الى ما يحب الناس ان يحرصوا عليه من آثارهم ، مهما كانت ، ولا سيما اذا كان لم يبقَ لهم سواها ، فصادف ذلك مني هوى في النفس ، وان لم يخدعني كثيراً في حقيقة نفسي . ولكني مع ذلك وقفت واجماً متردداً لان الاسباب التي كانت متوفرة في الماضي لم تبق لي اليوم ، وخفت ان اصادف في هذا السبيل ما قد يسلبني البقية الباقية ويجدد بي تذكار مثل هذا القول

لقد كان لي نفس تصان بها العُلى     وقصد الى الاصلاح أنبل من نفسي
فمالت بي الدنيا فقالت سلامةٌ     أيا نفسُ إني لا أُهينك يا نفسي
ولكنَّ دهراً درهمُ القدر درهمٌ     بهِ كيف ترجو ان يصونك من بخس

ولكن الافاضل المذكورين لم يشأوا الا ان يذللوا كل الصعوبات . فوضعوا اساس المشروع ، ثم قاموا هم انفسهم يسعون ويجمعون المال بالاكتتاب ، وقمت انا حينئذٍ

(١) هناك ١٩٠٩ خطأ (٢) ذكرت هناك غلطا « الدين والحق »

# فهرست المقالات [1]



( ١ ) وقع بعض اغلاط في تحريف أسماء بعض المقالات وتاريخها فأصلحنا ذلك هنا واما الاغلاط المطبعية الطفيفة التي وقعت في المتن فلم نصلحها اتكالا على سليقة القارئ وعلمه ( ٢ ) وقد ذكرت هناك سنة ١٩٠٨ وصوابها دسمبر سنة ١٩٠٩ ( ٣ ) ذكرت هناك «الاناث» خطأ ( ٤ ) ذكرت هناك « مسألة » خطأ

«الهلال» في قولي هذا تذمراً من الرئاسات « لهدمها » لا « لتقييدها » بما يكون اصلح لمصلحة الجمهور . ولعلَّ ذلك ليس حلماً ايضاً لا ينطبق على العمل ، ولولا «حمزة» الجريدة وقوله اني « احاول التأثير بقوة الالفاظ لا بمتانة البرهان » لعولت هنا ايضاً على أحكام المقابلة وقلت كم من امثال هذه الاحلام في الماضي صار حقائق اليوم

على اني لا أريد ان « أدفن » الكلام في هذا الموضوع — الذي جرى هنا على القلم من غير تعمد — قبل ان اقدم كلمة شكر مفعمة لجميع الذين لم يثنهم حرج الموقف عن بذل الوقت عن سخاء للكلام عن كتابي سواء بالاذاعة أو بالاطراء أو بالانتقاد — ومجال القول هنا قد يكون ذا سعة وربما جرَّدت مني شخصاً آخر وانتقدت نفسي بنفسي ، ولكن لا لاستمسك بالعرض لاقتل الجوهر وأقلب الاشياء عن كيانها في سبيل الغرض ، فلا أرى في البراهين الآخذ بعضها برقاب بعض برهاناً راجحاً ، ويا ليت شعري بما يجيبون لو قيل لهم : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين — كلمة شكر ازفها الى جميع هؤلاء الافاضل ممن ذكروا هنا او لم يذكروا حيث نظروا جميعهم الى كتابي اليوم بغير العين التي نَظرَت اليه في الماضي ، وهو ارتقاء في التساهل وتحوُّل في المذهب ، عسى ان يتصل الانسان يوماً ما بالعلم الى « دفن » أوهام كم غمَّت على الحقائق فاذابتها فيها كأنها هي نفسها الحقيقة المنشودة ، يدفنها جثثاً هامدة تولاها موت حقيقي لا مبعث بعده ، لعل الانسان الكلي » يستطيع حينئذ ان يقضي عمره القصير على هذه البسيطة باكثر أنواع التعاون وأقل أنواع الشقاء ولا يكون الخاسر في الحالين

والذي حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد

﴿ تم الجزء الثاني ﴾

« ويليه الجزء الثالث »

يتحكم ويطالب ان لا يدفن الا مدنياً وهو ينفي كل معتقد؟ أيريد ان يتبجح بقوله للناس بعد موته انهُ لا يعتقد بسلطة روحية ؟ وهو عمل في منتهى السخافة وتعصب بارد ، — خلافاً لما توهمهُ بي صاحب « الزهور » من اني متعصب حارّ ولكن . . . ضد الايمان — . أم هو يريد ان يقول للناس بعمله هـذا ان اقتدوا بي ان الكفر سمة العقول الراجحة ؟ كأنه « الغرض » من بحثه لا « نتيجة لازمة » له ، خلافاً لجميع الذين توهموا بي من كتابي اني أقصد مقاومة الايمان لا نصر العلم والتأليف بين البشر بازالة كل العقبات من طريقهم والارشاد الى الوسائل التي تسرع ارتقاءهم . ولعل بعضهم لا يتذرع بقولي هذا الى اني هنا أيضاً « أنقض نفسي بنفسي » لاني قلت ان الاديان ذات معـد واسعة لا يضيق بها شيء ، لكي لا تقوم كل مرة وتقف حجر عثرة في سبيل العلم ، ولكن العقل كما قلت ايضاً « خزانة كثيرة الادراج » والمنازع اهواء غالباً تدور حول العلم اذا هي لم تستطع شيئاً ضده

* * *

واذا جاز لي ان اطلب شيئاً بعد موتي ممن بيدهم حينئذٍ امري فلا اطلب منهم سوى شيء واحد معقول استعطفهم فيه شفقة عليّ والتمسهُ منهم رحمةً بي . فانا لا اخاف الموت ولا اخاف ما بعد الموت . ولا يهمني أُحرقت في النار ام دفنت في التراب . وصلّى عليّ قسيس او شيخ او حاخام ، ام لم يصلِّ عليّ احد ، او صلوا كلهم مجتمعين يستمطرون لي غيوث الرحمة ، او يستنزلون عليّ سيوف النقمة . يرفعونني الى السماء ، او يدفعونني الى جهنم . فانا ليس لي ادنى مطمع بما هنالك ، ولا اخاف شيئاً من كل ذلك . ولا اخاف الاَّ « يقظة » القبر ! فانا لا اطلب الا ان ادفن ميتاً حقيقياً لا يجوز ان تردّ اليهِ الحياة ولو في اقل المحتملات

ولا ينكر ان هـذه اليقظة من تلك الغفوة نادرة جداً ، الاَّ ان ندورها لا يجعلها ممتنعة ، فاذا حصلت مرة في الالف او العشرة الآلاف او المائة الالف أو المليون ، فذلك كافٍ لوجوب اخذ الحيطة منها ما دام للحياة قيمة وهي لها ذلك باعتراف الافراد انفسهم لانفسهم وان لم يكن لها ذلك حتى اليوم باعتبار الجموع من دون ان يرى صاحب

بعد ان استأذن هذه المرة من كلية الاساتذة ومن استاذ الاثنين . . . — والابيات هي

ادفنوني في القبة الزرقاء  ان قدرتم فذاك أقصى رجائي
لا بقبر في الارض لا كان قبرٌ  ضيّق النقب ضيق الارجاء
أودعوني المنطاد ينقل جسمي  في فسيح الخلا وصافي الهواء
ولأنَلْ في الممات ما لم أنَلهُ  في حياتي من بعد طول العناء
سعةً في البقا ولو بتُّ فيها  اكل وحش الفلا وطير السماء

* * *

والعلامات المعروفة التي ترافق الموت والتي يعوّل عليها الناس حتى اليوم هي همود الجسم وبرده وانقطاع التنفس وانقطاع النبض ووقوف دقات القلب ، ويزيد الاطباء عليها علامات اخرى يحاولون استكشافها كل يوم وكلها علامات مشكوك فيها

وفي المجتمعات المنحطة التي لا تشدد الحكومات فيها مراقبة احوال الدفن لا تلبث هذه العلامات ان تظهر على الجثة حتى يبادروا الى اخراجها الى المدفن وموارتها التراب مسرعين قائلين «ستر الميت دفنهُ» . واما في المجتمعات الراقية فينتظرون ساعات معلومة قبل الدفن ويعوّلون خصوصاً على شهادة الطبيب

والحق يقال ان الطب مهما دقق في التحرّي للتأكد من الموت الحقيقي فلا يسعهُ الاّ الاعتراف بان كل العلامات المعوَّل عليها قد تخطئُ ما عدا علامة واحدة هي « التعفُّن » . فيجدر بالناس والحكومات والحالة هذه ان لا يعولوا في اجازة الدفن على علامةٍ اخرى . ولاجل ذلك يجب ان يكون في كل مدفن محل معد لهذا الغرض تنقل الجثث اليهِ وتحفظ فيهِ الوقت الكافي حتى تظهر فيها هذه العلامة الصادقة ثم تدفن

والغريب ان الناس مع علمهم ذلك وشدة حرصهم على حياتهم وراحتهم مقصرون في هذا الامر حتى في أرقى المجتمعات اليوم مع انه أهم وألزم وأوجب وأرحم من بناء القبور الفخيمة واقامة المآتم العظيمة التي يتباهى بها الاحياء على ظهور الموتى . واغرب من ذلك تحكم الاحياء في معاملة جثثهم وكيفية دفنهم بعد موتهم . والمؤمن معذور اذا طلب ان يدفن دينياً لان ذلك داخل في فروض دينه . وأما غير المؤمن فما عذره اذ

# المقالة التاسعة والستون

## ﴿ الدفن والمدافن ﴾

### « وعلامات الموت »

الناس في كل العصور مفتونون بما يؤول اليهِ امرهم بعد موتهم . والاكثرون على ان النفوس بواقٍ ، أما الجسوم الفانية فلا يبتّون فيها قولاً ولو ان الشرائع جميعها تقول بالحشر وقيامة الاجساد . والمصريون القدماء أشدُّ من كان في عمله متفقاً مع معتقده ، فكانوا يعتنون بالاجساد بعد الموت اعتناء خاصاً يحفظها من الدثور على مدى الدهور ، ليسهلوا على النفوس الاجتماع بأجسادها عند الحشر ، فكانوا يأتون فيها عملاً تمثيلياً بالتحنيط يقيها من البلى ، ولكنهُ يجعل ارتداد الحياة اليها — بعد الموت الظاهري — أمراً ممتنعاً

أما الذين لم يكونوا يلجأون الى التحنيط الديني أو الاحراق الديني كما يفعل المجوس حتى اليوم فكانوا يعولون لتقرير الموت الحقيقي والدفن على علامات قد لا تصدق فيبقى الميت المدفون معرَّضاً لان تعود الحياة اليهِ ، ولكنها تعود اليهِ ليقضي بعدها بالعذاب الشديد بين جدران القبر وتحت تراب اللحد . ومن يستطيع ان يتصور هول الدقائق أو الساعات أو الايام التي تمرُّ على المدفون حينئذ قبل ان يعود ثانية ويموت الموت الحقيقي ، وقد يستطيع ذلك بعض الشيء اصحاب امراض ضيق التنفس كالداء المعروف بالربو

ولا يخفى ان العبد الفقير محتكرٌ لهذا الداء منذ حداثتهِ وقد كان له أوفى صديق حتى اليوم . ولا اذكر اني جزعت في كل اطوار حياتي من كل أنواع الموت مثل جزعي عند تصور هذا الدفن ، وما ذلك مني من تلك « الغفوة » التي لا تحب بل من تلك « اليقظة » التي ترهب ، حتى اني قلت ذات يوم في مرض عرض لي منذ بضع سنين الابيات الآتية وهي تعبر عن هذا الشعور بي أصدق تعبير . واني موردها هنا — ولكن

تارة وترخي اخرى . وما من حكومة تسلك هـذا المسلك الا وترمي البلاد هي نفسها في الفوضى ثم تسأل الآخرين بعد ذلك عما هي وحدها مسؤولة عنهُ

فقانون المطبوعات اليوم لا فائدة منهُ ووجوده مضر في كل حال بل يجب دفنه الى الابد . والحكومة الحازمة يجب ان لا تخشى الحرية ولا يخشاها الا الذي لا يعرف ماذا يريد أو ماذا يلزم فيتذبذب متراوحاً بهذا الذكاء الشرقي الذي يعده البعض دهاء . نعم هو دهاء ولكنهُ دهاء حبله اليوم لا يطول . اذ لم يعد ينفع في هذا العهد الا الصراحة المقرونة بالعلم والحزم . فلا تجرب الحكومة اليوم ما قد يجرّ لها المتاعب غداً وعلى البلاد الوبال. فلا تخشَ الحرية ولا تخشَ معها الضرب بيد من حديد عند اللزوم لتقويم الاخلاق ما دام رائدها فكرة الخير . — ولتعمم قبل كل شيء التعليم الحرّ الذي لا يشوبه كدورة الاغراض . ولا اقل من ان تأتي ذلك في المدارس الاميرية تاركة لاصحاب المنازع الدينية المختلفة ان يتعهدوها في معاهدها الخصوصية ولاتجار الجهلاء الذين لا يفهمون ما يطلبون ولا الحكماء الذين يتوهمون ان سياسة الصراحة لا تنطبق على العمل — ولا يدرون انهم بذلك يرسّخون سواها — ما دام المسلك ليس فيهِ مصادرة لاحد في خصوصياته . حينئذٍ يقضي ناموس التنازع الطبيعي نفسهُ القضاء العادل بين الصحف والكتاب حتى لا يعود يؤمها الا كل من توفرت فيهِ المزايا اللازمة التي تضمن المنفعتين العامة والخاصة بما يؤديه من الخدمة الصحيحة التي يفهمها الناس حينئذٍ ويقدرونها حق قدرها

تقول انك تأبى القتل عن خلُقٍ حتى على النمل تخشى وطأة القدمِ
وفوق رأسك ألقى ِ كلّةٌ[1] رُفعت مصبوغةً بدم النـاموس كالعنمِ
فقلتُ والله اني صادق فانا لا استحلُّ لنفسي غير سفك دمي

(١) اي ناموسية

المطبوعات تتهذب من نفسها بقوة الانتخاب الطبيعي الذي يميت كل ما كان بذيئاً باغفاله ويحيي كل حسن بالاقبال عليهِ فلا يقدم حينئذٍ على الكتابة الا كل نحرير واسع الاطلاع نبيل الغاية يقصد النفع لنفسه من حيث ينفع سواه . واذا قلبت الآية وصرفت القوة المبذولة الآن لزرع اغراس الجاسوسية ونشر بذورها لافساد اخلاق الناس بها واستخدمت ما لها من الوسائل لتنشيط الكتاب المجيدين فانها تنقي الكتابة من الادران التي نشكو منها الآن باسرع مما يظن وتخدم البلاد خدمة يشكرها الناس عليها ويذكرها لها التاريخ بالاعظام » . انتهى

٭ ٭ ٭

وبالرغم من الحاح الجمعية لم يرجع الى العمل بهذا القانون لان مبادئ اللورد كرومر لم تكن ترضى بهِ . ثم سافر اللورد كرومر وخلفه السر غورست ودامت الحال كأن لا حكومة حتى سقطت الوزارة الفهمية الاخيرة وقامت الوزارة البطرسية فكانت باكورة اعمالها اعادة العمل بهذا القانون المدفون فأوجب ذلك زيادة الشكوى على غير فائدة لان القانون لم ينفَّذ بالحرف والتهويل بهِ احرج الطبائع التي قد تناستهُ . والظاهر من مسلك الوزارة الحالية انها تنوي تنفيذ هـذا القانون بأقصى شدته . غير ان الجمعية العمومية التي كانت تطلبهُ في الماضي ليست ميالة اليهِ كثيراً اليوم

على ان العمل بهذا القانون لا ينيل الحكومة في رأينا الغرض الذي تتوخاه منهُ الاَّ اذا كانت تريد ان ترجع بنا الى الاستبداد الاعمى وهـذا لا ينطبق على مصلحة البلاد خصوصاً اليوم ولا ينطبق على مبادئ الحكومة المحتلة وان انطبق عليها فلا ينطبق على مبادئ أمتها فسيكون وجوده علة للاضطراب والتشويش ، تارة من هنا وتارة من هناك

واذا كان الغاء العمل بقانون المطبوعات في الماضي أوجب التطرف من البعض والتهجم من البعض الآخر فان اعادته في العهد الاخير لم تأتِ بالمرغوب وزادت الشكوى ايضاً . وذلك لان الحكومة في الامرين لم تكن متوافقة مع نفسها فلم تكن حازمة في الحرية ولا مستبدة في المظاهرة بالشدة بل كانت حكومة تهويل متذبذبة في الحالين تشد

* * *

« تشكت الجمعية العمومية من تهجم بعض من اتخذ الصحافة وسيلة للوقيعة في الناس ونهش اعراضهم وانتهاك حرماتهم وطلبت من الحكومة وضع حد لما سمتهُ الجرائد « فوضى المطبوعات » وتبعها اصحاب الجرائد المهمة في هــذه الشكوى واخذ كل منهم يصف الدواء بحسب ما تراءى له . فمنهم من طلب وضع قانون للسيطرة على المطبوعات وهو دواء ليس فيــهِ شيء رادع على ما بهِ من تقييد حرية الصحافة والرجوع بنــا القهقرى اذا تبعتهُ الحكومة . وهذا لا ينطبق على غايات الحكومات الصالحة التي من واجباتها تسهيل سبل الارتقاء . وذهب غيرهم - ومذهبهم اقرب الى الصواب - الى ان القانون كافٍ لتأديب كل معتــدٍ . على ان الباحث في امراض الاجتماع كالباحث في امراض الجسم يجب عليهِ لمعرفة الدواء ان يتعرَّف اولاً اسباب الداء . وليس من ينكر ان المتطفلين اليوم على صناعة الكتابة المتدنين بها الى الطعن المحكي عنهُ لا يقصدون بذلك سوى التهويل لاستدرار المنفعة لهم وما الذي يا ترى جرَّأهم على ذلك . لا شك ان الذي فتح لاصحاب الاخلاق الفاسدة هــذا الباب الواسع هو الجاسوسية التي فشا داؤها في هذه البلاد في السنين الاخيرة الى حد لم يعهد له مثيل في مصر حتى في اعظم ايام استبداد حكامهــا السالفين وما يترتب على هــذه الجاسوسية من الاسترضاء . وقد كثرت شكوى الناس والجرائد من هذه الرذيلة التي انتشرت في طول البلاد وعرضها واستغرب العقلاء منهم كيف امكن لها ان تمتد هذا الامتداد في عهد الاحتلال ( راجع تاريخ اكثر هــذه الوريقات الساقطة ) وكثيراً ما يكون للجواسيس اليد الطولى في الحض على هذه المنشورات البذيئة فيقدمون بها التقارير ثم يسعون للاسترضاء فاذا نالوه اقتسموا المنفعة حتى صارت هذه الرذيلة اي الجاسوسية وما يترتب عليها اعظم وسائل الكسب في هذه الايام وحتى كادت تأخذ بتيارها الجارف الكتاب المجيدين بما تزين لهم من المطامع »

« فاذا كانت الجمعية العمومية والجرائد الحرَّة وعقلاء الامة وكبراؤُها يريدون ان يضعوا حداً لفوضى المطبوعات كما يقولون فعليهم قبل كل شيء باستئصال الاسباب المحرضة عليها قبل ان تجلب على البلاد شراً ليس في الحسبان . فاذا فعلوا ذلك فانا اضمن لهم بان

وبعد ان اوقفت الشفاء بأيام قليلة توجهت ذات يوم الى نظارة الداخلية وكان ذلك على عهد الوزارة الرياضية بعد سقوط الوزارة الفهمية . فلما قابلت الوزير الخطير رجل مصر الكبير سألني ما شأنك قلت له على الفور جئت لاعطل صحيفة الصحة فنظر اليَّ مندهشاً وقال لي كيف ذلك ؟ . فابتسمت حينئذ وقلت له قد أوقفت الشفاء . . . وفي اعتقادي ان الصحة «باراسيتهُ» فلا تستطيع ان تعيش بعده وهكذا كان وانقضى تاريخان في الصحافة الطبية كان عمرهما قصيراً

وأما اليوم فلا شفاء ولا صحة عادا ينفعان بعد ان تحول التدريس في مدارس الطب في مصر وسورية الى الفرنساوية والانكليزية حتى فقدت اللغة العربية العلمية بذلك أقوى ركن لها وصار من الراجح ان لا يعود لها ذلك لعدم وجود علماء باحثين فيها ولسرعة سير العلوم الطبيعية حتى صار يصعب عليها اللحاق بها

* * *

وكأن هذا الانذار الذي ضُربتُ به كان الاخير وأهمل بعد ذلك العمل بقانون المطبوعات وقامت الحكومة تقاضي الصحافيين امام المحاكم وتفتحت لهم ابواب السجون وأمَّها منهم الصالحون والطالحون فقمت حوالي سنة ١٨٩٨ بحركة في الصحافة وضممت اليَّ مدير المؤيد لالتماس العفو عن مجرمي الاقلام وكان بعضهم مسجوناً لذنوب ضد العائلة الخديوية والبعض الآخر ضد الدولة المحتلة وكأن المعية كانت أقرب الى العفو لولا ان الوكالة البريطانية أبت ان تتداخل في الامر بحجة ان ذلك ليس من خصائصها فلم نُفلح

ثم انهُ في سنة ١٩٠١ كثر التطفل على الصحافة والتهجم على اعراض الناس خصوصاً بما حلَّ من طيف حكومة الاستانة على مصر فانتقلت الجاسوسية اليها وأفسحت للجرائد المتدنية موارد الكسب من طرقها غير المشروعة وبالاتفاق مع الجواسيس حتى ضج الناس وشكا اعضاء الجمعية العمومية من هذه الفوضى وطلبوا اعادة العمل بقانون المطبوعات فكتبت المقالة الآتية تحت عنوان « فوضى المطبوعات » (١) وهي هذه

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠١

* * *

ودام اصدار الشفاء بعد هجر مصلحة الصحة له سنتين اخريين أيضاً ولكني اضطررت اخيراً ان اوقفهُ لان « حساب الحقل ما وافق حساب البيدر » فان المشتركين الذين كانوا كثيرين في السنة الاولى على الورق وكانوا سبب هذا النقار والمزاحمة على النضار كانوا قليلين عند الدفع فتمت انقيهم سنة فسنة حتى اصبحوا اخيراً كصبيرة طمسن [١] — وزد على ذلك حسن ادارة صاحب الشفاء في الاعمال المالية كما دلت عليهِ مضارباته بعد ذلك بالبورصة لعله يثري ويستطيع وحده ان يضع أساس مشروع مستشفى طالما حث السور بين عليهِ فأبوا الا ان يتسكعوا بمرضاهم على ابواب المستشفيات الاجنبية — وكأن البعض اليوم يريدون ان يكذبوا على الناس بعد مماتهم كما كانوا يكذبون عليهم في حياتهم — وحتى الساعة ليس لهم ذلك وما درى انهُ بذلك انتقل من «الشفاء» الى بحبوحة «الشقاء» وصاحب الشفاء قليل الصبر لا يحب الامور الا مستعجلة وقد اشار الى كل ذلك في ابيات من قصيدة نظمها يصف مسعاه هذا وحبوطهُ فيهِ ووقوعهُ في حبائل المشاكل قال :

قلت علّي وحدي . . . فهبّت بي الار — زاء تترى رزءًا فرزءًا دراكا

الى قوله يعزّي نفسهُ

ربّ قومٍ عابوك والعيب فيهم — لو سما فرعهم لنات السماكا
يفشل المرء لاقتضاء انطباقٍ — ان تولّى اوهى بهِ الإدراكا
ويهون الفتى بأرض هوانٍ — لو تسامت لزاحم الافلاكا
طال سيفي في غمـده مستقرًّا — وهو لو سلَّ قلمـا ان يحاكى
يصدأ السيف ان يُغلّ وسيفي — ان تجلّى يطاول الاملاكا
كم جلا الحق لو درى الناس معنا — هُ لما الظلم ساد فيهم وصاكا

والتبجح رأسمال المفلس وصاحب الشفاء ليس من غير طينة سائر الناس

* * *

( ١ ) المستر طمسن مرسل امريكاني جاء بيروت في القرن الماضي فلما قدموا له الفاكهة المعروفة « بالصبر والصبير » ايضاً تناول صبيرة واخذ ينقيها من البذر بالشوكة والسكين فما انى على آخرها حتى لم يبق منها شيء فذهبت صبيرته مثلاً

لكم أعضاء قائمة بها الافعال ما عشتم

* * *

وأنتم مثلنا تدرو نَ ما بالفعل انكرتم
بان المرء مخترع لآلات بها سدتم
لآلات متممة لاعضاء لها حزتم

* * *

فلم نسمع بمخلوقٍ لعلَّ سمعتمُ أنتم
لينطق أو لكي يمشي يقال له كما قلتم
يقال له ألا استأذن وسبقتم وضمنتم

* * *

فان نخطئ بأيدينا نعاقب بالذي صنتم
وحكم متم الاعضاء حكم العضو لا زلتم

وكان ذلك خير ما ظنت الحكومة انها تقدر ان تصلني بهِ على خير ما ظننت. اني أقدر ان اخدم الامة والحكومة بهِ اللهم الا اذا عدّت الامة والحكومة ضدين متنابذين . فقد قال لي بعضهم يوم انتقدت قرار الجمعية العمومية في مسألة القنال ما أرويه بالحرف قال. « اليوم الوحيد الذي « فازت » الامة فيه على الحكومة قمت يا حضرة العالم والفيلسوف تنتقد عملنا فدعنا في جهلنا ودع علمك لبلادك» وحتى الساعة لم اكن أدري ان الحكومة اليوم تشتغل بفكرة الشر وانها عدوة الامة وان كنت اعتقد ان الخطأ قد يتسرب الى أشد الاعمال اخلاصاً . وقد مرَّ عليَّ وأنا في مصر نحو «أربعين سنة» — ما كفى پاناس اليوناني واقل منهُ لان تتنازعهُ الوطنية الفرنساوية — شاهدتها فيها في الحالين وخبرتها في الطورين . وتعزيتي الكبرى ان وطني أعم من ان ينحصر في بقعة من الارض وان مصر الراشدة اعدل من ان تجور عليَّ بمثل هذا الحكم وقد خبرتني صديقاً مخلصاً كما خبرتها بلاداً تنسيك بحسن وفادتها الاوطان وقوماً يعيضونك بجميل عطفهم اهلاً بأهلٍ واخواناً باخوان . أو ان الصديق الصادق هو الاعمى في كل حال والاَّ فهو العدو اللدود؛ و بئس مثل هذا الصديق

ثم حدث ان الجمعية الطبية المصرية العربية المنشودة تألفت وعقدت جلستها الاولى — ولم تطل بعد ذلك جلساتها ككل مساعي الشرقيين — فقام الشفاء على عادة الجرائد يتبجح في انبائهِ عنها بقوله « هذا الذي طالما نشدناه وطلبناه وتمنيناه و . و . و . الى آخر ما هنالك من تبجحات الصحف التي لا يتم امر في العالم الاَّ وقد سبقت وانبأت بهِ . فلم يرق للصحة ان تكون الجمعية قد تألفت اجابة لنداء الشفاء فقامت تدفع مفترياته على زعمها بما كان له كالنقطة للحوض الملآن او الشرارة للافعال المتجمعة اذ ان الشفاء خلافاً للقياس الطبيعي كان قد حبل من الصحة لكثرة مساعيها المستترة وصاحب الشفاء ليس بالصحافي المدرَّب ولا هو بالمنتجع الذي يعرف كيف يستفيد وساءه ما يرى في طبائع اهل الشرق من مساعي التنابذ والتخاذل والمعاكسة والمواربة حتى تموت فيهِ كل نفس ناهضة او تنقلب الى الضدّ . فكتب مقالة شديدة اللهجة ينتقد اهل الشرق في ذلك انتقاداً مراً من كبارهم الى صغارهم ومن امرائهم الى صعاليكهم وختمها بهذين البيتين

سبقتهمُ الى التنبيه طراً بعزم ثابت حرٍّ قويِ
وكم حرّضتهم تحريض عيسى ولكن ليس لي سيف النبيِّ

فجاء هذا الكلام للخصوم « شحمة على فطيرة » وتذرعوا بهِ لدى قلم المطبوعات — وكانت طبلة اذنهِ مستعدة — الى اصدار انذارٍ مشدَّد قيل - والعهدة على الراوي - انهم مددوا الوقت حتى اصدروه ثم ذهبوا وأمضوه من الناظر في بيتهِ . وفي هذا الانذار تهديد للشفاء بالتعطيل اذا عاد الى تخديش الاذهان عملاً بالبند الثالث من قانون المطبوعات

* * *

حينذاك خطر ببالي ما كتبتهُ في هذا القانون يوم سنّهِ وما كتبتهُ الى واضع بنودهِ فنظمت كل ذلك شعراً في عرض الكلام على الانذار واثبتُّهُ في الشفاء قلت :

عجبنا كيف اخلفتم عهوداً قد اجلتكم
شرعتم غير شرع الحق — ما هذا الذي جئتم
كأنكمُ اضلتكم سماءٌ قد أظلتكم

* * *

***

في أول سنة ١٨٨٦ أنشأت مجلة « الشفاء » في الطب ولم يكن حتى الساعة صحيفة طبية في مصر ومجلة الطبيب التي كانت تصدر في بيروت كانت قد توقفت . وكان الطب في مدرسة القصر العيني والمدرسة السورية الكلية لا يزال يعلَّم باللغة العربية . وقد اشتركت مصلحة الصحة بمائة وخمسين نسخة منهُ توزعها على أطبائها . واول ما سعيت بهِ عند انشائهِ تأليف جمعية طبية مصرية عربية . وما مرت اشهر حتى ذاع صيت الشفاء وانتشر وبلغ المشتركون او بالحري الملصقة بهم المجلة عدداً وافراً أيقنت منهُ النجاح في الغايتين العلمية والمالية ولكن الى حين

وكأن خبر هذا النجاح كان مهمازاً حرك بعض محبي المعارف لانشاء صحيفة طبية اخرى . وبالفعل ما دخل الشفاء في سنتهِ الثانية حتى كانت مجلة « الصحة » المعروفة قد صدرت فاستقبلها الشفاء بالترحاب كما استقبل آدم حواء وأصبحنا كلانا نرتع في فردوس مصلحة الصحة . والظاهر ان هـذا الفردوس لم يكن ليسعنا كلينا . غير ان مجلة الصحة كانت ذات ضلع مع ادارة الصحة وذات ضلع ناعمـة وانعم من ضلع الشفاء . فاول ما شطحت نطحت كما يقول وحيد بك فنشرت في اعدادها الاولى كلاماً مفاده ان بعض الناس يرمي مصالح الصحة المصرية بتعضيد الصحة لمعاكسة الشفاء الى آخر ما هنالك . وصار رئيس مصلحة الصحة يقرأ الشفاء بعد ان كان لا يقرأه ويجد في ثناياه مغامز كثيرة ضده . وصاحب الشفاء ضيق الحوصلة تأتيهِ بالورب فيصادرك وجهاً لوجه . فما طال الامر حتى صار القرد كما في المثـل العامي يلعّب بين مصالح الصحة والشفاء اي اتسع الخلف بينهما . وانتهى بسلب الشفاء تعهد مصلحة الصحة باشتراكاتها بعد ان اجبرها بطريق المحاكم على دفعها له عن السنة الثالثة أيضاً

وعلى اثر ذلك اشتد الخلف بين آدم الشفاء وحواء الصحة حتى صارت الحال بينهما كما هي بين اكثر الرجال والنساء . فصار الشفاء اذا قال هـذا أبيض قالت الصحة بل اسود ولكن الصحة كانت في كل ذلك اكثر لباقة وان كان الشفـاء أوضح بياناً واثبت حجةً

***

معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها . فكما انهُ لا يشترط على الانسان لاستعمال رجليهِ خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر أو يديه خوفاً من ان يجني بهما لا يجوز ان يشترط عليهِ كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية . فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الطبيعية وهو القانون العام يجب ان يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الاضافية ايضاً

وكأني لم اكتفِ بذلك بل اعتبرت واضع بنود هذا القانون مسئولاً اكثر فكأني نظرت ان الحكومة أَلِفَت الاستبداد كسائر الحكومات المتقهقرة فهي لا تدرك مزايا الحرية الصحيحة المقرونة بالحزم — لان ذلك يتطلب نزاهةً وعلماً واختباراً لاستخدام الشدة اللازمة التي تقتضيها فكرة الخير من دون أدنى تذبذب وقلما كانت الحكومات الشرقية نزيهة والمستبد صارم ظالم ولكنهُ غير حزوم — وأما واضع هذا القانون — الاجنبي — فلا يجوز له ان يجهل هذه المزايا وهو يومئذٍ طريد الحرية على المشهور فكأني نظرت اليهِ نظراً أعلى لزيادة تحتير عمله في تجاهله . فارسلت له المقالة المذكورة ضمن خطاب خاص مختصر كتبتهُ له بالفرنساوية وضمنتهُ الكلام الآتي :

« عجبت كيف انكم قبلتم ان تخطوا مثل مواد هذا القانون وانتم مطرودو الحرية من بلادكم ولكن الظاهر ان لسماء مصر تأثيراً على العقول » وامضيت

ثم مضت السنون وهذا القانون حبرٌ على ورق ولا سيما ان الدول الممتازة أبت ان تصادق عليهِ . وقد راق للحكومة مرة — وقد غلبتها نعرة الاستبداد — فصادرت احدى الجرائد المنتمية لحكومة اجنبية فكلفها ذلك تعويضاً واعتذاراً

وبقي هذا القانون سلاحاً مثلَّماً في يد الحكومة كخيال الكروم عند غيبة الناطور أو حلية — وان لم يكن كذلك — مدفونة كخطوط الحكومة العثمانية الاصلاحية في العهد الماضي — حساب العهد الجديد لم يدخل في التاريخ بعد — حتى سنة ١٨٨٨ على عهد الوزارة الفهمية حيث كان الباعث على اخراجهِ من قبره سلوك هذا العبد الفقير المخدّش للاذهان . وحتى تلك الساعة كنت مخدوعاً بنفسي فلم اكن أعلم بي ذلك . غير ان حكم الانسان وان كان قد يجوز على نفسهِ أحياناً الا انهُ لها لا يجوز

ولبيان ذلك لا بد لي من تمهيد صغير آتي فيهِ على صفحة تاريخية صغيرة

# المقالة الثامنة والستون

## ﴿ حرية الطباعة ﴾

### « وقانون المطبوعات »

لم يكن للحكومة المصرية قانون او مشروع قانون حقيقي للمطبوعات قبل سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ لان الحكومة قبل هذا التاريخ كانت حكومة استبدادية قانونها في الواقع ارادة الحاكم ولو قيّدت هذه الارادة بنظام في الظاهر . ولان الجرائد كانت قبل هـذا التاريخ قليلة ايضاً . ثم كثرت الجرائد واشتدت المراقبة الدولية على اعمال الحكومة فرأت هذه ان تضع قانوناً للمطبوعات فاوعزت الى أحد عمالها الاجانب المقتدرين بوريلي بك ان يضع مواد هذا القانون وظنت انها تستطيع ان تطلقهُ على سائر المطبوعات العربيـة والافرنجية . والظاهر انهُ لم يجد اصلح لذلك من قانون فرنسا بما فيهِ من بقايا الامبراطورية الثالثة فساء ذلك جمهور الصحافيين واخذوا يتقمقمون

فكتبتُ حينئذٍ مقالة تحت اسم « حرية الطباعة » ونشرتها في جريدة مصر الفتاة التي كانت تحرر باللغتين الفرنساوية والعربيـة وتنشر في الاسكندرية والتي انشأها في ذلك العهد[١] بعض رجال الحرية من وطنيين وأجانب تحت ادارة اديب اسحق صاحب جريدة مصر والمحروسة . وكان من أنصارها العاملين المتحمسين « غوسيو » اليوناني احد عمال بنك « الانجلو اجيبسيان » قبل ان يرقى الى رئاسة ادارتهِ . وكان ينشر مقالاتهِ فيها بالفرنساوية فتترجم الى العربية

وفي هذه المقالة التي فقدت مني[٢] ذهبت الى ان الآلات التي يخترعها الانسان ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائهِ الطبيعية فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تخالف

(١) لم اتحرَّ التواريخ في كل ذلك بالضبط لان معلوماتي هذه عن ذاكرة فقط (٢) كما فقدت مني مقالات اخرى كثيرة نشرت قبل هذا التاريخ وبعده في جرائد مصر والمحروسة والطائف والتبكيت والتنكيت وغيرها

ان نصر المستأجرين رأى كل هذه الحوائل فقام يطلب الى الحكومة ان ترأف بهم كما يرأف الله بعباده . واخشى ان تعوّل الحكومة على هذا الهزّ بالحرف فتكون النتيجة سلباً وليس لهم هنا عزاءٌ كما لهم هناك في الحياة الاخرى

فاردت ان انبه هنا الى ان مطالب الاجتماع لا تدع سبيلاً للواحد ان يمنّ فيها على الآخر . فالاجتماع كما قلت سابقاً اكبر مرابٍ ولكن على عكس المرابين يرد كل شيء برباه ولو تبرعت بهِ عليه تبرعاً . لعل الافكار تنصرف الى النظر في هذه المباحث وامثالها من وجه التضامن في الحقوق والواجبات . فان ذلك احق وانجع

ولانهُ يظهر حقيقة ان اكثر الناس يظنون ان مثل هذه المطالب تهجمٌ غير معقول واحلام لا تنال ودليلنا على ذلك جريدة الاخبار نفسها مع ميلها فيما نظن الى نصر المحتجين فقامت تكتب ما يشم منهُ رائحة التثبيط ولعله التوى عليها الامر لانشغالها اليوم بامور غير هذا العالم

على انهُ يعجبني جداً ما كتبتهُ جريدة الظاهر مما يتضح منهُ جلياً ان هذه الاحلام انما هي حقائق وقد طمحت اليها انظار العالم الراقي حتى صارت فيهِ في حكم الشرائع

وقد بحثت في ذلك جريدة المقطم في مقالة ضافية بحثاً اقتصادياً محكماً تذليلاً للصعوبات وتقريباً للمنفعة المشتركة

والحق يقال ان الشركاءُ من تصرف بعض الملاك مع المستأجرين المقيمين في ملكهم منذ زمان اعتماداً على الصعوبات التي تنالهم في انتقالهم من مكان الى آخر فلذلك يختارون اخف الشرور بالبقاء على القديم او بقبول الزيادة مضطرين . والاَّ فان هناك ناموساً اجتماعياً طبيعياً لا بد ان يعدل كل شيء . واذا طالت الحال على ما هي — ويخشى ان تطول وتشتد ما دام الحكومة لا تبدي ولا تعيد — فلا بد من نزول الاجور الى حد يفوق حد التصور خصوصاً بهذا التشبث من الفريقين

ونعم ماقام بهِ المحتجون من تنبيه الجمهور الى ماله من الحقوق للمطالبة بها ولو لم يكن الآن لمثل هذه المظاهرات سوى تمهيد العقبات الاجتماعية للمستقبل لكفى بها نفعاً الاَّ اذا اشتد الفريقان فتكون الفائدة في جانب الاقوى ولعلهما لا يفعلان حرصاً على منافعهما المتبادلة

ومتى عمل بهذه القاعدة الذهبية « وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم » علم ان الاجتماع لا يرجى صلاحهُ الا بالعدل في التعاون

ومتى فهمنا ان الاجتماع لا يقوم الا بافراده علمنا ان حق الفرد على الكل مثل حق الكل عليهِ

ومتى علمنا ان هذه الحقوق طبيعية لا وضعية علمنا انهُ لا يمكن الاخلال بها حتى يختل نظام الاجتماع نفسهِ . وعلمنا ان كل ما نصنعهُ في الاجتماع من حسن نثاب له وان كل ما نأتيهِ من قبيح نعاقب عليهِ . لا بالشرائع الوضعية بل بالشرائع الاجتماعية الطبيعية نفسها

فان اصلحنا حال الفقير دفعنا عنا شرور الجنايات وشرور الاوبئة من فساد اخلاقهِ وفساد معيشتهِ بقذارتهِ

وان اعتنينا بالمريض دفعنا شرور الامراض وانتشارها بيننا وتأصلها فينا . فما نفعله مع كل واحد في الاجتماع يجب ان نفعله حرصاً على مصلحتنا ومصلحة الاجتماع نفسهِ التي هي مصلحتنا ايضاً وما نطلبهُ منهُ يجب ان نطلبهُ كذلك

فلا استرحام اذاً ولا تمنين

وما دفعني الى هذا القول الا ذهولنا عن هذا المبدأ الذي تؤيده نواميس الاجتماع وآراء المصلحين والشرائع الدينية نفسها

هذا الذهول منا واقع في كل اعمالنا كما تدل عليهِ شرائعنا المدنية ولو اقرها الاجماع فالاجماع لا يكسبها متانة ما دام هو نفسهُ عمل عقل متعدد في رؤوس كثيرة ليس للكثرة فيهِ مزية على العقل الواحد

وكما يدل عليهِ ايضاً سلوكنا نحن انفسنا في اكثر مطالبنا . وخصوصاً سلوكنا اليوم في مطالب المستأجرين وسلوك اللجنة نفسها المدافعة عن حقوقهم

وكأني بالجميع رأوا تراكم الصعوبات من حوائل النظامات ومجرى الافكار فقاموا يستلينون القاسي من الشرائع بالاستعطاف وينبهون الغافل من الحكام بالاسترحام كما فعلت اللجنة في عريضتها الى الحكومة وكما فعل مكاتب البصير نفسهُ . فانهُ بعد

أرقى منا ان نسعى لكي نبني على اساس أحسن . وهل من الحكمة أو من العدل اذا كانت نظاماتنا المعتلة المختلة تقيم الحوائل دوننا ودون مطالبنا ان نعتبر هذه المطالب أفكاراً عقيمة وأحلاماً كاحلام الشعراء . وكم من هذه الاحلام الاجتماعية التي كانت تعد هكذا في عصور خلت صارت حقائق باهرة اليوم

والمسائل التي ذكرتها في مقالي السابق تنحصر فيما يأتي :

أولاً حق الفرد على الاجتماع كحق الاجتماع على الفرد

ثانياً اطلاق مبدأ « العرض والطلب » على جميع معاملات الانسان الحاجية والكمالية نقص في الشرائع وحيف عظيم

ثالثاً المسكن كالقوت والفحم الخ حاجي وأهم من هـذا الاخير وما يجوز على الواحد يجوز على الآخر

رابعاً اذا عسر الفصل في مسألة المساكن فليس لان المسألة يجب ان تخرج عن هذا الحد بل لان النظامات في الاجتماع ناقصة

خامساً شرائعنا نحن خصوصاً ناقصة نقصاً مركباً والحيف يقطر منها من كل اطرافها

سادساً حكومتنا اقل ما يقال فيها انه لا يصح ان تعتبر حكومة ذات نظام معلوم

فهل من راءٍ غير ذلك ؟ ومجال القول ذو سعة

## المقالة السابعة والستون

### ﴿ حقٌّ لا صلف (١) ﴾

« وواجب لا رحمة »

متى عرف الانسان في الاجتماع واجباته كما يعرف حقوقهُ قلّت الشرور من بني البشر ومتى فهم الانسان جيداً معنى قوله « حب قريبك كنفسك » عرف غرض الشارع الاجتماعي ونال اجر عمله ان لم يكن في الدارين ففي هذه الدار اولاً

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٨

# المقالة السادسة والستون

## « الحاجيات والكماليات [1] »

قرأت تعليق المؤيد على ما كتبتهُ بخصوص شكوى المستأجرين ومسألة « العرض والطلب » وشكرت لسعادة صاحبه الفاضل الشيخ علي يوسف لاهتمامه بالنظر في المواضيع التي بحثت فيها بحثاً اجمالياً وان كان قد خالف نظره نظري في بعضها لان كلامي لم يذهب عنده من غير صدى . ولعل ما علَّقهُ المؤيد لا يكون الوحيد والاخير وأنا منتظر أن جمهور المفكرين يشتركون في هـذا البحث الاجتماعي الاقتصادي الذي هو لنا أهم جداً من جميع المباحث الاخرى العقيمة السياسية . وما نحن في مركز سياسي يعوَّل فيهِ على كلامنا بشيء عظيم . فلا اقل من ان نهتم بشؤوننا الداخلية لعلنا بتعمقنا في المسائل الكبرى الاجتماعيـة نلقي اساساً متيناً نقيم عليه بناء اصلاحنا المنشود ولا سيما ان كلامي أعم من ان يقتصر على غرض واحـد من أغراض الاجتماع أو طائفة واحدة من طوائفهِ وسأنتظر ما يكون لجمهور كتّابنا من الجولة في هذه المواضيع لاستئناف البحث معهم فيها على ما يقتضيه المقام حينئذٍ

فاني اشرت في كلامي الماضي الى جملة امور اعتبرتهـا من النقائص في نظام هيئتنا الاجتماعية سواء اقتصرت علينا وحدنا او شملت أرقى الامم اليوم ووجود النقص في هيئة راقية ليس بحجة علينا للوقوف حيث نحن واقفون وللاغضاء عن عيوبنا ساوت عيوبهم أو زادت عليها مكتفين بهـذه المقابلة وناظرين فقط الى مقامنا النسبي بالقياس اليهم في ما زاد منها . فما هذا بالدليل الذي يجب ان يمنعنا عن ان نفتكر ونصبو الى الاحسن . كيف لا والقلاقل التي نراها تمزق احشاء المجتمعات الراقية كما نسميها اليوم أليست دليلاً كافياً على ان تمدنها الذي تفوقنا فيهِ شامل لعيوب كثيرة هي سبب هـذه القلاقل مما يدل على انه ليس التمدن الحقيقي بل طور انتقال اليهِ أفلا يجوز لنا وان كنا أحط ممن هم

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨

بين الضروريات وغير الضروريات أي بين الحاجيات والكماليات

ولقائل ان الساكن مخير في ان يسكن البيت الذي يناسبهُ وهذا يساعد على هذا التعديل وعلى ذلك اجيب بان الشكوى ليست من ذلك فقط بل من اغتنام أصحاب المساكن غالباً فرص وجود السكان فيها لكي يحرجوهم اما بقبول الزيادة واما بالخروج لعلمهم ما عليهم في ذلك من الصعوبات فيضطرون لقبول أحد الشرّين والا عرّضوا أنفسهم لشر ثالث وهو قضاء القانون عليهم بناء على مبدأ « العرض والطلب » المعتبر للمالك حتماً مقرراً

على ان في جميع الشرائع متسعاً لذلك الا التي ضُربت بالقانون واكثر الحكومات حتى تلك التي نظن بانفسنا اننا أرقى منها تهتم بالامر واما نحن فنأكل الرغيف ممزوجاً بالتراب ونشارة الاخشاب ويتقاضوننا أسعار المآكل كما يشاؤن ويتحكمون في أجور المنازل وينصرهم القانون وما ذلك الا لان شرائعنا صارت بهذا التحوير والتبديل نتفاً من شرائع غير ناضجة وحكومتنا خليطاً من حكومات متنابذة فنحن اليوم معهما كما في المثل القائل « اسلم الظهر ومات العصر » فعيسى انكره ومحمد لم يعرفهُ فنحن لم نبلغ فيهما مبلغ الحكومات الراقية ولا حفظنا من شرائعنا حسناتها

وهنا لي كلمة اوجهها الى المحتجين فاقول لهم انتم محقون في شكواكم وانتم في الاجتماع أعضاء لازمون لكم عليهِ مثل ما له عليكم وانتم مظلومون ايضاً وظالمكم حكامكم وشرائعكم فلا تحل عزائمكم . فقط انصحكم ان تلوذوا في مطالبكم الى جانب الحكمة حتى اذا كثر عددكم واشتد تضامنكم ولم ينصفكم الذين يجب عليهم ان يهمهم امركم كان لصوتكم صدى فوق كل صوت وليدكم مدى فوق كل يد

عنهُ والاَّ هد الاجتماع من أركانه هل يجوز ان يقال فيهِ مثل ذلك ؟ فهل يجوز ان يقال لطالب الرغيف ليقتات والماء ليروى والبيت ليأوي اليهِ ان المسألة مسألة «عرض وطلب» لا بد فيها من التراضي كالتراضي على ثمن خاتم من ماس او مطرف من خز

ومعلوم كذلك ان قيمة كل شيء في العمران تزداد بكثرة الزحام حول المنفعة الحاصلة من هذا الشيء اي انها تتوقف على عدد الافراد الذين يتألف منهم الاجتماع فرغيف الخبز تعظم قيمتهُ اذا كثر طالبوه وكذلك يقال في المسكن وسائر مرافق الحياة الضرورية . فهل يجوز والحالة هذه ان تنصرف المنفعة من هذا الشيء الى مصلحة طائفة من طوائف الاجتماع على حساب الغير مع معرفتنا ان هذا الغير هو المقوّم لقيمة هذه المنفعة حتى يجوز ان يقال ان حقه من هذه المنفعة لا يقل عن حق صاحب الشيء نفسهِ واذا صح له هذا الحق جاز له صرف المنفعة الى مصلحته كما يجوز لصاحب الشيء صرفها الى مصلحتهِ ايضاً . ولذلك كان من وظيفة الوازع القيم على مصلحة العمران أن يراعي في المنفعة مع ذلك ظروف الزمان والمكان أيضاً لتعديلها لمصلحة الاثنين والا وقع الاجتماع في الفوضى

لان في الاجتماع ناموساً هو ناموس التنازع يحمل كل واحد فيهِ بما فيهِ من حب المحافظة على الذات على ان يجدّ ويكدّ بكل ما له من القوى للحصول على احسن نصيب من هذه المنافع . الا ان هذا الناموس الذي هو من اركان القوى الاجتماعية اللازمة لارتقاء الاجتماع لا يبقى نافعاً فيهِ الا اذا بقي محصوراً ضمن دائرة معلومة تتفق فيها المنفعة الخاصة مع المنافع العامة والا انقلب الى الضد وأضر بالمصلحتين معاً فلا بدَّ اذاً من معدّل لهذه المنفعة لتبقى ضمن دائرة هذه الحدود ولذلك كان من أول واجبات الهيئة الحاكمة التي يهمها أمر الهيئة المحكومة النظر في هذه المسائل الحيوية كلما دعت الحال الى ذلك

أنا لا اجهل أن هناك ناموساً يده فوق كل يد يعدل كل شيء في العمران وهو ناموس التكافؤ ولكني اعلم حق العلم انهُ قبل ان يتم ذلك على موجب هذا الناموس يقع الحيف على كثيرين وهذا مضر بالعمران ومن وظيفة الوازع اتقاؤه . وهذا لا يكون باطلاق مبدأ « العرض والطلب » وجعله أساس كل المعاملات على حد سواء غير فارق

ينظروا فيها منعاً للحيف واتقاء للقلاقل التي قد يجر ذلك اليها حرصاً على مصلحة العمران نفسه

ومنع الحيف واتقاء القلاقل لا يكونان بالضرب على عقول الجماهير بسجف التمويه وعلى ايديهم بعصا الظلم لان ذلك يشبه ان يكون كذر الرماد على النار فلا تلبث ان يكون لها ضرام بل بتعريف كل واحد في الاجتماع ما له من الحقوق فلا يتخطاها وما عليهِ من الواجبات فلا يقف دونها . وقول هذا الصحافي يعجبني اكثر من صمت أولئك الذين يعرفون جيداً وجه الحق ولكنهم يحجمون عن ابداء رأيهم لئلا يخسروا رضى مشترك مالك والصحافة عندهم ليست الا حرفة من الحرف فهي ليست عندهم سوى تجارة رابحة

من المقرر البديهي الذي لا خلاف فيهِ ان الاجتماع لا يقوم بفرد ولا بطائفة من افراد بل بافراد وطوائف من أفراد يؤدون أعمالاً مختلفة على قدر اختلاف المنافع التي يحتاج اليها الاجتماع بحيث ان كل واحد من افراده يؤدي العمل الذي لا يستطيعهُ سواه ويستفيد من الآخر المنفعة التي لا يستطيعها وحده . وقد شبه الطبيعيون العمران بجسم حي كبير هائل وافراده بمثابة الاعضاء في هذا الجسم فكما ان الاعضاء لازمة لسلامة الجسم الحي كذلك الافراد لازمة لسلامة العمران

ومن البديهي ان من كان هذا مركزه في الجسم يكون له فيهِ مثل ما عليهِ لذلك كان لكل فرد في الاجتماع حقوق على الاجتماع نفسهِ كما ان عليهِ واجبات له . ومن المعلوم ان من المنافع في الاجتماع ما هو ضروري لازم لا يمكن الاستغناء عنهُ من غير أن يؤذي الاجتماع في اهم أركانه ومنها ما هو غير ضروري يمكن الاستغناء عنهُ بدون ضرر . والحق الذي للفرد من ذلك يسمى حاجياً في الاول وكمالياً في الثاني

فالكمالي مثل التأنق في المأكل والمشرب والبذخ في لبس الوشي وسكنى القصور فاذا استطعت ذلك فليس لاحد عليك اعتراض ولا يمنعك أحد ان تتبرع وتهب اذا شئت ولكن اذا أردت ان تبقى ضمن دائرة حقوقك وواجباتك فلا سلطان لاحد عليك في ان يجبرك على ان تتعداها وبقيت المسألة بينك وبين سائر افراد الاجتماع مسألة تراضي أي مسألة « عرض وطلب »

ولكن الحاجي مثل حق الاكل والشرب والمسكن الضروري الذي لا يمكن الاستغناء

ذلك فحيثما كانت سطوة الحكام ورؤساء الاديان عظيمة كان الجهل كثيراً والعلم قليلاً وحيثما كان العلم قليلاً كان الانسان فاقد الحرية قليل التسامح صعب المساكنة . وبالضد من ذلك تزول منهُ هذه العيوب وتتوفر فيه المزايا ضدها على قدر نصيبه من العلم الصحيح فدين الانسان الحق هو العلم ومزيتهُ على سائر الاديان انهُ نظيرها يعلم الانسان ما تعلمهُ الاديان ويفوقها في انهُ لا يجوز عليه ما يجوز عليها من تحكم الانسان بها في الانسان ولا تقيده نظيرها بزمان أو مكان فالدين الحق هو العلم الصحيح

# المقالة الخامسة والستون

## شكوى المستأجرين (١)

« ومبدأ العرض والطلب »

قام في هذه الايام جمهور من سكان القاهرة والاسكندرية يشكون من تحكم أصحاب الاملاك انهم يتقاضونهم أجوراً فاحشة حق سكنهم . ولم يقصدوا بذلك سوى مظاهرة بسيطة ليس فيها شيء بعد من الاعتصاب الحقيقي وانما هي خطوة كبرى نحوه لعلّ الحكومة تنتبه وتستعمل حقها الطبيعي المشروع وتتداخل في هذه المسألة وغيرها من المسائل الاخرى الاجتماعية الحيوية للفصل فيها بحيث لا يقع حيف على احد لمصلحة الآخر

ولقد ذكرت الجرائد ذلك بين مصوب ومخطيء ومنهم من اراد ان يثبط عزائم المحتجين فقال ان نجاحهم مشكوك فيه لا لان الشرائع عمياء والآذان صماء بل لان المسألة حقوقية والمرجع فيها الى مبدأ اقتصادي ( اكشفوا رؤوسكم ) هو مبدأ العرض والطلب

ولو قال هذا القول قاض او محام لعذرناه لان كل مؤمن معجب بمسجده ولكنهُ قاله صحافي أقل ما يطلب منهُ أن لا يضلل وهو في مقام مرشد والجرائد تعتبر مشكاة الجمهور في المسائل الاجتماعية الكبرى ليعرف الجميع على السواء كيف يجب عليهم أن

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨

فرأى نفسهُ انهُ اثرى بسعة الارض وتقوَّى بالتناصر فقام يكتسح البلدان ويضم اليه الاقوام يدمجها فيه ليزيد ثراءً وقوة . ولقد مضى عليه ملايين ملايين من السنين قبل ان وصل الى حالته اليوم

ولكن الانسان في كل اطوار ارتقائهِ في اجتماعه لم يسر سيراً حثيثاً بل اعترضتهُ حوائل كانت تقف به تارة وتتقهقر به اخرى فسار متذبذباً وسيسير كذلك زماناً طويلاً قبل الوصول الى غايته تلك

وأهم هذه الحوائل مطامعه القريبة لجهله وقصر نظره فقام المصلح الاجتماعي ووضع له الشرائع تسد مسد هذا النقص ولكن الانسان لا يحول عن تلك المطامع مهما كان شأنهُ فاستبد الوازع بهذه الشرائع وقلبها الى غرضه فصار من الضروري ايجاد لجام لكبح جماح الحكام

فقام المصلح الديني زماناً طويلاً قبل الشارعين المعروفين وقد كان الناس يجدون في كل شيء الهاً لا يدركونه ولكنهم يخافونه ووضع الشرائع الالهية وملأها بالتقريع والارشاد والوعد والوعيد والثواب والعقاب والانسان مفتون بنفسه لا يخلد فيها الا الى الخلود لعل الحكام يرهبون فيرجعون عن ظلمهم

شرائع اجتماعية او دينية بائدة أو بادية قديمة او حاضرة غرضها واحد نبيل وهو اصلاح حال الانسان في العمران وواضعوها من انبل المصلحين غاية

ولكن الانسان الذي حارب آلهتهُ في القديم لم يكن ليعجز عن ان يستخدم الآلهة انفسهم لغرضهِ . فقام رؤساء الاديان يسطون بها على الحكام والناس لا لمصلحة الناس بل لمصلحتهم ودامت الحرب سجالاً بين الحكام ورؤساء الاديان يتراوحون الفوز يختلفون تارة ويتفقون أخرى على ظهر الانسان حتى اليوم

المصلح الاجتماعي والمصلح الالهي كلاهما قصدا بشرائعهما ان يضعا في يد الانسان سلاحاً لخيره ضد ظالميه فحوله الحكام ورؤساء الاديان لصد هذا الخير عنهُ ووقفوا بهِ سداً حتى انهم صرفوه عن اقرب الاشياء اليه وهو اكتسابه علماً من اختباره ومن ينكر فلينظر الى الانسان في التاريخ بل فلينظر الى حال الانسان اليوم في كل المعمورة بالنظر الى

ولولا انهُ ورد في مقالة الاخبار اليوم « حب الرجال للرجال » في بعض كلامها ما قد يحبّب مثل هـذا الامر لقصار العقول الذين يؤثر فيهم كلام سواهم لاعتبرتها إلماماً بشيء من المباحث البسكيولوجية والسوسولوجية التي تتناول البحث في العواطف وقوى العقل بحسب احوالنا الاجتماعية ولما اتيت على هـذا البيان الوجيز موضحاً ان الانتحار ليس فيه شيء من رجحان العقل ولا نبل العواطف ولا فيه شيء من الشجاعة التي يفتخر بهـا بين الاقران في الاجتماع انذاراً للمترشحين الذين قد يستهويهم الكلام الذي هو على ضد ذلك فيقعون في مثل هذا العمل المشجوب في كل شرع

# المقالة الرابعة والستون

## ﴿ الدين والحق [1] ﴾

الانسان لولا الجهل لما وقفت بهِ مطامعهِ القريبة الخاسرة واضاءت عليهِ غاياته البعيدة الرابحة

مطامع الانسان القريبة هي مطامع الحيوان الذي يستخلص قوته بأنيابهِ من فم سواه أو يأوي الى مغارة لا يزاحمهُ فيهـا سواه . او هي مطامع الانسان الهمجي الذي يسعى لغذائهِ منفرداً فيقضي نهاره جائعاً هالعاً ويبيت ليله خائفاً حاذراً . او هي اسرة تتقي اسرة أو قبيلة تناهض قبيلة او قوم يهاجمون قوماً او وطن يقوم على وطن . — وغايات الانسان البعيدة تناصر الانسان في كل مكان كأنهُ اسرة واحدة

فلو عرف الانسان ان تناصره هـذا يوفر له القوت والكساء والمبيت بحيث يكون آمناً على مقوّمات حياته لما هجر الراحة الى العناء والسعادة الحقيقية الى الشقاء

على ان الانسان من الحيوانات التي لا تستطيع ان تعيش الا جماعات فتألف أولاً جماعات نبتت في ارض أو انشقت من صلب وهو ارقى الحيوانات تحصيلاً من الاختبار

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

لاقتفاء خطتهِ كلما احرجتهم الحال والمحرجات في الاجتماع كثيرة من فقر وسقام وحب وغرام ولا شيء اسهل من العدوى بالقدوة حسنة كانت او رديّة

ولولا التربية السيئة المبنية على الخيال اكثر من الحقيقة وعلى الاستسلام للاماني والآمال اكثر من الاعتماد على العمل وعلى اعتبار الموهوم اكثر من المحسوس لما فشا الانتحار في هذا التمدن المضطرب لما فيه من المباديء المتناقضة لان الانتحار نفسه مخالف للمبدأ الاول المنبعثة منهُ الحياة والمتوقف عليها حفظها ألا وهو الالفة وحب الذات

فالانسان من يوم يولد الى ان يموت تتنازعهُ عوامل التربية المختلفة من بيتية ومدرسية واجتماعية وفيها كثير من التناقض ادبياً ودينياً واجتماعياً مما يجعل حياته محفوفة بالمصاعب فينشأ بسبب ذلك غير مستقل في احكام عقله متهيجاً في اعصابه قليل الاعتماد على نفسه سريع الانقياد لمن يتوهم انهم أرقى منهُ . فاذا رأَينا نتأسف على منتحر ولا نشجب عمله في آن واحد كما هو الواجب نكون كأَننا قد دفعناه خطوة بل خطوات للاقتداء به

ولذلك كانت حوادث الانتحار تزداد على ما تقدم وكما اقتبسناها من التمدن الحديث وهو تمدن في طور الانتقال حيث يشتد الخطر خصوصاً بقراءة كتب المجون المتداولة بيننا والتي اكثرها من وضع القصاصين الفرنساويين في النصف الاول من القرن الماضي وما قبله لشدة ما فيها من تجسيم الخيال الى حد التناهي في ترهيل العواطف وانزال الوهم منزلة الحقيقة ولذلك كانت قراءة مثل هـذه الكتب من شر العوامل في تربية الاحداث وفي التأثير على كل من ليست احكامه الذاتية قوية فيه . والمطلوب من الجرائد ان تبين باجلى بيان قبح هذه الاعمال لاماتة مثل هذه العواطف المرضية الباعثة عليها لا ان تكون سبباً لانمائها

فالرجولة الحقيقية تقضي على كل انسان ان يقف امام كل المصاعب كالطود الراسخ يدفعها بما في الامكان ولا يهتز لها حتى تصرعهُ قوة واقتداراً والا فهو نذل وجبان . فالشجاعة الحقيقية ليست بالانتحار بل بالصبر على الكوارث

ومن حسنات النصرانية انها تحرم المنتحر من التمتع بحق الدفن الديني ولا شك ان ذلك كان له اثر حسن في النفوس لما كان الدين في سطوته الاولى

## ﴿ روزفلت والقضاء (١) ﴾

ان الذي يعجبني من قول الرئيس روزفلت ليس تنديده بالقضاء لتمسك قضاته بسخافات فنيـة اصطلاحية تتأخر بها الاحكام وتضيع معها الحقوق بل صدور ذلك من رجل في وظيفة عمومية هي اعظم المراكز شأناً . والعادة ان الذين يشغلون مثل هذه المراكز في الهيئـة الاجتماعية تضرب الوظيفة على عيونهم حجاباً كثيفاً . ولكن الرئيس روزفلت ليس موظفاً كسائر الموظفين ولا ملكاً كسائر الملوك بل هو الرجل الاجتماعي العظيم الذي عرف ادواء الاجتماع . وكم حاول ان يجد الدواء لها خصوصاً قيامـهُ ضد شركات الاحتكار التي تفشت جداً في هـذا العصر ولا سيما في العالم الجديد . ولا يخفى ان هذه الآفة من شر الضربات الاجتماعية التي اذا لم تتدارك قبل تفاقم شرها جرت الى ثورة ليست الثورة الفرنسوية ( وهي قيام الشعب على النبلاء ) بالنسبة اليها شيئاً يذكر لانحصار تلك اذ ذاك في بقعة معلومة واما هـذه فهي قيام العمل ضد المال فشرها لا ينحصر اليوم في بقعة معلومة وفي قوم معلومين بل سيمتد لهيبهُ الى كل العالم المتمدن ومن يعش يرَه

---

# المقالة الثالثة والستون

## ﴿ بئس الاخلاص (١) ﴾

الانتحار جبن في كل احواله وهو اختلال في القوى العاقلة الى حد الجنون . فان جاز لنا ان نأسف على منتحر ونبحث في امره بحثاً نفسانياً وفزيولوجياً لنقف على ما في قواه العقلية من الضعف وسهولة الانقياد وما في تكوين اعصابه من الوهن وقبول التهييج الا انهُ لا يجوز لنا ان نبحث فيهِ بحثاً يشم منـهُ رائحة التصويب لعمله واستحسان العواطف الدافعة اليـه لئلاً يكون ذلك مشجعاً لكثيرين من ضعيفي العقول ومتهيجي العواطف

---

( ١ ) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩ ( ٢ ) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨

يوم لنفد الحبر والورق ولما وسعتني الجرائد ولنفد صبر القراء قبل ان ينضب هذا المعين . فاترك الحكم فيها للذين يعانونها كل يوم ـ ولا يعرف الشوق الا من يعانيه ـ واكتفي بالقضاة والمحامين انفسهم فليرجعوا فيها الى ضمائرهم واختبارهم فضلاً عما يلحق بهذا النظام من الاعراض التي اصبحت لازمة واغفالها يعرض الجوهر للضياع والتي هي في عرف العقلاء من السخافات المضحكة اليوم

وأما ضربهُ المثل بين العلوم القانونية والعلوم الطبية فليسمح لي حضرتهُ بان ادفع هذه المقارنة فالعلوم الطبية أساسها العلوم الطبيعية التي هي في احكامها كالعلوم الرياضية والتذبذب هو في الاهتداء الى اسرارها والخطأ المتوقف على الافراد لا يعتدّ به في بحثنا ولم احاسب حضرتهُ عليه. وأما العلوم القانونية كما هي اليوم فقد اصبحت كالعلوم الكلامية واساسها النظر وكان في الامكان ان يكون اساسها العلوم الطبيعية ولكنها حتى اليوم لم تفعل وهل ينكر حضرتهُ ان الطبيب القاضي يكون اوسع نظراً وارجح حكماً من القاضي المتشرع فقط ومن يجهل اليوم حكم الاسرار الطبيعية في افعال الانسان الاجتماعية

ولقائل يقول ان الاعتراض سهل ولكن العمل صعب فهل لك دواء لهذا الداء . وجوابي على ذلك بسيط فطري اجعلوا القضاء ابسط جداً مما هو وعمموه اكثر كثيراً . ما قولك لو كانت المحاكم بسيطة جداً وموزعة في كل مدينة وفي كل قرية على نسبة احيائها وسكانها ألا يكون الفصل في الدعاوي اسرع والنفقات خصوصاً اقل والفائدة الاجتماعية اعظم

ومهما بدا هذا القول غريباً لبعضهم فاني لا اخشى ان اقول ان المستقبل لي اي لكلامي ولكن هذا لا يتم حتى يتقلص ظل العلوم الكلامية وتعم العلوم الطبيعية وان كان مثل هذا البحث لا يفيدنا فائدة قريبة الاَّ ان ما يحدثهُ من الاثر ولو صغيراً جداً لا بد ان يختمر على توالي الايام ويفعل في العقول فعل الشرارة في الافعال المتجمعة فيعلم الجميع على السواء ان الشرائع الموضوعة والراسخ في يقين البعض انهُ لا يجوز مسها يجوز النظر فيها حتى قلبها رأساً على عقب اذا كانت غير ملائمة لمصلحة الاجتماع وهذا هو المقصود هنا

يتحصن وراء هـذا القانون . ولقائل يقول ان القضاء يسمي محامياً يدافع عن الفقير ولكن نحن نعلم كم يكاف ذلك من المشقات الاخرى حتى يسمي القضاء هذا المحامي وانت تعلم ايضاً كيف ان هذا المحامي « يكلفت » دفاعهُ غير المأجور

بل ان هذا النظام لا يفي بمصلحة الاجتماع ولا يثقل كلامي على طائفة ذات شأن اجلها كافراد وان انحيت عليهـا كمجموع فالاجتماع يشكو من نظامها مرَّ الشكوى بل هي قيـد في رجل الاجتماع وغلّ في عنقه ولولا ما يتسرب الى افرادها من مباديء العلوم الطبيعية بالعرض لا بالذات لما خطا الاجتماع بها خطوة في سبيل الارتقاء بل هي بنظامها عبء ثقيل عليه تمتص دمهُ ولا يستفيد منها فائدة حقيقية فهي كالجيوش التي بنظامهـا تحرم الاجتماع من استثمار الارض واحياء الصناعة بايديها وتحمله نفقاتها وكان في الامكان ان تكون فيه عاملة نافعة

ومن غريب المفارقات ان اساس علومهـا العلوم الاقتصادية ولكن نظامها لا يعرف للاقتصاد معنى فالوقت في القضاء لا قيمة له كان المثل الافرنجي القائل Time is money لا معنى له عنـدها وكان عمر الانسان لديها كعمر ابينا متوشالح . وقول حضرة المعترض بان هـذا من حسنات النظام الدستوري لاعطاء كل ذي حق الزمان الكافي لتأييد حقه لا يجوز الاَّ اذا اعتبر نظامه مقـدساً وانا أقول لحضرته ان هذا من سيئات النظام الاحتكاري لفائدة الحكومة وطائفة معلومة . كان هذا الحق لا يتيسر له على صورة انفع له وللاجتماع وللآداب الحقيقيـة بنظام آخر حتى ولو كان القضاء حيفاً مع قصر الزمن لكانت الفائدة منهُ أتم اذ تنصرف قوى الانسان وافكاره الى اعمال نفعها اقرب بدلاً من انحصارها في موضوع واحد وصرف العمر في المخاصمات واستنباط الحيل وخلق المشاكل مما يكون ضرره على الاجتماع مزدوجاً ادبياً ومادياً وسبب كل ذلك هذا النظام الاعوج الذي ابتلع القضاء الحقيقي في جوفه واضاع جوهرهُ في اعراضهِ . وهو لكثرة ما يقتضيـه من النفقات لم يعد في الامكان تعميمهُ فاقتصروا فيـهِ على مراكز معلومة فزالت كفاءتهُ وتبعها كل هذا العطل وزادت النفقات العمومية زيادة فاحشة

ولو اردت ان اؤيد كل قضية مما اقول بأمثلة اتخذها من نظام هـذا القضاء كل

فالقضاء ليس الغرض منهُ تشييد تلك المعاهد الفخيمة واحاطتها بكل ما يجعلها امنع من عقاب الجو على اللائذ بها فلا يدنو منها حتى تصطك ركبتاه وينعقد لسانه ويضطرب جنانه فلا يعرف كيف يدخل اليها ولا كيف يخرج منها ولا كيف يطلب منها حقاً ولا كيف يدفع بها حيفاً . يرى هناك على منصاتهم انصاف آلهة وحولهم كهنتهم فلا يستطيع ان يتقرب الى هيكل اولئك الآلهة الا بواسطة اولئك الكهنة حتى صار القضاء بذلك اشبه شيء بجوقة دينية مع الفرق بان كل انسان يستطيع ان يصلي في المعابد بنفسهِ وان لم يضمن لنفسهِ الخلاص الا بواسطة واما في المحاكم فالحوائل دونهُ كثيرة لا يقوى عليها العالم فكيف بالجاهل وينضب دونها كيس الغني فكيف بالفقير المعدم

فالقضاء ابسط من ذلك كثيراً . ويجب ان يكون اسهل من ذلك كثيراً . وقد يتعذر فهم هذه البساطة على اولئك الذين تعودوا ان لا يروا في احنائهِ الا كل تعقيد وقد رسخت هذه القضية في الاذهان حتى ان المحامي لا يسر بكسب دعواه بقدر ما يسر اذا ركب فيها متن الاغراب فخاض في كل يم ونبش احشاء الارض وحلق في الفضاء واخذ يتنقل بين الشعرى والجوزاء يناجي احياناً طوائف الجن واخرى سكان السماء وكل ذلك لكي يقول لسامعيهِ ان اذني التي بجانب رأسي هي هذه . ولو قال غير ذلك فهل يتأثر القضاء او يرتضي الزبون . حتى صار علم الحقوق بفضل هذا النظام من العلوم الكلامية البحتة التي لم تنضج ولن تنضج بعد ان كان المأثور عنها انها من العلوم الوضعية التي نضجت وكادت تحترق

وهذا النظام اذا افاد — بعد محتكريه — طائفة من الناس هم الاقوياء والاغنياء فهو لا يفيد الضعفاء والفقراء . والاجتماع معظمهُ مؤلف من هؤلاء فكيف يطمع بعد ذلك باقامة القسط بين الناس . ألا ترى ان المدعى عليه اذا لم يحضر اجاز هذا القانون الحكم عليهِ باقصى العقوبات وجاز للقاضي ان ينطق بمثل هذا الحكم خالي البال مرتاح الضمير . وما معنى ذلك ؟ معناه انهُ اذا لم يعرف المدعى عليهِ كيف يدفع عن نفسهِ كما يحصل كثيراً بمقتضى هذا النظام او اذا كان ضعيفاً لا نصير له وخصوصاً اذا كان معدماً لا يستطيع ان يكفي محامياً فلا حق له ان يعيش وحضرة القاضي لا يضطرب في حكمهِ وهو

وهـذه حجتي لدى حضرة الفاضل المحقق « ي . ش . » على قوله انهُ لولا ما لي من المكانة وهـذا من ادبهِ — ولولا خوفهُ مما سيكون لكلامي من الاثر لما عني بالرد على ما كتبت . فانا اشكره على حسن ظنهِ بي ولكن هـذا الذي خافهُ هو الذي دفعني الى ذلك ولو علمت ان كلامي سيذهب بدون اثر لما خططتُ منهُ حرفاً ولو علمت ان مكانتي هي كما يقول لكسرت من حدتي ولكن جهلي بما اعلمني به عن نفسي وعلمي بأن الاستكانة للمألوف توقع في الخمول والاستسلام دفعاني الى تشديد الوخز ولولا ذلك لمـا اضطر العقلاء في المعمورة كلها من الانبياء الى الحكماء وسائر المصلحين ان يلجأوا الى العنف في الانتقاد واستعمال السيف احياناً لحمل الاجتماع على السير في سبيل الارتقاء ولو متثاقلا في قيوده . اقول ذلك لا غروراً مني باني بلغت مبلغهم بل لشغفي بالتشبـه بهم ولو اني في سبيل ذلك اجهل فوق جهل الجاهلين

ولكن من أين ابتـدئ فان الموضوع كالتنين ذي الرؤوس الكثيرة ولو جاريت حضرة السائل في الاقتصار على الرد على أسئلتهِ لقطعنا القول في أشياء مهمة ولكان فاتنا اشياء اكثر وأهم وما ضربتها في مقالي الا مثلاً من امثال لو أردنا كلامنا ان نتعقبها كلها للزمنا ان نلازم القاضي في غرفته والمحامي في محفظته والمدعي والمدعى عليه في شكواهما والاجتماع كلهُ في نظامه

وليس ذلك فقط بل لو جاريتهُ لانصرفنا عن النظر في الكليات التي هي موضوع كلامي الى البحث في الجزئيات التي يتسع لنا فيها مجال المغالطات وينتهي الكلام فيها على غير نتيجة مرضية وهـذا ليس غرضي بل غرضي هو ان اوجه نظر الباحث الى ان هذا النظام الموضوع كما هو موضوع لا يفي بالغاية التي وضع لاجلها . وليس ذلك فقط بل انهُ في جملته مناف لهذه الغاية . ولا ريب ان كثيرين سيستغربون قولي هذا لاول وهلة ولكن استغرابهم هذا لا يلبث طويلاً حتى يتحول فيهم الى تفكير وهذا هو مستصغر الشرر المقصود لايقاد نار الثورة في الخواطر احداثاً للاصلاح المطلوب فلا يمنعهم الوجوم المكتسب بالاعتقاد الراسخ من القيام في وجه كل نظام لا يفي بمصلحـة الاجتماع مهما عززتهُ الرهبة

وهو حق للجمهور وواجب على ولاة الامر ولكن على اولئك الولاة الذين يهمهم امر العباد واين هم بعد ان يتربصوا في مناصبهم . ولفعلوا لو دروا ان محاكم اليوم سخرية الغد» . اه

فأقام البعض القيامة عليَّ في الجرائد فكتبت المقالة الآتية :

## المقالة الثانية والستون

### « من اين ابتدئ [1] »

ليس اصعب من مصادرة المقرر المألوف . هذا يقول لك انه منزل وذاك يقول انهُ مقرر بالاجماع وقم ناضل بينهما . وكل قضية من ذلك معقل تخور دونهُ قوى اعظم الجيوش فكيف بافراد لا حول لهم سوى جرأة القول ولا سلاح لديهم سوى رأس اليراع . ولكن رب قول كان ألهب من شرارة الكهرباء ورب قلم كان امضى من السيف

قامت عليَّ قيامة الكتاب من كل صوب لقيامي على القضاء ونظامه ولم يقم لي حتى الآن نصير الا في مثوى الضمائر ولكنهُ لم يجسر ان يجهر بالحق عملاً بقول الشاعر

اذا قلت المحال رفعت صوتي      وان قلت الصحيح اطلت همسي

وأما الذين نسبوا كلامي الى الغرض فهؤلاء دعهم في ضلالهم يعمهون فما ينالون مني غرضاً حتى يشفوا من غرضهم او اصاب بمرضهم . وأما الذين وجدوا ان نوري ظلمة وان ظلمتهم نور فدعهم في نور ظلمتهم يتخبطون وما ربك بظلام للعبيد . واما الذين اتوني من طريق العقل فاني لا انكر عليهم ما في كلامهم الراجح من القول السديد والاعتراض الوجيه . فهم لا ينكرون ضمناً نقص القضاء ولكنهم يقفون حائرين امام الصعوبات فهؤلاء اعيد عليهم قول الامام الغزالي « لو لم يكن في ذلك الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لكفى بهِ نفعاً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة »

---

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩

# المقالة الحادية والستون

## ﴿ اصلاح القضاء (١) ﴾

كنت قد كتبت كلمةً أنتقد فيها القضاء جاء فيها ما ملخصهُ :

« منصة القضاء مقدسة لا يجوز مسها كمحراب المصلّي ولكن هذا لا يمنعني هنا من ترديد هذين البيتين

قتل امرءٍ في غابةٍ جريمـة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيهـا نظر

يسطو اللصوص على جمع فيجرحون وينهبون ويضبطون متلبسين بالجناية فقد يعفو القضاء عنهم لان هفوة في الشكل تمنعهُ عن النظر في الاصل فيضحي القضاء الجوهر مراعاة للصورة . وهذا كرفض سماع كلام المحامي القانوني اذا لم يكن مرتدياً ذلك الثوب « الكرنفالي » أمام مذبح المرافعة . تقوم القيامة بين عناصر الامة فيكثرون من البذاء والقول الهراء والسب والشتم والتقبيح بما قد يدفع الى ثورة داخلية ومع ذلك لا تحرك الحكومة لهذا الامر ولا تجد النيابة مسوغاً للتداخل فيه لإيقافه عند حد لان المحافظة على الآداب العمومية والسلم العمومي ليست من الامور التي يستدركها القضاء وينهض لها من نفسه مع انهُ قد ينهض احياناً لانتقادٍ يمسُّ الافراد وقد يكونون ممن لا يصل الانتقاد اليهم بأذًى

تقوم دعوى بين اثنين فيجدان في ثنايا هذا القانون متسعاً لان يتخاصما ويتشاكلا ويتجاولا في هذا المضمار أشهراً وسنين وربما تركا هذه الدعوى بعد ان اكلت عمريهما إرثاً لاعقابهما وقضاؤنا يعد نفسهُ مع ذلك رحمة للعالمين

وبعد هذا اذا طلبنا اصلاح القضاء في شكله . في اصله . حتى في قضاته فهل نلام

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩

وجد لنفسهِ مخرجاً فيهِ لم يخجل منهُ . فهو يخجل من الصورة لا من الحقيقة . ومن العرض لا من الجوهر . لذلك كان في كل افعاله تحت هذا السلطان

« ثو » ليس بالمجنون فيعامل كالمجانين . والاَّ فالناس جميعهم شركاؤه في مثل ظروفهِ . وهو هنا ليس بالمسئول حتى يجب عليهِ القصاص

الانسان مهما عقل فلا ينجو من ان يكون تحت تأثير عوامل اشتداد الحاجة وتهييج العواطف

اذا عض الجوع انساناً بنابهِ . او ثار بهِ الغضب الى الدرجة القصوى فارتكب الجناية سداً لجوعهِ واطفاء لغضبهِ — فهل يعد مجنوناً ؟

ولماذا المسوغات التي دفعت ( ثو ) الى ارتكاب جنايتهِ لا تنجيهِ من القصاص الا اذا قضينا عليهِ بالجنون المطبق ؟

نظام الشرائع حكم على المحامين فلم يكن في وسعهم ان يحكموا الاَّ بأحد امرين . وحكم على الاطباء فاختاروا أهون الشرين . وأفقدهم جميعهم الشجاعة فكذبوا على العلم وكذبوا على الحق

« ثو » جنى لانهُ ليس في الشرائع ما يصونه من هذا العدوان . والذين برؤوه كذبوا لانهم لم يجدوا فيها مخرجاً آخر لنجاته . وان كانوا قد اظهروا كل هذا الاهتمام فالفضل للاصفر ذي الوجهين

فويل للفقير

وسيخرج « ثو » من البيمارستان سليم العقل ويوضع تحت المراقبة — ثم يطلق من قيودها

اذا كانت الشرائع حقاً فالعقل رزيئة . واذا كان الغنى قوة فالفقر لا شك جناية

***

وأما وجوده في المارستان فلا تضييق فيهِ عليه لان ثروته تضمن له كل ما يتوق اليه من الراحة

واذا بهِ شاب غرانق وقد صار عشاه حوراً معروفاً وانحناء ظهره قواماً موصوفاً . ولكنهم ما لبثوا ان اهتدوا اليها حتى ضلتهم الالهة لئلاَّ يشاركوهم في ملكهم

مسكين قاريء كتاب ( اسرار الكون ) اليوم بالقياس الى قاريء كتاب ( عجائب المخلوقات ) في الماضي !

## المقالة الستون

### حكم كاذب [1]

كذب القضاة . وكذب الاطباء . وصدق المال

برأ المحلفون « ثو » قاتل مقلق راحتهِ ومثير غيرته . ومراود امرأته . والمتباهي بفعلته . والمتناهي في قحته

كذب القضاة — لا لانهم برؤه — بل لانهم فقدوا في حكمهم كل شجاعة فلم يصغوا الى صوت الضمير وحكم العقل

وكذب الاطباء — لا لنسبتهم الجريمة الى جنون طاريء عليهِ بل لاعتبارهم الجنون فيـهِ ملازماً

وكذب « ثو » لانهُ بعد ان ارتكب الجريمة وثاب اليهِ رشده جاراهم . وجبن لانه لم يقض عليهم بالقضاء عليهِ

ولم يصدق الا «قاضي الحاجات» الذي يحل شاش ... القاضي و يعقد لسان الطبيب

ولماذا هذا ؟

لان شرائع الانسان تريد ذلك

الانسان لا يخجل من الكذب نفسه . امام نفسه . بل يخجل بالنظر الى سواه . فاذا

---

( ١ ) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ على اثر حكم القضاة بالجنون على « ثو » قاتل عشيق امرأته ومهينها في حضرته كان لم يكن لهم مخرج آخر يقي القاتل اصوب وأنزه وارفع

جداً كل ما يستطيعهُ تصور دماغ أعظم عالم اليوم نشوان بخمرة العلم معجب بهِ وليس بين علمائنا من يجسر ان يقول انه رأى في معمله تحولاً او شبه تحول من مثل ذلك وقع لاقل كرية من كريات الاجسام الحية . ولقد ادعى بعضهم انه رأى الحياة تتولد في قارورة اختباره وما هو بالحقيقة الاَّ واهم ومن منهم اتصل ان يغلب الموت ؟ وأما في العصور الميثولوجية فقد كانوا ارقى جداً منا اليوم واحياء الموتى كان عندهم شيئاً عادياً مبتذلاً ميسوراً للغاية

وفي الحرب بين جو بيتر ابي الآلهة والجبابرة الذين ارادوا ان يصعدوا الى السماء على جبال اركموها بعضها فوق بعض اخذ ابن ساتورن اسيراً وقطع ارباً ارباً وحفظت قطعه بعضها الى بعض كما كان حياً ، فخاطها « مرقوروس » واعاد له الحياة . كذلك فعل الجبابرة بباكوس فاحياه جو بيتر وفوق ذلك اعاد له العضو الضائع وكان اخواته قد رمين بهِ بعيداً في تيرينيا

ومثل ذلك حصل لبلوبس بن تنتال ، وقد قطعهُ ابوه طعاماً لضيوفه فعرف المدعوون بالامر قبل الاكل فهاجوا وماجوا وجمعوا الاعضاء الى بعضها الا الكتف فكانها وقعت في يد من يعرف « من اين تؤكل » ، الا ان جو بيتر صنع له كتفاً من عاج وقد احكمت « منرفا » تركيبها بهِ

ولقائل ان هذه المعجزات من صنع الآلهة وأين منهم البشر ؟ على ان التاريخ فيهِ كثير من حوادث احياء الموتى بقوى اقل من القوى الالهية

حكي عن « هرقل » انه قتل بقرا « لبلوتون » وبحث في دمها واستخلص منهُ مادة ترد الحياة للاظلال التي تقطن على ضفاف نهر الستيكس في الجحيم . و « بوليد » الساحر الشهير في بلاط الملك مينوس رأى صلاً ميتاً أتاه صل آخر ولمسهُ بحشيشة معلومة فاحياه فاقتبس ذلك عنهُ واحيا بهِ غلوقوس بن مينوس سيده وكان قد وقع في برميل عسل وفطس . ويحكى ايضاً عن « اغاميذ » ابنة « اوجه » ملاك « ابينس » انهـا تعرف بعض حشائش تحيي بهـا الموتى وكان عندهم في القديم عين تسمى عين ماء الحياة وماء الشباب ايضاً فاذا شرب منها القائل

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

« الادانئيد » السائب من قعره — وهو بصورة ثور . وكان على جانب من المجون، يحب ان يلبس لكل حالة لبوسها فعلق ذات يوم بالفتاة « كليتوريس » وهي ذات قوام دميم جداً فطلب اليها ان يكون برغوثاً فأبت الا ان يكون نملة فتم لها ما ارادت

و « يونون » امرأة « جو بيتر » ذات الكبر المشهور لم تكن حسنة الاخلاق كبعلها ويوم زواجها ابطأت احدى الحور المدعوة « كيلوني » عن حضور حفلة العرس فمسختها في الحال سلحفاة وانتقمت من معشوقات بعلها فمسخت « ايو » بقرة ثم مسخت « كليستو » دباً ثاني يوم ولادتها لابنها « باكوس »

أما « باكوس » هذا فكان عنوان الظرف فجذب قلب « اريغونه » بان تحول هو نفسهُ عنقود عنب . ولما مات صديقه « امبل » حول جسمهُ الميت الى كرمة حتى يتذكره دائماً في مجلس شرابهِ وتحويل الخمور من غير الكحول لاجتذاب القلوب القاسية وامتلاك القلوب اللينة كثير في اساطير الاولين و « ابولون » كان يحب الزهور كما كان باكوس مولعاً بالخمرة . فلما غضب على معشوقتهِ « كليتيا » لفرط غيرتها حوّلها الى الزهرة المعروفة بالاليوثروب اي دوار الشمس لتبقى متجهة دائماً نحو الكوكب الذي كانت تعبده كما انهُ حوّل « اكابثه » الى النبات المسمى بهذا الاسم

و « ديانة » الغزالة الشاردة غضبت على « اكثيون » لما فاز عليها في القنص فحولتهُ الى ايل . وفنوس، ربة الجمال والاهة الحب مسخت « انكزرتوس » حجراً لان عينهُ لم تدمع وقد مرت جنازة فتى كان يهواها فاولتهُ صدوداً واما « ادونيس » الذي كانت تحبهُ فلما مات مسختهُ شقائق النعمان . و «نبتون» اله البحر تحول ثوراً لكي يمتلك قلب «ارنه» « ومارس » اله الحرب غضب على الكتريون ، لاهماله مراقبة رجوع « الاورور » اي الفجر فمسختهُ ديكاً حتى لا يفوتهُ ذلك في المستقبل . و « منرفا » الاهة الحكمة ساءها تفوق « ارخنة » عليها في صناعة النسج فمسختها عنكبوتاً وايزيس المصرية حولت الفتاة « ايفيس » يوم زواجها رجلاً نكاية بخطيبها .وفي اساطير البوذيين ان « قادومة » امرأة «شريزة» تحولت الى انثى قرد لكي تلد الجنس البشري ومنها ولد دروين واولاده فيلزمنا والحالة هذه ولا حياء في قول الحق ان نعترف بأن هذه التحولات تفوق

وغره انهُ حدد بصره بالآلات المخترعات . وترامى بهِ بين الاجرام . فما هي الاَّ عشية أوضحاها حتى استدناها وقاس ما بينها من الابعاد كانها منهُ على قاب قوسين أو ادنى. ونزل بهِ الى قلب الاجسام المصمتة ففتح المغلق ثم استنطق الطبيعة الصامتة فما لبثت ان تكلمت و باحت له بسرها المكنون . ووقف على سر نشوء الاحياء فدفعهُ الغرور من خلال ذلك الى تنسم سر التولد . وقرأ المطبوع على صفحات الهواء بخطرات الكهرباء فانكر الممتنع . وقرأ ما في الضمائر من اختلاج الافكار ، وعقد النيات في القرب والبعد فقال اني والعالم واحد . واطنب بهذا الارتقاء يفاخر بهِ السلفاء

وما آيات علمهِ التي يفتخر بهـا اليوم الاَّ مما يزدرى بهِ اذا قيست بآيات العصور الميثولوجية معجزات مبتذلات بالقياس الى تلك المعجزات . فقـد كان في تلك العصور طبقة من الناس فوق البشر واقرب الى الآلهة ، تتصرف بقوى الطبيعة العمياء كيفما تشاء من دون علم وعناء . فالساحرة « سرسه » على رواية هوميرس كانت تخضع لارادتهـا حركات الكواكب ، وتغير مجاري الانهار ، وتعرف خواص الحشائش السامة . ولم تكن مع ذلك معصومة من داء الغرام ترتكب فيهِ المحرمات الى الدرجة القصوى فكأنها بهِ أم بعض ملكاتنا المغرمات الجانيات الشهيرات في التاريخ . فكانت تقطن احـدى الجزر وحولها اربع من الحور الحسان يخدمنها وهنَّ على شاكلتها ولم يكن بينهنَّ رجل فكنَّ يرقبنَ فيـهِ الاقدار ، وويل للذي كانت تدفعهُ الامواج الى شاطئهنَّ . ولولا ان الاله « مرقوروس » رأف « بعولس » فزوده لسفره بترياق يقيهِ من شر « سرسه » لما نجا من سحرها بعد ان هاجت عليـهِ البحار واوقعتهُ هو ورجاله في شركها ولكي تستبقيهم عندها ابتدأت بان مسخت رجاله خنانيص واستبقت « عولس » على نية ان تمسخهُ هو ايضاً ولكنهُ دفع سحرها عنـهُ وعن رجاله بترياقهِ فردهم الى حالتهم الاولى الاَّ واحداً اسمهُ « غريلوس » ابى كأنه لم يرَ فرقاً بين الانسان والخنزير الا في الصورة فقط

وجوبيترا كبر الآلهة علق قلبهُ بهوى انتيلوب ، ولكنهُ لم يشأ ان تكون صلتهُ بها الا بصورة « ساتير » فمسخ نفسهُ نصف خنزير واولدها اثنين على صورته هـذه وكأنهُ رأى «اوربا» ملت صور الرجال ، فشاطرها قلبه ، الذي لم يكن يملأه شيء — كبرميل

# المقالة التاسعة والخمسون

## ﴿ آيات العصور الميثولوجية [١] ﴾

ألا قل للذي ادعى انهُ ارتقى ، فما برّ وما اتقى ، انك قد ضلات الهدى ، فقد كان الانسان أعزَّ في ما مضى ، فضلَّ وغوى ، فذلَّ وساء مصيرا

فلقد كان آباؤنا غطارفة الارض وابطال الوغى ، اذا مدوا بأيديهم الى المجد استطالوا الى العلى ، وان حدثتهم نفوسهم الكبيرة اضطربت احشاء الجحيم ، فانخلع قلب « بلوتون » رب السعير هلعاً ، وقلق سكان « الاولمب » ووقع جو بيتر القدير في التفكير

وكان الآلهة يدانونهم ويختلطون بهم ، ولهم معهم كل يوم شأن . يطارحونهم الغرام ، في الغياض والرياض ، على ضفاف الانهار وفي ظلال الاشجار ، وحول جداول المـاء المترقرق على حصباء كأنها حصى الدرّ . وينفرون عنهم الى الغابات ويظهرون لهم بمظاهر الوحوش الضارية للايقاع بهم ، أو يختبئون لهم فيها جآزر بعيون المهى لاخذهم في شراك الهوى . فاذا ملّوهم وأرادوا الاحتجاب تجلوا لهم من وراء الغيوم اصواتاً قاصفة كهزيم الرعد ، أو من خلال الهشيم لساناً مندلعاً من نار ، أو شهاباً منبثقاً من نور ، آيات بينات عذاباً لقوم وهـدًى لآخرين ، ولا يستنكفون ان يمازحوهم بالكلام ولو على لسان حمارة بلعام

وأما اليوم فبئس ما انحط اليهِ الانسان ، دودة تدب على الارض وتسعى ، منهـا المبدأ واليهـا الرجعى ، فنفرت الآلهة عنهُ ترفعاً الى سماء اولمبها واحتجبت وراء جبلها المقدس وحجبت عنهُ آياتها الا من مثل ما اوحي بهِ الى ستيد الغبين ، وما هو من ذلك المعدن الكريم الا سحالة ومن تلك الكاس المترعـة الا ثمالة . انحط هذا الانحطاط وما درى وبات مع ذلك فخوراً

فزعم انهُ بلغ من العلم حداً قصياً وانهُ امتلك ناصية المعجزات، وكشف اسرار الكائنات،

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ وهي كسابقتها خرافية ميثولوجية

كل مقترب من مغارة اللص « تمريوس » يحس بمطرقة الصداع تعمل في رأسه حتى قتلتهُ « تزت » فازالت المسبب بازالة السبب . وكانت الفصادة المهملة اليوم فوق اللازم كثيرة الاستعمال في تلك العصور وقد شفى بها « بوداليز » « دمثوس » ملك « قاريا » من مرض حار فيهِ الاطباء فكافأه بأن زوجهُ باحدى بناته وبعد خمسة اجيال منها ولد أبقراط

« وعولس » نفسه لم يكن طبيباً ولكنهُ اقتبس من معاشرته الاطباء اموراً كثيرة نافعة وقد داوى مرة « تلفوس » من جرح نبلة اصابتهُ فشفاه بمرهم صدأ الحديد على مبدأ « وداوني بالتي كانت هي الداء » وكانوا يداوون بهذا الصدأ اصحاب ضعف الباه يسقونهم الخمر وقد اطفي فيها الحديد المحمي كما يداوون اليوم أصحاب ضعف الدم بالانبذة الحديدية اما النساء العواقر فكنَّ يستشفين بالسحر وزيارة الاماكن المقدسة كما يفعل كثيرات اليوم

ومن حوادث الشفاء الشهيرة في القديم شفاء « فيرون » بن «سزوستريس» ملك مصر فانه عمي فوصفوا له ان يكتحل بمستقطر كل امرأة لم يقر بها غير رجلها فبحثوا في كل جهة وتجاوزوا ينابيع النيل حتى عثروا اخيراً على ضالتهم لا في شخص الملكة بل في شخص امرأة رجل بستاني فقير . ولما شفي الملك تزوج بها ثم احرق كثيراً من النساء اللواتي اعتبرهنَّ علة عماه وهنَّ في قيد الحياة

والارق الذي اضنى العاشق « تريبتولم » وكاد يقضي عليهِ من اليأس شفي منهُ بقبلة من « سيرس » وبمثل هذا العلاج شفت هيلانه الجميلة « تلماك » الحزين بان سقتهُ نبيذاً مضمخاً بمعسول اللمى و « باتوس » الاخرس حلت عقدة لسانه من رؤيتهِ لاسد غضنفر اعترضهُ في الطريق ومعلوم كذلك ان« بنولبس » فقدت ذراعها فاعتاضت عنها بذراع من عاج . و « اشيل » فقد عظم عقبه فوضعوا له عقباً جديدة . واذا استقصينا البحث وجدنا ان كل الطرق الشفائية المعروفة اليوم كانت مستعملة في الطب الميثولوجي فلا جديد على وجه الارض

صديقه « يولاس » أول واضع لطريقة علاج الاعضاء بالاعضاء المماثلة المعروفة « بالأو بوثرايية » اليوم

و « سرس » الاهة الحصاد كان بها وسواس سوداوي شديد فكانت تجلس دائماً الى حجر مقطبة الوجه وبينا هي على هذه الحالة من اليأس التقت بها عجوز تدعى « بو بو » فوقفت ترقص امامها رقصاً جمع الى براعة الافرنجيات خلاعة المصريات حتى أضحكتها وأزالت ما بها من العبوسة

ولما كان الناس غير معصومين من الموت عصمة الآلهة انفسهم كانوا بحاجة الى التداوي اكثر منهم وكان منهم اطباء كثيرون وكانوا يشترون الادوية من هيكل الحمى كما يشترونها اليوم من الصيدليات و « أونون » وصيفة « ابولون » تعلمت من عشيقها خواص المفردات ووضعت أساس علم العقاقير النباتية ولكن الناس رأوا ان علمهم هذا لا يكفي لان يدفع المرض والموت عنهم فلاذوا كما لا يزالون يفعلون اليوم بقوى ما فوق الطبيعة يستنجدون الآلهة في أمراضهم وكانوا يضعون كل عضو من أعضائهم وكل وظيفة من وظائف جسمهم تحت سلطان إله خاص فقد كان عندهم إلاهة للعظام تدعى « اوسيلاغو » يلتجئون اليها في الكسور والخلوع والصدوع . وإله لصيانة عفة العذارى اسمهُ « هيمن » وإلاهة لعلل النساء تدعى « منة » وإله كثير الطرب بالموسيقى اسمهُ « كريبتوس » لمداواة القراقر والرياح الباطنية !!

وكان لهم اطباء مشاهير مثل « يابيس » الذي درس الطب حباً بأبيه ليطيل حياته و « كوسيت » تلميذ السنطور ( وهو الخليط بين الفرس والانسان ) « شيرون » والذي يرجع له الفضل في رد الحياة الى «ادونيس» الجميل عشيق «فنوس» وقدجرحه «مارس» غيرة منهُ وقد ظهر له بصورة خنزير بري في غابات لبنان . و « بوداليير » الذي ابنهُ هيبا كون الجد الثاني للجد الثالث لبقراط

وكانت أمراض تلك العصور الميثولوجية كثيرة الشبه بأمراضنا اليوم فالنساء في ذلك الزمن كنّ يشكون النمش كما يشكونهُ اليوم مثال ذلك « فاس » اخت « عولس » فلم يكن شيء يعزيها عن هذا المرض الذي افقدها صفاء لون وجهها وروائع جمالها وكان

في الحال . ثم انتقم بعد ذلك من « هرقل » فطعنهُ برمحهِ طعنة لولا صناعة « اسكولاب » لما نجا بها من العرج

وفي الحرب التي نشبت بين الاغريق والترواديين زجّ « مارس » اله الحرب نفسهُ بينهم فرماه « ذيوميد » بضربة مقلاع محكمة اصابت بطنه فأخذ يصرخ من الألم كمائة الف رجل معاً حتى ملأ صراخه الفضاء ثم هرع والقى بنفسهِ بين يدي الجراح الشهير « بيون » فداواه بمساعدة الفتاة الجميلة « هيبة » وشفاه

ولم تكن الالاهات انفسهن اقل تحمساً من الآلهة انفسهم فكنَّ يخضنَ معامع الحروب نظيرهم و « فنوس » ذات الجمال الباهر لم يشفع جمالهـا بها لدى « ذيوميد » القاسي فطعنها طعنة شلت يدها فأدركتها « ديونه » ذات الحنان والمتطوعة في جمعيـة الصليب الاحمر الاولمبي وضمدت جراحها وشفتها . و « يونون » ذات الكيد الذي يضرب بهِ المثل وأم النساء بذلك خانها الهوى فاستقبلت في ثديها الايمن سهام قوس « هرقل » فداواها رئيس الجراحين « بيون » وشفاها

ولم يكونوا يداوون العلل الجراحيـة فقط في المستشفى الاولمبي بل كانوا يداوون الامراض الباطنية أيضاً واخص الامراض التي كانوا يداوونها الامراض العصبية خصوصاً امراض العقل . وقد كان « باكوس » اله الكرمة وسيد المصابين بهذيان السكارى من أعاظم مشاهير المجانين وقد عرض له وهو في « دلفوس » نوبة جنون فتهيأ له ان يبلع المسافات بلعاً فأخذ يطوف في العالم وهو يعدو عدواً سريعاً فالتقى باثنتين من اخواته فأمسكتاه وكانه وقع بهما في شرك النخاسين . ولكن « جوبيتر » أبا الآلهة الشفوق رأف بهِ وأعاد له العضو المفقود وشفاه

وهرقل سيد المشاغبين جنّ لكثرة ما قاسى من المشقات في وقائعـه الكثيرة وفي نوبة من نوب جنونه المطبق ألقى بأولاده من وصيفته « مغار » في النار . ولكن جنونه لم يطل بهِ بل انقلب الى نوب صرع وقد شفاه من احـداهن مرة المدعو « انتيسير » اذ سقاه مقادير كبيرة من الخربق الاسود ولكن نوب الصرع عاودته بعـد ذلك ولم يشف منها تمـاماً الاَّ بعـد ان أكل مخ الطير المعروف بالسماني بناءً على اشارة

اضمهُ الى فخر عصامي فوجــدت اني من سلالة الا لهة يوم فتنوا باخلاط الناس فلذت بأجدادي وزهوت بهم على كل مخلوق وضيع من ابي البشر الى الذي أبى وتكبر وكان مقره بهم النار وبئس المستقر . وعلمت ان الطب ليس من موضوعات الناس كسائر صناعاتهم بل هو صناعة سكان الاولمب وان أهله هنا من اهله هناك تربطهم فوق صلة العلم صلة الدم فهم أحق بتفهم الداء ووصف الدواء لا كالدعيّ الذي يندس بينهم ثم يرميك بدائه وينسل

فعلمت ان هرمس رب البلاغة والبيان الذي تخرج من فمه سلاسل الحكمة فتقيّد اللسان وتعصمهُ عن مواقف الخطل ومواطن الزلل اشفق على البشر فنقل اليهم من صناعة الآلهة على ما رواه القـديس اكليمنضوس الاسكندري كتباً ستة في التشريح ومنافع الاعضاء والطب والجراحـة وأمراض العين وطبابة النساء ضمنها كنوز اختباره واختبار اخوانه الاطباء في السماء اذ ان كثيرين من الآلهة كانوا يحترفون هذه الصناعة الشريفة. وأشهرهم فيها بلا منازع الجراح الشهير الاله « بيون » وقد داوى كثيرين من الآلهة المشاغبين فشفاهم من جروحهم التي كانت تعرض لهم في خصامهم بعضهم مع بعض ومع البشر انفسهم وقد ضم الى عيادته الالاهة « ديونه » الجميـلة فكانت تساعده في تضميد الجروح

فالآلهة وان كانوا معصومين من الموت الا انهم لم يكونوا في عصمة من المرض بل كانوا يتألمون في حياتهم الخالدة كسائر الناس ويقصدون الطبيب متسكعين ملتمسين الشفاء منـهُ نظيرهم والامثلة على ذلك كثيرة . فان « فولكان » بن « جوبيتر » من «يونون» ولد شنيعاً جداً فلما أبصرته أمهُ راعها ما في صورته الجاحظية . . . . . من القبح فرمت بهِ من عالي كرسي مخاضها الى بحر الظلمات ( البحر المتوسط اليوم ) فتهشم وبقي اعرج اكسح طول حياته

و « هرقل » قصد ان يزور « اتروبوس » احدى غزّالات خيط الحياة في الجحيم وكانت من غزالات حبال الهوى ايضاً فاعترضهُ « بلوتون » في الباب فطعنهُ هرقل طعنة نجلاء ادمت كتفهُ اليسرى حتى اخلى له السبيل فداواه « بيون » ببلسمه العجيب وشفاه

اليوم الارتقاء بالنشوء التحولي على الانتقال بالثورات الهمجية

هذا من الجهة الاجتماعية . ولقد اجدت انت الكلام فيها . واما من الجهة العلمية البحتة فلا اعلم السبب الذي يثير الضغائن والاحتقاد اذا تراءى للبعض ان الاديان متحولة عن الاوهام في الماضي وابدى رأيهُ في ذلك بصراحة حتى يقوم عليهِ الناقمون ويصدعونه بالكثرة ويحجونه بالقوة وماذا يضر ذلك باعتقادهم الخاص والمقام حينئذٍ يكون افسح لهم . يدعون بعضهم بعضاً الى المزاحمة هناك على كنز دائم وهم هنا لا يطيقون المزاحمة على كنز فانٍ . فيا للعجب من هذه المفارقات : استئثاريون الى حد الجشع هنا واشترا كيون بل اباحيون هناك ! فليستبدوا باموال الامم وليشيدوا بها المعاهد على ما يهوون لترسيخ تعاليمهم في الافكار وليستدروا بها المزيد وليلوذوا اليها وليقصدوها لقضاء مآربهم وليحرموا المجتمع من كل ما هو باحتياج شديد اليهِ بشرط ان يعلموه مع ذلك التساهل حتى يستطيع سواهم ان يرفع صوته أيضاً و يبدي رأيهُ بدون ان يكون عرضة للمثالب والتضييق حتى يعدم الصدق بين الناس ملاذاً وينتشر الرياء وتصير الحكمة مداجاة ونفاقاً . وما اعجب مما تقدم الا خوف الراقين منهم على الاخلاق والآداب اذا تراخت المبادىء الدينية . فلقد ربينا حتى اليوم في مهدهم واغتذينا بلبانهم كل هذه العصور الطويلة — فهل نحن اليوم — ونكاد نبصر قليلاً اسوأ حالاً منا في الماضي كلا نحن اليوم أصلح حالاً ومن المسئول عن البقية الباقية الفاسدة الكثيرة فينا سواهم ؟

## المقالة الثامنة والخمسون

### ﴿ ساعة في الماضي (١) ﴾

مللتُ الخروج ولو الى الحق وغلبتني عوامل الرجعة ولو انها ردة الى الباطل فرأيت الناس يفخرون بأجدادهم ولو انهم بهم بئس الاحفاد فتولتني السآمة من حقارة النسب ولو زانها كرم الحسب فقمت ابحث في كتب الحكماء لعلي أهتدي الى شرف عظامي

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ وهي فكاهية خرافية انتقادية

لما كسة سواه في دنياه كل يبث تعاليمه كما يتراءى له والا اشتد التنازع بينهما على نفقة المجتمع المسكين الى ان تتم الغلبة لاحدهما ولكن كلما اشتد التنازع دان حلول اجل وقرب حلول اجل والغلبة النهائية اليوم للعلم لا محالة

وبالحقيقة اذا نظرنا الى الدين والوطن نظراً اجتماعياً فان لم نستطع ان نجعلهما وسيلة لترقية المجتمع — وكيف يمكن ذلك مع اختلاف الاديان وتفرق المذاهب وهو لا يرتقي الا بالتعاون — فما الحكمة من الوقوف بهما سداً في سبيل كل اصلاح ? فاذا لم نفصل الدين عن الدنيا واتخذناه كما هو اليوم وسيلة للشقاق ولم نتوسع بالاوطان فصددنا بها عنا غوث المدنية بسدود التعصب ولم نقتبس من محاسنها ما يجعلنا شركاء في العمران متضامنين متساوين في المساعي واستمسكنا بما يجعلنا أعداء متخاذلين ونحن لا نستطيع ان نكون الاَّ متفاضلين فماذا تكون النتيجة على المفضولين سوى خسارة الدين والدنيا معاً ? ولا يفعل ذلك الاتقياء العقلاء من اهل الاديان والمخلصون في حب الوطن ولا يفعله — وهم العدد الاكثر — الا الجهلاء منهم ولا سيما المنافقون المتاجرون بهما الذين اذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون . هؤلاء هم الذين في كل امة وزمان يتذرعون بعامل الدين والوطن ويسطون بهما على الاغرار ويلصقون بهما العار فيهدمون المجتمع ويهدمون الوطن ويهدمون الدين نفسه ليبنوا على اطلالها عروشهم الى حين . وكم قامت أمة على امة ومملكة على مملكة ومذهب على مذهب لعلة دينية او وطنية طفيفة كان يمكن حلها لمصلحة الاجتماع على اسهل سبب مع بقاء الدين ديناً والوطن وطناً . وماذا يمنع اعتبار العالم كلهُ وطن الانسان الاكبر من اشتغال هذا الانسان لوطنهِ الاصغر ? ألا يشتغل الانسان اليوم لوطنهِ وهو يشتغل لنفسه معتصماً في بيتهِ ? نعم انهُ يشتغل لنفسه حينئذٍ أحسن ويكون ارتقاؤه اسهل كذلك

وقد كان الناس في الماضي لا يدركون ذلك فكانوا لاقل سبب يخدم افراداً منهم ولا يخدمهم يمثلون بانفسهم وبوطنهم وبالمجتمع كلهِ . ولكن الانسان كلما ارتقى في العلم علم مزايا الارتقاء بالسلم اكثر . والامم الراقية اليوم اميل الى التنازع العلمي والمباراة باتقان العمل ولو أبرقت وارعدت منها الى التنازع بالحروب حتى غلب بفضل العلم على المجتمع

كما لم يعدم المتنبي خير شارح لقوله

فلو سرنا وفي تشرين خمس    رأوني قبل ان يرَوُا السماكا

وعذرتك ولم اعذل الدافع او الدافعين لك الى تسنم هذا المركب وقد رأيت ذلك « الموكب » على باب « الاتحاد [١] » بل كان لهم فضل الكير ولك فضل النار لازالة الصدأ عن حديد الافكار الراكدة في مستنقع الاقتناع

مسألة الدين والوطن مبحث وعر المسالك ومجرد ذكر اسمهما يقلق الافكار المطمئنة ولو انهما بحالة اجتماعية لا تحمد ولا توجب الاطمئنان حتى انهُ لتسد لديهما منافذ العقل ولا تبقى سوى عواصف العواطف . مع ان المسألة بسيطة جداً ككل الحقائق فالدين للآخرة والوطن للدنيا . والذي يهم الانسان منهما في هذه الدار هو اصلاح حاله مجتمعاً ولا ينكر ان غرض الشارعين كل بحسب روح عصره كان هذا . ولا ينكر كذلك انهم جاؤا من اول الخليقة الى اليوم متعاقبين لاجل هـذا الغرض وقد رأوا تعذره على من تقدمهم أو اختلاف الحاجات بحسب المواطن والعصور . جاؤا متفقين في الكليات مختلفين في المرغبات والجزئيات ولكنهم جميعهم لم يفلحوا بجعل العالم ديناً واحداً ووطناً واحداً فقامت الاختلافات بين الاديان والمذاهب والمواطن عراقيل في سبيل ارتقاء المجتمع فرأى العلم ان لا سبيل الى ذلك الاَّ بفصل الدين عن الدنيا أولاً فاخذ يبث تعاليمهِ الصادقة الحرة والناس يدخلون فيها افواجاً وكلما زادت بينهم انتشاراً زادت حالهم في مجتمعهم صلاحاً ثم رأوا ان العلم كلما انتشر قلل الفواصل بين الاوطان وذكروا ما كان تخاصمهم بسبب ذلك يجر عليهم من الشقاء ورأوا مزايا التعاون الكلي فمالوا اليهِ ورأوا انهم كلما مالوا اليهِ قل شقاؤهم وكادوا يكونون سعداء ورأوا كذلك ان الاتفاق ممكن وليس حلماً فلم يعد يستهوي العقلاء تعليم آخر في مجتمعهم سوى تعليم العلم الذي اعتبروه انه الدين الحق الذي يستطيع اتيان هذه المعجزة التي عجز عنها سواه وارصدوا كل قواهم له وعلقوا كل آمالهم بهِ وتركوا للدين الغاية الاخروية يتعلق بها من شاء على شرط ان لا يتذرع بها

(١) اشارة الى ما كان قد وقع في هـذه الاثناء من تجمهر الناس وهجومهم على مطبعة جريدة الاتحاد ببيروت بدعوى الدين

العمومية التي سوف لا يقرّها المستقبل القريب انها من حقوق مصر اكثر مما هي من حقوق الصين او اميريكا . فعلى الجمعية العمومية ان احسنت رأياً النظر اليوم لا في قبول هذا العرض أو رفضه بل في تعديله وخصوصاً في كيفية صرفه في منافع مصر فذكّر علها تنفع الذكرى (١)

## المقالة السابعة والخمسون

### ﴿ الى جريدة « الوطن » في بيروت (٢) ﴾

ايها الوطن العزيز

افتقدتك هذه المرة فحسبتك وُهمت بي اني اقول باللاوطنية فحنقت عليّ فأردت ان تختبرني فاحتجبت عني . فقمت ابحث عنك وقد قيل لي انك في شاغل عني بي في التفسير والتأويل في امر لا يحتاج الى تفسير حتى عثرت عليك امس فاذا انت مضطر . وقرأت لك شرحاً يزري « بعرف الطيب » فزاد اعجابي بك ووددت لو اني المتنبي لتكون انت اليازجي . فلا اعدم حينئذ خير شارح لقولي

لا يصلح الانسان مجتمعاً ما دام فيه الدين والوطن

---

( ١ ) ولقائل ما فائدة الشركة من تمديد الامتياز وتحمل هذه الغرامة الزائدة اذا كان لا بد من سلبه منها قبل ستين سنة والجواب على ذلك ان الحال لو بقيت على ما هي عليه اليوم بين الشركة ومصر لسهل على التجارة الدولية سلب الامتياز ودفع التعويض اللازم في مدة قصيرة واما لو تم الاتفاق على التمديد وقامت الشركة باصلاحات اخرى استوجبت زيادة نفقات على القنال فان هذا التعويض يصبح اصعب ويجيز للشركة الانتفاع من امتيازها مدة اطول تستفيد منها فوائد مالية جمة لا تستفيدها هي ولا مصر ايضاً اذا بقيت الحال على ما هي عليه الآن

( ٢ ) كانت جريدة الوطن البيروتية نشرت ابياتاً لي جاء في مطلعها

لا يصلح الانسان مجتمعاً ما دام فيه الدين والوطن

وكأن الناس هناك انتقدوا عليها ذلك فكتبت مقالة بليغة بينت فيها صواب القول من الوجهة العملية وكانت الجريدة تصلني بالترتيب الا هذه المرة فقمت ابحث عنها حتى وجدتها فكتبت المقالة المذكوره اعلاه وقد نشرت في الاخبار سنة ١٩١٠

الامم هي فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم وحقوق العالم اجمع فوق حقوق كل مملكة .

بل علم ايضاً ان المصالح المختلطة اليوم يجب ان تجعل وطن الانسان العالم كلهُ لا بقعة في الارض نشأ فيها ودب عليها وان لا شريعة يجوز لها ان تحظر عليهِ هذا الحق الطبيعي المقرر بالعلم والمصلحة اليوم . بل علم الانسان من كل ذلك ان الشرائع السائدة حتى اليوم موسومة بمسيم الحيف وانهُ يجوز له الانتقاض عليها دفعاً لشرها وتعميماً لنفعها

وقد بدت في الاجتماع البشري الراقي حركة هي كل يوم في شدة لنقض القديم وتأييد الحديث . والاشتراكية التي تنتفض لذكرها اعصاب الكثيرين اليوم لانهم لا يفهمونها على حقيقتها ليست الا تمخض الاجتماع بهذه المبادئ الحديثة لاقامتها على اطلال القديم الذي لا بدّ من نقضهِ عاجلاً أو آجلاً ولكنهُ اجل بالنسبة الى نظام الاجتماع قريب . ولا يدري مبلغ سرعة هذه الحركة الانتقاضية الارتقائية الا من تروّى قليلاً في مبلغ العلوم والصنائع في ارتقائها السريع في هذا العهد الاخير . وسنن الطبيعة في الاجتماع واحدة فهي في سرعتها دائماً بالقلب كمربع البعد بحيث ان الذي كان يلزم له مئات السنين بل ألوفها لأن يتغير في الماضي صار في الامكان اليوم أن يتغير في بضع سنين

وما حملني على هذا البيان الموجز الا ما رأيتهُ من الحركة الانتقاضية الشديدة ضد مشروع تمديد قناة السويس مقابل مبلغ تتقاضاه مصر وتنتفع بهِ قبل انقضاء اجل الامتياز المضروب اي قبل ستين سنة لا تنتفع مصر فيها بشيء . وعجبت جداً لما رأيت ان اكثر الباحثين في الموضوع وقفوا فيهِ كأنهم في الماضي لا ينظرون الى ما نحن فيهِ من الحركة الارتقائية الشديدة غير حاسبين ادني حساب لما سينجم عنها من التغيرات الاجتماعيــة المهمة في المستقبل القريب . وفي نظرنا ان الستين سنة اليوم هي بمقام ستة آلاف بل ستين الف سنة من سني الماضي ستصبح فيها المواطن بالنسبة الى العالم كالمدن بالنسبة الى الوطن الواحد وتغير حقوق المرور بالنظر الى ذلك

فعسى الذين يهمهم امر مصر ان لا يذهب عليهم ذلك لئلا يضيعوا برفضهم حقاً راهناً محافظة على حق موهوم لان قناة السويس صارت اليوم للعالم اجمع من المنافع

وكانت الشرائع بناء على هـذا الفصل والتقاطع بين الافراد والجموع وبين البلدان والاقطار بسبب هذا التباعد اميل الى تأييد المصالح الخاصة المنفردة منها الى تأييد المصالح العامة المشتركة . فكانت حقوقاً ممتازة ينظر فيهـا الى مصلحة البعض لا الى مصلحة الجمهور والى مصلحة كل بلد لا الى مصلحة العالم . وكانت اكثر الآثار القديمـة لخدمة اغراض خاصة لا آثاراً ذات شأن في المنافع العموميـة . فكانت قصور ملوك كالخورنق والسدير ومقابر ملوك كالاهرام ومعابد آلهـة كبعلبك . بل صار الملك حقاً خاصاً يجيز لصاحبه ان يصدّ بهِ النفع العام . وكما قامت حقوق الافراد على هـذا الاساس الواهي قامت حقوق البلدان والاوطان وضحوا بذلك المنافع العمومية على مذبح المصالح الخصوصية

وما زال الانسان في المجتمع العمراني على هذه الحال شرائعهُ لا تتغير لجهله ومواصلاتهُ لا تختلف ومصالحهُ لا تأتلف لبعد المسافات بين البلدان حتى اوائل القرن الماضي فارتقت حينئذٍ علومه الطبيعية واكتشف البخار اولاً ثم الكهربائية ووقف على الرابطة الذي يربط قوى الطبيعة بعضها ببعض فركب البخار وامتطى البرق وانطق الجماد فتقاربت المسافات بين الاقطار المتباعدة وارتقت صناعاته جداً والذي شهدناه من ذلك في النصف الاخير من القرن الماضي وفي العقد الاول من هذا القرن لم يذكر له مثيل في مئات الاجيال بل الوفها . حتى ان الاضاءة التي بقيت آلافاً من السنين لم تتغير السراج الذي كان مستعملاً على عهد الفراعنة هو نفس السراج الذي كان مستعملاً بيننا من عهد اربعين سنة اصبحت في هـذه الآونة الاخيرة وامرها كل يوم في شأن من التفنن والابداع وقس على ذلك سائر الصناعات وسائر وسائل الانتقال بين البلدان بالبخار والكهرباء في البر والبحر وفي الهواءِ أيضاً

وكما انهُ حصل هذا الارتقاء في العلوم والمخترعات والصناعات حصـل ايضاً في الافكار فتغير نظر الانسان في الشرائع والحقوق والواجبات . فعلم عن يقين ان حقوق الافراد لا يجوز ان تبتلع في جوفها حقوق الجموع وان المنافع العمومية مقدمة على المنافع الخصوصية وان الشرائع التي لا يتوفر معها كل ذلك يجب ان تمزق تمزيقاً فضعفت سطوة الملوك وما عهدنا بقيام الشعب في وجه تبجح بعض العواهل ببعيد . وعلم ان حقوق

# المقالة السادسة والخمسون

## العالم بعد ٦٠ سنة [١]

« او امتياز قناة السويس وحقوق مصر »

ان الناظر الى مصالح الامم والباحث في حقوق الاوطان لا يسلم حكمهُ من الخطل الاَّ اذا نظر الى ذلك من خلال البحث في طبائع العمران ليقف على نواميسهِ في سيره البعيد وعلى تقلباته في اطواره المختلفة . والباحث في ذلك لا يسعهُ الا الاقرار بان حركة العمران الارتقائية اليوم اسرع جداً منها في الماضي

فقد كانت هذه الحركة في الماضي بطيئة للغاية تمر على العمران آلاف السنين وهو واقف لا يتغير سواء كان في علومه او صناعاته او شرائعهِ . يتقلب فيها على غير هدى ويعود فيها من حيث اتى

فكانت علوم اليونان وفلسفتهم وشرائعهم وسائر نظاماتهم حتى اوائل القرن الماضي موضوع بحث الاجيال التابعة يستقون منها ويتخبطون فيها ويتناقلونها لينسجوا على منوالها كأنها الغاية في الكمال والنهاية في الحسن حتى رسخ في الاذهان ان غاية الانسان من ارتقائهِ في العمران هو الوقوف عند فهم فلسفة ارسطو وطب ابقراط وكيمياء هرمس وعلوم ارخميدس . وتطبيق شرائعهِ على شرائع تلك العصور المتحيرة في ظلمات الجهل والموسومة على تباينها بميسم الاثرة والاستبداد

وكانت الصناعات بسيطة جداً وقائمة على استخدام قوى الحيوان والقوى الطبيعية الاخرى البسيطة كهبوب الرياح ومجاري المياه والجاذبية العامة فكان الناس ينتقلون من بلد الى بلد ومن قطرٍ الى قطر على الجمال والخيل والعجلات في البر والمراكب الشراعية في البحر ولا يخفى كم كان يقتضي لذلك من المشقات والزمن مما كان يجعل المسافات بين الاقطار متباعدة جداً والمصالح العامة بين الامم متباينة كذلك

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩ أول ما فتحت مسألة تمديد امتياز قنال السويس

قليلة الغور كانها مستنقعات نهر الغنج لا تعيش فيها الا النباتات المائيـة كانها طحالب هائلة واذا كان فيها حيوان فهو من انواع الحيوانات المائية الهائلة ايضاً . ورأى كذلك ان الاجسام تبدو هناك خفيفة جداً لضعف ناموس الثقل ، فيخشى عليهِ اذا تمكن من الوصول الى هذا الجرم واستيطانه ولم يغرق في الماء ولم يفطس من قلة الهواء ، ان يصبح في جوه كالدمى الراقصة على مراسح التمثيل الصامت (١)

ولكن العلم اوسع في اغراضه من ان تتولاه السآمة من غرض لم ينله فانتبه الى قول اللورد كلفين في مصـدر الحياة وقال من يدري فلعل اللورد مصيب في دعواه : فيكون المريخ معمل الحياة الاولى ومهبط الجراثيم التي تولد منها الحيوان والانسان الى هـذه الارض لكثرة مياهه ومستنقعاته ، والمـاء اصل الحياة كما هو مقرر في العلم ، وكما تؤيده الآية ايضاً « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ولكنهُ تبقى لدينا صعوبة نقل الجراثيم من هناك الى ارضنا بحيث تقاوم في مسيرها حرارة الغليان و برد الزمهرير ، ولعل العلم يكشف لنا في المستقبل امكان بقاء الحياة في مثل هـذه الشرائط المانعة كما تحفظ حياة ضيوف « بلوتون » في نار جهنمه ذات السعير (٢)

---

(١) سئل الدكتور فانديك هل الاجرام السماوية مسكونة فأجاب على الفور « اذا كانت مسكونة أرجو ان يكون سكانها من غير هذا المخلوق اللعين » يريد الانسان

(٢) من ملح العلماء ان بعضهم خطب في جمهور منهم قال ان البرد يتكون من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السماوية . فما أتم الخطبة حتى وقف اللورد كلفين وقال : أظن ان الخطيب يمزح لانه لو فرضنا تكون البرد في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الاميال ولما جلس قام اللورد ريلي وقال أنا اعرف رجلا ( يريد به اللورد كلفين ) ارتأى رأياً اغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء فقال اللورد كلفين أنا لم اجزم بذلك بل قلت بامكانه وبانه لا يمكن ان يقام دليل على فساده . وقدعقب بعضهم على هذا القول بقوله اذا صح قول اللورد كلفين فالقمر اذاً مصنوع من جبن طري لانه لا يقام دليل على فساده انتهى

على الاقلية الشاذة حكماً اطلقوه على الجميع

والظاهر ان العلم لا تهوله صعوبة ولا تصرفهُ غرابة ، فالانسان الذي لم تسعه الارض على سعتها وصغره ، ما زال من أول خلقه يتطاول الى الافلاك ، كأنهُ شاعر ان اصله من العلى ، لعله يصنع له اجنحة يطير بها اليها ، أو مراكب يركب بها الهواء كما يركب الماء ، فيسافر عليها وينتقل بين الاجرام كما ينتقل في القارات والمدن . ولكن ما كل مستطاب هين ، « ولا بد دون الشهد من ابر النحل » وحلاوة استرداد الصحة تنغصها مرارة تجرع الدواء ، فما كاد يتحقق له حلم السفر في الفضاء ويتعرض للغرق في اوقيانوس الهواء ، كما هو يغرق اليوم في محيط المـاء ، حتى بدت له صعوبات الحدود ، كأنها سد الاسكندر ، ان وصل اليهِ ، فلا يستطيع ان يتعداه ، فالهواء لا يتجاوز حداً محدوداً وهو لا يعيش بلا هواء ، وان عرف كيف يذخره لحاجته فأي هواء يركب غير هذا الهواء ، لقطع المسافات ومقاومة الثقل الذي يجذبه الى الوراء ، الى ان يقع في جو يدفعه ناموس جذبه الى الامام أو الى العلاء

ولكن الامل زاد الانسان في دنياه ولولاه لأحجم عن كل عمل فيهِ مشقة ، وقد علمتهُ مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة ان لا يجزم بممتنع ولا يستسلم لمستحيل . فأخذ يبحث ليعلم أي الاجرام يقصد اولاً فوجد المريخ اقربها منالاً ، ووجده كذلك أشبهها بطبيعة ارضهِ فوجد فيهِ المياه والثلوج ، والليالي والايام ، والسنين والفصول ، والمروج الخضراء ، ولكنهُ لم يتأكد فيهِ وجود الانسان ، حتى ولا الحيوان البري ، وكانهُ سرَّ من ذلك لانهُ يسهل عليهِ الفتح والاستيطان ، فيخلو له الجو ويستعمر جرماً كبيراً لا ينازعهُ فيهِ منازع ، وأول ما افتكر حينئذ ان يؤلف الشركات لاستثمار تلك المجاهل الشاسعة والمضاربة بها

غير انهُ عاد الى البحث فبدت له أمور كادت توقعهُ في القنوط : رأى الهواء رقيقاً جداً لا تكاد تعيش فيـهِ الا الاحياء التي تعيش بلا هواء ، ووجد الثلوج كثيرة جداً تجعل البرد هناك زمهريراً ، ووجد الليالي والايام اطول منها في الارض والفصول والسنين ضعفي السنين والفصول فيها طولاً ، ووجـد المياه كثيرة جداً تكاد تعم سطح الجرم وهي

اللاأدريين ، وهي حكمة بالغـة سل عنها كثيرين من نواب امة بني عثمان في المبعوثان ، بل سل عنهـا الحكماء النفعيين ، أي اصحاب مذهب « الأوبرتونيسم » الذين هم في الاجتماع على رأي القائل : « لا يترك الساق الا ممسكاً ساقاً » حكمة لولا انهـا ابلغ من حكمة اصحاب المبادئ ، لما صاغها شعر المولدين في قالب تتبرأ منهُ فصاحة شعراء الجاهلية وان كان يعده البعض بليغاً ، ولكن باعتبار ان البلاغة تناسب بين الصيغة والمصوغ فقط ، ألم يقل شاعرهم ؟

زعم المنجم والطبيب كلاهما ان لا معاد فقلت ذاك اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالوبال عليكما

والعجيب الغريب ان آفة الفهم لم تأتنـا في كل عصر الا من علماء الفلك واطباء الابدان، مع انهم اقرب الناس الى اختبار عجائب المخلوقات وهم كل يوم معها في شأن ، كأن المثل ما احتقرك الا من خبرك ، وما استصغرك الا من عرفك ، صحيح على سائر احوال الانسان ، ولذلك لم يكن نبي بلا كرامة الا في وطنه

وانقاد بعضهم في الاصول الى علماء الكلام الابعدين الذين لولا هديهم لما وقف الانسان في ضلاله عند حد ، ولكنهم خالفوهم في الفروع ليجمعوا بين النقيضين ، ويمسكوا الحبـل من الطرفين ، كما هو شأن الكثيرين في الاجتماع وكما فعل دروين نفسه في العلم وبعضهم رأى التخلص بالهروب ، ليدفع الحجة بنفس الحجة ، على مبدأ معالجـة المثل بالمثل ، وهـذا شأن السير وليم طمسون المعروف باللورد كلفن ايضاً ، وهو من كبار الفلاسفة الطبيعيين والرياضيين . فزعم ان جراثيم الاحياء لم تتولد في الارض وانمـا اتتنا من بعض الاجرام محمولة على بعض النيازك ، وكأن لسان حاله يقول للذين يشكّون ويستغربون : نحن في الغرابة سواء ، والذي لا يصدق فليذهب يحقق

وأما الذين وقفوا على ارضهم ، كالبلايا رؤوسهـا في الولايا ، لا يتحولون عنها ولا يُثبتون ، وهم مع ذلك يكابرون ويتفلسفون ، كهكسلي وهكل وبخنر ومن تعلق بزمكاهم فلا شك انهم من طينة القذى الذي رسب في قارورة الخلق بعد توزيع النفوس — وما من قاعدة الا ولها شواذ — فانكروا على سواهم ما هم خالون منـهُ بحكم الضرورة وبنوا

دون ان يخشوا سداً في المستقبل وكأن البشر اليوم صاروا أصلح حالاً واسهل تمازجاً عن ذي قبل حتى لا يخشى عليهم ان يقعوا في ما وقعوا فيه من الغضب عليهم في الماضي

حينئذ يسطر التاريخ لهذا القرن اعظم عمل قام بهِ البشر حتى اليوم في هـذا النفق وينقش على بابه بأحرف من نور اسم أعظم مكتشف ويسمى « نفق اوليفر لودج » ويصبح صاحبنا للاجيال الآتية رابع الثلاثة

هكذا هكذ العلماء النفعيون[١] والا فلا . واعلم ان السخافات ليست كلها في الشرق

## المقالة الخامسة والخمسون

### « المريخ او معمل الحياة[٢] »

« انتقادية فكاهية »

علماء هذا العصر متصاعبون جداً لا يتساهلون في قضايا العلم ، فقلما يقبلون قولاً لم يعززه البرهان ، وبرهانهم ليس قضايا منطقية قد تتناهى فتنقلب الى غرابة وسفسطة من مثل قولهم : لك اذن بل اذنان واذن واذنان ثلاث ، اذن لك ثلاث آذان ، بل برهانهم برهان الامتحان ، وهو برهان الحس والعيان ، ولئن كان الحس الظاهر نفسه يخدع ويقع في التوهم احياناً كثيرة ، الاَّ انهُ أقل انخداعاً من المشاعر الباطنة واسلم منها عواقب ، ولا سيما ان المشاعر الباطنة منقادة في أحكامها الى ما تنقله لها الحواس الظاهرة نفسها ، خلافاً لمن يرى لها الاستقلال

ولذلك لما اعياهم سر التولد الطبيعي ، ولم يستطيعوا ان يؤيدوه بالامتحان تلجلجوا ، فوقف بعضهم كما وقف حمار « بوريدان » بين حزمتي الحشيش ، وانضم الى طائفة

(١) لقد جاء هذا الكتاب للناس كحكة على جرب ولا تسل عن اقبالهم عليه
(٢) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

الاعظم منهُ لسكان السماء انفسهم ومن البشر لفئة صغيرة من عمال الانكليز النشيطين كستيد ومن لفّ لفه

والظاهر من قول أوليفر لودج ان الحاجز الباقي قائماً في هذا النفق والفاصل بين العالمين قد رق جداً ، حتى صار يسمع من خلاله صوت ضرب المعاول من الجانبين وربما صار أرق من دين الكافر ودليله على رقة هذا الحاجز هو سهولة التخاطب اليوم بين البشر في هذا العالم والارواح في العالم الآخر وهو يقول ان هذا الحاجز سيسقط قريباً وربما لا ينتهي هذا القرن حتى تتم المواصلة الفعلية بين العالمين

حينئذ يسهل على ابناء البشر معرفة المخبأ لهم وعلى الارواح انباء البشر بما ينتظرهم . ولا بد ان افتتاح هذا الطريق يتبعهُ تغير في نظام الارض والسماء واختلاط بين سكانهما فيتحقق في هذا العصر ما أنبئ به منذ القديم من ان سكان الارض سيصيرون بطبائع سكان السماء ملائكة ويعم ملكوت الله فطوبى للذين يعيشون ويشهدون ذلك

انما يخشى ان السياسة تتداخل في الامر فتدعي دولة الانكليز حق السيادة على هذا النفق وتضرب عليهِ رسم مرور وتحصر الامتياز فيها لان العاملين فيه من رجالها ومهما يكن من الامر فانها لا تستطيع احتكار هذا الامتياز الا سنين معدودة ثم يصبح المرور مشاعاً للعموم كما هو مصير قنال السويس — قبل ستين سنة — ولو بدفع تعويضات لها يكون القول الفصل فيها للاتفاق الدولي لا لتحكماتها هي نفسها اللهم الا اذا بقيت دولة الانكليز أقوى الدول كافة ولو مجتمعة تتحكم فيها كما تريد وهذا بعيد

ويظهر من مباحث المنقبين في العاديات السماوية ان هذا النفق كما في الميثولوجية كان موجوداً في القديم — كما كان قنال السويس موجوداً ايضاً على قول — ثم سدّ اي النفق لحصول اضطراب بين سكان العالمين كاد البشر يفسدون فيه الملائكة كما في التوراة فصوناً للمصالح السماوية وللفضائل الراقية سد هذا النفق وقضي على الناس ان يعانوا مشقة فتحه مرة ثانية قصاصاً لهم على شرورهم

فعسى ان يتم لهم هذا الفتح اليوم فيعود الناس الى معاشرة آلهتهم كما كانوا في عصور الميثولوجية وعلى عهد التوراة ايضاً ولكن بالمعروف ليستتب لهم الفتح نهائياً من

# المقالة الرابعة والخمسون

## ﴿ نفَق اوليفر لودج [١] ﴾

« وهي مقالة خرافية فكاهية »

اذا عدت اكتشافات البشر واعمالهم العظيمة في العصور من اول الخليقة الى اليوم فلا ريب أن هذا النفق الذي انبأنا عنهُ اوليفر لودج العالم الطبيعي الانكليزي والرجل السياسي أعظمها جميعها

الانكليز اشتهروا حتى اليوم باعظم الاكتشافات العلمية الكبرى فنيوتون اكتشف الجاذبية العامة وليل مذهب التعاقب الجيولوجي البطيء واستر مذهب الجراثيم في الامراض وداروں مذهب النشوء والتحول فلا غرو ان يكون مكتشف هذا النفق اليوم أوليفرلودج الانكليزي

ونفق أوليفر لودج ليس سرباً في الارض يخرج منهُ الى مكان في الارض بل هو سرب بين الارض والسماء يخرج منهُ اهل الارض الى السماء وأهل السماء الى الارض

هذا النفق الذي سيقلب العالم قلباً ويجعل الارض والسماء مشاعاً بين سكانهما — كقنال السويس بعد أقل من ستين سنة — لم ينته الحفر فيهِ ولم تتم به المواصلة حتى الآن ولكنها صارت بهِ على وشك التمام

وهو وان كان العمل فيهِ مشتركاً بين سكان العالمين الاَّ ان الفضل في حفر القسم

---

( ١ ) الف اليوم اوليفر لودج العالم الطبيعي كتاباً في البعث طبع مراراً في مدة وجيزه « ونفق » كالملح وقد لخصه المقتطف الى العربية ومما جاء فيه ان مناجاة الارواح ليست بالامر الغريب · ويظهر ان الصعوبات التي كانت تحول بين البشر وارواحهم في عالم الغيب اخذت تقل اليوم وستصبح يوماً ما امراً سهلا فكأنه امتد بين العالمين اليوم شبه نفق فتح اكثره ولم يبق الا حائل رقيق سيسقط مع الزمان وهو فكر من اغرب ما سمع حتى في عهد الخرافات الميثولوجية وللناس في اهوائهم شؤون · نشرت في الاخبار سنة ١٩١٠

الفكر كيف يجوز له ان يعلمنا الاكراه في الالحاد واذا اجاز العلم لنا ان نفتكر ونقول مثل هذا القول وننشره في الكتب ونعلمه للطلبة حتى في المدارس مبينين لهم وجهُ الصواب فيه أو الخطاء في سواه الا انهُ لا يجيز لنا ان نجعله شعاراً نعلقه على معهد عمومي للتعليم . ألا يرى اصحابنا ان ذلك ضرب من التعصب مقلوب الموضوع . ولقد طالما شكونا المضار التي لحقت بنا من تعصب دعاة الاديان . ودعاة الحرية يريدون ان يعلمونا بصنيعهم هذا التعصب للالحاد . لا لعمري ان ذلك لا يقبله أشد الملحدين تعصباً ولا يقول به منهم الا المنقادون المقلدون لا المفكرون بأنفسهم ومثلهم مثل المنقادين في تعصبهم للدين . فالالحاد وان كان نتيجة العلم احياناً الا انه ليس غرضه بل غرض العلم حل العقل من قيوده ليصير حراً يفتكر لا لغرض معلوم نشأ فيه وتربى عليه بل ليصير قادراً أن يحكم لنفسه بنفسه

وانا لنستغرب منهم ذلك ونحن اليوم في عصر نرى مرجل الافكار فيه في أشد غليانه وكلها متجهة الى غاية واحدة وهي مقاومة التعصب في كل مقاصده . لا في الاديان فقط بل في الاوطان أيضاً لان المصلحين الحقيقيين ينظرون الى العالم نظراً عامًّا ويعتبرون الوطن أعم من ان ينحصر في قوم ويقف عند حد من الارض ولذلك تراهم في سائر الممالك يسعون لتحقيق هذه الامال مادين أيديهم الى ما وراء حدودها متصافحين على ما بينها من اختلاف المنازع السياسية كأنهم يريدون أن يحققوا مقاصد كبار الوازعين من اهل الدين بجعلهم الدنيا وطناً واحداً واهلها شعباً واحداً . وكيف يتم لهم ذلك ان لم يلتفوا كلهم حول كعبة العلم الصحيح اذ يتخذونه وسيلة لهدم آخر صرح شاده الجهل في العقل ألا وهو معقل التعصب . فالعلم لا يجوز ان يبني باليد الواحدة ما يهدمه بالاخرى وان يفعل فلا يجوز ان يسمى علماً . فليتوخَّ دعاة الاصلاح هذه الغاية في معاهد التعليم فذلك ادعى لاتساع المدارك والا فهم ناشطون بها من عقال للوقوع في آخر

# المقالة الثالثة والخمسون

## ﴿ علموهم ولا تقسروهم (١) ﴾

جاء في مقدمة بخنر : « ولا يتوهمن القاريء ان مرادنا بذلك قلب الموضوع وعكس المطبوع قهراً وظلماً اي استعمال القسوة لنفي الديانات على حدّ استعمالها لتأييدها كلاًّ ثم كلاًّ وانما القصد ان الحكومات لا تكره الناس على الايمان ولا تخمد الانفاس عن ابداء ما في الصدور بل تدع كلاًّ وشأنه وتتحاشى الضغط على العقول »

ثم قرأت اليوم في الصحف عن الجالية الايطالية في الاسكندرية انها يوم تذكار محررها غريبلدي نصبت في احد معاهدها العلمية أثراً نقشت عليه الكلام الآتي « ان العلم والادب لا يدركان الا بزوال العقائد والاديان »

وقلت في نفسي التطرف من طبع الانسان أولئك اقنعوك بحدّ السيف وهؤلاء يريدون ان يحظروا عليك ان تؤم معهداً للعلم وانت لا تقول قولهم . ومن يضمن لنا ان الذين يقولون هذا القول اليوم لا يعمدون الى نفس البرهان اذا توفر لهم الحول والصول

على ان الدين والعلم بريئان من هذا التحمس . فالدين يدعونا الى الايمان ولكنهُ يقول لنا « لا اكراه في الدين » والعلم لا يدعونا الى الالحاد بل يكشف لنا الحقائق . واذا الدين قال « قاتلوا في سبيل الله » فانما يقول « قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وهذا من حقوق الدفاع العمومية . فاذا جنى عليه دعاته فاين فضل دعاة العلم اذا حذوا حذوهم ؟ وهل تدرك غاية العلم بذلك ؟

ولذلك لا اظن ان أحداً من كبار الملحدين يصوب هذا العمل لان هذا الكلام معلقاً في مدرسة من مدارس الحكومة والامة مناف لحرية الفكر التي هي غاية العلم ولا سيما ان مجموع الامة لا يقول كله هذا القول والحكومة ليست الا ممثلة الامة حتى ولو كانت الامة جميعها على هذا المذهب لما جاز ايضاً لان العلم الذي يعلّمنا احترام حرية

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٧ بتوقيع « المعيدي »

الصدق والاخلاص فكله محتمل على مبدأ قراءة الافكار والعلم عن بعد وتجسم الوهم بالاستهواء الخ . وقد يكون هو نفسه قد أباح بصورة العلامة الخاصة ولم يدرِ

ثم انهذه المعلومات نفسها التي أخبر بها ما قيمتها بالنظر الى المعلومات التي لاشك كان ينتظرها من أصحابه المتوفين والتي كانوا هم أنفسهم يعدونه بها . ولو كنت مكان ستيد لما رضيت من أصحابي المتوفين ما داموا قادرين على مخاطبتي الا ان يخاطبوني رأساً وان ينبئوني بالاسهاب بكل ما تتوق اليـهِ نفسي بالصراحة التامة فيخبروني بمكانهم وحالتهم وانطباقها على المعلوم في هذه الدنيا أم عدمه وينصحوني في ما يلزم وينهوني عما لا يلزم لا ان ينبئوني بأمور مبهمة كالاحلام وبطرائق هي أقرب الى صناعات المشعوذين من العلم . ولماذا لا يفعلون ذلك ويجعلون هكذا حياة اصـدقائهم وأقاربهم بل سائر اخوانهم في الانسانية سعيدة في الدارين ? — ولعل ستيد نفسهالمتحمس في هذا السبيل والمتطوع في هذا الجهاد العلمي من نوع غريب والذي يشعر بنقص كل هذه المخابرات المرغوبة يخبر الناس بعد عمر طويل بما لم يأتهم بهِ بشر من قبل ويحل لهم هذه المشكلة العويصة أللهم الا اذا حظر الامر عليهِ هناك لئلا تفسد على المحتكرين صناعاتهم هنا وقد اعطيت لهم امتيازاتها في عهد حكومة الاستبداد الاسمى . أما أنا فلا أظن ان ستيد مع شدة رغبته يقدر علىذلك لا لهذا السبب ولا لسواه من جنسه بل لانه . . . لا يقدر . . .

هذا جوابي على السؤال الموجه اليَّ في الجريدة وهو الاول والاخير وقد صـدرتهُ بمقدمة تمهد السبيل لتفهمه جيداً على اسلوب اقرب الى العلم منـهُ الى النظر لأبعد عني المناقشات التي هي أقرب الى الجدل خصوصاً وان الموضوع على الطريقـة التي ينحوها اصحاب هذه المباحث تلذّ المولعين بالغرائب وبقراءة الاقاصيص التي هي أقرب الى الخيال اكثر جداً مما تلذّ لسواهم ممن هم أرغب في المباحث الجافة وأنا لا أميـل الى تلك — وكأني اسمعك بعدكل هذا البيان تقول : « عنزة ولو طارت »

دارك مضطهدة الامس وقديسة اليوم وسواهم انهم كانوا يسمعون اصواتاً ولا مخاطب أو يرون أشياء لا يراها سواهم . ولو أمكن للانسان ان يتحقق بصدق شهادة الآخرين مبهمات شعوره وواضحاته لبدا الامر لكثيرين اكثر مما هو معروف . ولكن اذا لم يخنك الصدق في هذه المسائل فكثيراً ما يخونك كيفية النظر فيها وما آفة الاخبار الا رواتها . فستيد من هذه الجهة أحوج الى طبيب منا الى مثل تصريحاته

فرواية ستيد تنحصر في أمرين مهمين أحدهما يتعلق بهِ رأساً كمسألة الكتابة تحت سلطان ارادة صديقته المتوفاة و باملائها وهذا تعليله سهل جداً بالاستهواء الذاتي فكان يفعل ما يفعل من نفسه وهو يظن انه منقاد فيهِ لارادة سواه نعم هو مسخر فيهِ اذا صدقناه وانما هو مسخر لارادته المستهواة

والآخر اتصل اليهِ بواسطة اصدقائه وبالاعتماد على رواياتهم واصدقاؤه هؤلاء من جنسه بالاشتغال في هذا الموضوع وقد يكونون اخص منهُ فيهِ اذ قد يكونون أعضاء من الجمعيات الخاصة المشتغلة بهذا النوع من العرافة الشبيهة بالعلمية وكلامهم يحتمل الصدق والكذب فضلاً عن ان المروي عنهم ان لم يفسر طبيعياً أو بالصناعة فهو مع ذلك من السخافات التي لا طائل تحتها . فأصحاب هذه المباحث اما ممخرقون وخادعون أو مستهوون ومخدوعون ولا يصح ان يكونوا الا واحداً من هذين الاثنين مهما علا مقامهم . وفي العلم لا يجوز تضحية المبدأ اكراماً لعالم أو علماء مهما ارتفعت مكانتهم — كما انهُ لا يجوز اليوم في عصر الدستور ان تضحى مصالح الامة لخاطر عظيم ولو رزح تحت اثقال النياشين خلافاً لمن لا تزال تستهويهم هذه الاعراض في الامرين حتى اليوم — فان كان اصدقاؤه غير مخلصين فماذا يمنع ان يكونوا نقلوا له كل ما ذكره غير مخلصين ايضاً ان كان ما ذكره مما هو بعيد الاحتمال كأمر الصورة نفسها فليس أسهل من نقلها من صورها الفوتوغرافية بالتحليل والتركيب حتى يبعدوا سائر الاعراض ولا تبقى الا صورة الوجه فقط بزي جديد

وأما ما بقي مما يحتمل الصدق والكذب كأمر العلامة الخاصة ورسائل ابنه المتوفي وكرؤية أحدهم لصديقته دون الباقين ففي حال الكذب لا حاجة الى التعليل وفي حال

قيل الجنون فنون . وزد على ذلك ان درس أحوال الدماغ وسائر الجهاز العصبي — لان الدماغ ليس مستقلاً في الجمجمة كما يتوهم لاول وهلة بل يمتد في اصوله المشتركة الى اعماق الجسم وكل ما يعرض في هذه الاعماق يؤثر فيهِ — قد أبان لنا اموراً كثيرة هي في عداد الغرائب من مثل قراءة الافكار وسرد الوقائع الحاصلة والتأثر بها ولو عن بعد شاسع والاستهواء الخارجي والداخلي أو الذاتي ايضاً الى غير ذلك مما لا يتسع المقام لاستيفائهِ هنا وقد عللنا كل ذلك تعليلاً طبيعياً في مقال ضاف في جريدتنا الشفاء من نحو عشرين سنة واكثر وقد نقله عنهُ المقتطف في مجلد سنة ١٩٠٧ يشمل الكليات ويرجع اليهِ في الجزئيات بحيث تبدو كل هذه الغرائب في حكم المحتمل مع بقائها في دائرة سائر أعمال الانسان الطبيعية فيفسر الجليّ منها بذلك ويبحث عن الغامض حتى ينجلي سره الطبيعي على هذا القياس بشرط ان نتأكد صحتهُ لان الدجل يدخل في كل شيء والكذب كثيراً ما يلابس كل شيء . فالآن وقد تقرر هذا التمهيد الضروري لفهم ما يترتب عليهِ في امر تصريحات ستيد وأمثالها نقول :

ان ستيد الكاتب الشهير والمبرّز في فن التحبير متأثر تأثراً شديداً بتعاليم اصحاب المذاهب النظرية والتي تربيتهُ الاولى وعلومه الادبية وأشغاله الخصوصية ان لم تساعده على تمكينها فلم تعمل شيئاً لتخفيف وطأتها عنهُ مع ما بهِ من الاستعداد الخاص . فقضية النفس والحياة الاخرى كما يظهر من كلامه همته جداً مع الميل الشديد به الى ترجيح الجانب الذي تحلو فيه للانسان امانيهُ وما فتيء طول حياته تحت سلطان هذا الهاجس متردداً فيه بين الشك المكروه واليقين المحبوب حتى اصيب من هذه الجهة بنوع من الهوس امتلكه وغلبهُ على سائر قواه العقلية ووقع به تحت سلطان الاستهواء الذاتي مع استعداده لقبول الاستهواء الخارجي من هذه الجهة خصوصاً

فهو من هذا القبيل معد اعداداً خاصاً طبيعياً لشدة الانفعال وذكاؤه دليل عليهِ . ومكيف له بسلطان فوق سلطان ارادته فزيولوجياً . ومستهوى له من الخارج والداخل طبياً وهذا لا يشين الرجل ولا يمنع كونه من النابغين في فنه . فلا يجزع ولا يقم أنصاره للاخذ بخناقي فقد عرض لاناس مشهورين اكثر منه في التاريخ كقيصر ونابليون وجان

ولكن الرضى بهـذا الحد يزيل عن النفس روحانيتها وهي اوسع من ان تقع تحت حصر في نظر أصحابها وهم اذا رضوا بان يتنازلوا عن امتياز العقل الروحاني فلا يرضون بهذا الدموج النفساني فضحوا العقل في سبيل النفس ومالوا حينئذٍ ولكن على نوع مبهم الى فصلها عنهُ وحاولوا في أول الامر ان يثبتوا لها مركزاً في الدماغ مستقلاً ولو مهما كان صغيراً تجلس عليهِ كالملك على عرشهِ تأمر وتنهى وتستبد بالجسم اذا شاءت . وكأنهم لم يبق لهم اليوم مثل هذا المتكأ فصارت النفس عندهم أوغل في الابهـام لا يعرفون أين تستقر ولا من أين تدخل ولا كيف تخرج ولكنها مع ذلك موجودة والتعنت برهان ايضاً

***

فالطبيعيون رأوا كل ذلك فلم يروا ان يحيدوا عنهُ . رأوا ان لا شيء في الطبيعـة يتلاشى وان لا شيء فيها يحدث فوقفوا عند هذا الحد وقالوا ان لا شيء معلوماً يخرج الى ما وراء الطبيعة اذ يجيء من وراء هذه الطبيعة ولو شاؤا ان يبحثوا في ما وراء الطبيعة لتعذر عليهم ان يفهموا استقلال هذه النفوس او العقول أو الارواح الذاتي وهـل هي محدودة تحل في الاجسام ثم تفارق ثم تعود الى سواها أم هي خصيصة تصنع لكل مولود ثم تعود لتخزن او لتطرق وتصب ثانية ام هي كالرديف محجوزة للنجدة عند الحاجة اليها وما نسبتها من حيث الاتصال والانفصال الى مكانها سواء كان ضمن الطبيعة أو وراءها . وهذا « الماوراء » نفسه أو « الما فوق » ما هو وكيف هو وأين هو ؟ ما دام الطبيعـة نفسها مالئة الفراغ كلهُ

ولما كان الدماغ عضو العقل كالرئتين للتنفس والمعدة للهضم والكبد لافراز الصفراء كانت العلل التي تطرأ على الدماغ تؤثر في العقل ايضاً . وهذه العلل كثيرة منها ما هو كلي يلمّ بكل مراكز العقل ويحدث ما يسمى بالجنون المطبق . ومنها ما هو جزئي يقتصر على بعض مراكز كالذاكرة مثلاً أو قوة الحكم أو التصور ألخ فاما ان يلمّ بهـا كلها أو بشيء منهـا فيسمع الانسان اصواتاً غير موجودة أو يرى اشباحاً غير حقيقية أو يسمع هذا الصوت او ذاك او يرى هذا الشبح ولا يرى ذاك أو . واو . الى ما لا يقع تحت حصر مما لا يخفى اليوم على علم الطب في جملتهِ وان خفي عليهِ في كثير من ملابساته ولهذا

نظر الفلاسفة الطبيعيون الى مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان فوجدوا ان استقلالها ليس مطلقاً كما ترمي اليه مذاهب أهل النظر بل نسبيّ فقط بالنظر الى مقامها في سلم التحول والارتقاء فكما أنه ليس لها مواد مستقلة ليس لها كذلك قوى أو نفوس مستقلة وقد كان لها ذلك في اعتقاد سواهم قبلهم بل كان لكل جسم بل مادة جسم نفس خاصة قبل ان استأثر الانسان وحده بالنفس

ثم نظروا في علوم الاحياء على الاطلاق فوجدوا ان بين الاعضاء وافعالها نسبة شديدة فاذا علّت الاعضاء علّت الافعال وعلّ الحي نفسه القائمة حياته بها وهلك واذا مات انحل الى البسائط المؤلف كل عضو منها ولم يجدوا في كل ذلك أثراً لقوة خارجة عن قوى المادة المشتركة

ثم نظروا الى الانسان والحيوان فلم يجدوا الفارق الجوهري الذي يفرق الواحد عن الآخر لا في تركيب جسمه ولا في جوهر عقله والفارق النسبي بينهما ليس باعظم منهُ بين الحيوان والنبات وهذا والجماد بل بين احط فروع الانسان وارقاها . فالانسان عاقل لانه يعمل اعمالاً مغياة والحيوان يعمل اعمالاً مغياة أيضاً وليس من قوة في عقل الانسان مهما تعالت الا موجودة في الحيوان بحالة اثرية وما الفرق الا نسبي لفرق في التركيب

ثم نظروا الى عقل الانسان نفسه فوجدوه يتمشى على نفس النظام الذي تتمشى عليهِ سائر الاحياء في النسبة التي بين الاعضاء والافعال اي انه فعل من أفعال الدماغ نفسه وصار بذلك علم العقل فرعاً من علم منافع الاعضاء

* * *

ولما كان العقل والنفس واحداً في المعنى كما كانوا يعتقدن في القديم ويخلطون بينهما كما تدل عليه لفظة البسيكولوجيا نفسها التي هي في الاصل معناها علم النفس والتي تطلق اليوم على علم المعقول صار من الضروري ان ينتقل البحث في النفس من دائرة علوم الكلام التي كانت تجول فيه لا ضابط ولا رابط وتقيم البرهان أثر البرهان والدليل أثر الدليل لتثبت ان النفس قوة غير ذات مادة تفعل في المادة وان يدخل في علم منافع الاعضاء نفسها وان تعتبر النفس كالعقل فعلاً من أفعال الدماغ خاضعة لجميع المؤثرات التي تؤثر في مادته

# المقالة الثانية والخمسون

## ﴿ مخاطبة الاموات (١) ﴾

« تفنيد مذهب ستيد »

ستيد كاتب شهير وقراءه معجبون بهِ لبلاغتهِ . فهو قال قولاً لولا شهرته واعتقاد الكثيرين فيهِ الرجاحة في الرأي والصدق في القول ولولا موافقتهُ لاماني الاكثرين لما لفت أحداً اليهِ . ولو قاله سواه ممن ليس له هذه المميزات لعدّ ذا جنة أو انه من المخرقين

على ان الشهرة لا تقي من العثرة . والاجادة في شيء ليست الاجادة في كل شيء . والاصابة ليست دائماً في جانب الاجماع فالعدد ليس حجة قاطعة أو هو وحده برهان القوة الوحشية فقط . والحقيقة ما كانت ادنى الى الواقع

* * *

الناس في مجموعهم مذهبان متناقضان نظريون وحسيون . فالاولون وهم الاسبقون والاكثرون بنوا آراءهم في الطبيعة على تخرصات واوهام لقلة تعرفهم لها في اول الامر وأوسعوا لعقلهم مجال النظر والاجتهاد فبنوا على هذه الشبهات تعاليم كان الفطير فيها اكثر من الخمير . ثم الفوها مع الزمان بالتربية والتوارث حتى صارت لديهم في عداد الحقائق المقررة

والآخرون وهم الاخيرون والاقلون تعرّفوا الطبيعة اكثر من اسلافهم فوجدوا المعلوم كافياً لان يفسر المجهول ورأوا انهم بذلك خطوا خطى صائبة في زمن قصير الدقيقة منهُ اتت باعمال نافعة ملموسة قصرت عنها تخبطات مخالفيهم في قرون فاستمسكوا بهِ ولم يريدوا ان يحيدوا عنهُ لغير سبب راجح

* * *

(١) نشرت في الجريدة سنة ١٩٠٩ جواباً على اقتراح بعضهم عليّ ان ابدي رأيي في هذا الموضوع في الجريدة بناء ما قصه من هذا القبيل الكاتب الانكليزي الشهير ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية

الاستهواء فيهم على فكر واحد او شعور واحد كما هو شأن ستد واضرابهِ في اعتقادهم انهم يكتبون أو يعملون عملاً تحت سلطان شخص آخر غريب عنهم . ولا شك ان كثرة اشتغال العقل بموضوع يخافهُ او يهواهُ تعدهُ لاستيلاء مثل هـذه الحالة عليهِ واحداث الاضطراب الشديد في جزء من اجزاء دماغهِ مع سلامة باقيهِ كما هو مشاهد كثيراً في عموم الناس لمن يتدبر ذلك كما ينبغي

والحاصل ان الحوادث الغريبـة من مثل التي ذكرها ستد ليست بالحقيقة هذياناً خالياً من سبب طبيعي معلوم كما يذهب بعضهم ولا هي وحي أو شبـه وحي كما يذهب كثيرون وانما هي تخيلات الذاكرة لمعلوماتها الباطنةاو تأثر الحواس تأثراً قياسياً بالمؤثرات الخارجية البعيدة الطبيعية لوجود كل من المؤثر او ناقل التأثير أو قابله أو كلها معاً في احوال خصوصية تزيل من بينها كل حجاب كان يحول دون الشعور بما يلزم الشعور بهِ في كل الاحوال لولا تلك الموانع العارضة والتي ازال العلم الطبيعي وعلم الطب كثيراً منها . وعليهِ فليس غريب في كل هـذه الغرائب التي انجلت لنا اسرار جلها ان لم نقل كلها سوى غرابة قلة عروضها لنا وخصوصاً طفورنا في تعليلها الى غرابة اغرب منها لا اساس لها الا نقل لا ينطبق على علم ولا يجيزه عقل حرصاً على مبتغيات اوهام ومتمنيات احلام

## ﴿ كلمة مرة ولكنها حرة [1] ﴾

موسى نظر الى شراهتهم وضررها بالصحة فدلهم على النافع من الطعام ومحمد الى قذارتهم فأمرهم بالنظافة وعيسى الى اختلال آدابهم وضررها بالاجتماع فحثهم على الفضيلة فعفواً ايها الانبياء الكرام على مذهب المؤمنين ويا ايها الرجال العظام على مذهب العقلاء عفوكم عفوكم الف مرة على ما يأتيه اتباعكم من الاعمال ويثيرونهُ من المباحث الدالة على سخافة العقول وهم يدعون انهم ابناء هذا العصر الذي يزعم اصحابهُ انهُ عصر المدنية والعلم

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٤ على اثر مناقشات الجرائد في الموقوذة وهل يجوز للمسلم ان يأكل من ذبيحة النصراني حتى صمت الآذان وقزت النفوس من هذه المباحث السخيفة

يزيله اذ أثبت استطاعة الانسان لان يتأثر بالمؤثرات الخارجية فيرى عن بعد شاسع صور الاشخاص ويسمع كلامهم بما يفسر لنا جيداً شدة تهيج القابل فيهم حتى يصير يحس بما لا يحس به الانسان عادة ولان يفسر لنا كذلك حقيقة التخيلات الذاتية الصادرة من الباطن والتي هي سبب وهم ستد واشياعه بان ارواحاً تخاطبهم او انهم يفعلون متأثرين بسلطان غيرهم

فلا يخفى ان أصحاب المرض العصبي الهستيري موصوفون بقوة الذاكرة حتى ان في وسع بعضهم في هياج مرضهم ان يذكروا ادق دقائق ما جرى لهم في حياتهم كأن الذاكرة آلة فونوغرافية سينماتوغرافية حقيقية ينطبع على صفحاتها كل ما يمرُّ بها من كلي وجزئي فاذا عرض ما هيج هذه الصفحات بدا ما كان كامناً فيها كأنهُ ابن يومه . ومن أغرب ما اتى به المريض الذي اشرت اليه وذكرت حكايتهُ في الشفاء انهُ في اثناء مرضه الذي دام به اكثر من شهرين ذكر تاريخ حياتهِ بالتفصيل والاعجب انهُ ذكر وقائع دعوى كانت له في المجالس دامت ثلاث سنوات ثم خسرها وكانت خسارتهُ له سبباً لاستيلاء المرض العصبي عليه بعد ذلك على الفور . حتى انه ذكر المرافعات التي جرت فيها امام القضاء كأنها منقولة بالحرف وبفصاحة تفوق طوره جداً في حال الصحة . فليس بدعٌ ان يكون سبب التخيلات التي من مصدر باطني والتي تجعل الانسان في بعض احوال خصوصية يسمع ويرى ويلمس ما ليس له حقيقة في الظاهر قرع الذاكرة نفسها للحواس المتهيجة كما في الجنون وما دونهُ من احوال اضطراب العقل بالمؤثرات المختلفة في الاعصاب المتهيجة وهي درجات كثيرة بين الصحة والمرض . ومعلوم كذلك امر الاستهواء الذاتي حتى تصير احلام الانسان لديهِ حقائق وحتى يصير بالنظر اليها بوجدانين متباينين بحسب سرعة تغلب احوالهِ العصبية يسمع احدهما يخاطب الآخر وكثيراً ما يشعر الواحد انهُ تحت سلطان الآخر يأتمر بأمرهِ حتى يزول منهُ الاضطراب العصبي الكلي كما في الجنون والجزئي كما في الاحوال الهستيرية المتغلبة بحسب نوبها فيرجع انساناً اعتيادياً لا يتأثر بغير ما يتأثر بهِ الناس عادة . ومن هؤلاء طائفة من الناس ليس بهم جنون حقيقي او ظواهر هستيرية ظاهرة للعيان بل بهم من كل ذلك ظاهرة واحدة مقتصرة على أمرٍ واحد فقط وهي تهيج مركز واحد من مراكز قواهم العصبية بحيث يقتصر

الاصوات بالتلفون وحفظها بالفونوغراف وخزن حركاتنا في السينماتوغراف ونقل اخبارنا في الفضاء بتلغراف مركوني ونقل المرئيات الى بعـد كل ذلك كافٍ لان يجلو لنا اليوم أشد هذه المسائل غموضاً . واذا اضفنا الى ذلك علمنا بان العالم لا فراغ فيهِ وهذا يستلزم ان لا يضيع فيهِ شيءٌ بل يحفظ فيهِ ويتحول لعجبنا ليس من عروض هـذه الغرائب لنا أحياناً بل من عدم عروضها لنا غالباً لان عروضها هنا هو القياس وعدمهُ كان يجب ان يكون الشاذ فاذا كان عروض هذه الغرائب لا يتيسر دائماً فلحوائل طبيعية ازال العلم الطبيعي اليوم كثيراً منهـا وايده علم بسيكولوجية الدماغ والامراض العصبية نفسها كما ابنت ذلك في مجلد السنة الثالثة من مجلتي الشفاء في حادثة اختلاط ذهن هستيري من أغرب ما وقع لي ولسواي ايضاً

وبالحقيقة ان أثر كل حركة مادة او نبضة فكر يجب ان يصل الى كل شيءٍ ويجب ان يحسّ به كل شيء بناءً على ناموس حفظ القوى واذا كنا لا نشعر به دائماً فلاسباب مادية اما لضعف في حواسنا واما لضعف الأثر نفسه وتبدده قبل وصوله الينا فاذا امكننا ان نقوي مشاعرنا او نزيل الحوائل الأخر لم يصعب علينا ان نقف على كل ممتنع علينـا في حالتنا الاعتيادية . وقـد جاءت الاكتشافات المذكورة سابقاً مؤيدة لذلك كما قلت في الشفاء من ان لا بد لكل فعل من فاعل وقابل وناقل وقـد تمكنا بالتلفون من تقوية الناقل ووقفنا من قراءة الافكار على قوة القابل وتمكنـا كذلك بتلغراف مركوني من تقوية الفاعل والقابل معاً وعرفنا كذلك ان هـذا القابل قد يشتد تأثره جداً في بعض الحالات العصبية المرضية الى حد ان الانسان يقدر ان يعلم عن بعد شاسع حركات سواه ويسمع كلامهُ كأنهُ على كثبٍ منهُ ولكن يشترط في ذلك شروط تجعل هـذا العمل خاضعاً لنواميس معلومة نظير سائر النواميس الطبيعية كأن لا يدرك الانسان الا حركات أشخاص معلومين له بهم علاقة معلومة ولو مهما ابعدوا عنهُ ولا يدرك حركات سواهم ولو كانوا بالقرب منهُ لان أعصابهُ تكون متكيفـة لقبول تأثيرات اولئك لشدة الاشتغال بهم خلافاً لهؤلاء

واذا كان هناك محلٌ للشك فدرس غرائب الامراض العصبية الهستيرية كافٍ لان

دماغ الطفل . وتعليـله في الثاني تعب طرأ على الجسم وهو نائم من وضع او سوء هضم وبانتقال الافكار الى المتناسبات والحواس في كال انتقل « بهِ الشعور » من ضيق الى ضيق الى هول السقوط

ولكن هـذا التعليل وان انطبق على الانفعالات الذاتية المنعكسة من الباطن وصح على كل التخيلات الذاتيـة التي تعرض للانسان في الحلم واليقظة من رؤية الاشباح الى مناجاة الارواح التي هي عبـارة عن مناجاة احلام الانسان نفسهِ بناء على ناموس قرع محفوظات الذاكرة للاعصاب المتهيجة وناموس الاستهواء الذاتي الا انهُ توجد حالات اخرى مصدرها خارجي محض لا ينطبق عليها هذا التعليل . وتعليل صدقها بالاتفاق وحده لا يكفي مثل قراءة الافكار والعلم عن بعد مما هو مقرر امره في العلم ولا يجوز الشك فيه اليوم

على ان العلوم الطبيعية والعلوم الباثولوجية العصبية قد تقدمت كثيراً من ذلك العهد واكتشفت غرائب كثيرة فيها غير خارجة في أعمالها عن نواميس الطبيعة حتى صار يجوز لنا فهم اكثر اعمال العقل غموضاً واستنتاج المجهول بناء على المعلوم

غير ان المتصعبين من العلماء — وما تصعبهم لضعف البينة بل لاقتصارهم في البحث على الجزئيات ولقلة تعويلهم على الاستقراء في الكليات — لا يزالون يميلون الى نسبـة هـذه الغرائب الى امور غير طبيعية مع علمهم الاكيد انها في غرابتها تسير على نواميس معلومة كغرائب الامراض العصبية مثلاً انقياداً لاوهامهم التي ورثوها ابا عن جد . وبعضهم ينصاع اضطراراً الى التسليم بطبيعتهـا المادية ولكن ما رسخ في ذهنه بالوراثة يحملهُ على الوقوف موقف المتردد غير الجازم متوقعاً ان يكشف له العلم نواميس طبيعية جديدة غير معروفة له اليوم . ولو تدبر هـذا المتردد والمتمني في سرهِ فشل العلم في نفي امانيه لعلم انهُ لا ينتظر ان يكتشف في الطبيعة من يوم عرف ناموس تحول القوى نواميس جديدة اصولها الطبيعية مجهولة بل كل ما ينتظر انما هو زيادة التوسع في معرفة تحولات هذه القوى واستخدامها لغرضنا بناء على انها هي والمادة من اصل واحد . والمعلوم اليوم من هذه التحولات البديعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى اشعة رنتجن الى أشعة الراديوم الى الاشعة الكيماوية التي ترقق الاجسام وتشففها واستخدام ذلك لنقل

جريدة « الكونستيتيسيونال » الباريزية لهذا الموضوع ونقلتهُ عنها جريدة الاستانة المذكورة جاء فيهِ كاتبهُ على امور كثيرة من حوادث التخيلات الغريبة نسل اكثرها مما وقع لبعض مشاهير الرجال في التاريخ كنابوليون وقيصر وسواهما من انهم كانوا يرون اشباحاً ويسمعون اصواتاً تخاطبهم لا حقيقة لها في الظاهر وذهب الى انها من الغرائب التي لا تدرك . فكتبت في ذلك الحين رداً عليهِ باللغة الفرنساوية نشر في جريدة « الكوريه دوريان » المذكورة في ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ ونقلتهُ الى العربية مجلة الطبيب في بيروت . وقد حاولت في هذا الرد ان أدفع عن مثل هذه الحوادث كل غرابة غير طبيعية مستنداً في ذلك الى علم امراض العقل وما يعرض من التخيلات وانخداع الحواس في الجنون وفي سائر الحالات العصبية التدريجية التي بين الصحة والمرض وحصرت تعليل ذلك بما سميتهُ هنا قرع الاوهام ويراد بهِ قرع محفوظات الذاكرة لمراكز الحواس بالارتداد من الباطن الى الظاهر وذلك في الاعصاب المتهيجة المنصرفة الى التفكير في موضوع ما أو الملتفتة اليهِ لمناسبة ما كمناسبة المرور بالبيت الباعث على التذكر بصاحبهِ . وعللت صحة النبأ اذا صدق قائله بما يأتي :

« والاعتراض الذي يوجه الى ذلك في مثل هذه الاحوال هو هذا : لماذا تتم الامور احياناً كما تنبيء عنها او توحي بها التخيلات ؟ والجواب على ذلك وعلى الاحلام أيضاً بسيط وهو ان كل ممكن قد يتحقق احياناً ولكنهُ لا يتحقق دائماً ولذلك كانت اكثر التخيلات لا تتم حقيقة » اه . اي انني عللت ما يصح منها بالاتفاق كما عللهُ نيوكم الآن ولكن الخطأ الذي كان يغتفر حينئذٍ لا يغتفر الآن بعد ان تقدمت العلوم الطبيعية وباثولوجية الامراض العصبية هذا التقدم الباهر

وازيد على ذلك اليوم بقولي ان غير الممكن لا يتحقق مطلقاً كأن يحلم الانسان انهُ طائر في الجو او ساقط من مكان عالٍ وهو لم يسقط فلا يمكن ان يكون مثل هذا الحلم موعزاً بهِ من الخارج او معبراً بهِ عن حقيقة واقعة مع ان صاحبهُ يحس ويرى انهُ كذلك ويعالي في الاول بقرع الاوهام لذاكرته وتجسمها لدى حواسهِ بما يكون قد ذكر له في طفوليتهِ من مثل هذه الاخبار السقيمة وغيرها من الخرافات السخيفة التي يحشون بها

وسمعهُ يخاطبهُ . ونفي العالم الرياضي نيوكم لهذه الغرائب ونسبة بعضها الى هواجس لم يعنَ بالبحث عن سببها وانما نسب صحتها في بعض الاحيان الى مجرد الاتفاق باعتبار انها من الامور الممكنة . وتسليم العالم الطبيعي السر اوليفرلدج بحصول هذه الغرائب من تفاعل العقول او النفوس بناء على مبدإ التلبثيا وميله الى ترجيح سببها الروحاني مما يجعل صدقها نتيجة للشعور بأمر واقع لا اتفاقًا . وقد حاول ان ينفي نسبتها الى الاتفاق باحصاءات تنفي الصدفة وتؤيد الارتباط السببي في زعمه

والحقيقة ان كلاًّ منهم على صواب وخطأ في آن واحد · فستد صادق في قوله انهُ رأى صورة ابنهِ وانهُ يشعر في نفسهِ بانهُ يكتب احيانًا تحت سلطان شخص آخر . وانما هو مخطئ في ادعائهِ ان ذلك من فعل ارواح غريبة عنهُ ولو درى انهُ مستهوى استهواءً ذاتيًا من جهة ومتخيل من جهة اخرى ما في ذاكرتهِ من المحفوظات لاسباب معلومة لنا اليوم جيداً من درس نواميس الجهاز العصبي في الصحة والمرض بما عبرنا عنهُ هنا «بمناجاة الاحلام وقرع الاوهام» لما كان في قوله شيء يؤخذ عليهِ . ونيوكم مصيب في نفيهِ التفاعل الروحاني عن هذه الغرائب ولكنهُ مخطئ في انكارهِ سببيتها الطبيعية وتعويله في صدقها على الاتفاق وحده وان كان للاتفاق دخل في بعض الاحيان . واوليفرلدج مصيب في ان هذه الغرائب تجري على نواميس معلومة لنا اليوم بالتلبثيا ولكن خطاءه في نسبة ذلك الى تفاعل العقول أو الارواح لا يغتفر ولا سيما ان في المعلومات الطبيعية اليوم مندوحة لنا عن الخروج بها الى مثل هذا التعليل الغريب

وقد وقعت انا نفسي منذ ثلاث وثلاثين سنة في نفس الخطأ الذي وقع فيهِ اليوم نيوكم بتعليل صدق هذه الغرائب بالاتفاق وذلك في حادثة طبيب انكليزي زعم انهُ سمع وهو مار في لندن بالقرب من بيت احد أصدقاءه الذي كان يومئذٍ بمدينة حلب صوت صديقهِ هذا يناديه ثلاثًا ثم علم عند وصول البريد انصاحبهُ كان في تلك الدقيقة يحتضر . وقد تناولت هذا النبأ في ذلك العهد الجمعيات النفسية في انكلترا وهوَّلت بهِ كثيراً حتى ان الجمعيات العلمية شاركتها في هذا البحث وكتبت الجرائد فيهِ مقالات ضافية . وكنت يومئذٍ في الاستانة فاطلعت في جريدة «الكوريه دوريان» على فصل طويل عقدتهُ

الآخر فليست قراءة الافكار باغرب من الاحلام ولا مناجاة الارواح باغرب من تخيل سماع الاصوات وكلها من مصدر واحد

وقبل التوسع في الموضوع لابدَّ لي من التنبيه الى ان كل ما يقال عن الانباء بالمستقبل لا حقيقة لهُ مطلقاً الاَّ ما كان منهُ في حكم الواقع كان ينبئ الانسان بامرٍ مقبل يتوقف على امر حاصل وهذا يدخل حينئذٍ في موضوع البحث في ما هو كائن في الحال حقيقة مثال ذلك — كان عندي مريض منذ عشرين سنة وكان بهِ اختلاط ذهن هستيري طال بهِ اكثر من شهرين تقلّب المريض فيهما على حالات مختلفة اظهر فيها عدَّة غرائب منها انهُ عرض لهُ في طور من اطوار مرضهِ رعاف تكرَّر مراراً عديدة ففي اول الامر لم نكن ندري بالرعاف الاَّ من مشاهدتهِ ولكن بعد ان تكرَّر صار المريض ينبئ بهِ وبمقدارهِ تقريباً قبل حصولهِ باربع وعشرين ساعة وكان انباؤهُ يصدق وتعليل ذلك بسيط لان الرعاف الذي كان يحصل لم تكن مهيئاتهُ تقع في الحال بل لابد انهُ كان يسبقه بعض تغيرات احتقانية وغيرها فصار المريض اول ما يشعر بها يعرف انهُ سيعقبها رعاف فينذر بهِ ومن شدتها وخفتها ينذر بمقدار الدم الذي سيرعفهُ فانباؤهُ هذا ليس انباء بالمستقبل بل تقرير للواقع ولذلك كل ما تسمعهُ من قبيل الانباء بالمستقبل ان لم يكن لهُ مثل هذه المسوّغات مما يجعلهُ انباء بالواقع حقيقة فهو مخرفة ودجل من قائلهِ

وما نبهت الى ذلك الاَّ لخلط الناس والعلماء انفسهم في هذه الغرائب واعتقادهم بأن الانباء بالمستقبل من الامور المقرَّرة الداخلة ضمنها . واعجب من ذلك اني قرأت من مدة قريبة في احدى المجلات الفرنساوية بحثاً لطبيب في هذا الموضوع وقد عدَّ فيهِ الانباء بالمستقبل من الامور الداخلة فيهِ وهذا جهل فادح يستعظم خصوصاً من طبيب يجب ان يكون ملمّاً بنواميس هذه الغرائب لان هذه الغرائب لا تحدث اعتباطاً كما يتوهم بعضهم بل تعرض للناس بناء على نواميس مقررة لا تحرف عنها سواءٌ كان في الصحة او المرض وتسير فيهما بانتظام على حدٍّ سوى

فنحن الآن بين اقوال ثلاثة من ذوي المقام في الادب والعلم : تصريحات ستد الذي يزعم انهُ يكتب احياناً متأثراً تحت سلطان الارواح وانهُ رأى صورة ابنـهِ المتوفى

فيهم ان لم يكن رهبةً فرغبةً والذي هو بقية راقية من مجموع تلك الاعتقادات القديمة الخشنة

وقـد عنيت بهذه المسائل طوائف كثيرة من اهل الادب والعلم في اوربا واميركا وخصوصاً في انكلترا وألفوا لها الجمعيات الكثيرة ليلبسوا البحث فيها حلة علمية اشترك فيها المقتنع والواهم والمتردد وانضم اليهم الدجَّال ايضاً وكلٌ واجدٌ في ذلك مصلحتهُ

فلكي يمكن البحث في هذه المسائل على اسلوب يكون منهُ فائدة للعلم لم يكن بد من تحليلها قبل تعليلها لمعرفة الصحيح فيهـا من المختلق والممكن من غير الممكن . فلا تخدعنا اعمال المشعوذين الذين يأتون أمامنا أعمالاً كثيرة غريبة صناعية كوضع الشيء في مكانه ثم اخراجهِ من مكان آخر وكابتلاع السيوف والسكاكين ولم يبلع منها شيء والتكلم مع اشخاص متباعدين والمتكلم واحد وغير ذلك من الامور المدهشة التي يجيزونها على الناظرين وليس فيها شيٌ من الغرابة سوى مهارة الصناعة فان أمرها اليوم معروف للخاصة والعامة وانما نقتصر هنا على المسائل المقررة اليوم والتي يعترف بها العلم

ان جميع الغرائب التي تعرض للانسان تطرأ على شعوره فيحس أو يعلم بما هو فوق طاقة مشاعرهِ وادراكهِ في حالتهِ الاعتيادية وتنحصر جميعها في ما نسميـهِ هنا على وجه الاطلاق بالتخيلات وان اختلفت مسمياتهـا بحسب مدلولاتها وذلك بقطع النظر عن صحتها وعدمها لانهـا في اعتقادنا صحيحة كلها سواء طابقت الواقع كأن يرى الانسان وهو في مكان صورة صديق له في مكان آخر مثلاً او لم تطابق الواقع كأن يحلم انه طائر في الجوّ كما يحصل كثيراً للاطفال في احلامهم وهم نيام . فكلاهما تخيُّل حاصل لا يجوز للعلم ان ينفيهُ لئلا يتلجلج في تعليله وكلاهما شعور حقيقي وان اختلف سببهما كما سيجيء

وما اطلقت اسم التخيلات على كل هذه الغرائب مع قطع النظر عن اسبابها الظاهرة والباطنة والبعيدة والقريبة الاَّ لاضمها تحت اسم جنس باعتبار ان اصلها واحد يسهل تعليلها وهي تشمل احلام النوم واحلام اليقظة كرؤية الاشباح وسماع الاصوات والاحساس بالملموسات ومناجاة النفس التي يطلقون عليهـا اسم مناجاة الارواح وقراءة الافكار والوقوف على الانبـاء البعيدة وغير ذلك مما هو خارج عن مألوف الحواس والادراك وبالحقيقة كلها في الغرابة سواء والذي يستوقف النظر في احدها يجب ان يستوقفهُ في

اليقظة وكثيراً ما تصدق في الانباء التي تنقلها مما حمل الاكثرين على الاعتقاد بها وظن بعضهم انه يمكن من مراقبة احوالها ان يستخرجوا احكاماً مطلقة وألفوا الكتب في تفسيرها حشوها تارة بالخطل وتارة بالدَجل

وقد كانت اوهام الانسان في اليقظة كثيرة جداً في اول الامر لقلة تعرفهِ ما حوله من قوى الطبيعة اذ كل ما هو مألوف معروف لنا اليوم كان يبدو غريباً له . وقد بنى عليها كثيراً من اقاصيصهِ المثولوجية وحكاياتهِ الخرافية واشتغل بها زماناً طويلاً قبل ان استهلك كثيراً منها بالعلم شيئاً فشيئاً واقرَّها في مكانها الحقيقي

وقد كانت الامراض العصبية ولاسيما العقلية والهستيرية نظراً لغرابة ظواهرها بالنسبة الى سائر امراض الجسم محل استغرابه بل موضوع تكهنه وتفزُّعه حتى ان الالفاظ التي استعملت للدلالة عليها في كل اللغات تدل دلالة صريحة على الاعتقاد بانها حالات مستفاضة على الجسم غريبة عن مادتهِ وعن جوهر قواه كأن يقال ان بصاحبها مسًّا أو دخلاً اشارة الى الروح الغريبة الحالة فيه . وكم عذب النساء الهستيريات وحلت بهنَّ النقم لاعتبارهنَّ ساحرات واحرقن ايضاً تخلصاً من الشيطان الحال فيهنَّ قبل ان تداركهنَّ العلم برأفته . ولا يزال هذا الاعتقاد شائعاً عند كثيرين حتى اليوم وان تلطف بعضهم في تسميته كأن يقول ان الحالّ شيخ . ورأفوا في معاملة صاحبه فأحلوا الرحمة محل النقمة وعالجوهُ بالتعاويذ والرقى والقراءات وما شاكل . وكما انهم نسبوا بعض الحالات العصبية الشديدة الوطأة الى الارواح الشريرة والخشوا في معاملة اصحابها نسبوا كذلك بعض الحالات العصبية التي كانت تبدو لهم الطف من تلك على الجسم المصاب بها الى الارواح الصالحة ورفعوا اصحابها الى مقام الاولياء والانبياء . ثم اخذ هذا الاعتقاد يضعف حتى اثبت العلم اليوم ان مثل هذه الحالات ليست سوى امراض عصبية كسائر امراض الجسم ولها احكام طبيعية مثلها حتى في غرابتها

وكأن جمهور المتعلمين الراقين لم ينفِ الاعتقاد بالمصدر الغريب في مثل هذه الحالات الاَّ عما كان يبدو خشناً فظًّا واما الجمّ الغفير فلا يزال حتى اليوم يعتقد ان في اللطيف منها محلاً للنظر ومتسعاً للقول. وكثيرون يميلون الى نسبتها الى الارواح للاعتقاد المتأصل

# المقالة الحادية والخمسون

## ﴿ مناجاة الاحلام وقرع الاوهام [1] ﴾

لقد كثر الآن تحدُّث الناس بغرائب افعال العقل أو النفس كما يقال ايضاً وسائر أفعال الجهاز العصبي الخارجة عن المألوف من مثل التخيلات والشعور بما هو فوق طاقة الحواس الاعتيادية وانطباق ذلك في بعض الاحيان على الواقع مما يختلط كثيراً على العامة ويربك الخاصة ايضاً . واشتدت المناضلة بين الباحثين فذهب بعضهم الى ان هذه الغرائب من خوارق الاعمال التي لا تنطبق على النواميس الطبيعية وعلّلها بانها من أفعال الارواح المحيطة بنا . ونقل بعض الجرائد العربية تصريحات المستر ستد بما وقع له ولبعض اشياعهِ ونسبتهم ذلك الى مناجاة الارواح . وقد كتبت مقالة في الجريدة اجابةً لاقتراح بعضهم ادفع هذا الزعم نافياً الغرابة غير الطبيعية فيه ومطبّقاً الصحيح منها على نواميس العلم الطبيعي وعلم الامراض العصبية . ونقل المقتطف مساجلة عالمين طبيعيين يذهب كل منهما مذهباً مخالفاً للآخر . فرأيت ان اسهب الكلام هنا للالمام بالموضوع من كل اطرافه لكي يتيسر للناظر بالمقابلة والاستقراء والاستناد الى العلم الطبيعي ان يحكم بما هو اقرب الى الحقيقة . وانا لا أشك في ان كل ما يجري فينا من هذا القبيل انما يجري تبعاً لقواعد طبيعية نظير سائر ما يقع في الطبيعة مما هو مقرر اليوم انهُ بحث طبيعي بحت . ولا اشك كذلك ان معلوماتنا الطبيعية اليوم كافية وحدها لتعليل ذلك تعليلاً يزيل عنهُ كل غرابة الا ما كان من قبيل الغرائب الطبيعية فقط

ان غرائب أفعال العقل والجهاز العصبي معروفة للانسان منذ القديم واشهرها الاحلام التي تعرض له وهو نائم — وهي تعرض للحيوان ايضاً — وقد كانت سبباً من اكبر الاسباب لاعتقاد الانسان ان فيه قوة غريبة عن جسمه تنفك عنهُ في حالة النوم وتطوف المعاهد منتقلة من مكان الى مكان ومن احساس الى احساس ثم ترجع اليه في

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٩٠٩

فالعالم مخلوقاً يحملنا على اعتقاد وجود العبث في الحكمة وهي غير مضطرة وهو خلف. وناشئاً يدلنا على ان هذا العبث ليس بالحقيقة عبثاً بل رابطة ضرورية للتسلسل في النشوء. والعالم مخلوقاً يحملنا على ان نقطع حيث يجب ان نصل او نصل الى نتيجة كلية لا تنطبق على غاياتنا الجزئية ولا على شيء من العلم . والعالم ناشئاً يدلنا على ان كل ما في الطبيعة منها وبها واليها

وعليه فالذي تقول انه خلق لا ينطبق على الواقع المقرر في العلم الا اذا قلنا انهُ نشوء والذي تقول انهُ غاية مقصودة لا يصح الا اذا قلنا انهُ نتيجة لازمة . والذي تقول انه حكمة فائقة هو عبث الا اذا قلنا تناسب ضروري لنشوء مترابط . والذي تذهب الى انه معاد خاص في غير هذا المكان لا يجوز الا اذا قلنا انهُ عود على بدء في هذا المكان. وهذا ما يقوله العلم وان تلجلج في بعض القضايا العلمية المادية فلا يقول سواه كما في هذا القول :

هو الكل في كلّ معيداً ومبدياً وما نحن الا فيه من صور الفنا
وليس فناءً ما نراه وانما هو العود للاولى هو البعث للأولى
قضوا فحيينا وانقضينا بعودنا اليهم وغير الكل ليس لهُ البقا

أما الايمان الذي ترتاح اليه نفوس الاكثرين لاسباب تعليلها واضح في مذهب النشوء لا يضيق به مثل هذا الحصر . وهو قام حتى الآن على غير العلم وفي امكانه ان يبقى في غنىً عنه زماناً طويلاً أيضاً . وليس من الحكمة ان نحاول الباسه حلة علمية لا تناسبهُ تنم عن ضعفه أو تكون به كطيلسان ابنِ حرب — وفي الختام اني معجب بك لسعة فضلك وغزارة علمك وان خالفتك في مثل نتيجتك التي اتصلت اليها والتي كنت اود ان لا أحرج لمعارضتها ولكنك توافقني على ان لا محاباة في العلم كما انه لا حياء في الدين . وان سألت ما الذي احرجني قلت مقامك عندي

المادة نفسها . فقوى الطبيعة من حركة الى حرارة الى نور الى كهربائية الى قوى حيوية الى غير ذلك من تحولات القوى مترابط بعضها ببعض ومترابطة بالمادة نفسها . ووظائف الاعضاء في الاحياء متوقفة على حال هذه الاعضاء كوظيفة التغذية عموماً ووظيفة عضو عضو منها . فكما ان افراز اللعاب عمل من اعمال الغدد اللعابية فالعقل نفسهُ ليس الا عملاً من أعمال الدماغ بحيث لو انحلت مادة الدماغ الى بسائطها انحل العقل الى القوى المودعة في تلك البسائط ولم يتطاير منهُ شيء الى الخارج . حتى الوجدان نفسه الذي يتوهم البعض انه مزية يمتاز بها الانسان على سواه والذي ذكرتموه على صورة تؤيد هذا الامتياز اذا تدبرناه كما ينبغي يظهر لنا انه عام على العوالم كلها مع حفظ النسبة بينها من الانسان الى الحيوان الى النبات الى الجماد . فكل من هذه العوالم يدافع عن نفسه حفظاً لكيانه بحسب مرتبتهِ مما يدل على انه شاعر بذاتيتهِ ولو لم يكن له هذا الشعور لم يكن له ذلك

وما اتيت بهذا البيان لاعارض ايَّا كان في ايمانه بل لادفع عن القضايا العلمية المغالطات التي قد نجيزها فيها على انفسنا وعلى سوانا فنقطع بها تارة ما يوصل ونصل بها اخرى ما يقطع لغاية في النفس لنا سابقة نشؤها فينا معلوم لو تحريناها الى اصولها . وفي اللاهوت النظري ما يغنينا عن ذلك كله للغرض الذي تدفعنا اليه امانينا ويرتاح له وجداننا لا سيما وان المسألة مسألة اعتقادية بحتة

اما قولكم ان كثيرين من العلماء الاعلام لم يستطيعوا النفي البات في مثل هذا المقام فما ذلك بالبرهان على ثبوت دعوى خصوم النفي الذين لا يستطيعون ان يجدوا في العلم دليلاً واحداً للاثبات . وما مقام اللورد كلفن باعظم من مقام اغاسيز نفسه في العلوم الطبيعية فقد كان فيها اعلم من دروين ومع ان دروين بنى مذهبه وايده بابحاث كثيرة مأخوذة عنه فقد كان اغاسيز نفسه من ألدّ خصومه . ولا يثبت ذلك الا امراً واحداً وهو شدة وطأة ناموس الوراثة وخصوصاً ناموس الرجعة كما دلتنا اليوم تصريحات لمبروزو نفسه على ما جاء في المقتطف من انقياده لشعوذة المشعوذين ووهم الواهمين واعتبار ذلك من مرجحات الاعتقاد بالارواح وما شاكل مع انه كان من اشد انصار الفلسفة العقلية المادية

العبث في المخلوقات لان وجود مثل هذه الزوائد غير النافعة فيها والضارة بها احياناً ليس الا عبثاً بالنسبة الى المخلوق نفسه

بل كيف يمكن لنا ان نوفق بين هذا النشوء المتسلسل الذي يثبت لنا ان العوالم بمطلقها التي تبدو لنا اليوم كما هي لم تكن كذلك في الماضي القديم و ( بين ) مذهب الخلق الكامل الذي يقول ان العوالم ومنها الانسان وجدت بصورتها الحاضرة كما هي الآن — فلم يبقَ امامك الاَّ القول بالخلق الكلي وهو أحسن ما يعتصم بهِ المستمسكون بالخلق اذ ينسبون حينئذٍ كل تحولات الطبيعة الى نواميس عامة مخلوقة هي نفسها وهي العامل الثاني في نشوئها المتسلسل . وانما يبقى عليهم حينئذٍ ان يوفقوا بين ذلك ومبدأ الاديان القائل بان المعاد في غير هذا المكان للانسان وحده وهو لم يكن انساناً كما هو اليوم في اطوار نشوئه ولا هو مستقل عن سواه في مبدئه حتى يجوز له هذا الاستقلال في معاده . أو انهم يطلقون البعث حينئذٍ على العالم كلهِ لا باعتبار انتقال مواده فيه بتغير صورها بل باعتبار انتقال الطبيعة كلها باعيانها من مكان منظور الى مكان آخر غير منظور ؟ ! — هذا ولا يخفى عليك حينئذٍ ما يرد على الخلق الكلي نفسهِ من الاعتراض المعقول من ان الخالق والمخلوق لا يجوز ان يكونا منفصلين والاَّ وجب ان يكون فعل الخلق الصادر من الخالق منفصلاً عن الخالق نفسهِ وهو خلفٌ وان كان متصلاً بهِ فكيف يكون هو نفسهُ غيره وهو خلف ايضاً

على ان هذه الامور المقررة اليوم في العلم والتي تنفي الحكمة من الخلق تصبح ذات شأن عظيم في مذهب النشوء اذ تبين حقيقة هذا الترابط الذي تشير اليهِ في قولك « ونجد الخلق بجملتهِ تام النظام مترابط الاطراف » لتوقف كل تغير فيهِ على تغير في سواه أو لاحداث كل تغير فيهِ تغيراً مناسباً في سواه . وعليهِ فالعالم في مذهب النشوء لم يكن ولا هو كائن ولن يكون الا منتظماً لناموس عظيم فيهِ هو ناموس التناسب او المطابقة

وكما ان العالم المادي مترابط ومن هذه الحيثية هو تام النظام في كل العصور فالعالم الادبي اذا نظرنا اليهِ نظراً علمياً وجدناه لا يخرج عن هذا الحكم فهو مترابط تام النظام ايضاً ولا يجوز ان يكون غير ذلك . لا سيما وان كل الاعمال الادبية متوقفة على نظام

النبات بتحويل المواد الترابيـة الى مواد حية وفي نمو الحيوان بتحويل المواد النباتية الى حيوانية ثم ترجع تلك المواد بعـد الموت الى التراب » فانتم تعلمون جيداً ان في الاحياء وخصوصاً في الانسان أعضاء اثرية أي زوائد لا معنى لها في خلقـهِ كما هو الآن . وان كنتم تقولون مع ذلك « على اننا اذا تدبرنا هـذه الزوائد رأيناها تنحصر في عالم الحياة وهو جزء صغير من المخلوقات »

ولا اقف عند هـذا القول لارد عليه بقولي : اما كون عالم الحياة جزءًا صغيراً من المخلوقات ففيه نظر سواءٌ نظرنا اليه بالنسبة الى ارضنا أو بالنسبة الى العوالم الاخرى التي لا نعلم عنها شيئاً من هذا القبيل . وهو في ارضنا ليس صغيراً بالقدر الذي يستفاد من هذا الكلام . وصغيره يكاد يكون مالئاً الارض كلها ومتخللاً كل اجزاء الجماد وله في تحليله وتركيبه وتحولاته شأن عظيم — فان هذا البحث ليس من غرضنا هنا . بل أقول انه مهما يكن من ذلك فعالم الاحياء جزءٌ مهم جداً في بحثنا لانهُ يشتمل على الانسان الذي هو موضوع البعث في العالم الآخر

وانتم تعلمون ان هـذه الاعضاء الاثرية التي ليس لها معنى في تكوين الانسان كما هو الآن كان لها معنى في الماضي يوم كان تكوينهُ غيره اليوم . وهي كثيرة جداً وليس المقام مقام بيان وجودها واثبات عدم نفعها فيهِ ونفعها في سواه كما هو مبسوط في محله وكما تعلمونه جيداً . بل انتم تعلمون ان هـذه الآثار اقوى دليل على تسلسل الخلق وترابطه وعلى ان الانسان مشتق من الحيوان بالارتقاء . ولكن بعد هذا العلم ماذا يكون مقامها في الخلق الاستقلالي وأين الحكمة فيها حينئذٍ ؟ ولا اخالك تعمد هنا الى القول بان الحكمة التي لا تبدو لنا فيها دليل على جهلنا لا على عدم وجودها . وربما كان يجوز مثل هذا التخلص لولا انك تعلم ان العلم عرف فائدتها لاكتشافه حقيقتها في الاحياء الاخرى الادنى واثبت بذلك ارتباط الانسان بالحيوان بل نشوءهُ عنه واقر ذلك على أساس علمي متين . فهل لنا بعد ذلك مناص من انكار مذهب الخلق الجزئي الاستقلالي والا فكيف يمكن لنا حينئذٍ ان نوفق بين هذا الوصل في المبدإ وذلك الفصل في المعاد وان نسند ذلك الى العلم نفسه ؟ بل كيف يمكن لنا ان نوفق بين الحكمة الفائقة في الخلق ووجود مثل هذا

يا ترى غير ذلك . ثم نظرت الى توالد الاحياء من بيضة أو جرثومة ثم قلت ما الحكمة من وجود هذه الاعضاء الأثرية التي لا معنى لها في محفظة هذه البيضة او الجرثومة التي اختصر فيها هذا الخلق البديع المستقل . نظرت في كل ذلك فلم اجد في بعض ما ادركته مما أوسعتَ لهُ مجال الاسهاب تلك الحكمة المقصودة ولا تلك الغاية المرغوبة وانما وجدت في سردها من الاطناب ما هو أدعى في بعض المواقف الى الاعجاب . على انك لم تقصد بذلك الا اكثار الادلة لبيان الحكمة الفائقة في الخلق لا بديع ما في قوله «ويسألونك عن الاهلة» . ولكنهُ بيان لو تدبرناه جيداً لوجدناه يرمي الى ضد ما تقصد فانك قمت تؤيدني من حيث قصدت ان تناقضني . اقول ذلك لا عن تعنت كما ربما تظن بل عن برهان واليك البيان

الذين يقولون بالمعاد في غير هذا العالم هم اصحاب الخلق . وهم اصحاب الخلق الاستقلالي اولاً — قلت اولاً لان بعض هؤلاء يميلون اليوم الى القول بالخلق الكلي — فهؤلاء يجعلون كل جنس مخلوق من المخلوقات التي يتألف منها العالم اجمع خلقاً خاصاً . واخص هذه المخلوقات عندهم الانسان الذي خلق كل شيءٍ من منظور وغير منظور لاجله. فهو عالم مستقل بنفسه علاقتهُ بهذا العالم المنظور عارضة لا يلبث ان ينفك عنها الى العالم الآتي غير المنظور الذي هو مقرُّهُ الدايم والذي علاقته به جوهرية . أليس هذا هو الاعتقاد الشائع الذي تعلم بهِ الكتب الدينية والذي هو اساس اوليتك ؟

ولنحصر كلامنا في هذا الانسان الذي هو محور هـذا الاجتهاد من كل هذا البحث بالنظر الى معادهِ لنرى اولاً ما اذا كانت علاقته بهذا العالم عارضة أم جوهرية. وثانياً لنعلم ما اذا كان الذي يطلق على كل الطبيعة يطلق عليه أيضاً ام هو ممتاز علمياً يجوز له الانفراد وحده بامتيازات تجعله فوق الطبيعة للتجرُّد عنها

لا يجوز لي في هـذا المقام بالنسبة اليكم ان أدخل معكم في بيان كون الانسان في تكوينهِ حيواناً في أعلى درجة من سلم الحيوان تربطهُ بهِ روابط تدلُّ على انه مرتق عنهُ وان كان في بعض العصور غيره الآن . فاني لا ارتكب مثل هذا الخطأ مع من اعده يعلم ذلك جيداً كما هو مقرر اليوم في العلم والذي هو نفسه يقول لي « كم من الحكمة في نمو

قولك هذا الغريب في العلم الا لتستخرج منهُ هذه النتيجة الاغرب في الحكم « من ان الصانع الحكيم لا يعقل ان يتم شيئاً ويدع الآخر ناقصاً فلا بد ان يكون قد أعد الكمال للناقص هنا في عالم آخر هو عالم البعث »

ولا يخفى ما في هذا القول من الاضطراب مع مخالفته للمقرر في العلم الطبيعي من تلازم العالمين الواحد للآخر وتوقف احدهما على الآخر . ولو لم تجعل سندك هذا العلم لتقرير مقدمتك ونتيجتك لما جاز لي الاعتراض عليك

ولقد اشرت في ما كتبت اليك بكلام صريح الى ان فقد الحكمة من العالم الادبي كما تقول والذي قلت انهُ نقص في الخلق كائن هو نفسه أيضاً في العالم المادي نفسهُ اذا نظرنا اليهِ نظرك اي بالنسبة الى غاية الخلق وهو واضح جيداً في عالم الاحياء الذي منهُ الانسان المقصود بالذات من البعث . وكلامي هناك على ما فيهِ من الاقتضاب كافلٌ لان ينبه من ذهب عليهِ ذلك لا لنقص في العلم بل لباعث آخر غلبهُ فيهِ فصرفهُ عنهُ لعله يراجع نفسه فيصحح حكمهُ في ما بناه على مثل هذه المسأله العامية المنافية لغرضه لئلا يكون التشبث بذلك ادعى الى الوقوع في مغالطات علمية أيضاً تكون الجناية فيها مزدوجة على العلم والاعتقاد معاً

على ان بيانك الذي اتيت بهِ بعد ذلك دلني على انك لم تعبأ باهمية هذه الاعضاء الاثرية فلم تعتبرها آثاراً منافية لغاية الخلق الاستقلالي ومنقصة لتلك الحكمة الفائقة في الخلق بل صرفت النظر عنها وأخذت تدلني على تلك الحكمة الفائقة في نظام العوالم وتوجه نظري اليها تارة في الافلاك وطوراً في الارض من نظام الاجرام السماوية الى نظام الاجسام الارضية من الانسان فالحيوان فالنبات حتى الجماد

والحق اقول اني غير صعب المراس وان كنت غير متساهل في القياس فجاريتك الى ابعد من مبتغاك ونظرت معك في نظام الافلاك وتحوُّل السدم الى شموس واقمار وزدت عليك باني نظرت وحدي الى انحلال هذه الشموس والاقمار ورجوعها الى السدم . ونظرت الى حركات الرياح وتساقط الامطار وأعجبني منك قولك فيها « وتسلسل اسبابها » ونظرت الى تحليل المواد وتركيبها على نسب محدودة وقلت في نفسي هل كان يمكن

فكل مخلوق بهِ زوائد كالدَّرن
زوائدٌ خاليــــةٌ من كل معنى بيّن
منقصةٌ للخلق لولا انهـــــا في الزمن
كان لهــا معنى دليـــــل نفعهــا للبــدن
فضمرتْ اذ أهملتْ لســنَّة في الثفن
وسوف لا تبقى بهِ كأنهــا لم تكن
هي حكمة في النشء لا في خلقها ان نفطن
تربطها بمــا مضى مثــل بقايا الدمن
والنشء مضطرٌّ بهــا والخلق فوق السنن
نتيجــة لا غاية من دونها الخلق يني
وغاية الحكمــة خلق كامــل لم يهن

## ﴿ هل في الوجود عالم آخر [1] ﴾

( ٢ )

حضرة صاحب الهلال

لما كتبت اليك موجزاً ومشيراً لم يكن قصدي ان أفتح معك باب المساجلة في مسألة اعتقادية خلافية تتعلق بالمبدأ والمعاد خشية ان يجرنا الدخول في ذلك الى اخـذ ورد لا ينتهيان لاختلاف نظر كل واحد فيهما بحسب مواقفه واهوائه ويوقعنا والجمهور معنا في مغالطات اجتهادية عقلية لا يكون معها تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت شيئاً مذكوراً

وانما كان قصدي التنبيه الى مسألة علمية بسيطة لا يصح ان يجاز علينا فيها ما قـد يجاز في المسائل النظرية العقليـة البحتة . وهي نسبة العالم المادي الذي قلت ان نظامهُ التام يدل على حكمة فائقة — الى العالم الادبي الذي لم تجد فيهِ هذه الحكمة . وما قلت

(١) نشرت في مجلة الهلال سنة ١٩٠٩

وضعه ونرى هذه الحكمة في كل عمل من الاعمال المادية » ثم نظرت الى الاعمال الادبية فقلت « اما الاعمال الادبية فقلما نرى حكمة فيها » . واستنتجت من ذلك ان الحكيم الذي وضع هذا النظام الكامل في العالم المادي لا يعقل ان يدع هذا النظام غير كامل في العالم الادبي فلا بد ان يكون قد جعل لهذا الكون « تتمة تسدُّ هذا النقص » ولما لم تظهر لك هذه التتمة في هذا العالم البادي قلت « ولا يمكن ان يكون ذلك الا في عالم آخر نظامه متمم لهذا . و بما ان ذلك النقص متعلق رأساً بالانسان فلا يسدُّ ذلك الخلل الا اذا وجد الانسان في ذلك العالم وهو لا يكون هناك الا مبعوثاً » . اه

وليس غرضي هنا النظر في النتيجة التي اتصلت اليها كما بدا لك مع ما هو معلوم من ارتباط الاعمال الادبية بالاعمال المادية نفسها وارتباط نظام الكل بالكل مما يجعل مثل هذا القول ضعيفاً . بل توجيه النظر الى ان ما اثبته من الحكمة الفائقة لنظام العالم المادي ليس باقل وهناً مما نفيته عن العالم الادبي . ولا سيما انك نظرت الى الانسان في هذا الكل كأنه عالم مستقل

قرأت ذلك في ليلة اشتد حرُّها وكثر بعوضها حتى لم يعد يقي منه واق فحرمت المنام للسع كأنهُ وخز الحراب او لذع النار والفكر لا يهجع فاخذت انتقل من موضوع الى آخر حتى وقفت على سؤالك : « فهل في الحوادث الطبيعية ما ينافي هذا القول » اي الحكمة الفائقة في نظام الاعمال المادية . فنظرت واذا بالمنافي كثير وعجبت كيف انه خفي عليك لا سيما وانك نظرت الى الانسان من خلال ذلك نظراً خاصاً وهو في نظامه المادي ليس اكثر استقلالاً من سائر الكائنات ولا اكمل منهُ في نظامه الادبي . فخطرت على بالي الابيات الآتية ابث بها شكوى وأصدع بها الى بيان حقيقة وهي :

يا برغشاً ارَّقني ... من فرط ما حرَّقني
هل انت مخلوق الذي ... بحكمـــــة خلقني
وأين هي فليُفتني ... كلُّ حكيم لقن
هل هي بخلق مطلقٍ ... أردى ولمـــا يقني
من زائد او ناقص ... او جالب للمحن

ولكن العادات مهما تضاءلت فناموسها الرجعى وناموسنا الرجا [١]

لئن كان في الاديان ردعٌ لجاهل فكم قد جنى جانٍ علينا بها بغى
وان كان فيها من عزاء لبائس ولكنها لا تقنع العقل والحجى
وان يك للانسان قسط مؤجل فهلا هدى هادٍ بغير الذي هدى
اذا كان مخلوقاً كما شاء ربه فماذا جنى غير الذي ربهُ جنى
وان قلتَ مخلوق وحرٌّ مهددٌ فهذا مقال لست افهمهُ انا [٢]

# المقالة الخمسون

## ﴿ هل في الوجود عالمٌ آخر [٣] ﴾

(١)

سيدي صاحب الهلال

اني ارتاح دائماً الى قراءة هلالك وانتظره بتشوق لطلاوة مباحثه . وقد قرأت في عدده الاخير مقالاً لك في « هل في الوجود عالم آخر » استرسلت فيه من مقدمة الى أخرى الى وضع هذه الاولية وهي : « ان نظام هذا الكون يدل على حكمة فائقة في

(١) اي ان العادات مهما ضعفت بالعلم فقلما يستطيع الانسان ان يتخلص منها بسهولة لخضوعه فيها لناموس في الوراثة شديد الوطأة هو ناموس الرجعة (Atavisme) ويراد به انتقال صفات الاجداد طبيعية كانت ام ادبية الى الاحفاد ولو لم تظهر في الابناء كانها تمر فيهم كامنة الى سواهم ولذلك كان من الصعب جداً ان يتخلص الانسان من اثر المتوارث ولو مهما ارتقى الا في الاجيال البعيدة والعصور المتطاولة . وبناء عليه فالرجاء معقل لنا قوي لانه عريق فينا اولا ولانه آخر ملجأ لنا نلوذ اليه دفعاً لما نكره حباً ببقائنا فلا غرو اذا استمسكنا به واندفعنا معه الى غير ما تدلنا عليه الروية

(٢) الابيات كلها مثلما في قولي :

قسم النـاس بين خلق يجازى ثم قوم يعـد ذاك مجونا
بين خلق نعـد فيه المعافى ونعـد المألوم والمسكينا
هل دريتم بما جنيتم فظلو مون انتم وانتم الظالمونا

(٣) نشرت في مجلة الهلال سنة ١٩٠٩

فان كان هذا الميل هدي نفوسنا رُويدك ان الكائنات بهِ سوا (١)
فاين مكان النفس فيها من القوى واين نبي العالمين الى الهدى (٢)

---

وان كان كالوجدان غير مفارق فلمْ لا نراه في جميع بني الورى (٣)
ووجداننا هل أنت الفيت انه يقوم بغير الجسم ان حلّ (٤) ما استوى (٥)
ألم ترَ أنا فيه تحت طواريء تعددُ (٦) فيها أو نعدّ له الرقى (٧)

---

اذا ما منينا بالحقائق مُرة فهل في التمني خير ما يُبلغ المنى (٨)
نقيم بهِ من حائل الوهم معقلا وكم ذا نلاقي ان نشأ دكه عنا (٩)
ترى المرء في رشدٍ الى أفق دينهِ هناك يغيب الرشد والصوب والنهى (١٠)

---

ولوع الفتى فيهِ ولوعٌ بعادة ترسّخت الاجيال فيها على المدى (١١)

---

(١ و ٢) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود حباً بيقائنا دليلنا على صحة هدى نفوسنا افلا ترى انا وسائر الكائنات فيه سواء فاين معبودها واين نبيها اليه وكيف تفرق نفوسها عن قواها الملازمة لها اسوة بما فعلناه في انفسنا نحن ؟ (٣) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود كالوجدان غير مفارق كان يقتضي ان يكون عاماً على الجميع كالوجدان والحال ان كثيرين لا يشعرون به (٤) الضمير للجسم (٥) الضمير للوجدان . ثم عطف وقال ان الوجدان نفسه ليس شيئاً مستقلا عن نظام الجسم وتركيبه فلو حل الجسم ما استقام الوجدان ولا بقي له من اثر الا مثل ما في البسائط المنحل الجسم اليها على حد قوله : ان اركاننا تدوم وتبقى تلك اعياننا تعيش سنينا

(٦) اي يتعدد (٧) وعزز ما تقدم بقوله ان الطواريء التي تعرض للجسم في الحياة كالامراض والآفات تؤثر في هذا الوجدان فتجعله غير واحد في الجسم الواحد فترى الانسان مثلا في وجدانين متميزين . فاما ان نعلل ذلك حينئذ بان الوجدان حالة من احوال البدن كالصداع والزكام مثلا ونعالجه كما نعالج سائر امراض الجسم والا فنضطر الى استعمال الرقى للزوم القول حينئذ بالحلول المتعدد اخراجاً للارواح الشريرة كما يفعل المشعوذون وهذا مناف للعلم كما لا يخفى (٨) اي اذا كانت الحقائق على غير ما نحب ونهوى فهل تمنينا يقلب الحقائق وينيلنا ما نرغب (٩) فضلا عن انه لا ينيلنا مرغوبنا هو كثيراً ما يقوم حائلا في سبيل ارتقائنا اما بالانصراف اليه عما به منفعتنا في هذه الدنيا واما بوقوفه عقبة في سبيل كل اصلاح بما يكسبنا به من الجمود فلا ننتقل عنه الا بكل صعوبة وبثورات كثيراً ما تجلب الدمار (١٠) اي ان الانسان يستعمل عقله ولا يأبى البحث حتى يصل الى دينه فيفقد حينئذ كل رشد (١١) اي ان الانسان يستمسك بالدين كما يستمسك بكل عادة اخرى انتقلت اليه بالوراثة والتي يكون سلطانها اشد وارسخ كلما تكررت في الاجيال

وما الحب من ادنى فاعلي الى الرجا فما فوق الا الشوق في كبد السهى [١]
ترقى بنا حتى النهى وهو دونهـــا كما في نيوب الليث او في حشى الصفا [٢]
حبينا [٣] الذي فينا حبينا رجاءنا حبينا الذي نرجو كحب لمقتنى [٤]
وهمنـا به في الارض طوراً وتارةً صبونا الى ملك وطوراً الى السما [٥]

---

عبـــدنا به رباً مثيباً معاقباً ويقضي ولا ردَّ ويقضي كما يشا
رجوناه رحماناً اردناه عادلاً خشيناه جباراً كملكٍ اذا عتا
دعونا اليـه الناس بالحلم والتقى دعوناهم بالنار والسيف في القلى [٦]

---

( ١ و ٢ ) ان حب الذات هذا الذي ترق بنا من ادنى الى اعلى الى الرجا فاقصى درجات الكمال العقلي ليس خصيصاً بنا بل هو مبثوث في جميع مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان وهو نفس الشوق او الجاذبية العامة التي تحفظ نظام الاجرام المعبر عنها بالسهى ونفس القوة الموجودة في الحيوان الذائد عن نفسه بسلاحه ونفس القوة الموجودة في الجماد الحافظ لذاته بالجاذبية الالتصاقية والانتخابية المعروفة بالالفة ايضاً . يريد بذلك ان كل القوى الموجودة في الانسان موجودة في سائر ما دونه من الكائنات وان الاختلاف بينها اختلاف نسبة فقط وارتقاء في التركيب وانها كلها تفعل لغاية واحدة هي حفظ الذات . اي انها كلها من اصل طبيعي واحد كما في قوله :

لولا الهوى وبديع الشوق يهديه ما صح في الكون معنى من معانيه
ولا سرى النجم في العلياء وانتظمت له المواقع تقصيـه وتدنيه
شوق تكامل من ادنى الوجود الى اعلى فاعلى الى اعلى اعاليـه
حتى تناهى وقلب المرء تاهبـه نار من الحب يذكيها وتذكيه

( ٣ ) حب الثلاثي غير مألوف ولكنه جاء في قول الشاعر * ووالله لولا تمره ما حببته *
( ٤ ) ثم فسر هـذا الحب بانه محبة الذات الغريزية فينا التي تجعلنا نحب كل ما فينا ونحب بقاءنا وهي التي جعلتنا نحب رجاءنا لما تولد فينا حباً ببقائنا ونحب الذي رجونا منه تحقيق هذا الرجاء واستمسكنا بذلك استمساكنـا بكل شيء حببناه فامتلكناه ( ٥ ) اي قمنا بهـذا الحب نهيم في طلب رغائبنا فطلبناها اولا في الارض فعبدنا الجماد والنبات والحيوان والانسان نفسه ثم صبونا الى السماء فعبـدنا الشموس والكواكب . وكنا كلما انجلت الحقائق لنا اكثر ننتقل فيه من شيء الى اخر حتى طفرنا الى ما وراء الطبيعة ( ٦ ) اي عبدنا رباً تصورناه كعتاة ملوكنا واطلقنا عليه كل ما اطلقناه عليهم وتقربنا اليه بالخوف والتمليق كما تقربنا اليهم ودعونا الناس اليه تارة باللين وتارة بالشدة بحسب مركزنا من القوة او الضعف وبحسب مصلحتنا

وما الغبن الاَّ ان يرى القلب هائماً … ويخفى على العقل الحقائق في الدنى (١)

لقد قلت ان الدين ضربة لازبٍ … وجزءٌ من الوجدان في اعمق الحشا (٢)
وانّا اذا لم نعبد الله ربنا … عبدنا ولو الاَّ (٣) اقمناه من صوى (٤)
فلولا من النفس السجينة بارق … يمزّق سجف الجسم ما كان ذا الصبا (٥)

ولو انت أعملت الروية لا الهوى (٦) … لادركت ان الدين لا صوت بل صدى (٧)
صدى حبنا البقيا لهول حقيقة (٨) … وزلفى دلفنا للذي يحفظ البقا (٩)
وماذا عزاءُ المرءِ من بعد موته … اذا حبهُ للذات لم يدفع الاذى (١٠)
وأنّى له دفع القضاء محتماً … فلم يبقَ الا باسم الوهم مرتجى (١١)

هو الحب اكسير الوجود بلا مرا … ولولاه ما كان الوجود كما ترى
فكلّ الذي تلقاهُ في الكون سرّه … وهاديهِ في افعاله كيفما نحا
هو الحي مولوداً هو الميت فانياً … هو النجم قد أسرى هو الصبح والدجى
هو الكل في كلّ معيداً ومبدياً … وما نحن الاَّ فيهِ من صوَر الفنا
وليس فناءً ما نراه وانما … هو العوْد للاولى هو البعث للأُلى
قضوا فحيينا وانقضينا بعودنا … اليهم وغير الكل ليس له البقا

---

(١) اي ان الغبن الحقيقي هو ان يرى القلب مسترسلا في امانيه والعقل جاهلا للحقائق لان ذلك شر في الدنيا مؤكد (٢) الوجدان عند الطبيعيين هو الذات التي يقوم بها شعور الفرد وهو في اجزاء البدن وملازم له . وهو النفس عند سواهم ويقتضي ان يكون مفارقاً مستقلا (٣) الالّ الاله (٤) جمع صوة وهي علم من حجارة (٥) فلولا طموح النفس النزيلة في الجسم الى المرجع الاعلى ومحاولتها تمزيق الحجاب الذي يصدها عنه لما كان بها هذا الحنين اليه (٦) يريد بالهوى اميال القلب (٧) وبالصوت والصدى الجوهر والعرض (٨) اي لهول حقيقة الموت (٩) اي صدى حبنا البقاء ولما كانت حقيقة الموت صادعة رجونا البقاء في صورة اخرى . وتزلفنا للذي ظنناه يقدر ان يهبنا هذا البقاء (١٠) قال اذا كان حبنا لذاتنا لا يدفع عنا اذى الموت بما يخلق فينا من الامل بالبقاء بعده في صورة اخرى ذاتية فماذا يكون عزاء الانسان بعد الموت اذا كان هو منتهى حياتنا الحقيقية وليس لنا ما يدفع عنا هذا الموت الذي لا مفر منه والانسان لا يفارق هذه الدنيا الا مكرهاً (١١) ولما كان ذلك كذلك لم يبق له من الرجاء بالحياة الا ما يسم له من الوهم بانه خالد فاحب الاستمساك بهذا الرجاء ولم يشأ التعمق فيه ليعلم هل هو حقيقي ام هو مغالط نفسه فيه لانه رجاء يحلو له

وارجحهم عقلاً وهو الوحيد بينهم الذي ترفعت نفسهُ عن تلك الدنايا ومال عقله عن سفساف القول الى الحقائق ومحاربة الضلال

لا اقول ذلك حطاً من سليقة شعرائنا المولدين من متقدمين ومتأخرين فانهم وأيم الحق اعلى الشعراء كعباً في الصناعة واوسعهم خيالاً ولا أقول اسماهم . وانما أقول ذلك طعناً في اسلوبهم العقيم المبتذل فانهم وقفوا تلك القرائح المجيدة على امور لا تفيد القارئ فائدة ادبية او اجتماعية او تاريخية ولو كتبوها نثراً لخجلوا من دنا نفوسهم وسخروا من اغراب عقولهم

ولعله كان للمولدين من شعرائنا يدٌ ليست اقل شؤماً من يد علماء الكلام في تقهقر التمدن العربي كما ان تلك الاشعار الحماسية في عصور الجاهليــة وأثرها في النفوس كانت مبعثاً لقيام دولة العرب في الاسلام وبزوغ تمدنها وبلوغها فيهِ الشأو الذي بلغتهُ

ولعلنا اليوم على فجر نهضة جديدة فأني أرى من بعض شعرائنا نزوعاً الى وضع الشعر في اسلوب يرمي الى غاية اجتماعية ولا نعدم قرائح متوقدة من شعرائنا المطبوعين فلعلهم لا يلبثون طويلاً حتى يرونا منهم امثال هوجو وموسه وروستان وسواهم فان النظم طوع بنانهم فما عليهم الاَّ ان يعملوا عقولهم ويجيلوا نظرهم في ما حولهم فلا تضن الطبيعة عليهم بمكنوناتهــا والاجتماع باسراره والتاريخ بعبرهِ ولا اقلَّ من ان يدخلوا بنفوسهم الى أعماق نفوسهم

أما القصيدة فهذه :

فؤادك ما بين المنــيّة والمنى يسائل ام ما في حجاك من الظما (١)
اذا ما ترامى العقــل يجلو حقائقاً شكا القلب ان الغبن في ذلك الجلا (٢)

---

( ١ ) أقلبك الذي وقف بك بين الموت ومنى النفوس بالبقاء يتساءل لتحقيق ما به من الرجاء ام عقلك الذي وقف بك هذا الموقف لما به من الظماء لاستجلاء الحقائق والشغف بها ؟ ( ٢ ) اي ان العقل كلما انجلت له الحقائق قلت اماني القلب فشكا الغبن فكأن كثرة الاماني فيه وانجلاء الحقائق للعقل على طرفي نقيض لا يجتمعان

فلو عني المتنبي واقرانهُ بالامور نظيرهم وقصدوا فيها الى مرامي اجتماعية عالية اكان خانهم خيالهم ؟ او ما كانوا فاقوا شعراء الافرنج في دقة الوصف وقوة التصور وسعة الخيال. فعوضاً عن ان يتبسطوا في ذلك الاسلوب الجاهلي ويضعوا لنا ما اذا رُوي رَوى مطامع النفوس وظمأ العقول — بل عوضاً عن ان ينحوا النحو الذي نحاه بعدهم شعراء الافرنج في وصف الطبيعة الصامتة والناطقة وينزعوا الى اغراض اجتماعية استغواهم ذلك البذخ الذي عاشوا في وسطهِ واستهوت الخلاعة نفوسهم فاذلوا لها قرائحهم ونهجوا في شعرهم ذلك المنهج الغريب في المدح والغزل والتصابي والاستجداء حتى غاب هـذا الاسلوب على صناعة الشعر العربي والفتهُ الطباع واستسهلتهُ السلائق لعدم الارتباط فيهِ بقيد وصار جماله لا يقوم الا بالاغراب في تلك المعاني المبتذلة

وكيف يترجم ردفٌ يقعد صاحبـهُ كأنهُ كثبان عالج وقلب يحرق بناره الرجلين ويثب من الصدر الى العين . وقد رأيت قلباً خرج من تحت الابط في صدمة قطار ولكني لم ارَ قلباً تخطى سنن الطبيعة في خروجهِ من الجسم

والشاعر العربي الذي يمكن ان يترجم اكثر شعره من غير ان تفقدهُ الترجمة جماله هو شاعر الحقائق القائل :

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له     ولا صلاةٌ ولا صوف على الجسدِ
وانمـا هو ترك الشرّ مطرَحاً     ونفضك الصدر من غلّ ومن حسدِ
ما دامت الوحش والانعام خائفةً     فرْساً فما صح امر النسك للاسدِ

والقائل :

وقـد زعموا هذه النفوس بواقياً     تشكل في اجسامهـا وتهذبُ
ولو كان يبقى الحس في شخص ميت     لآليت ان الموت في الفم اعذبُ

والذين يقولون هذا القول هم الذين يحبون الحياة اكثر من سواهم . والقائل :

كذب الظن لا امام سوى « العلم » مشيراً في صبحهِ والمساءِ
انمـا هذه المذاهب أسبا     بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساءِ

ولا شك ان أبا العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء قاطبة واكثر شعراء العرب علماً

فهل يفقدها لذة نغمها وهل تكدر نقطة صفاءَ البحر العظيم اذا وقعت فيه . وان كدرتهُ فما اعظم حمأتهُ

ما احلى الاماني لولا انها خيال شاعرٍ وما أمرّ الحقيقة لولا انها السبيل الى الرشاد

خواطر اوحت بها اليَّ تلك النفس الطاهرة صاحبة نفوس الشعراء [1] فقلت اين نفس القائل :

وان مديح الناس حقٌ وباطل ومدحك حقٌ ليس فيهِ كذابُ
اذا نلت منك الود فالمال هينٌ وكل الذي فوق التراب ترابُ

من نفس القائل :

اقول للحيان وقد صفرت لهم وطابي ويومي ضيق الجحر معورُ
هما خطتا إمّا اسارٌ ومنة واما دمٌ والقتل بالحر أجدرُ
واخرى اصادي النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت ومصدرُ

هذا قاله شاعر البداوة على قمة جبل يلقي عليك بهِ درساً عالياً في الاخلاق ولم يثنهِ الإباء عن مأتى الحصافة والحزم لئلا تكون الصلابة القاصمة خرقاً في سياسة المنفعة

وذلك قاله شاعر الحضارة قائماً يسأل على اعتاب المدنية مع انه امير شعراءِ المولدين في صناعة النظم وكبر النفس

أنت تستطيع ان تترجم شعر هوجو وموسه وروستان وتستفيد من ذلك غرضاً اجتماعياً وبحثاً ادبياً اخلاقياً وعبرة تاريخية . ولكنك لا تستطيع ان تترجم شعر المتنبي وابي تمام والبحتري ولا ان تستخلص منهُ شيئاً من ذلك غير بعض الحكم والامثال مشتتة في تلك الادغال لا رابط ينسقها . ولماذا ؟ لان هوجو اطلَّ في شعره على العالم اجمع فنظر الى الحقائق وبما له من قوة الخيال وحسن السبك ربطها وكساها من شعرهِ حلة مهيبة رهيبة في النفس كما كساها موسه رقة وجمالاً وروستان نظر الى الوقائع فاكسبها من قوة خياله ومتانة شعره وقعاً في النفوس جعلها ابلغ في العظة

---

(١) مقالة بهذا العنوان للمرجومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني نشرت في المقتطف في شهر مايو سنة ١٩٠٨

الاحلام ايضاً جواباً بسيطاً وهو ان كل ممكن يجوز ان يتحقق ولكنهُ لا يتحقق دائماً وهذا ما يجعل اكثر التخيلات لا تتحقق غالباً . هذا وان عدداً عظيماً من الحوادث المذكورة في التاريخ القديم حكايات لا طائل تحتها كما ان الحوادث المأخوذة عن التاريخ الحديث ربما كانت اختراعات المدعين علم ما فوق الطبيعة

القسطنطينية في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٧٦

# المقالة التاسعة والاربعون

## ﴿ صدى النفوس (١) ﴾

« ورجع الصدى »

هي قصيدة بعثت بها الى الهلال وقد ضمنتها رأبي في اقتراح الهلال على الشعراء « ان الدين جزء من الوجدان واكبر تعزية لبني الانسان » وصدرتها بمقدمة في الشعر والشعراء قلت فيها

كلمات املاها عليَّ اقتراح الهلال تكاد تكون غير مقفَّاة ليس لها من رنة الرويّ ما ألفتهُ الاسماع العادية من تناسب الوقع . والرويّ للشعر العربي كالموسيقى للغناء . فان لم تبلغ في اجادة المبنى حدَّ الافادة في المعنى فهي لغير شاعر

شعر ليس له من صناعة النظم غير الوزن . عاطل من كل جمال الاَّ حلي الحقيقة ولكن الحقيقة فيما يقال ليس لها جمال الخيال . فان فعل في البعض فعل الوباء في الجرذ فالاطباء كالانبياء انما ارسلوا رحمة للعالمين

موضوع ينبو الفهم عنهُ وليس يلزم ان يكون سلبياً . ولقد قال احد الحكماء اذا قرأت شيئاً ولم تفهمهُ فافحص فهمك اولاً واحذر ان يخونك العلم اذا صدقك الفهم

صوت من بين ملايين الاصوات هل يجزع منهُ . وان لم يضرب على وترها

(١) نشرت في الهلال والمقتطف سنة ١٩٠٨

للاسباب الخارجية الواصلة دخلٌ فيهما ؟ والجواب على ذلك ان لا فرق بينهما مطلقاً بل نحن نعلم جيداً بان رجفاناً شديداً عارضاً في عضوٍ ما عائد الى تشويش وقتي في المركز المحرّك او في الاعصاب الناقلة للسيال العصبي . فان كان الامر كذلك في الحوادث المذكورة فلِمَ لا نسلم بصحة ذلك ايضاً في المرئيات والاصوات الداخلية بدون ان نفتش على التعليل عنها في ما هو فوق الطبيعة

الدماغ بالنسبة الى هذا الشعور الداخلي اما صحيح واما مشوش تشويشاً عارضاً واما مريض تماماً كما في الجنون

ففي الحالة الاولى هذا الشعور الداخلي او هذه التخيلات كما يسميها البعض هي بسيطة يعني اننا نسمع صوتاً بسيطاً او مركباً او نرى صورة او صوراً ولكن على نوع هو بهذا المقدار سريع حتى لا يكون لنا وقت لتحقيق ما يجري فينا وهذه الحوادث تعرض تقريباً لكل الناس وأنا من جملة اولئك الذين سمعوا آخرين يدعونهم باسمهم مراراً كثيرة وغالباً من اناس اعرفهم وحدث لي بأني وقفت احياناً في الطريق لاتحقق الذي يدعوني مع انهُ لم يكن لذلك حقيقة في الخارج ولم يكن سوى تخيلات

وفي الحالة الثانية الامر أهم . فاننا نظن إنّا نرى اشخاصاً تبقى صورتهم مرتسمة امامنا مدة طويلة ونسمعهم احياناً يتكلمون ويستمرون على حديث طويل فيه بعض الائتلاف . وهذه الحالة اندر مما تقدم وقد رويت عن كثيرين من أصحاب العقول الثاقبة وكان جان جاك روسو من هذه الرتبة فكان كلما انفرد يخال نفسه انهُ مع اشخاص يكالمونه والاحلام هي من هذا القبيل وتدل على تشويش وقتي في الادراك

والحالة الثالثة اشد جداً مما تقدم . الدماغ في حالة التخيل والانخداع الدائم كما في الجنون . ويختلف التخيل عن الانخداع بانه شعور داخلي محض متعلق بانحراف عصبي مركزي . والانخداع متعلق بانحراف محيطي في الاعصاب الناقلة نفسها فتنقل التأثيرات الخارجية على غير حقيقتها

والاعتراض الوحيد الممكن في مثل هذه الاحوال هو ما يأتي : لماذا نرى احياناً ان الامور تتم كما تنبئ عنها او توحي بها أو تشير اليها التخيلات فاجيب على ذلك وعن

ينبغي لكل احساساته ان تتم ويُحكم فيها رأساً في مراكزها الدماغية بدون معونة الاعضاء الأخر التي هي مراكز مختلفة ايضاً لتأثيرات مختلفة للزم ان يكون في وقت من الاوقات في غاية ما يكون من التشويش من تراكم الاحساسات التي ترد عليهِ والاوامر المختلفة التي يرسلها على الدوام . ولنا على ذلك برهان اجلى على لزوم هـذا النظام من الشعور الصادر من الداخل بدون تأثير خارجي والذي مصدره على الغالب الذاكرة . فالذاكرة تذكّر الدماغ بالتأثيرات المرسلة اليه سابقاً من الخارج ولكنها تذكّره بهـا في الحواس الخارجية الخاصة كما هو الحال في الشعور المسمى شعوراً داخلياً

والشعور الداخلي هو تأثير داخلي محض لا علاقة له واصلة بالمؤثرات الخارجية وان بني عليها ويحصل في الدماغ عن تهيج فيه لاسباب قد تخفى احياناً كثيرة بعضهُ خاص بقوة الادراك التي تتصور تصورات بسيطة او مركبـة والبعض الآخر خاص بالذاكرة التي تحضر للدماغ صور الحوادث التي تأثر بها سابقاً وهي اما بسيطة كما يشاهد في الاحلام التي هي من نفس طبيعة التخيلات او غير عادية وتكون نتيجة مرض في حالة الدماغ العصبية . لان الدماغ مثل باقي اعضاء الحياة معرَّض لامراض عارضة وقتية أو ملازمـة دائمـة عضوية او وظيفية . امراض يصح ان تسمى خللاً عصبياً يكون على جملة وجوه ويحدث جملة ظواهر واحياناً يكون من الامراض التي تجلب اليأس للمريض والطبيب معاً . وفي درس الدماغ وامراضه ما يوضّح لنا هذا الخلل العصبي الذي شوهد في الماضي وسيشاهد ايضاً في المستقبل توضيحاً وان يكن قاصراً بالنظر الى جلاء الاسباب كنقص جلاء بقية النواميس الطبيعية والكيماوية والحيوية الا انه يكفي لرفع كل شك يلبّك العقول من هذا القبيل

وبالحقيقة ما الفرق من جهة المصدر بين صوت ملفوظ وطنين اذن صادرين كليهما من الداخل ؟ لا يوجد فرق بينهما سوى ان الصوت الملفوظ مركب اكثر من الطنين الذي ليس هو الا صوتاً بسيطاً . فلماذا نتعجب من سماعنا الاول ولا نعلّق ادنى اهمية على الثاني . وما الفرق كذلك من جهة السبب بين صورة ترى ومصدرها داخلي و « بين » قشعريرة عارضة او رجفان عضو وكلاهما من مصدر واحد أي انهما داخليان ليس

وقد افاض الكاتب في الموضوع . على انهُ جعل جل اعتماده فيهِ على التاريخ فسرد عدة حوادث تاريخية شبيهة بما تقدم . اما البراهين العلمية فقلما تعرض لها . لذلك رأيت ان اسهب الكلام فيها في المقالة الآتية لعلها تجلو الامر بعض الشيء

لا يخفى ان الدماغ هو العضو الرئيسي للحس . وهو يتسلط على كل قوى حياة النسبة فيتأثر بما ترسله اليهِ هذه القوى بواسطة اعضاء الحواس التي لا يمكنها اتمام وظائفها الاَّ بمقدار ما تسمح بهِ حالة الدماغ الصحية باعتباره كونه مادة . فيفهم اذاً ان أعضاء الحواس ليست الا آلات لنقل التأثرات الى المركز العام الذي هو وحده قادر ان يحكم فيها فيتقي ضررها بالقوة التي له على اصدار الاوامر اللازمة بحسب حكمهِ . وهذه القوة في الحكم والامر والنهي والعمل تختلف باختلاف الاشخاص والاحوال والبنية الموروثة والمكتسبة بحيث يختلف الشعور والفعل بحسب ذلك كثيراً

ومن ذلك يفهم عند ما نتأثر من الشعور بالسمع او البصر أو الشم او الذوق أو اللمس ان هذا الشعور انما يكون في الدماغ وليس في الاعضاء الأخر . فان هذه الاعضاء ليست الا سطوحاً ترتسم عليها التأثيرات الآتية من الخارج والدماغ هو الذي يحكم فيها وانما يحكم فيها في مكان هذه الاعضاء نفسها وهذا ما يجعلنا ننسب الشعور الى الحواس نفسها حال كونه واقعاً في الدماغ حقيقة . وبعبارة اخرى ان مركز السمع هو الذي يسمع ومركز البصر هو الذي يبصر ومركز الشم هو الذي يدرك المشموم ومركز الذوق هو الذي يحكم على الطعوم ومركز اللمس هو الذي يدرك الملموس وليس الاذنان او العينان أو الانف او اللسان أو الجلد . وهذا الشعور سمي شعوراً خارجياً (١)

والشعور في الدماغ على طريق الحواس وهي الناقلة لهذا التأثير والمدركة له يظهر في بادىء الرأي قولاً غريباً وامراً مستحيلاً . ولكننا اذا أمعنا النظر نرى انهُ بذلك يحصل الدماغ على نظام اكثر ووضوح اتم في اعماله الكثيرة المتواصلة . لانه لو كان

(١) أي انه آت عن طريق الحواس من الخارج للفصل بينه وبين الشعور الداخلي الذي يقوم في الدماغ ويرد تصوره الى الحواس من دون ان يكون مع ذلك الاسباب الخارجية الواصلة دخل في الامر كرؤية شخص غير ماثل امامنا وسماع صوت من دون وجود صائت على مسمع منا

لتسليمهِ للارواح . والوقت اللازم لذلك يطيلهُ هاتر تحت عللٍ شتى ويحدث حينئذٍ بعض الاصوات ليخفي صوت صرير القلم على اللوح الحجري . وفي هذه الفرصة يكتب الكلمات السحرية اما بالقلم المعد للارواح واما بطرف قلم آخر موجودٍ تحت ظفر سبابتهِ وقد لاحظ بان المرفق الذي يبقى وحده ظاهراً من اليد كان يتحرك مدة هذا العمل المهم

فلما ايقن لنكستر باكتشاف السر حضر في اليوم الثاني ومعهُ احد الاطباء وقدمهُ كمنكر يريد ان يقنعهُ ولكنهُ هذه المرة لم يستنظر استدعاء الارواح بعد عرض السؤالات بل مد يده حالاً تحت المائدة واخذ اللوح فوجد الجواب مكتوباً عليه . ولا يخفى ان الوسيط لا بد ان يكون ماهراً جداً في توقيع الجواب وسرعة الكتابة

# المقالة الثامنة والاربعون

## ﴿ ظواهر لا تفسَّر [١] ﴾

الى صاحب جريدة « الكوريه دوريان »

قرأت في جرنالكم مقالةً تحت اسم « ظواهر لا تفسَّر » منقولةً عن جريدة « الكنستيتيسيونال » بشأن ما رواهُ الدكتور « دلفيتش » الانكليزي من انه سمع صوت صديقهِ المتوفى في مدينة حلب يدعوه باسمه . سمع ذلك وهو مار بالقرب من بيت صديقهِ المذكور في لوندرة . وقد تحقق من اخبار البريد ان صديقه هذا كان يُحتضر في الساعة التي سمعهُ يناديه فيها . والظاهر انهذه الحادثة المستغربة أدهشت الجمهور وتخطت احاديث العامة الى نوادي الخاصة حيث كانت موضوعاً لمباحثات بعض ذوي المكانة في العلم وحسبها بعضهم برهاناً جلياً على صحة علم مناجاة الارواح

( ١ ) عنوان رسالة باللغة الفرنساوية نشرت في جريدة « الكوريه ودريان » التي تطبع فيالاستانة في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ . كتبتها يوم كنت في الاستانة وقد عربتها مجلة الطبيب التي تطبع في بيروت . ونشرتها هنا نقلا عنها . اما الاصل الفرنساوي فلم يحفظ عندي

# المقالة السابعة والاربعون

## ﴿ ان من العلم لسحراً (١) ﴾

كلما زاد الانسان علماً زاد تفنناً في العمل فلا غرو اذا كنا نرى في عصرنا هذا على ما هو عليه من التدقيق في العلوم والاتقان في الصناعات اموراً يصنعها البعض ويشكل كشف سرها على كثيرين فيقتبلها بعضهم كامور روحانية ويحل بها الوهم عندهُ محل الحقيقة مع انها ضرب من الشعوذة التي لا طائل تحتها والموجودة عند جميع الشعوب ولكن على صور مختلفة تناسب روح كل شعب . وكلها اما من باب صناعة استخدام القوى الطبيعية بطريقة محكمة التوقيع واما من باب الخفة . ومن هذا القبيل الكتابة الروحية التي يدعي اصحابها انها من صنع الارواح والتي كثيراً ما يتحدث بها القوم في مجالسهم كأنها من البراهين القاطعة على صحة ما يدعون . والغريب في ذلك هو ان هذه المسألة اخترقت صفوف العامة ودخلت الى قاعات العلماء وجرت المباحثة فيها علمياً في الجمعية العلمية الانكليزية وشوشت افكار البعض حتى تعرض اخيراً لكشف هذا السر العلامة لنكستر استاذ طبائع الحيوان في مدرسة لندن فادركه وهاك البيان

قصد العلامة المومى اليه المدعو هاتر المدعي الوساطة بين الناس والارواح وسأله ان يستدعي له الارواح للمجاوبة على سؤالاته . ولا يخفى ان الارواح لا تجاوب جهاراً وانما تتمّ عملها تحت مائدة يكون الوسيط ألصق بسطحها السفلي اللوح الحجري المعد لكتابة الاجوبة الروحية . ولازالة كل شبهة يأمر الوسيط السائل بان يضع يده تحت المائدة على اللوح ويضغط عليهِ بكل قوتهِ حتى لا يتغير وضعهُ والقلم يكون موضوعاً بين المائدة وبرواز اللوح بحيث لا يستطيع الانسان ان يستخدمهُ

فلنكستر تظاهر بانهُ مندهل جداً من افعال القوات الروحية . واخذ يراقب حركات الوسيط جيداً فتأكد بان هاتر يكتب الجواب بسرعة عند ادخال اللوح تحت المائدة

---

(١) رسالة من الاستانة نشرت في الاهرام سنة ١٨٧٦

قال في وصف النوبة في الربو أي الازمة الصدرية المشار اليها في المقالة السابقة

في نوبة من النوَب [١] اعدها شر النوَب [٢]
صحوت من نومي مـذ عوراً على صوت النوَب [٣]
لكنما انغامـــهـا ليس بهـا داعي طرب
فيها صرير وصفير وصليـل وصخب
خرخرةٌ حشرجـــةٌ وكل انواع اللجب

***

وفوق صدري جبلٌ يهوي بهِ ثم يثب
ومن جبيني عرقٌ منحـدر مثل الصبب
والانف مفتوح الكوى مصفرّاً لا عن غضب
يجـدُّ في سحب الهوا وكم يعاني من نصب

***

واذا انا بالجوّ مربدٌّ باكـداس السحب
ينـــذرنا بمطرٍ منـهُ كافواه القرَب
كأنني مـيزانـهُ فكيفما مال انقلب
وكلمـــا زادت بهِ رطوبة زدت كُرَب

***

فذاك داء مزمنٌ والطب فيـهِ ما حطب

وقال في هذا المعنى ايضاً

وبي علة في الصدر لو انهـا خلت لنازع ما بي من « انا » نفس من « انا »
لقـد لزمتني والشقا منذ خلقتي فصرتُ ألوفاً للشقـاء وللضنى
اكاد اذا ما فارقاني لحظـةً اشك بوجـداني وانكرني « انا »
كأني وما بي صرت عكس بني الورى ففي صحتي دائي وفي راحتي العنا

(١) وقت اخذت العلة (٢) مصائب (٣) آلات الطرب المعروفة

حتى سخر بنا النازلون بيننا من الامم الراقية من مباحثنا العقيمة . فكأننا نلنا كل ما ارتقت بهِ الامم ولم يعد ينقصنا الا الاحزاب

والاحزاب يا سادتي اذا جاز لي هـذا القول هي في نظام الاجتماع من الكماليات ونحن لا نزال في حاجة الى اقل الضروريات . ونشؤها لا يكون باتلالها بل تنشأ من نفسها متى اكتمل الاجتماع فزعماؤنا يحاولون ان يخلقوا في نظام اجتماعهم جسماً مشوّهاً ولكي اثبت ان زعماءنا رؤوس بلا اجسام فلينهضوا ونرى كم ينهض وراءهم . فاتقوا الله في الامة التي انتم هداتها وانظروا الى مصلحتها وانبذوا الغايات . ذلك اجلب للمنفعـة وادعى للفخر

اراني تهت في الموضوع فمن الهلال الى الاحزاب بون شاسع ولكن تسلسل الافكار ينقلك من اقصاها الى اقصاها لاقل سبب : سنة الطبيعة في كل اعمالها

ثم قرأت فيهِ قصيدة لحافظ افندي ابرهيم في فكتور هوجو وفيها هذان البيتان

كتب المنفيُّ سطراً للذي جاده العفو ألا اقرأ واعجب
ابريء يعفو عنهُ مذنب كيف تسدي العفو كف المذنب

وحافظ — ولا اطريه — شعره كالبنيان المرصوص متين لا تجد فيهِ متهدّماً . وقد لمتهُ يوماً على اقلاله وقلت له ألعلّ الشهرة اضاعتك فقال لي وهل نسيت المكان والزمان ام نسيت . . . فاوقفتهُ عني ووجدتهُ صادقاً في القولين . ثم قرأت له فيهِ هذه الابيات في « مصر والشام »

ماذا جنيتِ وما جناهُ بنوكِ أظلمتهم يا مصر ام ظلموكِ
فبسمتِ للغرب الطموح واهله ومنحتهم فوق الذي منحوكِ
وعبستِ في وجه الشآم وانمـا قطر الشآم وان عبستِ اخوكِ

وكان بها مسك الختام وختام النوبة . وقد انبلج الصباح وقامت الاطيار تغرّد فقمت الى الورق ودونت فيهِ ما خالجني من الافكار كما رأيت فان احسنت فقل ان من الشر لخيراً وان من العسر ليسراً . والا فلي تأسية بقول شيخ نهضتنا الحديثة امام المنشئين الشيخ احمد فارس : فصلتـهُ اكن على عقلي فما مقياس عقلك كان لي معروفاً

او بابن داود وواسع ملكه ومعالم للعز فيـهِ كبارِ
هوج الرياح خواشع في بابه والطير فيهِ نواكس المنقارِ [١]

قلت ويا ليتهـا كانت اكثر اطمئناناً ويا ليت ابن داود كان عمر . ولكن الشعراء بباب عمر .... [٢]

والابيات من قصيدة لاحمد بك شوقي يصف بها دخوله الاستانة يوم عيد الجلوس الهمايوني — ولما فرغت من تلاوة هذه الاشعار قلت متسماً ان أحمد لهو ابو تمام هـذا الزمان اذا علا لا يشق له غبار

***

ثم لما فرغت من كل ذلك تناولت شيخ المجلات الادبيـة بلا منازع ولو لم يكن له من العمر الا خمس عشرة سنة ناشر آداب القوم وصاحب المقالات الانشائية الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والروايات التاريخية التي لم يسبق اليهـا في اللغة العربية واظنك عرفت اني اريد بهذا الوصف «الهلال» وفضل زيدان صاحبه على آداب العرب خصوصاً بعد الفتح الاسلامي لا يربو عليهِ فضل فقد حبب الى الناس مطالعة تواريخ هذه الامـة في نهضتها وكبوتهـا ، وسهلها عليهم برواياته ، واستخرج لآلئ تمدنها من مغاصها في مؤلفاته ، وفي الامرين له فضل المنشيء المجتهد والمؤلف المبتكر

والعدد الذي وقعت يدي عليهِ هو الاول من السنة السادسة عشرة وفيهِ عدا عروس فرغانة التاريخية وغيرها من المباحث من المقالات الموافقة للمقام ما يدل على حسن ذوق صاحبه في انتقاء المواضيع « كاستقلال امريكا من سلطة الانكليز » و «مصر والشام » و « حرية الصحافة في انكلترا ومصر » . وفي مطالعة كل منها عبرة لقوم يعقلون ولا سيما في هذا الدور الذي بلغت فيهِ عندنا فوضى المطالب مبلغاً تاه فيهِ الزعماء قبل الاحزاب . فدرس اسباب ارتقاء الامم مفيد لنا فنجتنب ضلالهم في عثارهم ونهتدي بهديهم في نجاحهم. ذلك خير لنا من اثارة هذه الحرب بيننا على احزاب لا وجود لها الاَّ في رؤوس زعمائها

(١) من قصيدة لشوقي في مدح عبدالحميد (٢) اشارة الى ظلم عبد الحميد وعدل عمر والفرق بين مقام الشعراء في باب كل منهما

ومما قرأتهُ فيهِ ترجمة حجة الاسلام ابي حامد الغزالي ولا خلاف في انه من اكبر ائمة الدين المصلحين والفلاسفة في الاسلام . حتى وصلت فيها الى قوله عن تربية نفسه بنفسه . « حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكرتُ عليَّ العقائد الموروثة » فذكرني ذلك قوله في أحد كتبهِ « لو لم يكن في ذلك الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى بهِ نفعاً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة »

وقوله أيضاً في محل آخر ما معناه « اذا وجدت تناقضاً بين العلم والدين فخير لك ان تعمد الى التأويل من ان ترمي الدين بتهمة الضعف » وقلت في نفسي ان امة فيها مثل هذا الامام لا يستغرب نجاحها في معترك الحياة

ثم قابلت ذلك بما قيل ونشر في الكتب وعلى صفحات الجرائد من عهد غير بعيد في أحد المشايخ من ذوي المقامات « ان من كرامات جده انه اكل حمل حمار من الخيار » وقلت ان امة فيها مثل من تقدم كيف تأمن العثار

*
* *

وبعد ان فرغت من ذلك مددت يدي ... وماذا أجد ... ولا أخفي عليك باني شعرت كأني قد سرّي عني . فقلت هذه مجلة سركيس . وسركيس هو الكاتب المتفنن الشهير ومجلتهُ هذه على حداثة عهدها قد طبقت شهرتها الآفاق

فقرأت اولاً هجوه ولم أعجب لاقتراحه ذلك عن نفسه وهو أعلم من كل صحافي بطرق الرواج . والفخر لا يأتي دائماً عن طريقهِ المألوف . وقد استوقفني في قصيدة المجاز قوله

فهجاء مثلك ليس فيهِ تكلف ... وارى مديحك كلفةً وعناء

وهي لناظمها الياس افندي فياض المحامي

ثم انتقلت الى باب حسنات الشعراء فقرأت الابيات الآتية

من كل ناطقة الجلال كأنها ... أم الكتاب على لسان القاري
دلت على ملك الملوك فلم تدع ... لأدلة الفقهاء والأحبارِ
من شك فيهِ فنظرة في صنعهِ ... تمحو اثيم الشك والانكارِ

قلت والبرهان بسيط — الى قوله

بفضلهم . فقرأت فيـهِ « اسابيا [١] » و « الشفاء الغريب » . وقلت لعل بعض العلماء راجعون بنا الى ما وراء المنظور لحيلة قـد انطلت عليهم أو لغرابة لم ينجلِ لهم سرها . والاغرب ان شيخ علماء العقليات الماديين « لمبروزو » الشهير مال ميلهم من قبلهم . ولو انهم اجتهدوا قليلاً لربما لم يجدوا صعوبة في تطبيق ذلك على الشائع المعروف من غرائب الطبيعة ولاستغنوا عن هذه الطفرة ولكن هذه المرة الى الوراء . ولكن ماذا نعمل بناموس « الرجعة » والانسان نسيج متوارثات

ثم قرأت فيهِ قصيدة عنوانها « فكتور هوجو » لنقولا افندي رزق الله فاستوقفني منها هذان البيتان

وبتنا وباتوا مثلما شاء ظلمهم فريقين سادات قساة واعبدا
وخافوا اتحاداً بيننا فتوسلوا بدينين للتمزيق عيسى واحمدا

فقلت من هو هذا المعرّي الجديد ؟

* * *

ثم وضعت يدي الواحـدة ومددت الاخرى واذا بالمنار يتلألأ فيها بانوار الجلال وهذه المجلة اكبر تعزية في قبره لفقيد الامة والدين حجة الاسلام في هذا العصر الامام الاكبر الشيخ محمد عبده القائل

ولست أبالي ان يقال محمد أبل أو اكتظت عليهِ المآتم
ولكن ديناً قد اردت صلاحهُ أحاذر ان تقضي عليهِ العمائم

والغريب ان الانسان يستعمل عقله في كل امر فاذا وصل الى الدين عقل عقله مع ان الاديان بنيت غاياتها على المعقول ووضعها اناس ان لم نسلّم جميعنا بانهم اولياء كرام فلا خلاف بانهم رجال عظام أي من ذوي العقول الكبيرة . والظاهر ان الشيخ رشيـد يتوخى في مناره حلّ هـذا العقال لتجريد الدين من كل ما يشين مما ادخله عليهِ صغار العقول من كبار العمائم وذوي الغايات السافلة من أصحاب المقامات العالية لتسلم له حقيقتهُ وهي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

( ١ ) المشعوذة الشهيرة اشارة الى ما ذكره المقتطف من اهتمام العلماء بأمرها حتى اوقعتهم في الريب

على الافكار وتحويل مجراها وانما ينبغي عليك ان توفي خطتك حقها كما وعدتنا في مقدمتك البليغة وان تقول الحق ولو عليك ولا تميل مع الهوى وان تجتنب المحاباة والمداجاة وخصوصاً ان تجتنب التذبذب لاني اراك « كبالع الموسى » أو كالضفدع في الماء

قالت الضفدع قولاً فسّرتهُ الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيهِ ماء

تحوم على الحقيقة ولا تجسر ان تقولها بكلام صريح خوفاً من ان تغضب هذا ولا ترضي ذاك وان تجعل لغتك في الطلب بين الالتماس والامر وفي الانتقاد بين لين التمليق وخشونة المجافاة أي ان تجعل كلامك كلام رجال يخاطبون رجالاً فان تنهج هذا المنهج فالمستقبل لك

# المقالة السادسة والاربعون

## ﴿ ارق ليلة [1] ﴾

ارقت ليلتي لأزمة في الصدر هي لي أوفى الاصدقاء لانها لم تفارقني منذ حداثتي وكم من صديق يتركك في الطريق — . فانتبهت وكأن على الصدر أثقالاً . وأخذت اجاهد كأني اعالج أجبالاً . ولما قلّت حيلتي وخفت ان تطول ليلتي قلت لعلّ الذي لا تنجع فيهِ عقاقير الاطباء تفعل فيهِ مطارحات الادباء . لان العلل العصبية كثيراً ما تثور وتزول بالعوامل النفسانية

ولكن من أين لي في هذه الساعة المدلهمة بالشدودي ، وحافظ ، وسركيس ، والخازن ، ونصيبي منهم في النهار لا يكون الا في ساعة معلومة ...

فقمت اطلب ذلك من بطون الاوراق . فمددت يدي الى ما حولي غير مخير فوقعت على شيخ المجلات ناشر لواء العلم في الاقطار العربية كلها واظنك عرفت أني اريد المقتطف . وان لم يكن لاصحابه سواه من الآثار لكفى وحده لتخليد ذكرهم والاقرار

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٧ بتوقيع « معدي كرب »

الذي لاجله اضطرت اكثر الجرائد المهمة بعد ان قصدت ان تسلك مسلك الاعتدال ان تنحاز الى أحد الطرفين وتقسم جرائدها الى جرائد « فرشة » وجرائد « قمشة » فمن لم تستطع ان تأخذه بعصا موسى شهرت عليهِ عصا فرعون ولكن ضعفت بذلك ضرورة خدمتها العامة وقويت مطامعها الخاصة ولا يخفى ما لذلك من الأثر السيء على الجموع لما لها عليهم من السلطة في تحويل الافكار

أقول ذلك عن جرائد مصر المعوَّل عليها ولا ادمج في سلكها تلك الوريقات البذيئة التي لم توجد الا لنشر المثالب الصبيانية من دون تعقل والتي تقضي على الحكومة بان يكون لها قلم مطبوعات يردع مثل هؤلاء المتطفلين على الصحافة وليس عندهم أقل رأسمال علمي أو ادبي واغفل كذلك ذكر الجرائد العثمانية اي التي تطبع في الممالك العثمانية فان هذه الجرائد لا يذكرها عاقل الا لشجبها والقضاء عليها لا لانها ليس لها أدنى منفعة بل لانها مضرة وأي ضرر اذ لا شأن لها الاَّ التمويه والتمليق والتضليل والتغرير واني أقسم بكل عظيم لو كنت ناظراً للمطبوعات في الممالك المذكورة وكان لي بعض السلطة لجمعت هذه الجرائد اكداساً وأحرقتها على مشهد من العموم وكبلت أصحابها بالحديد وألقيتهم في السجون الى يوم يتوسدون تربهم ويقابلون ربهم ويجاوبون عن كذبهم

وكأني بك أيها البصير قد شعرت بصعوبة الخطة وحرج المركز لان الخطة التي وعدت انك تسير عليها وهي خطة الاعتدال صعبة جداً في مجتمع مثل المجتمع الذي يسير فيهِ اهل الشرق اذا مدحت لم ترض ممدوحاً لانك لم تبالغ بمدحهِ واذا انتقدت عدَّ انتقادك ذماً فاغضبت في الحالين

وكأنك علمت ان خطة كهذه لا تنجح الا في مجتمع بلغ من المدنية والاختبار والتعقل مبلغاً يضعف معهُ سلطان الافراد ويقوى سلطان المجموع فيغلب فيهِ العقل على الهوى حتى يقوى على احتمال الانتقاد ولا يسكر بخمرة المدح فتقوى اعصابه حتى لا ترجها رجة الغضب ولا تهزها هزة الطرب

على ان ما لا ينال كلهُ لا يترك جله واني أرى ان المثابرة على خطتك اولى ونتيجتها للبلاد أنفع ولو اعترضتها صعوبات شتى لا يجهلها من كان في مركزك لما للجرائد من السطوة

اذا استمر يكون له اثر متجمع عظيم جداً ومن أمثال العامـة « الحبل على تمادي الايام يقطع خرزة البير »

فالجرائد قوة من القوات التي يعتدّ بها في الهيئة الاجتماعية بل هي القوة الاولى في المجتمع الانساني ولها المقام الاول في الحكومات المتمدنة لانها تستطيع على هذا المجتمع ما لا يستطيعهُ سواها فلا صولة الملوك ولا سطوة الجيوش ولا قوة القوانين تعادل قوة الجرائد فالكاتب الذي يخط بقلم ضئيل على القرطاس الصقيل كلمات هينات ربمـا لا يدري ان كلماته هذه سيكون لها في الجموع أثر لا يصد ولا يقف عند حد

وبالنظر الى ذلك كانت الجرائد كثيرة النفع كثيرة الضرر ايضاً بحسب الخطة التي تسير عليها واللهجة التي تنطق بها فتكون كثيرة النفع اذا سلكت طرق التنبيه الى مواضع الخلل والارشاد الى سبل الاصلاح وبث المبادئ الصادقة بين الجماهير بلغة لا تنحط في الالتمـاس الى التذلل ولا ترتفع في الطلب الى المخاشنة والضد بالضد . وما من أحد من أصحاب الجرائد الشرقية يجهل ذلك بل كل جريدة تصدر تبدأ ببيان خطتهـا والغاية التي تنويها في مقدمـة تضمنها من المبادئ العامة ما يرتاح اليهِ كل عاقل ويرجو الخير منهُ كل قارئ ولكنك اذا تعقبت هذه الجريدة في مستقبل الزمان وجدت ان سلوكها في الجزئيات لا ينطبق على مقدماتها في الكليات واذا خلوت باصحابها قالوا لك ما العمل فنحن انما نعيش في مجتمع يصدق عليهِ قول المعري

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

فنحن انما نفعل ذلك مضطرين لانا اذا صدقنا أغضبنا فنضطر الى المداجاة احياناً والى المجافاة احياناً اخرى والا جفت موارد جريدتنا . وثروتنا التي هي غالباً مجموع أرقام سلبية لا تساعدنا على الاستقلال وما تعود أهل الشرق في مثل هذه المشروعات التعاون على جمع رأس المال وهو عار يلحق باصحاب الجرائد وان لم يبرأ منهُ سواهم فالحق يقال ان السبب هو في عموم الهيئة الاجتماعية نفسها فنحن معاشر الشرقيين ما زلنا أطفالاً في سلم حياة المجتمع الانساني والاطفال لا يؤخذون بمآخـذ الرجال ولا يؤخذون الاَّ بالترغيب أو الارهاب والا نفروا منك ولم ينقادوا اليك . وكما تكونون يولَّى عليكم . وهذا هو السبب

من السنين بل لبثت واقفة كالبلية رأسها في الولية حتى حركت عليها مطامع الدول الاوربية من عظيمة وصغيرة وغنية وفقيرة فاندفعت نحوها كل يطلب نصيبه انكلترا وروسيا والمانيا وفرنسا حتى ايطاليا هاجتها المطامع فكأنها اصبحت كما في قول الشاعر

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ولعل نفس السبب الذي اوقعها في الخمول سيكون السبب ايضاً لوقايتها من الوقوع في حبائل الدول الاجنبية زماناً طويلاً فيتحول خمولها الى نهضة بمحاكة الدول الغربية لها واقتباسها عنها أسباب تمدنها فتهب حينئذٍ حزباً واحداً وقوماً واحداً من جنس واحد ولغة واحدة ودين واحد فترد عنها مطامع الاحتلال وتحفظ لنفسها الاستقلال ولذلك يرجح ان الدول الاوروبية تشتغل هذه المرة لمصلحة سواها ضد مصلحة نفسها خلافاً للمشهور حتى اليوم فالصين مستقبلها لها من قبل ومن بعد والآتي اضمن لها

# المقالة الخامسة والاربعون

## ﴿ الجرائد في الشرق (١) ﴾

مركز الجرائد في الشرق صعب جداً لان الجرائد التي تنتشر انتشاراً يترتب عليه اثر لا بد لها من معدات كثيرة لا تتوفر لها الا اذا كان جمهور الذين يقرأون كثيراً . والشرق ولا يؤخذ علينا في تأخر عظيم من هذا القبيل لان عدد الذين يقرأون محدود لا يكفي للقيام بنفقات كل ما يكتب وينشر وربما كان هذا هو السبب الذي لاجله سيبقى الشرق محروماً زماناً طويلاً من الكتاب الاعلام والمؤلفين العظام

والجرائد أثرها اعظم جداً من أثر الكتب لانتشارها بين الجماهير اكثر منها وسلطانها على الافكار اعظم جداً مما يظنهُ الانسان لاول وهلة لاستمرارها والفعل الضعيف

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٧

فمن ضمن الجرائد المعمرة التي تقرأ حتى اليوم في مملكة ابن السماء كما يسمون مملكة امبراطور الصين يوجد في مدينة بكين ( ومعناها عاصمة الشمال ) جريدة يومية تدعى « كين بان » ومعناها المجموعة السنوية ظهر اول عدد منها منذ الف ومائة سنة وجريدة أخرى شهرية تدعى « تسين راو » ومعناها المجلة ظهر اول عدد منها منذ اربعة عشر عشر قرناً والحروف التي استخدمها الصينيون لطبع هاتين الجريدتين من الخشب

« فتسين راو » ابتدأت شهرية اي تصدر مرة في كل شهر وبقيت كذلك حتى اليوم واما « كين بان » فابتدأت شهرية كسالفتها ثم وسعت مواضيعها ولم تقتصر على ما يهم الخاصة بل تقربت من العامة فاكثرت نسخها وانقلبت يومية منذ سنة ١٨٣٠ للميلاد ثم زاد انتشارها كثيراً فاخذت تصدر ثلاث مرات في اليوم وسبقت اميركا واوربا في استعمال الورق الملون للدلالة على طبعاتها المختلفة فطبعة الصباح لون ورقها اصفر وطبعة الظهر ابيض وطبعة المساء رمادي

وفي اول نشأتها كانت مقتصرة على تقييد الحوادث السياسية المهمة من دون ان تبدي فيها رأياً وذكر جميع الاخبار ذات الشأن التي كانت تأتيها من كل جهات الصين وملحقاتها اليابانية والانامية والكورية نسبة الى بلاد انام وكوريا وهكذا كانت توقف قراءها على حوادث ايام السنة واصفة الاعياد والاحتفالات والجمعيات ولم تحرمهم كذلك من فكاهات القصص والحكايات الخرافية ولا من ترويض العقل بنشر الاشعار التي كان يوافيها بها مشاهير الشعراء

ثم صارت تبدي رأيها في الحوادث السياسية ولكن مع التزام جانب الاعتدال وتذكر كل ما يقال ويجري في المدينة كما تفعل اعظم جرائد باريز ولوندرة . ومما يستحق الذكر ان هاتين الجريدتين لم ينصب عليهما غضب الحكام بالتعطيل والالغاء ولا ثار عليهما الشعب بالمظاهرات العدوانية والسبب اعتدالهما في كلامهما واتفاقهما على مبادئ هي بين الصينيين واحدة لتمسك البلاد كلها بشريعتها كأنها فيها رجل واحد ولعدم وجود الاحزاب بسبب ذلك وربما كان هذا هو السبب ايضاً في ان هذه البلاد التي هي بالحصر مهد الانسان ومنشأ العمران وام الجرائد التي هي من اقوى عوامل المدنية لم تتقدم منذ مئات

من ذلك في كلا الامرين قتل الافكار وافساد الاخلاق وموت الكتاب الذين يفتخر بهم وما وجدت الحكومات لمثل هذا . نعم ان غرض الحكومات من ذلك انما هو كف الاقلام عن توجيه المطاعن ضدّها ولو علمت ان هذا السبيل انما هو السبيل الوحيد الذي يفتح الباب واسعاً لهذه المطاعن لانه اذا « مات منهم طاعن قام طاعن » لعدلت عنهُ الى السبيل القويم الذي يكسب البلاد اصلاحاً والحكومة اعتباراً وهو تنشيط الكتاب الذين يدل استعدادهم على نزاهتهم وسمو مداركهم والاصغاء اليهم حتى يقتدي بهم سواهم ممن يجد ان الاقتداء بهم ابلغ لنيل المجد والمنفعة لا افسادهم لإفساد غيرهم بهم فلو سلكت الحكومة هذا المسلك لقلّ الطاعنون عليها طعناً يقصد منهُ التهويل اكثر من الاصلاح بسبب سياستها التي ليس فيها شيءٌ من الحكمة ولنبغ الكتّاب المشاهير الذين يرفعون شأن الامة ويشيدون فخارها فالفخر في احياء هذه المواهب لا باطفاء نورها وهم يحسبون انهم يتقون نارها

## المقالة الرابعة والاربعون

### ﴿ أمّ الجرائد [1] ﴾

المشهور ان الجرائد من مخترعات اهل اوربا وان اول جريدة مطبوعة ظهرت في مدينة البندقية ( فينيسيا ) في القرن السادس عشر للميلاد . والذي علم لنا اليوم ان هذه الدعوى باطلة فالصحافة ليست من منشئات اهل اوربا فقد عرفها اهل آسيا قبلهم بزمان طويل كما عرفوا اميركا قبل خريستوف كولمبوس والطباعة قبل غوتنبرغ وكما عرفوا البارود والبوصلة التي عليها المعوَّل في فن سلك البحار وكما عرفوا كذلك صناعة الخزف ونسج الاقمشة البديعة التي لا يجاريهم فيها مجار حتى اليوم . والبلاد التي سبقت اوربا الى كل ذلك هي مملكة الصين اوسع ممالك الدنيا ارضاً واكثرها سكاناً

---

( ١ ) نشرت في البصير سنة ١٩٠٩

القوم يصطلون والكاتب انما يكتب لقوم يقرأون الاول لا يستطيع ان ينتقل من حاطب فقير يحمل الحطب على ظهره الى تاجر تعظم ثروته وتتسع تجارته ان لم يجد من يشتري حطبهُ والثاني لا يستطيع ان يصير كاتباً مجيداً ان لم يجد من يقرأ كتبه فالشرق في تأخر عظيم من حيث انتشار العلم وعدد الذين يقرأون فيه القراءة البسيطة فقط شيء لا يذكر فلمن يكتب هؤلاء الكتاب وكيف تحسن حالهم لتجيد قرائحهم ويتفرغون للاستفادة والافادة وهم لو تفرغوا لذلك لطواهم الفقر قبل ان يطويهم القبر وهذا ما حملنا على التنبيه في مقالتنا ا ب ت ث الى وجوب نشر التعليم وشددنا فيها النكير على الحكومة واعيان الامة بكلام اقرب الى التقريع بعيد عن الالتماس لاعتقادنا انفي ما ننبه اليهِ قوة لا ينالونها بدونه وفخراً تتباهى سائر الامم بمديد السبق اليهِ أليس ما تراه من افتخار كل امة بكتابها واقامة التماثيل لهم بعد موتهم بمئات السنين من الدليل المقنع على ما لهم من اليد في تشييد معالم فخرها واحياء ذكرها . ولا يثنينا عن ملامنا اعذار يلتمسها بعضهم للحكومة تخفف من مسئوليتها كعدم وفاء عدد المعلمين اللازمين لنشر التعليم بالسرعة التي طلبناها وما اخاله يراها متفانية متهالكة في سبيل هذه الدعوة

ومن الاسباب القاضية على نبوغ الكتاب في المشرق سلوك حكومتهم معهم فقد تعودت الحكومة انتنظر الىهذه الطائفة كأنها من الآفات التيينبغي مقاومتها اكثر من تنشيطها لا تميز غثها من سمينها ولعل السبب عدم مقدرة كثيرين من الحكام على معرفة ما لها من الاهمية وما لكبارها من النفع في رفع شأن الامة وما مثل اكثرهم الا مثل ذلك الوزير الذي طلب اليهِ ان ينشط بعض المشروعاتِ العلمية فاجاب ان مشروعك ان كان منهُ فائدة فهو ينجح من نفسه وعذره واضح اذ لا يعرف قدر الشيء الا ذووه . فمهما اجاد الكتاب في حكومة هذا شأنها ومهما اظهروا من الاستعداد لان يكونوا من النوابغ فلا يصادفون الا اعراضاً منها يحملهم على احد امور ثلاثة اما كسر القلم واما تحديدهضدها واما اذلاله لها الاول يختاره اكابرهم والاخير يعمد اليهِ ضعافهم حتى ينحط مقام الكتابة بهم وابلغ من ذلك في الاساءة تخريب ذمم الكتّاب ومشتراهم بالمال لا مشترى قلمهم ومواهبهم لنفع الامة بل مشتراهم ليكتبوا غير ما يفتكرون او يصمتوا عما يعتقدون والنتيجة

# المقالة الثالثة والاربعون

## ﴿ كُتَّابُنَا (١) ﴾

يستغرب الباحث في طبائع العمران ما وصل اليهِ اهل المشرق عموماً والذين تجمعنا بهم جامعة الوطن والسياسة خصوصاً من الخمول حتى اصبحوا على عاتق الاجتماع وقراً لو اطلقت عليهم شريعة النحل لقُضي عليهم بالهلاك قتلاً لان النحل الجاني يقتل كل سنة النحل الذي لا يعود له نفع ويعيش على جنى غيره . أتغيرت سنن الطبيعة وضلّ العلم في تقريره سنن الوراثة ام لسنا نحن نسل اولئك الذين بلغوا في معالم الحضارة القدح المعلّى فنبغ الفينيقيون حتى قبضوا بايديهم على تجارة العالم والمصريون حتى صاروا نبراس الامم يقصدهم الناس من الاقطار الشاسعة لاخذ العلم والفلسفة عنهم واستنارت افكار الفلسطينيين وسكان بادية العرب حتى قام منهم هداة الافكار وسنوا الشرائع التي يخضع لها اكثر سكان المعمورة اليوم في معاملاتهم وعباداتهم او ما هو السبب

حتى انقضت تلك السنون واهلها فكأننا وكأنهم احلامُ

ولا نقلق راحة سكان القبور بالبحث عن اسباب ذلك في ما تقدم من العصور بل نكتفي بالقاء نظرنا الى ما حولنا وقصره على جزء منا فان في ذلك تبصرةً لقوم يعقلون ونسأل انفسنا لماذا لا ينبغ منا كتّاب شهيرون كما ينبغ في كل امة لاننا مع احترامنا للنزر اليسير من اصحاب الاستعداد الفطري الذين لو ساعدتهم ظروف الزمان والمكان لربما كانوا تمكنوا من اظهار مواهبهم الى درجة يتحدث بها الخاص والعام وتعيد لهم في عيون الغرباء ما كان لابائهم من الشأن لا يسعنا الا الاقرار بان لا كتاب عندنا اذا ذكر كتّاب المغرب ذكروا معهم كأنداد ينيرون الافكار و يستنزلون درر المعاني من سماء العقول حتى يُلْقَطْنَ باليد و يسيرون شوطاً بعيداً من دون ان تخور منهم القوى. والسبب بسيط اذا علمنا ان الانسان ابن الضرورة وصنيعة الحاجة . فالحاطب انما يجمع الحطب

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

الى كثرة عدد هؤلاء المساكين في كل مكان وقلة ما اتخذتهُ الهيئة الاجتماعية من الاحتياطات لتخفيف مصائبهم فلا نستغرب اذا رأينا الانسان ينقلب على الهيئة الاجتماعية باللوم والتعنيف وهو سبب من الاسباب الكثيرة التي تحمل الانسان على الخروج الى الفوضى ومحاولة دفع الشر بالشر واللوم في ذلك ليس على هؤلاء المساكين الذين احرجتهم مراكزهم فاخرجتهم الى اليأس بل على الهيئة الحاكمة وعلى رجال الثروة من كل امة الذين في مقدرتهم مداواة هذه الادواء وهم لا يفعلون فيحملون الحانقين على الهيئة الاجتماعية على الايقاع بهم وهم يقولون

اذا لم يكن غير الاسنة مركبًا فلا يسع المضطر الا ركوبها

وافضل الوسائل لتخفيف ويلات المرضى خصوصاً الفقراء منهم اقامة المستشفيات الكثيرة في كل مدينة وهذه المسألة اذا نظرنا اليها في بلاد مصر خصوصاً وجدنا الحكومة والهيئة الاجتماعية مقصرتين فيها كثيراً فان المستشفيات الموجودة صورة لا معنى هي دون ما تدعو اليهِ الحاجة بكثير فان عدد الاطفال حتى لا نتكلم الا عن قسم من اقسام الهيئة الاجتماعية الذين يموتون والذين تصيبهم العاهات بسبب الامراض الكثيرة وقلة الاعتناء لا نبالغ اذا قلنا انه يتجاوز الثمانين في المائة فلو وجدت مستشفيات للاطفال مثلاً كافية وافية لهبط هذا العدد كثيراً وهبوطه ربح للحكومة والهيئة الاجتماعية فالخطأ في هذه المسألة من وجهين خطأ من جهة الاقتصاد السياسي وخطأ من جهة الانسانية لانه على صحة هؤلاء الاطفال وكثرة عددهم تتوقف ثروة كل امة وقوة كل مملكة

وانا لنعجب كيف ان شريعة البوذيين تناهت في هذا الامر حتى اقامت مستشفيات للحيوانات وشرائع الامم المتمدنة لا تزال مقصرة بهِ حتى في حق ابناء جنسهم فقل للذي يتباهى ببناء حائط في كنيسة او زاوية في مسجد او باقامة وليمة لامير — والله غني عنهُ والامير كذلك — ان كان يقصد بعمله هذا فخراً فبناء المستشفيات فيهِ فخر عظيم وان كان يقصد بهِ اجراً فاجره من ذلك اعظم فقد اتفقت الشرائع المنزلة على ان علم الابدان مقدم على علم الاديان فذكّر علها تنفع الذكرى

« المغرورون » وهم في كل واد يهيمون وأما انا فاقول مع الشاعر العربي

وجع المفاصل وهو ايسر  ما لقيت من الاذى
جعل الذي استحسنتهُ  والناس من حظي كذا
والعمر مثل الكأس يرسب في اواخره القذى

ألمٌ انقضَّ على كتفي اليمنى كأنهُ وخز النصال واثقلها كأني كلفت بها حمل الجبال وعطل حركات اليد كلها فكأنني اصبحت اشل اليدين لان اليد اليسرى بالتربية على قول البعض ومن اصل الفطرة على قول البعض الآخر عاجزة عن القيام بوظيفة اليمنى ومهما يكن من هذا القول فاني في مثل هذا المقام حسدت العسر اي الذين يستعملون يسراهم كما يستعمل سائر الناس يمناهم ولو كان في ذلك شيء من الانحطاط كما يذهب اليهِ « دلوني » ومن نحا نحوه من العلماء الذين يزعمون ان المياسرة اي استعمال اليد اليسرى دليل على الانحطاط والميامنة اي استعمال اليد اليمنى دليل على الارتقاء واستدل من ذلك على ان المرأة احط من الرجل لان المرأة تياسر اي تذهب في حركاتها ذات اليسار والرجل ييامن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهر حتى في عرى ثيابهما وازراها فان حركة التزرير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينية واما انا فاخالف دلوني في ذلك واعتبر ان المرأة من هذا القبيل ارقى من الرجل لانها اقدر منهُ على استعمال الحركتين

ولا اعتبر هذا الفرق من اصل الفطرة بل اكثره من نتيجة التربية فلو ربي الانسان منذ الصغر على استعمال الحركتين على السواء لاستطاع ذلك ولعل الاباء والامهات في البيوت والمعلمين والمعلمات في المدارس ينتبهون الى هذه المسألة المهمة جداً في امر المعايش فيربون الاطفال على استعمال اليدين على حد سوى لا على استعمال اليد اليمنى وحدها زاجرين الطفل كلما عمل عملاً باليسرى حتى يرسخ في اعتقاد هذا الطفل المسكين ان استعمال اليد اليسرى ذنب لا يغتفر

ولا ريب ان اشد مصائب الانسان الامراض فالمريض ولو كان ذا ثروة يسكن القصور ويتوسد الحرير مسكين تجوز عليهِ الشفقة فكيف به اذا كان معدماً لا يجد مأوى يأوي اليهِ ولا فراشاً يستلقي عليهِ ولا ممرضين يمرضونه ولا اطباء يعودونه . واذا نظرنا

من الكلام لشرحها وتفهمها » انتهى

وهو كلام حق لا اعتراض عليه ولكن رو ربي في مدرسة العمل بين انبيق الكيماوي ومشراط المشرّح وتخرَّج على ايدي اكبر عالم عملي واتى باعظم اكتشاف طبي علمي عملي معاً فلا غرو اذا رأى هذا الرأي الصائب ولكن هل يرى رأيهُ الذين تخرجوا في غير مثل هذا المكان . والغريب ان الحقيقة بسيطة ملموسة امامنا كل دقيقة ومع ذلك فنحن ندور حولها متلمسين ولا نريد ان نهتدي اليها ولو وضعوها تحت انوفنا

## المقالة الثانية والاربعون

### « ماذا اكتب [1] »

بينا انا افكر في ماذا اكتب بهِ اليك ايها البصير انجازاً لوعدي لك واقول مع الشاعر

انما المرء مثلما السيف يصدأ  عقله ساكناً بلا اعمالِ
يصدأ السيف بالخباء ولو كا  ن شديد الصقال حد النصال

واذا بكتابك ورد عليَّ يطالبني بالوعد ولكنهُ ورد عليَّ في ليلة ينطبق فيها على قولي

كم تبيت الدجى وطرفي ساهٍ  يرقب النجم في الليالي الطوالِ
انت خالٍ وملوء جفنك نوم  وانا ملوءه حبوب رمالِ

ولكن شتان بين السهدين فسهد الشاعر عن كلف بالحبيب يعلله الامل بالوصال فهو عذاب في انتظار لذة وأما انا فعن ألم مبرح احرمنيَ الرقاد وتركني ليلي كلهُ اتقلب على سريري كمن يتقلب على شوك القتاد ليل خلت انه ليس له آخر كل دقيقة منهُ كأنها شهر وكل ساعة كأنها دهر

عذاب الفتى في يومه مثل عامهِ  ولذته في العام يوم وينقضي

ألمٌ يسميهِ الاطباء داء المفاصل ويذهبون فيهِ مذاهب والاطباء كالشعراء يتبعهم

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٧

مدرسة الازهر اذ تصير مدارس الحكومة معاهد دينية بحتة . ولعل قلة اهتمام الحكومة اليوم بذلك المعهد الديني الكبير توطئة لهذا التحويل

على ان الحكومة لا تعدم نصيراً من متخرجي مدارسها اذا استمسكت بالتخصيص ولم تشأ التعميم ولا شيء اسهل عليها من استحصال فتوى من مدرسة اللاهوت الاجتماعي التي بجانبها تصدّرها « بما » و « لان » وتنتهي فيها « بحيث » وتكون اطول واعرض من فتاوي علماء الكلام في الاستحالة والوجود الواجب . تثبت هذا الحق وتدفع عنها هذا الاعتراض وتسفه رأي القائلين غير قولها وربما عدتهم من المصدعين.

على ان الشعوب الضعيفة اول ما تفتح عينيها تحب ان تتشبه بالامم القوية وحكومتنا لا تأنف احياناً ان تنسخ نظاماتها عن نظامات اوربا ولو ان عليها مسحة من الف جيل . فاوربا نفسها شاعرة اليوم بهذا النقص في التعليم وهي وان لم تصرّح بطلب هذا القلب الكلي في نظامه محافظة على كنز موهوم وانقياداً لبقية باقية حتى في نظر الخاصة من اعتقاد العامة او خوفاً من تصعيب المطلب بتعميم الطلب الا انها تأتينا كل يوم بدليل على انها مسيرة في هذا السبيل الى غايتهِ الكلية بما تطلبهُ من التغيير في الفروع الجزئية

ومن احدث الانباء التي وردت الينا من هذا القبيل تقرير ضاف وضعهُ الدكتور رو صاحب اكتشاف مصل الدفتيريا لاصلاح التعليم في مدارس الطب تجد خلاصتهُ في الكلام الآتي قال

« ان التعليم في مدارسنا ليس كما ينبغي ان يكون فالاساتذة الذين يعلّمون والطلبة الذين يتعلمون متفقون على هذا القول وجميعهم يعترفون بان الدروس النظرية متسع المجال لها كثيراً في مواد تدرك فقط في قاعات التشريح وفي معامل الامتحان وعند سرير المريض . ولا ينكر ان كلام الاستاذ يحلو سماعهُ ولكنهُ مهما كان بليغاً لا يسعهُ ان يقوم مقام المشاهدة ولا مقام الاختبار . والاطباء الخارجون حديثاً من مدارسنا ناقصو الاستعداد سواءٌ كان لاجراء البحث العلمي او لممارسة صناعة الطب نفسها واذا عرف العيب فلا شيء اسهل من تداركه وذلك بالاستعاضة عن الدروس الكلامية بدروس عملية في معاملنا ومستشفياتنا يتسع المجال فيها للعمل ويضيق فيها مجال النظر الا ما يلزم

# المقالة الحادية والاربعون

## ﴿ التعليم العملي [١] ﴾

نحن قد تسرعنا بطلبنا قلب نظام التعليم — لا من نظريّ بحت الى عملي بحت فان ذلك قد يعدُّه بعضهم بدعةً في الشرق وفي الغرب ايضاً — بل من نظري غالب الى عملي اغلب . ولكن الذي نسطره بملء الاسف بعد سبع وعشرين سنة من الاحتلال البريطاني و بعد اكثر من مائة سنة من محمد علي الكبير هو ان المدارس الاميرية المصرية عوضاً عن ان ترتقي من هذه الجهة في هذا الزمان الطويل تقهقرت جداً عما كانت عليهِ يوم اسسها ذلك الرجل الفطري العظيم فقد كان التعليم العملي فيها - وكل شيء نسبي - أوسع جداً منهُ اليوم . كان نظامها على عهد مؤسسها يقصد منهُ تخريج رجال عمليين يكفون البلاد حاجتها ويشيدون استقلالها على اساس مكين . وما مات حتى اخذ ذلك النظام يتفكك والغاية الحقيقية المقصودة منهُ تحول الى ان اوشكت العلوم العملية ان تموت وحتى بلغت العلوم النظرية اوج زهوتها اليوم . والمصري بحكم الفطرة غير محتاج الى تقوية ملكة العلوم الجدلية فان قوة النطق فيهِ مستوفية النمو في كل مراكزها وانما هو محتاج ككل شرقي الى تقوية مراكز قوى العمل ولم تكتف الحكومة المصرية بذلك بل ادخلت في مدارسها نظاماً هو في شرع كل منصف بدعة فقد قررت تعليم العلوم الدينية فيها وقدطرب لهذا القرار جمهور الامة واعضاء الجمعية العمومية وسيصفق له البرلمان البريطاني بكلتا راحتيهِ واقامت مسجداً فيها للمسلم والعدل يقضي بان تبني كنيسة للمسيحي وكنيساً لليهودي وهيكلاً للبوذي ومذبحاً للمجوسي فما من احد من هؤلاء الاَّ وله في ذلك حق والحكومة ممثلة الجميع وتتقاضى مالها من الجميع اللهمَّ الا ان يكون معطلاً او لا يملك فيها شروى نقير فهذا يسقط حقهُ في الاعتراض ويحق له اذا كان يملك قيد شبر يدفع عليهِ الشيء النزر . وحينئذ لا يبقى لزوم لتلك الجامعة الدينية الكبرى الا وهي

---

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٩

الجرائد فلا همَّ لها الاَّ ان تأمن شر المعاهـدات لقضاء اللبانات فاذا امنت ذلك نامت على اذنيها كما يقول المثل الفرنساوي ولا افهم كيف ينام الانسان على اذنيهِ . والمراد انها نامت مطمئنة البال من كل بلبال

على ان اللوم كله ليس على الحكومة وحـدها فاعيان البلاد واصحاب الثروة منهم خصوصاً الجالسون في صدر القوم لا يسلمون من الملام لتقاعدهم عن كل الاعمال العمومية التي ينفعون بهـا ابناء وطنهم وتكسبهم الذكر الحسن فاننا لم نسمع بمشروع نافع مدوا اليه يد المساعدة غير بناء زاوية في مسجد واقامة وليمة لامير واحسان الى فقير والله غني عنهم والامير كذلك والفقير واحد الفقراء فاين المستشفيات التي تداوى بهـا الاسقام وتخفف فيها مصائب العباد التي جلبوها واي امير من امراء مصر واي وزير من وزراءها ممن ينفقون عن سعة وما ينفقون الا مما جمعوا من عرق الاهالي وقف شيئاً من ماله لاقامة مستشفى وبناء مدرسة تحدياً بالافرنج الذين يحبون تقليدهم في كل شيء وفيهم من جمع الملايين ولا نعرف له اثراً ينفع الجمهور ينفق عليه من فضل ما جمع . فاذا كان هؤلاء الكبار الذين « يفهمون الصورة ايه » كما يقال في اللغة الدارجة لم يقدموا على هذه الاعمال فهل ننتظر ذلك من فلان الشيخ وفلان العمـدة من اصحاب الثروة الطائلة الذي اذا افتخر فانما يفتخر كما افتخر ذلك المتصدي للولاية بان جـده اكل حمل حمار من الخيار يتباهى الواحد منهم بانهُ يأكل خروفاً على « وقعتهِ » ويجرع قربة ماء في « شربتهِ » فهل من رجل خطير ينهض في مقدمة القوم والاهالي ينقادون لكبارهم يسعى في جمع شيء من المال للشروع في هذه الاعمال ويكون عوناً للحكومة فينال خالص الشكر ويترك من بعـده جميل الذكر ليشكرهم المرضى بافئدة عظَّم الجميل عندها عظيم ما قاستهُ من الادواء ويشكرهم الاطفال بالسنة تعلمت ان تقرأ الف باء تاء ثاء (١)

(١) قد تغير الحال جداً في مصر من ذلك العهد الى اليوم سواء كان في انتشار التعليم او في التعاضد في مسائل كثيرة اجتماعية من نفس الامة

يتعجب من اعمال اولئك الرجال كأنهم كانوا من نسل انقرض اليوم حتى من نفس الذين هو منهم يسمى نسل الجبابرة فان اعمال الحملة الفرنسوية العامية لا تزال حتى اليوم موضوع اعجاب اصحاب الافكار في كل الاقطار

على ان نشر معرفة القراءة في مصر غير صعب وممكن بسرعة ايضاً اذا ارادت الحكومة ذلك يمكن فيها رفع عدد الذين يقرأون الى ٦٠ و٧٠ في المائة في زمن اقصر جداً مما يظن وذلك بجعل العلم اجبارياً كما ان التطعيم للجدري اجباري ايضاً واقامة المدارس البسيطة في كل المدن والقرى على نسبة عدد الاهالي . مدارس يعلم فيها ا ب ت ث وشيء اكثر من « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » يعلّم فيها المعلمون غير الجلبة والصياح وهز الرؤوس والظهور في اماكن ينفذها الهواء انظف من مذاود البقر يعلمون فيها ان مصر قطعة من افريقيا وان الصحة تتوقف على النظافة والنظافة تقوم بغسل الوجوه واليدين والرجلين و بتغيير الملابس وغسلها بالماء والصابون قبل ان تبلى على الاجسام وان النظافة لا تتوقف على الغنى فان فلاح جبل لبنان افقر من فلاح مصر وهو مع ذلك في بعض الجهات انظف منهُ بكثير يلبس الثوب المرقع ولكنهُ يلبسهُ نظيفاً وان البشر كلهم خلقة الله ليس بينهم كافر او مؤمن ولا طاهر او نجس الا الذي روائحهُ يكاد يغمى عليك منها وان العبادات لا دخل لها في المعاملات « لكم دينكم ولي ديني »

وانا اسمع من هنا معترضاً يقول ومن اين ننفق المال على مثل هذه الاعمال والجواب ان الحكومة لو اهتمت لما وجدت الامر ممتنعاً على انه توجد طريقة والغاية تبرّر الواسطة سهلة جداً وهي ان تتكفل كل بلاد وكل قرية وكل دسكرة بنفقة مدارسها تؤخذ من مواردها المختلفة وما نفقتها بالشيء الكثير اذا توزعت على هذا الوجه وكنت اود ان ارى حكومة الانكليز التي بيدها قياد البلاد تتصرف فيها كما تريد لما تريد تغفل امر التعليم في بلادها مثلما هي متغافلة عنهُ في مصر كيف كانت تقوم قيامة الشعب والجرائد عليها وانما هناك يوجد شعب يقوم وجرائد يخشى بأسها وهنا لا يوجد الا حكومة ان اصابت مرة فقد تخطيء عشرين اذ لا رقيب عليها تحسب له حساباً لا من الشعب ولا من

عصا الامة وكيف تخشى عصا امة لا تقرأ ما يطلب لها ولا تعرف ما تحتاج اليهِ ولذلك كانت اصمخة آذان اكثر حكام المشرق مسدودة الا عما يخدش مسامعها الشريفة البالغة الغاية القصوى في الاحساس من هذا القبيل فقط

واذ قد بسطنا الكلام على الداء وجب علينا البحث في الدواء ولا يكفي ان نقول ان الدواء نشر التعليم فهذه الكلمة قد اكثرت الجرائد من ذكرها حتى ألفتها الاذان وصارت تمرّ على مسامع الخاص والعام من دون ادنى تأثير يحدث في العقل اقل تفكير واذا كررت السؤال وحددت الكلام بادهك اصحاب الشأن بين تقليب الشفاه وتقطيب الجباه بقولهم انا عارفون بما يطلب منا وقد عملنا كثيراً ونحن في غنى عن تطفل امثالك قالوا ذلك اذا تنازلوا لمقابلتك وسماع كلامك واذا قرأوه في جريدتك قالوه في وجه جريدتك آسفين انهم لا يستطيعون ان يقولوه في وجهك . وما يقول هذا القول الاَّ جاهل واجباته مخدوع بنفسه آمن سيطرة الرقيب والدليل على صحة ذلك انه لا يجسر ان يقول هذا القول بل ينقلب كلهُ اذاناً ناصتة في البلاد للجمهور فيها رأي يعتد بهِ تلك هي اخلاق البشر عموماً والشاذ لا يعتد بهِ . بل يلزمنا ان نبسط الكلام على اقرب الطرق التي تنيلنا ذلك

ولا ريب ان حكومة مصر من هذا القبيل اصلح نوعاً من اكثر حكومات المشرق قلنا اكثر حكومات المشرق لان اليابان اصلح منها . فقد عملت اشياء ولكن لا يزال ينقصها اشياء ربما كانت الاهم لانها الاساس . بنت للعلوم العالية معالم لا ينقصها شيء من المعدات اللازمة لاتقان العلوم والفنون ولكنها اهملت التعليم البسيط الى الغاية القصوى والانكليز مع اتيانهم للاصلاح في جميع الفروع الادارية لم يأتوا في امر التعليم اصلاحاً عظيماً كما ينطق بذلك احصاؤهم بعد خمس عشرة سنة من احتلالهم للبلاد والسبب هو ان الحكومة الانكليزية في فتوحاتها قلما تهتم بالتعليم ولا تجرد الحسام الا لتفتح طريقاً لنشر ثوب الخام توسيعاً لنطاق تجارتها لتحويل ثروة الامم الى خزائنها . وان من يقابل بين آثار احتلالها لمصر العلمية كل هذه المدة مع توفر اسباب السلم وآثار الاحتلال الفرنسوي على عهد بونابرت مدة سنتين فقط مع كثرة الحروب الداخلية والخارجية .

في نشر العلم فيها اقصى مبلغهِ في اوروبا نفسها كما في بلاد سوريا وخصوصاً ولاية بيروت وجبل لبنان وقد استفاد من ذلك المسيحيون اكثر من سائر الطوائف فانك لا تكاد تجد اليوم مسيحياً هناك لا يقرأ مهما كان فقيراً للمناظرة الشديدة التي قامت في تلك الجهات بين المرسلين الاميركانيين والمرسلين اليسوعيين . ولكن اذا كان قسم من البلاد هناك استفاد كثيراً في ملة من ملاهِ فجهات كثيرة من الممالك العثمانية لا يزال اهاليها على الفطرة لا يعرفون الالف من المأذنة ولا الياء من القصعة ومثل هذه الحال تجعل مركز الفريقين صعباً جداً ومركز الجامعة الوطنية من احرج المراكز . وحكومات البلاد لم توفق الى احسن من ذلك لانها قامت من الاهالي فلا يصح ان تكون في استعدادها اصلح منهم ولكن حب التظاهر الذي يكون في الضعيف ابلغ منهُ في القوي حملها على ان تجاري نظائرها من الحكومات الاخرى التي تعتقد فيها الارتقاء في الصورة فقط لا في الحقيقة وفي الظاهر لا في الباطن فاخذت عنها كل ما رأتهُ عندها على سبيل التقليد ووضعتهُ في صدر البيت للزينة والتباهي لا للفائدة والقوة فشادت في عاصمة بلادها معالم للعلم كالقبور المكلسة تخدع العين ظاهراً بحيث لو رآها الغريب الذي يكتفي بالظاهر ولم يسبر اعماق البلاد بالوقوف على سائر احوال الامة لحكم بان البلاد كسائر الممالك المتمدنة لا ينقصها شيء من معدات التعليم ولكنهُ لو طاف البلاد وزار القرى والدساكر وخبر احوال الاهالي لضحك من سخافة عقول الحكام على هذا الفخار الفارغ لعدم توفر المدارس البسيطة التي تعلم الناس ان يقرأوا ا ب ت ث

ولهذه الاسباب كانت احوال الاهالي في ممالك الشرق متباينة جداً غير متناسبة كارض مختلط غورها بنجدها فانك لتجد فيها العالم الكبير بجنب الرجل الذي لا يزال على الفطرة مما يجعل منظر البلاد مشوهاً كالوجه المشوه عينان جميلتان وانف كانف ابن حربٍ ومركزها الاجتماعي مضطرباً جداً لعدم تقارب الجمهور في الافكار والاميال واذا امتنع التناسب من امة في القراءة والعلم خفت صوت الجرائد ولم يلتفت الى مطالبها لان الحكام كسائر البشر ربما ثقل عليهم الارشاد فضلاً عن انهم في مراكزهم التي نالوها ببذل النفس والنفيس احياناً لا يطلبون بعد تحقيق الامل الا الراحة من العمل ان لم يخشوا

# المقالة الاربعون

## ﴿ ا ب ت ث [1] ﴾

نشر البصير في احد اعداده المتقدمة مقالة عنوانها ا ب ت ث فاعجبني العنوان وقمت اطالعها وانا انتظر ان يكون موضوعها كما قام في ذهني الحث على تعلم القراءة البسيطة لعموم الاهالي خصوصاً بعد ما ظهر من الاحصاء الاخير ان البلاد في تأخر عظيم من هذا القبيل فان سكان القطر يبلغون زهاء عشرة ملايين وعـدد الذين يقرأون لا يبلغ نصف مليون نصفهُ من الغرباء الذين اكثرهم يحسن القراءة . وهذا العدد قليل جداً و يضعف الامل بنهوض البلاد من خمولها في زمن قريب . واذا هي مقالة بليغــة تبحث في اصل الحروف الهجائية تهم المتبحرين في علم اللغات بعيدة عما قام في ذهني عنها في اول الامر.

غير ان نفس العنوان افادني ان نبّه افكاري الى هـذا الموضوع المهم اعني وجوب نشر القراءة بين الاهالي قبل ان نعمم بينهم تلك المباحث التي لا يفقهها الا العلماء الذين أوتوا من العلم شيئاً غير قليل لئلا نكون كالكاتبين على صفحات الماء او الخاطبين في الصحراء

ولا يخفى ان العلم اليوم دخيل في الشرق اي انه لم ينتشر فيه على قواعد سنن النشوء والارتقاء فلم ينشأ في الامــة عن ميل عام فيها اليهِ دفعها الى الترقي فيهِ شيئاً فشيئاً بل جاءها من خارج مفاجأة لاسباب طبيعية واجتماعيـ ة هي تقريب المسافات بين الممالك بالاختراعات العظيمة وسهولة اختلاط امم المغرب بامم المشرق بسبب ذلك فتألفت من الاولين جمعيات لنشر العلم بين الآخرين ومقصدها من ذلك نشر لغاتهـا وترويج مصنوعاتها و بسط حماياتها . وبالطبع لم يتيسر لهذه الجمعيات ان توفد وفودها الى جميع الاماكن على حد سواء فحيثما تمكنت من هذا الامر انتشر العلم الى درجة تعادل انتشاره في اوروبا مع بقاء البلاد الثانية في ظلمات متلبدة من الجهل وهذا القول يصحّ خصوصاً على الممالك العثمانية فان وفود هذه الجمعيات تمكنت من بعض البلاد تمكناً عظيماً و بلغت

---

[1] نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

في كل العصور من كل عصامي جبار الى كل عظامي بليد يوم كان الملوك كل شيء وكانت الامم لا شيء لا غرو اذا كانوا كل حين في مطمع وكل يوم في حرب . وكم اثاروا حروباً هدرت بها دماء الرجال ورملت النساء ويتمت الاطفال لقضاء شهوة بهيمية وحمر الناس يظنون انهم يقضون واجباً عليهم . ما ارفع الانسان اذا عزّ وما ادناه اذا ذل . ذاك يناصب آلهتهُ العدوان وهذا ينحط الى ان يحاكي الحيوان . وما زال ذلك الى ان انقضى زمن الخاصة او تداعى وقامت سيادة العامة او كادت فتنبهت في الامم عاطفة المصلحة تجمعهم فيها تارة جامعة الاديان وطوراً جامعة الاوطان واثاروا لاجلهما حروباً تشيب لها الولدان وقد ضعفت تلك اليوم كثيراً في مجامع الامم الراقية ولكن جامعة الاوطان ما زالت عزيزة الجانب يتذرعون بها الى اثارة الفتن بين الامم وحملها على تقتيل بعضها بعضاً على انهُ كلما ارتقى الناس قلت الحروب وزاد الحذر منها بزيادة معداتها اذ ليس امنع للحرب من الاستعداد للحرب ولذلك قل الخوف من الحروب بين الامم المنيعة وكلما ارتقى الانسان ادرك ان التساهل والتسامح ادعى لمصلحة العمران وان الحياة اغلى ثمناً من ان تضحى على مذبح التوحش والجهل فان لم يكن هذا السبب الاخير هو الذي يصد الدول عن الاشتباك في حرب نراها تبرق لها وترعد اليوم فلا شك ان الذي يصرفها عنها خوفها مما لكل واحدة منها من الحول والطول فليس من امة من امم اوروبا الراقية اليوم ترضى بان تضرم فيما بينها حرباً ليست الحروب الماضية بالنسبة اليها الا كالالعاب النارية التي تطلق اليوم في الاعياد وكل هذا التهديد والوعيد ليس الا دعوة لاجتماع تتوازن فيهِ مصالح الجميع وسينتهي عما قليل كغيوم الصيف تنحل بالندى (١)

---

(١) وبالواقع انتهت المشكلة المذكورة بعد ذلك ولم يجرد فيها حسام

بالزرع والتفضيل مشكوك فيه . لا غرو اذا بقي الانسان حتى اليوم اعرق في المطامع واميل الى الشر لانه بحكم الرواية من نسل قايين اللعين

وهي حكمة عرفها السلف عن طبيعة الانسان في حب التنازع لانه ابن هذا التنازع في ناموس الوجود فعبر عن هذه الحقيقة الصادعة بذاك المجاز الرائع

واعمال الانسان في جاهليتهِ الاولى لم تخرج عن ذلك فلم يكن الواحد يهب من رقاده حتى يعلو ظهر جواده متأبطاً شره للنهب والسلب والتمثيل بعدوٍ له لم يره قبل طعنه بسنان رمحه او ضربهِ بحد سيفهِ ولا يزال يرود في طلب غنيمته بين الظعن والمضارب ولا يرجع الى الخيام الا تحت جنح الظلام ولا يهنأ له عيش حتى ينام على اثم . حتى صار ارتكاب مثل هذا الوزر عنوان الفخر الذي لا يعلو عليهِ فخر فدبج الاصمعي قصة عنترة عبس العرب ونظم هوميروس ملاحم اخيل اليونان هذا يفتخر بانهُ جندل اعداءه حتى تركهم كما في قوله

وقرا الطير والكلاب القيولا

وذاك بوصفه ابدع حقيقة في ايراده عدوه اشنع مورد حيث يقول :

تحوم عليـهِ عقبان المنايا وتحجل حوله غربان بين

فوصفها كما رآها في حقيقة حالها تأكل منهُ حتى تشبع وتحجل حوله حتى تجوع ونهمها لا يدعها تفارقهُ . ولم يزل هذا شأن الانسان حتى في انضمامه اسراً وقبائل وامماً تربطهُ بعضهُ ببعض صلة الرحم فالمنبت فالمصلحة

وما انقضاض الاسكندر المكدوني بجحافله على الشرق ونابليون على الغرب وانيبال في اقتحامهِ الاهوال وقطعهِ الجبال وما نهم كسرى في مجده وتعسف نيرون في ظلمهِ عن ضيق في الارض او شظف في العيش وانما هي مطامع افراد ضاق بنفوسهم فسيح الغبراء حتى لو افتتحوها لوقفوا يفكرون في كيف انهم يفتتحون السماء

ملوك سودتهم نفوسهم وهوَّنت عليهم ركوب الاهوال واقتحام المخاطر فاندفعوا ورؤوسهم على اكفهم مقامرين غير هيابين وساعدهم جهل الجماهير فسادوا عليهم ورموا بهم من كل حالق فاندفعوا يدفعون بارواحهم ثمن مجـد سواهم . يحصدهم الموت بمنجله وملوكهم يتمتعون بثمـار فوزهم ويرفعون على جثثهم قباب مجدهم . هكذا كان شأن الملوك

تربتها لا محراث يشقها وكنوزها مدفونة في جوفها لا معول ينبشها

وهـذه بلاد روسيا على ضخامة ملكها وكثرة شعبها لا تزال متسعة جداً للانسان وصحراء سبيريا لا تزال موطناً للدببـة تسرح فيها وتمرح ومنفى لمساكين الاشقياء وللاحرار الذين عبثت بهم ايدي الظلام فقطعوهم عن جسم الانسانية ليهنأ لهم العيش ورموهم هناك في جب العزلة يلبسون المسوح من جلود الدببـة ويقتاتون بيابس العشب وصديد القديد ويعاملون ولا معاملة الانسان للحيوان بل اشد من معاملة الحيوان لعدوه الحيوان الى ان تموت نفوسهم او يقضى عليهم جوعاً وبرداً وعرياً بعد آلام في النفوس هي اشد من عذاب الاجسام

وهذه بلاد الصين فمع انها تعتبر منملة البشر فمساحتها فوقما تضم من الناس بكثير

وهذه بلاد الهند فخراجها لا تزل ملجأ وحوش الغاب واوديتهـا مواطن الافاعي ومستنقعاتها موارد الحتوف

وهذه قارة اميريكا وحكومتها ارقى الحكومات وشعبها ارقى الشعوب فاتحة ابوابها لكل عامل نافع تجود عليهِ بالارض ليعمل فيها ويزيد في عمرانها

وهذه المملكة العثمانية تستطيع ان تأوي فيها فوق ما فيها من السكان اضعافاً مضاعفة

وهذه اوروبا المتمدنة اليوم المتضايقـة اكثر من سواها لم تبلغ الدرجة القصوى من العمارية

فانت ترى ان الارض لا تزال واسعة جداً على الانسان رغماً عن تشاؤم المتشائمين واحصاء الاحصائيين تقوم بأوده مهما زاد في عـدِده الى ان يتاح له ركوب متن الهواء لافتتاح السماء والمهاجرة الى الاجرام والسفر اليها بمراكب الحقيقة بعد مطايا الاحلام

فالتنازع بين الانسان ليس سببهُ المدافعة عن القوت والحروب ليس الدافع اليهـا الخوف من الجوع . وانما هي المطامع تحمل الانسان على قتل الانسان والمطامع هي جوع النفوس وهو أشد هولاً من جوع الاجسام

ألا ترى ان الانسان كما جاء في اساطير الاولين وفي كتب الدين ما صار اثنين حتى قام قايين على هابيل وقتله لانه ظن ان الله فضّله عليه اذ خصه بالضرع وهو لم يخصه الا

على مذبح الجهل ذبح الاغنام مما يجعل الذنب كل الذنب على اولئك الرؤساء الطغام

الاسلام دين اجتماعي ينهى عن كل شر لا يقاتل الا الذين يقاتلونه ولا يعتدي على الانسان ويأمر بالذود عن المستأمنين الآمنين في ظله وحاشا ان تأمر بغير ذلك شريعة القرآن . فالقرآن بريء من الفظائع التي ارتكبت وترتكب كل يوم بعلة الدين في مملكة بني عثمان

فيا مقلنسي الجهل ومعممي الضلال اين رأيتم في اديانكم ما يسمح لكم ان تزرعوا في رؤوس اتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس الى حد التباغض والتقاتل حتى قامت اليوم قيامتهم يقتلون بعضهم تقتيلاً في الوطن الواحد يعتدون على الآمنين لخلاف لا علاقة له بالدين

لو قامت الانسانية في كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الاديان الذين هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التي ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام منهم لما جنوه حتى اليوم على الانسان

عفوكم ايها الانبياء الكرام على قول ويا ايها الرجال العظام على قول آخرين مما جناه باسمكم على الانسانية هؤلاء الجهلة الطغام الذين قلتم فيهم ان لهم عينين ولكنهم لا يبصرون واذنين ولكنهم لا يسمعون صم بكم عمي فهم لا يرجعون

# المقالة التاسعة والثلاثون

## ﴿ الامم والحروب [1] ﴾

الارض واسعة جداً وحتى الآن لم يملأها الانسان فهذه قارة افريقيا على سعتها تعد اقل القارات سكاناً واضعفها فيهم نسبة ومجاهلها الواسعة غنية جداً ولكنها لا تزال على الفطرة بكراً حتى اليوم لم تطأها رجل فاتح ولم تبقر بطنها يد عامل فخيرها محفوظ في

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٨ وكانت غيوم السياسة الاوروباوية متلبدة بسبب المطامع في البلقان بعد اعلان الدستور العثماني مما كان ينذر بالحرب الا ان الكاتب كان يعتقد غير ذلك

الردى في المحاكم والامراض ولذلك اذا وجب على الانسان ان يحـذر لسانه مرة وجب عليهِ ان يحذر « يده » الف مرة

## المقالة الثامنة والثلاثون

### « ضحايا الجهل [1] »
### أو
### « الانسانية المظلومة »

لو تجرد الانسان مما غرس فيهِ من بواعث التفريق بعلة الاديان لما اتى منكراً بحق اخيهِ الانسان

على ان الاديان تنهى عن المنكر وهي كسائر الشرائع التي يقصد منها اصلاح العمران تعلم العطف على الانسان

ولكن الاديان كسائر مخترعات البشر تحول من النفع العـام حتى تصير وسائل للكسب في ايدي اولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الانسان

رؤساء الاديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم بهِ الاديان وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الايتام وكم خدموا بهِ اغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم الدنيا ولو داسوا الدين بالاقدام .

قامت النصرانيـة في العصور الوسطى بفظائع تقشعر لها الابدان حاشا للانجيل ان يكون الآمر بها وما قام بها الاَّ اولئك الذين هزأوا بالدين ليسحقوا بهِ الانسان بالاتفاق مع الحكام الظلام

ولو كانت النصرانية تأمر بهذه الفظائع لما رأيناها في الممالك التي ارتقت بالعلم شديدة العطف على الانسان . الا التي لا يزال الجهل مخيماً فيها والتي لا يزال اليهود يذبحون فيها

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٩

لا يحاكيهِ فيهما سوى ذوات الايدي الاربع كأن الامر فيهِ عادة مألوفة ليس للروية فيها ادنى دخل وهذا ما استلفت نظري اليهِ خاصة لاني رأيتهُ وأنا مار في الطريق فذكرني ذلك عادة كثيرين من الناس تراهم دائماً يشركون ألسنتهم في كل ملموسات ايديهم فالقاريء في كتاب يلحس اصبعهُ عند تقليب كل ورقة من اوراقه والبائع يلحسها عند فرز كل بضاعة واللاعب عند تناول كل ورقة من اوراق اللعب وبعض الكتبة يلحس الحبر عن الورق كلما اراد محو شيء كتبهُ للفور

وهي عادة قبيحة جداً وقذرة وبعضها مناف لآداب المجالسة وتجعل مجالسك يتقزز منك وهي على العموم مضرة بالصحة وقد تكون واسطة لنقل امراض قد يكون بها القضاء على الحياة اذ لا يخفى ان الامراض تنتقل بسهولة عن طريق الفم كالسل والحمى التيفوئيد والهواء الاصفر وسائر الامراض البسيطة والوبيلة

ولا يخفى ان اليد اقذر عضو في الانسان فهي التي يصافح بها عند التسليم ويتعرف بها كل ما يقع تحت نظره من الملموسات ويقبض بها كل انواع العملة . والعملة اقذر ما يتعامل به البشر لانتقالها في الايدي الكثيرة ومن فم الى فم كما يفعل اكثر السوقة من الناس وكما يفعل الاطفال انفسهم كلما وقع اليهم شيء منها . واذا تحرينا جيداً نجد ان العدوى بالامراض عن سبيل اليد هي على نسبة اعظم جداً منها بواسطة الطعام والشراب في الذين لا ينتبهون الى هذه الصلة بين اليد والفم

ولعل هذه الاشارة الوجيزة تكفي لحمل الذين يصل اليهم علم ذلك على الاقلاع عن هذه العادة المزدوجة القبح بقذارتها وضررها بالصحة ولعلها تكفي ايضاً لتربية الانسان نفسه على الحذر من يديه واعتبارهما من حين ما يخرج من بيته الى ان يعود اليهِ عدوتين له لا يأمن على نفسه منهما فلا يقربهما من فمهِ حتى يغسلهما جيداً بالماء والصابون ويكثر من الغسل كلما تيسر له ذلك

ويا ليت الناس يقلعون عن المصافحة باليد التي هي من شر العادات ويستغنون عنها اما برفع اليد الى الرأس او برفع العمارة عنهُ اذا كانت قبعة يسهل رفعها

واليد اذا لم يتق الانسان شرها هي اعظم جان عليهِ فهي التي تجره الى مواقف

لتمزيقها ايضاً بما سيحدثه من الكوارث والقلاقل بين الشعوب لانحصاره في جانب وانحساره عن الجانب الآخر وهو الاكبر ولسوء البخت هذا الحصر آخذ في الزيادة يوماً عن يوم بما لم يسبق له مثيل في تاريخ العمران وهو علة الاضطرابات الداخلية الحاصلة في كل مملكة وتألف العصابات لمقاومة اصحاب المال وان لم يتدارك ذلك ارباب السياسة بالحسنى لا بالعنف يخشى ان يكون سبباً لخراب الممالك هذا بالنظر الى الاقتصاد السياسي واما اذا نظرت اليهِ طبياً فانك تراه يصدق عليهِ قول الحريري

تبًّا له من مارق ممارق     اصفر ذي وجهين كالمنافق

فان الدراهم يتداولها الناس بايديهم ويضعونها في جيوبهم ومنهم من يضعها في فمه فتحمل جميع المكروبات التي تصادفها في طريقها وتنقلها من واحد الى آخر مكتسبة كل مرة مكروبات جديدة على حد اكتسابها بالربا . ومن العادات السيئة اعطاء الدراهم للاطفال فانهم لا يتأخرون عن ان يضعوها في فمهم فاذا كان عالقاً بها جرثومة مرض كالزهري او الدفتيريا او السلّ فتصور الضرر العظيم الذي يقع على الطفل من ذلك

فهذه ايها القارىء اللبيب عوامل ثلاثة لنقل الامراض مهمة جداً نبهناك اليها حتى اذا عرفت الداء سهل عليك الدواء راجين لك بذلك النجاة من شر المكروبات وهذا افضل ما نتمناه للقراء الكرام على رأس هذا العام

## المقالة السابعة والثلاثون

### « لحس الاصابع [1] »

« نصيحة طبية »

رأيت فتى يلعب بالنرد وهو كلما اراد نقل حجر ارسل اصبعه ( السبابة ) اولاً الى فمه ولحسها بلسانه وهكذا كان يفعل قبل نقل كل حجر . وكان يفعل ذلك بسرعة وخفة

( ١ ) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨

ثلاثة عوامل مهمة وهي « اليد » « والقبلة » « والدرهم »

فاليد اهم اعضاء الانسان في المعاملات يمدها الى كل شيء ثم يردها الى فمهِ وعينيه فان لم تكن نقية كانت سبباً لنقل العدوى . وهي العضو المستعمل للسلام مصافحة والسلام باليد عادة لا نبدي رأياً في قبحها او حسنها وانما نقول انها شديدة الخطر اذ ان الناس يتفاوتون في الاعتناء بنظافة ايديهم وقد يحملون بها جراثيم امراض كثيرة وربما استغربوا اذا قلنا لهم ان السلام مصافحة قد يكون سبباً لإيرادهم حتفهم ولإتلاف عضو من اعضائهم كالعين . ولاتقاء ذلك على الناس جميعاً ان يعتنوا بنظافة ايديهم وما ضنَّ الله عليهم بالماء فالفقراء والاغنياء ( ونستثني من ذلك سكان مصر والاسكندرية ) في التمكن من الحصول على ذلك سواء فلا يعذرون . ونعم ما فرضتهُ عليهم بعض الشرائع لو انهم يفعلون ونعم العادة المصطلح عليها اهل الشرق وهي غسل ايديهم قبل جلوسهم على الطعام وافضل منها غسلهما كلما تمكن الانسان من ذلك

والقبلة وما ادراك ما القبلة . صلة القلب بين العاشق والمعشوق وصلة النفس بين الام والولد وربما توسعوا فيها بين الصديق وصديقه وهي هنا صلة لا نعرف لها اسماً اذ انها غير طبيعية . فامراض الفم والرئتين كثيراً ما تنتقل بواسطة القبلة . فكم من طفل بريء اصيب بداءٍ رديءٍ بقبلة من مرضعته . وكم من عاشق اخذ الداء بقبلة من عشيقته وهنا نستميح العفو من سادتنا الشعراء فليس برد الانياب دائماً ريح الخزامى او نشر القطر كما في قوله :

كأن المدام وريح الخزامى وبرد الغمام ونشر القطر
يعلّ به برد انيابها اذا غرّد الطائر المستحر

ولا الريق دائماً بالشهد كما في قوله

فقمت ارشف من شهد اللّمى وانا اقول « هذا شفاء فيهِ للناس »

على ان الشعراء يتبعهم الغاوون وهم في كل واد يهيمون وكثيراً ما ينطقون بما لا يصدّقون فالحذر من القبلة فكم تورث الجسم علّة والقلب دبلة

واما الدرهم المفرق بين الام والولد فلا مشاحة في انه عصب الهيئة الاجتماعية كما يصفهُ الافرنج اذ تتوقف عليهِ قوة الافراد والامم . وكما انه عصبها سيكون يوماً ما سبباً

# المقالة السادسة والثلاثون

## القضاء المبرم [1]

« في اليد والقبلة والدرهم »

( صحية فكاهية )

لا نقصد بذلك يد الظالم التي يمدها للفتك بك . ولا قبلة المداجي الخائن الذي يبيعك بابخس الاثمان . ولا درهم جاسوس السوء الذي يتقاضاه ثمن هدر دمك . وانما المراد بهِ امر عادي جار كل يوم في المعاملات بين الناس وهم على تمام الولاء والاخلاص غافلين عما قد يجره عليهم احياناً من السقم والبلاء

ذهب الاطباء الى ان امراض الانسان ناشئة عن اجسام حية تتوالد وتنمو كما ينمو الحيوان والنبات صغيرة جداً لا ترى الا بالآلات المعظمة سمّوها مكروبات منتشرة في الهواء الذي نتنفسهُ والماء الذي نشربه والارض التي نطأُها وعالقة بكل شيء لنا بهِ اتصال واذا نجونا منها احياناً فاضعف فيها او لقوة فينا . فالهواء الاصفر الضارب اليوم في البلاد على اسلوب غريب لم يسبق له مثيل في تاريخ الاوبئة والحمى التيفوئيدية التي تفتك بنا كل سنة فتكاً ذريعاً . والتدرن الكثير الذي لا يبقي ولا يذر والدفتيريا التي هي طاعون الاطفال وغيرها من الامراض الكثيرة الخفيفة والشديدة اسبابها مكروبات خاصة بها تصل الينا غالباً عن طريق الفم بالطعام والشراب . وقد عرفوا ايضاً طرق اهلاكها فهي لا تقوى على النار التي تطهر كل شيء فاذا نقّي الطعام والشراب منها مع ما في عصارات المعدة من الحوامض المفسدة أمن الناس شرها . ونقاوة الماء تكون بالترشيح وافضل من ذلك غليهُ ونقاوة الطعام تحصل بالطبخ الجيد . تلك امور لا نقصد الافاضة فيها هنا وقد صارت معلومة اليوم . ومرادنا فقط ان ننبه الى انتقال جراثيم الامراض بواسطة

---

( ١ ) نشرت في المشير في عدد رأس سنة ١٨٩٦ بتوقيع « طبيب المشير »

وقد جرى الناس في تشويه الاخلاق مجراهم في تشويه الاجسام وهم في الحالين يحسبون انهم يحسنون صنعاً. الا ان تشويه الصفات الطبيعية قلما يكون له اثر يتجاوز الواحد من الناس وقلما ينتقل بالوراثة فلا يخشى تأصله ولعل صعوبة انتقاله بالوراثة هو الذي صرف الناس عنهُ بسرعة اعظم من سرعة انصرافهم عن تشويه الاخلاق حتى قلَّ ذلك اليوم وانتفى اكثره من بين الجمعيات المتمدنة وانطفأ اثره بانطفاء المشوَّهين انفسهم . واما تشويه الاخلاق فارسخ اثراً واسهل انتقالاً بالوراثة واصعب انتباهاً اليهِ ولذلك لا يزال اثره شديداً حتى اليوم في اعظم الجمعيات المتمدنة. ولهذا نرى الناس في تعاليمهم الدينية والادبية حتى الطبيعية حاولوا ادخال هذا المبدأ فعلموا قهر النفس وعدوا ذلك من الفضائل والمداجاة وعدوها من حسن السلوك والدهاء ومن قهر النفس الى انفجار غضبها وارتكاب المنكر ومن المداجاة الى الرياء والكذب لا يوجد الاَّ خطوة فتولدت في الانسان اميال لم تكن فيهِ واكتسب عيوباً كثيرة كان يمكن ان لا يعرفها وكثير من الامراض العصبية نشأ وتأصل وانتقل في نسله بسبب ذلك ولم يقتصر ذلك على العلوم الادبية بل العلوم الطبيعية نفسها لم تسلم من هذا المبدأ . فلقد طالما عدوا اميال الطبيعة ضلالات فاجتهدوا في مقاومتها فكم من مريض بات يتقلى على جمر الحمى فلا يسمحون له حتى ولا بالهواء ويشكو الظمأ فلا يجودون عليهِ بجرعة من الماء وربما اكثروا له من الدثار واوقدوا في غرفتهِ النار

وان العقل ليحار كيف تولدت هذه التعاليم وكيف تمكنت من الناس حتى صار التمسك بها يعد فضيلة وصواباً والخروج عنها رذيلة وخطأً وربما لم يكن الوقوف على اصلها متعذراً والعلم بنشوئها ممتنعاً الا ان الافاضة في ذلك تدفعنا الى مبحث يطول به الكلام ولا يسمح به المقام وربما عدنا اليهِ في فرصة اخرى

صور الاميال فلا تخالف اميالك لان الشرّ في الدنيا انما نشأ عن مخالفة هذه الاميال لاعتقاد الاوائل ان العنصر الغالب في الانسان هو الشر فحاولوا في تعاليمهم كلها مقاومة امياله الغريزية وعلموه ان يخالفها فاكتسب صفات غير صفاته الطبيعية صفات مشوهة يجهد الانسان نفسه لتطبيقها على طبيعة مختلفة عنها في المبدأ تنقلب شرًّا اذا خلا بنفسه عن نظر الرقيب مما يدلك على انها صفات مصطنعة لا طبيعية . ولا يصح هذا المبدأ حتى يصحّ ان جمال الصناعة افضل من جمال الطبيعة « وليس التكحل في العينين كالكحل » حتى صارت كل اعمال الناس مصانعة تنطبق على قوله

ارائيك فليغفر لي الله زلتي بذاك ودين العالمين رياء

فالانسان لم يكذب الا لانهم عاقبوه على الصدق ولم يسرق الا لانهم حجبوا عنهُ ما يحتاج اليه . ولا ريب ان كثيرين يستغربون هذا القول واستغرابهم له هو الباعث على ذكره لان استغراب الشيء يحدث في العقل رجة كثيراً ما تكون في اول الامر ضد هذا الشيء والمنبه اليهِ الا انها لا تلبث ان تحمل هذا العقل نفسه على التفكير والبحث وهذا يزحزحهُ عن مألوفه المتقادم عليهِ ويطلقهُ من عقاله المخمول فيهِ والكتابة ان لم يكن فيها ما ينبه الافكار بسطاً او الماعاً ويفسح للعقل مجال البحث لم يكن فيها شيء مفيد وكانت كبيت الشعر المستوفي قواعد الوزن والاعراب الخالي من المعنى اي كاكثر اشعار هذا العصر (١)

وهذا الميل في الانسان الى تشويه الاخلاق اي الصفات الادبية ظاهر فيهِ ايضاً في تشويه الخلق اي الصفات الطبيعية مثل تشريح الخدود عند الزنوج والوشم عند اكثر قبائل الشرق وتشويه الرجلين عند الصينيين وذكر ابقراط جيلاً من البشر كان يطلق عليهِ اسم المكروسفال اي الرؤوس المتطاولة كان يشوه رؤوس اطفاله حتى تتطاول وذكر شعباً من الصقالب كان يشوّه صدور بناته بازالة ثديهنّ الايمن بالكي بالنار وهنّ طفلات (٢)

(١) لم تكن النهضة الشعرية اخذت مأخذها البالغ اليوم على لسان نوابغنا المعروفين بل كانت الجرائد تنشر قصائد وتواريخ مبتذلة في حركات الخديوي خاصة مما حملني على القول لو ان الخديوي يجيز اصحابها بقرع العصا لوقى الاذان من شر قرع مثل هذا الشعر

(٢) ليمكنوهن من احكام اسناد القوس لتسديد الرمي

تحت عبء اقل القليل مما ذكرناه . شواغل غير الشواغل التي اشار اليها « اتوس [١] » في وصفه لي وصفاً عقل لساني واطلق فيض قلبي فلم يبق لي غير دمعة شكر اسالتها عيني على دمعة فكرٍ اسالها قلمهُ البليغ. شواغل لو قام لها الحريري من قبره ونظر الى ما حوله لبدل قوله :

اصطاد قوماً بوعظ  وآخرين بشعرِ
واستفزُّ بخلٍ  عقلاً وعقلاً بخمرِ

بهذا القول

اصطاد قوماً بمالٍ  وآخرين بمالِ
واستفزُّ بمالٍ  عقلاً وعقلاً بمالِ

ولكسر القلم وانشأ مقالة سماها « رثاء القلم في بلاد الرمم » افتتحها بقوله :

مالي اراك حزيناً ايها القلم  هل مات قومك يا مسكين كلهمُ
ماتوا ويا ليتني ما عشت بعدهم  اما تراني وحولي كلهم رممُ

قف ايها القلم قبل ان تتهور من حالق فما عهدي بك ممن يتجر بالكلام هل غرَّك ان المثالب تشرى وتباع وتهتز لها عروش الملوك في الاصقاع [٢] ونسيت قولك «الناس مذاهب والنفوس مراتب » ام خشيت الملام [٣] وما قلت حتى اليوم غير الحق وما نطقت بغير الصدق يعترف لك بذلك العدو قبل الصديق ونفسك من وراء ذلك لا ترتاب لانك في كل ما تقول تعرض عن الاشخاص ولا تشدد الطعن الا على المباديء فما انت ممن يحب في البحث التعرض للآحاد بل تتصدى للجموع ولا الوقوف على الجزئيات بل تتخطاها الى الكليات تشهد بذلك مباحثك كلها والكتابة مرآة الافكار والافكار

---

( ١ ) هذا هو كلام « اتوس » قال في الختام ما نصه « والرجل ربعة القامة مائل الى القصر اسمر اللون ممتليء العضل كهل عزب ولعل عزوبته كانت اعظم مساعد على اظهار مواهبه هذه حيث يتفرغ الفكر عن « شواغل » العائلة وينصرف الى الامر الذي يلذ له وكذلك كان غالب المشاهير » اه

( ٢ ) اشارة الى خطة بعض الكتاب ولا سيما على عهد حكومة عبد الحميد في هز خزائن العروش لاستدرار الاموال « ثمن سكوت »

( ٣ ) اشارة الى نشر مراسلة بينه وبين بعض المراجع العالية بلغه ان المراجع المذكورة استاءت منها

مصالحهم فليس لهم رأي عام كما يقولون ولو كان لهم ذلك لما تجاسر القاضي الذي حكم على « لابورت » المذكور ان يصب عليهِ ذلك الحكم الجائر فقد قال بعضهم لو اعتصب الاطباء بعد الحكم على لابورت ثلاثة ايام امتنعوا فيها عن تأدية وظائفهم لرأيت القضاة على ٠٠٠ ابوابهم يستسمحون

وعلى ذكر الرأي العام اقول ان كثيرين يذهبون الى ان الرأي العام في الشرق اسم بلا مسمى كالغول والعنقاء ومع ذلك فنحن نسمعهُ في الجرائد كثيراً ونفاه بعضهم عن المصريين بحجة قلة انتشار التعليم بينهم وفي الامر نظر [١]

# المقالة الخامسة والثلاثون

## ﴿ شواغل [٢] ﴾

انقطعت عنك ايها البصير زمناً طويلاً او قصيراً حسب اميال كل قارىء ووقع كتاباتي عنده موقع الاستحسان او الاستهجان لشواغل تهون لدى البعض وتعظم لدى البعض الآخر . والناس يختلفون فيما بهِ يتأثرون . فهنا رجل يخوض بحار الافكار ويصادم تيارها الجارف ويقف سداً في وجه الحوادث كأنه الطود الراسخ لا تقلقله ريح زعزع ولا اعصار ينسف الرمال ويقتلع الاشجار وينتصب مخروطاً يصل السماء بالبحار كأنه التنين الحرّان ولكن رأسهُ في السماء ورجله في الماء . يصادم كل ذلك بجنان لا يرتاب وقلب لا يهاب ولكن يحار ويتعثر لشيء يذكر ولا يذكر قد لا يعتد به سواه ممن ينوء

(١) هنا بقية حذفت لعلاقتها بامور خاصة واعلم ان الرأي العام المصري الذي كان مشكوكا فيه يوم كتابة هذه المقالة اصبح اليوم شيئاً مذكوراً . وان الناظر اليوم الى حالة الامة المصرية من هذه الجهة يسر سروراً لا يوصف اذ يرى سرعة تكون هذا الرأي فيها وتعاظمه سنة عن سنة حتى صارت تفهم جيداً مزايا التضامن في العمران

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ والعنوان من كلمة وردت في كلام لبعضهم في الكاتب نشر في ذلك العهد في جريدة الاخبار بتوقيع « اتوس » تحت عنوان كتاب العربية في مصر

الاطباء يدفنون اغلاطهم في الارض والقضاة ينشرونها في الهواء ( اشارة الى دفن الميت وتعليق المشنوق ) وهم لو اقتصروا على ما سنَّه لهم ابوهم ابو الطب ابقراط حيث قال « على الطبيب ان يتوخى منفعة مريضه فان لم يستطعها فليجتنب الاضرار بهِ » لوجدوا لهم من انفسهم عاذراً ولما استحقوا كبير ملام لان الطب كما قال احد حكمائهم « يشفي نادراً و يسكّن غالباً و يعزّي دائماً » ولكن الاطباء بشر كسائر الناس يختلفون نظيرهم في العقول والاخلاق فهذا يعتمد على البساطة في طبه كما يكون بسيطاً في لبسه ومعيشته وذلك على ذر الرماد في عيون المرضى كما يذره في عيون سائر الناس في سائر احوال معيشتهِ فلكي يصف لك قدح ماء يستقطر البحر و يستمطر السحب و يستسيل الجمد ومنهم من ينظر الى مريضه شزراً و يجلس الى جانبهِ و يعيره ظهراً [1] وربما اراد ان يدل بذلك على خفة الداء لا على قلة الاعتناء ومنهم وكنت اود ان لا اذكر ذلك من يقصد تكثير الربح كأنه شريك الصيدلي ( اعوذ بالله من شر الصيادلة فهؤلاء يلزم لهم فصل مخصوص) فعوضاً عن الدواء البسيط يعدل الى المركب وعوضاً عن ان يصف لك بعض قمحات في مقدار من الماء يمزجها و يقسمها اوراقاً او حبوباً او برشانات تزيد على المائة عداً و يشغلك يومك وليلك في تجرع هذا الدواء على الساعات والدقائق والله اعلم بالعواقب . والحق يقال ان الذنب ليس كله عليهم فالناس لا يرضون عن طبيب الا اذا قلبهم ظهراً و بطناً في ما يلزم وما لا يلزم وعادهم صباح مساء وظهر عشاء وكتب لهم من الدواء ما يخرج بهِ من عند الصيدلي مستغيثاً بالحوذي ومركبته فعن الاول يقولون انه « معتن » ولو لم يفهم شيئاً وعن الثاني انه « شاطر » ولا يصفحون عنك ولو فهمت حالة المريض من مجرد تحديق نظرك فيهِ وشفيتهُ بدواء لم تتعدَّ بهِ دائرة المطبخ فانهم لا يزالون يرمونك بالاهمال والجهل ولا يريدون ان ينسبوا ذلك الى نظرك الدقيق . على ان الاطباء مهما بالغوا في الدهاء فالمرضى يفوقونهم في ذلك فكثيراً ما لا يكافئونهم بغير تمزيقهم بلسانهم وانا انصح لك كلما سمعت احداً يذم طبيباً ان تسأله اذا كان دفع له حسابه فغالباً تجدانه لم يدفع لان الذين يدفعون قلما يذمون . وزد على ذلك ان الاطباء اشبه شيء بالضرائر ليس بينهم عصبية تحمي

[1] ( ١ ) اشارة الى مسالك الكاتب في الاحوال التي كان يتحقق خفتها مما كان يجلب عليه الانتقاد

وعوملت هذه المعاملة لخرجت من السجن وعيناي تقدحان شراراً لا اطلب الا الانتقام واؤكد للجميع بان طباعي الحقيقية تأبى الاضرار عمداً حتى بالحيوان بل اميل جداً الى تحمل الضيم وامثالي في الدنيا كثيرون فلماذا نفسد اخلاق مثل هذا الانسان ولا نحاول اصلاح جانب الضعف فيهِ والانتفاع بما فيهِ من القوة فالعقاب يلزم ان يراعى فيهِ اشياء كثيرة غير مستدركة لا في السجون ولا في القانون

والقانون وما ادراك ما القانون مجموع شبهات وظنون في ما هو كائن وما لا يكون بل هو عقبة في سبيل تقدم الانسان في العمران ولو اغضب ذلك سادتنا القضاة والمتشرعين ورموني بالجهل وعدوني متأخراً عن عصري خمسة الاف سنة او متقدماً كما يريدون وقد عده الناس ابونابرت الحسنة الوحيدة بين سيئاته الكثيرة وهو شر ما جنت يداه على الانسانية فلا قتله الالوف المؤلفة من البشر ولا تخريبه المعمورة مدة ربع قرن يقاس بشيء من اضرار هذا القانون الثابت فالشريعة ليست من العلوم الرياضية حتى تدوَّن في بنود كقضايا مسلمة تجري مجراها ولا تنقَّح حتى يتفاقم ضرها ويكثر شرها فالشرائع لا تعاقب ذنوباً بل مذنبين كما ان الطب لا يداوي امراضاً بل مرضى فهي ابسط من ذلك جداً في اصولها واشد اختلاطاً في فروعها فالاحكام الاجتهادية افضل جداً من الاحكام القانونية ولا نظن ان البلاد التي تعول في احكامها على الاجتهاد لا على القانون كبلاد الانكليز اسوأ حالاً من البلاد القانونية ان لم تكن اصلح منها بكثير اقول ذلك ولا اقصد به امراً معلوماً او اناساً معلومين وارجو ان لا يحمل الناس كلامي على ما بين طائفة الاطباء والقضاة مما بين السنور والتمثم (كلب الصيد) خصوصاً بعد حكمهم الجائر في باريس على المنكود الحظ الطبيب «لابورت» (١) مما اثار غضب الاطباء عموماً على المحاكم وسلقوها في جرائدهم بالسنة حداد

وعلى ذكر الاطباء اقول ان هذه الطائفة — وقاك الله شرها — كثيرة النفع كثيرة الضرر اذ يتوقف عليها صحة الابدان وحياة النفوس فاصابة منهم قد تحيي وغلطة قد تودي وهم من هذه الجهة يتشابهون كثيراً مع القضاة والفرق بينهم كما قال بعضهم ان

(١) كانت حكاية الحكم على هذا الطبيب في فرنسا شائعة يومئذ كثيراً ومستنكرة جداً

البال اذ تضيق بنا الحال فالاهتمام بامرها مما يهم كل انسان فهي بين الفنادق والمستشفيات ومن يضمن لنفسه كبيراً كان او صغيراً أميراً او صعلوكاً غنياً او فقيراً عالماً او جاهلاً انه لا يحل يوماً ما ضيفاً على الحكومة في هذه البيوت المروّضة للابدان المروّقة للافكار .
ونحن في عصر بلغ فيهِ التأنق والاعتناء بالفنادق والمستشفيات مبلغاً عظيماً وما ذلك الاَّ لان احوال البشر اقتضت ذلك لانه لسوء الحظ او لحسنهِ زادت احتياجات الانسان بالتمدن حتى صار انتفاء اسباب الراحة التي تعودها يجلب له الضرر ولسوء البخت كذلك الناس في الهيئة الاجتماعية طبقات فلا يقاس العالم بالجاهل ولا يعامل المتعود على التأنق بالمعيشة كالمتعود على قشف العيش فانزال الرفيع الى مقام الوضيع لا يناسب احياناً كثيرة والعكس جائز هنا . والسجون وجدت لحبس الرجل عن الشر وترويض افكاره مدة سجنهِ فاذا لم تستجمع كل الوسائل الصحية والادبية انقلبت فائدتها وزادت الاخلاق فساداً اذا كانت فاسدة وربما افسدتها اذا لم تكن كذلك وكما ان الذنوب التى يرتكبها البشر درجات فالعقاب يجب ان يكون درجات كذلك لا في مدة السجن بل في نوع السجن ايضاً ومن الذنوب ما هو ارفع مقاماً من سواه ولو عاقب عليهِ القانون فالذنوب السياسية والكتابية غالباً قلما يعد السجن فيها اهانة حقيقية تلبس صاحبها وصمة عار لا تمحى ونعني بالذنوب الكتابية الذنوب التي يرتكبها كتاب لهم شأن معدود في عالم الكتابه لا الكتاب المتطفلون الذين لا شأن لهم مطلقاً فحبس مثل هذا المذنب مدة لا يراعى فيها مقدار ذنبه والضرر الذي نشأ عنهُ والضرر الذي يلحق بهِ في حبس واحد مع القاتل والسارق والمرتكب بل حبس المتعلم والمتهذب مع من لا تربية له ولا خلاق وفي مكان غير متوفرة فيهِ اسباب الراحة والصحة كما هو شأن اكثر السجون[١] . لا شك انه مفسد للصحة مفسد للاخلاق ولا نظن ان القصد من السجن ادخال الامراض على الجسد والعقل لقتلهما وقتل مستقبل الانسان خصوصاً لذنوب كثيراً ما تكون هوائية واني اتصور في نفسي انه لو وقع لي مثل هذا الامر واخذت الى السجن لسقطة قلم او زلقة لسان[٢]

(١) سجون مصر كانت حتى هذا العهد سيئة جداً ولم يكن قد تم فيها شيء من الاصلاح اليوم
(٢) كان ذلك على اثر سجن بعض رجال الاقلام

ورغائب امته وهو خطأ فان حكومة الانكليز وامتهم لا ترضيان عن سلوك مثل هذا الفرد لو علمتا به والذي يزيد عتو هؤلاء الافراد الذين هم على امتهم شرٌ من الاعداء جبن مرؤوسيهم وانقيادهم لتحكمهم حتى تمادوا في احتقارهم وعندنا ادلة كثيرة على ان اللورد كرومر لا يسمح باهتضام الحقوق الى هذا الحدّ ويكون جذلاً مسروراً اذا كان الناس يرفعون اليه شكاويهم ولا شك انه ينيلهم حقهم اذا كانوا محقين . فلو جرى الناس والجرائد على هذه الخطة عوضاً عن الطعن العام الذي يوغر الصدور لخدموا الامتين امة الانكليز لانها تعلم مكان الضعف فتداويه والامة المصرية لحصولها مع الاصلاح العام على احترام الحقوق الشخصيـة فتقوى روابط الالفة بين الامتين وانقياد فردٍ لفرد وأمة لامة قضاء طبيعي فالمجاملة والحالة هذه خير من المخاصمة العقيمة فقد قال امام الشعراء

ومن نكد الدنيـا على الحر ان يرى عـدواً له ما من صداقته بدُّ (١)

ام اتكلم في موضوع « كثرة الوفاق نفاق » هؤلاء يقولون ان الانكليز كل اعمالهم سيئات واولئك لا يرون لهم الاَّ حسنات ومهما حاول كل من الفريقين تأييد رأيه فلا نظن ان ذلك ينطبق على الواقع والعقل لا يسلم بامكانه فتقع الريبة وتسوء الخدمـة التي يتوخاها كل واحد من خطته ونعني بهذه الخدمة الخدمة العمومية وقد لا نشك نحن بان كلاً من الفريقين قد يكون مخلصاً في دعواه ولكن زيادة التحمس كثيراً ما تؤدي الى تجسيم الوهم على حد قوله

وهمناك ان تعطي فلو لم تجد لنا لخلناك قد اعطيت من شدة الوهم

الا ان عموم الناس لا يفهمون ذلك فتغرهم الامثال والامثال ولا يخفى تجري مجرى الحكم ويشجعهم خصوصاً انطباق السجع فيقولون « كثرة الوفاق نفاق »

ام اتكلم عن السجون فقـد مرَّ بك ذكر هذه اللفظة عرضاً وهي موضوع يستحق الالتفات كيف لا أليست السجون المكان الذي نختاره للراحة من عناء الاشغال وتبلبل

(١) انا لا اشك اليوم ان سياسة الوخز واللكز التي استمرت بين المحتلين واهل البلاد مدة طويلة هي التي ولدت هذا الكره الشديد وعدم الثقة بنيات الحكومة حتى صارت الامة تنظر الى كل مشروعات الهيئة الحاكمة بعين الريب

غير ان الانسان يفعل في الاحـــوال ما قد يفعلنَ في الاشكال

ام تزاحمت عليك المواضيع وانهالت عليك الافكار فوقفت بينها حائراً كما وقف حمار « بوريدان » بين حزمتي الحشيش [١] لا تعرف باي تبدأ ولا اياً تختار . أتبـدأ بقولك « الانكليز يصلحون فلماذا يكرهون » كانك تريد ان تثبت هنا حقيقتين متناقضتين ولو بحثت عن السبب لزال منك العجب فالاصلاح واقع لانه ينطبق على مبادئ هـذه الامة العظيمة وحكومتها لا يسعها الا ان تسير على رغائب الامة لان قيادها في يدها . فمصر تحت سيطرة الانكليز انتظم ريها واتسعت زراعتها واثرى فلاحها وصارت حياته ذات قيمة وانتظمت ماليتها حتى صارت موضع ثقة العموم و بلغت الحرية فيهـا مبلغاً تفتحت له ابواب السجون . فالاصـلاح حقيقي ولو ابتلعت [٢] بواخرها في البحر واغرقت بسنديلتها في البر فالبواخر في البحر معرضة للحيتان والارض في البر معرضـة للطغيان ويقال ان ستبقى رأية مصر تخفق في البواخر فوق رأية الانكليز كطربوش صاحب المؤيد فوق قبعة القبطان [٣] واما كرههم فحقيقي ايضاً وله سببان الاول طبيعي فهم دخلاء في البلاد والدخيل لا يحب ولو جلس في اخريات الناس فكيف بهِ اذا جلس في صـدر البيت على ان هذا السبب ليس بالجوهري فهو غالباً يزول اذا رأى اهل البيت في الدخيل كفاءة وامتيازاً وانسوا منهُ حسن معاملة وصلاح حال . والسبب الثاني وهو سبب هذا الكره الحقيقي عتو بعض افراد الانكليز وصلفهم واستبدادهم وتغطرسهم واساءتهم الى الذين تربطهم بهم روابط المصلحة في دوائر الحكومـة فالحق يقال انه يوجد بين هؤلاء الافراد من لو شد الى قرن لم يقوَ عليه ٠٠٠ اثنان على انه كما يوجد فيهم عتاة يوجد فيهم ايضاً من لو وضعتهُ على جرح لكان كالبلسم كما في كل امة . وقـد تعود الناس اذا رأوا اساءة من فرد ان يطعنوا على هذا الفرد بالطعن على جنسه حتى يظن الذين يسمعونه ان كل ابناء جنسه من طرزه فيتوهمون ان اعمال هـذا الفرد المغايرة تنطبق على سياسة حكومتهِ

---

(١) مثل فرنساوي للـدلالة على الحيرة (٢) اشاره الى صفقـة البواخر الخديوية واراضي بسنديلة التي باعتهـا الحكومة يومئذ الى شركة انكليزية (٣) اشارة الى ان الرأيتين الانكليزية والمصرية ستخفقان معاً فوق الباخرة في آن واحد

البحار ؟ ولماذا كانوا عبرة لسواهم ولم يكن سواهم عبرة لهم ولا فضل لسواهم عليهم ؟ ولماذا لم يكن الحق شاملاً وهو عين الصواب لو صح القول ؟ . . . فاتقوا الله يا دعاة الله وكفوا عن نسبة مثل هذه المظالم اليهِ واعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ولا تجمعوا فيهِ بين النقيضين وتعيدوا لنا بهِ عصر تيمورلنك وملوكنا الجبابرة السفاحين فلا تجعلوا الزلازل من غضب الآلهة وهي من الطبيعة الغشيمة وشرها اعمى . فليرحم الانسان الانسان ولا يشدد القضاء عليهِ في مصابه وهو ليس اصلح في نجاته منه في نكباته

هل دريتم بما جنيتم فمظلو مون انتم وانتم الظالمونا

# المقالة الرابعة والثلاثون

## ﴿ نظرة هامة في مسألة عامة [1] ﴾

« انتقادية فكاهية »

مالي اراك ايها القلم تتعثر وعهدي بك اجرى من السيل وتتثلم وعهدي بك امضى من السيف . افراغ جيبك افرغ جعبتك وفراغ الجيوب املأ لوطاب العقول وافسح لمجال الافكار . ام تراكمت دونك العقبات فخشيت قول الشاعر «الجود يعدم والاقدام قتال» ونسيت قوله في صدر البيت « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ام لعلك نسيت قولك

ربَّ ساعٍ بالعزم وهو ضئيل دكَّ طوداً من راسيات الجبال

ام كبرت عليك المطامع فثبطت منك الهمم او لست انت القائل :

ربَّ ساعٍ بالحزم وهو ضئيل صار قيلاً من اعظم الاقيال

ام راعك ان قراءك لا يبلغون نصف العشر ولا نصف نصفه [2] فتذكرت قولك :

قد يني المرء لاقتضاء استواء ووفاق لسائر الاحوال

وذهلت انك انت القائل

---

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ (٢) كما ظهر من الاحصاء الذي عمل في ذلك الحين

وطب الابدان . علوم الفلك والاحداث الجوية وعلوم اللغات بقدر ما يستطيع الانسان ان يفهم ما يعلم وان يعبر عما يفهم . فتذكرت عهداً مضى وقلت هذه مرضعة العلم الصحيح وذكرت قولي فيها يوم فصالي عنها

ايا نسمات الريح مني تحمَّلي سلاماً على ربع اطال تغزلي
ويا ربع بلغ في حماك تحيتي عروساً بكأس العلم في الشرق تجلي
عزيزة امثال ودانٍ وصالها تقول وقد ماست بثوب التدلل
لقد طالما القى الرحيق محرماً ألا فاشربوا من ذا الرحيق المحلل

فسلام عليكِ ايتها المدرسة الكلية والف سلام

ثم صحوت — واذا الحقيقة كالمنام

# المقالة الثالثة والثلاثون

## ﴿ الزلازل غضب الآلهة ؟ [1] ﴾

لا ريب ان الانسان كما كان وكما هو اليوم لا يستحق رحمةً من خالق ولا عطفاً من مخلوق . نهمٌ جشعٌ ظميٌ لا يرويه شيء يلهمهُ فتاكٌ غدّار سفّاح لا يردعهُ دين او أدب . ولكنهُ مخلوق . . . . فهل خلق مستودعاً للشر وقارورة للفساد ؟ ولماذا لم يخلق وديعاً كالحمل وطاهراً كالحمامة وهما دونهُ في مراتب الخلق ولم يُخصَّا بما خص هو بهِ من حلو آمال وجميل مآل . . . حتى قام عليهِ إله ابرهيم واسحق ويعقوب المنتقم وامطرهُ ناراً وكبريتاً ونسف بهِ الارض حمماً لذّاعاً ودفنهُ حياً تحت التراب يقاسي هول العذاب . وكان في امكانه ان يخفف عنهُ مشقة هذا الغضب ويخفف عليهِ عذاب هذا المصاب لو جعله اقوم خلقاً واصلح خُلقاً . وما ذنبهُ وهو ليس كذلك ؟ بل ما ذنب هؤلاء المساكين الذين فتكت بهم الطبيعة العمياء فانشقت الارض بهم وابتلعتهم وجرفهم الماء الى قعر

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٩ بعد زلزال سيسيليا رداً على اولئك الذين زعموا انه عقاب من الله

واذا بي في قاعة مظلمة كأنها الليل الدامس ثم انبثق نور لامع مزق سجفاً من ذلك الليل المدلهم واذا الجبال والاودية والانهار والبحار والمناجم والمصانع والحيوان والنبات والانسان والبلدان والمدن تمور موراً وتنتقل بي وانا في مكاني بين الاقطار الشاسعة . والاعمال النافعة . فقلت ما هذا قيل ملهى الاطفال . فقلت نعم رجال المستقبل ثم خرجت

واذا بي في قاعة كأنها القطب البارد قام فيها رجال يتكلفون الجلال . ويحدثون بانواع الكمال واذا بهم في قرون الجهل والضلال يصفون الكلام بانسجام ليلهوا الناس عن الحاضر بالغابر . فالتفت مع الملتفتين ومددت رجلي مع المادين . وما انتبهت الاً وعنقي من التلفت الى الوراء يكاد ينحر . ورجلي امامي تتعثر . فصرخت من الالم ما هذا فقيل لي الجامعة قلت ما هي اذن بالنافعة

ثم انتقلت واذا دوي يصم الاذان كأن فولكان القدير يتهددالبشر بصواعقه وشرر يتطاير كأن جهنماً استبطأت الناس فتهادت اليهم نارها . فاوغلت واذا انا في مكان رهبت منهُ رهبة اجلال اذ رأيت هراقلة البشر يغالبون الطبيعة فيغلبونها تعصف بالنار رياح كيرانهم كأنها نفخ الافاعي فيذيبون بها الحديد كالشمع ويصبونه صباً كالزيت ثم يصنعون منهُ اسلاكاً ادق من لعاب العناكب وينهالون عليهِ بمطارقهم فيدعونه صفائح ارق من دين الكافر فقلت ما هذا قيل لي « ورش بولاق » فقلت نعم المسجد

ثم انتقلت واذا انا في بناء فخيم يملأ اربع زوايا المسكونة مزوق الظاهر مزخرف الباطن فنظرت واذا في جهاته الاربع اقوام يتشاوسون يطولون ويقصرون ويقومون ويقعدون وغيرهم ينوحون ويتخبطون او يستطيبون ما يكرهون فخرجت ولم اسأل وقلت الجهل بهم خير من العلم

واذا بعاصفة حملتني ثم وقفت بي على شاطيء بحر رمله كحصباء الدر فاجلت طرفي من « مفقش الموج الى مبسم الثلج » وقلت سلام عليك ايها الوطن الحبيب . واذا اكمة كأنها كرسي الجوزاء قائمة تطل على ذلك البحر وعليها بناء فخيم او هو سلسلة بنايات تناطح السحاب سمواً وكأني فيها فرأيت ميازيب العلم تتدفق منها كالبحر الزاخر علوم المعادن والحيوان . علوم النبات والانسان . علوم الطبيعية والكيمياء . علوم منافع الاعضاء

شأنها شأن المنارة التي يستضيء العمران بها في العالم اجمع لسهولة ارتباط بعضه ببعض وسيطرة بعضه على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة واول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الامم سيادة حقيقية وسقوط سيادة الملوك ولا يستتب لها ذلك على قواعد متينة حتى تنتشر وتتأيد فيها الاشتراكية الصحيحة المبنية على تقاسم المنفعة على نسبة الاشتراك في العمل لا كما يفهمها البعض من خصومها . وان من يقابل بين حالة اوربا قبل حرب السبعين وما آلت اليهِ بعهدها من الارتقاء الحقيقي في كل شيء يرى ان سيادة الملوك في احتضار من ذلك اليوم . بل من يقابل بين حالة الشعوب الجرمانية من عهد غير بعيد وما هي عليهِ اليوم من الاشتراكية العظمى يستعظم مجرى الافكار فيها لخلع تلك السيادة ولا يتوقف تقريب اجل ذلك الا على حركات عاهلها اليوم لان شدة الضغط تسرع الانفجار وهي حركات لو كانت في عصر نابليون لالهبت العالم واسجد لها كل معجب بسلطان الفرد ولكنها اليوم حركات يزدري العاقل بها وقد لا تضر الاَّ مؤتيها

## المقالة الثانية والثلاثون

### ✵ حلم هو الحقيقة (١) ✵

بت ليلتي وعوامل متناقضة تتنازعني . قليلها يوجب الشكر و يجلب الهناء . وكثيرها يلهب الفكر و يمزق الاحشاء . واذا بي كأني في قاعة تسطع فيها شموس الانوار وتجعل الليل ابهى من النهار . مكتظة بأناس طلوا الظاهر فما زادهم الطلاء الا نميمة شفَّت عما في الباطن . وهم يشهدون تمثيلاً من عالي الوضع . ولكن مبتذل الطبع . رأيت الحب يتضرم فيقدم . و يتألم فيحجم . ثم يتهتك فيشين . و ينقم فيخرب العالمين . والناس يعجبون و يصفقون ثم يقولون هذا هو الادب الرائع . فسألت فقيل لي هذا ملهى الرجال . فقلت بئس الاطفال وخرجت

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٩

وعدم احتفالي بالاعراض هو سبب عدم احتفائي بالنظامات الموضوعة غير ناظر من خلالها الا الى المبـدأ والجوهر ولا يراد من ذلك اني أبدي احتقاري لها في غير مقام الانتقاد بل بالضد انا من اشد الناس احتراماً لها في مواقفها فاني لادخل الجامع والكنيس والكنيسة وفي نفسي تأدب فوق خوف المتقين ومع ذلك فلم اسلم من شرها فقد وقفت مرة امام قاضٍ ـ غير موقف المتهم ـ فما عتم ان نظر اليَّ مقطباً فبسطت له وجهي لعله يحل قطبـة من قطب جبينه وكأنه استعظم سلطته فاراد ان ينتقم بها لاجداده عن خمس عشرة الف سنة مضت فانتهرني كأني اجير في باب امير وما علمت اني اسأت الادب بحضرته الا بعد ان دلني على ان يدي التي كانت هنا يجب ان تكون هنا فصدعت بالامر صاغراً صوناً لكرامتي من اعظم في هذا المأزق الحرج ثم مرَّ بخاطري بسرعة البرق التاريخ الطبيعي والاجتماعي واثر الماضي في الحال وسرعة هذا الانتقال وترحمت على الخليل فعذرته وعلمت لاول مرة ان التأدب غير الادب الحقيقي

واللانظام الذي ندعو اليهِ ليس كاوس الاقدمين ولا فوضى المحدثين وانما هو نظام ايضاً ولكنهُ متحرك فلا يستقر على مر الاجيال حتى تضيع بهِ الغاية التي وضع لاجلها بل يتغير لكل حال صوناً لهذه الغاية ولو راعى الناس في شرائعهم ذلك لما بدا فيها كل هذا الوهن ولما سببت كل هذه الحروب بين منكر ومقر وكافر ومؤمن وناقم وراض و بين الشيع من كل حزب ولما بدا مصلح الامس رزءًا على مصلح الغد . ولكن هي الاعراض أربت على الجواهر وكان ضررها في الاجتماع اشد لان الاجتماع عاقل فاضاف الى تباطيء سير الطبيعة المطبوع تثاقل نظامه الموضوع

ولكن نواميس الاجتماع كنواميس الطبيعـة مصيرها فيهِ الى الارتقاء ولو ادت بهِ الى الوقوف والتقهقر احياناً وسرعتها فيهِ كسرعتها بالقاب كمربع البعد واستخدام الانسان قوى عقله الصائب فيهِ تزيد هذه السرعة سرعة على نفس هذه النسبة . ومن يوم خطت اوربا خطاها في سبيل العلم الحقيقي واخذ ظل الاوهام يتقلص من العقول صار الامل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء ولا نريد بهذا القول انهـا على وشك بلوغ الغاية القصوى فيهِ وانما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية ولا ريب في انها ستكون الاولى في الاستفادة وسيكون

نشأتي وظن ان الذي يكتب ما اكتب لا يمكن الا ان يكون عضواً في تلك الجمعية الكبيرة السرية التي عفا جوهرها تقادم العهد ولم يبق منها اليوم الاّ تلك السخافات التقليدية والتهويلات الارهابية والتي فاقت في الاحتفاظ بها كل تقليد فكتب اليّ يطلب مني ان ادخله في الفرع منها الذي انا منهُ وما كان اشد حيرتي حينئذٍ للجواب بما يدحض الظن ولا يؤلم العواطف لان تحويل الظن نفسه جرح وان كانت الكهولة لا تتألم منهُ الا انه في الناشئة أليم فكتبت له واقتصرت على هذا القول كأنهُ جملة انشائية « اما انا فلا اختص بجمعية دون اخرى وانما انا عضو في جمعية كبرى من ضمنها جمعيات » فلم يبطيء ان كتب اليّ ان ادخلني في هذه الجمعية فكان استغرابي حينئذٍ اشد من حيرتي وفضلت هجر الصمت على ألم التقويم بالرد والرجل لا اعرفهُ ولا أعرف اسمهُ اليوم فليطمئن من ذكر الحادثة

وما ذكرتها الاّ بياناً لسطوة النظامات الموضوعة على العقول ولو المتنورة حتى انه ليزول جوهرها ولا يبقى الاّ عرضها ولا يزول سلطانها فكم من نظام وضع لمبدأ حسن ثم كان النظام نفسه مزيلاً لحسناته مطفئاً لنوره و بقي نظامهُ راسخاً لا يتقلقل حتى تهب عليهِ عواصف الثورات فتقتلعهُ عنوة كما تقتلع الاعاصير بواسق الاشجار من جذورها ولكن بعد اضاعة الزمن الطويل اي الى ان تبلغ الافعال المتجمعة ضده مبلغها الهائل من الانتشار والشدة ولولا ذلك لسار الاجتماع في ارتقائهِ على وتيرة واحدة مع الطبيعة في نظامها الطبيعي الذي هو بالحصر لا نظام الا قدر المنفعة . وسرعان ما اسمع المعترضين من احرار ومتقهقرين مقيدين وغير مقيدين دستور بين وغير دستور بين الا الذين استهواهم نظام الطبيعة المطبوع ولم يفتنوا بنظام الاجتماع الموضوع يصخبون و يقولون متعوذين كأنك تدعو الاجتماع الى ان يكون الناس فيهِ فوضى لا سراة لهم وما هي الا الفاظ وضعوها هم وآباؤهم ما انزل الله بها من سلطان والا فاللانظام الذي ندعو اليهِ ليس بدعة اوَ ليس هو رائد ابدع قوى الطبيعة كما هو شأن الحياة او ليست مركباته أبدع مركباتها كما هو شأن الاحياء فكما ان الطبيعة ترقى اليهِ فالاجتماع لا بد من ان يتحول كلهُ اليهِ وما قوفنا في سبيله بمحض ارادتنا و بنظاماتنا الا جناية فوق جناياتنا الاخرى عليهِ

وها نحن الآن في العقد الاول من القرن العشرين والملوك كالالهة على عروش مجدهم والناس كالسائمة في حقول جهلهم . فكنت بنبوتي الكاذبة نبياً كاذباً حلت له احلامه فاعتبرها حقائق . واثبت بذلك على نفسي جهلي بطبائع الناس كما اني اثبت عليها خلوها من الذكاء الشرقي فلم اراع اثر الدهور في مقوسي الظهور ولا وطأة المداس في مطأطئي الرأس كما اني لم اراع في مقاب الدهاء نعومة ملمس الرقطاء لاستطلاع مناجع الكلاء

على اني لا اكون عادلاً اذا جرت كل هذا الجور في الحكم على نفسي . لان نبوتي ان لم تصح كلها صورة فقد صح جلها معنى وما خطائي الاً في ضربي الاجل وتعييني الزمان ولو قلت بعد زمان لا يطول لامنت الانتقاد ولحاكيت بالحصافة ارباب السياسة ولكن الناس طبائع فهذا يستمسك بالاعراض وذاك لا ينظر الا الى الجواهر وانا ممن لا يقفون عند الصور بل ينظرون الى المعاني لا كما ينظر بعض كتابنا من قادة الامة فيستحصلون من التبر تراباً ثم ينبشون القبور و يسيغون من السم شراباً يخدرون بهِ اعصاب الامة لئلا تنشط من العمى فتبصرهم في صور اجدادهم قبل العصر الحجري قروداً تقهقه وعجائز يلطمن . بل انا انظر من خلال ذلك الى الزُبَد ولو انها كما في الخرنوب درهم دبس في قنطار خشب . فكأنني حر كاحرارنا ولكني غير دستوري فلا اقيد الحرية بالقانون ولو سنّ القانون لها لئلا اكون بهِ حراً في استبداد او مستبداً في حرية . وما اغرب هذا القول في هذا العصر الدستوري خصوصاً بعد هذا الانقلاب الاخير الذي كنت اول المتمنين له ولكن آخر الحالمين بهِ حتى قلت فيهِ لشدة يأسي منهُ — في مقال عنوانه وكما تكونون يولّى عليكم — « لا يأتي الدواء من العراق حتى يكون العليل قد فارق » وهذه نبوّة ثانية لي كاذبة — على الاقل الآن — فكأني العاطوس في معطس الدهر فكلما قلت قولاً كذبتني الحوادث حتى صرت اتمنى ان تنفتح لي ابواب الجحيم لاكون على يقين من الفوز بجنات النعيم

وهذا هو السبب الذي لاجله لم اقبل ان انتظم في جمعية مشروعة انتظاماً قانونياً ولو انضممت الى مبدأها وكنت في طليعة الذائدين عنهُ لاني اريد ان تبقى لي حرية القول والعمل للبلوغ اليهِ غير مقيد فيهِ بنظام او زمان ولقد غُرَّ بي بعضهم من كتاباتي في اول

لدى صعلوك اجنبي فالواحد منا جبار على ابن جنسهِ ولو فاضلاً وذليل لدى الغريب ولو انه أذل من بيضة البلد . فمتى بلغت الامة هـذا المبلغ من الدناءة فاي خير ترجو منها . واي نهضة علميـة او ادبية أو اجتماعيـة ترجو من مثل هؤلاء الاقوام الذين لا تجمعم جامعة ولا تقوم لهم قائمة الا بسيف كسيف محمـد او بونابرت يعمل في رقابهم ويسوقهم سوق الانعام

ولا شك ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد فقد تقدم ان الفرق من عهد ابقراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك وان تعدلت الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلها الا صورة لا معنى فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم فاماتت حكوماتهم من الامـة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت بهِ على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر اليهِ الاستبداد وقوّت فيهم كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما اخمدت من قوى العقل باطفائهـا نور العلم واثر ذلك فيهم لتقادم عهده شديد وزواله منهم بعيد فلا عجب بعـد ذلك اذا رأينا الغرب باسطاً فوق الشرق يديه طامحاً ببصره اليهِ مزمعاً ان يقبض عليهِ سنة الطبيعة في التنازع ولن ترى لسنة الطبيعة تبديلاً

# المقالة الحادية والثلاثون

## ﴿ سيادة الامم ومستقبل الملوك [1] ﴾

رأيت ان اتشبه بالانبياء وانا اجهل صناعتهم لكي اقول قولاً يكثر مجازه ليتسع تخريجه فلا تكذبهُ الوقائع وترضى بهِ العقول الحريصة على المأثور ولو انها تأنح في تأويله كالمعضل فانبأت منـذ ربع قرن ان اوروبا لا ينقضي عليها القرن التاسع عشر حتى لا يبقى فيهـا ملك يلبس البرفير والارجوان ويحمل الصولجان ويسوق بها حمر الانسان .

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠٨

والرياء المتصلة الينا اما بالوراثة واما بالتقليد مع التوآء المقصد منها علينا لتمسكنا بالظواهر والاعراض واغفالنا الجواهر والاغراض بل نريد بها تلك الاداب الرفيعة الاجتماعية التي تدل على ارتفاع المدارك والتي ينطبق عليها قول المثل «عدو عاقل خير من صديق جاهل» كالحزم والعزم والشهامة وكرم الاخلاق الحقيقي والصدق والاخلاص ومحبة النفس من وراء محبة الغير ومحبة الوطن فوق كل شيء مما يبعث الى التعاون والتعاضد للقيام بالاعمال الجليلة العمومية التي يقوى بها الفرد لانه ينظر فيهـا الى قوة الكل ومعرفة اقدار ذوي الفضل منا للانتفاع بما خصوا بهِ من المواهب لتنشيط هذه المزايا في الجمهور لا قتلها فيهم لقتلها فيهِ حسداً ولؤماً والاغضاء عن الهفوات في جنب الحسنات لا تحقير هذه وتعظيم تلك تشفياً من الاجتهاد وانتقاماً من الذكاء فان الفرق بين الغرب والشرق في ذلك كالفرق بين اعمـال الرجال واعمال الاطفال . ذكروا ان لامارتين الشاعر الفرنساوي الشهير بلغت ديونه نحو ثلاثة ملايين فرنك فقامت الامة ووفتها عنهُ بجمع المال بالاكتتاب ولم يمنعهُ ذلك من تجديدها ولا منع هذه الامة من تجديد الاكتتاب لوفائها . فكيف لا يقوم بين امة هذا اعتناؤها برجالها رجال كلامرتين واعظم من لامرتين بطبقات وولطر سكوت خسر اموالاً طائلة في التجارة وانكسر عليهِ نحو خمسين الف جنيه فعمد الى التأليف ووفاها من كتاباته لانهُ كتب لقوم يقرأون ويدفعون ثمن ما يقرأونه بل لنعتبر بمثل بطل السودان وما صادفهُ من العناية البالغة الغاية القصوى من امتهِ وحكومتهِ مما لا يزال صداه يرن في الاذان ولنقابله بمعاملة حكومات الشرق وامه لابطاله اذا ظهر فيهِ ابطال فاقل عقاب لهم على اجتهادهم وامتيازهم الاقصاء الى الاقطار الشاسعة او الوضع تحت القفل والمفتاح حيث يطمس ذكرهم ويتناسى فخرهم . فكيف لا يقوم من اولئك رجال يبذلون قواهم ودمهم لخدمة وطنهم وامتهم وكيف لا تنمو فيهم مواهب الذكاء والاقدام على جليل الاعمال وكيف لا ينزوي هؤلاء في بيوتهم متقاعدين عن خدمـة وطنهم بل كيف لا تموت فيهم همم الرجال

والغريب ان انحطاط الاداب في شرقنا بلغ مبلغاً لا يعهد له نظير في سوانا فترى الصعلوك منا يظهر بمظهر الامارة على امير قومـهِ والامير منا يتناهى في الحقارة والدناءة

جندوا من الهنود جنوداً شديدة البأس في سنين قليلة وقد كان للمصريين على عهد محمد علي جنود باسلة فالاقليم والحكومات اثرها في نجدة الحرب قليل والنظام والعلم هما اللذان يفعلان كل شيء وهذا القول معا فيهِ من الانحياز الى جانب دون آخر كما ابنا ذلك في محله صحيح باعتبار ان العلم من اقوى الوسائط المؤثرة في الانسان والمغيرة له ولنا مثال حديث في اليابان اليوم وما اظهرتهُ من النهضة الاجتماعيـة والحربية في سنين قليلة حتى ظهرت على الصين التي تزيدها نحو عشرين ضعفاً في عدد السكان بفضل العلم

فطبيعة بلاد الشرق بما توجب من الراحة للبدن تفسح للعقل مجال الخيال ولذلك كان الانبياء كلهم من المشرق وطبيعة بلاد المغرب بما توجب من المشقة على البدن تربي فيهِ النهضة والاقدام ولذلك كان اكثر الفاتحين من المغرب الا من قام من الشرق لدعوة دينية تدخل في حكم المؤثرات الادبية ولذلك ايضاً كان اهل الشرق كما قال الشهرستاني ميالين للبحث عن ماهيات الاشياء وحقائقها واهل الغرب ميالين للبحث عن طبائع الاشياء وكيفياتها اي ان هؤلاء اهل عمـل وأولئك أهل نظر قد يجر الى الكسل وربما كان هـذا من الاسباب الطبيعية التي لاجلها لا يستطيع الشرق ان يناظر الغرب اذا تساوت عندهما المعدات الادبية

فالشرق اذاً لا يستطيع ان يناظر الغرب الا اذا فاقهُ في المعدات الادبيـة على ان الشرق اليوم —ونحصر كلامنا في الاقوام الذين تجمعنا واياهم جامعة الوطن والسياسة— متقهقر جداً عن الغرب في هذه المعدات لقلة العلم فيهِ وثقل وطأة الوهم عليهِ ولا يخفى ما لذلك من الاثر السيء على العقل والآداب ولذلك كانت قوى العقل في الشرق اليوم ضعيفة والاداب متراخية ونعني بالاداب هنا لا كما يفهمها البعض تلك الاداب الذاتية الرخوة التي لا تتجاوز النفس ولا ينظر فيها الى الكل كالصوم والصلاة مع تربية الضغائن والاحقاد ضد من لا يصلي صلاتك ولا يصوم صومك فينسيك ذلك الجامعة الوطنية والسياسية في جنب الجامعة الملية في بلاد كثر فيها تفرق المذاهب والاديان او تلك الاداب السطحية المنتقـلة الينا من سفساف اداب المغرب كالهشاشة والبشاشة والمفاخرة باللباس والطعام وايلام الولائم والتأنث في الحركات وسائر انواع المجاملة التي لا تتجاوز حد اللفظ مع التبطن

كتاب الاهوية والمياه والبلدان حيث قال في الفرق بين أهل اسيا وأوربا ما خلاصتهُ :

« ان أهل اسيا تغلب عليهم السكينة ورقة الطباع لما هم فيهِ من رغد العيش بسبب خصب بلادهم واعتدال فصولهم ولذلك لم يكن لهم شجاعة الرجال ولا الصبر على المشقة ولا الثبات في الاعمال ولا علو الهمة وطنياً كان اصلهم ام غريباً و يغلب فيهم حب اللذات على كل شيء بخلاف اهل اوربا الذين هم معهم على طرفي نقيض من هذا القبيل لصعوبة اقليمهم وقلة خصب بلادهم »

ولكن الاقتصار على هـذا الاثر لا يكفي في مثل بحثنا فان الانسان وان يكن ابن المكان فهو ابن التربية والتعليم ايضاً وقد فطن الى شيء من ذلك ابقراط نفسه حيث قابل بين حكومات اوربا وحكومات اسيا فقال ان اهل أوربا اشد نجـدة للحروب من أهل اسيا بسبب طبيعة بلادهم وبسبب نوع احكامهم ايضاً فان أهل اوربا تحكمهم شرائعهم وأما اهل اسيا فتحكمهم ملوك وشتان بين النجدة التي يقوم بها من يدافع عن نفسه والنجدة التي يظهرها من يدافع عن غيره

ولا ريب ان اثر العوامل الادبية في الانسان شديد جداً وربما كان اشدّ من أثر العوامل الطبيعية حتى ذهب الباحثون في طبائع الحيوان الى ان الانسان لم يتغير في بدنهِ كثيراً من يوم اتخذ الكساء واصطنع السلاح و بنى البيوت يريدون ان يثبتوا بذلك ان الانسان قادر على مقاومة الطبيعة بالصناعة . واهم هذه العوامل العلم قال لتري معقباً على ابقراط ما نصهُ ان ابقراط يقول ان طبيعـة الاقليم والشرائع هي التي تجعل اهل أوربا أشد نجـدة للحروب من اهل اسيا ومعلوم إنا رأينا على تراخي الايام ان الفرس الذين غلبهم اليونان لم يقدر عليهم الرومان بعـد ذلك وان اليونان ضعفوا جداً في عهد سقوط سلطتهم وذبول شوكتهم وان العرب اتاهم يوم كان لهم فيهِ نصر في الحروب مبين وشرف ينطح السماك بروقيه وعز يقاقل الجبال . فمثل هذه الامثلة تكفي لان تبين ان النجدة للحروب لا تختص باقليم دون آخر وكذلك يقال عن الاحكام فان النجـدة لا تتوقف عليها كما انها لا تتوقف على الاقليم بل على النظام وعلم الحرب فان نفراً قليلين منظمين من الاسوجيين ظهروا على الروس الكثيرين الغير المنظمين في موقعـة بلتاوا والانكليز قد

وانحطاط المدارك العقلية وفساد المبادىء الادبية لا علم يقيهم ولا عمل يحميهم فهم بحكم تنازع البقاء معرضون للذل والشقاء يعملون لاسيادهم اهـل الغرب واسيادهم بهم يعيثون فينقادون اليهم صاغرين الى يوم يمحقون لان ناموس التنازع في الطبيعـة صارم لا يرحم فالضعيف مقضي عليهِ امام القوي بالمحاق او الضياع بالاستغراق . فجدير بكتاب الشرق ان يرثوه فهو ميت في صورة حي واذا ابنوه فلا ينصفوه لئلا يشددوا عليهِ الملام والضرب في الميت حرام بل فليشفقوا عليهِ وان كان الاشفاق لا يرضاه اهل الاستحقاق لان فيهِ من اعتقاد المسكنة بالمشفق عليهِ ما تأباه النفوس الكبيرة . فمقاومة عدو لي يعترف بفضلي احب اليَّ من اشفاق يأتيني من اهلي

فيا وطني ما خانني فيك خائن  من الحب او أني رضيت بهِ ندًّا
اريدك في عزّ ولكنني ارى  على غير ما ارضى ارى العز قد ندَّا
فان جرت في حكمي فما انا جائر  فما انا الاَّ باحث لم يجد بدًّا

جرى علماء الاخلاق اليوم مجرى اكثر الطبيعيين القائلين بالنشوء فعدوا الانسان الادبي والعقلي كالانسان الطبيعي ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضاً فاعتبروه قابلاً للارتقاء والانحطاط في آدابه وفي قواه العقلية بحسب العوامل المختلفـة التي تؤثر فيهِ من طبيعية وادبية . والفطرة ليست بالحصر الا استعداداً مكتسباً في الاصل من طبيعة المكان

والشرقي كما نريد بهِ هنا يدخل تحتهُ الصيني والهندي والافريقي والعربي والتركي والعجمي ايضاً وان اختلفت مراكز البلاد التي يقطنها بعض اللاحقين بهـذه الاجناس مما يجعلهم في مركزهم الجغرافي واشتقاقهم الانترو بولوجي اقرب الى اهل الغرب منهم الى اهل الشرق الا انهم تجمعهم اليوم جامعة الوقوف والتقهقر في تاريخ العمران . ويطول بنا الشرح جداً لو اردنا استيفاء وصف كل من هذه الاجناس بحسب طبيعة بلاده وشرائعه وتعاليمه لانه وان كان الجامع اليوم بين هذه الاجناس واحداً وهو التقهقر الادبي والعقلي الا انهم يختلفون فيما بينهم كثيراً في ذلك ويختلفون كذلك في الاصل وقابليات العقل بحسب طبيعة البلاد ويختلفون أيضاً في مركزهم الاجتماعي بحسب شرائعهم وتعاليمهم

ولا شك ان طبيعـة البلاد اثرها في الانسان شديد كما ذهب الى ذلك ابقراط في

ان يعامهُ . وللجواب على ذلك لا بد لنا من القاء النظر الى الامة عموماً وما تدخره من المعدات وما يكتنفها من الموانع . فاذا نظرنا الى الدعوة من حيث كونها صفة من صفات الاجتماع نقول ان الفوز محقق له لان الذي يدركه البعض لا بد ان ينتشر على تمادي الزمان ويعم الامة كلها لانتشار العلم الذي لا بد منهُ واذا انتشر العلم وكثر عدد المتهذبين من الامة حتى اصبح العدد الاهم سقطت الحواجز التي تفصل بين عناصر الامة المختلفة وخصوصاً الترفض الديني فاجتمعت كلمتها وقويت حجتها ولكن الذي يروع عقلاء هذا الحزب طول الزمان اللازم لوصول الامة الى هذه الغاية وهو يخشى قبل ذلك ان يتحقق فيها قول المثل « قبل ان يصل الدواء من العراق يكون العليل قد فارق » وهذا هو السبب الذي يحمل القسم الاعظم من عقلاء الامة على ان ييأسوا من نهوض الامة الى اصلاح حالها مع حفظ استقلالها لشدة التنازع الذي لا تنفك عوامله تعمل فيها من خارج وهي لا قبل لها على المقاومة فالامة العثمانية في نظرهم مقضي عليها بحكم النواميس الاجتماعية التي هي في صرامتها كالنواميس الطبيعية بالتشتت والانفصال فقد ادركتها الشيخوخة والمريض قد اشرف على الموت فلا يقيها دهاء تركيا العجوز ولا تخبط تركيا الفتاة دهاء وتخبط لا يفيدان الا تعجيل الانحلال بزيادة الاختلال

# المقالة الثلاثون

## ﴿ انحطاط الشرق (١) ﴾

### « الادبي والعقلي »

الشرق لفظة تعم بلاداً واسعة واقطاراً شاسعة مختلفة الاطوال والعروض والحرّ والبرد والخصب والجدب تضم فيهــا امماً وشعوباً وقبائل متبايني الاصل والفصل مختلفين في الشكل وفي قابليات العقل تجمعهم اليوم جامعة واحدة هي تراخي النظام وفساد الاحكام

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

حتى كثر فيه الضالون وقلّ المهتدون وظن البعض انه ألعوبة كأبواق الصابون تملاؤها الانفاس فاذا انفجرت لم يكن من وراءها نار حتى ولا هواء يزيد النار اشتعالاً اذا اصابت ناراً اطفأتها او حياةً اماتتهـا ويحق له ان يظن هذا الظن اذا اخذ الاشياء بظواهرها وقاس الحقيقة على المجاز وخلط بينهُ و بين بعض الذين يكثرون من الجلبة والصياح فاذا برق الذهب ولاح وهطـل غيث الدينار الوضاح تراكضوا الى المراح والسابق السابق منهم الجواد فهؤلاء ليسوا حزب تركيا الفتاة وانمـا هم حزب الممازقين المنافقين الذين اتخذوا اسم هذا الحزب وسيلة لشفاء حزازات في الصدور وقضاء لبانات في النفوس وهم بعملهم هذا قد جاروا على دعوة هـذا الحزب بجرأتهم المتجاوزة الحدَّ في الخصام واحجامهم على ايسر سبيل عند نيل المرام . ولكنهُ اذا تدبر الامور تدبر العاقل الخبير علم ان هذا الحزب موجود حقيقة فهو مؤلف من كل عاقل هذَّبه العلم وعلّمهُ الاختبار ودرس الامم درس المقابلة وعلم أسباب القوة في العمران فرآها متوفرة في الامم الناجحة فحمدها وغير متوفرة في امتهِ فاسف عليها والعقلاء في الامة كثيرون فالحكومة تخطئ اذا كانت تظن ان هذا الحزب قاصر على بعض الافراد الذين ركبوا متن الحدة في المقاومة وجانب منهم غير مخلص في الدعوة كما تبين لنا وتخطئ اكثر اذا كانت تظن انها باسترضاء هذا البعض الساخط تتمكن من ملاشاة هذا الحزب فالحزب نشوءه في الاجتماع ليس عارضاً حتى يسهل استئصاله بل هو نشوء طبيعي جارٍ على مقتضى نواميس طبيعيـة ولن ترى لنواميس الطبيعة تحويلاً . وان كانت تظن ان استرضاء هذا البعض يضعف حجة هذا الحزب عند الآخرين من الامـة الذين لا افكار لهم الا ما يفتكره لهم الغير حتى لو قام غيرهم وحذا حذوهم لم يصدقهُ الناس فربما كان ظنها مصيباً بعض الاصابة وانما ربحها من هذا الجانب لا يوازي خسارتها من الجانب الآخر اذ ينتقض عليها المتزلفون لها عن غير اقتناع وهم الاكثر لانهم يرون ان سخط غيرهم كان ادعى لاستدرار النعمة من تزلفهم فينقلبون ساخطين ومهما يكن من ذلك كله فما هو الا امور عارضة لا تؤثر شيئاً في حقيقة الدعوة نفسها

* * *

ولكن هل يفوز حزب تركيا الفتاة . فهذا هو الامر الجوهري الذي يهم كل عثماني

الانشقاقات الناشئة عن اختلاف الاديان والشعوب وكبر الامل باتحاد كلمتها وتوسمنا خيراً في مستقبلها وتزيد قيمة ذلك كلهِ اعتباراً في نظر الباحث اذا قسناها بالامم المجاورة التي هي معها بحكم ناموس الاجتماع في تنازع دائم فاي فرق بين معدات الامة العثمانية من هذا القبيل ومعدات باقي الامم وهي حقائق محزنة لا يسع المؤرخ الصادق الا الاعتراف بها

واذا كان هذا حال الامة العثمانية فهل تستطيع المقاومة زماناً طويلاً والتنازع بينها وبين الامم الاخرى في حد حدَّته ومعظم شدَّته وهي بعيدة عن التكافؤ والتفاضل انما هو عليها لا لها واذا كانت لا تستطيع المقاومة فما هو مصيرها يا ترى وهل يرجى نهوضها وباي الطرق يكون ذلك

* * *

يعلم الباحثون في طبائع العمران ان كل امة مهما كان امرها مرتقية كانت ام منحطة لا بد ان تتنازعها قوتان غريزيتان فيها احداهما تركن الى المحافظة على الحالة الراهنة والاخرى تميل الى الطفرة عنها واصطلح السياسيون على ان يطلقوا على الاولى اسم حزب المحافظين وعلى الثانية اسم حزب الاحرار ويؤلف الحزب الاول من الهيئة الحاكمة ومن تابعها من الشعب والثاني ينشأ في الهيئة المحكومة ويكون في اول الامر مؤلفاً من افراد قليلين وهذان الحزبان يختلفان قوةً بحسب حال الامة من العلم فهما متكافئان غالباً في الامم المتهذبة ومتفاضلان في الامم التي يكون العلم فيها غير موزع على السواء ويكون الفوز كله للمحافظين اي للحكومة في الامم المستغرقة في الجهل حتى قد لا يشعر بوجود حزب آخر سواه . ولقد مضت القرون الطوال ولا يسمع في الامة العثمانية صوت غير صوت الحكومة وربما لم يسمع سواه زماناً طويلاً ايضاً لقلة انتشار العلم في الامة لولا ان اسباب التمدن الاوربي انتشرت انتشاراً عظيماً في هذا العصر بحيث لم يعد في الامكان اقامة الحواجز ضدها ومنع تأثيرها ان لم يكن في العموم ففي الافراد وما يسمى اليوم حزب تركيا الفتاة دليل على ان هذا الحزب الذي بقي صوته خافتاً لقلة عدده وضعف عدده قد دبت فيهِ روح الحياة حتى صار له صوت يسمع وطبل يقرع . وكنت اود ان اتحاشى الكلام في هذا الحزب لولا ان كثر فيهِ اللغط وركب فيهِ كل كاتب مركباً يسير بهِ على هواه

المقوسة والمشي على الاقدام لا الزحف على الركب وربط حكوماتها كما تربط القرناء واتلالها كما تتل السائمة وجرها وراءها قوةً واقتداراً . والامم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر اسباب القوة فيها عفاها الدهر واستغرقها التنازع ولم يبقِ لها الا اثاراً او لم يبقِ لها اثراً وتركها خبراً مسطوراً

* * *

واسباب القوة في العمران كثيرة وترد الى اربعة تعد دعائم اثنان طبيعيان وهما العدد والجنس واثنان ادبيان وهما الدين والعلم ولا ريب ان كل امة كثر عديدها ولم يشب جنسها اختلاط وتوحد دينها وبلغ العلم فيها اقصى مبلغهِ في عصره بلغت من القوة مبلغاً حقق لها الفوز في ميدان التنازع والضد بالضد . فوحدة الجنس ووحدة الدين لازمتان لاتحاد الكلمة والاَّ كثر الانشقاق وهو من دواعي الضعف والعلم ضروري جداً لاتقان الصناعة والزراعة وسائر الفنون التي تكثر معها الثروة والثروة عصب الاجتماع كما يقول الافرنج . وزد على ذلك ان العلم باتقانه الصناعة يتفنن باختراع الآلات التي تكسب المنعة في الدفاع وتحقيق الفوز في المهاجمة وهو اعظم العوامل لتقليل الانشقاقات الناشئة عن الاديان فاذا علم ذلك لم يصعب علينا الحكم على مركز كل امة في الحال وما هو مقضي لها او عليها في الاستقبال

* * *

فالامة العثمانية — وكلامنا فيها — اذا نظرنا اليها من هذا القبيل وجدنا جميع الاسباب السلبية متوفرة فيها مما يجعل مركزها في الحاضر حرجاً ومستقبلها مشكوكاً فيهِ ولا نقول ان صعوبة مركزها من عددها فان عددها وان لم يكن كثيراً جداً الا انه ليس بالقليل فلا يصح ان يكون سبب الضعف ولكنها مؤلفة من اجناس مختلفة فمنها التركي والعربي والارمني والكردي والبلغاري واليوناني الخ . واديان مختلفة فمنها المسلم والمسيحي واليهودي والدرزي والمتوالي وتحت كل منها قبائل وطوائف مما يجعل اتحاد الكلمة بينها في حكم المستحيل ولاسيما اذا اعتبرنا حالة العلم فيها فانه يكاد يكون شيئاً لا يذكر والقسم الاعظم من الامة في جهل عميق ولو كان العلم منتشراً فيها انتشاراً كلياً لقلت جداً

# المقالة التاسعة والعشرون

## ﴿ وكما تكونون يولّى عليكم[1] ﴾

### « تركيا الفتاة وتركيا العجوز »

من دقق النظر في تاريخ الاجتماع البشري رأى ان نصيب الامم من تقدم ووقوف وارتقاء وانحطاط وانتشار وانقراض يتوقف على عوامل طبيعية يضمها ناموس عام يسمى « تنازع البقاء » يؤدي ضرورة الى ناموس آخر يسمى « الانتخاب الطبيعي » فما من امة قامت او انقرضت ارتقت او انحطت الا كانت عوامل هذين الناموسين هي القاضية في ذلك . فان كانت الارض على سعتهـا قد ضاقت بالانسان الاول وهو اثنان على قول البعض حتى قام الواحد على الآخر وقتله او كان طوائف متفرقة على سطحها قامت على بعضها حتى ذلّ البعض وفاز البعض الآخر على قول الآخرين فما ذلك الا لان الانسان كسائر الاحياء لا يستطيع ان يفر من حكم هذين الناموسين فالتنازع سنة هـذا الكون والانتخاب نتيجة هذا التنازع . هذا شأن الانسان في العمران منذ اول عهده وما زال هذا شأنه حتى اليوم ولن يزال كذلك حتى المنتهى

والحكومات مظهر من مظاهر الامة وهي تختلف باختلاف الامم فكلما ارتقت امة في العمارة ارتقت حكومتهـا كذلك . وهو معنى قوله « وكما تكونون يولّى عليكم » فلا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة التي نشأت فيها بل لاتلام الحكومة اذا داست باخمصها رقاب الرعيـة وهل تداس رقاب تأبى ان تداس وان من ينتظر الاصلاح عفواً من اية حكومـة كانت يجهل لا شك تاريخ نشوء الامم في العمران . وها التاريخ امامنا يعلّمنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يذعن للاصلاح اذ لم تتم العقبات في سبيله . وهل بلغت امم اوربا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتهـا لا لعمري انما بلغتهُ ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطأطأة وتقويم الظهور

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

الا أياماً معلومة حرصاً على مصلحة المتداعين وعلى مصلحة الاجتماع نفسه . لئلا ينمو فيهم حب التداعي الى صرف قواهم كلها في هـذه الجهة فيخسر الاجتماع بهم بقدر ما تزيد فيهم هذه الملكة

خامساً ان يتولى الاجتماع نفسه توزيع المنافع العمومية الضرورية من مثل الماء مثلاً مجاناً على عموم الناس

سادساً ان تنشأ كتاتيب في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية على نسبة السكان يعلم فيها الاطفال مبادئ العلوم الطبيعية البسيطة يفهمون منها طبائع الماء والهواء والجماد والنبات والحيوان ويوضع لهم شبه تعليم طبيعي يعلمون منهُ حقيقة الانسان ومركزه في الارض

سابعاً ان تنشأ جرائد تعلّم الناس كيف يجب عليهم ان يكونوا نظافاً في اجسامهم في ملابسهم في مآكلهم . في مساكنهم وخصوصاً في عقولهم . وتعلمهم ان كل نظام حولهم في الارض والسماء . في الجماد والنبات والحيوان خاضع لنواميس طبيعيـة لا تزعزع وان سيرهم على هذه النواميس يقيهم عثرات كثيرة في معايشهم صحياً ومادياً وادبياً . وان ادابهم يجب ان تكون مستفادة من آداب الطبيعة نفسها . يعلّمون كل ذلك لكي يعلموا ان كل عضو في الاجتماع له حقوق وعليهِ واجبات وان الاشتراك في المنفعة يحتم له على قدر اشتراكه في العمل وان المكافأة انما هي للاجتهاد لا للصنيعة وحينئذٍ يظهر الفضل الصحيح وينتفي الفضل الكاذب

هذا أهم ما جاء في هذا البروغرام وسأوافيكم بما يجد من هذا القبيل

أرأيت الآن يا صاحبي كيف ان المجون يصير جداً وكيف ان الاحلام تصير حقائق وكيف ان التي يسمونها اليوم يقظة هي الحلم بعينه ولكنهُ يا للاسف حلم وسخ

علينا قضاتها من سماء اولمبهم حتى يعودوا اليهِ مسرعين ولا يزالون هكذا بين لقاء ووداع وتأجيل في الدعاوي وتأخير الى ان تنقضي اعمار أصحابها . وهل تهمهم مصالح الجماهير اكثر مما كانت تهم حياة الناس ذلك الحاكم المصريّ الذي يحكى عنهُ انه قال ذات يوم العبارة الآتية «وهل نحن استلمناهم بعدد» استدراكاً لخطأ ذهبت فيهِ نفوس كثيرة ظلماً

خامساً ان تلغى المحاكم كافة على صورتها الحاضرة ما دام مبدأها ذلك العلم الاقتصادي الذي يعلّم ان تبذير قوى الاجتماع من دعائم ارتقائه

سادساً ان تلغى شركة احتكار المياه وسائر الشركات الاحتكارية التي تمس المنافع العمومية

سابعاً ان تلغى الجرائد السياسية التخريفية وان يناقش اصحابها الحساب على كل كلمة تغرير وتضليل من مثل قولهم مسلم وقبطي ودخيل ونزيل حتى يبرزوا الحجة التي بيدهم والموقعة بختم محكمة السماء والتي تخولهم حق الاستئثار بملك الله دون سواهم من عباده وان يجلد اصحابها جلدة على كل كلمة سخافة وقلة عقل . وقرروا ان الجلد يكون بخيوط ناعمة جداً ومن يد طفل واعتبروا ان هذا العقاب كافٍ وربما لا يقوون عليهِ لكثرة التكرار

## ﴿ القسم الثاني ﴾

### « انشائي بنائي »

اولاً ان ينشأ معهد علمي كبير يعلَّم فيهِ علم نشوء الارض والاجرام السماوية وعلم الاحداث الجوية والاقاليم واختلافها وتأثيرها في الانسان وفي العمران . الخ

ثانياً ان يقام على انقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الافلاك

ثالثاً ان تنشأ الجامعة لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي وتطبيق ذلك على الانسان والطب وسائر العلوم الحيوية والانثروبولوجية

رابعاً ان تنشأ هيئات قضائية على غاية البساطة في كل مدينة وفي كل بلدة على نسبة سكانها بحيث لا يتأخر الفصل في الدعاوي مهما كانت مهمة (وحينئذٍ لا تبلغ هذه الاهمية)

# المقالة الثامنة والعشرون

## الحزب الاشتراكي [١]

« على المبادىء الطبيعية »

ايها الوطن الاغر ( المصري )

تمنيت عليّ — وما كنت حالمًا — ان أؤلف حزبًا اشتراكيًا يزج بنفسه في ما بين الاحزاب في هــذه البلاد فصدعت بالامر ودعوت اليّ العقل والحجى والنهى والعلم والمعرفة والاختبار فانشأوا في الحال الحزب المذكور وقرروا بروغرامه وهذا اهم ما جاء فيهِ من الكليات :

### القسم الاول

« تقويضي تمهيدي »

اولاً ان تجمع كل الكتب السقيمة التي يضيع اولها في آخرها والتي يضيع الانسان عمره فيها وهو يقرأ ولا يفهم وتوضع على ظهور حملتها ويشحن الجميع في بالون يسير بهم الى القطب الشمالي لعلهم يؤلفون هناك مملكة يكون بردها على نسبة واحــدة بين ذلك الاقليم وتعاليمهم

ثانياً ان تلغى مدرسة الحقوق وتمزق كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية

ثالثاً ان يوقف تنفيذ بروغرام الجامعة كما قرروه لئلا تزيد معاهد العلم النظرية واحداً فتزيد البلوى

رابعاً ان تلغى المحاكم المختلطة لان شرها مركب من اساسها ومن نظامها فلا يطل

(١) نشرت في الوطن سنة ١٩٠٨ رداً على اقتراح فيه على الدكتور شميل ان ينشيء حزباً اشتراكياً وكأن المقترح ركب متن المزاح فاجابه الدكتور من معدنه بكلام ظاهره الهزل وباطنه الجد

ما خلق الا لكي يقضي عمره كلهُ في دعوى تعرض له في حياتهِ كأن ليس له شغل آخر

وما هي النتيجة ؟ ان الدعوى الواحدة تؤجل من شهر الى آخر ومن سنة الى اخرى حتى ينقضي عمر صاحبها فيها وربما تركها ميراثاً وحيداً لاولاده . و بئس الميراث تصرف فيهِ قوى الانسان الى جهة واحدة واية جهة !

ألا ترى ان المحاكم لو كانت موزعة في كل مدينة بل في كل بلد على نسبة سكانهِ بحيث ان دعاويهم تنقضي في اقصر الاوقات لهم او عليهم اما كان ذلك اربح حتى للخاسرين انفسهم ؟ او ليس هذا تبذيراً قبيحاً في هذه القوى ومنعها عن الانصراف الى شؤون اخرى انفع للاجتماع . ام ذلك من الاحلام التي يحلم بها حالمو الاجتماع ايضاً؟

الاجتماع كما كان في القديم وكما لا يزال حتى اليوم ليس نظاماً طبيعيًّا وكل موضوع ومشروع فيهِ مخالف لهذا النظام . ولكنهُ بحكم نواميسه الطبيعية التي هي اقوى من كل ناموس وضعي سائر بالضرورة الى هذا النظام . وانما هو سائر اليهِ بعد اضطرابات وثورات وقلاقل قد تكون فيها مئات السنين كأمس الدابر بسبب نظاماته الموضوعة

ولكن هذا السير قد يسرع ايضاً بناء على ناموس تجمع القوى . وهنا يظهر فضل عقل الانسان . فكلما ارتقى الانسان وزاد اختباره استخدم هذا الاختبار لتقصير هذه المدة

ولا ريب ان القرن الماضي هو الذي امتاز باكتشاف سرّ الاجتماع وتقرير قضايا العلوم الطبيعية وهو الذي امتاز ايضاً بوضع الفلسفة العملية على قواعد علمية متينة

وسيكون تأثير هذه الفلسفة عظيماً في اصلاح الاجتماع وستقيهِ من التذبذب الكثير وتمنعهُ من التقهقر وتدفعهُ في الارتقاء بسرعة تمشي فيه على نسبة حسابية لان القضايا القائمة عليها هذه الفلسفة اليوم ثابتة وفي حكم القضايا الرياضية نفسها والاضطرابات التي نشاهدها اليوم ليست الا لنفض الغبار القديم

واذا كانت الاشتراك في هـذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل فلا شك انها تكون جوراً ومميتة لكل اجتهاد

ولكن اذا كانت الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة على نسبة هذا العمل ألا تكون حينئذٍ عدلاً واكبر حاثٍ على الاجتهاد ؟

ما قولك في رجل ينال اجراً معلوماً على عمله وآخر ينال فوق هـذا الاجر كذا في المائة من الارباح على نسبة العمل واهميتهِ فايهما يجدُّ اكثر من الآخر وهل تقل ارباح رأس المال بذلك

ما قولك في رجل بهِ كفاءة لان يأتي اعمالاً نافعة جمة ولكنهُ ينقصهُ شيء اداري كمعرفة وجود العمل مثلاً وهذا ليس بالشيء النادر في الاجتماع . فمثل هذا الرجل المهم قد يموت جوعاً اذا ترك وشأنه وهذا اقل الشرور منهُ لولا انه يخشى ان ينقلب عضواً شريراً في الاجتماع كثير الضرر كما هو الغالب

فلو كان في الاجتماع نظام يعرف كيف يستفيد من مثل هذا الرجل وينفعهُ معاً ألا يكون ذلك اصلح لحال الاجتماع

ما قولك في نظام اجتماعي يهتم بشؤون الافراد فينشيء ادارات تهتم بوجود اعمال لكل العمال كل حسب طاقتهِ — وهذا ليس من الاحلام — ويقيم المستشفيات على نسبة السكان ويوفر وجود الماء للجميع على حد سوى ويقدم الصابون والكساء الاول البسيط لكل معوز ( لان الموسر لا يقبل ذلك ) تيسيراً للنظافة التي هي اول دعائم الصحة . فهل افراد الاجتماع الذين يتكفلون بذلك كل على حسب طاقتهِ يغبنون من عملهم هذا . أفلا تربو ارباحهم عموماً على خسارتهم مادياً وصحياً وادبياً من توفير وسائل العمل للعمال . ألا يزيد هناؤهم في صحتهم وصفاؤهم في راحتهم ؟ ألا يقل التذمر في الاجتماع حينئـذٍ ؟ أو لا يصبح الاجتهاد عنوان الفضل الصحيح ويكون ذلك اكبر حاثٍ على العمل والجدّ ؟ وهذا ليس حلماً الاَّ في رؤوس الذين تستثقل طباعهم الخروج عن المألوف . وهذا النظام ولا ريب نظام الاجتماع المستقبل

وما قولك ايضاً في نظام المحاكم عموماً كما هي اليوم فكأن واضعها ظن ان الانسان

مضى على الناس عصور تضيع اصولها في اقصى ظلمات التاريخ قبل ان يستقروا في مباحثهم على هذا المبدأ الطبيعي

هذا المبدأ الطبيعي هو بالحقيقة ابن امس لانهُ منذ امس فقط اصبح من العلوم الثابتة وكم يلزمهُ من الزمان حتى يهدم علوم الناس النظرية

ومع ذلك فهو قد زعزعها بما لم يتسنَّ لعصر قبله ان يفعله بالقوة التي زعزعها بها العلوم النظرية ليست نظرية بالحقيقة الاَّ بالنسبة الى كونها اقيمت واتسعت على مباديء اختبارية قليلة ومغلوطة غالباً . والا فليس هناك فلسفة نظرية محضة حتى ولا الدينية نفسها

الفرق بين الفلسفة النظرية والحقيقية او العملية هي ان هـذه بنيت على معرفة اتم بالطبيعة واختبار اعمّ في ارتباطها بعضها ببعض . والفلسفة النظرية جهلت ذلك او تجاهلتهُ وخصوصاً اهملت هذا الرابط

وسوف تلتقيان في نقطة واحدة تردهما الى الطبيعة . فالمصلح الطبيعي ليس حالماً او واهماً او متمنياً . واذا خانهُ علمهُ احياناً كثيرة فلا ينفي ذلك صدق ادراكه الذي يدله على ان في الامكان اصلح مما كان

الاشتراكية لا تضرُّ الاجتماع لانها تطلب للاجتماع ما تطلبهُ نواميسهُ نفسها بل بالضد من ذلك تنفعهُ اذ تؤيد الفضيلة وتصد عن الرذيلة باتباعها سبل الاجتماع القويمة لان الفضيلة ليست الا انطباق اعمال الاجتماع على نواميس الاجتماع والرذيلة مخالفة هذه النواميس

الناموسان العظيمان اللذان يسوسان الاجتماع هما تكافؤ القوى في العمران وهـذا يوجب التنازع والثاني تكافل العمران بتوفير قواه وهذا يوجب استخدامها كلها لمنفعتهِ

فالاشتراكية لا تطلب سوى ان تسير في الاجتماع على هذين الناموسين بحيث لا يضيع فيهِ شيء من قواه يمكن صرفهُ الى منفعتهِ

لا شك ان الاشتراكية اذا اريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلماً بارداً

# المقالة السابعة والعشرون

## ﴿ الاشتراكية [١] ﴾

قرأت في المقطم شذرات مختلفة في الاشتراكية بعضها مناقض للآخر بحسب نظر كتابها فيها

الناس ينتقدون الاشتراكية كما يفهمونها لا كما هي او كما يجب ان تكون شأنهم في اكثر المسائل الاجتماعية

الاشتراكية او كما سميتها الاجتماعية ايضاً قلما نظر الكتاب فيها حتى زعماؤها انفسهم من الوجه الوحيد الذي يجب ان ينظر اليها ولهذا كثرت الاراء فيها وكثر الاختلاف بينهم وكثر انتقادها ايضاً . لان الجميع نظروا فيها الى المسائل الفرعية ولم ينظروا الى الاصول التي يجب ان تقام عليها الفروع

الاشتراكية كما يجب ان تكون ليست مذهباً فلسفياً اجتماعياً حتى يجوز لكل واحد ان ينظر اليها كما يشاء او كما يدله فهمهُ

الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول اليها ولو بعد تذبذب طويل

الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها

ولكن الاجتماع نفسهُ هل يبحث فيهِ الباحثون اليوم جميعهم بحثاً طبيعياً . ما خلا كبار الطبيعيين الذين يعدون على الاصابع هل ينظر العمرانيون الى الاجتماع نظراً طبيعياً بحتاً ؟

الباحثون في الاشتراكية وفي الاجتماع نفسه اكثرهم من اصحاب النظر او من قصاره في تاريخ الاجتماعي الطبيعي

متى اتصل الناس في مباحثهم الاجتماعية والفلسفية الى رد كل شيء الى هذا الاصل الطبيعي سهل تفاهمهم وقل خلافهم واسرعوا الخطى في ارتقائهم

---

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٨ تعليقاً على كلام في ذلك ورد فيه

فهل مثل هؤلاء يجوز لنا ان نسميهم كسالى لانهم لم يحركوا سوى قلمهم او كبار البطون لانهم يطلبون للاجتماع مرتعاً اخصب او صغار العقول لانهم يطلبون له مطالب تتراءى للجمهور في حينها انها احلام ثم يرتقي الاجتماع فتبدو حقائق باهرة

بل ما القول في الفلاح الذي يحرث الارض ويكد حتى يسمن سواه وليس لخدمتهِ من خدمة سواه له مكافيء بل ما القول في ذلك الجندي الذي يسرح في النهار كالسائمة ثم يرد في المساء الى زريبتهِ نظيرها ولو عقل اكثر منها لما رضي ذلك لنفسه . أو لا يُظن ان الذود عن الاوطان حتى واكتساح البلدان يمكن بغير التجنيد على ما هو مألوف ؟ ولا يخفى ان كلامنا في العمران عموماً ككلامنا على نواميس الكون لا على عالم من العوالم والا اختل التوازن

انا لا انكر ان الطرق التي يتذرع بها الناقمون احياناً كثيرة مشجوبة الا انهُ يظهر ان مثل هذا الهز لازم لاحداث التأثير المطلوب وهو ايقاظ الغافل وتنبيه الفكر للبحث . بدليل ان نظام الاجتماع نفسه على ما هو عليهِ اليوم فيهِ من الفظائع ما هو مشجوب اكثر ولكننا أَلِفناه فلا نتحركُ له

وليُعلَم اني لم اقف عند الاسماء لان مرماي الغرض ولم اسهب البحث في الجزئيات لان المقام لا يسعها اولاً ولانها العرض واذا ضللنا السبيل مرة فلا بأس من طرق سواه ولاني قبل كل شيء — وهذا المهم — اريد ان اقرر كلية كبرى حاصلة واخرى ممكنة أما الاولى فنقص نظام الاجتماع كما هو عن توفير مصلحته كما ينبغي ان تكون . واما الثانية فتكافل العمران بتوفير قواه . وكل مسعى في هذا السبيل من اين اتى فهو محمود ويلزمنا ان ننظر فيهِ نظر الباحث المستفيد لا ان نقف في وجهه لصده واذا وقفنا فلتحويله الى ما يتراءى لنا انه الاصلح

توزيع المال بالسواء لو وجد في تعاليمهم كما يريده خصومهم لدل على سخافة ما بعدها سخافة وكيف تمكن المحافظة على هذه المساواة لو امكن هذا الاقتسام

فتعاليم رجال الاصلاح تتناول غاية اعظم وتستند الى مباديء ارسخ وكلها حقائق ممكنة كما يدل على ذلك درس احوال العمران في اطواره المختلفة

فكيف نطبق بين ارتقائه في العصور واعتراضنا على الناقمين وهو عليهم واحد في كل العصور

فالمصلحون الاجتماعيون الطبيعيون يرمون في نظام الاجتماع الى غرض طبيعي ممكن هو توفير قوى هذا الاجتماع حتى لا يذهب منها شيء سدى وحتى لا يبقى فيهِ احد غير نافع ومنتفع معاً . فهم يطلبون من الانسان ان يفعل في نظام اجتماع الانسان ما يفعلونه اليوم بقوى الطبيعة نفسها بتوفيرها والانتفاع بها وهذا ما نسميهِ « ناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعي» ولولا ان هناك اناساً نظريين ربما جاز ان يطلق على نظامهم «ناموس الاقتصاد الاجتماعي القانوني » لما قلنا هنا « الطبيعي » لان الاجتماع في الحقيقة طبيعي هو وكل نواميسهِ مستفادة من الطبيعة فاذا رددناه اليها فانما نكون قد رددنا الشيء الى اصله ووضعناه في محله

فهل في نظام الاجتماع اليوم ما تتوفر معهُ هذه الغاية ام هل في شرائعهِ مع ما هي عليهِ من سخافة المبدأ وقلة الاحكام ما يؤملنا ان يبلغها في عهد قريب . ولا نستنصر الكثرة والشهرة فالناس مهما عظمت مكانتهم على ضلال حتى يهتدوا . أفلا نرى ان القيام في وجه هذه النظامات واجب لزحزحتها عن مألوفها ودفع الاجتماع في السبيل السويّ لبلوغ الغاية منه ؟ ام لا نرى الفائدة من وجود مثل هؤلاء الناقمين على نظام الاجتماع وقيامهم على اختلاف منازعهم لمصادرته في نظاماته وشرائعه تارة باللين واخرى بالعنف هذا بالترغيب وذاك بالارهاب هذا بالجحيم وذاك بالنعيم هذا بمقاومة الجهل وذاك بنشر العلم ؟ او لا تروعنا مخاطرتهم بارواحهم وتعريضهم مصالحهم للعبث بها حتى لقد بلغ التحمس ببعضهم الى حد الهوس ولو ان لكثيرين منهم من وراء ذلك احياناً كثيرة مطامع قريبة

وليس شأنهم هـذا بالنظر الى تعاليمهم ومبلغها من الصحة والموافقة بل بالنظر الى موقفهم تجاه الاجتماع فان هذا وحده كاف لايقاظه ومنعهِ من التقهقر وتمهيد سبل الارتقاء له

ولذلك كان اول خاطر يجب ان يخطر للباحث المدقق عند ذكر الناقمين ليس الطرق التي يتذرعون بهـا والخطط التي يسنونها لمقاومة نظام الاجتماع اذ قلما نجد حينئذٍ اثنين متفقين . ولا ما يخامر بعضهم من المطامع فالنفس امارة بالسوء وكل مصلح اذا استبـد يحتاج الى مصلح يصلحهُ لذلك كان وجود الضـد في نظام الاجتماع من أعظم مقومات الاصلاح وكلما اشتد الضد اشتد التنازع واشتد التغير ايضاً سنة العوالم في نشوئهـا . بل الخاطر الذي يجب ان يخطر له هو لماذا هذا القلق المستحوذ على الاجتماع والذي لا يفارقهُ في كل اطواره كما يدل عليهِ تذمر المتذمرين وثورات الثائرين في كل العصور فلا شك ان السبب هو نقص نظاماته عن توفير الراحة له . وارتقاء العمران في الاجيال يدلنا على انه يمكن اصلاح هذا النقص

فالى هذا يجب ان يتجه اولاً خاطر الباحث المفكر والمصلح المدبر عند ما يسمع ذكر مثل هؤلاء الناقمين لا الى شجبهم وتقريعهم وتسفيه تعاليمهم مما يوهم لاول وهلة ان الاجتماع كما هو على هدى وهم يدفعونه الى الضلال . واذا انتقدناهم فللتنبيه الى ما قد يكون اصلح لفائدة الاجتماع . ولا يجوز لنا ان نرمي مطالبهم بانها اضغاث احلام قبل التثبت . فكم من مثل هذه الاحلام المزعومة في الماضي صارت حقائق رائعة اليوم. ولا ان نؤول تعاليمهم على غير الحق اضعافاً لها : فلقد طالما قال لنا خصوم مذهب دروين ان مذهبهُ يعلمنا ان الانسان متسلسل عن القرد اي ان القرد نفسه سيرتقي حتى يصير يوماً ما انساناً نظيرنا والحال ان مذهب دروين لا يعلم ذلك بل يعلمنا ان القرد والانسان من اصل واحد وان القرد اقرب الحيوانات اليهِ

كذلك خصوم الفوضويين والاشتراكيين وسائر الناقمين على الهيئة الاجتماعيـة يقولون لنا بعد ان يوسعوهم من التقريع واللوم ان اكثر مطالبهم احلام لا يمكن تحقيقها ويجعلون في رأس هذه المطالب اقتسام المال — والمال احب الاشياء الى الانسان — يريدون بذلك ان ينفروا الناس تضليلاً لهم لئلا يهتـدوا فتسوء مصالحهم . لان مطلب

من اسباب كثيرة اجتماعية داعية الى تأفف الهيئة الاجتماعية

فلعل جرائدنا تجد في هذا الموضوع ما يشغلها البحث فيهِ اشهراً وسنين فتفيد وتستفيد وخصوصاً نحن الشرقيين الذين نشعر بثقل وطأة الاجنبي ونحاول التخلص منهُ فهذا لا يتم لنا الا اذا وجهنا كل قوانا الى الاعتناء باطفالنا الذين هم رجال الغد حتى نستطيع ان نناظر بهم من هم ارقى منا وحتى لا نبقى بهم كما قال الشاعر

صبياننا في القبح مثل شيوخنا     وشيوخنا في العقل كالصبيان

## المقالة السادسة والعشرون

### ﴿ الاشتراكيون [1] ﴾

قرأت مقالة في الاشتراكيين وغاية ما فهمتهُ من الانتقاد عليهم ان شكواهم من نظام الاجتماع فارغة ومطالبهم افرغ وهي على ما بها من الوهن غير واضحة حتى يهتدى بها

وقائل ذلك لم يقل لنا رأيه في نظام الاجتماع نفسه كما هو اليوم وكما كان في الامس . والمتبادر الى الذهن من سياق الحديث انه حسن في العهدين

على ان نظام الاجتماع كما هو اليوم ليس الذي كان بالامس فهو اليوم اصلح نوعاً منهُ في الماضي ليس في كله بل في بعض المجتمعات التي عليها مسحة من التمدن ونسميها نحن متمدنة — والا فهناك حتى اليوم مجتمعات كثيرة يود الانسان لو لم يكن من اعضائها

فلماذا تغير هذا النظام ويتغير مع الاجيال من اردأ الى رديء ومن رديء الى حسن بالتدريج — وما هو الباعث على هذا التغيير

وما هو كذلك شأن مثل هؤلاء الناقمين على هـذا النظام في هذا التغيير فوضويين كانوا او اشتراكيين أو مقلقين او مصلحين او فلاسفة الى دعاة الاديان انفسهم على اختلاف منازعهم وحسب كل عصر . ولعلَّ المدقق يوافقني على ان شأنهم في ترقيـة الاجتماع عظيم

(١) نشرت في الاخبار سنة ١٩٠٨ وهي المشار اليها في مقالة المؤيد المار ذكرها

قلت لك ان في كل تركيا ومصر لا يوجد مستشفى واحد للاطفال فالحكومة تعتذر من عدم وجود المال ( الا اذا شاءت ) وغالب اغنياء الامة ليس فيهم من يفهم قوة هـذه الاعمال لجهلهم وقلة عقلهم مع ان الذي انفقتهُ حكومة تركيا ومصر على سياحة امبراطور غني كان في امكانه ان يسوح على نفقتهِ وما تنفقهُ الامة من وقت الى آخر على الاحتفالات الصبيانية البليدة كان وحده يكفي لانشاء مستشفيات تأوي فيها اطفال البلدتين معاً

والمضحك المبكي ان الحكومة والامة اللتين لا تهتزان لهـذا الامر الجلل تنتفض اعصابهما رعباً لعمل مشجوب يأتيه بعض الرعاع من وقت الى وقت آخر بعيد كالايقاع بعظيم يسهل تعويضه لهوس تسهل مداواته و يأس تسهل ملافاته فتقوم قيامتهما وتبثان العيون والارصاد وتأخذان البريء بجريرة المذنب كأن القيامة قـد قامت ويوم الحشر قد دنا . واغرب من ذلك ان هذه الغيرة قد امتدت الى جرائدنا في هذه الايام فقامت تجسم الاوهام وتؤكد المزعوم وتحذر وتندد وتنبه رجال الاحكام الى خوف بعيد عنهـا قريب منهم كأنها احرص منهم على حياتهم واشد استمساكاً منهم بنظاماتهم مع بعدها عن امتيازاتهم منادية بالويل والثبور ذارة الرماد على مسترسل سطورها كأنها خافت على قصور اصحابها ان تنسف واموالهم ان تسلب وارواحهم ان تنهب وهم منها افرغ من فؤاد ام موسى حتى ارواحهم لم يبقوا على استقلالها مدفوعة بعوامل لا يصح ان تسمى الانعطاف لان هـذه الحاسة النبيلة كثيراً ما تخونها في حوادث اشد من اعمال الفوضويين ضرراً واكثر منها مساساً بهم فكم نرى الحاكم الواحد يضحي مئات الالوف من النفوس والملايين من الاموال على مذابح الطمع والجهل ولا تنبس ببنت شفة فلو كانت هذه الحاسة الشريفة هي التي تدفعها الى ذلك لوجب ان تظهر فيها على نفس النسبة وحينئذٍ لملأت العالم ضجيجاً وعجيجاً فالحكمة تقضي في مثل ذلك ان يبحث عن السبب لملافاته من اصله فالفوضوية والاشتراكية وكل الجمعيات المقاومة للنظام الحالي بقطع النظر عن كونها صالحة أو غير صالحة دليل على ان الهيئة الاجتماعية تشعر بتعب موجود حقيقة تقصر النظامات الحاضرة عن تداركه فاصلاح هـذه النظامات لازالة هذه الاسباب احق واولى . وما اهمال تربية الاطفال الذين فيهم بحثنا من جانب هذه الهيئة والنظامات الا سبب واحد

المدح الباردة ومبادلة العبارات الفارغة بل للوقوف على احوال التلامذة في ادق امورهم في مأبهم وهوائهم وغذائهم ونظافتهم ومطبخهم واسرتهم وملابسهم فضلاً عن طريقة تعليمهم بل للوقوف على حال المعلمين من ذلك ايضاً فاني اذكر ان معلماً من معلمي المدارس الكبرى حضر مرة للتداوي عندي فلما كشفت لباسه الاسود كدت اتقيأ ما في معدتي من شدة سواد قميصه لشدة قذارته فكيف يرجى ممن هو بهذه القذارة في جسمهِ ان يكون انظف من ذلك في عقله وان يكون مرشداً لهؤلاء الاطفال الى ما يصح بهِ جسمهم ويذكو عقلهم وتسمو آدابهم

ولا ريب ان بعض المدارس اصلح من البعض الآخر في هذه الامور وان كثيراً منها اصطلح جداً عما كان عليهِ من عشرين سنة خصوصاً في اوروبا الا ان البعض الآخر لم يزل كما كان عليهِ من عهد اربعين او خمسين سنة خصوصاً في سوريا ومصر من البلاد التي يهمنا التعليم فيها . والاصلاح الذي حصل في المدارس في النصف الثاني من هذا القرن هو في جملتهِ دون الممكن ودون المطلوب خصوصاً اذا قسناه بالاصلاح الذي حصل في المستشفيات والفنادق ولا ندري كيف تصبر الهيئة الاجتماعية والحكومات المتمدنة على ذلك مع علمها ان هؤلاء الاطفال هم رجال الغد فعلى صحة ابدانهم يتوقف نماء الامة وعلى صحة عقولهم يتوقف نجاحها

واهمال الرحمة بالاطفال بالغ الغاية القصوى في بلاد المشرق واذا القينا نظرنا الى الاطفال في هذه البلاد خصوصاً ضاق علينا قاموس اللغة لوجود الفاظ تعبر عما يجيش في النفس من الاحتقار لرجال الاحكام ولهيئة البلاد نفسها ولا سيما بعد ان عدوا انفسهم في عداد الحكومات والامم المتمدنة يتقلدون كأنهم لا يعقلون فيؤلفون الجمعيات للرفق بالحيوان كأنهم استوفوا ما يلزم لنوع الانسان مع ان الحاجة الى اقامة الجمعيات للرفق بالاطفال خصوصاً في هذه البلاد اشد واولى . فلا نظن ان العاهات التي تشوه الابدان والوفيات التي تذهب بالارواح بالغة في بلاد مبلغها في هذه البلاد . فالرفق بهؤلاء الاطفال من اول واجبات الامة وواجبات الحكومة اذا كانتا تريدان ان تعملا عملاً معقولاً مشكوراً ولا اقلّ من ان تنشأ لهم المستشفيات الكافية . ولا تستغرب ايها القارىء اذا

اما التعليم في المدارس فقسمان العلوم الادبية والعلوم الطبيعيــة اما العلوم الطبيعية ويدخل تحتها العلوم الرياضية فلا يعترض عليها لانها واحدة في كل المدارس وهي من اصدق العلوم وتأثيرها في العقل جيد جداً اذ تربيه على القياس الصحيح

اما العلوم الادبية فواسعة جداً ويدخل تحتها علوم اللغة لا من حيث وضعها ونشؤها فان ذلك من المباحث الطبيعية الحسنة والمهملة في المدارس بل من حيث تعليلها والمنطق والفلسفة العقليــة وعلم الاداب والسياسة واللاهوت الى غير ذلك من اجتهادات العقل واوضاعهِ ففيها كثير من المباديء التي يدخلونها في رؤوس التلامذة قسراً كانهــا قضايا مسلمة وكثير منها ما يكون مغلوطاً ويربون العقل عليها حتى يفقد ما له من القوى الذاتيــة ويصبح كانهُ مصنوع على قالب معلوم وناهيك بهذا المصنوع المبني على المغلوط وبعد ان يصنعوه على هذه الصورة يفرغون فيه العلوم حيث تبقى فيهِ عقيمة او تظهر بمظاهر متناقضة ولذلك كان اكثر الذين يقيمون في هذه المدارس زماناً طويلاً ويدرسون دروسها القانونية يخرجون منها متعلمين كثيراً ولكن فاقدين كل امتياز ذاتي في عقولهم واكثر الناس الذين امتازوا بخاصــة ذاتية في عقولهم هم من الذين لم تسمح لهم الاحوال اما لمرض وإما لسبب آخر باتباع هذه الدروس القانونية على النسق المعوَّل عليهِ في اكثر المدارس ونجوا بذلك من الوقوع تحت سلطان هذه التربية العقلية فالمدارس لا يجوز لها ان تضغط على العقول لتصنعها على قالب معلوم وتضيق عليها المذاهب بل يلزم لها ان تعدها اعداداً عاماً وتوسع لها المنافذ حتى يسهل عليها التصرف في العلوم التي تعلمها والبحث في جميع الاشياء التي تعرض لها وبين المــدارس الموجودة بيننا فرق عظيم في ذلك وافضلها ما هجر الخطة الاولى وكان اقرب الى الخطة الثانية والفرق بين تلامذة المدرستين واضح وارجحية الجانب الواحد لا تحتاج الى بيان ولو كانت حكومات المشرق من الحكومات المرتقية لاهتمت بهذا الامر جداً على الاسلوب الذي ألمعنا اليهِ والذي يحتاج بسطه الى تفصيل طويل

ولو كنت ناظراً للمعارف — لا اقول ذلك من باب التمني — لاكثرت التردد على المدارس لا في الحفلات الرسمية للاكل والشرب والطرب على نغم الموسيقى واستماع خطب

كأنهُ يريد ان يسر اليَّ امراً وقال لي بصوت منخفض « اذا غضبت مرة اخرى فلا ترتب على غضبك عملاً الا بعد اربع وعشرين ساعة » وتركني فبقيت جامداً في مكاني لا اتحرك وعلاني احمرار الخجل واستولى عليَّ الدوار ولا اعلم كم بقيت في هذه الحالة لا انتقل من مكاني وانما الذي اعلمهُ انني اعتبرت بهذا العقاب كثيراً وحسبتهُ اشد من الضرب والطرد وادعى الى الاصلاح

واي قساوة وحشية تفوق ما ارويه لك عن معاملة المعلمين للتلامذة في بعض هذه المدارس الكبرى فاني يوم كنت تلميذاً وسني بين ١١ و ١٢ سنة كان ملاحظ غرفة منامتنا كلما رأى تلميذاً مكشوفاً وهو نائم يوقظهُ بضرب به بعصا رفيعة على رجليهِ عوضاً عن ان يغطيه كما كان يفعل ابوه او امه مع ان عمل الضرب لا يوجب على حضرته صرف قوة اقل مما يوجب عمل التغطية فماذا يفعل هذا الطفل المسكين القاصر عن معرفة الجائز وغير الجائز وعن معرفة متى يكون مسئولاً ومتى لا يكون اذ يرى مثل هذا الوحش المتولي امر تربيته يفعل ذلك سوى ان يقوم في اعتقاده ان تكشفه في نومه ذنب لا يغتفر ولكنهُ ذنب ليس في طاقته ان يجتنبهُ فتقل ثقته بنفسه ويقع في رعب قد يؤدي بهِ الى الخمول . واذكر اني كي اتقي هذه المعاملة الوحشية عمدت الى اللحاف وثبتّه في السرير ثم فتقت ملحفته وصرت ادخل جسمي بين اللحاف والملحفة كأني في كيس ولكني كنت حينئذٍ كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد اتقيت بهذه الحيلة عصا الرقيب ولكني وقعت بين انياب البق لان مسامير اللحاف كما يسمونها كانت ملآنة بقّاً

ولذلك ينبغي ان يكون المعلمون من الذين تربوا جيداً وبرعوا في علم الاخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملوه بحسب طبيعته وينبغي ان يكونوا كذلك من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابلية عقله ليردعوه عن الفاسد وينشطوه في الاستعداد الحسن والاكثرون لا يفهمون مقدار الضرر الناشيء عن عدم مراعاة ذلك فان عقولاً كثيرة من اذكى العقول ينطفي نورها كل سنة في المدارس من سوء المعاملة ومقاومة اميال العقل ولا ريب عندنا ان المستقبل سيجعل فن سياسة الاطفال فنّاً قائماً بنفسه تؤلف فيه المؤلفات ويتلقنه المعلمون في مدارس خصوصية تجيز لهم التعليم كما يفعل اليوم للاطباء والمتشرعين

في طعامهم فان كثيراً من المدارس حتى اليوم لا يسمح بغسل هذه الاواني الا مرة في كل اسبوع

والتربية ناقصة كذلك واكثر القائمين بها اناس يجهلونها فيعدون العقاب ومعاملة التلامذة بالخشونة والقساوة من القواعد الاساسية ويساوون فيها بين العموم لا يفرقون بين تلميذ وتلميذ جاهلين الحكمة من قول الشاعر

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

اي ان استعمال العصا حيث يمكن الاكتفاء بالتوبيخ اللطيف مضر كاستعمال هذا في موضع ذلك والامثلة على ذلك كثيرة وكل واحد منا في وسعهِ ان يذكر كثيراً منها واروي لك مثالين وقعا لي في مدرستين متباينتين في التربية وبينهما فترة طويلة احدهما اني كنت ذات ليلة قبل ميعاد النوم واقفاً مع صفي في مكان مكشوف للهواء وفي ايام الشتاء فخانني الصبر من طول الانتظار وقرصني البرد فتأففت من ذلك طالباً العجلة فلم يرُق ذلك في عيني الملاحظ علينا وكان رجلاً احمق اسمهُ الاب بيانكي احق بهِ مستشفى المجاذيب من مدرسة يتولى تربية الصغار فيها فعاقبني للحال عقاباً اوسخ من عقله فاعترضت فشدد العقاب فرضخت للظلم لصغر سني وضعفي وحفظت الغل في قلبي حتى اليوم ولو كان لي حينئذٍ قوة تمكنني من الدفاع عن نفسي لنتفت ذقنه شعرة شعرة ثم وقع لي بعد ذلك بسنين في مدرسة اخرى ما اخجل انا نفسي من ذكره فاني طلبت يوماً ما وأنا على المائدة طعاماً غير موجود وكان ذلك جائزاً لنا فأباه العشي عليَّ فغضبت لذلك جداً وقمت من عن المائدة واندفعت الى المطبخ كالالة العمياء وتناولت الشيء الذي طلبتهُ ثم رميت بهِ الى الارض ودستهُ تحت قدمي . ثم رجعت الى مكاني وانا انتظر العقاب على ذلك واقله الطرد . وكان للمدرسة رئيس من افاضل الرجال عاقل حكيم اسمهُ الدكتور بلس اطال الله بقاءه فابلغوه الامر فكأنه نظر الى سوابقي الحسنة وربما راعى اجتهادي في الدرس كذلك فامهلني يومين ولم يقابلني وانا انتظر من دقيقة الى اخرى ان يطلبني فلما كان اليوم الثالث كنت في ساحة المدرسة وحدي فرأيتهُ مقبلاً عليَّ وبيده كتاب فجمدت في مكاني وعلاني اصفرار الوجل وخفق قلبي فلما دنا مني تبسم ومال الى اذني

تربية تجعل عقله حراً غير مقيد بقيود الجهل والاوهام تحافظ على صحتهِ بالمبالغة بنظافة جسده وملابسهِ والاعتناء بطعامه وشرابه ونقاوة هواء غرفته متحاشية التأنق الذي يجر الى الرفاهة المرهلة للابدان والآداب حافظة له شيئاً من الخشونة الجائزة المقوية للاجسام والاخلاق فان مثل هذا الطفل يشب صحيحاً اديباً عاقلاً ليس فيهِ شيء من ميوعة المترهلين او خشونة الجافين متحلياً بالرجولة التي هي من صفات الحازمين مقداماً ولو زلت قدمهُ جليداً ولو خارت هممهُ سخياً ولو نضبت كفهُ كريم الاخلاق يملكه المعروف ولا يلتئم للمتلوف يعذر حيث يجب العذل . فللجهل عذر لا يفوت ذوي الفضل

كريم يقيم العذر في موضع العذل     فللجهل عذرٌ لا يفوت ذوي الفضل
اذا ما رأى المعروف في بذل نفسه     جفاها ولم يقبل فداه سوى البذل

والحكم بين الطفلين كالحكم بين الامين لا يقبل التردد وهذه النسبة تختلف بين اطفال امة واحدة لاختلاف الامهات والغلبة حينئذٍ للاكثرية كما انها تختلف بين اطفال امةٍ وامة والغلبة هنا للامة المتمدنة فاذا خرج الطفل من حجر امه الى المدارس صادف هناك عقبات كثيرة كثيراً ما تهدم جسمهُ وتطفيء نور عقله من سوء المعاملة في التربية وفساد التعليم وهذه المسألة المهمة جداً في مستقبل الاطفال ومستقبل كل امة تحتمل بسطاً واسعاً اذا اردنا الالمام بكل اطرافها والمقام لا يحتمل ذلك فنقتصر فيها على كلام اجمالي يكون تمهيداً للتوسع في هذا البحث لمن اراد ولا نطيل الوقوف على المدارس الصغرى فان عدمها افضل من وجود كثير منها ونحصر كلامنا في المدارس الكبرى فنقول ان التعليم على ما هو شائع وخصوصاً في مدارس المشرق ناقص جداً فنظام المدارس في التعليم والتربية قديم لا ينطبق في جملتهِ على احتياجات العصر ومقبولات العقل وسنن الارتقاء فالاسباب الصحية مهملة في اكثرها للغاية من حيث نظافة الهواء والماء والمأكل والملبس فان القائمين بهذه التربية اكثرهم لا يعتنون بذلك وربما عدَّه بعضهم من الامور المخالفة للمبادىء القائمين بتأييدها فعدوا القذارة نوعاً من التقشف الفضيل والنظافة افراطاً في الترهل الذميم وكثيراً ما يكون ذلك سبباً لامراض تؤدي الى الموت بعد الاعتلال . خذ مثلاً لذلك من امثلة كثيرة وهو مثال السكين والملعقة والشوكة التي يستعملها التلامذة

# المقالة الخامسة والعشرون

## رجال الغد [1]

اذا شئت ان تعرف مستقبل امـة فابحث عنه في اطفالها فهم نتاج الماضي وعنوان المستقبل ابحث عنهُ في صحتهم وفي تربيتهم وفي تعليمهم من يوم يحبل بهم اجنة الى يوم يولدون ويربون في حجر امهم الى يوم يخرجون من المدارس و ينضمون الى الهيئة الاجتماعية اعضاء عاملين . فعلى صحتهم وكثرتهم يتوقف نمو الامـة وعلى حسن تربيتهم وتعليمهم يتوقف نجاحها . فالام اول عامل يؤثر في الطفل واهمهُ وتأثيرها فيه اشد من تأثير الاب فهي تغذيه من دمها اشهراً وتسقيه لبنها اشهراً وتربيه في حجرها سنين وما يكتسبهُ الطفل من امه بالاعداد الطبيعي والتربية الادبية والتعليم العقلي قد لا تقوى عليه المؤثرات اللاحقـة ومهما قويت فلا تزيل اثره . تصور اماً حمقاء لا تعرف من قوانين الصحة الاَّ الاكل حتى على الشبع ومن آداب التمدن الا البهرجة والتزين بالحلى العاطلة وهي عاطلة من حلى الآداب الحقيقية ومن العلوم غير ما تقوى بهِ الاوهام وتفسد معهُ الاحكام عقلها اوسخ من بدنها تدفع العين عن طفلها بالقذارة وتمنعهُ عن اتيان ما لا يجوز بتخويفه بالغول والبعبع بعد الاب والطبيب وتدفع بهِ بعد ان تغذيه بدم الجهل وتسقيه لبن الحمق الى مرضع لا تفضلها في شيء من هـذا القبيل وتنقص عنها في فقدان الحنو الوالدي الذي هو من العواطف التي تؤثر في اللبن تأثيراً عصبياً وتكيفهُ تكييفاً حسناً يستمريء بهِ الرضيع . فماذا تكون حالة هذا الطفل المسكين صحياً وادبياً وعقلياً . لا شك انها تكون رديئة جداً . ثم قابل هـذا الطفل بطفل ام هي على نقيض ما تقدم عاقلة متهذبة متعلمة متحلية بالاداب الصحيحة عالمة ان نبلها قائم ببساطتها في معيشتهـا لا ببهرجتها وان جمالها قائم بترتيبها ونظافتها لا بطلي وجهها ليس للاوهام عليها سلطان يدفعها الى الاستمساك بالخرافات وزرعها في رأس طفلهـا حتى يشب على الاعتقادات الفاسدة والاحكام الباردة بل تربيه

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

حياتهُ صونًا لشرف نفسه فيقصد بذلك ترضيتين احداهما تخليص وجدانه من عذاب ما تجلبهُ عليه الاهانة . والثانية تلطيف هذه الاهانة بما يظن انه يهيء لها من الاعذار لدى الجمهور

والمنتحر ليس بمجنون حقيقة كما ربما يظن البعض لانه في انتحاره يعقل اي انه يفعل افعالاً مغيَّاة لا تخرج كلها عن حب الذات فاذا بذل حياته المادية فلاعتقاده ان الحياة الادبية افضل او لان عذابه تجاوز حد طاقته او لاسباب اخرى ذاتية والدافع له الى ذلك ضيق في العقل وصغر في النفس للاسباب الاجتماعية السابق ذكرها ولو اصلحت تربيتهُ على المبادىء المتينة لعلم ان الشرف الحقيقي لا يكون بقتل النفس ولو بعد زلة كما يظن من لا حزم عنده وتساعده التربية الاجتماعية بل بمصادمة الطوارىء بعزم ثابت وجأش قوي لعله يستطيع ولو في المستقبل البعيد ان يعوض على من اضاع عليهِ متاعه والا فيكون قد جاهد جهاد الابطال ولم يمت موت الانذال وان الشهامة التي يزعم الاحداث انهم يأتونها بانتحارهم لمعشوق زاد دلالاً او قهراً لابوين لم ينيلاهم منالاً ليست شهامة بل الشهامة في تلقي الصعوبات بصدر رحب وقلب لا يهاب للتغلب عليها

وأما الانتحار الذي يكون سببهُ الفقر فما الباعث عليهِ الا ضيق المذاهب على الانسان فتقل حيلته في تحصيل رزقه وفطرته لا تساعده على ما عدتهُ الهيئة الاجتماعية جنايات فهو لا يجد من نفسه ميلاً للسرقة او اللصوصية. فتصغر همتهُ بازاء الصعوبات الكثيرة فيطلب النجاة من الذل بالموت

والانتحار هنا يكون غالبًا مقرونًا بالقتل فيقتل الرجل معهُ امرأتهُ واولاده كأنه يريد ان ينجيهم مما هو واقع فيهِ معتقداً انهم يشعرون شعوره في مركزه وربما حملتهُ محبة نفسه عن شعور مبهم على ان لا يدع نفسه يترك هذه الحياة من دون شريك له في مصابه فيعمد الى قتل من هم اقرب اليهِ وقتلهم اسهل عليهِ . والمسئول في هذه الجناية الفظيعة نظامات الهيئة الاجتماعية بلا ريب . وربما وضعنا مقالة في فرصة اخرى ابنّا فيها كيف يمكن ملافاة نقص هذه النظامات بما تقل معهُ مصائب الانسان ولا يخرج عن حد الامكان في هـذا الزمان حتى لا يظن قصار النظر اننا نهيم في الاوهام وان مباحثنا اضغاث احلام وحتى يتضح لهم انهم هم انفسهم ليسوا في يقظة بل في منام

يفرط فيها اصحاب العسر كذلك يرهل البدن وتضعف اعصابه فيصير سريع التأثر ولذلك كان يكثر الانتحار في سن الصبا ما بين خمس عشرة سنة وخمس وعشرين سنة اذ يكون الجسم رطباً رخصاً فالتربية البيتية تضعف البدن بالترفه والتربية المدرسية تقوي العواطف وتفسح المجال واسعاً للخيال الى حد الضلال مع عدم مراعاة تطبيق ذلك على المعاملات فيخرج الشاب من بيته ومن المدارس وهو على هذه الحال من وهن المبادئ الى المجتمع البشري حيث يصادف كل شيء على عكس ما قد تربى وضد ما قد تعلم فتشتد فيهِ الانفعالات وتعظم عليهِ الصعوبات ولا سيما اذا كان ممن قد تعلق على قراءة كتب المجون التي يبالغ اصحابها في تجسيم ما بني على المخيلة وتعظيمه مع بعده عن الواقع حتى يصبح الانسان اثنين متناقضين انساناً بالوسط الذي يعيش فيهِ وانساناً بما تربى عليهِ فيصير بذلك متأثراً لاقل سبب واحياناً لغير داع . وكتب المجون هذه شديدة الضرر في تهييج عواطف الانسان على ان نهج بعض الكتبة فيها في اواخر هذا القرن النهج الطبيعي لتقرير الحقائق كما هي خطوة حميدة ستقلل الضرر الناشيء عنها

والانتحار يكثر في الاحداث لاسباب عشقية تسهل مداواتها ومعاكسات لاتصعب ملافاتها لوكانوا اقوم تربية واكثر خبرة ولذلك هو يقل جداً بعد سن الاربعين واذا حصل حينئذٍ فلغير هذه الاسباب . لاسباب يزعمون انها تمس الشرف كما لو تورط انسان مستقيم لزلة قدم فاستعمل مالاً ليس له بناء على ان يرده لصاحبه بعد ان يصلح زلته فيبدد المال ولا ينهض من عثرتهِ ويخشى افتضاح امره فقد يقتل نفسه او وقع في مرض عضال تأكد عدم شفائه ولم يعد يطيق عذابه فقد ينتحر فراراً من العذاب واذا كان للانتحار مسوغ فربما كان هذا الاخير اي المرض اصدق مسوغ له

وفلسفة الانتحار يختلف تعليلها بحسب الاسباب والسن ففي العشق يقصد المنتحر التخلص من عذاب ليس في طاقتهِ احتماله وربما قصد بانتحاره ارضاء حاسة وهمية هي قهر الحبيب اذا كان يعتقد ان حبه شاغل مكاناً من قلبه او كان يعتقد فيهِ وجود عاطفة الشفقة فقط وقلما ينتحر لمعشوق يعتقد فيهِ الخلو من هاتين العاطفتين اصلاً وفي معاكسات الاهل يقصد تكديرهم كانه ينتقم لنفسه منهم على عدم مجاراتهم له في اهوائه واما الذي يبذل

الفرنساوي « جعل الكلام لتضليل الافكار » او على حد قول الشاعر العربي

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولا يخفى ما في ذلك من الرخاوة العديمة الطلاوة ومن النقص في الاداب الخصوصية والعمومية معاً ومن افساد اخلاق المجتمع البشري عموماً واقل اضرار ذلك التضليل افقد الحرية الدالة على الشهامة وعلو النفس

واذا نظرنا الى هـذا التمدن المشحون بالمبادي‌ء المتناقضة في حياة الجموع تبدى لنا هذا النقص جلياً في نظاماته واحكامه وتعاليمهِ مما يجعل الخطر على التمدن الحقيقي من الوقوف والتقهقر شديداً جداً . فلولا هذه النظامات الناقصة والاحكام الفاسدة والتعاليم المضللة لما رأينا المئات من الالوف يذهبون جوعاً وبرداً وقتلاً بالسيف والامراض . ولما رأينا هـذا التأفف من الهيئة الاجتماعية بسبب ذلك وهذا التحفز منها لقلب هذه النظامات انتقاماً للضعيف الرازح تحت عبء الظلم من القوي السابح في بحور الغرور ولا يخفى ما في ذلك من الخطر على المجتمع نفسه . ولا نظن ان عصراً من العصور بلغ فيهِ توتر العلاقات التي تربط اعضاء هذا المجتمع بهذه النظامات مبلغهُ في هذا العصر لاتساع الفهم فاما ان تنقح هذه النظامات الى ما يكون اصلح للحال واما ان تقطع رباطاتها لزيادة الشد فيقع المجتمع في اواخر هذا القرن او اوائل القرن القادم في هرج لا تذكر معهُ ثورة اواخر القرن الماضي بشيء

وقـد يتوهم القاريء ان اسهاب الكلام على التمدن الحالي ونظاماته وتعاليمه وسائر آدابه كما تقدم خروج عن الموضوع وغلو في النظر والحال ان اعتبار ذلك امر لازم في مثل بحثنا لان اسباب انتحار الافراد تمتد اعراقها الى اصل المجتمع البشري وتخلل كل طبقاته فاداب الافراد من آداب الاجتماع واخلاقهم من اخلاقه وقواهم العقلية وعواطفهم من قواه العقلية وعواطفه فالاجتماع مسئول عن كل ضعف يظهر في الافراد ولا شك ان الانتحار ضعف في العقل يجر الى صغر في النفس سببهُ تقوية بعض العواطف بسبب التربية واماتة البعض الآخر وتحويلها الى غير وجهتها الحقيقية بالتعاليم المتناقضة وعدم انطباقها على العمل

فبهذه التربية التي يفرط فيها اصحاب اليسار في البيوت والمعلمون في المدارس والتي

في دور من ادوار ارتقاء الانسان ينبغي ان يعد في تاريخ المجتمع البشري طور الانتقال فنحن في هذا الطور لم نبق على همجيتنا البسيطة ولم نبلغ مقام التمدن الصحيح ولقد مرَّ علينا في هذا الدور قرون ونحن نتقلب متذبذبين بين الوقوف والتقهقر واستئناف السير وسيمر علينا قرون كثيرة ايضاً قبل ان نبلغ هذا المقام . وادوار الانتقال في حياة الجموع كما في حياة الافراد شديدة الخطر فكما ان الخطر على حياة الافراد يشتد في طور انتقال الطفل من الرضاع الى الفطام وفي التسنين هكذا الخطر يشتد على حياة الجموع في انتقالها من طور الى طور وكثيراً ما يعرض لها في هذا الطور ما يوقف سيرها ويوجب تقهقرها وتاريخ الاجتماعات البشرية مشحون بالادلة على ان هذا الوقوف وهذا التقهقر حصلا لها في حياتها مراراً عديدة فاضطرت ان تستأنف السير والله يعلم ما يلزم لذلك من الزمان الطويل

ويطول بنا الشرح لو اردنا ان نبين اوجه النقص في تمدننا الحديث الذي نتباهى بهِ اليوم كأنا بلغنا بهِ القدح المعلى وما يعترضهُ من المخاطر التي يخشى منها على حياة العمران مما يوجب وقوفه وتقهقره احقاباً طويلة . ولا نطيل الوقوف على هذا التمدن « النيء » في حياة الافراد في حركاتهم المصطنعة التي ليس فيها شيء من الرجولة التي هي منتهى الادب الحقيقي كأن يثبت الانسان رجليهِ على اطراف قدميه ويحني رأسه الى الامام ويبرز بعجزه الى الوراء ويبسط كفه لا الى حد العطاء ويضم اصابعه مبالغة في العياقة ويمد ذراعيهِ على زاوية لا هي بالمنفرجة ولا هي بالقائمة ويثبت كتفه كأن بها حدوراً تؤلمها الحركة يظن بذلك انه بلغ منتهى الكياسة وما بلغ بهِ الا انحطاطه الى مقام اجداده القرود أو كأن يقف صنماً على كلتا قدميهِ ويثبت ساقيه ويأخذ بعجزه وجزعه يطول ويقصر وينحني وينبسط باسطاً كفه بسط المستجدي ماداً يده الى الارض ورافعها الى رأسه وفمه مكرراً ذلك بسرعة تخطف الابصار كأنه يغرف بها شيئاً من احد طرفيهِ ليضعهُ في الطرف الاخر وما يغرف بها الا جهله ليدل بهِ على قلة عقله (اشارة الى السلام الافرنجي والتركي)

وهذا التصنع الذي يعده بعضهم من التمدن ويا حبذا التوحش عنده لا يقتصر على حركاتهم فقط بل يتناول حديثهم ومعاملاتهم وصداقتهم ان صحت ان تسمى صداقة وسائر آدابهم فجميعها لا يتجاوز حد التكلف ومبدأهم فيها التبطن على حد قول المثل

الجاهلية هي الانفة ولذلك كانت حوادث الانتحار في هـذه العصور مقتصرة على امر واحد ليس فيه شيء من صغر النفس او قلة العقل كما نرى اليوم كأن يقع الانسان في اسر عدوه او يخشى الوقوع في اسره وقد سدّت في وجهه سبل الدفاع وهو هالك في الحالين فيفضل ان يقتل نفسه بيده ليحرم عـدوه من لذة الايقاع به وهو في كل ذلك لم يتخط حب الذات فمدافعته عن نفسه يحمله عليها حب ذاته وقتلها بيده لئلا تهان بيد عدوه يحمله عليه حب ذاته ايضاً

ثم جاء عصر التمدن بما خالطه من التعاليم المتباينة والمباديء المتناقضة من اجتماعية ودينية وادبيـة فقوّى في الانسان عواطف وامات عواطف وحوّل عواطف فقوّى في الانسان الخيال واضعف فيه الثقة بالنفس والاعتماد عليها وصرفه عن الحال بالمآل فصغرت الحياة الدنيا في عينيه حتى احتقرت الحياة المادية وعظمت الحيـاة الاخرى حتى صارت تفضل عليها الحياة الادبية

ولم يقتصر الانسان على بسيط هذه المباديء والا لم يكن الشر عظيماً خصوصاً اذا كانت النتائج متفقة معها بل وقع تناقض كلي في تربيته وتعاليمه فبعد ان بذلوا الابدان الى حد التقشف ورفعوا الآمال الى مقام الاماني عادوا فرفهوا الابدان الى حد الترهل مع التصرف بالمباديء الادبية بما لم يضعف من قوّتها بل حوّل وجهتها وافسد غايتهـا فضعف الجهاز العصبي المستولي على العواطف بالتربية المرهـلة للابدان وتمادى العقل في الخيال حتى تناهى في الضلال وكثر التناقض بين الحياة النظرية والحياة العمليـة فكثر الانتحار بين الموسرين لاسباب أدبية تهيج بها العواطف متطرفين فيما تربوا عليه من ان قتل الآمال لاشد من قتل الاجساد وكثر بين الفقراء لاسباب اجتماعية تضيق عليهم المذاهب فعمدوا اليه متعزين بقول الشاعر

والموت اطيب من حياة مرة تقضى لياليها كقضم الجلمد

ولا يفهم من ذلك ان الانتحار من آفات التمـدن بدليل ما نراه اليوم بل التمدن الصحيح ينبغي ان يزيل اثره بالكلية من المجتمع البشري باصلاح التربية وتقويم المباديء بل هو من آفات تمدننا الحديث لما فيه من النقص والتذبذب في كل شيء فنحن حقيقة

المفقود خصوصاً اذا عرف المجتمع بشرائعه ان يستفيد من قوى هذا الموجود النافعة لان الاضرار بهذا المجتمع ليس من اصل الطبع في نظام هذا الكون بل من الامور العارضة بالنسبة الى تطبيق الوضع على الطبع . فالانتحار مرض عارض لعدم تطبيق الموضوع على المطبوع واسبابه في نظامات هذا الاجتماع وتعاليمه

فالانسان ليس كائناً واحداً في جسمه وطباعه وعقله واخلاقه بل هو ابن الفطرة وابن المكان والزمان ايضاً . فالانسان الفطري ليس لنا مثال يمكننا من وصفه وصفاً ثابتاً وغاية ما يقال فيهِ انه معد اعدادا تاماً لقبول تأثير المؤثرات فيه طبيعية كانت او ادبية . ولا يمكن لنا ذلك ولو رددناه الى الحيوان لانه في هذه الحالة ايضاً يبقى متأثراً ولو لعوامل المكان انما بالتجريد يمكننا ان نتخيله بصفاته البسيطة الشاملة لعامة هذا الكون واول هذه الصفات فيهِ حب الذات وأبسطهُ اي حب الذات ما كانت الغاية منهُ المحافظة على الحياة . فالانسان الفطري هو اذاً محافظ على حياتهِ المادية لا ينوي لها شراً ولا يبغي بها بدلاً . فالانتحار ليس من طبع الانسان ولا هو من طبع الحيوان وما نسب الى بعض الحيوان من ذلك على ندرته لا يجوز ان يحسب من هذا القبيل واكثره عن جنون حقيقي يصيب الحيوان كما يصيب الانسان وقتل النفس فيه نتيجة لا غاية مقصودة كما هو في الانتحار

بل لو بحثنا في طبقات البشر السفلى التي هي اقرب الى الفطرة لم نجد ما يحملنا على الخروج عن هذا المبدأ . فالانسان المتوحش اذا اوذي بمصلحته او عورض في ارادته يحاول ان ينتقم لنفسه لا بقتل نفسه بل بقتل من حال دونه وتصدى لايذائه وان خاف على حياته من خصمه ولم يجد مفراً لنجاته من يده يفضل ان يقع صريعاً وهو يدافع عنها املاً بالنجاة وطلباً للانتقام من ان يقتل نفسه بيده

فالانتحار ليس في صفات الانسان الفطرية ما يحمل عليه ولا هو معروف عند الانسان المستغرق في الهمجية بل هو طاريء عليه من نوع التربية والتعليم . ويلزمنا ان نصعد الى عصور الجاهلية الفاصلة بين عصر التوحش وعصر التمدن بمعنى انها آخر الاول واول الثاني حتى نجد بعض حوادث منهُ من وقت الى آخر بعيد وفي ظروف خصوصية نادرة . فلا يخفى ان الصفة الاولى التي تنبهت في الانسان في هذه العصور اي عصور

طمعت بحلم الآلهة فلا اطمع بحلم البشر . ولذلك جاء في الامثال . ليس كل ما يعلم يقال . ولا كل ما يكتب ينشر [١] . فها قد بسطت لك امري . فاقبل عذري

الدكتور شبلي شميل

# المقالة الرابعة والعشرون

## الانتحار [٢]

« بحث اجتماعي بسيكولوجي »

لقد تعددت حوادث الانتحار في هـذا القطر في الايام الاخيرة خصوصاً في الاسكندرية ومصر حتى خيف من انتشار هذه الآفة الاجتماعية بالاقتداء بين شباننا الشديدي التأثر القليلي التبصر كأنها مرض ينتشر بالعدوى

بل هي مرض حقيقي من امراض الاجتماع . فالاجتماع كما وصفهُ بعض علماء السوسيولوجيا جسم يشبه جسم الحي في تكوينه ووظائفهِ واطواره وله نظيره امراض تشبه امراضهُ باسبابها ونتائجها وطرق انتشارها والفرق بينهما نسبي فقط في كبر الجسم وطول العمر فالاجتماع حيوان هائل والوف السنين ليست بالشيء الكثير في حياته

والبحث في امراض الاجتماع هو بحث بسيكولوجي سوسيولوجي يتناول البحث في قوى العقل واميال النفس والاسباب الاجتماعيـة التي تؤثر فيهما غريزية كانت كالوراثة العامـة الراجعة الى الاجتماع نفسه والخاصة المتعلقة بالاهل او مكتسبة كالتربية البيتية والمدرسية ونوع التعليم مما يجعل هذا البحث وعر المسالك

فالانتحار مرض من امراض الاجتماع يهم المجتمع الانساني باسبابه ونتائجه فهو ينزع من هـذا المجتمع اعضاء هم غالباً في مقتبل العمر والموجود مهما يكن خير لهذا المجتمع من

(١) ومن اراد الا المزيد فعليه برسالة المعاطس لابن جلا جعلتها صدى رسالة الغفران للمعري

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

زلت بعيداً عن هول يوم الموقف . فابق دفاعك الى ذلك اليوم ان كنت ترجو فيهِ من منصف

فقلت من انت اذاً ايها الصوت الذي اشكل عليَّ امره . وعظم لديَّ سره . فقال الصوت انا صوت الشعور العام . وتهيأ لتتمة الكلام . فأصابتني رعدة خلتها القاضية على حياتي . وارتني مماتي قبل يوم مماتي . ثم افقت واذا انا في عالم تحار في وصفه العقول لانها لم تألف ما فيهِ من المناظر . وتقصر دونهُ الالفاظ والمعاني لان معانيهُ لم تمر من قبل بخاطر . فأخذت امسح عينيَّ لاجلو بصري وانا لا احس بيدي ولا اهتدي الى عيني . وافرك جبيني كي استحضر فكري وانا لا اهتدي الى جبيني . فقلت ما هذا ايها الدليل اهدى ما ارى ام تضليل . فأنا اشعر بنفسي اني موجود . ولكن اين أنا من الوجود . فقال الصوت انت قد قطعت الآن عالم الكائنات . ودخلت في العالم الاول من عالم القوات

المشير — الى هنا وصل الدكتور في مقالته ثم اصابه الحدار كما اصاب فخذ يعقوب من قبل وفي عدد ٢٤ يوليو نشرت في المشير جواب الدكتور شميل على كتاب ارسلته اليه اساله فيه اذا كان حاقداً عليَّ واسأله ان ينجز المقالة وهذا نصه :

مصر في ١٨ يوليو سنة ١٨٩٩

حضرة الفاضل صاحب المشير المحترم

اخذت كتابك . أما انا فغير حاقد عليك لسرقتك لي . والسرقة جائزة اذا لم تكن مضرة واذا نفعت مع ذلك فهي لا تعد جريمة كما يعدها القانون المفتون بهِ اناس كثيرون ولكنني انا لست بهِ بمفتون . فاذا كانت سرقتي كما تقول قد افادتك شيئاً فانا لم تضرني بشيء . اما طلبك تتمة المقالة المسروقة فانت تعلم ان ما وصلت يدك اليه منها انما هو مسودة كتبت على نية التنقيح والاتمام ثم فاجأني الداء فقطع حبل افكاري ولم استبلَّ منهُ الا من بضعة ايام ولكني اراني بهِ قد رددت الى عالم الحقيقة وصرفت عن عالم الاحلام . فانا الآن منهمك بالماديات ولا ادري متى يجوز لي الاشتغال بالروحانيات فاجابة طلبك ليست ميسورة في الحال ولا استطيع ان اعدك بها في الاستقبال ولا سيما ان مصارعة الالهة ليست بالامر السهل . وها انا شاهد من بعد ويعقوب شاهد من قبل . على اني وان

ولا خطائي جلب عليهم ضيراً . فانا غير آسف على الدنيا لاني لم ارَ فيها يوماً واحداً حبب اليّ الخلق . وانت تعلم ـ اذا كنت كما يصفون ـ اني اقول الحق. واني لم اكذب في عمري الا من حيث كذبتني امالي . ولم اسيء الى احد ولو ساءت بهِ حالي [١] . وما ذنبي الا لاني وضعت ثقتي في غير محلها . وصدقت ما بي من القوة فصرفتها في غير اهلها . بل انت تعلم اني كنت احسن الناس نية . واسلمهم طوية . فقومي يقولون ان عثرتي من عدم التكافؤ . وقومك يقولون انها منك وذهلوا عن تبعة ما نسبوا اليك من مثل هذا التواطؤ . كأنك لم تعطني القوة الا لتعظم عليّ ألم السقوط من شاهق. ولم تجعل كل هذا الامتياز الا لترميني من حالق . فانا لم اقصد ذلك لاحد من الورى . فانا احسن منك اذا كنت انت كما الناس يرى . ـ وانا غير خائف من الاخرى لانهُ اذا صح قول قوم فالعدم خير من هذا الوجود الذي لا يستطيع العاقل الا ان يرى فيهِ صغر الموجد والموجود . واذا صح قول آخرين فانا لست بخائف اذا انتصب الميزان . لاني ادفع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ام لا يجوز في محكمة الله الديان . ما يعد العدول عنهُ اليوم استبداداً في محكمة الانسان . فانا لا اخاف من الوقوف امام محكمة العقل الاول . ألم تقل لنا انك عدل بل رحمة في كلامك المنزل . وان كنت قد ملأْتهُ من التهديد والوعيد . ما لا يليق بالخالق مع العبيد . لانك اردت ان تجعلهم مسئولين عما انت وحدك مسئول عنه. وتنسب اليهم ما هم في شرع الحق براء منهُ .....

فقال الصوت مهلاً ايها المعجب بجنانه . المغالي بقوة برهانه وحسن بيانه . المدعي القوة والضعف ملء جوارحه . والمتظاهر بعدم الخوف والجبن ملء جوانحه . يدل على ذلك ما اتيتهُ من الاسراع في الدفاع . قبل ان تعلم حقيقة الصوت ايها المرتاع . فانت ما

---

(١) قلت ذات يوم اعارض المعري في قوله :

هذا جناه ابي عليّ   وما جنيت على احد

بقولي هذا :

فلو ارتضيت بما جناهُ ابي عليّ وما انفرد
لم اشكُ الا دهرنا   وبذاك تعزية الولد
لكن جنيت انا عليّ   وما جنيت على احد

في جيبي قائلا للخادم ان الطبيب تأخر وانا لا استطيع الانتظار · وها انا اتحف القراء بما بدأ بكتابته الدكتور شميل ولم يتممه فان عاد يوماً ما فرضي عني ارجوه ان يوافينا بما كان يريد ان يجعله تكملة لها

وهذا نص المقالة المسروقة :

دع رجال الصحة يطاردون الطاعون . والناس من وجهه يهربون . فاما هم غالبون واما هم مغلوبون . فالعالم قديم والناس يمرون فيه مرَّ السحاب بلا حساب . والفوز ليس دائماً من العلم او العمل . فقد يكون من الصدفة وقوم يقولون من القدر . وما هو علم الناس وما هم يعملون . دعهم في ضلالهم يعمهون

واعتزل الناس ومجالسهم وهواجسهم ووساوسهم واركب معراج الفكر في سماء الخيال محلقاً الى ما وراء المحسوس واغمض عينيك لئلا يستوقفك بهاء الكواكب اللامعة ويسحرك جمال الشموس الساطعة . واسدد اذنيك لئلا يستهويك حفيف الافلاك في دورانها . فتلتبس الحقيقة عليك بين آثارها واعيانها . فاذا قطعت كل هذه العقبات . وقطعت كل صلة بينك وبين الكائنات . دخلت في العالم الاعظم عالم القوات . بل اصبحت والقوة الاولى متداخلين تعلم ما تعلم . عليماً بكل ما يجهل الناس والله اعلم

ذلك صوت سمعتهُ وانا في سنة الكرى . اتقلب من الحمى على جمر الغضا . فراعني ما سمعتهُ في المنام . لئلا يكون نذير الحمام . ولكن شاقني جداً خبر ما سأرى . فتجلدت وقلت في نفسي ما هي الاَّ رقدة اسرعت ام أبطأت فلعلَّ في الامر هدى . فلا تدع الصوت يذهب من دون صدى . ولا تجبن كأبيك آدم يوم عصى

ثم قلت ايها الصوت المتصل اليَّ عن غير طريق الحواس الظاهرة لاني اسمعك وحدي ولا يسمعك سواي كأنك مني او كأني فيك من انت ألعلك الضالة التي ينشدها الناس في كل زمان . ألعلك صوت مدبر هذه الاكوان . ألعلك انت الله الديان ? ولكن قل لي ما الذي اوجب بي هذا الاهتمام واوجب خرق النظام . حتى جئتني قبل يوم الحمام . لاني وان لم اكن من سكان القصور . فلم اصر بعد من سكان القبور . ألعلك استبطأتني فاتيت اليَّ كانك تريد ان تحاسبني قبل يوم الحساب . وقبل ان يزال عن النفس الحجاب كأني وحدي مخطيء والناس كلهم مصيبون . لكني لا ارى اصابتهم ملأت العالم خيراً

# المقالة الثالثة والعشرون

## ﴿ بمعزل عن الناس ﴾

أو

## ﴿ حلم في اليقظة او يقظة في الحلم [1] ﴾

صدَّر المشير هذه المقالة — والعهدة عليه — بالكلام الآتي قال :

محرر المشير حرامي

سرقة جائزة

« الدكتور شميل في السماء »

اعترف لقراء المشير انني ارتكبت في هذين اليومين جريمة اللصوصية « ولعل ذنبي لا يكون اعظم من ذنب حواء وآدم فانهما سرقا تفاحة لانها كانت لذيذة الطعم وانا سرقت مقالة من منزل الدكتور شميل لانه كان بخيلا بها ٠ فاذا وصل هـذا العدد من المشير الى صديقي الدكتور الفاضل وذهب الى مكتبه وفتش على ما كان فيه فلم يجده وتحقق ما اقول فارجوه ان لا يعاقب البواب او الخادم ٠ انه هو الذي فتح ابواب منزله لطالبي فضله والى القراء البيان

بلغني من مقالة قرأتها في المقطم بقلم الدكتور شميل انه مصاب بجدار ( روماتيزم ) فهرولت الى منزله العامر اعوده نحو الساعة السادسة مساء فقال الخادم ان الطبيب خرج في عربة للنزهـة فدخلت الى مكتبة الدكتور وجلست بين الكتب والاوراق التي بخط حضرته في عربته واردت ان اسلي نفسي بالقراءة ريثما يعود ثم حانت مني التفاتة الى مكتبه واذا هناك اوراق مبعثرة مكتوبة فدلتني سليقة الصحافي التي عندي انها اصول مقالة يكتبها الدكتور وحملتني الوقاحة المذمومة في كل انسان الا الصحافي على الاطلاع عليها ونظرت الى ما حولي فلم ار من يراقبني فاخذت تلك الاوراق وقرأتها واذا هي مقالة بدأ بها الدكتور شميل وكتب منها ثلاثة اوراق لا غير وبدأ بالرابعة ثم الظاهر ان الجدار اصابه وهو يكتبها فتركها على ان ينجزها متى شفي ٠ والمقالة المذكورة بيان مفاوضة بين الروح الاسمى والدكتور فلما قرأتها ذكرت ما ورد في التوراة عن يعقوب اذ صارعه الله وضرب حق فخذه فانخلع ٠ فقلت في نفسي ان يعقوب لما صارع الله ضربه على فخذه فخلعه وهذا صديقنا الدكتور صارعه اليوم فضربه بجدار حتى لا يتمم مقالته ولكن جاءت الضربة الاخيرة على الفخذين ٠ اما انا فاخذت اوراق المقالة ووضعتها

( ١ ) نشرت في المشير سنة ١٨٩٩ ولها علاقة بمقالة « المريض » السابقة

حركاته حتى لا يستطيع ان يعبر عنها فيرسل اليك نظراً منكسراً ذليلاً يقطع الصلب وينفذ القلب يقطع صلباً لا من صلب الحديد بل من عصب وعظم وينفذ قلباً لا من قلب الحجر بل من لحم ودم

فيا ايها الذين لا يزال بهم بقية تتأثر اكثر قليلاً من الحجر والذين لم تضرب مطامعهم على ابصارهم غشاوة ولم يختم الله المال على قلوبهم ان كنتم من اهل الاحسان الذين يريدون التقرب حقيقة الى الله المعبود او من اهل الفخر الذين يفاخرون باشياء هذا الوجود فدونكم واغاثة اخيكم المريض بل اغاثة انفسكم — فمن منكم يضمن لنفسه السلامة من الداء — بتخفيف مصابهِ وتقليل اوصابه بما في وسع الانسان بحسب تدرجه في العمران وليس لذلك اصلح من المستشفيات والاكثار منها على ما بلغت اليوم من الاتقان فهي قبل المعابد ان كنتم تفقهون وكأني بكم جميعاً تؤمنون على ذلك ولكن لا اعلم لماذا لا تفعلون أينقصكم فيها المجد وهي عنوان المجد والفخر ام الاجر وهي منتهى الاجر فلينهض منكم بضعة اناس من علية القوم يؤلفون جمعيات متفرقة من كل جنس ومذهب وموطن تجمع المال بالاكتتاب من الفقير قبل الغني كل حسب مقدرته كما تفعلون في بناء المعابد التي تخدمون بها مطامع الانسان اكثر مما تخدمون بها ارادة الله وانتم ايها الاغنياء خاصة فاني اعرف منكم الغني الكبير الذي جمع من المال القناطير ومات ولم يترك سوى ذكر الاختلاس من اموال الناس او الذي بنى شاهق القصر الذي لا ينفع لا للسكن ولا للقبر ألم يكن مثل هذا الاحسان افضل ذكرى وادعى الى الفخر وامام من تريدون ان تتخروا أليس امامنا فاذا ذممنا كم فالذنب عليكم ورحم الله من قال

ومن يكُ ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغنَ عنهُ ويذممِ

وأيُّ اشقى ممن اظلمت الدنيا في عينيه وارتجت الارض تحت رجليهِ وصغرت نفسه حتى اصبحت الحياة المحبوبة عبئاً ثقيلاً عليهِ اذا شرب الماء الزلال المعقم وجده مرًّا كالعلقم أو ذكر اشهى الطعام لديه جاشت نفسه عليهِ او توسد وثير المهاد فكانهُ يتقلب على شوك القتاد مفكك الاوصال اذا كاف قطع خيط القطن خانتهُ القوى مقطع الامال اذا قدمت له خزائن الارض أعرض عنها ورآها هي والعدم على حد سوى ليله طويل بما يعانيه من الآلام التي تحرمهُ لذة المنام فاذا طلع النهار زال ما كان قد امله فيهِ من زوال الاسقام

الاصحاء يحلمون بالاموال يحشدونها والمدن للكسب يفتحونها والمراتب العالية ينالونها يحلمون بالزوجات والبنين والبنات والقصور الشاهقة والاملاك الواسعة والحدائق الغناء ولا يقفون في احلامهم عند حد والمريض المسكين لا يطلب الا امراً واحداً يفديهِ بكل حطام الدنيا يفديه بماله يفديه بامياله يفديه بكل ما له من المطامع من واقع وغير واقع يفديه حتى بجزء من عمره بل بعمره كله اذا وجد ان لا خلاص له من الاسقام الا بتجرع الموت الزؤام يطلب ما لا يراه الاصحاء ولا يراه الا هو يطلب الصحة التي هي تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الاَّ المرضى. بل اي رجل تجوز عليهِ الشفقة اكثر ممن تمكن منهُ الداء وعزَّ بهِ الشفاء غنياً كان او فقيراً صعلوكاً كان او اميراً حتى لم يبق عنده في قوس الامل مِنزع ولا في النفس مَنزع فاذا كان هـذا حال المريض الامير فما قولك في حال المريض الفقير. فالفقير المعدم والجاني المكبل بالحديد والثكلى التي لا تريد ان تتعزى والرجل الذي اخنى عليهِ الدهر بعد العز والحر الذي يصبر على مضض البلوى يجدون في نفس شكواهم مصرفًا لهمومهم وفي قواهم الصحيحة منعشاً لآمالهم فالجائع اذا اعيتهُ الحيل تطاير الشرر من عينيهِ وشدَّ حبلاً من مَسَد على حقويه ونهض على ساقيـه يطارد بهما الغزلان وشمّر عن ساعديه يتسلق بهما الجدران ولبس من ظلام الليل ثوباً يقيهِ كالحجاب من عين كل مرتاب يتلصص تارةً ويسرق اخرى منتقماً لنفسهِ من ظلم الانسان ومن فساد ما سنهُ من الشرائع في العمران والثكلى تتناثر دموعها الحرَّى فتخفف ما بهـا من ألم الجوى كأنها تبدد بها سحب الهموم كما يبدد مطر السماء سحب الغيوم واما المريض المسكين فلا تفيده الشكوى الا زيادة البلوى وقد يخفت صوته فلا يقوى عليها وقد تشل

فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الفاعل يشتغل في الحرّ والعرق يتصبب من بدنهِ كالقطر ليطعم سواه من جناه ولا يناله من ذلك الاَّ نزر يسير لا يفي بحاجة زوجتهِ العارية ولا يخمد صوت اولاده الجياع فيطوون الليل على الطوى ملتفين على انفسهم وبعضهم على بعض ضاغطين معدهم بايديهم ليخففوا ما يعانونهُ من ألم الجوع وليس لهم ما يتدفأون بهِ من البرد غير حر انفاسهم رأيت ذلك فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الكريم وقد اخنى عليهِ الدهر واسقطهُ الى أدنى مهاوي الفقر فلم أجد اشقى من المريض

رأيت الام تبكي ولدها والزوجة بعلها والاخ اخاه والابن اباه فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الجاني المحكوم عليهِ بالقتل واجف القلب مشتت العقل فلم اجد أشقى من المريض

ذقت ذل السؤال بعد عزّ الافضال وعرفت خيبة الآمال وصبرت على تغطرس أصحاب المال فلم اجد أشقى من المريض

رأيت المفضول فوق الفاضل والفصيح يداجي الابكم والعالم يخضع للجاهل والعاقل يخاطب من لا يفهم فلم اجد أشقى من المريض

رأيتك تصنع المعروف فتجازى بالمتلوف وتصادق من يخدعك وتسمع من لا يسمعك فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الغني الشبعان يبلع الجمل ولا يتستر والفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الاسمر والقانون يكافيء ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات فلم اجد أشقى من المريض

رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل ودعوى الهداية والعالمية تسري عليهم تحت قلانس المكر وعمائم الجهل فلم اجد أشقى من المريض

رأيت الحرّ يرى كل ذلك ولا يجد بداً من الصبر عليهِ فلم اجد أشقى من المريض

الفرنساوية وثورة العمال القائمة اليوم والتي سيكون هولها اشد من تلك ان لم تدفع بالحكمة لانحصار تلك في بقعة من الارض وفي شعب من الشعوب ولانتشار هـذه في كل العالم المتمدن . بل على من اللوم اذا تمادوا وركبوا متن الغلو ولسان حالهم يقول

ماذا يهمني اذا خربتا ما دمت خرباناً أنا وانت
منعم تبيت فوق الريش وذا انا ابيت في الحشيش
ان لم يكن على الحصى في البرد تحت الشتاء وغطاي جلدي

ولولا نهضة رجال الثورة في الماضي وسريان روحهم الحية في اعقابهم لبقي الانسان يرسف في قيود الجهل حتى اليوم ولتقهقر الاجتماع عما كان عليـهِ ايضاً بالرغم عن ناموس الارتقاء العام اما وقد بلغ التنبه في الافكار مبلغهُ اليوم فلا خوف عليهِ ان يتقهقر لانتشار العلم وانتشار مبدأ الاشتراكية بسبب ذلك واقتدارها على تنفيذ مطالبها بل كلما تقدمنا ستزداد هذه الحركة الارتقائية سرعة وتقرب الامم بعضها من بعض فتقل الحروب ويتفرغ الانسان للاشتغال لمصلحة العمران والغريب ان كل واحد منا في حديثهِ وكتاباته كل يوم يخدم دعوة الاشتراكيين ولا يدري وقد يخدمهـا من حيث يريد مناهضتها ايضاً . ولعل هـذا التمهيد الوجيز كاف لان يقنعك ايها الصديق بأن مبدأ الاشتراكية ليس مما يخجل منه ولا هو مما يجب ان يحجم عنه

## المقالة الثانية والعشرون

### ﴿ المريض [١] ﴾

عركت صروف الزمان وجسست باصبعي مصائب الانسان فلم أجـد اشقى من المريض

رأيت الفقير في أقصى الفقر يسكن كهفاً كالقبر او يتوسد الغبراء ويلتحف بالسماء

( ١ ) نشرت في البصير سنة ١٨٩٩ وكان قد اصاب الكاتب روماتزم حاد اضناه الم المبرح

أهميتهُ الا الذي يقدر ناموس تكافؤ القوى في الطبيعة قدره . فكم من تأثير اذا نظرت اليـهِ مباشرة يتراآى لك عديم القيمة ثم بالانتقال والتفاعل يتحول مع الزمان و يصير ذا شأن عظيم في الطبيعة ولنا في الافعال المتجمعة مثال محسوس مثل الشرارة للبارود وعليهِ المثل « سبب النار شرارة وسبب الشر كلمة » ومن هـذا القبيل الزلازل وسائر نكبات الطبيعة الفجائية

فعلى هذا الناموس تتمشى افعال الانسان في العمران فاذا احسنا أو اسأنا الى الاجتماع فانما نحسن ونسيء الى انفسنا . وما نصنعه في سوانا يرده لنا هذا السوى « بفرطه » كما يقال في لغة المالبين — فالاجتماع كما ترى اكبر مراب ولكن على عكس المرابين فهو يرد لك كل شيء تنفحهُ بهِ برباه ولو تبرعت بهِ تبرعاً ووهبتهُ له هبة خـذ مثالاً لذلك الامراض . هنا اناس جمعوا بذكائهم او دهائهم الاموال على ظهور العمال فسكنوا الاحياء الفسيحة الارجاء تنفذها الشمس ويلعب فيها الهواء وتحف بها الحدائق و بنوا فيها القصور يمرحون فيهـا على وثير المهاد وفاخر الرياش وتحوطوا بكل ما تصح بهِ الاجسام وتنفى الاسقام . وعلى قيد قصبات منهم اكواخ متراكمة بعضهـا فوق بعض كالتلال يزدحم السكان فيها كالذباب لا شمس ولا هواء ولا ماء الا ما يكفي للاختمار وجعلها بورة البوار ومعمل الدمار حيث تجد الامراض مرتعاً خصيباً — فماذا يقيك من شر ما جنيت أيها المطمئن بعزلتك وانت شريك جارك في الماء والهواء والغذاء حمالة الامراض ونقالة الوباء

وهذا مثال آخر من امثلة كثيرة يضيق عنها الحصر وتتجدد امامك كل يوم وتدلك على نقص نظامات تلك الشرائع القائمة على مبـدأ تأييد القويّ وارهاق الضعيف . غنيّ يتقاضاك مالاً لا يزيد في غناه بلغة والله يعلم من اين اتى وكل ما في مسكنك من المقتنيات لا يفي بسداده وانما يكفي ليصون عيالك . فالقانون الذي لم يعرف كيف يستفيد من عملك لينتفع بك و ينفعك يقضي عليك ولو ادى ذلك بك و بعيالك ان يأويكم العراء ويصدر القاضي وقد مات منه الضمير — حكمهُ مصدراً باسم مليك البلاد الخ . ثم يصب البلاء على العباد — فعلى من اللوم اذا تراكمت امثال هذه الافعال بناء على هذا الناموس واحدثت تأثيرها المتجمع في الجموع فقاموا يصادرون الاجتماع و يحدثون الثورات كالثورة

في العمران كتكافؤها في الطبيعة والآخر يوجب الارتقاء وهو تكافل العمران بتوفير قواه كتكافل العالم اجمع بتوفير قواه في ارتقائه

فالاجتماع شديد التنازع قليل التكافل لشدة ما فيه من التبذير في القوى التي له ولذلك لا يزال منحطاً جداً بالرغم عن اندفاعهِ البديع في القرن الماضي لانك كيفما جلت بنظرك فيه رأيت اموراً يأنف منها الطبع وينكرها العقل وقد ينفر الانسان منها حتى لا يقدر ان يضبط نفسهُ عن القيام ضدها . تراها في شرائعهِ ونظاماته وعاداته ومعاملاته في كلياتها من حيث الغاية منها والباعث عليها وفي جزئياتها من حيث تطبيقها على كل فرد من أعضائه حتى ان البحث فيها لا ينضب

أو ليس من العار على الانسان الذي يمتاز عما سواه من الكائنات بقوة العقل والاكتساب بالاختبار ان ينتظر ارتقاءه من الطبيعة نظيرها وهو القادر ان يتصرف فيها بما له من المدارك لمصلحته ؟ ويا ليتهُ اقتصر على ذلك ولكنك تراه دائماً يستخدم هذه المدارك لاقامة العقبات في سبيل ارتقاء العمران وكم صده عنهُ وقضى عليه بالتقهقر اشدة التباين بين اعضائه في العقل والعلم والقوة وقامت الاثرة مقام تبادل المنفعة فارتفع قوم الى الاوج وانحط آخرون الى الحضيض وكلما قل هذا التباين قلت العقبات لاقتدار الاضداد حينئذٍ ووجوب الاصاخة لهم

وهل العمران كما هو الآن يستفيد من قوى كل فرد أو يعرف ان يستفيد منها أو ليس هذا هو التبذير بعينه . وان كان لا يعرف أفلا يكون هو الذي يدفع هذا الفرد الى الاضرار بنفسهِ وبالمجموع كلهِ عملاً بناموس هذا التكافؤ

كثيرون يطرقون هذا المبحث ويكثرون فيهِ من المن على الانسان فيطلبون الاصلاح له . اضعيفهِ وسقيمه ومن لم تمده الطبيعة بالقوة الكافية للحصول على ما تستقيم بهِ أموره . يطلبونه له رأفة بهِ وشفقة عليهِ . أما نحن فنقول ان الانسان في الاجتماع في غنى عن رحمة الراحمين وشفقة المشفقين فلا نطرق هذا البحث بتحريك العواطف ولا ندع للانسان على الانسان منّاً لاننا ننظر في ذلك الى المصلحة المشتركة . ففي العمران كما في الطبيعة لا يضيع شيء ولا يضيع تأثيره . والتأثير الذي يحدثه الفرد في الاجتماع لا يدرك

قديمة كالاجتماع نفسه ومثبوتة في تعاليم الفلاسفة وسائر المصلحين في جميع العصور وكلما ارتقت مدارك الانسان وزاد اختباره زادت انتشاراً واقتداراً . وهي لا تعلم اقتسام المال (كن مطمئناً على ثريوتك او ثريتك ما شئت وما شاءت النحاة تصغير ثروة ) بل العدل في تقسيم المنفعة بين العمل ورأس المال

ولا بد لي قبل التوسع في الموضوع ان أزيل وهماً وقع لك واحذر ان يجرك ذلك الى وهم آخر لا اقصده فلا أعود اعرف كيف أتخلص منك وانت كشبكة الصياد

فانا لم أقم « في الاخبار » للمدافعة عن خطة بل عن مبدأ اعتبره مشتركاً بين سائر المصلحين - والاشتراكيون أعظمهم اليوم - وهو اصلاح مركز الانسان في العمران وما دفعني الى ذلك الاَّ ما كتب هناك مما يوهم ان الاجتماع على هدى وان الاشتراكيين يدفعونه الى الضلال لئلا يكون لذلك تأثير سيء في الافكار المتقلقلة التي تحتاج الى تنشيط فيجبنها عن التوغل في فيافي هذه المباحث ويرميها في الجمود

ولذلك لم اقف عند الاسماء ولم ابخس احداً حقه فساويت بالفضل بين جميع الذين ناهضوا الاجتماع في سائر اطواره بقصد الاصلاح من الفلاسفة المصلحين الى دعاة الاديان أنفسهم ولم انكر فضل اولئك الذين تطوعوا في هذا الجهاد فكانوا كالاعضاد فيهِ ولو انهم اتوا أحياناً أعمالاً مشجوبة قضت عليهم وذهبوا فيها شهداء نظام الاجتماع

ولا ريب ان الاشتراكية هي الدعوة المنصبة نحوها الافكار والمعقودة عليها الامال اليوم وهي وان كانت متفقة في الغاية الا ان فيها اختلافاً كثيراً في الاراء شأن كل فئة في دعوة مثل هذه كثيرة العقبات واي مذهب من المذاهب الكبرى علمياً كان او فلسفياً أو دينياً لا تكثر فيه المسائل الخلافية من دون ان تمس جوهره بشيء

ولذلك رأيت ان البحث في هذا الموضوع الشاسع الاطراف البعيد المرمى لا يأمن صاحبه الزلل والخبط في تيه فيافيهِ ان لم ينخعهُ من اقوم السبل واصحها وأي اصح من رد الشيء الى اصله ووضعهِ في محله

فالاجتماع طبيعي هو وكل ما فيهِ مستفاد من الطبيعة والنواميس التي تسوس نظامه هي نفس نواميسها واعظم هذه النواميس اثنان احدهما يوجب التنازع وهو تكافؤ القوى

فخفف عنك أيها الصديق فما هي باول وصمة الصقت بي ثم عاد الناس الى الهدى

من ربع قرن نشرت في اللغة العربية مذهب دروين ولم يكن معروفاً فيها من قبل فقامت القيامة عليَّ من كل صوب كأني جئت امراً اداًّ حتى بلغ التحمس من بعضهم ان قصدني للتعرف بي لا للسلام والكلام . ولكنهُ ضل السبيل فقصدني في غير المكان الذي أنا فيهِ واعترضتهُ البحار فاطفأت منه جذوة تلك النار ثم مرت السنون والناس بيننا يرتقون حتى صار مذهب دروين بيننا ( او كاد ) كمذهب كوبرنيخ في الكون او غليلي في الارض وحتى بلعهما في جوفهِ

وما الاشتراكية كما يرميها خصومها باضغاث احلام ولا أصحابها ظلام طغام فهي لا تركب بمطايها متن الخيال وتحلق بالانسان الى جنات النعيم ولا تكبله بحبال الخبال وتزجه في قعر الجحيم بل تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض فتسترد له الفردوس الضائع تسترده من ايدي مردة الاجتماع وأبالستهِ فتخفض من كبرياء وترفع من نفوس وتقرب بين صولجان الملك وعصا الراعي حتى يتم تكافؤ الفضل بينهما

أراني ركبت متن الخيال في قولي انها تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض والاولى ان اقول انها تريد ان تقال من ويلاته فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه بعد ان تفرض عليهِ واجباته وترفعهُ من تحت مواطيء الاقدام الى مقامه كانسان وتعلمهُ انه عضو من الاجتماع لا يجوز ان يبقى عالة عليهِ غير نافع وانه عامل فيه لا يجوز ان يبقى غير منتفع وان تبادل المنفعة ينبغي ان يكون على قدر العمل

هذا هو مبدا الاشتراكية ومن ظن غير ذلك فهو واهم وهذا هو المبدأ الذي أدافع عنهُ فهل فيه مأخذ عليَّ لعاقل أو مظنة بي لجاهل ؟

والاشتراكية ترجمة لفظة سوسياليزم الافرنجية وضعها كتابنا الاولون وجرى عليها الجمهور وهي خطأ في التعريب جر معهُ خطأ اعظم في الفهم والصواب الاجتماعية من الاجتماع أي العمران واصحابها الاجتماعيون ولكننا جاريناهم هنا عملاً بالمثل القائل خطأ مشهور خير من صواب مهجور

وهي ليست مذهباً من المذاهب بل هي نتيجة لازمة لنظر الانسان في الاجتماع وهي

وهـذه الافكار تظهر لنا من المراقبة ان اصولها موجودة بحالة بداهة في الحيوانات التي تكوينها يشبه تكويننا . فالحذر من ان نأخذ امثلتنا عن الاقدمين كما فعل الفياري وفلاسفة العصر الماضي اذا كنا نريد ان نبلغ السعادة في الحرية التي لا حد لها . انتهى

هذا هو الرجل الذي حكمت عليهِ محكمة باريس بالاعدام لمحاولته القتل كأنها ارادت في حكمها ان تثبت على نفسها ما جاء في كتابه من الحقائق التي سيؤيدها المستقبل ويحكم عليهـا لاجلها بالقتل ادبياً فان الافكار المنطوي عليها هذا الكتاب كلها حقائق لا يرتج منهـا الا ضعاف العقول وما ذنب كاتبه في محاولته ارتكاب الجناية الا زيادة التحمس قبل زيادة بلادة الهيئة الاجتماعية والتحمس كثيراً ما يؤدي الى التهور والذنب انما يكون على هذه الهيئة وحدها

# المقالة الحادية والعشرون

## « الاشتراكية (١) »

في كتابك لي على صفحات « المؤيد » طلبت مني ان اثبت حقيقة وادفع شبهة . طلبت ان ابين لماذا ادافع عن الاشتراكيين وان اتوسع في الموضوع « لان ما كتبتهُ على صفحات « الاخبـار » لم يكن مقنعاً » وان أدفع عن نفسي « سوء الظن بي » كأن الاشتراكية وصمة وأنا قد تلوثت بحمأتها وانت لا تريد لي ذلك او انك تريد ان ابين الحقيقة الناصعة وان أخرج منها طاهر الذيل. فشكرتك على حسن ولائك ولو اني اعجبت اكثر بدهائك

كنت افهم قبل اليوم ان الاشتراكية في نظر خصومها مطلب بعيد المنال فاذا هي فوق ذلك وصمة تعرض صاحبهـا لاقبح المظان ليس في نظر الجمهور فقط بل في نظر الخاصة أيضاً

---

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ رداً على خطاب من سليم افندي سركيس على صفحات المؤيد

الاَّ علم واحد يهمنا اكثر من الجميع وعليه تتوقف سعادتنا وهو علم السوسيولوجيا اي علم الاجتماع فانه بقي واقفاً لاننا لم نشأ تقطيع هذه القيود احتراماً لما تناقله الخلف عن السلف وهذا هو السبب الذي نحن لاجله لا نزال تعساء

ولقد بقي كبلر يبحث ١٥ سنة حتى وجد نواميس حركة السيارات لانه لم يستطع ان يحرر عقله من التقيد بقيود النقل

فقد راق لارسطو في القديم ان يثبت — ولا يعلم لماذا — ان الكواكب كائنات كاملة وان الحركة المستديرة حركة كاملة فكان يلزم ان تكون حركة الكواكب كذلك

وبقي علماء الفلك قروناً عديدة يجهدون العقل ويخالفون الواقع لكي يثبتوا صحة ما اثبتهُ استاذهم من قبلهم ولم يجسر احد منهم ان يتساءل لماذا الكواكب هي اكمل من سائر الكائنات وبماذا الحركة المستديرة هي اكمل من سائر الحركات

وبسبب هذا الاستمساك المقدس باقوال المعلمين وهذا الاحترام للاقدمين بقي كبلر خمس عشرة سنة يحسب ويعيد الحساب حتى وجد ان السيارات تحركُ في اهليلجيات تشغل الشمس احد محترقيها

واذا علمنا ان نيوتون اكتشف ناموس الجاذبية العام بتبحره في نواميس كبلر لتعليلها وانهُ من هذا الاكتشاف العظيم يبتديء تاريخ اعظم العلوم العصرية اعني علم الفلك الرياضي نرتعد جزعاً من عظم العاقة التي كان تعاليم ارسطو يقيمها في سبيل تقدم الانسانية لو مات كبلر بعد اربع عشرة سنة من ابحاثهِ

ففي علم السوسيولوجيا كما في كل شيء اخر اذا كنا نريد التقدم بسرعة ينبغي علينا ان ننظر الى كل شيء وان لا نحترم شيئاً غير ما يعلمنا اياه الاختبار

نعم ان التعاليم القديمة تضغط علينا فان جميع شرائعنا وعاداتنا وتعاليمنا الدينية والادبية والسياسية والاقتصادية منتقلة الينا من الماضي وتمنع المستقبل من ان ينفتح لنا

جميع هذه التعاليم اصولها في الماضي القديم ليس في القديم العلمي فقط بل في التوحش الاول من الحيوانية

واسبابها جميعها افكار مسلم بها عموماً وهي بعد ان ولدتها ساعدت على نموها وحفظها

تقول ان الفياري مصيب وانا لا انكر ان في كتابهِ في « الحكومات الظالمة » افكاراً كثيرة جليلة الاَّ انهُ ليس بينها في ما اذكر سوى فكر واحد صحيح وهو قوله « ان الخطر من القول أو الفعل سواء في عصرهِ وفي الحكومات الظالمة » على ان هذا الرجل المتعشق للعدل نظير سائر فلاسفة عصره ربما كان يستقبح وجود اناس متهالكين في سبيل الحرية مع انه كان يدعوهم . ولكن الذي لا اقدر ان أسلم بهِ قوله ان اليونان والرومانيين كانوا بالحقيقة رجالاً . وهم لم يكونوا رجالاً اكثر من معاصري الفياري ولا اكثر من رجال هذا العصر

والثورة الفرنساوية التي بلغت فيها المنازعات لاجل الحرية السياسية مبلغ جميع منازعات العصور القديمة بل فاقتها بعظمتها دليل واضح على ما اقول . وهب انه لم يقل ذلك الاَّ عن اليونان في غزوتها مقدونيا وعن الرومانيين في عهد الجمهورية فانه مخطيء في ما يقول

وبالحقيقة فان الفياري كسائر فلاسفة عصره كان يسير نحو المستقبل وعيناه متجهتان الى الماضي . والانسان الذي يمشي على هذه الكيفية قد يتقدم وانما تقدمه يكون صدفة لا يعرف الى اين يسير هل يسقط في حفرة ام لا فهو لا يدري اذا كان يمشي الى الامام ام يدور على نفسه ولا يدري حتى يعود من حيث اتى

وهذا عين الذي تمَّ في الثورة فان الثورة لوقوع ذمامها في ايدي اناس كانت انظارهم شاخصة الى بلاد اليونان ورومه كان يقتضي ان تفسد فان جميع الذين تقدموها كانوا مغرمين بالقدماء . ألم يصرخ سان يوسف من اعلى المنبر قائلاً « العالم خالٍ من ايام الرومانيين ونابليون انما أتى ليملأه بارجاعه ملكهم » والفياري كان مولعاً بالحرية القديمة كالآخرين وان كنت تريد ان تعرف ماذا كانت تلك الحرية فاسأل اسرى السبرطيين

فاذا كنا نريد ان نسير الى الامام واذا كانت الانسانية تريد ان تسير الى السعادة والى الحرية فلتنظر الى ما حولها ولتتعرفهُ جيداً ثم فلتختر غرضها ولتسر اليه دون ان تعرج الى هنا والى هناك غير مهتمة بما وراءها ولا بما يفتكره عن ذلك الاقدمون

والعلوم تكاد تكون جميعها قد تحررت بفضل الطريقة الاختبارية من قيود التقليد

الاجتماعيين لتعيين مواطن الداء لوصف الدواء وتقريب الشفاء ولو ان هذا القريب بعيد جـداً في تاريخ الاجتماع ولكنهُ اقرب من الابعد وكل خطوة فيه الى الامام تعد نقضاً لحجر من ذلك البنيان الهائل الذي شادتهُ ايدي الظالمين على مناكب الغافلين

# المقالة العشرون

## ﴿ كتاب فوضوي (١) ﴾

حكم « جوري » محكمة السين بباريز على الفوضوي اتيفان بالاعدام لمحاولتهِ قتل اثنين من رجال الحفظ . واتيفان المذكور هو في ما نعلم اول فوضوي متعلم واسع الاطلاع بعيد النظر الفلسفي حاول ارتكاب الجناية بنفسه كما يظهر من الكتاب الآتي الذي كتبهُ الى احد اصدقائه بعـد القبض عليهِ بايام قليلة . وفي نظرنا ان المحكمة ارتكبت جناية في حكمها عليه بالاعدام كما يتضح من تدقيق النظر في الكتاب المذكور . ولو كانت ادق نظراً في الامور واوسع اطلاعاً في علم الاخلاق لوجدت لها مخرجاً يحفظ الرجل ويصلح ما بهِ من الضعف للانتفاع بما بهِ من القوة . ولكن الجوري كما ان له حسنات في حل قيود القانون له سيئات في ان رؤوس اكثر اعضائه غالباً فارغة من الافكار السامية وفي ان احكامه متناهية تتناول احد الطرفين وليس فيها شيء من احكام القانون التي بين بين . والكتاب هو معرباً

باريز في ٣٠ يناير سنة ٩٨

صاحبي العزيز

اخـذت كتابك الذي تخبرني بهِ عن اضطرارك الى تغيير عنوانك واشكرك على زيارتك لوالدي فقد اخبرني ان زيارتك وزيارة باقي الاصدقاء كانت اعظم معزٍ لقلبه في وسط احزانه

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

فوق ارض اصبحوا فيها كأن لا حق لهم ان تقلهم وتحت سماء كأن لا حق لهم ان تظلهم و ينتبه الظالمون فيخففون من وطأتهم ولا تعميهم مصالحهم عن مصالح سوهم

ومن ينظر الى تاريخ العمران من يوم نشأته الى اليوم لا يسعهُ الا التسليم بان مطالب الناقمين في كل عصر حق مهضوم ولولا ذلك لما سار الاجتماع مرتقياً باقرار الفريقين على النحو الذي سار عليهِ تارة بالسكينة والهدو وتارة بالثورات والقلاقل جرياً على سنن ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي حذو القذة بالقذة . والاصلاح المطلوب لا تزال الحاجة اليه ماسة اليوم كما كانت من قبل والفرق ليس الا نسبياً فقط فكما ان الحاجة الى الارتقاء في العالم الطبيعي لم تقف بعد كذلك الحاجة الى الارتقاء في العالم الاجتماعي اي العمران لم تنتهِ أيضاً فلا يجوز لعاقل ان يقف عند حد قول الخاملين او المكتفين او الطامعين المنتفعين بانه ليس في الامكان ابدع مما كان

فقتل ماكنلي رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد شغل الجرائد ودار على السنة الناس واقلق الرؤوس المتوّجة اكثر من قتل شعب آمن يؤدي الجزية لحكومتهِ وهو صاغر او قتل الالوف المؤلفة في هذه الحرب الجائرة الجارية في جنوبي افريقيا واكثر من قتل مصالح الجمهور في كل يوم وفي كل حكومة من حكومات الدنيا ولو انها في اعلى ذرى الاصلاح . شغلهم جميعاً لا للبحث في ادواء الاجتماع ومداواتها بازالة ما يسببها من المطامع والمظالم والمغارم بل للضرب على ايدي الظالمين يعنون بذلك الفوضويين حتى اجتمع العاهلان العظيمان اللذان يقبضان اليوم على دفة الدنيا واخذا يفكران لا بالخفض من كبريائهما واصلاح شأن الجماهير بما يدفع البلوى و يقلل الشكوى بل بالوسائل التي تضمن لهما صولجان الملك ليسوقا بهِ الانام كالانعام وتضمن لفئة من لصوص الاجتماع اسباب السلب والنهب يصادرون ويرابون ويجمعون المال بالاحتيال للاستئثار بمنافع الاعمال التي لا ينال القائمون بها الا ما يتبلغون بهِ من العيش . لصوص يسرحون ويمرحون وتحميهم الشرائع التي تعززها الحكومات

على انه وان كان الجمهور قد نظر الى هذه الفعلة الشنيعة بنفسها من حيث شناعتها فقط الا ان اناساً وان كانوا قليلين نبهت فيهم الخواطر للبحث في اسبابها بما دعا

# المقالة التاسعة عشرة

## ﴿ القتل الاجتماعي [(١)] ﴾

الناس في كل أطوارهم على مبدأ واحد فهم لا تنبههم الحوادث بنفسها مهما كانت شنيعة ولاتنبههم الا بمصاحباتها فالقتل باشنع صوره جارٍ في كل يوم بين افراد الناس وفي الحروب بل في الرعايا الآمنين وفي كل ذلك قلما تنتفض اعصاب الهيئة الاجتماعية انتفاضها لقتل رئيس امة كسلطان او ملك أو رئيس جمهورية ولعل هذا هو السبب الذي لاجله يتعمد الفوضويون وسائر الناقمين على نظامات الهيئة الاجتماعية قتل احد هؤلاء الرؤساء لا انتقاماً منهُ او تشفياً من هذه النظامات وقد يكون المقتول من افضلهم والاشرار منهم آمنون بل تنبيهاً بهِ للافكار واثارة لحركة الخواطر فلا يقف البحث حينئذٍ على الفعل نفسهِ بين استحسان وتشنيع بل يمتد الى أبعد من ذلك كثيراً فيتناول موضوعات كثيرة اجتماعية تتناسى معها الجناية الاولى الصغرى وينتبه فيها الى تلك الجنايات الاخرى الكبرى التي تجلبها تلك النظامات الحائفة التي تضحى فيها الافراد والجموع وتبذَّر القوى وتصد عن استعدادها للنفع ان لم تدفع الى التخريب والراضي عنها الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع بقوة العادة او الاكتفاء او المطامع الميسورة حتى لا يظن ان في الامكان أبدع مما كان . فزحزحة الافكار عن هذا الاعتقاد السقيم الذي هو سبب جميع مصائب الاجتماع هي غاية كل مصلح في الهيئة الاجتماعية يسعى اليها عقلاء المصلحين باللين كبث الافكار الساميـة والحث على نشر التعليم والانتقاد وكل ما من شأنهِ ان يدعو الى الاصلاح بالطرق السلمية البطيئة بنتائجها في كل الاحوال ويسعى اليها الناقمون منهم الذين فرغ صبرهم بالعنف ولو ان فيهِ تضحية انفسهم على مبدأ دفع الشر بالشر لما يحدث ذلك من الرعدة التي يقصدون بهـا نخع أعصاب تلك الهيئة البالية من حاكم ومحكوم وظالم ومظلوم فيهب اصحاب الحقوق المهضومة كمن نشط من عقال للمطالبة بما هضم من حقوقهم

(١) نشرت في البصير سنة ١٩٠١ على اثر مقتل الرئيس ماكنلي

دولها على هذا القضاء المبرم والفناء المحتم ولذلك يصح ان يقال هنا الحرب أنفى للحرب

فالثورة المنتظرة والتي لا بد منها هي ثورة تنصر الشعوب فيها بعضها بعضاً والامم بعضها بعضاً ينصرون بعضهم على حكوماتهم ونظاماتهم لقلبها وابدالها بما يكون اوفق لروح العصر واحفظ لمصلحة الجمهور ولا سيما ان الاسباب الداعية اليوم الى النفور من نظامات الهيئة الاجتماعية واحكامها هي أثقل جداً على عاتق الامم مما في عصر الثورة الاولى فالثورة الاولى اسبابها الاستئثار بالاعناق والارزاق لشرف المولد وقد كان الناس قليلهم يدرك حق المساواة وأما اليوم فالثورة هي بين العمال واصحاب المال أي بين قوى العقل المستنبط واليد العاملة و بين فساد نظام الاحكام واستئثار رجال المال حتى اصبحت مستنبطات العقول واعمال الايدي خادمة لاولئك يستفيدون منها هم وقلما يستفيد منها هؤلاء والناس قل من لا يدرك منهم اليوم هذا الاحجاف

وكان في الامكان تدارك الشر لو ان الحكومات لا تنقاد انقياداً اعمى لاصحاب الاموال او كان هؤلاء يخفضون قليلاً من كبريائهم و يعترفون بحقوق من لولاهم لبارت تجارتهم وقل استثمار اموالهم ولكن الله لما اراد بمعسكر فرعون شراً قسى قلب فرعون ولا اظن شيئاً يثير هذه الاحقاد و يبلغ بها الدرجة القصوى مثل النبأ البليد الذي جاء كاللطمة على خد الانسانية والذي وافتنا بهِ شركة روتر كي تنبيء العالم اجمع بان المساعي بين اصحاب المعامل والاموال متجهة الى احباط اعظم معرض في العالم اعظم معرض تتجلى فيهِ المدنية بابهى مجاليها اعظم معرض يفتخر بهِ العلم على الجهل اعظم معرض يتباهى بهِ الانسان بما استنبطهُ عقله وصنعتهُ يده فكأن اصحاب الاموال يتهددون العالم اجمع بقحة لا تماثلها قحة بانهم سيطمسون بما اوتوه من سلطان المال انوار العقل و يعيدون عصور الجهل لقد ساء فألهم وما هم بذلك الا خاسرون يحثون عن حتفهم بظلفهم فان هذا النبأ الشنيع سيكون له تأثير شديد في الجمهور كما كان له ذلك في الافراد و يعجل تلك الثورة المنتظرة التي تقلق الهيئة الاجتماعية منذ سنين والتي بلغت اقصاها في هذه الايام ولا بد من ذلك لقوم يعقلون

بالحكومات التي تصلح اليوم لشعوب اوروبا ولن تصلح لهم في المستقبل فاضطراب فرنسا وعدم رضاها من نظام جمهوريتها لا يفيدان كما يتوهمهُ قصار النظر انها تميل للرجوع الى الملكية او انهُ اذا قام فيها ملك حازم يستطيع ان يقبض عليها بيد من حديد ويسير بها كيف شاء . فهذا حلم يجوز على عقول الاطفال ولكن لا يجوز على الذين يدركون بعض الشيء من أسرار العمران ففرنسا لن تعود الى الملكية كما ان اوروبا ستنتقل الى الجمهورية ولكن الجمهورية التي تطلبها فرنسا عن حاجة في النفس مندفعة اليها بالطبع لا عن اجهاد في قوى العقل والتي تتوقعها اوروبا هي الجمهورية الحقيقية الديموقراطية التي تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء بخلاف حكومات اوروبا وجمهورية فرنسا اليوم فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في نقصها ولو اختلفت في اسمائها وكلها مقصرة عما تتطلبهُ الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل القريب واقرب الحكومات الموجودة اليوم الى الحكومة المطلوبة جمهورية اميركا ولو كانت دون المطلوب

فمسألة دريفوس سواء انقضت ام لم تنقضِ فالقلاقل لا تزول من فرنسا لان أسبابها أعم من ان تقتصر على فرد او تختص بحزب فالايام حبالى ولا بد من ان تلد ثورة لا تذكر معها ثورة القرن الماضي تشترك فيها اوروبا لا كما اشتركت في الماضي بقيام الدول كلها على فرنسا وانقياد بهائم شعوب تلك الايام الى دولهم انقياداً اعمى لنصر الجهل على العلم والظلم على العدل والتقييد على الحرية اي لنصر ظالميهم على انفسهم فالثورة المستقبلة والتي تتمخض بها الايام اليوم لا تكون لقيام الامم بعضها على بعض ونشوب الحرب بين الدول خلافاً لحلم قيصر الروس الطالب نزع السلاح والانقياد فيها الى تمويهات مؤتمر لاهاي الطالب تأييد السلام واذا اصبحت الحرب بين الدول المتمدنة ممتنعة اليوم فليس السبب احلام القياصرة ولا ضخم ملكهم ولا مداولات أقطاب السياسة في ذلك المؤتمر السخري بل السبب الحقيقي في ان الحرب اليوم أصبحت تدميراً وتخريباً على المتحاربين الفائز فيها والمخذول والمهاجم فيها والمدافع والمعتدي والمعتدى عليه يمحقان محقاً ويسحقان سحقاً لكثرة الآلات المهلكة التي استنبطت في الربع الاخير من هذا القرن وقوتها في التدمير وامم اوروبا لم تعد اليوم عمياء البصيرة والبصر حتى تقدم من دون تبصر بايعاز

واسترسل في القول الى ان الحكم وان لم يكن عادلاً فهو حكم سياسي يريد بذلك ان فيهِ من الحكمة ما يربى معهُ النفع على الضرر وتضحيــة الافراد للجماهير تجوزها نواميس العمران كما هي جائزة في نواميس الطبيعة الصامتة وزعموا بذلك ان البلاد وقيت شر ما يتأجج في صدور الامة من نيران الاحقاد والضغائن وان الحكومة أمنت على نفسها من القلب والوزارة من الابدال والذين يرون هذا الرأي لم ينظروا الا الى الاسباب القريبة وذهب عنهم ان الاسباب الجوهرية ابعد من ذلك واعرق في قلب الامــة فالخطر على الحكومة لا يزول بانقضاء قضية دريفوس على اي الوجهين وقلق الامة لا يهدأ بذلك . فالامة الفرنساوية لا تزال كما كانت من عهد مائة سـنة لسان شعوب اوروبا تنطق عن حاجاتهم وتمثل عواطفهم فاوروبا اليوم على وشك وقوع ثورة تمثلها فرنسا اشبه بالثورة التي كانت من عهد مائة عام واسبابها فساد نظام الاحكام ونقصها عن احتياجات الهيئــة الاجتماعية

هذا هو سبب القلق الحقيقي المستحوذ على اوروبا كافة والذي نراه اليوم في الغاية القصوى في فرنسا ومن يقول فرنسا يقول عصب اوروبا الذي تحسُّ بهِ وعقلها الذي تفتكر بهِ ولسانها الذي تنطق بهِ خلافاً لاولئك الذين يرون في حوادث فرنسا المتابعـة منذ سنوات ما يطلق لسانهم المعقول وعقلهم الخامل ونظرهم القصير فيجورون عليهــا في الحكم اذ يرمون رجالها بالطيش وقلة الروية وعـدم التبصر بالعواقب ولماذا لان طبائع رجالها المتحركة تخالف طبائعهم الميتة وعقولهم المتنورة تخالف عقولهم المظلمة ونفوسهم المتهيجة تخالف نفوسهم المستميتة في الذل والخاضعة للظلم والغريب ان هؤلاء الذين كان امثالهم يجورون في الحكم على فرنسا في الثورة الاولى يعترفون جهارة اليوم بانهُ لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هما عليهِ الآن ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها بل في العالم قاطبة . وهؤلاء الذين يعترفون بذلك اليوم يؤاخـذون شعب فرنسا على عدم رضاه من نظام احكام كانت تصلح له من مائة عام ولم تعد تصلح له اليوم لان الهيئة الاجتماعيــة المتمدنة ارتقت كثيراً عما كانت عليهِ من مائة سنة مع بقاء نظام الاحكام على حاله فجمهورية فرنسا كما هي اليوم والحكومات الملكية في سائر الممالك ليست

« نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانا عاقبناه على الصدق » وأنا لا اظن ان هذه القاعدة تخلُّ اذا احسنا المراقبة جيداً وعلى فرض انها أخلَّت فلا يكون ذلك حجة على هذا المبدأ بل تأييداً لناموس آخر هو ناموس الوراثة اذ لا يخفى ان الصفات الادبية حسنة كانت أو ردية تنتقل بسهولة في النسل . ومن الجاني حينئذٍ على هؤلاء الاطفال الابرياء ألسنا نحن الذين نعاقبهم على ذنب تطرَّق اليهم منا

ويا ليت الامر اقتصر على ذلك بل نحن في كل اعمالنا أمامهم مثال رديء وهم اطوع من ظلنا في تقليدنا واشد طواعية من الشمع في انطباع أفعالنا فيهم نكذب أمامهم ونكذب عليهم ونعلمهم ان يكذبوا عنا ونروّعهم ونمنيهم بكل ما يتبين لهم كذبهُ بعد قليل فماذا تنتظر من طفل ينشأ في مثل هذا الوسط . على ان الكذب على ما يظهر قد صار شرّاً لازماً في هيئتنا الاجتماعية كما هي فهو عدة التاجر الماهر والسياسي المحنك والامام الهادي والقاضي العادل والمحامي الفاضل والطبيب النطاسي والصحافي الصادق والوطني الغيور وقد حلق الشاعر فوقهم بقوله

الصدق ان القاك تحت العطبِ　　لا خير فيهِ فاعتصم بالكذبِ

## المقالة الثامنة عشرة

### لطمة على خد العالم [1]

حكم على دريفوس فساء قال قوم وسرّ آخرون ولا ندري هل جار القضاة في حكمهم ام عدلوا والذي ندريه ان الناس كثيراً ما يرون بعيني اهوائهم لا بعيني عقولهم قضاة كانوا ام حكاماً ام من عامة الشعب . وذهب قوم الى ان الحكم جاء بنتيجته برداً وسلاماً على الامة اذ وقاها من شر ما كان يخشى من القلاقل لو كان على ضد ذلك

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٩ على اثر تهديد مصانع انكلترا انها لا تشترك في معرض فرنسا الشهير اذا لم يبرأ دريفوس

وكذلك النبات الذي تنطبق اوراقهُ على الذباب الواقع عليهِ حتى يموت . والحيوان الذي يفتك بسواهُ لمصلحة نفسهِ . فان مثل هـذا الفعل المترتب عليه الخير الذاتي لم يقع بدون اضرار . فان كان القصد من البحث في هذا الموضوع معرفة الفكرة الاولى المرتبة عليها هذه الافعال فلا يسعنا الا ان نقول انها الخير لان الشرّ حدث معها عرضاً ضرورةً لتعذُّر وقوع ذلك الخير بدونهِ . واما اذا كان القصد الخير مجرَّداً والشر مجرَّداً فالبحث حينئذٍ يستنفد قوانا ولا يأتي بطائل لان الخير والشرّ مجردين ليسا في هذا العالم

وفي أفعال الانسان تختلط الامور كثيراً جـداً لاشتراك الروية فيها وتختلف ايضاً لاختلاف هذه الروية وما استفادتهُ من الاختبار ولكنها لا تختلف في الغاية التي تصبو اليها وهي حفظ الذات حتى ولو انكر الانسان نفسهُ واتى أفعالاً تخالف هـذا المبدأ في الظاهر فلا ينكرها من جهة الا حبًا بها من اخرى خوفًا من عقاب او طمعاً بثواب

ومهما اختلفت الروية فمحورها واحد . هنا اثنان كلٌّ منهما ينظر الى مصلحة نفسهِ فهذا تدلهُ مداركه على ان مصلحتهُ لا تتأتى له مع مصلحة سواه فيستأثر بالمنفعة او ما يظنهُ كذلك ويتعمد الاضرار بسواهُ ويقدم عليهِ مطمئن الضمير معتقداً انهُ يفعل خيراً كما في منازعات الاديان والاوطان مثلاً . وهذا يرى باختياره ان مصلحتهُ لا تقوم الا بمصلحة سواه فلا يخطئها وهو عالم كما في مسائل العمران عموماً

وأما الاستشهاد بالطفلين وكذبهما واحتيالهما وخداعهما فليس بالدليل القاطع فالكذب ليس من طبيعة الطفل ولا من موجب له لديه فالطفل يصدق حتى يعلم ان صدقهُ قد يجني عليهِ فيعمد الى الكذب دفعاً للضرر . فالكذب عارضٌ على الطفل من جنس تربيتنا له . خذ طفلاً ارتكب ما نعده نحن ذنباً ولم يعرض له في نفسهِ ولا شاهد في سواه ما يحملهُ على التروّي قبل الاقرار واسأله من عمل هذا ؟ فلا شك انهُ يجيبك على الفور بقوله أنا فاذا عاقبناه عليهِ كما هو الغالب أفتستغرب بعـد ذلك اذا لم يصدقك اذا اتى أمراً غير جائز في عرفنا نحن لا في عرفهِ هو لان الطفل لا يعرف الجائز من غير الجائز في اول الامر ولا يعرفهُ الا منا وكيف يعرفهُ منا الا بالعقاب ولا يرى نجاتهُ حينئذٍ الا بالكذب فيكذب ويكذب حتى في ذنب ارتكبهُ على مرأى منك وهذا ما حملني على القول في بعض مباحثي

وذهب فريق الى ضد ذلك فقالوا ان اصول الآداب مودعة في الانسان فهي في نفسهِ وعقله وان فكرة الخير عامة مطردة في البشر وهي لازمة ضرورية وغير ممكن ان تنفك عن القوى البتة

قرأت ذلك في المقتطف وتذكرت المثل : «النفس امّارة بالسوء» وقلت في نفسي: لماذا هذا الاختلاف العظيم بين جمهور المفكرين فلا بد ان يكون هناك اسباب جعلت كلاًّ من الفريقين يرى رأياً مضاداً للآخر . فما هي هذه الاسباب

كل انسان علت مداركه او انحطت تراه اثنين في آن واحد يحدّث فيأمر بالمعروف ويعظ فيحث على الفضيلة ويكتب فينهى عن المنكر ثم يفعل فتجد افعاله في الغالب مناقضة لاقواله . ويشتد هذا التناقض اكثر عند النظر الى هذا المعروف الذي يأمر بهِ والمنكر الذي ينهى عنهُ بحسب الوجهة التي ينظر اليها منها . فلا بدَّ لذلك من سبب جوهري يغفله الباحثون في هذا الموضوع

اكثر الباحثين في افعال البشر ينظرون اليها كأنها افعال مجردة وقلما ينظرون الى العلاقة التي بينها واذا نظروا اليها فمن اطرافها البعيدة وهي شديدة الاختلاط كثيرة التضاعيف كالحلقات المتسلسلة يحار العقل فيها ان لم يردها الى بسائطها

افعال الانسان قائمة على مبدأ مشترك بين سائر الكائنات فناموس الالفة في الجماد وحب الذات في الانسان من مبدأ واحد وغايتهما واحدة اي حفظ كيان كل واحد منهما وافعالها البسيطة اي المجردة عن كل روية واحدة ايضاً في دفع الاذى وجلب المنفعة وتسمى طبيعية في الجماد وبديهة في الحيوان والانسان وهي كائنة ايضاً في النبات ولا عبرة بالاسم وانما العبرة في ان كلاًّ من العوالم الثلاثة من جماد ونبات وحيوان خاضع لنفس هذا الناموس في حفظ كيانهِ فاذا نظرنا الى هذه الافعال والغاية المترتبة عليها وهي حفظ الذات لا يسعنا الاَّ ان نقول ان الغاية الاولى منها ليست الشر بل الخير . وخير المحبة ما ابتدأ بالذات كما في المثل المعروف

ولا ينكر ان هذه الافعال يترتب عليها حدوث الشر ايضاً فان الجماد الذي يفك ائتلاف سواه لخيره الذاتي انما يضرُّ بذاك السوى اذا اعتبرنا مثل هذا الحل اضراراً

اولاً ان النحل اذا ماتت ملكتهُ عمد الى نحلة من النحل الجاني الذي ليس بذكر ولا انثى وحوَّلها الى انثى تقوم مقام الملكة التي ماتت وذلك بوضعها في بيت خصوصي اكبر من سائر بيوتهِ وبالاعتناء بغذائها والزيادة فيه. ومعلوم ان بيض النحل الغير الملقوح يولّد الذكور والملقوح يولّد الاناث ومعلوم كذلك ان البيضة من الكائنات الحية التي تغتذي وان اللقاح من الغذاء وهذا كلهُ دليل بيّن على ان الجنسية نتيجة التغذية

ثانياً قد تبين من امتحانات دُرْن ويونغ على دعاميص الضفادع ان الدعاميص التي يكثر غذاؤها يغلب تحوُّلها الى اناث والتي يقل غذاؤها الى ذكور

ثالثاً ان في الحمل التوأمي ثلثي التوائم ذكور كما يعلم من علم الامبريوجنيا اي علم تولّد الاجنة وسبب ذلك قلة الغذاء فاذا استوت تغذية التوأمين كأن لم يكن لهما سوى كيس واحد ومشيمة واحدة متصلة اوعيتها بعضها ببعض كانا كلاهما من جنس واحدٍ اما ذكرين واما انثيين . فان كانت المشيمة مزدوجة فتختلف تغذية التوأمين غالباً ويكونان غالباً من جنسين مختلفين وكل ذلك يوافق ما ذكره ديوزن من ان كثرة الغذاء تولّد الاناث وقلتهُ تولد الذكور. وهنا ايضاً ترى الاسباب الطبيعية تقوم مقام الاسباب الغائية

## المقالة السابعة عشرة

### فكرة الخير والشر (١)

قال الشاعر العربي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفةٍ فلعلة لا يظلمُ

وقال المقتطف : « كنا نراقب في هذه الاثناء ولدين صغيرين صبياً وبنتاً عمر الصبي نحو سنتين وعمر البنت نحو اربع سنوات فرأيناهما يكذبان ويخدعان ويحتالان . ولو رآهما علماء الفلسفة الادبية الذين يقولون ان اصول الآداب مودعة في نفس الانسان ولا تنفك عنها البتة لغيروا اعتقادهم »

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٩٠٨

ومما ذكر الرازي في ذلك قوله « والذكر من الاجنة تمام تكوُّن خلقتهِ اسرع من تمام تكوُّن الانثى وذلك لان الذكر اقوى حرارة واقل رطوبة فالزرع الذي هو مادتهُ يكون كذلك » وهو نتيجة لازمة لما قدمهُ هو وديوزن في سبب الاذكار والايناث ولعل علم تولد الاجنة يثبت ذلك فان المولودين في الشهر السابع يغلب كونهم ذكوراً نقول ذلك عن ظن لا عن يقين

واعلم ان التغذية المفرطة وقلة الحركة ربما اورثا العقر ايضاً لما ينشأ عن ذلك من احتباس العضلات وضعف القوة الحيوية ودليلنا قلة نتاج الحيوانات المسمنة التي لا تعمل في الارض بخلاف القضيفة المجهودة في الاعمال الشاقة فانها كثيرة النتاج غالباً ولذلك كان يكثر العقر في المنعمين القليلي الرياضة المكثرين من الغذاء ولهذا كان احسن علاج لهم الاقلال من غذائهم والاكثار من حركتهم حتى تنشط ابدانهم وتعتدل قواهم وتحسن افعالهم اي تنتظم وظائفهم

## ﴿ وفي هذا المعنى ايضاً [1] ﴾

قال بقراط « لكل شيء سبب طبيعي وبدون سبب طبيعي ليس يكون شيء » وكلما تعمق العلماء في مباحثهم تحقق لهم صدق هذا القول . ولقد طالما عدَّ الناس تولد الذكر والانثى من الاسرار التي يقصّر العلم من ادراكها والظاهر ان هذه المسألة كسواها من المسائل الطبيعية لا تخرج عن هذا القيد فقد ذكر هكل من عهد غير قريب في كتابهِ الانثروبولوجيا وكتابهِ تاريخ الخلق الطبيعي ان التذكير والتأنيث من افاعيل التغذية . وقد ذكرت الجرائد في هذه الاثناء كتاباً لاحد العلماء المدعو ديوزن طرق صاحبهُ فيهِ باب البحث عن سبب التذكير والتأنيث وقال فيهِ ان زيادة الغذاء وشدَّة التغذية سبب تولد الانثى وقلة الغذاء وضعف التغذية سبب تولد الذكر وقد اورد على ذلك براهين كثيرة وادلة مختلفة . وقد ذكر المقتطف في عدده الماضي تحت عنوان «سرُّ التذكير والتأنيث » ملخص هذا الكتاب باوفى بيان واحسن اسلوب . ومرادنا هنا ان نذكر ثلاثة ادلة ترجيحاً لهذا القول وهي

(١) نشر في المقتطف سنة ١٨٨٢

الكلام على هذه الاسباب قال « وقال قوم من العلماء ان من اسباب الشبه ما يتمثل عند العلوق في وهم الرجل او المرأة من الصور الانسانية تمثلاً متمكناً اقول ( والقائل الرازي ) والذي يدل على صحة ذلك وجوهٌ احدها إنا نرى الحيوانات البرية قريبة التشابه بعيدة عن الاختلاف ونرى الصور الانسانية قوية الاختلاف بعيـدة التشابه ونرى الحيوانات الاهلية متوسطة في ذلك وما ذلك الا لان الانسان بسبب احساساته وتخيلاتهِ الكثيرة تختلف صور اولاده واما الحيوانات فتخيلاتها قليلة جداً فالحيوانات البرية لمـا كانت محسوساتها قريبة التشابه لا جرم كانت احساساتها كذلك وكانت صورها متشابهة واما الحيوانات الاهلية فلما كانت محسوساتها مختلفة وتخيلاتها قليلة كانت في التشابه والاختلاف في حد التوسط وثانيهـا إنا نرى الانسان تختلف احوال بدنهِ بحسب اختلاف احوالهِ النفسانية من الغضب والفرح وامثالها فما المانع ان يكون لذلك اثر في اختلاف الزرع وثالثها ان الرعاة يشهدون لاختلاف حال الانعام بحسب اختلاف محسوساتها في الالوان والاحوال واذا صحَّ ذلك ثبت ما امر بهِ الصادق المصـدق من ان الانسان ينبغي ان يتخيل حال المباشرة صور الصديقين الصالحين » . ومثل ذلك قال ابن سينا في كلامهِ على الاذكار حيث ذكر ان الاذكار هو في حرارة زرع الذكر وغزارتهِ وثخنهِ اي في غلبتهِ على زرع الانثى وفي البلد والفصل ومما قاله في ذلك « ان الريح الشماليـة تعين على الاذكار والضـد على الضد » وما قال ذلك الاَّ لاعتقادهم ان الريح الشمالية تجفف الابدان . ثم ذكر تأثير الاحوال النفسانية واستحضار الصور في الذهن عند المباشرة على نحو ما ذكره الرازي قال « ويكون الانسان في اسر حال واطيب نفس وابهج مثوى ويفتكر في الاذكار ويحضر ذهنهُ الذكران الاقوياء ذوي البطش ويقابل عينيهِ بصورة رجل منهم على اقوم خلتهِ وانبل هيئتهِ » وليس في هذا الامر شيءٌ من الغرابة اذا اعتبرنا ما تقدم من تأثير الاحوال النفسانية وسواها في التغذية انمـا لا ينبغي ان يطمع فيهِ باكثر مما تقتضيـهِ الاحوال لكثرة الاسباب التي تعترض ذلك وثانياً لان اثر الاشياء وان يكن ينطبع على الاعضاء انما لا يثبت فيها الاَّ على مقدار ملازمة عاملهِ لها ويضعف كلما كان مفارقاً

وقد علل الرازي ذلك بما لا يختلف عن تعليل ديوزن معنى وان اختلف عنهُ لفظاً قال : « ان السبب الاصلي للذكورة سخونة الزرع والانوثة برده » ولا يخفى ان سخونة المزاج وبرودتهُ حالتان من احوال التغـذية . والبرودة او كما يقال الرطوبة أيضاً تكثر في اصحاب خصب البدن المفرط وبعكس ذلك السخونة او اليبوسة فانها تغلب في القضيف وهذا هو نظر ديوزن حيث قال ان كثرة الغذاء سبب الانوثة وقلتهُ سبب الذكورة . ثم ذكر لهذه السخونة اسباباً منها « ان يكون زرع الاب غالباً في الكيفية والكمية على زرع الام » وهو كقول ديوزن « كلما غلبت قوة احد الوالدين التناسلية على الآخر غلب ان يكون النسل من جنس الغالب » ومنهـا ايضاً « حصول هذه السخونة بسبب الاغذية والبلدان والفصول والاعراض النفسانية والحركات البدنية أو ما يتركب منها » وهو يعم ما يتناوله مذهب ديوزن على الاطلاق لانهُ اذا ثبت ان التغذية سبب الاذكار والايناث فلا يعود في الوسع انكار ما للاحوال الخارجية والنفسانية من التأثير في ذلك بناء على ما لها من التأثير على القوة الغاذية نفسها . وبناء على ما لهذه الاسباب من الاثر البيّن وعلى كثرتها واختلاف نتائجها باشتراكها مع سواها ومع بعضها وقال ايضاً « واذا تعددت اسباب الذكورة لم يلزم في من اشبه اباه في الذكورة ان يشبهه (في الصورة) بل ربما اشبه الام او ربما اشبه جدًّا بعيداً [1] وليس يبقى له زرع فقد حكي أن واحدة ولدت من حبشي بنتاً بيضاء ثم ان تلك ولدت ابناً اسود [2] ومما ذكره في المشابهة مما يحل النظر فيهِ عنـد المتأخرين قوله « واما المشابهة في الصورة والشكل فقد عرفت ان زرع المرأة ليس فيهِ الاَّ القبول وزرع الرجل ليس فيهِ الاَّ التأثير فانهُ اطاع زرع المرأة لقبول صورة الاب ومادة الاب لا شك انها تقتضي تلك الصورة لا جرم يخرج الولد على صورة الاب وان كان لا يقبل الاَّ صورة الام اضطرت القوة الفاعلة الى ان تفيدها تلك الصورة فلا جرم يخرج الولد على صورة الام وان كان لا يقبل لا هذه الصورة ولا تلك حصلت صورة اخرى استعدت المادة لقبولها بحسب اسباب معدة جزئية لا يحصى عددها » وقد بسط

(١) وذلك ما يعرف في مذهب داروِن بناموس الرجعة او الاتافيسم (٢) مراده ان تلك البنت ولدت من ابيض ابناً اسود

فوقفنا بين الجزيرة والجسر . والمركبات تمر امامنا مرور السهم . فتذكرت قول علي بن الجهم [١] . واذا بصاحبي يقول وما هذا القصر ؟ القائم على ضفة النهر . فقلت هذا قصر العميد الجديد . قال وهل كان قبله عميد ؟ قلت كان قبله قرم عنيد [٢] . قال وهذا ؟ قلت لا رخو ولا شديد [٣] . كأنهُ يسير بقوة الاستمرار . او بالاتكال على الاقدار . وليس فيهِ شيء من تلك الاثرة . كانما معهُ في زمن الفترة . فاما ذلك منهُ دهاء . ووراءه نقمه . واما صفاء ووراءه نعمه . واما اليوم فلا حديث للناس على عهده الا بالازمة [٤] اه

## المقالة السادسة عشرة

### ﴿ الاذكار والاناث [٥] ﴾

ان نظر ديوزن اليوم في سبب تولد الذكر والانثى يقرب جداً من نظر القدماء فقد قال الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي في عرض كلامهِ على تولد الاجنة « ان من الناس من يولد اناثاً فيستحيل أن يولد ذكوراً وذلك بسبب استحالة المزاج لا بسبب ان الزرع تارةً خرج من الذكر وفيهِ اجزاء عضو الذكر وتارة خرج من الانثى وفيهِ اجزاء عضو الاناث » وهو قول صريح بان اختلاف جنس المولود ناشيء عن استحالة في الزرع لاستحالة في المزاج لا عن سبب آخر وهو من أعجب ما وصل الينا عن القدماء في شأن القول بالتحول . ولا يخفى ان استحالة المزاج انما تكون بالتغذية وهو عين مذهب ديوزن والتغذية حاصلة في الزرع ايضاً والقدماء علموا ذلك فقد قال محمد بن زكرياء « ان الزرع في غاية القلة فلا بد من قوة غاذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن تكوُّن الاعضاء منهُ » . وهو عين مذهب الفيزيولوجيين اليوم

---

(١) عيون المهى بين (الجزيرة) الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري
(٢) اللورد كرومر (٣) السير غورست (٤) اشارة الى الازمة المالية التي انقضت على مصر على اثر الشركات الكثيرة التي انشئت فيها حتى تناولت الارض الجرداء والماء وكادت تحتكر الهواء وعلى اثر المضاربات باوراقها الموهومة والحكومة ناظرة لا « تهش ولا تنش »
(٥) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢

الشعور . ولعله اعظم يوم في تاريخ مصر . من اول الدهر (١) . فسلام على الروح التي في الحياة مثلتهُ . والف سلام على الامة التي بجليل هـذه المظاهرة احيتهُ . ويا حبذا تلك المنابذة . من جمهور التلامذة . ويا حبذا ذلك النفور

⁂

ولكي تعلم الفرق بين ما ترى وما تقدم . اذكر لك ما كان عليه القوم . قبل اليوم . اذ كانوا يصادرون . فلا يفوهون . كأنهم لا يشعرون . واذا احس احدهم فكانه ملجم . حتى قلت يوماً من كلام ظاهره الهزل وباطنه الجد . وبالضد يتبين الضد . وذلك في أوائل الاحتلال على عهد اشتداد الخصام . بين المقطم والاهرام

في مصر قامت ثورة بين المقطم والهرم
من عهد عادٍ ما سمعـنا مثلها بين الامم
جاشت عليه «جيوشه» حتى اذا كادت تهم
لاقت عنًى من «هوله» كادت تشيب لها اللمم
. . . . . . . . . . . . .
وتساقط الاشلاء واصـطبغت مياه النيل دم
تلك المياه واين من محمرّها صافي الديم
كست الطبيعة حلةً خضراءَ فاضت بالنعم
حربٌ ولكن نارُها برد لايقاظ الهمم
وتنبهت من بعد طو ل رقادها تلك الرمم

قال نعم الانقلاب . ثم قال وما مصير الاحزاب . بعد هذا المصاب . قلت له مادام « دنلوب » . لا يقال ولا يأوب . فلا خوف عليهم ان يفـقدوا ناصرها . فهو كل يوم يشدّ لهم اواصرها . ولاجله فليحمدوا الاحتلال . في كل حال

ولما اعيانا التعب . وكنت قد دفئت قمت اداري ما بي من الوصب . فركبنا عربة عند الاصيل . وقصدنا النيل . إله مصر المحيي . وغيثهـا المروي . حتى وصلنا الى النهر .

---

(١) اشارة الى ما كان عليه مشهد المرحوم مصطفى كامل من المهابة والجلال

ورجال الحفظ مهاترة . هؤلاء يصدونهم عن الطريق. واولئك يتذمرون من هذا التعويق. ألا ترى ان الامير لو اخذهم فجأة لراءهم على ما هو احب . والمفاجأة ادعى لاظهار الحب . فقلت له لعل الامير لا يعلم لانهُ يُحِب شعبه ويريد ان يُحب

وما زلنا نسير. ويسألني عن القليل والكثير. حتى اقبلنا على بنـاء لا بالفخيم ولا بالذميم . وقبل ان يبادرني بالسؤال . قلت له هـذا ملهى تمثل فيه مختلقات الخيال . من الوضع المناقض للطبع . ولولا مناجاة النفوس بالحان الموسيقى . لكانهُ كل ما فيه ملفقاً على الطبيعة تلفيقاً

ثم التفت وقال وما هـذا الذي ارى الناس فيه يدخلون ويخرجون . ألعله مصلًّى . قلت كلاَّ . ثم قلت له مـه وصه . ثم همست في اذنهِ وقلت . هناك اناس جالسون على منصاتهم كالارباب . يقضونَ في مصالح الناس بلا ارتياب . يلبسون اردية كاهل المساخر. حتى اصبحوا في كل اعمالهم يستمسكون بالاعراض ويعرضون عن الجواهر. مفتونون بقانون ليس للعدل فيهِ ام ولا اب . وبنظام أعقد من ذنب الضب . هذا يصعب الدخول فيهِ والخروج منهُ على العالم الفِطَحل . وذاك يتيه فيهِ صاحب الحق ويصول فيه صاحب البطل . والطريق الوعر صعب المسالك والطريق السهل اقرب الى العـدل . — فقال دعني من التحكك بهم واني لغني عنهم باذن الله . قلت لا يعلم ذلك الا الله

ثم قفلنا راجعين فاذا بهِ يقول فما هذا النقض . فاذا الناس كأنهم في شجار. ونقار. يرتفعون بعضهم فوق سنام بعض . كأنهم من خلف . ذلك السلف . قلت هذا معهد في الصورة صغير. وفي المعنى كبير. فهو نادي اخوان . اكتشفوا سراً ولا سر « مركوني » وقد يشبه سر « لموان[1] » فيلعبون على الهواء من غير حبـل البهلوان . وهذا سبب ما ترى في البلاد من الرخاء . قال واين الرخاء. قلت قل اذاً من البلاء والخسران

* * *

واذ نحن في التجوال . رأينا جمعاً يموج كالبحر الزاخر. تجلله السكينة والوقار والمهابة والجلال . حتى انك لتحسبنه ساجياً وهو مائر. فقال . وهذا الجمهور. قلت هذا يوم تجلي

(١) محتال زعم انه اكتشف سر صنع الالماس . والمراد بالنادي البورصة

ولولا خوفي ان يشكل الايمـاء . حتى على واضع رسالة الغفران . ومجيز الشعراء في الجنان. لما ذكرت هنا البيت . ولاكتفيت . بالتلميح عن التصريح — وما ضرب صاحبها على هــذه الغنّة . الا ليقول لنا ان الشعراء قد يكونون من اهل الجنة . وحولهم الحور والولدان. والقيان والدنان . يغترفون من انهارها بمرافد من عسجـد . وهم فيها متكؤن على ارائك من زبرجد . وكأني ارى عليها حافظاً واحمد (١) . هذا يسيغ وذاك يزرد

وما كدت افرغ من هـذا الانحاء . ومن التأمل في ما في الاخلاق من الاحناء . حتى عارضني من صدّني عن الطريق القويم . وارجعني من سماء ما كنت فيـهِ أهيم . فرفعت نظري واذا انا بصديق قديم . فقلت من اين . والى اين ؟ فقال اليوم اتيت من غربتي . ونزلت الى الشوارع افرج كربتي . فهل لك ان تقبلني معك في الطريق . فقلت له نعم الرفيق . — واذا بصوت يصدع . تتبعهُ حوافر تقرع . وشيء كالصندوق قائم على عجل يشق هذا المجتمع . فقال لي ما هذا الذي أرى ؟ رجل يسابق الجياد فاين السبق؟(٢) قلت هذا باق من عصر سبق . وكأنهُ من بقايا عصر الصوان . لمـا كان الانسان . في مقام الحيوان . وهذا الصندوق يصون مفترشاً لاكبر عين من الاعيان . ولكن ذلك قد قلّ . لان عندنا اليوم ما هو أجلّ . واذا بصفير يكاد يمزق اذن الاصم . وشيء مندفع كالسهم . فقال ما هذا ؟ قلت من السيارات . التي امطرتنا سماء المضاربات . والذي عليها ولا يغرّنك حسن بزتهِ لص ولكن انظر الى الناس كيف يرفعون لهُ القبعات و يغترفون بها الثرى . لانهُ أثرى كما ترى . قال وهذا الذي اراه . كانه في نعمى تفوق نعماه ؟ قلت هو من سلالة الوزراء . ولكن عرشه اليوم في الصحراء وعلى الماء

ثم علت الضوضاء فقال ما هذا الصخَب . كأن الناس في شغب . فنظرت واذا بالناس يتجمهرون ثم ينفضون والمركبات وقوف. والكل عجِل ملهوف . فقلت هذا موكب الامير فهش و بش . وتهيأ للسلام فقلت مهلاً وقد يمر الربع والنصف قبل ان يركب . وقبل ان يمر الموكب . وما هـذا الاّ تمهيد الطريق للمسير . قال وكيف ؟ أفي هذا التعقيد تمهيد ؟ أما ترى ما في هذه المصادرة . من المنافرة ؟ وكأني ارى هناك ان بين بعض الناس

(١) شاعرا مصر حافظ ابرهيم واحمد شوقي (٢) اشارة الى « المجري» الذي يعدو امام الخيل

غايتها فهو يريدها ان تبقى محلاً للعقاب ويزعم ان الاصلاح لا يتم بدون ذلك وهو بذلك متفق مع نفسه لاعتباره العقاب الدواء الافضل لتقليل الجرائم ونحن نريدها مدارس ومستشفيات لتهذيب الاخلاق وتقويم المعوج من الطبائع وغرضهُ ان يدفع الشر عن الهيئة الاجتماعية ولو بتضحية هذه الهيئة لقلة اعتداده بالافراد وغرضنا دفع الشر عن هذه الهيئة مع توفير المنفعة لها بتوفير اعضائها وقد تقدم ان العقاب بمعناه وطرقه لا يفي بذلك بل هو عقبة كبرى في سبيله . هذا واني في الختام اشكر حضرة الشيخ الفاضل لان مقالتي لم تذهب عنده من دون صدى وان كان على غير ما احب فالكل منا فكر يلزم اعتباره فهو يرى ان ليس في الامكان ابدع مما كان وانا ارى ان في الامكان ابدع جداً مما كان

# المقالة الخامسة عشرة

## ﴿ احناء وانحاء (١) ﴾

اشتد القُرّ . واقرسني البرد . و بيوت القاهرة لا للحر . ولا للصرد . فلجأت الى وقود الفقير . وهو في الشتاء دفأ وفي الصيف سعير . فقمت امشي متثاقلاً كأني من اسد الشَّرى . او من صيد الشّرى . ومالي من بأس ولا شرَى . فيتّهمني الناس بالعُجب وانا ارمقهم بالعَجب . كأني لا ادرك ما بهم من العبامة وكأنهم يجهلون ما بي من الوصَب . وما زلت أنحو نحوي واراهم كأنهم ينُحون عليّ . حتى شعرت كأن سلطان غلهم قد افرغ اليَّ . فتذكرت . ما قلت :

مصر هل أنت غير ما هنّ ان لنَّا شداداً وان قسونا ركاكا
ذاك خلق من صنع فرعون لما شاد اهرامها تناغي السكاكا

ولكم نصرتهم في معمعة . فذكرت قول ابن صعصعة :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خُلة صرّامُها

(١) نشرت في الصاعقة ( ٢٢ محرم سنة ١٣٢٦ )

الصامتة من اشتراك الجمهور في مصلحة الجمهور واعتبار الافراد ضروريين للجمهور والزام الجمهور بمراعاة مصلحة الافراد فلو وجد في الحكومات ( وسوف يوجد في المستقبل ) نظام مثلاً ينظر الى مصالح الافراد بحيث يجعل الجمهور ينتفع من قوى كل فرد ولا يضيع أقوى فرد ويجعل هذا الفرد ينتفع كذلك مما فيهِ من اقوى ألا كنت تظن ان الحالة الاجتماعية تكون أصلح مما هي الآن فتقل مصائب الافراد وتقل الشرور وتكثر منافع الجمهور . ولا يخدعنا في غايات هذه الجمعيات ما نراه من الوسائط المشجوبة التي يعمد اليها اكثرها فنظنها الغاية المقصودة منها فما هي بالحقيقة الا سلاح الضعيف لمقاومة القوي وتحويل الافكار اليها وايقاظ العقول الخامدة وتنبيهها الى التبصر والافتكار

* * *

ثم دفع قولي ان العقاب من آثار التوحش القديم قال وكان دليله على ذلك تعديل القصاص وتلطيف انواع العقوبات والعذاب فكأنهُ بذلك يستدل على ان كل شيء يجري فيهِ الاصلاح بعد حدوثه يكون فاسداً في اصل وضعهِ وان القضاء ما دام يمكن اصلاحه فهو فاسد الوضع وان العقاب ما دام يصلح ويلطف فهو ظلم من اصله ولا وجوب له في هيئة الاجتماع فاذا قلنا له ان الطب ممكن الاصلاح دائماً ( وهو في مقالتهِ قد شابه بين الطب والقضاء ) فهو اذاً من آثار التوحش الذي لا وجوب له في هذا العهد الخ » ففيه من التكلف والاضطراب ما لا يخفى ويجرنا الى مبحث يصرفنا الاشتغال فيهِ عما نتوخاه في بحثنا من المعاني فانا لم اقل ان القضاء لا وجوب له وهو للاجتماع كالطب للابدان وهل يجوز ان يستنتج ذلك من طعني في العقاب ام هل العقاب هو القضاء نفسه ام ليست نسبة العقاب الى القضاء كنسبة الدواء الى الطب فاذا حكمنا بفساد الطرق العلاجية ( والطب قديم وقد تغيرت هذه الطرق فيهِ جداً ) بدليل تعديلها او تبديلها فهل يلزم من ذلك ان نستنتج ان الطب لا وجوب له وهنا يعذرني حضرة الشيخ اذا اظهرت منتهى استغرابي ورحم الله الشيخ جمال الدين الافغاني فانهُ كان كلما عرضت له مشكلة من هذا الطراز لا يجد جواباً عليها احسن من قوله « سبحان الله »

وأما كلامه في السجون فلا يختلف عن كلامنا فهو يوافق على اصلاحها انما يخالفنا في

اكثر الاطفال ينشأون كذابين . فهل ينكر هنا تأثير العقاب في افساد طبائع الاطفال

* * *

ام بأي قياس عقلي يرى التناقض في هـذه الحقيقة الواضحة في قولي « ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يسرق لانا حجبنا عنهُ ما يحتاج اليه » وهل له ان يفهمنا كيف تولدت السرقة في الانسان اولاً ولا نخاله الا يسلم بأن السرقة نشأت في الاصل عن احتياج الانسان الى شيء حجب عنهُ وهذا الشيء في اول الامر كان من الضروريات لحياته لان احتياجاته الاولى كانت بسيطة جداً لسد جوع أو ارواء ظمأ وقد أبنّا في ما تقدم كيف حجبت عنهُ هذه الحاجات الضرورية وكيف اضطر ان يسلك للاستحصال عليها بالالتجاء الى السرقة وغيرها من الوسائل التي صارت ذنوباً ووضعت لاجلها الحدود وسنت الشرائع ولا نريد من ذلك الرجوع بالانسان الى الاباحية التي تجعل كل شيء مباحاً له وانما غرضنا ان نبين ان الشرائع التي وضعت في الاول لصيانة حقوق القوي التي صارت حقوقاً بالطرق التي تقدم بيانها لم تستدرك مراعاة حقوق الضعيف فلم تفرض على القوي ما يكون بمثابة تعويض للضعيف على ما اهتضم من حقوقـهِ ولا ذنب له الاَّ ضعفه بل جعلت كلها اصب جام النقمة على رأسهِ وهذا الذي يسعى رجال الاصلاح في كل الاقطار لتحويل الانظار اليهِ لاستداركه ·

وأما الماعهُ في عرض ذلك الى ذكر الفوضوية والاشتراكية وذكرهما على اسلوب يوهم القاريء انهما وصمة لا يريد ان ينسبهما اليَّ لئلا اتلطخ بعارهما فلا اريد منـهُ ان يخجل عني منهما اذا فهمهما بمعناهما الحقيقي وكما افهمهما أنا فما هما الا اخوات تلك الجمعيات أو بناتهـا — ومنها الجمعيات المسيحية في اول عهد النصرانية — التي ما فتيء الانسان يؤلفها منذ صار عقله قادراً على ان يفهم مبدأ الشرائع وما فيها من الحيف والتي ليس لها غرض سوى مقاومـة أصحاب السلطة وتحويلهم عن اعوجاجهم وحملهم على السلوك في سبيل اقرب الى مصلحة العموم ولولا فضل هذه الجمعيات في كل العصور على اختلاف اسمائها واتفاق معانيها لما تزحزح الانسان شبراً عن المكان الذي اجاستهُ فيهِ شرائعـه الاولى والفوضوية او الاشتراكية لا تطلب حقيقـة الا ما نراه كل يوم في نظام الطبيعة

كذلك فاذا كنا اليوم نرمي الاقوام الذين تقدمونا وكانوا يستعملون العقاب على صورتهِ القديمة بالتوحش فسيقوم ابناؤنا من بعدنا و يرموننا في العقاب الذي نستعمله اليوم بالتوحش كذلك . بل العقاب على صورته الحاضرة ما زال مفسداً للاخلاق مساعداً على انماء الشر يدخل بهِ الجاني الى السجن بشرّ ويخرج منهُ بشرور وخوف العقاب لا يردع جانياً عن جنايتهِ ولا يرد فاسداً عن فساده بل يحمله على الكذب خصوصاً وفي الشرائع الاجتماعية ينبغي ان تكون وجهة الشارع اصلاح الفاسد لا حمله على التفنن في اساليب الفساد خوف العقاب ولو جاز لي ان أسرّ اليك ما تخاطب بهِ ربك عند اعترافك له بخطاياك لأبنت لك ان الانسان يخجل من ان يكون الدافع له نحو ربه خوف العقاب أو الطمع في الثواب ( لا خوفاً من جهنم ولا طمعاً في النعيم بل حباً بك يا رب ) او يكون مثل هذا القول كذباً

* * *

ولا ادري باي قياس عقلي جاز لحضرته ان ينكر ان خوف العقاب هو الذي علَّم الانسان ان يكذب وكيف يفهم قوله « اننا لم نعاقب المجرم لانه يصدق بل لانهُ يقر بذنبهِ في ذلك الصدق » ومتى علم الانسان انهُ اذا صدق في اقراره بذنبه يعاقب ألا يرى حضرتهُ انه يحاول حينئذٍ عدم الاقرار بهِ وما هو الكذب يا ترى غير ذلك وأليس خوف العقاب من قول الصدق في ذلك الاقرار هو الذي حمله عليهِ ام لا يجوز لنا ان نقصد النتيجة البعيدة من قولنا ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانهُ رآنا نعاقبهُ على الصدق » وهل يجوز ان يفهم منه غير ما تقدم أما كان يغنينا هذا الفهم عن التلاعب بالالفاظ حرصاً على المعاني . فمهما يكن من ذلك أليس خوف العقاب هو الذي يدفعنا الى الانكار فأقل شرور العقاب الكذب وهو امُّ المعاصي ألا ترى الطفل الصغير قبل ان نعوج طبيعته المستقيمة أو نزيد اعوجاجها اذا كانت عوجاء بتربيتنا له التربية السيئة كيف يميل الى قول الصدق ولا يعدل عنهُ الى الكذب الاَّ خوفاً منا ومن عقابنا فاذا كسر ابنك صحناً او زجاجة دواء ولو فارغة وسألتهُ بانسٍ أقرَّ لك بالحقيقة فان بادرتهُ بالتهديد والوعيد او كنت قد عاقبتهُ على ذنب سابق فانا اضمن لك انهُ لا يقرُّ لك مطلقاً ويحاول بكذبهِ النجاة من غضبك ولهذا السبب ولسوء معاملة الوالدين لاولادهم كان

اكثر الشرور التي لجأ الانسان اليها في اول الامر دفعاً للظلم ورضوخاً لحاجات ضرورية لا يسعهُ ان يصم اذنيه عنها

فالعقاب لم يوضع في اول الامر ردعاً للشر لان الانسان الذي يسعى وراء رزقه لا يعتبر سعيه شراً وسعيه في اول الامر كان وراء رزقٍ مباح ما لبث ان حظر عليهِ باستبداد يد أقوى من يده فيه وهو من آثار التوحش كما رأيت ثم كثرت المحظورات بتكاثر عدد الناس وانتظامهم في جمعية كبرى وتسلط القوي على الضعيف ووضعت الحدود على ما شاء الاقوياء ونظمت الشرائع على هذا المبدأ ثم ألفها الانسان بالعادة وسوّى نفسهُ عليها لان الانسان في استطاعتــه ان لم يستطع ان يغير الاحوال له ان يغير نفسه لها وهكذا بعد ان كان العقاب سبباً للشر صار بحكم هذه الحدود رادعاً له

*
* *

فبهذا الاعتبار يزول ما نسبهُ اليَّ حضرة الشيخ من تقديم النتيجة على المقدمة ويستوي القياس العقلي ولا اخال حضرتهُ الا يعلم حقيقة الاسباب والمسببات فالشيء الواحد يكون سبباً أو نتيجة بحسب الوجهة التي تنظر اليه منهــا . ومهما يكن من ذلك فان ضربه مثل كسر زجاجة الدواء لشفاء الداء فيهِ شرود فان هذا المثل لا يصح الا اذا صح قياسه وصح ان العقاب هو الدواء اللازم الذي لا يقوم مقامه دواء لشفاء امراض الاجتماع لان نسبة القضاء الى امراض الاجتماع انمــا هي كنسبة الطب الى امراض الجسم وما نسبة العقاب اليهِ الا كنسبة الدواء الى الطب والاختبار يدلنا على ان الدواء متغير وسير الهيئة الاجتماعية في امر العقاب دليل قاطع على انه يمكن الاستغناء عنــه واستبداله بطرق تدفع عن الهيئة الاجتماعيــة شر الجاني وتوفر لها منفعته بإصلاحه لا بالعقاب بل بمعاملتهِ معاملة الجاهل والمريض معاً كما ابنّا في مقالتنا السابقة

على ان العقاب لا يسعهُ ان يصلح الجاني ولا ان يقوم اعوجاج الهيئة الاجتماعية لا بصورته القديمــة ولا بصورتهِ الحاضرة وهو في كلا الصورتين وحشي ونسبتهُ الى الهيئة الاجتماعية واحدة فلما كان يتناول العذاب والقتل للتشفي والانتقام كان الانسان في حالة من الهمجية تبعده جداً عنه اليوم فاذا كان العقاب قــد تلطف اليوم فالانسان قد ترقى

واقل ما كنت انتظره ان تحدث مقالتي في العقل تأثيراً يحدث فيه تفكيراً يزحزحهُ عن مألوفه المتقادم عليه ويطلقهُ من عقاله المربوط فيهِ ويجيز له النظر في كل شيء وانتقاد كل شيء ويسهل له سبيل الارتقاء والخروج عما الفه بالعادة وتمكن فيهِ بالوراثة وصار في اعتباره من البديهيات التي لا تقبل النقض لانا ان لم نطلق العقل من عقاله كيف نطمع بان نزحزحه عن ضلاله

الا ان حضرة الشيخ لم ينظر الى مقالتي هذا النظر ولم يرَ فيها هذا الرأي ولم يرُق له ما فيها من المبادىء ولا ما يترتب عليها من النتائج فلم يرُق له قولي « ان العقاب الذي هو اساس القضاء أثر من آثار الهمجية وبقية من بقايا توحش الانسان الاول بل هو سبب الشر الكثير في العمران » واغفل قولي « ان لم يكن سببهُ الحقيقي فهو السبب المساعد على انمائه » فكنت بذلك في نظره « كالذي يثبت ان المقدمة تزول اذا زالت النتيجة وهو عكس القياس العقلي تماماً لان الشر في الدنيا انما كان اولاً ثم كان العقاب من بعده فهو كالداء الذي لم توجد له الدواء الا بعد وجوده والفاضل الشميل يقول اذا منعنا العقاب منعنا الشر اي اذا كسرنا زجاجة الدواء زال الداء » اه

***

ولا نصعد الى اصل الانسان في الحيوان لنبين كيف تولد الشر لان حضرة الشيخ ربما كان لا يوافقنا على ذلك وان كان من الحقائق المقررة اليوم بل نكتفي بالقول ان الانسان وجد في اول الامر على الارض وكل شيء مباح له ويصعب ان يكون كثير الشر في هذه الحالة طالما يجد كوخاً يأويه وارضاً تخرج نباتاً يغذيه وماء يرويه ثم حظر على الضعيف ما نالته يد القوي والحاجة تدفع الضعيف الى السعي وراء رزقه والاثرة تحمل القوي على الاستبداد بما ملكت يداه فنشأ عند ذلك الملك بوضع اليد عن قوة وكيف يستبد المالك بملكه ان لم يحمهِ بمعاقبة كل من مد اليه يداً ثم كيف يسع الضعيف ان يقصر يده عن ان يمدها الى ما بهِ قوام حياته فنشأت السرقة ثم اخذ يتفنن في الشر كلما زاد علماً وزاد صاحب الملك استبداداً فيه ومن هذا نستفيد فائدتين اولاً الاستبداد والعقاب صنوان وهما قديمان في الانسان غريزيان فيه يوم كان اقرب الى الحيوانية وثانياً هما سبب

لي الحصول على العدد المنشورة فيه الاَّ في اليوم الرابع اذ قصدت ادارة جريدة الاخبار البهية وسألتها ان تنيلني هذه الامنية وقلت في نفسي هذا عقابي على محاولتي نقض العقاب ولم ادرِ انه اخف العقابين

فاغتنمت هذه الفرصة لابداء ملاحظتي من هذا القبيل ورجائي ان كتابنا وجرائدنا عموماً يقبلون ذلك مني من وجهه الحميد ويضموا هذا الواجب الى ما لهم من الفضل في اعلاء شأن الكتابة والصحافة في بلادنا العربية

* * *

وقد تصفحت هذه المقالة بما يجب على كل امرء من الاعتبار للافكار والاحترام للاشخاص تاركاً الاعراض والاغراض متمسكاً بالجوهر . وشكرت حضرة الكاتب على حسن ظنه بي واطرائه عليَّ بما توهمهُ بي من قوَّة الحجة وحسن البيان وحب الخير والاحسان وان لم يشفق عليَّ في انتقاده ولم يعترف لي بشيء من صحة البرهان اذ عد مقالتي نسيج اضاليل واباطيل وزخارف اوهام تجوز على بعض الافهام وتناقضاً من أغرب ما ورد عليهِ وضعف نتيجة مما تكفي افهام القراء للحكم فيه ولا عجب فان الناس ينظرون الى الاشياء كل واحد من الجهة التي ألفها وانا لم اكن اشك لما كتبت ما كتبت وخالفت فيهِ من خالفت ووافقت من وافقت اني ساصادف عقبات تميد لها الجبال الرواسي والقى مقاومات تشيب لها النواصي فليس من السهل هدم بنيان راسخ تنزل اسسهُ الى أصل الانسان وتمتد الى الحيوان وتقطيع سلاسل تربطه اليها من يوم هام في الاوهام وحل عقائد صقلت عقدها لشد ما تقادمت حتى صارت كالعروة الوثقى ومنشأها اضغاث احلام واصل كل ذلك فيه بعيد واثره فيه حتى اليوم شديد

نعم لم اكن اشك في ملاقاة كل هذه الصعوبات ولم انخدع بحكم الجمهور الصارم في امري ولكن الذي لم اكن أتوقعهُ صدور مثل هذا الحكم القاسي ممن هم في مقام الخاصة لحضرة الشيخ الفاضل والخاصة هم قادة العامة وواسطة مرقاتها من حضيض الجهل الى ذروة العلم اذ لا فكر للعامة الا بهم ولا رأي لهم الا منهم

وغاية ما كنت اتوقعهُ مخالفتي في بعض الاوجه مع الموافقة ولو على البعض الآخر

سيضطر فيه القضاة ان يتموا دروسهم الشرعية بالاقامة ولو سنة في مستشفيات الامراض العصبية ليروا بأعينهم ويجسوا باصابعهم اوجاع الانسان ليعرفوا كيف يجب ان يحكموا فيها

* * *

والحاصل مما تقدم ان القضاء ما دام أساسه العقاب وما دامت السجون لا تتحول الى مدارس تعلم فيها الصناعات وتهذب فيها الاخلاق وتحول فيها قوى المجرمين الى منافع والى مستشفيات يعالج فيها مرضى الاجتماع كما يعالج فيها مرضى الاجسام مدارس ومستشفيات بالغة الغاية القصوى من الاتقان فهو عار على الانسانية وعقبة كبرى في سبيل اصلاح الهيئة الاجتماعية

# المقالة الرابعة عشرة

## القضاء على القضاء (١)

### استئناف

العادة ان الكاتب اذا نشر شيئاً في احدى الصحف ولو كانت سيارة يمس شخصاً آخر سواء كان انتقاداً أو مدحاً او طعناً ان يرسل نسخة من العدد المنشور فيه ذلك الى صاحب الشأن افتراضاً منهُ انه غير مشترك في تلك الجريدة او تنبيهاً له اذا كان مشتركاً

وكثيراً ما وقع لي مما دلني على ان هذه العادة الحميدة المتبعة في البلاد المتمدنة غير مرعية في هذه البلاد بين كتابنا وخصوصاً عند جرائدنا ولا يخفى ما يوجب ذلك من المؤاخذة ومن ضياع الفائدة احياناً كثيرة . وما حملني على التنبيه الى ذلك الان الاَّ ما وقع لي مع جريدة السلام الغراء التي تطبع في الاسكندرية فانها نشرت مقالة لحضرة الكاتب البارع الشيخ نجيب الحداد ردَّ فيها على مقالتي « القضاء على القضاء » التي نشرت في احد اعداد البصير الاغر ولم يبلغني خبرها الا بعد نشرها بثلاثة ايام ولم يتيسر

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ وهي رد على راد

كثيراً ما يصيرون مجرمين . فقد كان الناس في العصور الخاليـة يعتبرون الهيستريات ( اي المصابات بالهيستريا وهو مرض عصبي واللواتي يصنعون لهنَّ الزار في هذه البلاد ) ان بهنَّ شياطين فكانوا يحاولون اخراج هذه الشياطين بكل ما لهم من الوسائل الدينية والسرية فان لم تنجح عمدوا الى تعذيب الاجساد التي كانوا يزعمون ان الشياطين حالة فيها بكل انواع العذاب كالجلد والصلب والتقليب على شوك الحديد والحريق بالنار بعـد ان كانوا يقيدونها بسلاسل الحديد ويلقونها في اعماق السجون المظلمة هذا ما كان يفعله رجال الدين ورجال السياسة بمثل هؤلاء المساكين قبل شركو ومن تقدمهُ من افاضل المصلحين وما كان عدد المتشيطنين ليقل بهذه المعاملة الوحشية واما اليوم فمن فضل شركو الذي افاد الانسانية من هـذا القبيل في سنين قليلة اكثر من كل الشرائع قبله صاروا يعتبرونهنَّ من طائفــة المرضى الذين يجب الرفق بهم ومعالجتهم في المستشفيات البالغة الغاية القصوى من الاتقان وما زاد عدد المتشيطنين بهذه المعاملة الحسنة بل قلَّ جداً مما يدل على ان الشياطين انفسهم يذعنون للمحاسنة اكثر منهم للمخاشنة

* * *

و « بال » يعلمنا ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات فان افعال العقل المختلفة قد تختل من جهة مع بقاء الجهات الاخرى سليمة مما يمكنهم ان يعيشوا بين الناس بحالة لا تختلف ظواهرها عن حالة العقل السليم فاذا طرأ عارض هيج الجانب الضعيف ظهر الاختلال في العقل وربما جر ذلك صاحبه الى ارتكاب الجناية وسيق الى المحاكم . قال « ماريليه » « يوجد بين الذين تحكم عليهم المحاكم عدد كبير من المختلي الشعور واذادققنا النظر نجـد ان اكثر الجرائم صادرة عن اناس غيرَ مسئولين فالمعتوهون وضعفاء العقول والذين بهم حؤول ورأْي واصحاب الصرع واصحاب الهذيان المزمن قد يصيرون مجرمين اذا عرضت لهم الفرص بسبب ما بهم من الخلل في القوى العقلية وهـذه الفرص كثيراً ما تعرض لهم فيغتنمونها »

ولا ريب بانهُ سيكون للمبروزو في المستقبل في اصلاح المجرمين نفس الفضل الذي كان لشركو في معاملة اصحاب الامراض الهستيرية ولا نبعد كثيراً عن الزمان الذي

سواه بل الذي لا يزال مستمسكاً بالقديم المنتقل اليه من عصور غلب جهلها على علمها معتبراً انهُ ما وجد الاَّ للارهاب والعقاب والانتقام وهو بذلك يزيد مصائب الهيئة الاجتماعية خلافاً لما يطلب منه وهو اصلاحها وتخفيف ويلاتها كأن اهل السجون لا يستحقون هذه العناية . فكيف استحق مرضى الاجسام اعتناء رجال الفضل والحكومات بهم ولا يستحق مرضى الاجتماع منهم ذلك لان اهل السجون ليسوا بالحصر الا مرضى في الهيئة الاجتماعية سواء كان بالمعنى الحقيقي او بالمعنى المجازي

***

بل اهل السجون هم مرضى بالمعنى الحقيقي مرضى في عقولهم مرضى في شهواتهم مرضى في اراداتهم مرضى في قوتهم المتصرفة فمعلوم لكل ذي عقل ولا نحتاج الى اقلاق العلماء والاستشهاد باقوالهم لاثبات ذلك ان اصحاب الجرائم قسمان قسم يرتكب الجرم بقصد الكسب او شهوة اخرى وقسم يرتكب الجرم مندفعاً اليه باسباب اقوى منه من دون أدنى روية أو تبصر في العواقب فالاول يسرق ويقتل ويرتكب الفحشاء ولا يستطيع القضاء غالباً ان يمد اليهِ يداً لانهُ عاقل يتخذ الاحتياطات اللازمة لستر جريمته فهذا المسئول عن عمله والذي يجب على القضاء ان يعاقبهُ فليبحث عنه لا في السجون وعلى مصاطب المحاكم بل في القصور على فاخر الرياش ووثير المهاد فالمجرمون ليسوا كلهم في السجون كما ان المجانين ليسوا كلهم في المارستانات وليس منهم في السجون الا المرضى بالمعنى الحقيقي فعوضاً عن ان نعاملهم كما يعامل اخوانهم في المستشفيات نرانا شاهرين فوق رؤوسهم سيف ديموقلس اي سيف النقمة للاقتصاص منهم وهم اولى برحمة الطبيب

***

اقول اولى برحمة الطبيب ولا ابالغ ولو عارضني معارض لهب لنصرتي من ارباب العلم والذكاء الوف كل واحد بمقام الاف من ابي الطب ابقراط المتوسد في قبره من عصور طويلة الى شركو وبال ولمبروزو من مشاهير علماء هذا العصر واتباعهم الذين يعدون اليوم بالآلاف وخصوصاً هذا الاخير الذي يرأس المدرسة الحديثة التي تبحث عن طبائع المجرمين . فلنسمع ماذا يعلمنا شركو عن متشيطني الامس ومصروعي اليوم الذين

نور العلم الوهاج الذي يزداد كل يوم نوراً والذي هو نبراسنا الساطع في ظلمات هذا الوجود ودليلنا الذي لا يضل في مجاهل هذه الحياة آخذ في تمزيق غياهب الضلالات التي اورثناها الجهل وكل يوم يهتـدي بهِ العقل الى تعظيم شأن الافراد في الاجتماع الانساني كما هو شأنهـا في الاجتماع الطبيعي لتأييد دعائم الاقتصاد السياسي الذي هو نوع من الاقتصاد الطبيعي لان الافراد هم الاساس الذي تبنى عليهِ الجموع وتنشأ منه الجماهير وتتألف منـهُ الهيئة الاجتماعية فالعبث بحقوق الافراد عبث بحقوق الهيئة الاجتماعية نفسها

* * *

ومن ينكر أن السجون على حالتها الحاضرة هي منشأ الجرائم والرذائل وكل الشرور التي تتأصل في الهيئة الاجتماعية فلا شك انهُ من القحة على جانب عظيم . وانه لعار على القضاء ان يكون الاخير في الاستفادة من مكتشفات العلم والصناعة وسائر معدات التمدن ولئلا أُرمى بالجسارة والتحامل اقول لنقابل بين المستشفيات في الماضي ومعاملة المرضى فيها والمستشفيات اليوم ومعاملتهم فيهـا وبين السجون في الماضي والسجون اليوم ومعاملة المسجونين فيها . فقد جاء في الكورسبوندانس مديكال بتاريخ ٣١ مايو من هـذه السنة عن المستشفى المعروف باوتل ديو بباريز الذي هو اقدم مستشفيات اوربا ( فانهُ انشيء في سنة ٦٥١ ) نقلاً عن تقرير تنون في سنة ١٧٨٦ ما نصه . « وكانوا يطبخون في قاعات المرضى الطعام المعد لهم وكانوا يضعون عدة اشخاص في سرير واحد حتى كان الداخل اليها يكاد يختنق »

* * *

بل ننظر الى معاملة المجانين في المارستانات في الماضي كيف كانوا يضربون ويعذبون ويهانون ثم ننظر الى ما صارت اليه المستشفيات والمارستانات اليوم من الاتقان البالغ الغاية القصوى من توفير اسباب الراحة والاعتناء بالصحة حتى صارت تحاكي قصور الملوك لننظر الى ذلك ونقابله بحالة السجون والمسجونين في كل المعمورة هل توجد نسبة بين الاصلاح المعيب الذي حصل في السجون والاصلاح البالغ الغاية في المستشفيات والذنب في ذلك على من . أليس على القضاء نفسه الذي لم يعرف ان يستفيد من اتعاب الانسان كما استفاد

ان هذه العوامل الثلاثة من آثار التوحش زوال بعضها وتلطيف البعض الآخر فان التعذيب الذي كان سلاح القضاء في عصور الخشونة كاد يزول من اكثر الممالك المتمدنة وقل القتل واصطلحت حالة السجون نوعاً فبعد ان كان الجاني يلقى في اعماق السجون المظلمة محجوباً عن الهواء والنور اللذين منَّ بهما الخالق على الاخيار والاشرار صار يسمح له بان يرى النور ويستنشق الهواء وهذا الاصلاح الطفيف المعيب الذي يفتخر بهِ القضاء اليوم هو عار على القضاء ووصمة تخجل منها الانسانية ولا يستطيع ان يفاخر بهِ اقل الاصلاحات التي حصلت في اقل الفروع المعاشية التي تهم الهيئة الاجتماعية

وما دام القضاء لا يتخذ مبدأ له دفع الشر عن الهيئة الاجتماعية وتوفير النفع لها عوضاً عن العقاب للانتقام فهو بعيد عن الغاية التي تطلبها منهُ هذه الهيئة وهي صيانة مصالحها وتمهيد طرق اصلاحها

وبما يكون دفع هذا الشر وتوفير هذا النفع أبالاعدام الذي هو نقص في الشرائع كما ان البتر نقص في الطب ولا يجوزان الا اذا تعذر الاصلاح ام بالتعذيب وبالاشغال الشاقة وهي معاملة خشنة تمكن الانسان من الاخلاق الوحشية وتبعده عن الانسانية ام بالسجون التي هي قبور في الحياة لا يكتسب الانسان فيها الا فساد صحته من سوء الغذاء وقلة الهواء والنور والنظافة وفساد اخلاقهِ لما بها من سوء المعاملة وعدم الاعتناء بالتربية الحسنة يأكل الانسان فيها ويشرب وينام وقد يجتر كالحيوان ويقلّ عنهُ في انهُ لا يعمل عملاً مفيداً ولا يكتسب عملاً مفيداً سقوفها تمطر البق وارضها تنبت القمل وجدرانها تشف عن الرذائل أفي مثل هذه الاماكن المعدة في الاصل للانتقام نأمل ان نصاح الجاني وان توفر نفعهُ للهيئة الاجتماعية كلا ثم كلا فالهيئة الاجتماعية نظلمها واي ظلم اذا كنا نظن انها تطلب منا ان نقتص لها من جناتها انتقاماً منهم حاشا ثم حاشا ان تطلب ذلك من نفسها ضد نفسها وهي في صحة عقلها وبالحقيقة من هم الجناة أليسوا من الافراد الذين يؤلفون الهيئة الاجتماعية نفسها . فلقد انقضت تلك العصور الخشنة عصور الجهل التي كانوا يغفلون فيها مصالح الافراد ولا يدركون قيمة لهم كأن ليس لهم حق في الحياة الاستقلالية وليس لهم شأن في الحياة الاجتماعية ولا يستحقون رحمة بهم ولا عطفاً عليهم من الانسانية ولكن

ضعافًا فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك لذنوب ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كبارًا وكثيراً ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الا لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتعزيز شأنها »

فان هذه الشرائع التي لم ينظر فيها الاَّ الى العقاب للانتقام وهذه المعاملات التي لم يقصد منها الاَّ القسوة للارهاب هي التي ولدت اكثر الصفات الرديئة في البشر ولا نرجع الى العصور الخالية ونتبش قبور الذين عذبتهم الغايات السياسية والمصالح الدينية ليس من الافراد فقط بل من الجماهير والامم لنثبت صحة هذا القول بل ننظر الى عصرنا الحالي فان الطمع الشديد المستحوذ على اهله والجنوح فيهِ الى استعمال الحيل والخداع والكذب دليل على انحطاط في تقرير الحقيقة والصدق وارتقاء مخيف في نمو الكذب وعلى من الذنب أليس على الهيئة الاجتماعية نفسها أليس الاطناب في تعظيم هذه الرذائل والارشاد اليها جاريًا على الالسنة مجرى الحكم كما في قول الشاعر

ان لم يكن عندك حظ فليكن عندك حيلة

وما هي الحيلة يا ترى أليست الخداع وما هو الخداع أليس الكذب وبلسان من عبر الشاعر بقوله

والصدق ان ألقاك تحت العطب لا خير فيهِ فاعتصم بالكذب

أليس بلسان الهيئة الاجتماعية نفسها حتى صار الكذب شيئًا لازمًا في الحياة الخصوصية كما في الحياة الاجتماعيـة . في صناعة الحب كما في صناعة الحكم على الجماهير . ألسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانهُ رآنا نعاقبه على الصدق وان يسرق لانا حجبنا عنهُ ما يحتاج اليه فالكذب عادة الذنب في انتشارها على الهيئة الاجتماعية . وهو الذي يجرنا الى ارتكاب الجناية وهذه الهيئة التي تعلمنا ذلك وتجرنا الى ذلك هي التي تطلب معاقبتنا على ما اكسبتنا اياه بالعادة ومكنتهُ فينا بالوراثة

* * *

وانواع العقاب الكبرى ثلاثة القتل والحبس والتعذيب فبهذه العوامل البربرية الثلاثة يسطو القضاء على الهيئة الاجتماعية التي وكلت اليه صيانة مصالحها ومما يدلك على

تطلق على مثل هـذا الحكم اسم «حكم كريوني» وربما لم يعدم العلماء وصفاً لمثل هذا الحكم ينطبق على علم الاعصاب الحديث فاطلقوا عليه اسم (حكم هستيري) فمثل هؤلاء الناس يعتبرون ان عدم الانصاف كائن في القضاء نفسه وهو سبب متاعب الانسان في العمران

***

فالقضاء هو احدى الشريعتين العظيمتين اللتين تتوليان قياد الهيئة الاجتماعية وهما الشريعة الدينية والشريعة السياسية فبحسب حال هاتين الشريعتين تكون حال الانسان في العمران

وقد انقضى الزمان الذي كان الجهل سائداً فيـهِ على العقل والذي كان الانسان يقول فيهِ

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

فليس للانسان شرائع منزلة الا ما انزل جهله عليهِ من الخرافات والاوهام فشرائع الانسان من صنع الانسان وهي تابعة لحاله من الانحطاط والارتقاء حقيقة توجب الفخار لقائلها بمقدار ما تجلب العار على مقاوميه

***

فالعقاب الذي هو اساس الشرائع عموماً والقضاء خصوصاً أثر من آثار الهمجيـة وبقية من بقايا توحش الانسان الاول وما دام هذا المبدأ الفاسد أساس القضاء فاصلاح الهيئة الاجتماعية بهِ امر مستحيل بل اذا دققنا النظر جيداً وجدنا انه سبب الشر «الكثير في العمران» كالقتل والسرقة وخصوصاً الكذب الذي هو اصل كل الشرور وان لم يكن سببها الحقيقي فهو السبب المساعد على انمائها قال هولباخ «إنا لا نرى هذا القدر من الجنايات على الارض الا لتضافر كل شيءٍ على جعـل البشر اشراراً جانين فان دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر فما عسى ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايته وتجل قدر المسيء واساءته ولا تقاص اقبح الذنوب الا اذا كان مرتكبوها

عنوان مقالتي وتقول من ذا الذي يريد قلب الموضوع وتغيير المطبوع لاني على يقين بانك اذا امعنت نظرك وسرت معي شوطاً غير بعيد في هـذا البحث الاجتماعي لم تعد ترضى بالوقوف عند الحد الذي أوقفتك عنده تعاليم وضعها الناس على ما بهم من الجهل والغواية وأدخلوها الى عقلك بالارهاب والترغيب حتى رسخت فيه وصارت في اعتقاده قضايا مسلمة لا تقبل التغيير وجرت على ألسنة الناس مجرى الامثال واعتبروها من الحكم الباهرة وهي لو تفحصتها وجدتها اوهى من نسيج العنكبوت يمزقها التمحيص تمزيقاً ولا تثبت على جمر الانتقاد بل لو دققت البحث فيها جيداً لاستغربت جـداً كيف يستطيع العقل ان يضل هذا الضلال ويحيد عن الجادة المثلى والامثلة التي امامهُ من الطبيعة كثيرة ترشده الى خلاف ذلك وتعلمهُ طريق الصواب . والطبيعـة هي الكتاب الوحيد المنزل الذي ينبغي ان يعول عليهِ وان نرجع في احكامنا اليه

* * *

جرى على ألسنة الناس مجرى الامثال قولهم « لو أنصف الناس استراح القاضي » وربما لم يخطر على بال احد انهُ سيقوم أناس يعتبرون مثل هذا القول خطأ ويرون الصواب في عكسه ويؤيدون قولهم بادلة تنطبق على العلم ويقبلها العقل ولا يجرحها الاَّ كثرة عدد الجمهور المستغرق في سبات الاقتناع والراقد على اديم التواتر

والعلماء والحكماء لا يهمهم ذلك ولو نالهم منهُ صدمة قوية زعزعت اركان مصالحهم . ولكنها لا تستطيع شيئاً على افكارهم والمستقبل لهم اي لمبادئهم فهؤلاء الناس يقولون «لو أنصف القاضي استراح الناس » ويريدون بالقاضي هنا القضاء عموماً لا الاحكام الخصوصية التي يصدرها القضاة احياناً كثيرة وتكون عرضةً للانتقاد كحكم المحاكم الاهلية في قضية الاختلاس الذي وقع في احدى مصالح الحكومة اذ افلتت القويَّ عملاً بقوله

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربض المستأسد الضاري

وخففت العقاب على المرتكب الاصيل وشددتهُ على الشريك فمثل هذا الحكم لا يوجد له لفظة تقوم بوصفهِ في قاموس اللغة الفصحى ولا يوجد له ذلك الا في اللغة العامية واللغة العامية ولا يخفى تعبر احياناً كثيرة عن معانٍ لا تصل اليها اللغة الفصحى فالعامـة

والتخمين ولكن من قبيل اليقين المقرر بالمراقبة والاختبار . وعلى القول الثاني بانهُ لو انتبه الى معنى قولنا « فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة الخ » لعلم ان المراد بهذه الشدة ان الانثى اكبر من الذكر في جسمها واشد في بنيتها وأقوى في قوتها كانثى النحل والزنابير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات فهذه هي المستندات التي يطلبها حضرتهُ وفيما عدا ذلك فاني شاكرٌ لحضرتهِ على انتصاره لي واطرائهِ عليَّ والسلام ختام

## المقالة الثالثة عشرة

### القضاء على القضاء [1]

ما خلص الانسان من شباك علم اللاهوت وامتيازات الرؤساء حتى وقع في حبائل اشد وادهى وهي علم الحقوق او اللاهوت الاجتماعي كما صار اليه اليوم والثورة التي يقتضيها تغيير هذا النظام المقدس سيكون هولها شديداً لتأصله في قلب الاجتماع وامتداده الى اعماق نظاماته . ولكن اليوم الذي سيتخلص الاجتماع منه ويردهُ الى شكله البسيط سيكون نعمة عظيمة ايضاً اذ تنصرف القوى الضائعة فيه بذلك الى تمهيد السبيل القويم لسرعة ارتقائه الارتقاء الحقيقي

### لو انصف القاضي استراح الناس

اليك اكتب أيها القارئ العاقل والعاقل المتأمل ولا اطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة بليغة بل اطلب منك عقلاً حلت قيوده وتفتحت منافذه واقام التفكر مقام الاعتقاد والبحث مقام المقرر يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا يبخس مستنبطات العقل حقها. فاعرني سمعك قليلاً ولا اكلفك حلماً طويلاً قبل ان ترميني بالاغراب لاستغرابك

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

وانا لم ابخسهنَّ شيئاً من حقوقهنَّ بل بالضد من ذلك بحثت في امرهنَّ بحثاً طبيعياً لتقرير مقامهنَّ في العمران وهـذا يعد انتصاراً لهنَّ لا تحاملاً عليهنَّ . او ماذا يقلنَ ( وهنَّ لا يحتملنَ مني ذلك ) في الشرائع التي يدنَّ بها والتي تجعلهنَّ تحت الرجل بدركات وتحظر عليهنَّ اموراً كثيرة لا تحظرها على الرجل . أليست هي القائـلة فيهنَّ « المرأة ضلعٌ من الرجل والرجل رأس المرأة » حتى لا نأتي الا باخف ما قالت فيهنَّ . او ماذا يرغبنَ في مزاحمتهنَّ الرجال وطلبهنَّ المساواة بهم أيرغبنَ ان يشتغلنَ اشغالهم فان كان كذلك فلقد طالما جد الرجل وكد وسعى في طلب الرزق حتى كلَّ وملَّ والمرأة عائشة على نفقتهِ مرتاحة من اتعابهِ خالية من تجشم اهواله فلتتفضل حضرتها ان كانت تجد من نفسها قوَّة وتجند منهـا الجند وتؤلف العمال وتشيد الاعمال وتسعى وتجد وتكدح وتكد في طلب العيش فقـد آن لها ان تشتغل وللرجل ان يستريح فان كانت تستطيع ذلك فلتتقدم عليهِ فيكون لها بهِ اجر المحسنين والا فلا تضيع الوقت الثمين في طلب المستحيل ولترض بمركزها فانهُ ليس اقل اهمية من مركز الرجل

* * *

( ٥ ) لقد طاب لي المقام وطال بي الكفاح والصدام في هـذه الحرب مع السيدات حتى صار الخروج منها الى حرب ذوي لحًى وشوارب[١] غنماً وايّ غنم ولذلك اقتصر في الرد على جنـاب الاديب ( خ . س ) بالاشارة الى الوهم الذي جعله يعترض اعتراضه عليَّ في مقالتهِ التي وضعها تحت عنوان « الرجل والمرأة وهل يتساويان » حتى اذا انتبه اليهِ اصلحهُ وهو في قوله اولاً « والذي يلوح لي ان الانثى والذكر متساويان في القوة اصلاً ثم كلما ارتفعت في سلم النشوء انحطت قوَّتها الخ » وثانياً في قوله « ولمـا كان القائلون بامتياز الانثى على الذكر قوَّة في الحيوانات السافلة لا بدَّ لهم من مستنـد يقررون بهِ قولهم فنطلب الى الدكتور شميل ان يفيدنا عن بعض مستنداتهم هذه » فنجيب حضرتهُ على القول الاول بان المسألة ليست من قبيل اللوح حتى يلوح لهُ بالحدس

( ١ ) كان من الذين كتبوا في هذا الموضوع رجل فاضل نشر رده في ذيل ردود السيدات فقابله الكاتب بهذا القول من باب المداعبة

غير سلاح القوة هو سلاح الحيلة والدهاء

سألت حضرتها ثلاث مسائل (١) هل كانت المرأة في اول عهد الاجتماع مساوية للرجل (٢) هل هي في الحالة الحاضرة مساوية له (٣) هل تكون مساوية له في المستقبل. واجابت على كل ذلك بالايجاب بل ربما توسمت فيها سبقاً عليه ايضاً . وانا اوافقها في جوابها على السؤال الاوَّل وان كنت اخالفها في التعليل الذي يصرفني عن بسطه هنا ضيق المقام واخالفها كل المخالفة في جوابها على السؤالين الاخيرين. اما كون المرأة مساوية للرجل في الحالة الحاضرة فليس لها عليه دليل سوى قولها « ان المرأة اقدر على اعمال الرجل مما هو على اعمالها بناءً على ان من النساء من نبغنَ في الطب والفقه وحسن الملك « ولما كان الجواب على ذلك مستدركاً في مقالتي السابقة بقولي «لا تبعد ان تكون سيادتهنّ قد استتبت لهنَّ لاسباب اخرى إما لارث ملوكي واما لنبوغ غير اعتيادي » . قالت حضرتها « فنحن لا نقول الخلاف لاننا نعلم ان الرجل منذ اتيح له وضع القوانين والشرائع وتفضيل نفسهِ على المرأة وهضم حقوقها وامتيازاتها لم يعد يتهيأ لها تولي المناصب العظيمة » فبمَ تجيب حضرتها يا ترى لو سألناها لماذا « اتيح له وضع القوانين والشرائع وتفضيل نفسهِ عليها الخ » ولم يتح لها ذلك . لا شك في انها تجيب لانهُ اقوى منها . وبذلك تجيب ايضاً لو قلنا لها عن طبيباتها وفقيهاتها « انهُ لا يعلم انهنَّ سرنَ الا على خطوات الرجال مقلدات غير مخترعات » وعن مليكاتها « انهنَّ لم يحكمن حكمهنَّ الا بمساعدة الرجال » ولا يحسن الملك بهنَّ الا اذا كنَّ فيهِ صورة لا حقيقة كما في ملكة ارقى الشعوب اليوم والا فيسرنَ بالملك الى الوبال كما دلت عليهِ التواريخ . واما قولها ان المرأة ستكون مساوية للرجل في المستقبل بل ارقى منهُ فهذا لا دليل لها عليه ومناقض لما علم من سنن ارتقاء الرجل والمرأة حيث تقرر ان الانثى اقوى من الذكر في الحيوانات السافلة ومساوية له في الحيوانات المتوسطة واضعف منهُ في الحيوانات العالية اللهمَّ الاَّ ان تكون تخاف على الهيئة الاجتماعية في المستقبل من الانحطاط فيتحقق قولها ولا اظن ان حضرتها تعد لمستقبل الهيئة الاجتماعية مثل هذا الشرّ

على اني اعجب غاية العجب من تحامل حضرات السيدات عليَّ وتوهمهنَّ بي سوءًا

لا يعتد بهِ . و يوجد ايضاً نظر آخر هو سبب هذا الوهم فلا يخفى ان الدماغ لا يبقى حجمهُ ولا وزنهُ على معدَّل واحد في سائر اطوار الحياة فذلك الجاهل البليد وذلك العالم الفيلسوف المتقد ذهناً في بعض اطوار حياتهِ او في ابَّان صحتهِ قد يطرأ على دماغهما قبل موتهما او في مرضهما ما يغير تركيبهُ فاذا وزنتهُ بعد موتهما وجدتهُ اما كبيراً جداً خارقاً للعادة أو اصغر مما يلزم فتحكم على ان القول بنسبة العقل الى كبر الدماغ خطأ ويكون الخطأ حقيقة في حكمك نفسهِ . وهذا هو سبب اكثر الخلاف في هذه المسألة والاَّ فلا خلاف اذا نظر فيها الى الكل

واما ما ذكرتهُ من فضائل المرأة وانها المعزية الحزين والمفرّجة المكروب والصابرة على مضض العيش ونغص الحياة والراضية بمشاركة الرجل في سرَّائهِ وضرَّائهِ الخ فاوصاف نسبية ولا تدلُّ على شيء مما نحن بصدده و يشترك الرجل فيها اكثر منها احياناً وقد تقدَّم الجواب عليها في الرد السابق وهي لا تثبت لها الا بالتهذيب الصحيح والا فتنقلب فيها الى ضدّ ذلك وتكون المرأة حينئذٍ بلوى الرجل المكدّرة صفوه والمنغّصة عيشهُ والزائدة حزنهُ والجالبة كربهُ والقاصفة عمره . فالذي يذكر لها تلك الصفات الحميدة ينبغي ان لا يذهل فيها ايضاً عن هذه الصفات الذميمة اقول ذلك لا بقصد التحامل عليها ولكن بقصد استيفاء الموضوع لاننا في معرض نحاول فيهِ تقرير الحقائق فكما ان المرأة المهذبة ملكٌ كريم هكذا المرأة الجاهلة شيطان ذميم وما احرى هذا القول ان ينبهنا جميعاً الى تربية المرأة والاعتناء بتهذيبها تهذيباً صحيحاً يزيد جمالها جمالاً لا تهذيباً مبهرجاً يزيدها شرًّا ووبالاً

* *
*

( ٤ ) اني اقول رداً على خطاب حضرة السيدة الفاضلة م . م . الثانية انه لم يلجئني ملجىءٌ للتحامل على النساء ولكني قصدت في مقالتي تقرير الواقع ولا انكر ان المنتصرين والمنتصرات ضدي كثارٌ كما قالت ولكني اقول ان الحق لا تهوله الكثرة فكم فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة باذن الله . واني اسلم معها بان المرأة على خفة عظمها ودقة عضلها لا يوقفها عن الدفاع عن نفسها صلابة عظم الرجل وغلظ عضله لاني لا اجهل ان لها سلاحاً آخر

الا للخاصة بل الى الفرق بين النباتات الحولية كالاعشاب والنباتات المعمرة كالاشجار مما تعرفهُ العامة فاي فرق بينهما في سرعة نمو الاولى و بطء نمو الثانية . وما قيل عن النبات يقال ايضاً عن الحيوان و بهِ يعلل ايضاً سرعة نمو البنات و بطوء الصبيان اذ لا يخفى ان البنات يسبقنَ الصبيان لغاية سن ١٥ سنة ثم يقفنَ و يستمر الصبيان على النمو كما قلت في المقالة السابقة

واما كون حواس المرأة الخمس ادق من حواس الرجل فقولٌ مبني على ادلة تشريحية وفزيولوجية مغلوطة والذي اعلمهُ علم اليقين بناءً على ما هو مقرَّر في هذين العلمين انها دون حواس الرجل ولنا على ذلك ايضاً برهان آخر عملي وهو امتياز الرجل على المرأة في جميع الاعمال التي تحتاج الى ارتقاء هذه الحواس حتى الاعمال الخاصة بالمرأة نفسها كفن الخياطة والرسم وما شاكل وقد اشرنا الى ذلك في ما تقدم فلو كانت حواس المرأة ارقى من حواس الرجل حقيقة لاقتضى ان تمتاز عليهِ في هذه الاعمال بل في جميع الاعمال اليدوية والعقلية ايضاً لاحتياجها جميعها الى الحواس الظاهرة التي هي أبواب العقل على ان بناء هذه الحواس هو كبناء جميع المجموع العصبي ولا يخفى ان هذا المجموع أرقى في الرجل منهُ في المرأة . ولا يعلم سوى ان المرأة أشدُّ انعطافاً من الرجل أعني ان عصبها ينفعل اكثر من عصبهِ لذلك كانت تتأثر اكثر منهُ وشدة هذا التأثر العصبي ليس دليلاً على شدة العصب بل على ضعفهِ كما لا يخفى على علماء الامراض فكون اعصاب المرأة ألطف تركيباً وادق بنية شاهدٌ عليها لا لها

وأما مسألة العقل وارتباطهِ بحجم الدماغ فامرٌ مقرر خلافاً لما زعمت حضرتها والنظر في هذه المسألة كما في جميع المسائل لا يصح الحكم فيهِ الا بالنظر الى الكل لا الى الجزء والا فهناك اسباب كثيرة يكون فيها كبر الدماغ مرضياً لا فزيولوجياً فهذا لا يعوَّل عليهِ وهذا هو موضوع الخلاف في تلك المناقشة التي أشارت حضرتها اليها والتي وهمت منها ما ظنتهُ دليلاً على الضد . فكبر الدماغ الفزيولوجي يرافقهُ دائماً اتقان في نسيجهِ وارتقاءٌ في بنائهِ . ومن المقرَّر المعلوم ان معدل ثقل الدماغ هو اقل في شعب سافل منهُ في شعب عالٍ وفي اقلّ الناس عقلاً منهُ في اعقلهم وفي النساء منهُ في الرجال وغير ذلك نادر والنادر

يقال أيضاً عن الرجل والمرأة وكلامنا عام لا يجوز النظر فيهِ الى شعب من الشعوب أو امة من الامم بل الى عموم البشر في العمران فان الرجل لجهله استبد في أول الامر وخافتهُ المرأة فاستسلمت له واقبلت عليهِ متملقة كي تنجو من جوره ولا يكفينا ان ننظر الى نساء الشعوب المتمدنة بل فلننظر الى نساء الشعوب التي لم تزل غارقة في الجهل فلا نكاد نجد امرأة تخاطب زوجها الا كعبد ذليل امام سيده المستبد فكيف يمكن لهذه المرأة ان تكون غير محتالة ومخادعة . وكون المرأة احيل وأخدع من الرجل لا يحط من شأنها بقدر ما يحط من شأن الرجل الذي هو سبب ذلك فيها . على اني لا انكر بان هذه الصفات المذمومة في المرأة الجاهلة تنقلب — وهنا اوافق حضرتها — الى مزايا ممدوحة في المرأة المتهذبة بحيث تصير فيها فضيلةً واتضاعاً وطاعة وصبراً وطهراً وعفافاً ومحبة وشفقة وحنوًّا الى آخر ما وَصفتها بهِ من جليل المزايا وحميد السجايا

* * *

(٣) اني اشكر لحضرة السيدة الفاضلة م . م . الاولى على اطنابها في مدحي واوافقها على ان الرجل اذا كان يمتاز على المرأة بشدة البدن فالمرأة تمتاز عليهِ بجمالها واعتدال قوامها ولطف تركيبها وغضاضتها و بضاضتها اقول وبذلك قوَّتها وقد اشرت الى هذه الامتيازات في مقالتي السابقة خلافاً لقولها اني أهملتها ولا اخالفها في ان انبساط قدم المرأة وكونها تزرُّ ثيابها عن اليسار خلافاً للرجل مسألة مختلفٌ في مدلوها ولكني انكر على حضرتها نسبتي الى التحامل عليها والاحجاف بحقوقها ولا اسلم معها بامور ثلاثة وهي اولاً انكارها كون بطء النمو دليلاً على الارتقاء وسرعتـهِ دليلاً على الانحطاط ثانياً قولها ان حواس المرأة ارقى من حواس الرجل ثالثاً كون ثقل الدماغ ليسَ دليلاً على كبر العقل

اما كون بطء النمو وسرعتهِ دليلين على الارتقاء والانحطاط فأمر مقرر واني استغرب كيف ان حضرتها ترتاب فيهِ ويكفينا للحكم فيهِ ان نلقي نظرنا الى ما حولنا لنتأ كد صحتهُ في مواليد الطبيعة النبات والحيوان حتى الجماد ايضاً . ألا ترى سرعة نمو النباتات السافلة و بطء تكاثر الحيوانات العالية ولا اوجّه نظرها الى الاحياء المكروسكوبية التي تتكاثر ملايين وتنمو وتبلغ اشدَّها وتهرم وتموت في اقل من ساعة فان مراقبة هذه لا تتيسر

همومهِ وهي دائماً في البيت وهو دائماً بعيدٌ عنهُ ولذلك كانت تأكل أقلَّ من الرجل وتجلس على الطعام وقعات اكثر منهُ ولهذا كانت أنهم منهُ

وأما كون الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم « انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها » . فهو قول بعضهم وكنت اود ان اسلم مع حضرتها بان الذي يمنعها من ذلك انما هو « لانها اميل الى السلام وحب الاتفاق وكره المآثم والشرور » الى آخر ما قالت لاني اريد ان تكون لها هذه الصفات لولا ان هذا التعليل نفسهُ قاصرٌ ويحتاج الى تعليل آخر يعرف منهُ لماذا هي كذلك فلا شك انها كذلك لانها أضعف واذلُّ من الرجل وهذا يولد فيها الخوف ولانها محجبة وان لم تبقَ مقنَّعة وهذا يولّد فيها الخجل والحياء وما ادلهّما من صفتين لا ارضى للسيدات ان يخجلنَ منهما

وعلى نفس هذا التعليل يعلل لماذا المرأة احيل واخدع من الرجل لكن لما كانت حضرتها لا ترى وجه أقناع في قولي « لانها اضعف منهُ والحيلة والخداع سلاح الضعيف » كان لا بد لي من بسط الكلام عليهِ على وجه اعم تأييداً لهذه الحقيقة النظرية التي هي في ثبوتها كالحقائق الطبيعية المقررة ولا ننظر اليها في انواع الحيوان حيث نرى آلافاً من الامثلة التي تدلنا على ان الحيلة هي كل قوة الحيوان الضعيف لردع عدوان الحيوان القوي عنهُ أو لاخذه في شركه ولولا ذلك لما امكن بقاءه حياً مع خصمه القوي بل ننظر اليها في احوال الامم في العمران فلا يخفى ان الشرائع الحاكمة على الامم كانت في بدء الامر استبدادية ظالمة ولم تزل غير متساوية في كل الاقطار ومعلوم ان الاستبداد يورث الخوف في قلوب الرعية فلا تجد ما يحميها من غضب حاكمها المستبد سوى التملق له والرياء بهِ . والرياء يورث الخداع والكذب وما شاكل ويستحكم فيها ذلك بطول لبثها محكومة بالاستبداد وينتقل في نسلها بالوراثة خلفاً عن سلف حتى يصير فيها اخيراً طبيعةً لا تزول منها بالتعليم والحرية حتى يمرّ عليها منهما بقدر ما مرَّ عليها من عصور الجهل والاستبداد ولذلك كنت ترى القوم الذين عاشوا تحت ظل الاستبداد واستحكم فيهم الرياء قوماً لا يصدقون ولا يصدَّقون وقلَّما تجد بينهم صديقاً مخلصاً ولو خرجوا الى نور العلم والحرية ولست تجد بينهم ذلك حتى يمر عليهم فيهِ بقدر ما مر عليهم محجوبين عنهُ . وما قيل هنا

واحدة لئلا يعتبنَ عليَّ اذ ان السيدات يصفحنَ عن كل ذنب الاَّ ما تُشم منهُ رائحة التفضيل بينهنَّ

قالت : اني بحثت في المرأة والرجل بحث الطبيعيين لا بحث أهـل النظر وعابت عليَّ ايرادي بعض امورٍ عن المرأة اقرب الى البحث النظري منهـا الى البحث الطبيعي مثل قولي « ان الرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها انهم منهُ وان الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها وانها أحيل من الرجل وأخدع لانها اضعف منهُ والحيلة والخداع سلاح الضعيف » ولا انكر بان من هذه الامور ما هو اقرب الى علوم النظر الا اني أقول ايضاً اني لم التزم البحث في الوجه الطبيعيّ الاَّ لكي اجعل للوجه النظري مجالاً اوسع وقيمـةً أعظم بتمهيد السبيل له حتى يقل خطاؤه ويكثر صوابهُ اذ لا يخفى ان العلوم النظرية ليست الا الاستقراء والاستنتاج المبنيين على امور مسلمة هي عندهم كالحقائق فكلما كانت هذه الامور المسلَّمة اقرب الى الصواب كان الاستقراء والاستنتاج المبنيان عليها أصح كذلك . وأي شيء اصح من العلوم الطبيعية التي هي في حكمها كالعلوم الرياضية ولذلك كان كثيرٌ من أحكام النظر المبني على هذه العلوم حكمه كحكم اليقين . على ان من الامور النظرية المتقدم ذكرها ما هو مبنيٌّ على المراقبة والاختبار فقول حضرتها « فباي مقياس قاسوا نهامـة الرجل والمرأة حتى عرفوا انها أنهم منهُ » مردود عليهِ بالقول إنهم قاسوها بمقياس المراقبة وان لم يرضها ذلك فبمقياس « الاكل » ولا اعلم ما الذي ساءها من هذا القول وهو ليس قولي بل قول جمهور العلماء المتبحرين في درس طبائع الحيوان ومراقبة افعاله . وان لم يقنعها ذلك فنحن نأتيها بتعليل فلسفي ينطبق على هذا القول لعلها تقنع فلا يخفى ان بين عوائد الرجل وعوائد المرأة بونًا بعيداً فالرجل كثير الحركة كثير السعي . والاشغال التي تطلبها احتياجاتهُ شاقـة وتطلب منهُ جهداً جهيداً وسعياً عظيماً خارج مسكنهِ فلا يتأتى له ان يتناول الطعام الا في اوقات متباعدة ولذلك كان لا يجلس على الطعام الا وقعات قليلة ويأكل كثيراً . بخلاف المرأة فان سعيها قاصرٌ على تدبير منزلها وحركتها بالنظر الى ذلك قليلة والاشغال المطلوبة منها وان كانت مهمة الاَّ انها غير شاقة بالنسبة الى اشغال الرجل

السيدة لم اقل ذلك وهـذا قولي « الغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهنَّ أعظم منها في نساء اليوم قال بروكا وهذا يظهر منهُ ( أنَّ ) المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » لا «لانها» وهو على حد قولي ايضاً بعـد ما تكلمت عن تقارب الرجل والمرأة تشريحيًا في اوائل الحياة وتباينهما في اواسطها ثم تقاربهما بعد ذلك « وهذا الفرق التشريحي يرافقه فرق في القوى العاقلة والادبية ومنهُ يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعاب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في سن البلوغ ثم يتقاربان في سن الهرم » فعلى مقتضى قول حضرتها يجب ان يفهم من هـذا القول ايضاً ان اقتراب الرجل والمرأة وافتراقهما تشريحياً هو لاشتراكهما وافتراقهما بالالعاب والمفهوم بالعكس ولا يخفى ما بين القولين من الفرق في المعنى وان لم يكن بينهما الاَّ زيادة حرف واحـد في اللفظ فمفهوم كلامي نتيجة ومفهوم كلامها سبب وهذا الخطأ منهـا في النقل هو سبب هذا الوهم في نسبة التناقض لكلامي ولضيق المقام اكتفي بالتنبيه اليهِ لازالة هذا الوهم ولا اشك في انه من حضرتها خطأ سهو

ولا أنكر بان التعليم والرياضـة والعادات الخ تؤثر جداً في حال المرأة ويجب أن تستخدم لخيرها ولكن لا اسلّم مطلقاً بانها اذا تساوت فيها مع الرجل ساوتهُ في القوى لاسباب أعدُّها جوهرية في تكوينها وقابلياتها وواجباتهـا هذا اذا كنا نسلم ان القوى والافعال مرتبطة بتكوين الاعضاء ألا ترى ان الاشغال التي تعلمها النساء كالرجال واكثر منهم كفنّ الخياطة والطبخ والرسم والموسيقى لا تستطيع المرأة ان تساوي الرجل فيها كما قلت في مقالتي السابقة . على ان نفس مساواتها له بالتعليم والرياضة والعادات لو تأملناها جيداً لوجدناها الاَّ فيما ندر ممتنعة عليها من اصل التكوين فطلب المرأة والحالة هذه مساواة الرجل فرض مستحيل لا يجوز لها ان تضيع وقتها فيهِ وهـذا لا يحطُّ من قدرها لان عليها واجبات اخرى مهمة جداً اذا أحسنت القيام بها لم تعدم حقوقها في الهيئة الاجتماعية

* * *

( ٢ ) اعترضت عليَّ حضرة الفاضلة السيدة ر . ح . اعتراضات شتى لا يسعني ضيق المقام الاَّ ان آتي الجواب عليها اقتضاباً لكثرة خصماتي ووجوب الرد على كلّهنَّ صبَّةً

هذا المقام لئلا يشغلها عنهُ شاغل يشمخ بها الى ما سواه فتقصّر فيهِ ويصيبها كما في قوله

حسد القطا فاراد يمشي مشيها فاصابهُ ضربٌ من العقّال

ولئلا يذهل الرجل عنهُ فلا يوفيها حقوقها فيسوء مصيراً وكل ذلك حرصاً على انتظام العائلة البشرية وتحسن حال الانسان في العمران بمعرفة كل من الرجل والمرأة حدَّهُ فيقف عنده . وكنت انتظر من السيدات ان يعددنني بذلك نصيراً لهنَّ وخير نصير

وصاحباً كالزلال يمحو صفاؤه الشك باليقين

وان ارى منهنَّ تصويباً ينشطني في الدفاع عنهنَّ اذ ادخل الموضوع من ابوابهِ لان المدافع عنهنَّ في غير اساليب الصواب يكون لهنَّ شر نصير . ولكن لا اعلم كيف اقابل حضرات السيدات اللائي تصدّين للردّ عليَّ زاعمات انهنَّ وجدنَ في مقالتي مطاعن ففوقنَ نحوي سهام اللوم والتعنيف ولولا الخوف من ان يستحكم هذا الظن في اذهان جمهورهنَّ بمطالعتهنَّ مقالات نصيراتهنَّ ويتناسينَ حقيقة مقالتي لتقادم عهدها فينصرفنَ الى الوهم باني متحامل فيها عليهنَّ لاقتصرت على مقابلتهنَّ بالشكر لقاء اطنابهنَّ في مدحي واستغنيت عن هذا الايضاح الذي لا ارى والحالة هذه بدًّا منه ولاكتفيت مؤونة الرد على اعتراضاتهنَّ لقيام بعضها على الوهم وسقوط البعض الآخر من نفسهِ بمراجعة نفس مقالتي

٭ ٭ ٭

( ١ ) انكرت عليَّ حضرة السيدة الفاضلة م . ا . ي . قولي ان الفرق بين المرأة والرجل في القوى انما هو من اصل الفطرة وذهبت خلافاً لي الى انهُ من فرق التعليم والرياضة والعادات وزعمت انها تؤيد قولها من كلامي المتناقض حيث قالت برشيق عبارتها « اجتريء ان اقول ان بعض اقواله متناقضة ... أو ليس هو القائل مع العلامة بروكا : ان زيادة اتساع الجمجمة في النساء قديماً عما هو عليهِ حديثاً كانت ( لان ) المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » واستطردت من ذلك الى القول « فما المانع من انهُ لو دامت لها هذه المقاسمة الى هذا الزمان لبقيت مثله أو أسمى منهُ » اقول نعمَ النتيجة لو صحت المقدّمة ونعمَ الحجة عليَّ لو صح النقل عني فعفواً ايتها

( المرأة ) في مقامها الحقيقي الذي يليق بها تابعة الرجل في ارتقائهِ مساعدةً له متممة ما نقص من كماله مخففةً عنهُ مشاق الحياة الداخلية هو كما يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوّها وتدبيرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعيني سعيهِ واقدامه عن سليقة ومعرفة » بل نبحث في نسبة هذا الاختلاف من حيث تفاوتهما في القوى جسدياً وعقلياً

* * *

يعلم قراء المقتطف الاغر اني نشرتُ في عدديهِ السادس والسابع بتاريخ هذا العام مقالة تحت عنوان « المرأة والرجل وهل يتساويان » ضمَّنتها خلاصة مباحث الطبيعيين وعلماء الاخلاق المتأخرين وصرفتُ فيها النظر عن اقوال المتقدمين ولم اورد من اقوالهم الا شيئاً يسيراً على سبيل الاستطراد لا الاستشهاد وقيدت نفسي كل التقييد بعلوم الاختبار واقتصرت على ذكر الوقائع المقررة واجتنبت على قدر الطاقة التعرُّض للاسباب الاَّ فيما ندر . كل ذلك لكي احصر الموضوع في دائرة لا يجد فيها المتقولون محلاً لكثرة الظنون حسماً للنزاع وحرصاً على الحقيقة ان تحجبها غياهب الاوهام وتخدشها عواصف الاغراض اذ هي كما قيل

خَطرات النسيم تجرح خدَّيـــهِ ولمس الحرير يدمي بنانه

وقد رأينا مما قرَّره علماء طبائع الحيوان كما قلنا في ما سلف ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساوية لهُ في ما كان بينهما واستنتجنا من ذلك ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوان السافل وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوان العالي . وابنَّا ذلك هناك مفصَّلاً بآيات بيناتٍ طبيعية وادبية وعقلية . وظننتُ ان هذا البيان كاف لان يكون القول الفصل لما فيهِ من الصراحة والوضوح والاستناد الى الادلة التشريحية والفزيولوجية والبسيكولوجية التي يقال عندها قطعت جهينة قول كل خطيب . وما قصدت الا ان اجعله قاعدة يختلف اليها عند البحث في هذا الموضوع وما اتيت فيه بحرف يشير الى وجوب تحقير المرأة واهمال تعليمها بل بالضد من ذلك قصدت ان ابين مقامها الحقيقي في الهيئة الاجتماعية وان انبه الى أهمية

ذلك فاقتضبت عباراتي وحوَّلت اشاراتي وابدلت قولي وغيرت منقولي اعتداءً عليَّ وتملقاً لهنَّ وصلت بيننا نار هذه الحرب وهنَّ منها يشهد الله براءٌ وانا لست منها في شيء بل تراني اقدّم فيها رجلاً وأؤخر اخرى. والاَّ فهنَّ ارفع من ان يعدُدن تقرير الواقع تحاملاً والانصاف احجافاً

قد وقع الصلح على غلتي فاقتسموها كارةً كاره
لا يدبر البقَّال الاَّ اذا تصالح السنوز والفاره

* * *

رحماً كنَّ سيداتي لو كان لي ان اصف المرأة كما اريد واشتهي لوصفتها كما قال احد شعراء الانكليز « ان الله خلق الرجل اولاً على سبيل التجربة ثم خلق المرأة أخيرا » لتكون من طينة ارقى ولكن من اين لي ذلك وانا لم اتجشَّم البحث في هذا الموضوع واجعل نفسي هدفاً لسهام الاغراض الا منقاداً للعلوم الطبيعية لا للتصورات المجونية كمؤرخ يصف الوقائع ويشهد الاحوال ابتغاء رفع شأن المرأة في العمران بمعرفة مقامها الطبيعي فيهِ ولا ذنب لي الا ذنب الصادقين في الود المخلصين في القول والا فما المانع من ان تساوي المرأة الرجل ولماذا لم تتغلب عليهِ بل تركتهُ يسن الشرائع المحجفة بحقوقها ويقوى عليها من اوَّل الامر

وانَّى يمكن ان تكون بينهما هذه المساواة وهما مختلفان بالطبع من اصل الفطرة في التركيب والقابليات والواجبات . فطلب المرأة مساواة الرجل كطلب الرجل مساواة المرأة امرٌ مستحيل واني لاعجب كيف يحاول بعض الناس اثبات هذه المساواة وما مثله الاَّ كمثل من يحاول ان يساوي بين اعضاء الجسد المختلفة. ألعله يجهل ان اختلاف التركيب يوجب اختلاف القوى والافعال

فبقي علينا اذن وقد تقرر هذا الاختلاف كما تقرر بين اعضاء الجسد ان نعرف نسبتهُ فيهما ولا نبحث في ذلك من حيث اهميتهما في الجسم الاجتماعي فانهُ لا خلاف في ان كلاً منهما عضوٌ مهم شديد اللزوم لكمال الهيئة الاجتماعية كما ان كل عضو من اعضاء الجسد شديد اللزوم لكماله. وقد تداركتُ ذلك في مقالتي السابقة حيث قلت « بل نضعها

# المقالة الثانية عشرة

## المرأة والرجل وهل يتساويان * ردٌّ (١)

هم في ضميرك خيَّموا ام قوَّضوا　　ومنى جفونك أقبلوا ام أعرضوا
وهمُ رضاك من الزمان واهله　　سخطوا كما زعمتْ وشاتك أم رضوا

ما بال ربات الحجال وذوات اللطف والدلال برزْنَ من خدورهنَّ غضابى . وأوسعنني لوماً وعتاباً . وفتحنَ عليَّ حرباً أعـدى من حرب البسوس . واظلم من يومي سعدٍ وبوس . وما اتيت ضدهنَّ بمنكر . ولا ارتكبت في حقهنَّ ذنباً لا يُغفر

أو ماذا رأينَ في مقالتي « المرأة والرجل وهل يتساويان » من قصد التحامـل عليهنَّ والاحجاف بحقوقهنَّ حتى نفخنَ في البوق وهجنَ بنـات جنسهنَّ في الاقطار وتألَّبنَ عليَّ جماعات متفقات لاوّل مرة وتربصنَ في مناوأتي تربص الآساد وعهدي بهنَّ انفر من الظباء . وانا لم آتِ فيهنَّ الا بما قرَّره الواقع وشهد بهِ الحال انتصاراً لهنَّ من القوم الظالمين

أقصَّرت في مدحهنَّ ام لم ابالغ في وصف محاسنهنَّ ام لم اعترف بحقوقهنَّ . ألستُ القائل فيهنَّ « وبرَوا لها اقلاماً أقومَ من هدود الهيف اذا أخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعنات اوقع من لحاظهنَّ اذا رنّت سهامها في القلوب » . أفلا يعجبنَ بهذا الاطراء أو لست القائل ايضاً « ولا يبخسها هو ( اي الرجل ) حقّاً اعترف لها بهِ مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كلٌّ منهما في دائرتهِ غير متطاول الى دائرة سواهُ وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي أم الاجتماع الانساني » أفلا يرضينَ بهذه المساواة

على اني أُجلهنَّ عن ان انزلهنَّ منزلة من يقول « ان النساء لا يرضيهنَّ شيءٌ » ولعل في الامر دسيسة يدٍ مبرقعـة وما هي بذات برقع ( سامحها الله ) (٢) افترت علينا

(١) نشرت في المجلد الثاني عشر من المقتطف سـنة ١٨٨٧ وهي رد على بعض السيدات اللائي اعترضن على المقالة السابقة بكلام نشر في المقتطف ايضاً

(٢) اشارة الى ان الكاتب الحقيقي او المحرك رجل قصد تحريك الشر للمناظرة اوالمداعبة

ذلك قليلاً كما في بعض الانواع الحيوانية والفروع البشرية السافلة وكما في احداث الامم المتمدنة ومشايخهم اذ ان الطرفين يستويان في كل امر وأما في الانواع الحيوانية العليا وفي فروع البشر المرتقية وفي منتهى النمو فالغلبة دائماً للذكر جسدياً وعقلياً وادبياً ولا تكون غير ذلك الا اذا انقلب الموضوع وانعكس المطبوع . وعليه فنطلب في المستقبل ان لا يقدَّر لنسائنا ان يتغلبنَ على رجالنا او يساوينهم ولا نظن ان نساءنا يرضينَ غير ما طلبنا بناء على ما عهدن من سنن الارتقاء

* *
*

فهذا أيها السادة نظر عام يضع المسألة في مقامها الطبيعي ويرشدنا الى الحكم فيها حكماً صحيحاً عادلاً فلا نحقّر المرأة كما فعل شوبنهور الالماني احد فلاسفة هذا العصر حيث جعلها تحت العجماوات وقال انها من شر المخلوقات وهو قول فيلسوف قانط (١) ولا نبالغ في تعظيمها كما فعل ديدرو الفرنسوي احد فلاسفة العصر الخالي حيث جعلها فوق الرجل وقال ان الذي يتكلم عنها ينبغي لهُ ان يغط قلمه في قوس قزح ويرمّل خطه بغبار اجنحة فراش الحقل وهو تصوُّر شاعر غاوٍ بل نضعها في مقامها الحقيقي الذي يليق بها والذي جُعلت فيهِ أعني عضواً لازماً للهيئة الاجتماعية تابعةً للرجل في ارتقائه مساعدةً لهُ متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية كما هو يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوّها وتدبيرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعين سعيهِ واقدامهِ عن سليقة ومعرفة . لا تنازعهُ هي ما لا تجديها المنازعة فيهِ نفعاً ولا يبخسها هو حقاً اعترف لها بهِ مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كلٌّ منهما في دائرتهِ غير متطاول الى دائرة سواهُ وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي ام الاجتماع الانساني

---

(١) وكان يعرف المرأة انها طويلة الشعر قصيرة الفكر

العليا الرفيعة المدارك فانهُ لما كان فيها الفرق بين الرجل والمرأة عظيماً كانا اقرب الى الاختلاف لاختلافهما بالافكار والاحساسات والمشارب الخ وهو اكثر في سكان المدن منهُ في سكان القرى وآخذ في التزايد سنةً فسنة كما نبه الحكماء الى ذلك منذ زمان طويل

* * *

على ان زعماء المساواة يدَّعون ان هذا الفرق بين الرجل والمرأة جسديًا وعقليًا سببهُ عدم تساويهما في الرياضة والتعليم وانهُ اذا تساوت احوالهما المعاشية والتهذيبية تساويا في القوَّة والعقل . واذا دققنا النظر لا نجد هذا الاعتراض في محله . ففي العصور الغابرة حين كانت الامم غارقة في ظلمات الجهل لم يكن احد الجنسين يعلَّم اكثر من الآخر وفي هذه الايام نجد في البلدان المتمدنة عدداً وافراً من الجنسين متروكين على الفطرة بحيث لا يصحُّ ان يقال ان هذا الفرق نتيجة التعليم والتهذيب بل اليوم اذا نظرنا الى الفنون التي تعلمها النساء كما يعلمها الرجال واكثر منهم ايضاً كفنَّ الموسيقى في اوربا فلا نجد من النساء من نبغنَ كما نبغ الرجال ومع ان عدد المتعلمات هذا الفن اكثر من عدد الرجال فلا تجد منهنَّ من ألَّفت فيهِ او استنبطت شيئاً جديداً بل جميع المؤلفين من الرجال . وما قيل عن فن الموسيقى يقال ايضاً عن فن التصوير وكذا صناعة الطبخ نفسها فحتى الآن لم يستطع النساء ان يبارينَ الرجال المتعاطين هذه المهنة مع ان عددهنَّ بالنسبة الى عددهم وافر جداً والمانع في هذا وسواه ليس عدم تساوي الرجل والمرأة بالوسائط بل عدم تساويهما بالقابليات كما ترى في المدارس التي يعلَّم فيها الصبيان والبنات معاً فان البنات كما تقدم يفقنَ الصبيان لغاية سن ١٢ سنة ثم يتقهقرن عنهم بعد ذلك مع ان الوسائط واحدة في الحالين وما سبب ذلك الاَّ لانهنَّ من طبعهنَّ اضعف منهم قابلية والاَّ لما وجب ان يتأخرنَ عنهم بعد هذا السن لو كنَّ من طبعهنَّ قادرات . وسبقهنَّ الصبيان في اول سني الحياة دليل على سرعة نموهنَّ بالنسبة الى نموَّهم وهذه السرعة من علامات الانحطاط كما قلنا في ما تقدم

والخلاصة من جميع ما تقدَّم ان غلبة الانثى على الذكر لا ترى الاَّ في بعض انواع الحيوانات السفلى او في بعض فروع البشر السفلى ولا يرى تساويهما الا في ما كان فوق

سن الى ٢١ و٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و ١١ من سن ٤١ الى ٥٦ ثم يتناقص الى ٩ من سن ٥٦ الى ٦٣ والى ٨ من سن ٦٣ الى ٧٠

وأما حجم الجمجمة فحسب تعديل بعضهم ( ليثر زيك ) ان دائر جمجمة الذكر عند الولادة اكبر من دائر جمجمة الانثى بسنتيمتر واحد ثم يزيد هذا الفرق بعد البلوغ لاستمرار نمو جمجمة الرجل ووقوف نمو جمجمة الانثى بعد ذلك

وأما وزن الدماغ ( فحسب تعديل كولكر ) يزيد دماغ الذكر عن دماغ الانثى باربعين غراماً عند الولادة و٥٠ عند سن سنة واحدة و٧٠ عند سن ٣ سنين و١١٠ في سن ١٠ و١٥٠ من سن ٢٠ الى ٦٠ . ثم يتناقص هذا الفرق من بعد السن المذكور فينقص دماغ الرجل في الهرَم ٨٤ غراماً من معدَّل وزنهِ عند منتهى النمو ودماغ المرأة ٥٩ غراماً . وهذا الفرق التشريحي يرافقهُ فرق في القوى العاقلة والادبية ومنهُ يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعاب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في العقليات في سن البلوغ ثم يتقاربان ثانية في الهرَم . وعلى هذه النسبة ايضاً يجري باقي الفروقات في شكل العظام والتغذية وتركيب الدم الخ . واما النبض فهو ١٣٦ في الجنين الذكر و١٣٨ في الجنين الانثى . وذكر بعضهم ان هذا الفرق اي زيادة نبض الانثى على الذكر هو نبضة واحدة من سن ٢ الى ٧ و٦ نبضات من سن ١٤ الى ٢١ و٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و١٠ من ٣٥ الى ٤٢ و١١ في سن ٥٠ ثم ٩ من ٥٦ الى ٦٣ و٨ من سن ٦٣ الى ٧٠ . ويطول بنا الشرح جدًّا لو اردنا استيفاء باقي الفروقات مفصلاً لذلك نكتفي بما مرَّ

والخلاصة مما تقدم ان الانثى تفوق الذكر في بعض الامور في الاثنتي عشرة سنة الاولى ثم يفوقها الذكر بعد ذلك في الجمعيات المتمدنة الى منتهى النمو حيثما يبلغ الفرق معظمهُ وهذا يكون بين سن ٤٠ و٥٠ ثم يتناقص هذا الفرق في الشيخوخة والهرَم

وهذه الملاحظات المتقدمة المأخوذة من علم مقابلة الحيوان وتشريح الاعضاء ومنافعها تنبئنا لماذا يميل الجنسان اي الذكر والانثى لان يفترقا كلما صعدا من طبقات البشر السفلى الى العليا . ففي الطبقات السفلى تكون الصفات العقلية والادبية بين الرجل والمرأة متساوية لذلك كانا كلاهما اقرب الى الاتفاق من الاختلاف وليس الامر كذلك في الطبقات

فان صغار القرود خاصة يشبهون اطفال البشر جداً باستدارة جمجمتهم ولا تميز فيهم صفات القرد الاَّ مع السن وحينئذٍ تظهر المباينة فتبدو الانخفاضات والبروزات والشكل الزاوي وبروز الوجه عن الجمجمة وكذلك يحصل في الاخلاق فتزداد القرود شراسةً وقساوة ولا تذعن للتربية كلما زادت في السن وهكذا ايضاً اولاد السود كما يعلم من روايات يوثق بها فانهم يظهرون في المدارس ذكاءً وقابلية للتهذيب لا مزيد عليهما فاذا بلغوا اشدهم تخلقوا باخلاقهم الوحشية وخسروا كل ما اكتسبوه بالتعليم كأن لم يكن شيءٌ من ذلك » أعني ان الصفات الجسدية والعقلية تكون مشتركة بين صغار الانواع والفروع في اول سني الحياة ثم تتباين فيهم بمقدار تباين الانواع والفروع نفسها فيقف نموّ بعضها السافل او يسير في خطتهِ ويستمر نمو البعض الآخر المرتقي . والوقوف علامة انحطاط واستمرار النمو علامة ارتقاء

* * *

وفي الجملة فمعظم الفرق بين الرجل والمرأة يكون في الكهولة اي عند منتهى النمو واقله في سن الصبوة والشيخوخة سواءٌ نظرنا الى البدن كله او الى كل عضوٍ من اعضائهِ فانهُ لا يوجد فرق ما بين الذكر والانثى في الحياة الجنينية ثم يكون الفرق قليلاً عند الولادة ويبلغ معظمهُ في الكهولة ثم يتناقص في الشيخوخة

فالطفل يكون اطول من الطفلة عند ما يولدان بسنتيمتر واحد فاذا بلغا منتهى النموّ اي متى صار هو رجلاً وهي امرأة زادها بستة وثمانين مليمتراً حسب تعديل بعضهم ( كواتلت ) وباثنى عشر سنتيمتراً حسب تعديل غيره ( توبينار ) ثم يميلان للتساوي بعد ذلك لان الرجل يقصر اكثر من المرأة

ولنا نفس النتيجة من مقابلة الوزن فان معدل وزن الطفل المولود حديثاً ٣٢٥٠ غراماً والطفلة ٢٩٠٠ غرام اعني ان الذكر يزيد الانثى ٣٥٠ غراماً وقلما يفرقان بعد ذلك الى ما بعد السنة الثانية عشرة ثم يزيد هذا الفرق جداً برجحان الذكر ويبلغ حسب تعديل بعضهم ( كواتلت ) من اربعة الى خمسة كيلو غرامات ثم يتناقص في الشيخوخة . وذكر بعضهم ان هذا الفرق بينهما كيلو غرام من سن ٢ الى ٧ و٦ كيلو غرامات من سن ١٤

قد يرى احياناً في الشعوب السافلة الحاضرة والغابرة ولكنهُ لا يُرى البتة في الشعوب العالية وانما يرى فيهم عكس ذلك اي امتياز الرجل على المرأة دائماً

* * *

ولنتقدم الآن الى النظر في المسألة من حيث الاسنان . وهنا نجد ايضاً نفس النتيجة التي وجدناها في الفروع والانواع اعني ان الاناث يمتزنَ على الذكور امتيازاً الى أجل في اول سنيّ العمر ثم يستتب الفوز بعد ذلك لهؤلاء . فقد ذكروا ان البنات يفقنَ الصبيان في الطول من سن ١٠ الى ١٥ سنة . وبعض الانثروبولوجيين زعموا ان البنت من سن ١٠ الى ١٢ تكسب رطلاً اكثر من الصبي في السنة . وأما بعد السنة السابعة عشرة فالاناث يقفنَ والذكور يستمرون على النموّ . والحال كذلك ايضاً في العقل ففي المدارس التي يجتمع فيها الصبيان والبنات معاً رأوا ان البنات لغاية سن اثنتي عشرة سنة يسبقنَ الصبيان ويفقنهم ذكاءً وأما بعد ذلك فالصبيان هم السابقون

ويستفاد مما تقدم ان المرأة في النمو اسبق من الرجل جسدياً وعقلياً وادبياً وهذا ما حمل بعضهم على ان يظنها اعقل منهُ . وقد علل بوفون الطبيعي الفرنساوي ابطاء الرجال بقولهِ « ان الرجال لما كانوا اكبر واقوى من النساء اعني لما كان بدنهم اشد واعظم وعظامهم اصلب وعضلاتهم اقوى ولحمهم اكنز مما في النساء كان من الضروري ان يكون زمن نموّهم اطول من زمن نموهنَّ » وقال كابنيس « ان المرأة اسرع نمواً وانحطاطاً معاً من الرجل لا تلبث ان تشب حتى تهرم وليس بين انتقالها من سن الصبا الى سن الهرم فترةٌ تذكر »

والنمو السريع دليل على الانحطاط ويرى حسب مباحث دلوني في جميع الاناث كما يمكن تحققهُ من النظر الى سرعة نمو اناث الحيوانات الاهلية بالنسبة الى ذكورها . وانما كانت هذه السرعة في النموّ التي ترى في الحيوانات وفروع البشر السفلى علامة انحطاط لانهُ يعقبها وقوف النموّ دائماً . قال بخنر في كتابهِ الذي عرّبناه تحت عنوان شرح بخنر صفحة ٩١ ما نصهُ « ان في الطبيعة ناموساً عاماً وهو ان صغار الحيوانات والقرود والبشر الذين هم من ادنى جنسهم يتشابهون اكثر من البالغين في تكوين الجمجمة وقابلية العقل

البوشمان والبتغون يكاد الجنسان لا يفرقان بالقامة

وأما الفرق في سعة الجمجمة بين المرأة والرجل فهو ٣٧ سنتيمتراً مكعباً من جانب الرجل لاهالي استراليا ( دفيس ) و ٥٩ لاهل الصين و١٢٩ لاهالي كلدونيا الجديدة ( بروكا ) و١٤٩ لقبائل الاسكيمو و١٥٠ لعموم سكان فرانسا و٢٠٣ لسكان بريطانيا و٢٢١ لسكان باريز على قول بروكا ورجحان هذا الفرق من جانب الرجل يكون اعظم كلما كان الشعب ارفع ( هشك وبافيس )

* * *

وحكى بوشت ان النساء في السودان يشبهنَ الرجال في الصورة وذكر غيرهُ عن غيرهم ما يضاهي ذلك مما يستفاد منهُ ان اختلاف الصورة الظاهرة بين الرجل والمرأة يكون اقل كلما كان الشعب ادنى . وما هو كائن اليوم في القبائل السافلة الحاضرة كان ايضاً في القبائل السافلة الغابرة . ومما ذكره دلوني دليلاً على ذلك ان بعض الشعوب في القديم كان النساء يحكمنَ عليهم كسميراميس وكليوبطرا وزنوبيا الخ . ونحن وان كنا نعتقد صحة القاعدة وهي ان تغلب الرجل على المرأة من ضروريات الارتقاء والضد بالضد انما لا نعتقد صحة الاستشهاد الذي أُتي بهِ عن الملكات المذكورات لانهُ لا يبعد ان تكون سيادتهنَّ قد استتبَّت لهنَّ لاسباب اخرى إما لارثٍ ملوكي وإما لنبوغٍ غير اعتيادي وقيامهنَّ بعبءِ الملك ليس دليلاً قاطعاً على ان كل نساءِ شعوبهنَّ كنَّ ارقى من رجالهم والاَّ لوجب ان نطلق هذا الحكم على ضيوفنا الذين تحكم عليهم ملكة وهم ارفع جداً من ان يوصفوا في المقام الذي يضعهم فيهِ هذا القول بل هم ارفع من كل شعب آخر وهم هم السابقون في مضمار الارتقاء البشري بلا منازع . وذكر ديودوروس ان رجال الصقالب ونساءهم في القديم كانوا متشابهين وبخلاف ذلك اليونان والرومان فان الفرق بين الرجل والمرأة عندهم كان عظيماً جداً جسدياً وعقلياً

والغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهنَّ اعظم منها في نساء اليوم . قال بروكا وهذا يظهر منهُ ان المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد . والخلاصة مما تقدم ان امتياز المرأة على الرجل

من المرأة ويولّد قوة اكثر منها كان ضرورة اقوى منها جسديًا وعقليًا

ومما ينبغي التنبيه اليهِ هنا ان الفرق بين الذكور اشد منهُ بين الاناث وذلك يرى في الحيوان والانسان فان الرجال من الشعب الواحد بل من العائلة الواحدة يفرقون بعضهم عن بعض في القامات ولون الشعر والقوة العضلية والصوت والمشارب حتى الخط ايضاً اكثر جداً مما يفرق النساء بعضهنَّ عن بعض . وشدة التباين من علامات الارتقاء كما لا يخفى على علماء هذا المذهب

* * *

هذا نظرٌ في المسألة من حيث الانواع . واذا نظرنا اليها الآن من حيث الفروع البشرية أعني بالمقابلة بين الشعوب المختلفة فنجد نفس النتيجة التي وجدناها في الانواع أعني ان المرأة تنحط عن الرجل كلما كان الانسان اعرق في الحضارة والمدنية وتساويه او ترتفع عنهُ كلما كان اقرب الى البداوة والخشونة جسديًا وعقليًا . وشهادات السياح التي تؤيد ذلك لا يحصيها عد فنقتصر منها على ذكر اليسير فراراً من التطويل : حكى بستيان في رحلتــه ان نساء همج افريقية اشد من الرجال وانهنَّ يسدن عليهم ويحاربنَ نظيرهم وهنَّ كذلك على شهادة مينرس في جزيرة كمشتكا وجزيرة جاقا وفي بعض قبائل اميريكا الجنوبية وفي كوبا . وحكى فولي ان المرأة تسود على العائلة في بعض قبائل السود حتى انها تضرب الرجل

وقال بروكا ان طول عظم الزند في الاسود بالنسبة الى عظم العضد باعتبار طول العضد مائة هو ٧٩٫٤٣ وفي امرأتهِ ٧٩٫٣٥ والفرق ثمانية اجزاء من مائة جزء وفي الاوروباوي ٧٣٫٨٢ وفي امرأتهِ ٧٤٫٠٢ والفرق بينهما عشرون جزءًا من مائة جزء وعليهِ فالاوروباي اعلى من امرأته اكثر من الاسود بالنسبة الى امرأته السوداء . والفرق بين الجنسين في حجم المنكب هو في الشعوب المتمدنة اعظم منهُ في الشعوب المتوحشة وهــذا الفرق يقل كلما نزلنا من الاصول العليا الى السفلى . والفرقـــ بين الرجل والمرأة في القامة اقل في الشعوب السفلى منهُ في العليا ومعدله بين الاوروباويين ٨٦ مليمتراً حسب تعديل كواتلت و١٢ سنتيمتراً حسب تعديل توبينار وأما في الشعوب السافلة فهو اقل من ذلك جداً وفي

اكثر من الرجل انما احسانها لا يغني ولا يطاق وقلما تفعله الاَّ لغرض ديني

وأما من الوجه البسيكولوجي أو العقلي فمن المقرَّر ان القوى العاقلة تابعة لحالة الدماغ أو بالحري لمركز هذه القوى فيهِ وهو في الحيوان العالي كما تقدم اعظم في الذكر منهُ في الانثى ولذلك كان الذكر اعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعيين

وقد اتفقت جميع الشرائع على ان تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج الى وصي وسببهُ ما بها من الخفة والطيش . وأما زعماء المساواة فيدعون ان هذه الشرائع قد ضحت المرأة للرجل لان الذين سنوها انما هم الرجال . ووصف علماء الاخلاق المرأة بانها لاهية متقلبة مفرّطة اكثر من الرجل وجميعهم على انها مطبوعة على الخرافات والعناد والتشبه والتمسك بالعادات القديمة اكثر من الرجل وعلى انها مهذار مخواف اكثر منهُ . وقال بروكا العالم الانثروبولوجي ان المرأة أقل ادراكاً من الرجل وهو ايضاً رأي دروين كبير الطبيعيين في هذا العصر قال ما معناه ان الرجل والمرأة ان تجاريا فالسابق هو وهل يبلغ الظالع شأوَ الضليع

ونقل دَلوني عن التجار والصناع ان المرأة تثابر على العمل اكثر من الرجل الاَّ انها أقل ادراكاً منهُ ويقرب عملها من ان يكون ميكانيكياً اكثر من ان يكون عقلياً . ففي المطابع تحسن اعادة صفّ الكتب المطبوعة ولا تحسن صف الكتب المخطوطة كالرجال لانها لا تفهمها نظيرهم . وقال ايضاً اذا قيست المرأة بالرجل في اوروبا وجدت متأخرة عنهُ نحو قرن : فبينما الرجل يشتغل بالتاريخ والفلسفة والعلم تشتغل هي بمطالعة الاقاصيص وكتب الادب . نعم انهُ حصل اليوم في اوروبا واميركا ثورة في خواطر النساء فنهضنَ يطالبنَ الرجال بالاعمال التي انفردوا بها وينازعنهم المراكز العلمية وقد صار عدد غير قليل منهنَّ طبيبات غير انهُ لا يعلم انهنَّ سرنَ الا على خطواتهم مقلدات غير مخترعات وعلى المستقبل ان ينبئنا بما اذا كنّ يستطعنَ اكثر من ذلك

والخلاصة من كل ما تقدم ان الذكر في الانواع العالية يمتاز على الانثى بشدة التغذية وبالنتيجة بالقوة العضلية والعقلية ايضاً لانه يوجد نسبة بين الحياة النباتية الخارجة عن سلطان الارادة وحياة النسبة الواقعة تحت هذا السلطان فالرجل لما كان يتغذى اكثر

(١٣)

المرأة منهُ في الرجل ولهذا قيل ان المرأة تحيا بقلبها اي بعواطفها والرجل يحيا بعقله

ونصف دماغ المرأة الايمن اكبر من الايسر بخلاف الرجل وهذا يفهم منهُ لماذا المرأة تياسر اي تذهب ذات اليسار والرجل يبامن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهرٌ حتى في عرى ثيابهما وازرارها فان حركة التزرير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينية كما يمكن تحققه من ارسال النظر اليهما . وهذا يدل على ان الاختلاف بين الرجل والمرأة من اصل الطبع. ودلوني اول من نبه النظر الى ذلك وقال ان حركة المرأة اليسارية او التقريبية كما يسميها ايضاً دليل على الانحطاط لانها تشاهد في الحيوانات كالقرود وفي فروع البشر السافلة وان حركة الرجل اليمينية أو التبعيدية كما يقول ايضاً دليل على الارتقاء

* * *

فهذا نظر تشريحي وفزيولوجي يبين منهُ هذا الفرق بين الرجل والمرأة وأما من الوجه الادبي فقد اختلفوا في هل المرأة انبل خلقاً من الرجل ام لا . وتوجد مؤلفات كثيرة في مدح المرأة وذمها وقد ذهب مؤلفون كثيرون الى ان المرأة أنهم من الرجل واكسل واشبق وابخل واكثر عجباً وكبراً وحسداً واشد حنقاً وحقداً . وفي العصور الوسطى طرح احد المجامع هذه المسألة مطرح البحث وهي « هل للمرأة نفس » ولا نظن ان احتقار المرأة بلغ هذا القدر في عصر من العصور او عند شعب من الشعوب . وجميع الحكماء والفلاسفة المتقدمين كابقراط وارسطو على ان المرأة احط من الرجل . ويضيق بنا المقام عن استيفاء جميع ما قالوه في ذلك من مدح وذم وتسنيع وتشنيع . فنحن لذلك نغفل اقوالهم ونعتمد لحل المسألة على مباحث المتأخرين المبني اكثرها على علم مقابلة أفعال الانسان المعروف عندهم بالدموغرافيا

من المقرر المتفق عليهِ ان المرأة اقل ارتكاباً للجرائم من الرجل . قال كواتلت والذي يمنعها من ذلك انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها . وقال غيرهُ أن التسميم الذي هو سلاح الجبناء هو في الغالب سلاحها . وهي أحيل من الرجل وأخدع منهُ لانها أضعف منه والحيلة والخداع سلاح الضعيف . ان استقوتك استعطفتك ببكائها وان استضعفتك قتلتك بكبريائها . والجمهور على أنها محبة ومحسنة

والذكر أعظم من الانثى كما هو معروف في الحيوانات الاهلية . والرجل يزيد المرأة اثني عشر سنتيمتراً طولاً ( توبينار ) وهي أخف منهُ وان ظهرت اسمن لتغلُّب الشحم فيها الذي يكسب بدنها استدارةً وهشاشة ويستر عضلها بخلاف الرجل فانهُ قليل الشحم نافر العضلات صلب البدن . وهي بارزة الفكين اكثر منهُ في الشعوب الهندوجرمانية ( توبينار )

وقدم المرأة اكثر انبساطاً واقل تحدباً من قدم الرجل ( دلوني ) وذلك يدلُّ على الانحطاط . وذوات الغنج والدلال يحاولنَ اخفاء ذلك بالاحذية المصنعة ذات الكعب المتطاول

وصوت المرأة أعلى من صوت الرجل . وكذلك اصوات اناث الحيوانات أعلى من أصوات ذكورها

وعضل الذكر اغلظ وأشدُّ من عضل الانثى كما في الحيوانات الوحشية والاهلية . وقوَّة المرأة من سن ٢٥ الى ٣٠ مقاسة بالدينامومتر ثلثا قوة الرجل في هذا السن. وحركاته أضبط من حركاتها ولهذا يفوقها هو ولا تدركه هي في فني الموسيقى والتصوير

وجمجمة الرجل اكبر من جمجمة المرأة ( بروكا والجمهور ) وسعتها في الرجل الابيض ١٤٤٦ سنتيمتراً مكعباً وفي امرأته ١٢٢٦ ( هُشك ) . والجمجمة اقلُّ ارتفاعاً واطول في المرأة منها في الرجل ( بروكا )

ودماغ الذكر اثقل من دماغ الانثى . فدماغ ذكر الكورلاَّ وهو نوع من القرود يزن ٥٤٠ غراماً ودماغ انثاه ٤٧٠ ومعدَّل وزن دماغ الرجل ١٣٢٣ غراماً والمرأة ١٢١٠ والفرق ١١٣ غراماً ( بروكا ) ولا يحمل هذا الفرق على صغر قد المرأة بالنسبة الى الرجل فان قامة المرأة بالنسبة الى الرجل هي كنسبة ٩٢٧ الى ١٠٠٠ وأما وزن دماغهما فهو كنسبة ٩٠٩ الى ١٠٠٠

وباجماع الانثروبولوجيين مقدم الدماغ الذي هو مقرُّ القوى العاقلة الرفيعة اصغر في المرأة منهُ في الرجل سواء هذّبا او كانا على الفطرة وهذا الفرق ٥٤ سنتيمتراً مكعباً راجحة من جانب الرجل ( هشك ) . ومؤخر الدماغ الذي فيهِ مركز العواطف اكبر في

ويستفاد من هذا ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوانات المنحطة في سلم النشوء وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوانات المرتقية . وسنبين اوجه الامتياز . وهنا الطريق وعر والمسالك صعب فأرجوكم ان تتبعوني فيهِ متزوّدين جانباً من الصبر

ففي الطيور والحيوانات اللبونة التغذية اقوى في الذكر منها في الانثى والدم أشدّ وفيهِ من الكريات الحمر الصالحة للتغذية اكثر مما فيها ومن الكريات البيض القليلة الصلاحية لها أقل ( كوينكود وكرنيلوف ) . وفي المليمتر المكعب من دم الرجل مليون من الكريات الحمر اكثر مما في دم المرأة ( ملاسز )

* * *

والرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها أنهم منهُ اي انها تشره فيهِ اكثر منهُ . والتنفس أقوى في الذكر منهُ في الانثى واذا تساوى الرجل والمرأة في القد فتسع رئتهُ من الهواء نحو نصف لتر أكثر من رئتها . وهو يتناول من الاكسيجين المطهر للدم اكثر منها وان كانت تتنفس اكثر منهُ وتزيده نفساً واحداً في الدقيقة من سن ١٥ الى سن ٥٠ ( كواتلت ) . وهو يفرز من الحامض الكربونيك المتحصل من احتراق الانسجة اكثر منها في جميع الاسنان ( اندزال وغفرّت ) . وحرارتهُ اكثر من حرارتها وكذلك حرارة الديك بالنسبة الى الدجاجة

وقوّة ضغط الدم اعظم في الذكر منها في الانثى وانما نبضهُ ابطأ من نبضها والفرق من ١٠ الى ١٥ نبضة في الدقيقة بين الرجل والمرأة و١٨ بين الاسد واللبوة و١٠ نبضات بين الثور والبقرة و١٢ نبضة بين الكبش والشاة

وعظام المرأة اخف من عظام الرجل. وفي عظامهِ من المواد الترابية اكثر ومن المواد الحيوانية أقلّ ومن كربونات الكلس اكثر ومن فصفاتهِ اقل مما في عظامها ( ملن ادوار )

والرجل يستعمل يمناه اكثر من المرأة والمرأة تستعمل يسراها أكثر من الرجل ( دلوني ) . ومنكبها الايسر اعظم من الايمن بخلاف الرجل كما في فروع البشر السفلى ( هرتين وليفون ) والترقوة بالنسبة الى العضد اطول فيها منها فيهِ ( بروكا ) كما انها اطول في السود منها في البيض

ولجوها من غير بابها ولذلك رأيت ان اقرعها من الباب الذي يُدخل منهُ وانحوها من الوجه الذي يختلف اليه

***

ذهبت طائفة من اهل النظر الى ان المرأة مساوية للرجل في العقل . وفي اعتقادنا ان المبحث طبيعيٌّ محض اعني انهُ من مباحث علم الحيوان المعروف بالزوولوجيا او بالحري من مباحث علم الانسان الذي هو فرع منهُ والمعروف بالانثروبولوجيا ولا يصح ان ينظر اليهِ من غير هذا الوجه او يقطع فيه حكم بدونهِ . والانثروبولوجيا لا كما يفهمهُ المتقدمون علم اقرب الى النظر والاَّ اتسع بنا مجال القول وتهنا في فيافيه ووقعنا في بلبال لا يجمعنا فيهِ سوى فوضى الاختلاف وخرجنا منهُ كما خرجنا اليهِ . وربما تشعبت المسألة دوننا الى فروع كثيرة افضى بنا الولوج فيها الى الاعراض عنها والتوغل في امور جدلية لا طائل تحتها كما هو دأب الذين لا يستندون في بحثهم الى اساس متين مرشد لبرهان المستطلع كابح لجماح المشطّ . ولكن كما يفهمهُ المتأخرون علم يبحث فيهِ عن الانسان من حيث كونهُ حيوانًا وانسانًا معًا في تركيبه وقواه وافعاله فمساق الكلام على هذا المنهج يسهل علينا فهمهُ ويقينا فيه عثرة الشطط فلا نرتفع بهِ محلقين الى « لا أوج » ولا نهبط بهِ سافلين الى « لا قرار » بل نضعهُ في مقامهِ الطبيعي

***

واولاً ننظر اليهِ في الانواع اي انواع الحيوان المختلفة . فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشدُّ من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساوية له في ما كان بينهما وذلك قاعدة مطّردة الا في ماندر والنادر لا يعتدُّ بهِ . فانثى النحل والزنابير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات اشدُّ من الذكر (١) وانثى الطير والحيوانات اللبونة وسائر ذوات الفقر العالية اضعف منهُ غالبًا .

(١) وشاهدنا المقتلة التى تنتشب في قفران النحل اي جماعاتها بين الاناث والذكور والتي تدور فيها الدائرة على الذكور لضعفها عن مقاومة الاناث . وهذه المقتلة البربرية على جانب من الحكمة والاقتصاد لانها تحصل من شهر حزيران الى شهر آب من كل سنة عندما لا يعود للذكور فائدة ويصير لوجودها ضرر وهو اكل جنى النحل . والحكمة لا تعرف الرفق ولا تشفق خلافاً لما يظن بل كثيراً ما تقضي بتضحية البعض حفظاً لحياة الجماهير كما هو شأن السياسيين ايضاً في الاجتماع البشري

# المقالة الحادية عشرة

## المرأة والرجل وهل يتساويان (١)

مسألة كثر تحدُّث الخاصة بها وذهبوا فيها رأيين متضادين. وطالب القائل بتساويهما بحقوق المرأة المرتّبة على هذا التساوي والتي اهتضمها الرجل في زعمهِ من قانون البشرية صلفاً وعتوًّا او كما تقول المرأة لانهُ هو الذي سنَّ هـذا القانون فآثر نفسهُ فيهِ استبداداً حتى انكر عليهـا النفس التي يفتخر بها على سائر المخلوقات . وانكر هذا الحق من ذهب ضد مذهبهِ ونسب دعواه الى غيرة اعماها الهوى ورأي اضلَّهُ الوهم. ولقد شحذ المتباحثون في المسألة قرائح امضى من القواضب وجرَّدوا ألسنةً احـدَّ من الاسنة وبروا لها اقلاماً اقوم من قدود الهيف اذا اخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعناتٍ اوقع من لحاظهنَّ اذا رنّت سهامها في القلوب . وتجاروا في مضمارها تجاري خيل الطراد في يوم الوغى . فمن آخذٍ بناصر المرأة ارتفع بها الى اوج البشرية وقال ما هي بشرٌ ان هي الاَّ ملك كريم ومن متحاملٍ عليها انحطَّ بها الى حضيض البهيمية وقال ان هي الاَّ متاعٌ خُلق للرجل وليست بشراً سوياً . وكلاهما تجاذب في القول طرفي الافراط والتفريط وادعى نصر الحق وما اتبع في نصرهِ الا الهوى

ولم يفت نبهاء قومنا جولة في حومة هذا المجال فقد سمعتموهم في هذه الجمعية يتباحثون ويتناظرون مستمطرين دراري المعاني من سماء الالفاظ حتى كدنَ يلقطنَ باليد . وشهدتم مواقع نزالهم في حلبة المقتطف الاغر وغيره من الجرائد الوطنية ورأيتم كيف ان هذه الحرب قد اتقدت نارها في قلوبهم وحمي أُوارها في رؤوسهم ونعم المرام . الاَّ انهُ لا يؤاخذني كماة هذه الحرب وفرسانها اذا قلت انهم جالوا بنا الى غير محسم نزاع ووقفوا بنا على غير موقف هـدًى حتى تخيل للقارىء والسامع ان المسألة ككثير من المسائل الخلافية سلسلة لا تنتهي حلقاتها ودور لا يعرف طرفاه وما ذلك في اعتقادي الاَّ لانهم

(١) خطبة تليت في جمعية الاعتدال بالقاهرة ونشرت في المجلد الحادي عشر للمقتطف سنة ١٨٨٦

ولعـل القيصر يمزح او هو يمتحن عقول الناس وخصوصاً اصحاب الجرائد الذين يتهافتون على كل كلمة تسقط من افواه الملوك تهـافت الجياع على القصاع ويستمسكون بها كانها الدر والجوهر مثبتين انهم كسائر الناس ينظرون الى من قال لا الى المقال ولا يصح ان يكون القيصر قد قصد غير ذلك او ما يماثله مع بقاء احترامنا لمداركه لان مثل هذا القول ينقض ناموساً طبيعياً لا يستطاع نقضه ولو شرع فيه قيصر يحكم على الملايين من البشر لانهُ ناموس يحكم على ما هو اعظم واوسع من حكمه يحكم على الطبيعة من جماد ونبات وحيوان ألا وهو ناموس تنازع البقاء ويخطىء من يظن ان اعـداد السلاح والتأهب للنزال والكفاح مضر بالهيئة الاجتماعية موقف لنجاحها بل هو بالضد من ذلك موجب لارتقائها فناموس تنازع البقاء في الطبيعة هو قاعدة ناموس النشوء والارتقاء وكلما قلّ التنازع وقفت حركة الارتقاء بل دار دولابها الى التقهقر والتاريخ الطبيعي بل تاريخ المجتمعات البشرية شاهد عدل على ذلك ألا ترى ان الامم التي صرفت قواها عن استنباط وسائل الدفاع كيف وقفت حركتها وقلت اختراعاتهـا وضعفت مصنوعاتها وطمست علومها وساد الجهل عليها حتى حل بها القضاء بحكم تنازع البقاء ومن ينكر ان الاستعداد للحرب منذ حرب السبعين قـد بلغ مبلغاً لم يسبق له مثيل في التاريخ ومن ينكر مع ذلك ان تقدم الهيئة الاجتماعية في هذه السنين القليـلة في العلوم والصنائع والشرائع يفوق ما حصل الانسان على ما يضاهيه في قرون كثيرة فطلب نزع السلاح مخالف للنظام الطبيعي من جهة وموقف لحركة الارتقاء من جهـة اخرى ولعل قيصر الروس حسد امبراطور الالمان على نيل شهرته بالشدة فاراد ان يباريه في الحصول على هذه الشهرة باللين فطلب للناس عصراً لا يروى الا عن تخيلات المتقشفين واحلام الزاهدين

للجري في هذا المضمار فان اقبلت قابلتها بالترحاب وان ادبرت اوصدت وراءها الباب ولا اكلفك ان تقبل كلامي كالنقد في اليد اتناول تارة البحث في الحقائق قرِّرت ام لم تقرَّر وطوراً اخوض عباب الاحلام احلام اليقظة واحلام المنام ولو كانت دون حلم القيصر مقاماً فقد جاء في كشكول ارباب السياسة ان احلام الملوك ملوك الاحلام وانا بعيد جداً عن هذا المقام

وكأني بالقيصر يدعو طوائف الحيوان من كل شرفاء ولود وصماء بيوض للاجتماع في مؤتمر تتفق فيــه على نزع سلاحها فيقلم الاسد مخالبه كما تقلم السيدة اظفارها ويكسر الخنزير انيابه حتى اذا افتر يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برَد ويقص الفيل خرطومــه ائلا يبقى كأنف ابن حرب ويتخلى كل واحد عما خصتهُ بهِ الطبيعة من سلاح يذود به عن حوضه فكأنهُ يقول للانسان ضع حداً لقوى عقلك لتقف عن استنباط الوسائل التي هي عنوان قوتك وضمان استقلالك ولا تغتر بقول الشاعر

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يضرَّس بانياب ويوطأ بمنسم

فان مثل هذا القول حديث خرافة اليوم وتنازل عن مطامعك وارض بما انت فيه صغيراً فقيراً فصغير فقير وغنياً كبيراً فغنيٌّ كبير فليرض كل واحد بحالته ولا يطلب الخروج عنها . ولو اصاب واضع منشور نزع السلاح لخفض من استبداده ودعا الى ذلك اخوانه في المعمور وبدأ باصلاح بلاده ورد من قفاره الشاسعة الافاً من النفوس واستخدمها في المنافع العمومية عوضاً عن قطعها من الهيئة الاجتماعية لذنوب سببها جور حكومة لم تعرف للجمهور حقاً تطالبها بالعدل فتقول عدلك ظلم لي وتطلب منها نشر العلم فتقول لك جهلك اضمن لحقوقي فكيف تريد مني ان اتنازل عن هذه الحقوق الموروثة التي تجعلك انت لي وانت تريد ان اكون انا لك اتجهل اني أنا الكل وفي الكل الست انا ظل الله على الارض فان مررت بي فلا ترفع نظرك اليَّ بل اخفض رأسك واضرب بجبينك موطىء قدمي وارفع عجزك فان بذلك احترام الملوك وان خالفت هذه الفروض الواجبة لي عليك وطالبتني بحقوق لا اعترف لك بها فان هناك قفاراً شاسعة تعلمك الادب هذا هو نظام تلك الحكومة التي تطلب اليوم نزع السلاح

على القرطاس اصبح كأنه سيف بطل ام درمان الذي اثبت للناس حقيقة كبرى طبّل العالم لها وزمر ألا وهي ان الحضارة ارقى من البداوة والعلم افضل من الجهل وان الرجل المدجج بالسلاح اقوى من الاعزل فاسترد عن مقدرة ما اضاعوه لا عن عجز وانما هي المصلحة تؤتى من ابوابها

وقد ذكر اناس تغلب عليهم الشراسة اذا حملوا العصا ويبالغون في الكياسة اذا لبسوا القفّاز ولعل هذا هو السبب الذي لاجله لم احمل عصا في عمري وانا اكره لبس القفاز لا لاني اريد ان ابقى بين السكّر والحنظل

لا تكن سكراً فتأكلك النا س ولا حنظلاً تذاق فترمى (١)

بل لاني اعتقد فيه عدم الصحة واقل اضراره حبس اليد وحبس البخار الجلدي وانا اكره كل تقييد . ولعل هذا الذي حمل القيصر ايضاً على اصدار منشوره طالباً نزع السلاح يريد بذلك ان يعجل مجيء الدور الثالث من ادوار حكم العالم اذ يؤثر عن اهل التثليث انهم يعتقدون ان العالم حكمه اولاً الاب بالجبروت ثم الابن باللين وسيأتي عصر يحكم فيه الروح القدس بالرحمة

أخط كل ذلك غير مقاوم ما بي من الكسل والملل أو مجاهد في سبيل العمل كاني صرت من اهل التمني لا احب ان القي دلوي في الدلاء خوفاً من ان يجيء بحمأة وقليل ماء وانا اكره التقتير ولو مع اليسر وافضل عليه البذل ولو مع العسر انام على القرطاس حتى يجف الحبر على القلم ان لم يأت الفكر عفواً ولا ابذل اقل عناء لحث مطايا الافكار

---

(١) وقد طرأ على الكاتب منذ سنتين ما اعجزه في يديه ورجليه مدة من الزمان الجأه الى حمل العصا ولبس القفاز فقال

مضى الزمن الذي قد كنت فيه — اقول كأنني في الناس عنتر
اخاف الشر من آلات شر — فلم احمل عصاً كي لا اغرّر
وما قيدت كره القيد كني — بقفاز الفتى الحلو المغندر
فصرت اذا مشيت وقد رأتني — كلاب الحي مثل الاسد تزأر
تخاف يداي من خطرات ريح — ورجلي ان مشت بالظل تعثر
فقفازي حفاظ يدي ولولا — عصاي اخاف ان الظهر يكسر
وما انا حنظل بعصاي يخشى — ولا انا في حفاظ يديّ سكر

اعماق الجحيم . في طلب نفس صديق لهم من الناس ويصعدون بها الى النعيم . آلهة صوّرهم الناس على صورتهم وبكل ما هم اليه يميلون . وجعلوهم نظيرهم طوائف ومراتب بعضهم فوق بعض ولهم رئيس عظيم له يخضعون. واليه يرجعون. ذلك والناس في ضلالهم يعمهون . واذا بصوت زاجر خرج من وسط هذه الظلمات ونطق بهذه الكلمات [1]

أربًّا واحداً ام الف رب ادين اذا تقسمت الامورُ
تركت اللاتَ والعزَّى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصيرُ

ذلك كان نشوء الانسان في الاوهام . قبل مجيء الثلاثة العظام . موسى اليهودية وعيسى النصرانية ومحمد الاسلام

## المقالة العاشرة

### كشكول طبيب [2]

اودع هذا الكشكول كل ما يدور في الخاطر من منظور وغير منظور ومنقول ومعقول غير متعمد ترتيباً او ضامن صواباً او متكلف عناء لانتقاء الالفاظ او الابداع في المعاني أو التأنق في الانشاء غير فاتح كتاباً او مسهد جفناً او جاهد فكراً او مختلس وقتاً [3] او مصلح خطأ او متوخ حقيقة مدفوعاً الى الورق عن غير قصد ماداً ساعدي الى الدواة عن غير جهد وممسكاً القلم بيدي عن غير سابق علم بما اخط محققاً ما يؤثر عن العلماء والعلماء كالشعراء قد يصدقون وقد لا يصدقون من ان الوظيفة تكوّن العضو فقد روي عن كثيرين من الكتاب انهم لا يستطيعون ابداء فكر او انشاء سطر ولا يعرفون ماذا يكتبون ولعلي واحد منهم — حتى يمسكوا القلم بيدهم فيقبضون عليه وهو مثلم كقناة مهدي السودان فاذا هزوه

(١) اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين

(٢) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ على اثر مشروع القيصر في نزع السلاح وعلى اثر موقعة ام درمان وانتصار كتشنر سردار الجيش المصري (٣) مخالفة للعادة القبيحة المشهورة

عبدوا اباً كريماً . او ملكاً عاتياً او حليماً . او حيواناً نافعاً او شريراً . او شجرة في العراء . يستظلّ بها من الرمضاء . او بئراً يردونها في الصحراء . او حجراً اسود سقط من العلاء . او نهراً يروي رياضهم . او ناراً يصطلون بهـا . او طبائع تميل اليها شهواتهم . باتوا في سبيلها متهالكين . عبدوا ذلك كله دفعاً لمكروه . واستجلاباً لمنفعـة . معبودات تعدادها تعداد الكائنات. فانواع المنافع فاصناف القوات. وما كانوا الا اوهامهم يعبدون

احتجبت عنهم آلهتهم فقالوا صعدت الى السماء . فقصدوا الجبال الشاهقة يناجونها منها . فبرزت لهم الشموس الساطعة . والكواكب اللامعـة . فانبهرت ابصارهم من جمالها وهم اليها ينظرون . فقالوا ان هي الا آلهتنا او مساكن آلهتنا نعبدها او نعبدها فيها . وما كان اباؤنا على هدى في ما كانوا يعبدون (١)

غابت عنهم معبوداتهم فطلبوها من عالم الغيب الى عالم الشهادة. فاقاموا لها التماثيل والانصاب يذكرونها بها في المصائب. ومازجتها الاوهام . فنحتوا منها الاصنام. يقصدونها في المهمات . ويستنجدونها في الملمات . لقد ضلوا في ما كانوا يقصدون ويستنجدون

وقفوا عند ذلك زماناً طويلاً . الوف السنين تعدُّ فيه كأمس الدابر . والافكار في اضطراب وحيرة . والاعتقادات متناقضة غير متوافقـة . مقطوعة موصولة غير متناسقة . والعالم ميدان ترمح فيهِ الارواح والاشباح . والصور المريعة والخيالات الشنيعة . فانفتح الباب واسعاً للسحر والسحرة والشعوذة والمشعوذين والرقي والطلاسم . كلٌّ يجد في ذلك مصلحة له : المضلَّلون والمضلّلون . اما هؤلاء فاهل مكرٍ . واما الاولون فاغبياء . هؤلاء ليسوا على هدى من علمهم وما كان اولئك بمخطئين

آلهة يرضون ويغضبون . ويحبون ويكرهون . ويعشقون ويتزوجون . ويولدون ويلدون . ويتحالفون ويتحاربون . يسكنون الجبـال . ويتردّدون على الغياض . ولهم مواقع تذكر مع البشر يهيجون البحار . ويثيرون الرياح ويحبسون الامطار . ينزلون الى

(١) فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الآفلين • فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكوننَّ من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون

وعبيداً يخدمونهم في الحياة الاخرى واعدوا لهم البلايا رؤوسها في الولايا يركبونها يوم يحشرون

من الناس القوم الاشرار . ومنهم القوم الاخيار . فانتشرت ارواحهم في الارض كل يعمل على شاكلته . فخافوا الارواح الشريرة ولاذوا بالارواح الصالحة يتعوذون بكل ملك كريم من كل شيطان رجيم

اباءنا كنا بررة وانتم احياء . وما نعقكم امواتاً . فما نحرمكم من كل ما كنتم بهِ تتمتعون . فقد اعددنا لكم طعاماً مما كنتم تأكلون . وشراباً مما كنتم تشربون . وزودناكم كل ما كنتم اليه تحتاجون . وحنطنا اجسادكم تحنيطاً واعددنا لها القبور . لتحفظ الى يوم النشور. وقد زيناها بالزهور. لعلكم عنا ترضون وايانا تذكرون

ذكرى لم يكن يقصد بها سوى الاكرام . ثم استرضاء خوفاً من زوال منفعة ثم تجسم الوهم حتى ضاع الرشد في هوى حب النفس فقاموا يعبدون ما يجدون

حيواناً يجاور القبور . او نباتاً ينبت على هذا المكان المأنوس والمهجور . قد يتعالى وتنزل اصوله الى باطن القبر المعمور . فلعل روح الحبيب. انتقلت الى هذا الجار القريب. وما كانوا الا واهمين في ما كانوا يزعمون

تناسخٌ تمسخ بهِ ارواح الاشرار . وتترقى بهِ ارواح الاخيار . خالط الناس فيه جميع اصناف الكائنات . حتى اختلط عليهم أبشر ما يرون في صورة حيوان وجماد ونبات . وباتوا في امورهم حيارى لا يدرون

وهموا ان الحياة الاخرى كالحياة الدنيا. مساكن الموتى فيها انما هي مساكن الاحياء او هي قريبة منها عنها يرحلون . وعليها يترددون . ثم لمع نور ضئيل في ظلمات الاوهام فابعدوها الى الغابات والحراج فالبراري فالجبال الشاهقة حيث صارت اقرب الى الغيوم والارتفاع منها الى السماء. بعد ان كانوا قد هبطوا بها الى اعماق الجحيم . قبل ان استقلَّ بهِ الشياطين وفصلوه عن النعيم . فاكرموها في الحيوان والاشجار فالحجار فالقفار . حتى وقفت بهم الآمال . على اعالي الجبال . لما رأوا فيها من المهابة والجلال . وهم يهيمون في في ما راحوا عنهُ يبحثون

# المقالة التاسعة

## رأى وقال (١)

كل شيء في الكون سلسلة : العالم المادي والعالم المعنوي على حد سوى . وكما نشأت الاحياء الراقية من احياء ادنى وهي من مواد الطبيعـة هكذا نشأت الاديان من الاعتقادات وهذه من الخرافات وهذه من قلة تعرّف الانسان لظواهر الاشياء التي حوله وتوهمه فيها

آيات بينات . وحقائق باهرات . ضلالٌ استمسك بهِ الناس كأنه العروة الوثقى كل حزب بما لديهم فرحون . وهدى اذا ذكروه فانما هم يهمسون

اناس يجوعون ويعطشون ويموتون . نظروا الى ما حولهم واذا الارض تخرج لهم ما يأكلون مريئاً ويشربون هنيئاً . فقالوا أُمنا ارحمينا ولا تحبسي عنا قوتاً يغذّينـا وماءً يروينا . وارتفعوا الى ما فوق واذا البرق يكاد يخطف ابصارهم والرعد يصم اذانهم فانخلعت قلوبهم من هول ما يبصرون ويسمعون . فاغمضوا جفونهم وجعلوا اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت وخروا خاشعين

اوهامٌ اصلها احلام . تطوف بالناس وهم نيام . فينتقلون وهم في مكانهم مقيمون. فقالوا الانسان اثنان. جسمٌ مقيم . وروحٌ يهيم . يفارق ثم يعود. ولا ينفك الا اذا حل الموت الزؤام . فينطلق في منفسح الوجود . يذكر المعاهد والعهود . وما ذلك الاَّ ذكرى ما كانوا يعلمون لو كانوا يفقهون

رأى الاوائل انهم يرقدون ثم يستيقظون . ويغمى عليهم ثم يفيقون . وقد يدفنون كاموات فيقومون . فداخلهم ان الموت رقـدة ثم يبعثون بعثاً تحيا به اجسادهم وتعود اليها ارواحهم . ذلك خير لهم من موت يكرهون . فدفنوا معهم كل ما كانوا يحتاجون اليهِ في الحياة الدنيا من طعام وشراب ولباس ومتاع وسلاح بهِ عن حياضهم يذودون .

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

نافخ نار فما الذي يضرك اذا كان دليلك الحس ودليله الخيال ان تجامل من حولك من الذين يتدينون بالنصرانيـة اخوانك في الوطن واللسان اللذين لم يبقَ لهم من اخوان في الدين الاَّ اربعمائة وخمسون مليونًا فقط ! نعم اقول لك ما الذي يضرك اذا لم تفاجيء القوم جيرانك بأن ليس بيدهم الا دين يخرب الديار ويفني البشر !

* * *

بقي شيء واحد مما احببت الكلام فيهِ وهو انه جاء في عرض كلام الدكتور ان الزواج والطلاق ليسا في الاسلام والنصرانية من المسائل التي يقيد بها الاجتماع وقد قال صاحب الرد بان ذلك صحيح في الاسلام دون المسيحية ولولا انني ما وصلت الى هـذا المقام حتى مللت لشدة كراهتي الجدل في الدين لاسهبت في هذا الموضوع ايضاً ولكنني اعدل عن ذلك الى توجيه نظر الكاتب الى كتاب الوجود ففيه صحائف الامم وهناك يجدان لاجتماعها سننًا قد راعتها الديانات كلها فالمسيحية جاءت في هذه الابواب بوعظ ونصائح ولم تجيء بشرع حاتم يجب تأييده على الملك والحاكم فهذا سر اختلاف طوائفهم في هذه الابواب قديماً وحديثًا فمن تمسك بهذه النصائح من ملوكهم وشعوبهم بنوا عليها قوانينهم في هذه المسائل ومن رأى مندوحة في تفسيرها وتأويلها وجواز مخالفتها اجتماعياً تراهم توسعوا فيهـا على قدر ما آنسوا ان العادات تساعدهم . وبهذا البيان تعرف صحة قول الدكتور

وبعد فانني قد عملت ما عليَّ من الارشاد الى وجوب التفاهم وآداب المناظرة ومراعاة الاوقات فيهـا وارجو بعد ذلك امرين . الاول من حضرات الكتاب المسلمين ارجوهم اذا مدحوا دينهم انـ لا يذموا دين غيرهم . والثاني من حضرات الادباء المسيحيين ارجوهم ان لا يظنوا الدين الاسلامي هو الذي يأمر بذم غيره من الديانات بل هو يأمر بالحكمة والموعظة الحسنة . انتهى ببعض اختصار

العالم الغيبي مع العقل . اذا كنت ترجو تلك الجنان وتخشى تلك النيران فان كنت لا ترجو ولا تخشى ما هنالك فاياك ثم اياك ان تدعي الدين فانك كاذب بشهادة أهل كل الملل اجمعين . ها قد ابلغتك الحقيقة والله يعلم اني لك من الناصحين

فاذا علمت ذلك يا صاحب العقـل من المسلمين فاعلم ان المسيحي يسلم الى الله في ايمانهِ بعالم الغيب تصـديقاً لمتى ومرقس ويوحنا وبولس . واذا علمت ذلك يا صاحب العقل من النصارى فاعلم ان المسلم يسلم الى الله في ايمانه بعالم الغيب تصديقاً لمحمد صلى الله عليهِ وسلم واذا علمتما انه لم يسلم احدكما في هذين الايمانين المتشابهين بمجرد عقله فاعترفا بانكما متشابهان في سبب الايمان وتصالحا فانكما في هذا الباب اخوان

وأزيدك ايها المسلم بياناً في ان النصراني يؤمن بالله واحد فاقول ان القرآن المجيد لم يسم النصارى مشركين كما لا يخفى بل سماهم اهل كتاب واجاز أكل ذبائحهم والتزوج بنسائهم ولم يجز هذا ولا هذا في الذين سماهم مشركين وقد اشتبه الامر على بعض العلماء من الاقدمين فسأل عالماً آخر كيف لا يكون النصراني مشركاً وهو يقول ان الله ثالث ثلاثة فقال له ان الله الذي لم يسمه مشركاً أعلم مني ومنك

هذا ما رأيتهُ واجباً من بعد ان رأيت وسمعت كلمات القاصرين في هذه المباحث العميقة لدى المؤمنين بالغيب والعقيمة لدى الذين لا يريدون الا ما يشهد بهِ الحس أو العقل بسهولة فان اقنع ونفع فنعما ذاك والا فليتجادل القوم ما شاؤا ان يتجادلوا حتى تطلع الشمس من مغربها أليس كذلك ؟

***

وجاء في عرض كلام الدكتور انه جعل الاديان بمثابة واحدة من حيث علاقتها بالعمران وتأثيرها في الاجتماع فانكر ذلك عليه صاحب الرد . وقـد طال المقال فضاق المقام عن الاسهاب في هـذا الموضوع فلذا اكتفي بكلمة واحدة وهي ان صاحبنا يسلم معنا ومع الدكتور بأن ديننا الاسلامي لا ينافي العمران فافرض انك لا ترى ديناً آخر له هذه المزية وان ديانات الاقوام الآخرين قد خربت ديارهم وقطعت نسلهم فلذلك لم يبقَ في الصين من نسمة ولا حجر على حجر ولم يبقَ في اوربا واميركا من ديار ولا

مريم كما جاء في القرآن المجيد بنص هذه الآية « ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا »

النصراني يقول الاله واحد كما يقول المسلم ثم يقول النصراني ان عيسى كلمة الله وروح الله وهكذا يقول المسلم ايضاً والنصراني يقول ان مريم عذراء حملت بعيسى الذي هو روح الله وكلمة الله من غير ان يمسها بشر وهكذا يقول المسلم أيضاً فانا اسأل اخواني المسلمين ان يبينوا لي الفرق اولاً بين هذه التعابير وان يفهموها جيداً قبل ان يجادلوا النصارى على التعبير بالآب والابن والروح القدس وقبل ان يسألوا عن الفلسفة التي تبين ان هذه الكلمات الثلاث تدل على حقيقة واحدة ظهرت في ثلاثة مظاهر . وما نار موسى عن القاري ببعيد

اني لاعلم ان هذا المبحث سيستغربه اخواني المسلمون وربما جلب فيَّ الظنون ولكني لا ابالي بظنونهم في سبيل حقيقة مهمة اكره ان يجهلها اخواني وان يجهلها النصارى أيضاً وهي ان ديني الفريقين مبني على الايمان بالغيب (١) وعلى تصديق الرسل (٢) بما جاؤوا بهِ من اخبار الملائكة والشياطين والجن واول الخليقة وخبر آدم وأخبار رسل الله وكتبه (٣) التي بعثها اليهم والغرائب التي حدثت باذن الله نحو ولادة عيسى ثم صفات الله الذي ليس بمادة مثل انه متكلم وقد كلم موسى وسميع يسمع الذي يدعوه وبصير يكره كشف عورة الانسان في خلوته لانه يراها ثم صفات الجنة موعد المتقين وما فيها من العنب والرمان والنساء الحسان والولدان وصفات النار موعد الكافرين وما فيها من آلات العذاب وصنوف العقاب ابد الآبدين ودهر الداهرين على جرم هو عدم تصديق الانسان بما لم يدركه عقله

فيا اخا العقل ومن يريد كل شيء من الدين بالعقل اياك ثم اياك من الوقوف في

(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب • ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون (٢) والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون • (الاية) (٣) قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون (الاية)

ولولا ان كان قبيحاً عدم وجود من يدعو بيننا الى اسباب الوئام و ينكر عليّ اسباب الخصام بقـدر الامكان لما وجدنا من اللائق ان نأتي ما نكره من الخوض والمماحكة في هذه المسائل ولكن تلك الضرورة من الدعوة الى الوئام هي التي حملتنا على تذكير حضرة الاديب كامل السويفي ببعض كلمات

***

رأيت في كلام حضرته مواضع كثيرة جديرة بالاخذ والرد معهُ ولكن ليس هـذا من مقاصدنا ولا ندخل فيه وانما نقتصر هنا على سبعة مواضع قد رأينا التذكير فيها اوجب والحاجة الى الايضاح فيها أمسّ وادعى . جاء في عرض كلام الدكتور ما يفيد ان الدين المسيحي دين توحيد كالدين الاسلامي فانكر صاحب الرد وقال ان دين النصارى دين تعديد لا دين توحيد فاعلم ايها الاديب ان النصراني يبتدئ عقيدته بقوله « اؤمن باله واحد الخ » فالاله واحد عندهم كما هو عندنا وأما ما نسمعه في صفات المسيح ابن مريم فانها فلسفة لا نعرفها نحن ولا يعرفونها هم وقد حملهم عليها بعض النصوص التي هي عندهم مقدسة وكل دين لا يخلو من امور تحمل اهله على فلسفة كان في غنى عنها لولاها

وقد جهل اكثر كتاب المسلمين عقيدة النصارى في الاله الواحد الذي ليس بمادة كما جهل اكثر كتاب النصارى عقيدة المسلمين ولكن لظهور الصعوبة في فلسفة العقيدة النصرانية يقول النصارى ان في الدين شيئاً هو فوق العقل ويعدون ذلك من مفاخرهم في تدينهم فيظن المسلم انهم يريدون بقولهم فوق العقل انهُ غير معقول وليس هذا هو المراد بل المراد ان العقل لا يكاد يدركه وكان مثل هـذا القول شائعاً ومعروفاً عند المسلمين أيضاً ولكن بعض كتابهم في هـذه الايام الجديدة قاموا ينادون بأن الدين الاسلامي وحـده دين العقل ويفسرونه بان العقل يدرك كل شيء فيه ولسنا ندري كيف يدرك العقل امور العالم الغيبي مثل انهار اللبن والعسل التي في الجنة ومثل عالم الارواح المجردة وعالم الملائكة ولا نعرف كيف يستطيع اولئك العقلاء تفسير النار التي رآها موسى فلما أتاها نودي يا موسى اني انا الله فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . اي عقل يدرك حقيقة هذا النداء الذي سمعهُ موسى فخر صعقاً ، واي عقل يدرك حقيقة نفخ الله في فرج

عن دينهم لعلمهم بأن كرومر تخطى الحدود وأتى بما لا ينتظر من مثله فأحرج صدور اخوانهم ولكن احرجت هذه الضجة أيضاً صدور الذين يعتقدون ان الارتقاء انما هو بتربية العقول ومزاولة الشؤون الاجتماعية باستقلال افكار وان الديانات كلها سواء من جهة انها لا تضر بالاجتماع اذا كانت عقول اهلها مرتقية كما انها لا تنفع فيه اذا كانت عقول جماعاتها متدينة وشاهدهم على ذلك ان اهل دين واحد ارتقوا يوماً وانحطوا يوماً والاعتقاد لم يفارق قلوبهم والعبادة لم تبرح معابدهم و بيوتهم

هؤلاء قوم يحسنون الظن بالديانات ولا يرونها عوائق عن التقدم والتمدن وانما يرون أن تشيع اهل كل دين منها وتحاملهم على دين الآخرين قد احدث ويحدث فظائع من نتائج البغضاء والنفور فيودون لو ينتهي هذا التحامل والتجادل في الدين ويقولون اذا لم يمكن قطع حبال هذا الجدال فلا ينبغي ان تبقى منصوبة الا بأيدي فريق مخصوص لا يُمد بشيء البتة من القوى المادية فتتنازل الاقوال والاقوال وتنتهي على لا شيء الاحوال لانه لم يعهد ان الجدال افاد في تغيير المذاهب وانما تغيرها اسباب اخرى لسنا في صدد تفصيلها

ومن عرف الدكتور شبلي شميل كان ذلك حسبه ان يعرف مقصدهُ من المقالة التي كتبها في هذا الصدد ونشرها في المؤيد اي يعرف انه يرمي الى تفنيد الجدل والحث على خير العمل أما من لم يعرفهُ فربما ظن انه مسيحي كتب ينتصر لدينه بطريقة حبية

***

كان من جملة الذين لم يعرفوا هـذا الحكيم ولا قصده حضرة الكاتب محمد كامل السويفي الذي نشر يوم الخميس رداً على الدكتور فتذكرنا اذ قرأناه ان كرومر بتصديه للمفاضلة بين الدينين انما كان موقد نار . وان قومنا كلما خمدت هذه النار زادوها سعيراً . فان بعض الذين يكتبون الردود في هذا الموضوع يقابلون كرومر بمثل ما صنع وينسون انه ليس من الضروري اذا اخطأ سليم مثلاً بشتم ملة جرجس أن يخطيء جرجس بشتم ملة سليم وينسون ان للدين المسيحي اهلاً هم اخواننا في لساننا ووطننا تغيظهم لوائح التحامل على دينهم وروائح تفضيل غيره عليه

العمران بالتوفيق بينها و بين اصول الاديان بما ترآءى من الامكان وهل في مقالتنا الاولى غير ذلك حتى يقوم علينا المسيحيون يتهموننا في اننا تعرضنا للدين المسيحي والمسلمون يناقشوننا في المفاضلة بين الدينين انها لمصيبة

وقبل ان ننتهي من هذا البحث أريد ان اجاري حضرتهُ مجاراة كلية للوصول الى النتيجة المترتبة على كلامه والتي وقف عندها فانا اسلم له جدلاً « بأن العالم المسيحي كما يقول لم يرتقِ الا بعد احتكاكه بالعرب وان المسيحية عثرة في سبيل الارتقاء وان الاسلام هو موجد هـذه المدنية الباهرة » فقط يبقى عليه ان يقول لنا لماذا اذاً اتباع النصرانية ساروا في مضمار التمدن شوطاً بعيداً واتباع الاسلام وقفوا متقهقرين؟ فان قال ان الاسباب اجتماعية عدنا الى حيث افترقنا وكنت مصيباً ولعله لا يقول غير هـذا القول لئلا يجني حينئذٍ جنايتين على العمران وعلى الدين نفسه . ام هو يريد بهذه المغالطات التمويه حتى يبقى حجاب الجهل مسدولاً على عقول الناس ليبقوا كما في قوله « صم بكم عمي فهم لا يرجعون » اما نحن فنميل الى ما هو ادعى لمصلحة العمران من مثل قوله : ما جعل عليكم في الدين من حرج . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وهذا ينطبق كل الانطباق على ما رمينا اليه في مقالتنا الاولى انارة للاذهان لكي يعلم الجميع على السواء « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

***

نتشر هنا المقالة التى اشرنا اليها في هذا الرد والتي نشرت في المؤيد بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩٠٨ دعماً لمقالنا ولو انها ليست لنا لما فيها من الفائدة في هذا الموضوع حسما لهذه المسائل الخلافية التي يتذرع بها المتنطعون في الاديان لاثارة الفتن بينهم • وقد نشرت بتوقيع « محمد صادق الجيزاوي » وهو في علمنا اسم مستعار ولولا اننا لم نستأذن صاحبها لصرحنا باسمه الحقيقي وهو من خيرة علماء المسلمين وافاضلهم • وهذا نص هذه المقالة مع بعض حذف

## كلما خمدت زادوها سعيراً

من أجل كرومر قامت في هذه الايام ضجة دينية بين المسلمين والنصارى في هذه البلاد . فالمسلمون قد فرحوا اذ ظنوا انهم قد فازوا على كرومر بقولهم كما قال وصولتهم في التبشير والتنفير كما صال . والنصارى لم يجـدوا من الذوق ان يجادلوا في بعض ما سمعوه

على ان العمراني الذي يريد ان يجعل بحثه في العمران لتطبيق نواميسه على قول فلان وفلان او دين من الاديان انما مثله كمثل الذي يحاول ان يطبق المطبوع على الموضوع فيتسامح بما لا يجب ان يتسامح بهِ من المطبوع ويستمسك بما لا يجب ان يستمسك بهِ من كل موضوع ومشروع فيركب متن الضلال ويهيم في فيافي الخيال فينطق بما لا يفهمهُ سواه ولا يفهمه هو نفسه ويحسب انه أتى ببدائع الاعجاز في الاستعارة والمجاز فيجني على ذلك المشروع من حيث يظن انه يخدمه ويجني على العمران نفسه

أما نحن فننظر الى العمران ومرشدنا في نواميسه ذلك الكتاب البسيط المفتوح امام كل انسان والذي يستطيع ان يفهمهُ كل واحد اذا قرأه بامعان ألا وهو كتاب الطبيعة الذي هو اساس كل قياس صحيح اي اساس كل منطق سليم وبيان

على اني لا اعلم . كيف ان الدين الذي فيه مثل هاتين الآيتين :

حب قريبك كنفسك وحب الله فوق كل شيء — وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم » الجامعتين فيهما كل واجبات الانسان نحو ربه ونحو قريبه يجوز ان يقال فيهِ مثل قول اديبنا السويفي من انه دين شرك بالله ودين خراب في الدنيا ولا اناقشهُ في اللاهوت . ولعل له في علم الاقتصاد نظراً جديداً يخالف قولهم « الانسان مدني بالطبع » ويعلمنا ان « التكافل في العمران غير التكافؤ في قواه » فتعمر حينئذٍ الدنيا عنده بالتفريق والتخاذل والاكتفاء والانفراد والاستئثار فيتألف المجتمع بانفراط عقده — وما هي الا لآلئ منثورة — ويتقدم تقدماً سرطانياً متبارياً في مشي القهقرى حتى يبلغ ما بلغنا اليه في هيئتنا الحاضرة من الارتقاء الدركي ( وان شئت الا الموضة اليوم فالرقي ) الذي صارت سماؤنا فيه كسماء خيل المعرّيَ وهي تعبّ وصارت عقولنا فيهِ اضيق من دوائر جماجمنا ومرامي نظرنا اقرب من ارانب انوفنا منا . وهل قارئ كتب مثل هؤلاء الاساطين في العلم والادب والفلسفة الذين ذكرنا اسماءهم يجوز له — مع كل سعة هذا الاطلاع — ان يقف في فهم كلامهم على مثل هذا الاكتفاء وما هو لعمري لو درى الا مثل اكتفاء القارئ في قوله « ويل للمصلين » على ان غرضنا هنا ليس هذا فما باله يدفعنا للنظر في حقيقة الاديان والمفاضلة بينها ولم نقصد في كل ما كتبنا الا مصلحة

شيخ ( مليح بعد هالكبره جبة حمرا ) . ولو جاريته للزمني ان اجول معه جولة في قضايا كل دين وان نغرق كلانا والجمهور معنا في هذا البحر اللاَّقرار له الذي هو علم اللاهوت وعلم الكلام ( ولقد انصف العرب بتسميته بهذا الاسم ) وهـذا ما لم تصبُ نفسى اليه حتى اليوم . فلا نعلم حينئذٍ من اي مضيق نركب ولا في اي لج نخوض ولا على اي شط نحط ونقع في تيه نفقد معهُ خيط اريانا . وهذا ليس محله في هذا المقام مقام تمهيد العقبات الحائلة بين تقارب الامم و بينهم و بين ارتقائهم في العمران واني لاشكر لحضرة العالم المتبحر الفاضل الجيزاوي لانهُ كفاني الخوض في هذا البحث فأظهر جلياً بمقالته البديعة التي نشرت في المؤيد ما يصح ان يعتبر في الخلاف بين الدينين فصل الخطاب في هذا الباب عند ذوي الالباب

وأما استشهاده بمن ذكرهم من كبار الكتاب الاوروباويين ليثبت ان النصرانية أضرت بالاجتماع في اوروبا فقد قلناه في مقالتنا الاولى ولكننا لم نعتبر هـذا الضرر من جوهر الدين بل من الرؤساء من رجال الدين والحكام كما اننا لم نعتبر تقهقر الامم الاسلامية الاَّ لهذا السبب عينهِ . واعتبرنا نهوض النصرانية وارتقاءها هذا الارتقاء الباهر انما هو لنبذها العقائد التي أدخلوها على الدين وليست من جوهره حتى صار الدين عند القسم الكبير المتنور منهم عنـد المؤمن صلة القلب الى الله كما في قول شاعرنا الاديب نقولا أفندي رزق الله

انما الدين موعد واتفاق بين هذا الورى ورب البرية

وحتى صار عند غير المؤمن موضوع بحث اجتماعي بالنظر الى ما في مبادئه الاجتماعية من الموافقة للعمران وكثيرون يعجبون بهذه الموافقة فلا يجعلون البحث في حقائق الاديان سبباً للمنازعات الاجتماعية العقيمة تاركين لكل واحـد الحرية في ان يعبد ربه كما يريد ناظرين فيها الى تلك المباديء العمرانية التي تجعل مصلحة الانسان القريبة في دنياه اشتراكية بين افراده وأي دين لا يعلّم ذلك وهذا الذي نظرنا اليه في أصول الاديان فعظمناها تعظيماً لم يفقنا فيهِ باحث ديني مهما كان متحمساً في ايمانه فهل يجوز بعد ذلك أن ينحى علينا باننا غضضنا من دين لنصر آخر

الدنيا والاعراض عن شهواتها ولذاتها والعفة عن محارمها والرحمة على جميع الخلق والاجتناب عن الذنوب العشرة . قتل كل ذي روح . واستحلال اموال الناس . والزنا . والكذب . والنميمة . والبذاء . والشتم . وشناعة الالقاب . والسفه . والجحد لجزاء الآخرة انتهى وهي كما ترى اشبه شيء بالوصايا العشر عند النصارى

ولم تقتصر الاديان على اخذ الفضائل عن بعضها مما يعد من اصول الدين بل اخذت أيضاً بعض العقائد الدخيلة على الدين . فالبراهمة وهم اصحاب الفكرة كما يقول الشهرستاني لتميزهم عن البوذيين اصحاب المحسوس يعظمون امر الفكر ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمعقول فالصور من المحسوسات ترد عليه والحقائق من المعقولات ترد عليه ايضاً فهو مورد العامين من العالمين فيجتهدون كل الجهد حتى يصرفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضة البليغة والاجتهادات المجتهدة حتى اذا تجرد الفكر عن هذا العالم تجلى له ذلك العالم فربما يخبر عن مغيبات الاحوال وربما يقوى على حبس الامطار وربما يوقع الوهم على رجل حي فيقتله في الحال ولهذا كانت عادتهم اذا دهمهم أمر ان يجتمع اربعون رجلاً من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد في الاصابة فيتجلى لهم المهم الذي يهضمهم حمله وينذفع عنهم البلاء الملم الذي يكأدهم ثقله . انتهى . ألا ترى ان ذلك يشبه التصوف وحلقة الذكر الدخيلة على الاسلام

ولم ينتشر هذا الرد في المؤيد حتى قال بعضهم لمن كان معهُ حين اطلاعه عليه (قل للشميل انه يستأهل) وكأن اقل ما اراد بذلك اني وان كنت قد نظرت الى الحقيقة فلم أنظر الى طبائع القوم واستعدادهم وقال غيره ( جدح جوين من سويق غيره ) . يريد اني جنيت هذه الجناية على الدين المسيحي فكأني جدت من مال غير مالي فخاف على نصيبه منه ولا مسوغ له على هذا الخوف مني عليه

فكان حضرة الفاضل كامل السويفي لم يكتفِ باني جعلت مدار بحثي على اصول الاديان متجنباً البحث في الوحي والمفاضلة بين دين ودين والكلام على قضايا كل دين حتى يمكني التوفيق بين جوهر الاديان ومصلحة العمران كما قلت في اول مقالتي بل اراد ان يجرني للبحث معه في طبائع الاديان وحقائقها وان يلبسني اما قلنسوة راهب واما عمامة

المشاغل وضيق الوقت وقلة البضاعة » الى غير ذلك من كلام الكبر في التواضع ليبينوا للناس فضلهم وسرعة خاطرهم . ولو تدبروا الامر جيداً لعدلوا عن مثل هذا الكلام البارد ولعلموا ان الاسراع وعدم التأني لا يقيانهم ملاماً اذا اخطأوا ولا يكسبانهم زيادة فخر اذا اصابوا كما ان التدبر والتردد ليسا دليلاً على العي . وأما انا فالله يشهد والناس يشهدون أني ترددت كثيراً ولولا ان فوجئت من كل جهة ولولا خوفي ان ينصرف الجمهور بذلك عن فهم مقالتي على حقيقتها لما عمدت الى الرد واضطررت الى هذا البيان

ولقد اعجبني قول احد افاضل المسلمين في انتقاده على منتقدي اذ قال « لو قال قوله هذا في مقال وجهه الى سواك لربما كان له فيه وجه أما وقد قاله في وجهك فما وجهه فيهِ وأنت تدافع عن دينهِ » قلت لعله كبر عليه اني جعلت اصول دينه كأصول سواه فاعتبرني شر نصير . فدفع اليَّ كتاباً كان قد جاءني بهِ وقال خذ اقرأ فقرأت

« اعلم ان دين الله في كل الامم واحد لا تختلف اصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وامكنتها وانما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام الفرعية . وذكر الآية : « إنا أوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين الخ »[1]

والذي حملني على هذا الظن ذكره دين البراهمة في هذا المعرض وهو لا ينظر الى النصرانية باحسن من نظره اليه فهو يأبى ان يسلم بان اصول دينه كاصول دين سواه فاعلم يا صاحبي قبلت ام لم تقبل ان اصول الاديان المختصة بالعمران واحدة حتى في الاديان الاجتماعية . قلت الاديان الاجتماعية لانه يوجد دين يجوز ان يسمى كذلك ليس فيه شيء مما هو مصطلح عليه في سائر الاديان واساسه الادب والانسانية و بعبارة اخرى الفضيلة وهو دين بوذا الذي هو اكثر الاديان انتشاراً بعد دين المسيح فان البوذيين يبلغون ٤٥٠ مليوناً والمسيحيين ٤٧٥ مليوناً

وهذه شذرة من تعاليم هذا الدين تنبئك عن اصوله جاء في الملل والنحل قال « ودون مرتبة البد ( أي بوذا ) البوديسعية ومعناه الانسان الطالب سبيل الحق وانما يصل الى تلك المرتبة بالصبر والعطية و بالرغبة فيما يجب ان يرغب فيه و بالامتناع والتخلي عن

(١) من كتاب الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز شاويش

الذي يتسع فيه مجال التخريج والتأويل حثًا على وجوب الاجتهاد في قضايا الدين كلما وجد بينها وبين مصلحة العمران ومصلحة العلم اقل اختلاف لئلا نجني على العمران وعلى الدين نفسه معًا اذا استمسكنا بتلك القضايا استمساكاً اعمى . وبعضهم ألمع الى ما يشم منهُ اني متحيز فيما كتبت لا ناصر حقيقة وهؤلاء هم الذين يقرؤون كل شيء كما هو في باليات قحوفهم . فليعلم الذين لا يدركون معنى ما يكتب او ما يقال اني حتى اليوم ما تحيزت الا لما اعتقدتهُ الصواب فانا لم اكتب ما كتبت الا لاعتقادي انه الحق ولم أجعل لعاقل سبيلاً لان يرميني بتهمة التحيز لدين من الاديان أو لقوم من الاقوام وما قصدت بذلك الا خدمة مصلحة الانسان في العمران

ومنهم من قام يناقشني في المفاضلة بين الدينين وهو خروج عن بحثي كما اوضحت ذلك في ديباجة مقالتي فقام في الرد عليَّ يظهر تحامله على الدين المسيحي وليس في بحثي ما يجعل له اقل مسوغ لان ينحو معي هذا النحو فجذبني من سماء التجرد للكليات الى أرض المشاحنات في الجزئيات ونصبني في مقام رجل مسيحي أو اقول قوله وأخذ يغرف لي من تلك الالوان ما شاء وشاء سخاؤه وأنا من فضله أصيب حتى امتلأت معدتي وهو أدب رائع . ولا شك أنه انقاد الى ذلك بهوى التشيع وهو يقرأ مقالتي فذهل عن مسلكي فيها ونسي في تحمُّسه الغاية التي قصدتها منها وقام يضرب على هذا الوتر المضلل والمنفر والذي يرجح عندي ذلك قوله « قرأت مقال فلان ( اي مقالتي ) الساعة » اراد بذلك انه قرأها في الساعة التي بعث فيها برده الى الجريدة فكأنه لم يتروها جيداً فما وصل الى آخرها حتى كان قد نسي اولها حيث أقول

« ليس من غرضي هنا ان اتكلم على الاديان كشرائع موحاة . ولا ان ابين مزية دين على دين ولا ان أدخل غمار البحث في قضايا كل دين لاقرارها او تخريجها الى ما يوافق . بل ان ابين حقيقة علاقة الاديان بالعمران من وجهها الاجتماعي ثم قارنت بين أصول الاديان واتصلت فيها الى نتيجة اجتماعية واحدة وبنيت عليها بحثي

ولعله اراد بذلك ان يجاري اكثر كتابنا فيما اصطلحوا عليه من مثل قولهم « ما حملني على ان اكتب في هـذا الموضوع الاَّ اشارة من لا تسعني مخالفته فقمت على ما بي من

مقبولاً اذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول في طور البهيمية

والظاهر اني نجحت في مقالتي اكثر من نجاح البراهمة بالاتكال على أنفسهم . فما انتشرت في المؤيد حتى صادفت استحسان كثيرين من عقلاء الامتين المحمدية والمسيحية بعضهم صرح بذلك على صفحات المؤيد و بعضهم بكتب خصوصية لي وآخرون مشافهة في حديثهم معي . ولما آنست ذلك من الذين يهمهم امر هـذا البحث اكثر من سواهم طلبت منهم ان يؤيدوني بكتاباتهم في الجرائد خدمة لامتهم فاحجموا فعلمت أن الحرية فيهم لم تتجاوز حد الفكر ولم تصل بهم الى القول وخصوصاً النشر كأنهم يخشون سطوة الجمهور اكثر من ربهم واعتذرت عنهم ان ذلك منهم لقلة ثقتهم في هـذا الجمهور خوفاً من شره ولشدة طمعهم برحمة الله ولولا علمي بناموس الافعال المتجمعة وما يترتب عليهِ بعد حين من الافعال العظيمة لقلت اني أخطأت المرمى وان مقالتي جاءت قبل اوانهـا على ان اثرها مهما كان اليوم قليلاً فسينضج بالاختمار كما يختمر العجين وتنضج الاثمار ويصير مع الزمان شيئاً عظيماً

ولكن مقالتي لم تعدم منتقداً وهذا ما كنت اتوقعهُ لعلمي ان ما من عمل حسناً كان أو رديئاً الاَّ ويجـد انصاراً مستحسنين وخصوماً مهجنين فالحسناء لا تعدم ذاماً كما ان الفولة المسوسة تجد كيالها الاعمى فانا لم استغرب قيام بعضهم للردعليَّ ولا انا ممن يكرهون الانتقاد او يدعون العصمة ولا انا أجهل قول المثل « من ألف فقد استهدف » وانمـا الذي استغربته صرف كلامي الى غير وجهتهِ وتأويله على غير مفهومه وهو بالحقيقة اجتهاد هنا الى حد الشرود عن المقصود والحق يقال ان أعمال العقل غاية في الغرابة ولولا ذلك لما اختلف الناس في نظرهم الى الشيء الواحد. والى هذه الغرابة افضل أن انسب اختلاف نظر الذين نظروا في كلامي على ما فيه من التعيين الواضح لا الى قصد سيء منهم

ففريق من النصارى زعم اني عرضت بالدين المسيحي ونشر احدهم في جريدة الوطن مقالة أنكر عليَّ فيها استشهادي ببعض آيات الانجيل ناسباً اليَّ وضعها في غير موضعها كأني فهمتها كما يدل عليه ظاهرها غير معتبر المقام الذي وردت فيهِ ولو انصفني لعلم اني ما ذكرتها الا وانا في مقام بيان اظهر فيهِ ما في كتب الدين من كلام الاستعارة والمجاز

كنوزه ولولاه لربما كان قد قضي على علوم اليونان وآدابهم وفلسفتهم ولا أقول انهُ هو الذي نقلها كلها وانما صانها من ايدي اولئك الذين لو بقوا وشأنهم لعبثوا بها ولم يدعوا شيئاً منها يصل الينا

واعجابي بصاحب الشريعة المحمدية لا يقل عن اعجابي بصاحب الانجيل وما في شريعته من الحض على التساهل وحب الانسان بعضهِ لبعض مما لا يمكن ان يصح بدونهِ عمران ولا فرق بين الشريعتين في جوهرهما اجتماعياً حتى ولا دينياً . كيف لا وقد قال كلاهما انهما أتيا لا لينقضا الناموس بل لاكمال أعمال النبيين قبلهما . ولقد عرف الناس لهما هذا الفضل من الوجهة الدينية فأقاموا لهما المعابد من مساجد وكنائس آثاراً ناطقة بمجدهما ولو انصفهما العمرانيون لاقاموا لهما آثاراً مدنية (عفواً سادتي لا تكفروني لكم دينكم ولي دين) تنطق بمآثرهما الاجتماعية فيعرف جميع النـاس على السواء فضلهما وتزول الحوائل من بينهم فيندفعون في العمران مرتقين بدلاً من ان يقوموا فيهِ بعضهم على بعض متخاذلين متقهقرين

و بعد ان وطنت النفس على ذلك قمت وكتبت مقالتي « القرآن والعمران » متكلاً فيها على نفسي حتى اذا كان هناك تبعة احملها وحدي وقد تخلصت بذلك من تهمتين تهمة التعصب وتهمة التوكل اللتين يرمي البراهمة بهما اتباع الاديان السامية فقد ذكر الدكتور هوج ان البراهمة قالوا له منددين بتعصب النصارى لدينهم واضطهادهم لمخالفيهم « ان هذا التعصب فيهم دليل على ضيق العقل لان العاقل لا يضطهد احداً لدينهِ » ولما أرادوا المفاخرة قالوا له « انتم تجعلون كل اتكالكم على الله واما نحن فلا نتكل الا على انفسنا ودينكم مصدره من شعب من اصل ساميّ وهذا الاصل ادنى من اصلنا وليس عنده فكر فلسفي غير مستعار »

والبراهمة كما في الملل والنحل ينتسبون الى رجل منهم يقال له برهام قد مهد لهم نفي النبوات اصلاً وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه . منهـا انهُ قال ان الذي يأتي بهِ الرسول اما ان يكون معقولاً واما ان لا يكون معقولاً . فان كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بادراكه والوصول اليهِ فاي حاجة الى الرسول . وان لم يكن معقولاً فلا يكون

أمر مذاهب ويخرجونه كما يشاؤون وكما تشاء أهواؤهم فلا يبعد ان يرموني بغير ما اقصد ويدفعوني الى ما اكره

اما أنا فآفتي — اذا كان ذلك يعد آفة — انه متى بدت لي حقيقة تستهويني حتى لا أعود اضبط نفسي عن ابدائها وعذري في ذلك ان الحقيقة لا يكفي ان تعلم بل يجب ان تقال ايضاً والا بقي الناس في العمى وساؤا مصيراً . وقلت اذا كان الاجتهاد الذي هو ركن من اركان الدين الاسلامي لا يذلل هذه الصعوبات فالذنب ليس على القرآن بل على الرؤساء الذين بيدهم الحل والربط في هذه الاحكام وباب الاجتهاد لا يجوز ان يقفل مهما قال المتقولون من انصار التقهقر ما دام الدين ديناً والعمران عمراناً ولا بد لي كيف كان الامر من نصر القرآن اعجاباً به وبصاحبه وان كنت خارجاً عن دينه فالحقيقة أعم من ان تكون ضالة المؤمن وحده كما يفهمون ونصرها واجب على كل منصف

وكيف لا يحق لي الاعجاب بصاحب هذا الكتاب والناس قد بلغ اعجابهم برجل مثل نابليون الى ان عدّوه من خوارق الطبيعة ولولا ان قلت عاطفة التقى لألّهوه والظاهر ان الناس لا يعظمون الا كل فتاك بهم . والفرق بين الاثنين اجتماعياً كالفرق بين الثريّا والثرى . وهل يقاس بالمصلح الحقيقي رجل سفاح كنابوليون ضحى لمطامعه كل غاية اجتماعية وبنى على انقاض الثورة الفرنساوية الجليلة المبدأ التي هدمها بيده بعد ان استخدمها لمقاصده ملكاً متداعي البنيان لا غاية فيهِ الاَّ فخر الفتح وتأييد المطامع الذاتية وحدها وشاد قانوناً عده الناس آية في المرامي الاجتماعية وما هو كما قلت فيهِ ولو كبر على مريديهِ الاَّ مجموع شبهات وظنون فيما هو كائن وما يكون على ما بين ذلك المصلح ونابوليون من التباين العظيم في روح العصر الذي قام كل منهما فيهِ . وما من أحد يستطيع ان يقدر الضرر الذي أحدثهُ نابليون قدره بتحويله مبدأ الثورة الفرنساوية الى خدمة اغراضهِ وبضربهِ على يد العمران بقانون كان له كالغل في عنقهِ والقيد في رجله حتى اذا مشى مشى بهِ متثاقلاً

وهل ينكر التمدن فضل دين القرآن عليهِ يوم كانت الشعوب المعول عليها في ذلك العهد منغمسة في الترف لاهية بهِ عن العلم فكان الاسلام محيي رفاتهِ وناشر لوائهِ وحافظ

الكل عنهُ غافلون فقلت لهم اني لا أرى رأي أحد منكم لا رأي صاحب كتاب ( مصر الحديثة ) ولا رأى كل منكم على اختلاف منازعكم الدينية فالدين في نظري لا علاقة له رأساً بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه ووقوفه وتقهقره او هو تأثيره واحد فيه لان كل الاديان أصولها واحدة في كل الامم وتصبو الى غاية واحدة اجتماعية وهي اصلاح أمور الانسان في معايشه ولا يؤثر فيهِ الاَّ نزعات رجاله في احكامهِ الفرعية فاذا عملوا بموجب الدين وحكموا العقل في تطبيق هذه الاحكام على مصلحة العمران بحسب روح كل زمان لم يصده ذلك عن الارتقاء . وعزمت على الكتابة في الموضوع لاني قلت في نفسي ان لم يوجه تيار البحث في هذه المسألة الوعرة الى هذه الجهة فانه يستحيل زحزحة الافكار عن مألوفها بالسرعة اللازمة لتحقيق هذه الامنية المنشودة وهي ارتقاء الانسان في العمران . والا فهناك تيار آخر سيله جارف يسير بسرعة البرق سوف يقضي علينا اذا كنا لا ننهض لمقاومتهِ بسرعة تحاكي سرعته وبمعدات تحاكي معداته . وأبديت فكري هذا لكثيرين . واكثرهم استصوبوا رأيي . ولكني رأيت بعضهم يشك في النتيجة ومنهم رجل ذو علم وأدب وقف مطرقاً ولم يتكلم وكأني قرأت على وجههِ انه غير واثق من عملي لعلمه بما أنا عليهِ من المبادئ وما انطوى الجمهور عليهِ من الانطباع لفهم الاشياء كل على هواه فيصعب عليَّ ان اخوض لج هذا البحث واخرج منهُ سليماً من دون ان أمس شعائر أصحاب دين في دينهم وهناك الطامة الكبرى . ولما أبديت له ان كلامي سيكون على علاقة الدين بالعمران وهذا لا يستلزم البحث الا في جوهر الاديان وان النزعة العمرانية في هذا الجوهر تكاد تكون واحدة في سائرها حتى الاجتماعية منها وان الاحكام الفرعية في كل دين يلزم ان يرجع فيها الى هذا الجوهر . رأيت كاني اقرأ على وجههِ اكثر من ذلك وهو اعتقاده بان الاسلام ليس في احكامه المرونة اللازمة لتطبيقها على مصلحة العمران فتذكرت عند ذلك اثر تلك النشأة وقلت اذا كان هذا مفعولها في ذي عقل راجح فما بالك في سواه وما قلت قولي هذا الا لاعتقادي بانه ما من دين يجوز ان يقف حائلاً في سبيل الارتقاء اذا حكموا العقل في أحكامه المتعلقة بالمعاملات . ومنهم من نصحني بالعدول لئلا اصادف ما لا احب علماً منهُ بان الناس يذهبون في تأويل كل

# المقالة الثامنة

## حول مقالتي (١)

« بحث بسيكولوجي سوسيولوجي او اخلاقي عمراني »

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

كنت جالساً ذات يوم بين فريق من نخبة الادباء فسمعتهم يتحدثون بما جاء في ( كتاب مصر الحديثة ) من التعريض بدين القرآن وما احدثه ذلك من الثورة في الافكار وما ترتب عليها من المناقشات في الاندية والمجالس والردود في الجرائد. ورأيت مدار بحثهم قائماً على المسائل الخلافية التي لا ينضب البحث فيها ولا تأتي بجدوى غير اثارة الضغائن واحتدام الخصام واشتداد الجدال على امور لا طائل تحتها يظنها الباحث من جوهر الدين وهي عند العاقل ليست منه في شيء . ورأيت ان البحث على هذه الصورة لا يزيد نار الخلاف الا استعاراً ويزيد الانشقاق بين أصحاب الاديان المختلفة ولا يفيد اصحاب الدين الواحد فائدة عمرانية البتة يدخلون البحث بهوى التشيع ويخرجون منه بنار التحمُّس . وكل يخيل له انه محكم العقل فيما يذهب اليه وانه على هدى وسواه في ضلال مبين وما منهم من يشك فيما يقول ولا يذكر انه انما شب على هذا الدين أو ذاك المذهب كرهاً لا طوعاً طبقاً للحديث النبوي « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فابواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه » ولا يخفى ما في هذا الكلام من الحكمة الرائعة والفلسفة العالية وكأني اشرت الى ذلك في كلامي على التربية الاولى وما لها من الاثر الراسخ في الذهن حتى يصير فيه من البدائه التي تفوق طور الروية فلا تقبل تمحيصاً ولا تطيق جدالاً

وكأن الحقيقة بدت لي في غير ما هم فيه يخوضون فرأيت انَّ في المسألة نظراً دقيقاً وكأنما

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨ على اثر رد بعضهم على رسالة القرآن والعمران المذكورة آنفاً

يعلم الناس التواضع وعتا وهو يوصيهم بالحلم

شرائع اصلها « العادات » وقوانين لم تخطّ المألوف ثبتت على مر الازمان . مع أن العادات تتغير وكذلك الانسان . شرائع لم يقتصر فيها على المعاملات بل تناول بها ما وراء المنظور لكي تكون اوقع في النفوس وابلغ للمنى

رأى كل ذلك دونه فصبا بنفسه الى ما وراء الطبيعة فبنى من الاوهام ابراجاً وامتطى من الغرور معراجاً . وقال في نفسه لعلي آله ولا ادري. ألست سيد هذه المخلوقات وسلطان هذه الكائنات . فهل يصح ان يكون عنصري كعنصرها وحظي كحظها : يوم يروح ويوم يجيء وارحام تدفع وارض تبلع . لا . فانا من عنصر أعلى لذلك نفسي تصبو اليه . اصلي منه ومرجعي اليه . فانا آله في صورة انسان او انسان في نفس آله

آله ولكن عبد شهواته واسير احتياجاته يرتدي ثوباً كثفت هيولاه . اليها مرجعه ومنها قواه . آله يحل كالجماد ويتغذى كالنبات ويتألم كالحيوان . فاذا انحل لم يترك غير كثيف المادة واذا اغتذى فلا يغتذي الا منها واذا تحرك فلا يتحرك الا فيها وبها . آله يولد وما هو بباق ويموت وما هو بفان . يمثل الفصول في ادوارها . والمادة في اطوارها . ينشأ بذرة كالنبات والحيوان . ينمو مثلهما ويتعاظم مستعيراً عناصر المادة الى ان يهرم . فيرقد في بذرته عائداً من حيث اتى بعد ان يكون قد رد الى الطبيعة ثياباً عارية. واخلاقاً بالية . استعارها منها . ولم يكن له غنى عنها

علم ذلك كله في هبة مرت مر السحاب حطت من كبريائه وكسرت من خيلائه ارتسمت له الحقيقة فيها مجردة عن زخرف الكلام وبهرجة الخيال . في هبة انتعاش هو منتهى الحياة وابتداء الموت كالانتعاش الذي يسبق انطفاء النور . استيقظ فيها كالنائم وقد انتبه . فرأى الحقيقة مرتسمة امامه باحرف نافرة تنفذ الابصار ولا تفوتها العين قرأها ثم رقد . ماذا قرأ . . . وماذا رأى . . . لم يقل

الياف النبات وشق الارض وزرع وحصد واستثمر النبات وذلل الحيوان . وكاد يتذكر « انهُ المطرود من الجنان »

رأى الارض واسعة ومطامعه شاسعة فامتطى الحيوان جواداً يقطع به مفاوز الغبراء وبنى المركبات لنقل الاثقال واستطلاع مناجع الكلاء

ضاقت به الارض على سعتها واعترضته البحار فبنى المراكب واخذ يجذف في عرض الماء ثم اصطنع الشراع واستقبل بهِ مهاب الهواء . وهكذا اصبح سيد البر وسلطان البحر

رأى التعاون ادعى الى القوة فانتظم جماعات وبنى المدائن واختط الممالك وشاد الحصون المنيعة والقصور الرفيعة وغرس الحدائق تجري من تحتها الانهار كأنهُ اراد أن يعيد بها « الفردوس الضائع » وتأنق في المأكل واللباس والاثاث واغرب في الكماليات بعد الحاجيات حتى تخطاها الى الزخارف

نظر في العلوم لحفظ المعلوم وطلب المجهول فانكشفت له اسرار الطبيعة فاستخرج من كنوزها وأسر قواها فاستسرى البخار واستنطق البرق فاستعاض عن الشراع ببواخر تمخر في عرض البحار . وعن الجياد بقواطر تسابق الرياح وتقرب الشاسع من الاقطار

طمح ببصره الى العلياء فأخذ يحدق في القبة الزرقاء وقد كان ظنها « جلداً » مصفحاً وكواكبها انوار سكان السماء . فما لبث ان اخترقها بذكائه فعرف حقيقتها ووقف على تركيبها وقاس ما بينها من الابعاد كأنها منه « على قاب قوسين او ادنى »

رأى الطبيعة قد دانت له قريبها وبعيدها عاليها وسافلها ظاهرها وباطنها جمادها ونباتها وحيوانها . فعتا وتكبر . وطغى وتجبر . وشق عليه ان ليس امامه جبار « يهدد كل جبار عنيد » ليقول له « فها انا ذاك جبار عنيد » حتى شاد من الاوهام حقائق وقام يناصب آلهته العدوان . كأنه تذكر انه « طريدها في سالف الازمان »

رأى كل ذلك فرآه حقيراً في عينيه ذليلاً لديه « اي مكان يرتقي. اي عظيم يتقي » فلم يجد اصعب على نفسه منه هو نفسه . فسعى ليقهر بعضه بعضاً ويسود بعضه على بعض . انسان على انسان وقبيلة على قبيلة وامة على امة وفرد على امة . فسن الشرائع ووضع القوانين توافق اميال القوي وتهضم حقوق الضعيف فظلم وهو ينادي بالعدل وتجبر وهو

وجوه الحسان وقد برزت من حجابها وفاح ارج الازهار على نغم الاطيار . فانتعشت لها الانفاس كأنها الاعراس والكل فيها فرحون

فاذا انقضى الربيع اقبلت الطبيعة متثملة كالرجل وقد فارق زمن الصبا واقبل على زمن الجد والكد ينظر الى ما زرعه في ماضيه وما يحصده في حاضره وما سيدخره لمستقبله

فاذا انقضى الصيف جاء الخريف بذبوله واصفراره كالشيخ وقد فرغ منه الامل يتوقع حلول الاجل . وهكذا ينتهي الحول ويرجع الدور

وفي وسط ذلك كله قائم ذلك الكائن العجيب ملتقى النقيضين . ومجتمع الضدين اضعف من النبات والحيوان في بنيانه . واقوى الكائنات بمستنبطات جنانه. عاقل جاهل . يرتفع بافكاره تارة الى السهى حتى يقال « ان هذا الا ملك كريم » . وينحط باعماله طورًا الى الحضيض حتى يقال « ان هذا الا شيطان رجيم » . حيوان الى اقصى درجات الحيوانية وما هو بحيوان . آله الى حد المعجزات وما هو من سكان الجنان . ذلك هو الانسان

وقف على البسيطة عاريًا جائعًا خائفًا كأن اصله ليس من هذا المكان . وذهل انه هو الانسان « المطرود من الجنان » البرد يؤذيه . والحر يعييه . والجوع يضنيه . فسكن المغائر وخصف اوراق الشجر عليه ورعى النبات كالسائمة واكل اشلاء الحيوان كالكواسر

نظر الى الحيوان فراعه ما رآه فيه من القوة واكتمال العدة فارتعدت فرائصه خوفًا منه وليس له برائن تقيه او مخالب تحميه فعمد الى كهوف الارض يختبيء فيها عنه . وتسلق الاشجار العالية هربًا منه

عمد الى الحجارة يحكها حكًا ليصنع منها سلاحًا يذود به عن نفسه ويسطو به على سواه . فاخترع السلاح واهتدى الى الصيد وتطاير الشرار . من احتكاك الحجار . فاكتشف النار . واهتدى الى اكل طعامه مشويًا . بعد ان كان يأكله نيًا . وكان ذلك أول « اختراع » وأول « اكتشاف »

نقّب في الارض فاهتدى الى المعادن ورآها تلين في النار فاصطنع منها العُدد وتفنن واتقن وشعر بنفسه انه نال بها قوة ذللت له الطبيعة فبنى البيوت واصطنع الكساء من

معدن ونبات وحيوان هي موضوع الاعجاب والاستغراب تراها منفصلة وليس بينها فواصل أفق الواحد متصل بأفق الآخر كأنه منه ومتحول عنه

مواد الكل واحدة مرجعها الى الهيولى وقواه واحدة مرجعها الى الحركة . والهيولى والحركة سيان فلا تنفصلان . والهيولى فرض لبسيط المادة والحركة حقيقة بيّنة تتحول الى كل القوى المعروفة وترد اليها كل القوى المعروفة : الحرارة والنور والكهربائية والمغناطيسية والحياة نفسها . فالحركة اصل الكل

الكل باقٍ لا يدثر وما هي الاّ صور تمر واشكال تتحول واوضاع تتغير في حلقة هذا الدور

أدوار تنتظم أياماً وايام تنتظم شهوراً وشهور تنتظم فصولاً وفصول تنتظم سنين ثم يعود الدور

ينبثق نور فيبدد غياهب الظلماء ثم يعقبه ليل بهيم يسد منافس الغبراء فيدور اليوم

يطلع القمر هلالاً كأنه الطفل وقد اهلّ ويكتمل بدراً ثم يتناقص عائداً على بدئه كأنه يمثل حياة الانسان بالزيادة والنقصان فيدور الشهر

يبدو وجه الطبيعة كالحاً كأن الموت قد حلّ . وتلبس الارض ثوباً قاحلاً كأنه جلد الهرم . وتتلبد غيوم كأنها الهموم وتلمع بروق كأنها الآمال في وسط المصائب . وتقصف رعود كأنها غضب الآلهة او صراخ اهل الجحيم وهم يعذبون في ما يقولون . وتعصف رياح تصفر كصوت البوم . على الرسوم . وينعقد البخار سحاباً فتنفتح عيون السماء كأنها تضحك ضحك القنط من فارغ الامل . او تبكي بكاء الثكلى من دنو الاجل. فتنفجر عيون الارض ضاحكة لضحكها او باكية لبكائها فتسيل الجداول والانهار وتسترد البحار ما اعطت فتتعاظم كبراً وتنتفخ عجباً كأنها تقول « هذه بضاعتنا ردت الينا » وتذبل عيون المسيل كأنها تتذكر الآية « انا لله وانا اليه راجعون »

فاذا انقضى الشتاء انبسط وجه السماء وافتر له ثغر البسيطة باسماً وبرزت الارض كالعروس تتهادى بحلة سندسية واخضلت الغصون كأنها القدود وقد لانت وتمايلت طرباً كأنها الخصور وقد دقت . او القلوب وقد رقت. وتفتقت الانوار من اكمامها كأنها

# المقالة السابعة

## ماذا قرأ وماذا رأى (١)

الانسان لا يرى الحقيقة لانه اعرق في جهلها • واذا رآها لا يريد ان يعرفها لانها تروعه • فيدور حولها ويروغ منها لانه الف التمويه في كل شيء • وانه ليفضل ان يكذب على نفسه اذا عرفها من ان يقولها

هيولى تملأ الفضاء متحركة حركة دائمة لا اول لها يعرف ولا آخر يوصف كأنها سلسلة حلقات متصل أولها بآخرها او نقطة من محيط دائرة لا يعرف أين تبتدي ولا أين تنتهي

زوابع تثور فتتحول جواهر تتضام دقائق فذرات فاجساماً فاجراماً تسبح في هذا الفضاء تنقسم شموساً تضيء واقماراً تستمد وسيارات تدور وثوابت ليست ثوابت الاّ بالنسبة الى سياراتها والا فالكل في فلك يدور

قوى تتجاذب متبايناتها وتتنافر متشابهاتها تتحد بها اجزاء المادة صنوفاً وتنتظم صنوفها صفوفاً فيها الرفيع والوضيع والبسيط والمركب نماؤها من ظاهر بطيئة النماء بطيئة الانحلال

معدن نام وما هو بحي منفعل وما هو بحاس يتعاظم وما هو بباقٍ ويتحلل وما هو بفانٍ متحول وان لم يبد لك في الحال متغير ولكن على مرّ العصور والاجيال

قوى تنتظم الى ان تفقد الانتظام تستولي على المادة فتحولها في الحال الى اجسام تتغذى وتحس وتتحرك سريعة النماء سريعة الانحلال نماؤها من داخل بالقلب والابدال

حي ينقسم نباتاً يتغذى وحيواناً يحس ويتحرك ينبت من بذرة قد لا تراها العين فيتعالى ويتعاظم ثم يموت ولا يموت بل يرد الى المادة ما استعار منها ثم يرقد في بذرة عائداً من حيث أتى

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨

ليداويه يفلح اكثر من الذي يحاول ان يخفيه . ولو فعلوا لخدموا الدين وخدموا أنفسهم بالتنبيه الى مواطن العلة للنهوض من الوهدة التي سقطوا فيهـا بسبب جهل زعماء الدين الذين هم وحدهم المسؤولون عما جنوا على العمران وعلى اممهم وعلى الدين نفسه بالاشتراك مع الحكام فساقوهم بعصى المظالم عصوراً متطاولة . ولفتحوا امامهم الباب واسعاً لادخال الاصلاح بينهم ولو بثورة في قلب الامم الاسلامية تحدياً بمن سبقهم من الامم الاخرى ذلك خير لهم من فنائهم بالابتلاع شيئاً فشيئاً كما هو الواقع اليوم

فالمنصف لا يسعه ان يلقي على القرآن تبعة تقهقر الامم الاسلاميـة بل على الرؤساء من رجال الدين والحكام فاذا ارادت الامم الاسلامية ان تجاري الامم المتمدنة في ارتقائها فالقرآن لا يحول دونها كما ان الانجيل لم يكن الباعث على نهضة تلك وما عليها الا ان تجاريهم وتضرب الضربة الشديدة على ايدي الرؤساء عمومـاً لتكشف بالعلم سجوف الجهل المسدولة على عقول الشعب

واني لاستغرب من جرائدنا مع ما أظهرتهُ اليوم من الحمية لنصر الدين كيف انها لم تقم قيامتها اللازمة لنصر رجل جهر بالحق منذ عهد قريب لتطهير الدين من البدع الشائنة ولمنع وقوع الحيف عليهِ ولم يسمع حينئذٍ الا صوت اولئك الذين ضربوا على يد الضارب على هذه البدع ولم يسمـع لهم صوت اليوم كأن الدين معايش وهي لو فعلت لنصرت الدين نصراً مبيناً ومهدت السبيل « للوثر » يصلح من عقائدها ويدفع عن القرآن تهماً ما أنزل الله بها من سلطان ولعل الصوت القاسي الذي جاءهم اليوم من وراء البحار ينبههم اكثر الى هذا الفرض الواجب فيهبون هبتهم الى هذا الاصلاح ويقولون ونحن نردد معهم « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »

من الذين ادعوا الزعامة عليه فقصروا في ادراكه او تاجروا به

وتاريخ الاجتماع شاهد عدل على ما نقول فاليونان بلغوا من التمدن شأواً بعيداً وكانوا من المشركين بمعنى الكلمة الحقيقي أي كانوا يعبدون آلهة كثيرة ومثلهم الرومان وكانوا يعبدون الاصنام . وقد تقهقر الروم على عهد النصرانية حتى انحلت عرى ملكهم وقام العرب وشادوا على انقاض دولهم ودول الاكاسرة ملكاً باذخاً وهم حديثو العهد بالدين ولقد كانت اوروبا في العصور الوسطى في حالة سيئة جداً مع انتشار النصرانية فيها الى درجة لم يكن الناس يرون السعادة الا بالاعتزال في الاديرة والصلاة على قارعة الطريق ولولا الانشقاق العظيم الذي حصل فيها من قيام بعض رجال الشجاعة كلوثر وما جرّ ذلك بعده من اضطرام نار الثورة الفرنساوية التي حطت من صولة الاكليروس والحكام لما أغنت النصرانية اممها شيئاً ولما ارتقوا الى ما هم عليه الآن

والذي اصاب النصرانيـة أصاب الاسلام نفسه فراح فريسة مطامع الطامعين من الحكام ورجال الدين من ضعاف الافهام وأصحاب الاغراض وسقط الشعب في مهواة الجهل فأخذ يتقهقر وسواه يتقدم وجنى على الدين حكم الحاكمين عليه

فترى مما تقدم ان الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية في سبيل العمران بل رجال الدين أنفسهم واي برهان على ذلك اسطع من سهولة ارتقاء اليابان . فانها لما تحاكت مع اوروباوقام فيها عاهل يفهم قيمة الارتقاء بنشر العلم وتأييدالصناعة نشطت وارتقت بسرعة لا مثيل لها في التاريخ . وما ذلك الا لان الحائل دون ارتقائها كان السلطة الحاكمة فلما زال هـذا الحائل لم تصادف الامة عقبات اخرى من رجال الدين لانهم هناك ليسوا شيئاً يذكر لان الدين عندهم شذرات من شرائع اهمها البوذية . وهي تعاليم أدبية اجتماعية اكثر منها دينية

ولقد ردت الجرائد على هذا الطعن كل بحسب ما تراءى له انهُ معزز للدين ولكني أقول بكل أسف انهم لم يريدوا ان ينظروا الى الحقيقـة كما هي . فلم ينظروا الى تقهقر العالم الاسلامي والاسباب التي دعتهُ الى هذا التقهقر وهم في موقف اليوم يغبطون عليـهِ للمجاهرة بالحق نعم ان الحق يجرح ولكن الانسان الذي يبحث في جسمه عن محل الالم

قوله حقاً . فهو اذا اخطأ — والخطأ تسرب الى حكمه من كل ما تقدم — حيث قال ان شريعة القرآن لا توافق العمران في كل عصر وان وافقته في بعض العصور . ونفس قوله هذا حجة عليه لان العمران لا يتسامح في شرائعه . ولو قال ان الاديان لا توافق مصلحة العمران لكان في قوله نظر لا بالنظر الى مبادئها بل لخروج دعاتها بها احياناً كثيرة عن جادتها ووقوفهم بها في سبيله . أما وقد قال قوله فالذي يصح على دين يصح على آخر . والقضايا التي استند اليهـا واعتبرها من جوهر الدين كان يمكنه ان يعتبرها في الدين الاسلامي كسواها في سائر الاديان مما يمكن تجاوزه لولا انه رأى استمساك رجال الدين بها وقيامهم في وجه المصلحين منهم كأنها من غرض الشارع ولذكر ان خلافهم فيها وفي ما ضاهاها من المسائل الاجتماعية لاشبه شيء بالمناقشات الدينية التي كادت تقضي على أمم النصرانية في عصور الجهل والتي احدثت تأثيرها السيء في الامم الاسلامية كما هو اليوم . وما مثل رجال الدين الاسلامي فيها الاّ مثل رجال الدين في اوروبا لما قاموا على غليلي يكفرونه لانه قال ان الارض تدور وفي كتبهم ان يشوع أوقف الشمس ثم ثبتت حركة الارض ولم يمس جوهر النصرانية باذى . وهل يعقل ان القرآن الطامح الى أبعد المرامي الاجتماعية يكون قـد اراد بمثل هذه القضايا ان يجعلها غلاً في عنق العمران . وكيف لا يجوز حملها على محمل المجاز وكتب الدين مشحونة بامثال هذا الكلام من المجاز والاستعارة ولا سيما القرآن (١) وبالحقيقة ان علاقة الدين بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه وتقهقره ليست الا عارضة والا لما ارتقى العمران وتقهقر وهو تحت سلطان دين واحـد . واذا كان قد وقف ورجع القهقرى مراراً كثيرة بسبب الاديان فما ذلك بسبب تعاليم الدين نفسه بل

---

(١) اليس قيام نساء المسلمين في اول عهد الاسلام يخطبن في القوم حاسرات الوجوه اقوى دليل على ان مسألة الحجاب ليست من المسائل الجوهرية في الدين ولو جاز لي ان اسهب الكلام على ذلك هنا لجلوت الاسباب التي دعت اليها في حينها مما يجوز للباحث الاجتماعي اعتباره ولماذا لا يجوز الاجتهاد هنا ايضاً ولكن رجال الدين هم العقبة في سبيل الارتقاء لا الدين نفسه أما مسألة تعدد الزوجات فهي في الحقيقة ليست بالاعتراض الوجيه على القرآن لانه منهيٌّ عنها صريحاً فيه بفرض العدل فيهـا وهي والطلاق ليستا في الاسلام ولا في النصرانية من المسائل الدينية التي يقيد بها الاجتماع ولذلك لا تعدان حجة على القرآن ولا على سواه اذا تصرف الانسان فيهما بحيث لا توافقان مصلحة العمران

على ذلك الاندهاش العظيم الذي يرتسم على وجهه عند ما تصادره فيها لاول مرة خصوصاً اذا كان يعتقد فيك العلم ويتوسم بك نزاهة الغرض كأنك ارتكبت جناية عقلية ذبحت بها أمامه كل القوى الراشدة ثم لا يلبث أن يطرق مفكراً كأنه داخله الريب ولذلك كان الشك أول مراتب الرشد

وقلما يسلم باحث اجتماعي مهما كانت مداركه راقية من مفعول هذه التربية الاولى فان سلم منها من جهة الدين لم يسلم منها من جهة الوطن والسياسة التي تقتضيها مصلحة هذا الوطن وفي اعتقاده ان الوطن دين ثان · وقليل ما هم اولئك الذين يتملصون من مفاعيل هذه العوامل الثلاثة فيجعلون دينهم الانسانية ووطنهم العالم اجمع

وما دعاني الى هذا البسط الا ما رأيته في هذه الايام من الحركة الشديدة في الافكار بسبب ما جاء في كتاب اللورد كرومر من علاقة الاديان بالعمران . فقد تعرض اللورد في كلامه على المصريين وعلى الامم الاسلامية قاطبة لجوهر الدين الاسلامي وجعل القرآن العقبة الكؤد في سبيل ارتقائها والمسئول عن تقهقرها

وقد تصدت الجرائد الاسلامية للرد عليه والحق يقال ان كلا الفريقين سلك مسلك الحرية في القول والمحقق في البحث الا انهما لم يسلما مع ذلك من سلطان هذه العوامل وفي اعتقادي انهما حاما حول الموضوع وقليل من تلمس طرقه من بابه : اللورد اندفع كثيراً فلم ينظر الى دين القرآن الا من خلال اولئك الذين وقفوا دونه ووقفوا به حيث أرادوا . وهم وقفوا محجمين فلم يريدوا ان يجسوا باصابعهم موضع الألم . وهذا الذي حملني على التعرض لهذا البحث مع ما فيه من الوعورة فلعل صوتي الضعيف يكون كالشرارة وان احرقت وآلمت في بعض المواقف فلا تعدم منَ العقلاء أنصاراً فتكون نارها بهم نار الخليل برداً وسلاماً على امم لا ينقصهم من دينهم شيء لكي يسيروا في العمران مع الامم المتمدنة جنباً لجنب ويحفظوا للشارع مجد أثره

واللورد كرومر من أعاظم رجال العصر وأصحاب العقول الراقية واصوته دوي في محافل العالم المتمدن وهو من نادرة الرجال السياسيين يقول ما يفتكر ولا يماري وهو في حكمه لم يوارب بل قال ما يعتقد انه الحق الصراح الاَّ ان ذلك كله لا يوجب ان يكون

وأول من أجاز الاجتهاد في الاسلام ابو بكر بعد موت النبي في قتال اهل الردة اذ كان الاعتقاد ان من تشهد لا يجوز قتاله على تركه شيئاً من الدين وهـذا كان رأي اكثر الصحابة أما ابو بكر الخليفة الاول للاسلام فنظر الى المسألة من وجهها السياسي وخاف عاقبة التراخي مع العرب الذين امتنعوا عن تأدية الزكاة فقال لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى الرسول لقاتلتهم على منعه ومضى بنفسه الى قتالهم . وجرى الاسلام على خطته من جهة الاجتهاد كل مدة النهضة . وقد قال الغزالي وهو من كبار ائمة الاسلام في أول القرن السادس للهجرة بوجوب التأويل في قضايا الدين والتوسع فيه لما رآه من التخاذل في ظاهر الدين والعلم في امور كثيرة فخاف ان يقف ذلك في سبيل العلم ثم يعبث بالدين . فقال ما ملخصه : «اذا بدا لك تناقض بين الدين والعلم فاعمد الى التأويل ذلك خير من ان ترمي الدين بتهمة الضعف» ولذلك كان كل دين لا يتسع فيه مجال الاجتهاد كثيراً مقضياً على امه بحكم الضرورة (١)

ومما تقدم يتضح لك ان لا فرق بين الاسلام والنصرانية في غايتهما الاجتماعية ومبدئهما في هذه الغاية . ولكن الناظر الى العمران اليوم يجد بوناً بعيداً بين الامم التابعة لكل من الفريقين فلماذا هذا الفرق ؟

الناس في نظرهم الى الدين فريقان فريق يغلبه الهوى فيندفع بتيار التشيع والتحمس الاعمى فيقضي على الصبغة الدينية التي تخالف صبغته كيفما كانت حال الاقوام المصطبغين بها حسنة ام رديئة ومثل هؤلاء لا شأن لنا معهم في بحثنا هـذا وهم في مجموعهم قذًى في عين العمران وشجى في حلقة معطلين كانوا ام مؤمنين مشركين ام موحدين نصارى ام مسلمين من هذا المذهب ام من تلك الشيعة والمؤمنون منهم شر على الدين من سواهم

وفريق يبحث فيه بحث العالم الاجتماعي ولكن قد يخونه النظر فينظر الى الدين في مرآة الشعوب التي تدين به ومن اعراض الكلام ويحكم على الجوهر من العرض. ويؤيده في حكمه هذا ما يغلب عليه مما يكون قد رسخ فيه من أثر التربية الاولى فان البداءة التي تقوم به في الذهن تتجرد عن كل روية ( وكلامنا في اصحاب العقول الراقية ) ويدلك

(١) آيات النسخ نفسها اقوى دليل على روح القرآن السياسي والاجتماعي

الاجتماعيين اليوم . ولو جاز لي ان ابين ماهية الفرق بينهما لقلت ان الدين المسيحي يوسع المجال للنظر والمحمدي للعمل اي ان الاول دين التجريد والثاني دين المحسوس ولكنهما يلتقيان في نقطة واحدة وهي اصلاح الانسان في دنياه — ومن غريب المفارقات ان اتباع الاول ساروا شوطاً بعيداً في الحياة العملية واتباع الثاني وقفوا متقهقرين — وهذا لا يخالف ما قلناه فيهما وانما يؤيد مبدأنا من انّ حقيقة الاديان لا دخل لها في العمران

وكلاهما يدعو الناس اليه بطريقة واحدة سامية فالانجيل يقول علموهم و بشروهم . والقرآن يقول لا اكراه في الدين . واذا طرأ عليهما ما خالف ذلك في بعض العصور وفي بعض المواقف فلدواع اجتماعية ليست من جوهر الدين وكان كلاهما في هذا الارغام سواء . هذا هو مبدأ الدينين الاجتماعي

ولكن الباحث الذي يتعقب كلام كل من الكتابين يجد فيهما كثيراً من مثل قوله ( اقتلوهم حيث ثقفتموهم ) بعد قوله ( قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ) ومثل قوله « ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً » بعد قوله « من لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر » الى غير ذلك من المفارقات التي لا يذهب مغزاها على العاقل ولا مكانها من القول ولكن قد تضر كثيراً بالجاهل وتكون عنده سبباً للتشبث السقيم وللاخذ في سباسب الجدال العقيم فتضر بالدين و بمصلحة العمران معاً . لذلك رأى العقلاء من المؤمنين في النصرانية والاسلام وجوب رد مثل هذه القضايا المشتبهة التي قد تلتبس على الافهام فتبدو مخالفة لمصلحة الاجتماع الى مبدأ الدين الجوهري الذي تقدم ذكره والذي هو غرض الشارع الحقيقي وتأويلها بحسب ذلك حتى صار الاجتهاد أمراً لازماً في الدين . والحق يقال ان رجال الدين في الاسلام قد برزوا في هذا الامر كثيراً في العصور الاولى وفاقوا النصرانية فيه لان كبار ائمتهم كانوا من كبار الفلاسفة أيضاً لا في الدين بل بمعنى الكلمة الحقيقي حتى بلغت علوم الفلسفة التي اخذوها عن اليونان في نهضتهم الاولى أقصى مراقيها بخلاف النصرانية فان الفلسفة طمست فيهـا على عهدها الاول وعدت من المحظورات فيما خلا النظريات المتعلقـة باللاهوت المسيحي و بقيت كذلك الى عهد الانشقاق العظيم الذي حصل في النصرانية في اوائل عصور النهضة في اوربا

# المقالة السادسة

## القرآن والعمران [١]

ليس من غرضي هنا ان اتكلم على الاديان كشرائع موحاة . ولا ان ابين مزية دين على آخر . ولا ان ادخل غمار البحث في قضايا كل دين لاقرارها أو تخريجها الى ما يوافق بل ان ابين حقيقة علاقة الاديان بالعمران وتأثيرها الحقيقي فيه من وجهها الاجتماعي

ان اكثر الباحثين في هذه العلاقة ينسبون كل ما يرونه في العمران من ارتقاء وتقهقر وسير ووقوف وحركة وجمود الى الدين واكاد لا أعلم احداً خالف هذه القاعدة فغلاة المعطلين وكبار المؤمنين والذين بين بين كلهم في ذلك سواء . فيقضون لهذا الدين أو على ذاك بالنظر الى ذلك وهم فيما ارى مخطئون باعتبار جوهر الدين والا كانت النتيجة واحدة في كل الاديان وفي الدين الواحد في كل العصور . ولا ينكر ان الدين يؤثر في اخلاق الامم التي تدين به ولكن هذا التأثير اذا دققنا النظر يجب أن يكون واحداً في الجوهر لانها جميعها تصبو الى غاية واحدة وهي اصلاح حال الانسان في العمران وتتذرع الى ذلك بمبدإٍ واحد هو الثواب والعقاب في الحياة الاخرى لتحمل الانسان على ان ينصاع اليها في الغاية الحميدة التي قصدتها في اجتماعه . فنهت عن المنكر وأمرت بالمعروف واعتبرت المنكر كل ما خالف مصلحة الاجتماع والمعروف كل ما وافق هذه المصلحة فامرت باقامة القسط في المعاملات وتخطته الى وجوب الرحمة فحثت الانسان على الاشتراك بالمنفعة ونهته عن الاستئثار بها وأمرته بالعطف على البائس المسكين ونهته عن الحيف عليه

ودينا التوحيد السائدان اليوم هما دين الانجيل ودين القرآن الاول يعلمنا التساهل الى حد ان ينسى الانسان نفسه في مصلحة قريبه أي اخيه والثاني يجعل الفقير شريك الغني في ماله اذ يفرض له عليه نصيباً منه . وكلاهما فيهما من الحكم الرائعة والآداب العالية ما يجعلهما في مبدأهما الاجتماعي مطابقين لمرامي أعظم الفلاسفة المصلحين

---

(١) نشرت في المؤيد سنة ١٩٠٨

لسلامتهِ وسلامة الكل بما فيهِ من الميل لحفظ ذاتهِ وحفظ علاقاتهِ مع سواهُ وبهذا تمام النظام في الكون(١)

---

(١) عقب المقتطف على هذا البحث بالكلام الآتي قال :

حيوان هائل — هذا حيوان لم تمر صورته بمخيلة انسان من المتقدمين ولم يكتشفه الا جماعة من فلاسفة المتأخرين . والمعتاد ان يوصف الحيوان بالهول اذا كان كبير القد ضخم الجثة كالحوت والفيل وغيرهما او كان قبيح الصورة شديد الضرر او نحو ذلك مما يوقع الرهبة والخوف في نفس ناظره ومتصوره. على ان الحيوان الذي نحن بصدده لم يعهد له مثيل في الكبر ولم يخطر على بال انسان قبل الآن ان الارض يمكن ان تربي مثله فهو شاغل لكل انحاء المعمورة سائد على وحش البر وحوت الماء وطير الهواء يسبح الناس الوفاً في نقطة من دمه وتتعاقب الملوك والرؤساء في رأسه وتقطن القبائل والشعوب في جوفه وتحيا الامم وتموت وهو باق فيحيا بموتها وينمو بحياتها وقد صار عمره الوفا من السنين وربما عاش بعد الوفاً منها وربوات حتى يقبض روحه باري الارواح ويعيد جسده الى التراب الذي جبل منه . لا نقول هذا من باب المجاز وليس في كلامنا احاجي ولا الغاز وانما هو حق اليقين اذا صدقنا ما يقوله جماعة من فلاسفة المتأخرين

تقول وما هذا الحيوان العجيب فنجيب انه الاجتماع الانساني الذي انت في عضو من اعضائه بمثابة الكرية التي لا تراها عينك لصغرها في عضو من اعضائك . واذا امعنت النظر في المقالتين المعنونتين بتاريخ الاجتماع الطبيعي في هذا الجزء والذي قبله ( بقلم الدكتور شبلي شميل ) رأيت هناك ما يقوله اولئك الفلاسفة في اثبات وجود هذا الحيوان وبيان المشابهة التامة بينه وبين كل جسم حي

وسواء صدقوا في ما قالوا او لم يصدقوا فلا غرو ان المشابهة بين الجسم الحي وجسم الاجتماع جديرة بان يمعن الانسان نظره فيها ليعرف مقامه بين اقرانه ولزومه لقيام هذا الاجتماع وبنيانه . فكما ان الرأس في البدن لا يستغني عن اليد ولا اليد عن الرجل ولا الرجل عن البطن كذلك اعضاء الاجتماع الانساني لا يستغني بعضها عن بعض فالزارع لازم للصانع والصانع للوازع والوازع لكل منهما . ولا فرق في لزوم الاعضاء لجسم الاجتماع ما دامت حياته موقوفة على عملها وقضاء وظائفها . وتفاوتها في المقام اعتباري لا حقيقي فلا الحاكم اشرف من التاجر ولا التاجر من الصانع في حقيقة الواقع كما انه لا فرق حقيقي بين مقام المعدة والقلب والدماغ في البدن وانما الفرق اعتباري يتغير بتغير العوائد والاحكام على مر الايام

ولا يبرحن من الاذهان « ان القوى الكبرى في كل حيوان تام التركيب ثلاث وهي الغاذية وافعالها تهيئة الغذاء وآلاتها المعدة والكبد وما يتلوهما والمدبرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب وما يتلوها والموزّعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرايين وما يتلوها » وبها قيام الحيوان ودوام حياته وكذلك « القوى الكبرى في العمران ثلاث وهي الصناعة وافعالها الاعتمال للمعاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش» فمن يزعم ان العمران يتم بقوة او قوتين من هذه الثلاث دون الثالثة او ان احداها اشرف بالطبع من غيرها فزعمه باطل وهو في جسم العمران كرية لا تخلو من العفونة بل يخشى ان ينتشر منها الفساد . اه

( المجلد العاشر من المقتطف سنة ١٨٨٥ )

انباءها الى الدماغ وتحصر فيهِ لذاتها وآلامها وتشكو لهُ حاجاتها وتخبره باختلال احوالها كأن الجسم كلهُ مختصر فيهِ . ووظيفة الدماغ الصحيح كما يقول سپنسر هي التعديل بين المصالح المختلفة الطبيعية والعقلية والادبية والاجتماعية وذلك هو وظيفة الحكومة المطلوب منها التعديل بين مصالح البشر المختلفة بحيث ان كلاًّ منهم ينال حقهُ بدون ان يضرَّ بالآخر

***

على ان بعضهم يرى ان نظر سپنسر في تعيين وظيفة الدماغ والحكومة وان كان مصيباً الاَّ انهُ قاصرٌ في بابهِ لان الدماغ وان كان نائباً عن الجسم كلهِ في مصالحهِ المنفعية والحبية الاَّ انهُ ليس نائباً بسيطاً وقاضياً يقضي في المصالح المذكورة لتعديلها فقط بدون ان يزيد شيئاً عليها بل هو ايضاً عضو الفكرة والارادة والروية فكثيراً ما يدفع الجسم من نفسهِ نحو امرٍ انقياداً لفكر رفيع . والانسان كثيراً ما ينكر مصلحة نفسهِ القريبة لقضاءِ مصلحة اعظم كنشر حقيقة او ابداءِ تصوُّر جليل . فالحكومة لا يكفي ان تكون بمقام قاضٍ بسيط يقضي في مصالح الامة لتعديلها مقتصرة على الحاضر القريب بل يلزمها ان ترتفع فوق نفسها وفوق مصلحة البعض للنظر في المستقبل البعيد لان الجسم وان كان يحسُّ باحتياجاتهِ انما احساسهُ بها مبهم ولا يتضح على صورة الحس ولا الفكرة الاَّ في الدماغ . كذلك الاجتماع فيهِ حقوق كثير لا يحس بها الاَّ احساساً مبهماً مع شدة لزومها لهُ ولا تنجلي الاَّ للحكومة فالجهلاءُ مثلاً لا يشعرون بالاحتياج الى العلم مع شدة لزومهِ ولذلك كان ينبغي على الحكومة ان تسعى من ذاتها لتتميم المشاريع اللازمة كاقامة التعليم الالزامي مثلاً وعدم اغفال كل ما من شأنهِ ان يحفظ مستقبل الامة لئلاَّ يسبقها غيرها من الامم في معرض الارتقاءِ في هذا الوجود فتسوءَ حالها وتسقط في مهواة التهلكة والخسران

فسپنسر وان كان قد استوفى ما للميل الغريزي من اليد القوية في ارتقاءِ الامم الاَّ انهُ في نظر بعضهم قد اغفل امر الروية المتجمعة في الدماغ عن احساسات اجزاءِ البدن المبهمة التي يلزم ان تبلغ الغاية في الحكومة . هذا واذا نظرنا الى هاتين القوتين اي الميل الغريزي والروية ولم نفصل بينهما نرى انهما ليستا فقط علة كل اجتماع بل علة كل شيءٍ حتى العالم نفسهِ اذ العالم نفسهُ انما هو اجتماع كبير كل جزءٍ من اجزائهِ يشتغل

وتمَّ بضبط واعتناء وانتظام لا يصل اليهِ جهد افضل المنتبهين » فلو فرض ان رجلاً عهد عليه ان يقدم كل يوم لمدينة كبرى كاحدى العواصم المعروفة كفافها من الزاد وسائر ما تحتاج اليه لما امكنهُ القيام بهذه العهدة لكثرة الاحتياجات المذكورة واختلافها ولو أُلقيت هذه العهدة الى حكومة لما تمَّ لها القيام بها بانتظام ولانفقت عليها النفقات الباهظة اذ يحصل حينئذٍ ما يحصل لو كان الدماغ مكلفاً بالانتباه لكل ما يلزم لتمثيل الدم ولدورته في البدن ولاخراج كل مفرز من غدَّتهِ . فغذاء كل مدينة يصل اليها يومياً بدورة ذاتية حركاتها منتظمة كحركات النبض وتداخل الحكومة الموجب لا تكون لهُ نتيجة سوى تعاقب الشبع والجوع على المدينة . وتداخلها السالب يضمن لها حياتها اذ تستقيم معهُ حركة اسواقها ويصبح اناسها في مأمن بعضهم من بعض في اعمالهم وسائر احوالهم . فتعاون الناس بعضهم مع بعض بحيث لا يرفع احدهم نظرهُ الى ما وراء مصلحته كافٍ لان يفعل في صلاح حال العمران ما لا تستطيعهُ حكمة اعظم الحكماء وانتباه اعظم الحكومات

* * *

ولقائلٍ ان الافعال التي يفعلها الافراد تحت عامل المنفعة الذاتية وان كانت كافية في الاحتياجات المادية الاَّ انها ليست كذلك في الاحتياجات التي من غير هذا المعنى . فعلى ذلك يجيب سپنسر انهُ من الخطإِ ان يظن انه لا يوجد خارجاً عن المنفعة الذاتية الاَّ قوَّة اجتماعية وهي قوَّة الحكومة . أليس للبشر ما عدا احتياجاتهم الذاتية احتياجات حبية وهذه سواء فعلت وحدها او اشتركت ألا تحدث افعالاً جليلة كالافعال الحاصلة عن المنافع الذاتية . أتريد ان تعرف الافعال الاجتماعية للمحبة منفردةً كانت او مشتركةً انظر الى اعمال اهل البرّ والاحسان الصادرة عن الافراد او عن جمعيات خصوصية لا يد للحكومة فيها . فالمنفعة والمحبة في نظر سپنسر كافيتان وحدهما للقيام بكل احتياجات الجسم الاجتماعي كما انهما تكفيان لاحتياجات الجسم الحي والحكومة لا يطلب منها الاَّ ان تؤدي وظيفة شبيهة بوظيفة الدماغ اي ان تكون النائبة عن الامة في احتياجاتها المنفعية والحبية سالكة في ذلك سبيل العدل . فدماغ الحيوان مقرٌّ لنيابة حقيقية عن الجسم كلهِ يلزم ان تكون نموذجاً للحكومة . والامر بالحقيقة كذلك فان الاعضاء ترسل

الطبيعي مبينين فضل الحكم الملكي بمثال النحل او فضل الحكم الجمهوري بمثال النمل . انما لا ينكر ايضاً انه لا يجب ان يُغفل ادنى شيء في هذا الوجود حيث كل شيء ذو شأن . فتمثيل الجسم الاجتماعي بالحي يؤدي في نظر هكسلي الى حصر الحكومة في مركز معين حصراً شديداً حيث يقول « ان الدماغ يفتكر للجسم كلهِ ويشتغل لهُ ويحكم فيهِ حكماً مستبداً والاَّ لكان يحقُّ لكل عضلة في انقباضاتها ولكل غدَّة في مفرزاتها ولكل كريّة في افعالها ان ترفض كل حقّ للجهاز العصبي في ذلك بشرط ان لا تضر بسواها وكيف تكون حالة الجسم يا ترى لو كان كل عضوٍ من اعضائهِ يفعل افعالهُ من نفسه » . وردَّ عليه سبنسر ان الاعضاء قسمان ظاهرة وباطنة فاذا كانت القوة المنحصرة لازمة للظاهرة فليس الامر كذلك في الباطنة فهي تحتاج فقط لما فيها من القوة الغريزية ولا تطلب من الغذاءِ الاَّ المقدار اللازم لتعوَّض بهِ عن العمل الذي تعملهُ وهذا هو العدل في الاحياءِ . والامر كذلك في العمران فان الناس المحاربين في الخارج والذين هم بمثابة اعضاءِ النسبة الظاهرة في الحي يحتاجون ضرورة الى حكومة مركزية تدبر امرهم . وأما الذين في الداخل القائمون بحركة التجارة والصناعة والذين هم بمثابة اعضاءِ التغذية والدورة الباطنة فبالضد من ذلك يحتاجون الى الحرية فاحتياج الاجتماع الى حكومة حرة او مستبدة يختلف باختلاف كونهِ مؤلفاً من امة متعلقة على الصناعة او الحروب . فعلم الحيـاة لا يدل على الفوضى كما يتوهم بعضهم كما انهُ لا يدل على الاستبداد

* * *

وتداخل الحكومة ضروريٌّ في كل الاحوال انما هذا التداخل كما يقول سبنسر نوعان موجب وسالب فالموجب كما لو زرعت الحكومة ارضي أو اكرهتني على اتبـاع طريقة معلومة في الزراعة والسالب كما لو اقتصرت فقط على ردعي عن التعدي على ارض جاري والحاق الضرر بهِ . وهذا النوع الاخير من التداخل هو اللازم في الجسم الاجتماعي فلتضمن الحكومة تنفيذ المعاهدات اي العدل وهكذا تكون قـد تممت الوظيفة المطلوبة منها قال . الاقتصاديّ هويتلي « ان اهم الافعال التي تقوم بها حياة المملكة تتم بواسطة اناس لا يفتكرون بها ولا يعلمون انهم متشاركون بل يسعى كلٌّ منهم وراءَ مصلحتهِ فقط

الاجتماعات والممالك فالحياة كالازوت تتحول من حال الى حال مرتقية من ادنى الى اعلى الى ان تبلغ أرفع مقاماتها المعروفة . ألا ترى ان الفعل المسمّى طبيعياً كالحرارة والكهربائية لا يغير الاَّ أعمّ خصائص الاجسام فاذا زاد عن حدٍّ معلوم تحوَّل الى الفعل المسمَّى كيماوياً الذي يغير تركيبها وهو هو في الحالين ولم يتغير الا في الكمية . ولو كان في امكاننا ان نفعل على ما هو أدق تركيباً ونسلّط على الاجسام حالة خصوصية من الحرارة او الكهربائية او الحركة لاستطعنا ان ننبه الحس ونوقظ الحياة او الارادة من نومها العميق. فقد مرَّ على الكون زمن كان فيهِ النظام الشمسي مشتعلاً ولم تكن العوالم سوى دخان ومع ذلك فلا يبعد ان شرارة الحياة كانت موجودة في هذا الاتون الملتهب لانهُ ما لبث ان برد حتى ظهرت الحياة فيهِ . فالذي لا يعتقد المعجزات اي الذي لا يعتقد الاَّ العلم لا تفرَق الحياة عندهُ عما يسمّيهِ المادَّة التي هي نفسها ليست سوى مجموع قوىً او ارادات . فكل شيءٍ في العالم حيٌّ وكل شيءٍ فيهِ فرد واجتماع معاً . فعلم الحياة وعلم الاجتماع وعلم التكوين هي بالحقيقة علم واحد . والعالم نفسهُ مملكة عظيمة في حال التصوُّر وربّما يظهر فيهِ يوماً ما على صورة الفكر والارادة العاقلة كما ظهر فيهِ في الاصل على صورة حرارة او حركة او قوَّة

* * *

على ان الحكماء والطبيعيين غير متفقين على النتيجة السياسية المتحصلة من التاريخ الطبيعي ، بسبب ذلك حصل نزاع شديد بين اثنين من كبار الطبيعيين والحكماء في هذا العصر وهما هكسلي وسبنسر الانكليزيان. فهكسلي يكره جدًّا تشبيه الاجتماعات بالاحياء لاستخراج القواعد السياسية من ذلك لانهُ يزعم ان التاريخ الطبيعي لا يدل الاَّ على السياسة الاستبدادية . وأما سبنسر فيذهب غير مذهبهِ حيث يقول ان التاريخ الطبيعي يدل على السياسة الحرة ولا ينكر ان هكسلي مصيب في تنكره من التهافت على الاستقراء السريع لان علم الحياة وان كان يعلمنا على نوع ما هو الجسم السياسي وكيف صار الى ما هو عليهِ انما لا يركن اليهِ في معرفة ماذا يصير اليه يوماً ما . والعقل البشري ارفع من ان يتخذ الاحياء الدنيا مثالاً لهُ وينقاد لها انقياداً اعمى . ومن الخطإِ ايضاً الاعتماد على مشابهة ظاهرة ناقصة كما يفعل كثيرٌ من السياسيين ممن يبالغ او يخطيء في استدلالات التاريخ

فهما اشبه شيءٍ بالمقعرّ والمحدَّب . فالحس هو الكيفية التي تتصل الحركة بها الى مشاعرنا الباطنة والحركة الكيفية التي يتصل الحس بها الى المشاعر الظاهرة . حرّك ذراعك واغمض عينيك فانك تدرك الحس لا الحركة بخلاف الناظر اليك فانهُ يدرك الحركة لا الحس . فالحسّ اذاً هو ادراكنا الحركة الحاصلة فينا والحركة هي ادراكنا الحس الحاصل في سوانا . والاصل الذي يرجع اليه الحس والحركة هو القوَّة او بالحري الارادة التي هي اس كل وجود . وكل ما نعلمهُ يحملنا على الاعتقاد بان الحس موجود في العالم حيث توجد الحركة على صور تتفاوت في الوضوح والخفاء . ولا يخفى ان الفاصل بين الحيوان والنبات يعتبر اليوم صناعياً لا حقيقياً . والظاهر انه كذلك ايضاً بين النبات والجماد[١] نعم انه لم يستطع احد ان يولد كريّة حية من كريّة غير حية لكن هل يستطيع احد ان يولد دقيقة من الكبريت من غير الكبريت او دقيقة من الاكسيجين من غير الاكسيجين او من مادة لا اكسيجين فيها . ام هل يلزم من ذلك الاعتقاد ببساطة الاجسام الكثيرة المسماة عناصر ومن ثم القول بخلق خاص لكل من الكبريت والاكسيجين والكربون والهيدروجين والحديد والذهب الخ وهل يلزم كذلك القول بقوَّةٍ خاصة لكل دقيقة معدودة في الكيمياء بسيطة شبيهة بالقوة الحيوية. فالعلم يميل الى ضد ذلك اي الى التسليم بان الجواهر الفردة الكيماويّة ليست غير قابلة الانقسام قطعاً وانما لا تقبلهُ مع بقاء خصائصها فيها على حالها كما ان الجسم الحي لا يقبلهُ مع بقاء خصائصهِ فيه . كذلك الانسان فانك لو شطرتهُ شطرين ما بقي انساناً فهو من هذا القبيل جوهر فرد وأما من قبيل آخر فهو اجتماع

* * *

فهذه الاعتبارات تدلنا على ان الحياة موجودة في الطبيعة حيث توجد الارادة على درجات متفاوتة تارة هاجعة خفية كما في الجماد واخرى متنبهة ظاهرة كما في النبات وطوراً متمالكة متعارفة كما في الحيوان واخيراً متكاثرة متقوية باشتراك الارادات العاقلة كما في

(١) قال توات في مقالة نشرها المقتطف من عهد قريب ان الحد المقام بين النبات والحيوان لا وجود له وكلما تعمقنا في درس الجمادات نرى اوجه الفرق بينها وبين الاحياء تقل فالانسان يولد من ابوين والحيوان السافل من نظيره بالانقسام والنبات من نبات نظيره والظاهر ان ذلك كذلك في الجماد فقد بين جرنز بالامتحان ان الجماد كالحي يتولد من جماد نظيره

طبيعتها ايضاً لان الاجتماع اولى باسم العالم الاصغر من الانسان نفسهِ (١)

قد رأينا في ما مرَّ ان كل اجتماع انما هو تعاون يبتدئ طبيعياً بمحبة الذات والشوق وينتهي عقلياً باتفاق الارادات او التراضي في البشر . لكن ما هي محبة الذات أو ما هو الشوق نفسهُ سوى اول افعال الارادة فهذه بعد ان تريد ذاتها وحدها تريد سواها من الارادات الاخر لها ثم تريدهُ لنفسهِ ايضاً لان كل شيء كما قلنا يدور في الاصل حول مركز نفسهِ بالشوق الحاصل فيهِ اليه وفي الفرع حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه الى مركز سواهُ فالارادة على اختلاف انواعها جاهلة ام عالمة ذاتية ام مشتركة هي اسُّ كل اجتماع وجوهر كل حيّ وبهذا الاعتبار يقسم العالم الى ثلاث رُتب اوَّلاً الرتبة التي تكون الارادات فيها عمياء ذاتية كل واحدة منها تشتغل لنفسها كأن لا يوجد سواها وهي الجماد . ثانياً الرتبة التي تبتدئ الارادات فيها ان يحس بعضها ببعض ويجتمع بعضها ببعض لكن على سبيل الشوق البسيط فقط وهي النبات الحيوان . ثالثاً الرتبة التي تصير الارادات فيها عاقلة تدرك نفسها ويعرف بعضها بعضاً ويجتمع بعضها ببعض على سبيل الاتفاق والتراضي وهي الاجتماع البشري . فالاجتماع البشري هو الجدير بان يسمى حيواناً مريداً متراضياً وهنا مكان الوفاق بين مذهب الطبيعيين في الحيوان الاجتماعي ومذهب العقليين في العمران . فالواحد انما يبين اصل الاجتماع والثاني غايتهُ والصحيح ان الواحد لا ينبغي ان يُفصَل عن الآخر فتاريخ الاجتماع كلهُ قائم بالشوق البسيط اوَّلاً والتراضي اخيراً باستمالة الواحد الى الآخر . ولا ريب ان ذلك تاريخ العالم اجمع . فالافعال في الطبيعيات عمياء والسنن ثابتة وهي بالحصر كذلك في العقليات وانما اكتسبت في هذه من القابليات ما جعل فعل الارادات التي صارت عاقلة اظهر فيها فارتباط اعضاء الاجتماع بعضها ببعض اختياراً كارتباط اعضاء الحيوان بعضها ببعض اضطراراً

* * *

ومرجع ابسط صفات الحي الى الحس والحركة وهاتان الخاصتان هما بالحصر الحياة . والظاهر ان الحس والحركة هما ايضاً صورتان لشيء واحد احداهما باطنة والاخرى ظاهرة

(١) اشارة الى قولهم العالم الاصغر دليل على الاكبر

* * *

على ان سبنسر الفيلسوف الانكليزي لا يرى هـذا الكمال في حياة الاجتماع الفيزيولوجية لانهُ يقول ان في الحيوان جهازاً عصبياً هو مركز الاعمال العقليـة وأما في العمران فليس يوجد ما يشبه ذلك . وردَّ عليهِ بعضهم بقولهِ بل ذلك موجود ايضاً فان ادمغة الامّة بمثابة الدماغ . وان العواطف والحواس والنطق وسائر العلامات والكتابة والتلغراف وكل وسائط الاتصال بمثابة الاعصاب التي تنقل الحس وتوصل الحركة الى كل اجزاء البدن . وان العيال بمثابة العقد العصبية التي هي عبارة عن ادمغة صغيرة يجتمع الحس فيها ويقوى . والمدن بمثابة الفقرات والعاصمة من المدن بمثابة الرأس الذي هو فقرة عظمت حتى سادت على سواها . والعلماء والحكماء وكل الذين يرشدون الامّة هم بمثابة الكريات المرتقية في الدماغ الذي هو نفسهُ لا يزيد عن عقدة عصبية عظمت على سواها كما عظم الرأس على سائر الفقرات . فان كان اشتراك كل اعضاء العمران بالفكرة يجعل العمران ارفع جدًّا من سائر الاحياء فهذا الارتقاع لا يجوز ان يكون فرقاً جوهريًا كفرق الاحياء نفسها عما هو دونهـا . وعليهِ ففي الجسم الاجتماعي جهاز عصبي لوظائف النسبة كما فيهِ جهاز دوري وجهاز غذائي فهو حيٌّ تام لا ينقصهُ شيءٌ فيزيولوجيًا

لولا الهوى وبديعُ الشوق يَهديهِ ما صحَّ في الكونِ معنًى من معانيهِ
ولا سرى النجمُ في العلياء وانتظمت له المواقع تُقصيهِ وتُدنيهِ
ولا استقامت حياةٌ في الوجودِ ولا تمَّ الوجودُ ولا تمت مبانيهِ
شوْقٌ تكاملَ من أدنى الوجودِ الى أعلى فأعلى الى أعلى أعاليهِ
حتى تناهى وقلب المرءِ تُلهبهُ نارٌ من الحب يُذكيها وتُذكيهِ
نارٌ من الشوق في قلبِ المشوق ثوت تذكو فيُصلى ويغذيها فتُفنيهِ
ما زالَ والنارُ تذكو في جوانبهِ حتى تفانى بما قد كان يحييهِ

* * *

قال احد الحكماء اذا كان الانسان الكامل دليلاً على الجنين فبالاولى ان يكون الاجتماع دليلاً على سائر الموجودات التي تؤلف الطبيعة وعلى السنن الفاعلة فيهـا حتى

٭
٭ ٭

فالاجتماع الحيواني هو جسم حي تتعاون اجزاؤهُ كلها كما يقول ابقراط وتؤلف كلاً حيًّا يتعاون تارةً في اعمالٍ مشتركة كتعاون القندر في بناء بيوتهِ وبعض انواع الطير في بناء اعشاشهِ وتارةً في اعمال خاصة مما يدل على محبةٍ حقيقية بين اعضائهِ كمعاونة القرود بعضها بعضاً لنزع الشوك من جلدها واجتماعها على حجر كبير لكي تقلبهُ وانتصار بعضها لبعض لدفع نازلة ولو كان في ذلك خطر على حياة المنتصر . وقد تبلغ هذه المحبة فيهِ الى حدّ الاخلاص الشديد الذي هو من أخص صفات البشرية وأرفعها شأناً فقد ذكر برَهم ما يثبت ذلك في القرود قال « بينا انا واقف سمعت فوق رأسي صراخ قرد فنظرت واذا قرد صغير على شجرة قد تركتهُ امهُ وهربت مذعورة فصعد اليهِ احد اتباعي فلما أبصرهُ القرد صرخ صراخاً شديداً فالحال جاوبتهُ امهُ وارتدّت لتأخذهُ فصرخ حينئذٍ صرخة ثانية خصوصية جاوبتهُ امهُ عليها بصرخةٍ خصوصية كذلك فرماها احد الواقفين بالرصاص فانجرحت وولّت هاربةً لكن صراخ ابنها لم يدعها تبتعد كثيراً حتى رجعت اليهِ فرُميت ثانيةً بالرصاص فأُخطئت ولكن ذلك لم يمنعها من ان تثب الى الغصن بعد عناء عظيم فلما وصلت الى ولدها اسرعت فوضعتهُ على ظهرها واوشكت ان تبتعد بهِ واذا برصاصة ثالثة أُطلقت عليها رغماً عن ممانعتي فكانت القاضية ومع ذلك فلم ترمِ بولدها الى الارض بل ضمتهُ الى صدرها وهي تجود بالروح حتى قضت نحبها وهي تحاول ان تهرب بهِ » . وقال ايضاً « ان قرداً شيخاً هجم على الكلاب هجمة الاسود لكي يخلّص قرداً صغيراً من بين انيابها وما ارتدّ عنها حتى رجع به وقد حمله على منكبهِ » . فلا شك ان المبدأ الباعث على هذه الافعال يقرب جدًّا من مبدإِ اخلاق الانسان لا نقول في انسان مثل ارسطو ونيوتن مثلاً بل في متوحشٍ او طفلٍ صغير ثم يتحوَّل هذا المبدأُ من الشوق الاعمى في الكريات الحية الى بديهيات الحيوان الى معقولات الانسان حتى يكتمل في الاجتماع البشري فيصير الشوق محبةً والمحبة اخاءً والاخاء تعاوناً والتعاون عدلاً وتعيين الوظائف الرفيعة وانتخاب الرجال لها حكومة فتكتمل حياة الاجتماع العقلية كما تكتمل ايضاً حياته الفيزيولوجية

زالت المنفعة كما في المثال المتقدّم ذكرهُ

* * *

ولنعُد الى ما نحن بصدده فنقول قد ظهر ان المشابهة بين جسم الاجتماع والجسم الحي من حيث ارتباط اعضاء كلٍّ منهما بعضها ببعض هي مشابهة تامّة لان الرابط الذي يربط كلاًّ منهما هو واحد في الأصل وهو الشوق الاعمى الحاصل في المثل الى مثلهِ ثم يعقب ذلك في الاجتماع الحيواني تقسيم الاعمال والتعاون وذلك شبيهٌ ايضاً باختصاص الوظائف في الجسم الحي . ولا يخفى ان اختصاص الوظائف في الجسم الحي كلما نما زاد معهُ خضوع الاعضاء بعضها لبعض حتى يختص السلطان الاعظم بواحدٍ منها ( او باكثر من واحد ولكن بمقام الواحد ) الى ان تصير حياة هذا الواحد بمقام الكل كالدماغ في الجسم الحي المرتقي وهذا موجود في الاجتماع الحيواني ايضاً فان الحيوانات المجترّة والصفيقة الجلد والقرود يكون لكل جماعةٍ منها رؤساء تسود على الكل كما يسود الدماغ في الحي على سائر اعضاء البدن ثم يقوى سلطان هذا الرئيس حتى يصبح موضوع اعتناء الكل . ويتضح ذلك في جسم الاجتماع الحيواني اكثر مما في جسم الحي نفسهِ لان اعضاء جسم الاجتماع الحيواني يكون في تعاونها وخضوعها من الادراك والاختبار ما لا يكون في أعضاء الجسم الحي . فالرئيس في الاجتماع الحيواني كثيراً ما يستقرب اليه اتباعهُ بالتمليق وهو غير ذاهل عمّا لهُ عندها من رفيع المقام وما عليهِ لها من المسئولية ايضاً فقد حكى برهم ان اناث القرود يجتمعنَ حول القرد الشيخ ويبذلنَ العناية في تَفْليتهِ من القمل فيطيب نفساً بذلك ولكن لا تأخذهُ غفلة عن مصلحة الجمهور فهو دائماً يتظان يجيل عينيه من مكان الى مكان ويصعد من وقت الى آخر الى رأس شجرة عالية ليستكشف ما في الجهات المجاورة ثم يخبر سائر القرود بنتيجة استكشافهِ سليمة كانت او غير سليمة باصوات خصوصية مفهومة عندها . وهذه الافعال التي تربط افراد الاجتماع الحيواني وهي تقسيم الاعمال واختيار العمال هي الرابطة لافراد الاجتماع البشري ايضاً وهذا يدلنا على ان في الحيوان جرثومة ما هو نامٍ جدًّا في الانسان كما ان في الكريات الحية نفسها جرثومة ما هو نامٍ جدًّا في الحيوان

كل الجهاز العصبي . ولهذا كان الحيوان المدرك اذا أراد ان يتصوَّر هيئةً او ان يتذكَّر صوتاً يشرع في ان يقلّد تلك الهيئة ويحاكي ذلك الصوت ولا ريب ان الحركات والهيئات والاصوات المتعود عليها هي اسهل عليهِ من سواها مما لم يتعوَّدهُ . وكلما كانت عنهُ ابعد كان استحضارها عليهِ اصعب فيولّد فيهِ الكراهة لها ولذلك كان القرد يرتعب جدًّا من رؤية الحرباء . فاذا تكرَّرت هذه اللذة اشتدَّ الشوق لتجديدها حتى ينقلب الشوق مودَّة وتصير المودَّة فيزيولوجية بعد ان كانت عقلية . فتنتقل بالوراثة وتؤثر في الاعضاء بحيث يصير الاجتماع معها ميلاً غريزياً فيولَد الحيوان المدرك وصورة امثالهِ منطبعة على دماغهِ كما يولَد الطائر وصورة العش منطبعة على دماغهِ ويشتد هذا الميل بالانتخاب الطبيعي حتى يحصل الاجتماع اخيراً بالسليقة الغريزية

* * *

وذهب غيرهم وفي مقدمتهم دارون الى ان هذه المحبة سببها المنفعة وردَّ عليهم اصحاب القول الاوَّل بانهُ مسلَّم ان الحي لا يحفظ صفةً ان لم يكن لهُ منفعة منها ولكن قد يحدث اولاً ان تنشأ هذه الصفات عن اسباب غير المنفعة . فان الطائر المعروف بالابتر (Manchots) مثلاً اذ يكون على الارض يصطفُّ بحسب سنّهِ الصغار في جانب والكبار في جانب والاناث في جانب وتطرد كلُّ فئةٍ الفئة الأُخرى عنها والظاهر ان ذلك حاصلٌ فيهِ عن لذة اجتماع المثل بمثلهِ لا عن سببٍ آخر . وثانياً ان تكون الصفة النافعة في الاحوال العامة مضرَّة في بعض الاحوال الخاصة فتعشيش بعض انواع الطيور مثلاً بالقرب من مساكن البشر غير مفيد لهُ وكذلك اجتماع الببغاء وصراخها حول ما يقتل منها غير مفيد لها وقس عليهِ . فالميل الاجتماعي هنا لم ينمُ بالنظر الى منفعتهِ لانهُ قد يبقى هو ولا تبقى منفعتهُ وانما بالنظر الى اللذة الحاصلة للمثل من مثلهِ واذا دققنا النظر نرى ان اللذة والمنفعة مرجعهما الى الموافقة بالمطابقة . والموافقة بالمطابقة اعمُّ فقد تكون اللذَّة وقد تكون المنفعة وقد تكون سواهما . وهذه الموافقة لا تكون لجميع الاحوال بل لغالبها والصفات المكتسبَة عنها ترسخ حتى يعرض لها على مرّ الزمان ما يغلبها ويحوّلها عن حالها . ولذلك كانت الصفات المساة غريزيةً او بديهيةً تبقى زماناً طويلاً ولو

اي برباط عقلي . وقال غيرهم ان افعال الفريقين من نوع واحد لان الكريّات الحية التي هي اجزاء الحي اي اعضاؤهُ ليست عديمة الحس بل بالضد من ذلك هي ذات حس ايضاً اذ الحس الذي في الجسم الحي كلهِ انما هو هذا الحس عينهُ في حال التزيّد والتجمع . فارتباط اعضاء الحي بعضها ببعض ليس بالحصر فيزيولوجياً بل فيهِ شيء من العقل ايضاً وان يكن في حالةٍ دنيئة جدًّا ولذا يعتبر ارتباطاً عقلياً . وهذا ما يجعل علم الاجتماع المعروف بالسوسيولوجيا داخلاً في علم الحياة المعروف بالبيولوجيا . وليس في هذا القول شيء من الغلوّ والتكلف لان الحدود المميزة بين العلوم المختلفة كالحدود المميزة بين مواليد الطبيعة صناعية لا طبيعية

* * *

واذا تأمّلنا حقيقة الرابط الذي يربط كل اجتماع معاً سواء كان هذا الاجتماع بين كريّات الجسم الحي او بين افراد الحيوانات او البشر وجدنا انهُ واحدٌ في الاصل فالرابط بين الكريات الحية التي يتألف الجسم الحي منها ليس الا الميل البسيط المغروس في كل شيء لحفظ ذاتهِ اولاً لان كل شيء في الاصل يدور حول مركز نفسهِ بالشوق الحاصل فيهِ اليهِ وذلك هو محبة الذات المنفردة . ثم يتحوّل هذا الميل في الكريّات الى ميلٍ مركبٍ لحفظ ذاتها بحفظ ذات سواها لان اجتماعها بعضها مع بعض اجتماعاً بسيطاً في اول الامر لا بدَّ من ان يؤثّر في طبيعتها تأثيراً مهماً بحيث تصبح حياة بعضها متوقفة ضرورةً على حياة البعض الآخر . فالكريّة حينئذٍ لا تميل لحفظ ذاتها فقط بل لحفظ علاقتها مع سواها ايضاً لأن كل شيء في الفرع يدور حول مركز غيرهِ بالشوق الحاصل فيهِ الى مركز نفسهِ وذلك هو محبة الذات المشتركة ثم تحوّل هذه المحبة المشتركة العمياء الى محبةٍ مشتركةٍ عاقلة في اعضاء الاجتماعات التي لها قوّة الادراك لا الحس والتهيج فقط

* * *

واختلفوا في سبب هذه المحبة العاقلة بين الحيوانات المدركة فذهب قومٌ وفي مقدمتهم سپينوزا الى انها مسببة عن اللذّة الحاصلة لهذه الحيوانات من مشاهدة صورها في امثالها بناءً على ان اللذة قائمة بسهولة الفعل قالوا وأسهل الافعال على الحيوان استحضار صورة على صورتهِ كما هو مقرَّر من ان الاستحضار لا يتمُّ بواسطة الدماغ وحدهُ بل بواسطة

نزعهِ من الجسم ولا سيَّما في الحيوانات ذوات الدم البـارد وفي بعض الحيوانات اللبونة ايضاً كدب القطب . والكبد لا تزال تفرز الصفراء وتولد السكَّر بعد ذبح الحيوان ونزف دمهِ . وقد يكون تركيب بعض الحيوانات السافلة المائية مختلطاً جدًّا بحيث تشتغل اجزاؤُها بعضها لبعض وكلها للكل ومع ذلك فليس لها جهاز عصبي . فهي هنا في غنًى عن سلطان مركزي او قوَّة خارجة عنها تتولى تدبيرها وانما تفعل ذلك من نفسها بناءً على ما في العناصر التي تؤلفها من الافعال الذاتية اي من قابلية الحس والتهيج ومن ثمَّ من الاميال المنفعية والاشتياقية الموجبة لحصول المبادلة بينها كما يحصل التعاون بين البشر . فوظائف التغذية والنمو تتم بدون توسُّط الدماغ كما ترى

واما وظيفة الدماغ فقاصرة على الاعضاء الظاهرة اي اعضاء النسبة التي بها يعرف الحيُّ الاشياء التي من خارج فيأمرها باخذ اللازم منها واتقاء الضارّ اذ يكون لهُ عليهـا سلطان يتصرَّف فيها بحسب مقتضى الحال . فوجود جهاز عصبي والحالة هذه لهُ مركز كالدماغ مقتدر على ان يجعل الاعضاء تخضع لهُ خضوعاً تاماً لازم لسلامة الحيّ . على ان الجهاز العصبي نفسهُ لا يكون دائماً خاضعاً لسلطـان المركز اعني الدماغ بل للمراكز العصبية الثانويّة . ففي الحشرات كل عقدةٍ تحرّك الاطراف المتعلقة بها لمقاومة ما يمانعها . واذا دهم الانسان امرٌ يُخشى منهُ على عينيهِ فان جفنيهِ ينطبقان للحال بحركة ذاتية اي قبل ان يكون لهُ فرصة للتفكر بالخطر وبكيفية اتقائهِ . واذا عثر الى الامام فانهُ يقعنسس الى الوراء بحركة ذاتية لمقاومة العثرة او انهُ يستلقي الارض بيديهِ خوفاً من السقوط على الاعضاء الرئيسة ليتقي بذلك شرًّا اكبر بشرٍّ اصغر . فترى مما تقدم ان اعضاء النسبة الظاهرة نفسهـا تستغني في احوال خصوصية عن انتظار حكم الدماغ وتستقل عنه كما تستقل الاعضاء الباطنة

* * *

قال الذين يقيمون حدًّا فاصلاً بين الاجتماع والجسم الحي ان افعال اعضاء الاجتماع مغايرة في نوعها لافعال اعضاء الجسم الحي اعني ان افعال اعضاء الحي ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً فيزيولوجياً واما افعال الاجتماع فانها ترتبط بعضها ببعض بالحس والافكار

مدينة دخلها العدو فانهُ لا يدوم الا ما دامت القوَّة المثقلة على حركاتها المخمدة لانفاسها متغلبة عليها . فالرابط الذي يربط الاجتماع لا يتم نظامهُ بالاستبداد والقوَّة وان قام بهما احياناً لانهما ليسا من جوهر طبيعتهِ بل هما دليل على عدم كمالهِ . وفي الجملة فحيثما يبتدئ الاستبداد والقوَّة ينتهي الاجتماع الحقيقي بين البشر . والاجتماع البشري لا يقوم حقيقة الاَّ بالشوق الغريزي ولا يكمل الاَّ بالتراضي والاتفاق فبذلك يتم النظام الاجتماعي لا بسواهُ اذ تكون القوَّة المدبرة مستقرَّة في كل عضو من اعضائهِ بحيث يشتغل لنفسهِ ولسواهُ معاً من ذاتهِ وفي آن واحد

* * *

ولننظر الآن الى سياسة الطبيعة في الاحياء ونقابلها بسياسة الاجتماعات لعلنا نستنتج فوائد سياسية من ذلك . فاعلم ان في الحي كما في الجسم الاجتماعي افعالاً متروكة لعهدة كل شخص وغيرها متروك لعهدة مراكز ثانويّة او جمعيات خصوصية وغيرها لعهدة المركز الاعظم القائم مقام الجسم كلهِ . فاوَّلاً الحي يترك كل كريّة من الكريّات المؤلف منها تشتغل لذاتها تحت سلطان القوى المستقرَّة فيها . والعامل في هذه القوى مرجعهُ كما تقدم الى امرين المنفعة والشوق فكل كريّة تحس بنفسها وبجارتها بالشوق الكائن فيها اليها بحيث تصير مصلحة جارتها عندها كمصلحتها . ثم تجتمع الكريّات وتتألف باشتراك المنفعة والشوق وتتبادل الغذاء والحركات وذلك أشبه شيء بالمبادلة التي تقع بين البشر والحاصلة فيهم بدون تداخل القوَّة المركزيّة اي الحكومة بناء على ما فيهم من الاميال وما لهم من المنافع المشتركة لا لعلة اخرى

ثانياً يوجد في الحي مراكز ثانوية واعضاء مهمة على جانب من الاستقلال اشبه بممالك صغيرة في مملكة كبيرة وهي الاحشاء المختص بها إعداد الغذاء وتطهيرهُ وتوزيعهُ اعني بها المعدة والرئتين والقلب . فهذه الاحشاء غير خاضعة للعضو المدبر اعني الدماغ فالمعدة تهضم الطعام والقلب يوزع الدم في البدن والرئتان تطهرانهِ بتعريضهِ للهواء اراد الدماغ ام لم يرد . وقد يبلغ استقلال اعضاء التغذية مبلغاً عظيماً جدًّا فالامعاء لا تزال تفعل افعالها الخاصة ولو قطعت الاعصاب التي توصلها بالدماغ . والقلب لا يزال يضرب بعد

بثورة فيسيولوجية كبحران مثلاً او نوبة حمى تخلّصه من خطر الموت . وهذا يدلنا على انّ الاجتماع لا بدَّ له في بعض الاحوال من ثورة تخلّصه من خطر الهلاك . ويلزم ان تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن كانها اتفاق خفي بين اعضائهِ موافقة لاميالهِ اي ان تكون عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والاّ انقلبت شراً عليه . والثورة التي تكون كذلك هي ثورة لا تُغلب ولا تُقاوَم لانها ليست من افعال الآحاد بل هي عبارة عن تخلُّص الجسم كله مما ثقُلتْ وطأته عليهِ تخلُّصاً طبيعياً قانونياً [١] لانها ليست بالحقيقة سوى فعل سريع لقوًى متجمعة تجمعاً بطيئاً في زمن طويل اشبه شيء بالزوبعة التي تجمع في سنين كثيرة ولا تثور الاَّ في يوم واحد ثم تهجع ولذلك يقال ان النشوء هو القاعدة واما الثورة فامرٌ شاذٌ رديءٌ غالباً وان كان قانونياً نافعاً احياناً

* *

فيرى مما تقدَّم ان كلاًّ من نصراء الثورة والمحافظين يجد في التاريخ الطبيعيّ سنداً لمذهبهِ واتفاقهما انما هو في الحريّة والحريّة نتيجة لازمة متحصلة للسياسة من علم الحياة . فاهل الاستبداد الذين يعتمدون على العنف والقوَّة لا شك انهم يجهلون الصفة الحية للاجتماع ويعدونهُ كآلة مصطنعة ويتصوَّرون النظام الاجتماعي كالنظام المادي غير الحي . ففي الآلات المصطنعة غير الحية لا تجتمع الاجزاء بعضها الى بعض الاَّ بقوَّة خارجة عنها غير مستقرَّة فيها تحفظها ساكنة او تحركها . والوحدة الظاهرة فيها آتية من الصانع وهي في الصورة فقط لا في الحقيقة فان طبيعة العناصر فيها لم تتغير فالخشب يبقى خشباً والحديد حديداً والاجزاء المختلفة لا تتم العمل المطلوب الاَّ قهراً بسلسلة افعال قهريّة وكل جزء ميال من نفسهِ لابطال فعل الآخر واذا كان بينها تعاون او ظاهرُ اتفاقٍ فانما هو على ضد طبيعتها ولا يدوم . وكل نظام ملقىً قهراً غير مرتضًى بهِ لا بدَّ من ان يختل وهو تضام الاشياء الماديّة لا الحية . والسلام الظاهر والحالة هذه أشبه شيء بسلام

(١) كالثورة الفرنسوية فانه لم يصدّها شيء ولم يقوَ عليها شيء مع انه اعترضتها موانع داخلية وخارجية قوية جداً وما ذلك الا لانها كانت موافقة لميل الشعب كله وناشئة عن استعداده بخلاف الثورة المصرية العرابية فان نارها ما لبثت ان شبت حتى انطفأت ولم يبق منها في الامة جذوة كالنار في الهشيم لانها لم تكن ناشئة عن استعداد الامة بل عن مطامع بعض ذوي المناصب

كلي ناشيء عن التراضي والاتفاق بين كثيرين او بين الكل فهو اصلاح طبيعي قانوني . والفرق بين الطبيعي والصناعي ظاهر كالصبح . الاول موافق للطبيعة والثاني مضادٌّ لها . وبما ان الانسان طبيعيٌّ في الاصل كان كل ما يسير بهِ على غير المجرى الطبيعي غير نافع لهُ بل مضرًّا بهِ فسياسة الاجتماعات العاقلة ينبغي ان تكون طبيعية لكي تكون نافعة اي يلزم ان تكون موافقة لارادة الجمهور ولميلهِ والاَّ لم تحمدْ عائدتها لان الامر الجاري مجرًى لا يوافق ارادة اعضاء الاجتماع انما هو جارٍ على غير وفق الارادة الحيوية التي هي الرابط للجسم السياسي

* * *

ثم لما كان اجماع الارادات في العمران على امر غير ممكن غالباً وكان القسم الاكبر يبقى معهُ عدد قليل من الناس غير موافق لهُ كان لنا من ذلك قاعدة ثالثة في السياسة وهي ضرورة التدرُّج في الانتقال من حال الى حال بحيث لا تكون المباينة بين القديم والحديث والحاضر والمستقبل كلية والاَّ اعترض الانتقال موانع لا تقاوَم ولا تحمد معها النتيجة . وتشتدُّ الحاجة الى هذا التدرُّج كلما كانت النتائج الجامعة للارادات السابقة كالعوائد والاعتقادات أشدَّ وأرسخ . والحاصل انهُ يصعب جدًّا في جسم كبير كالحيوان الاجتماعي تغيير الجسم كلهِ دفعةً واحدة للزوم استعدادهِ الى الاحوال الجديدة بتوفيقهِ لها شيئاً فشيئاً . قال سبنسر ان الضرر الذي يلحق بالاجتماع من نزع شرائعهِ القديمة قبل إحكام شرائعهِ الجديدة حتى تصلح لان تقوم مقامها ليس أقل من الضرر الذي يلحق بحيوان من جنس ما يعيش بين الماء واليابسة اذا نزعت خياشيمه قبل ان تكمل رئتاه . فالنتيجة الكبرى المتحصلة من فيسيولوجيا الاجتماعات انما هي تفضيل النشوء على الثورة . واعظم وسائط الارتقاء بالنشوء انما هو الاتفاق الذي لا يقرر شيئاً الاَّ تدريجاً وبعد ان يتمَّ التراضي عليه

* * *

ولا ينبغي ان يُفهم من ذلك ان الثورات مضرَّة في جميع الاحوال كما يزعم بعض المؤرخين لانهُ توجد احوال خاصة لا يمكن تخلُّص الجسم المتواني والمريض فيها الاَّ

فترى مما تقدم ان المشابهة في الخلق بين العمران والحي تامة من كل الوجوه وفي ما يأتي سنبحث عن هذه المشابهة بينهما في الاخلاق

☆☆☆

واذا انتقلنا من النظر الى الكلّيات الكبرى المتعلقة بالعالم اجمع والمترتبة على تشبيه الاجتماع بالحي كما مرَّ آنفاً الى النظر في ما اختص منها بالاجتماعات البشرية كان لنا من ذلك نتائج تختص بالسياسة ذات بال نقتصر منها في هذا المقام على ما هو أهمّ

اولاً ان ارتباط اعضاء الجسم الاجتماعي بعضهـا ببعض على الصورة التي ذكرنا يجعل التأثير الواقع على العضو الواحد يمتدُّ ضرورةً الى سائر الاعضاء . فالشارع كالطبيب يلزمهُ ان يكون حكيماً في مداواة علل الجسم الاجتماعي لئلاَّ يداوي علّةً في عضوٍ فيحدث علّةً في عضوٍ آخر . فالالتفات الى طائفة من الناس وترك ما سواها ينمي الملتفَت اليها جدًّا ويضعف المتروكة فتفقد النسبة بين اعضاء الاجتماع اذ تُصبح فيهِ على طرَفي الضعف والقوة فيختلُّ نظامهُ ويأُول بهِ الحال الى السقوط والاضمحلال

☆☆☆

ثانياً اذا كانت الاجتماعات اجساماً طبيعية لا صناعية وكان الاجتماع نفسهُ حاصلاً لزوماً لا عارضاً أفلا يُستَدَلُّ من ذلك على ما يكون من سوءِ العقبى للاصلاحات العنيفة الجارية على غير المجرى الطبيعي اي الناشئة عن غير تغيرُّ الارادة العامــة تغيرُّاً ذاتياً . فالحيُّ لا يستطيع ان يحتمل تغييراً مهمًّا ما لم يكن هذا التغيير موافقاً لأميــال اعضائهِ غير مختلف عن طبيعتهِ ولقد تقدَّم ان الاجتماع حيٌّ متراضٍ اعني ان الذي يجمع اعضاءهُ ويربطها بعضها ببعض ليس الملاصقة البسيطة وانمــا هو الرابط الاراديُّ . وهو بمثابة الرابط الميكانيكي لانهُ يوجد رابط عقلي بين اهل المدنية وهو بمثــابة الرابط الميكانيكي بين الكريّات ولذلك وجب ان يكون التغيير الحاصل في الاجتماع موافقاً لارادة الجمهور او للقسم الاكبر منهُ . والاصلاح الملقى على عاتق الاجتماع ولا يقصد منــهُ الاَّ خير البعض او هو ناشيءٌ عن ارادة البعض فقط انما هو اصلاحٌ صناعيّ او قسري اي غير طبيعي جيءَ بهِ قبل وقتهِ ويخشى من عواقبهِ . وبالضد من ذلك كل اصلاح جزئي او

كل حي اعني الميل الباطن لحفظ الذات والتفاعل الظاهر مع الاشياء التي من خارج بما في ذلك من تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي واذا كان ذلك حياة فالعمران حي ايضاً كالنبات والحيوان بل حياتهُ أتمّ من حياتهما لانهُ اذا كان هناك قصد فانما هو في الاجتماع البشري لان هذا الاجتماع يدرك حاجتهُ ويقصد غايتهُ الخاصة والعامة معاً وهذا الفرق نسبيٌّ ايضاً كارتقاء سلسلة الاحياء بعضها عن بعض

وقد اعترض بعضهم على هذه المشابهة بين جسم الحي وجسم العمران فقال ان اعضاء الحي متصلة واعضاء العمران منفصلة وهو اعتراض ساقط وقول منقوض لان اجزاء العمران غير منفصلة حقيقة والاَّ لزم القول بالفراغ كما ان اجزاء الحي غير متصلة كذلك واذا كان بينهما فرق في ذلك فانما هو في بعد المسافات بين الاجزاء فقط كالفرق بين جسميهما فان جسم العمران اكبر من جسم الحيوان وهو فرق نسبي لا يصح ان يكون اعتراضاً . واعترض غيرهُ اعتراضاً يتعلق بالزمان فقال ان الحي يولد ويحيا ويموت بعد ان يمرّ باسنان معلومة والعمران وان كان يولد ويحيا كذلك الاَّ انهُ في زعمهِ لا يموت وهو غير صحيح ايضاً لان الامم والشعوب التي تتولد في العمران تهرم وتموت ايضاً والفرق بين العمران والحي في طول العمر فقط والعمران لم يتجاوز بعد سن الصبا وربما كان المستقبل يتهدد العمران كلهُ بالهرم والموت ككل حي سواهُ إما لتغلُّب نوع آخر من الانواع الحيَّة عليهِ وإما لتغير احوال ارضهِ التي هي مهد حياتهِ فيعرض لها من القواسر الطبيعية ما يفرّق اتصالها ويبدّد اجزاءها ويلاشي نظامها فيموت الاجتماع البشري ضرورة . على ان الارض ككل شيء سواها لا تتلاشى حقيقة وانما تتقلب احوالها وتتبدل اشكالها وتتفرّق اجزاؤها في محيط هذا الكون وتتحوَّل من حال الى حال وتبعث من صورة الى صورة متحركة على الدوام ومنتقلة في الزمان والمكان وهذا هو بالحقيقة الموت

وما الموت الاَّ عودةٌ بعد بدأةٍ    وما البعثُ الاَّ بدأةٌ بعد عودةِ
ولكنهُ موتٌ لنا عن وجودنا    وبعثٌ لأشتاتٍ لنا لا لجملةِ
سكونٌ لمن قد مات منَّا وراحةٌ    وان لم يكن فيهِ لهُ من سكينةِ

من اهل المكانة في العلم . والحقُّ انهُ لا يفهم بماذا تختلف هذه القوة عن سواها من القوى التي توهموا وجودها قديماً ككراهة الطبيعة للفراغ والقوة النابضة للشرايين وغيرهما من القوى التي عدَّها القدماء انيَّات مجردة مستقلة حتى ابان العلم فساد ذلك اذ لم يرَ فيها سوى اسباب طبيعية متصلة ومرتبطة بعضها ببعض . واما الثانية وهي الغاية فيفرض فيها على ما يظهر ان كل جزء من الحي موفَّق للكل بقوة عاقلة كائنة فيهِ او خارجة عنهُ . فان كان هذا هو المفروض حقيقة فالعلم اليوم في غنًى عنهُ لامكان تعليل المطلوب بأوفى بيان على وجه لا يقتضي هذا الفرض فان هذا التعاون الذي فيهِ يخدم الواحد الكل والكل الواحد انما هو نتيجة تفاعل متبادل بين الاعضاء فالعضو الواحد لا يهتمّ بغيرهِ ولا يشتغل الاَّ لخير نفسهِ وانما خيرهُ مرتبط بخير غيرهِ . والامر بالحقيقة كذلك فانهُ لا شيءَ اطمع من الكريات الحيـة التي تؤلف الجسم الحي اذ كل كريّة تطلب كل شيء لنفسها وتجذبهُ اليها والحياة ليست سوى اكتفاء هـذه المطامع . فالناظر الى النتيجة لا جرم يظن في اول الامر ان كل كريّة انما اشتغلت لسواها وهي في الواقع لم تشتغل الاَّ لنفسها بدون غاية سوى حفظ ذاتها وهذا كائن ضرورة بحفظ سواها ومرتبط بهِ ارتباطاً ميكانيكياً . ولذلك قال بعض الباحثين في العمران انهُ ينبغي لكل واحد من البشر ان يشتغل لخير نفسهِ فيشتغل لخير الكل . ولا يخفى ان تنازع البقاء كما هو مذهب دارون يجعل بين هذه الكريات التي هي بالحقيقة حيوانات صغيرة تنازعاً شديداً تكون نتيجتـهُ ملاشاة البعض العديم المناسبة وحفظ البعض الآخر المناسب لحيـاة الكل بالانتخاب الطبيعي . فتأخذ الكريات بذلك صوراً معلومة وتؤلف حيواناً معلوماً وهكـذا على مرّ العصور المتطاولة تتكون الانواع الثابتة الى حدّ محدود والمتغيرة في الاجيال البعيدة فان الطبيعة ليس فيها شيء ثابت ثبوتاً مطلقاً بل كل شيءٍ فيها في حال المصير فالتعاون بين اعضاء الاحياء ليس قصداً وانما هو نتيجة لازمة فقط

* * *

واذا تقرَّر ذلك فلننتقل من اجتماعات الكريات الحية الصغيرة التي تؤلف الاحياء الكبيرة الى اجتماعات البشر التي تؤلف الامم فاننا نجد في الاجتماع البشري نفس ما في

فعلها اي انها لا تعمل عملها من نفسها لحفظ الكل بل بالضد من ذلك فهي تميل دائماً الى ابطال هذا العمل . وهذا ما يمتاز بهِ الحي عن غير الحي ولذلك لم تكن الساعة حية واما العمران فحيٌّ لان كل عضو منهُ مركب من اعضاءٍ اخرى تعمل نظيرهُ لحفظ الكل كما في الجسم الحي فكل حيوان مركب من حيوانات أُخر أقل منهُ في التركيب. فان الكريّات الحية التي يتألف من مجموعها جسم كل حي انما هي اشخاص حية ذات حياة خاصة بها ولها اميالها وشهواتها وامراضها كأنها افراد البشر الذين يتألف من مجموعهم جسم العمران. والحيوانات الدنيا كالمفصلة والديدان يمكن تقسيمها الى اجزاءٍ تبقى حيَّة بعد التقسيم كأنها مملكة تقسمت بخلاف الآلات الصناعية . وربَّ معترض يقول ان ذلك لا يمكن في الحيوانات العليا فنجيب ان في امكان بعض اجزاءِ هذه الحيوانات ان يبقى حياً بعد موت الحيوان كالاظفار والشعر ويمكن فصلها كذلك من حيوانٍ والصاقها بحيوان آخر حيث تبقى حيَّة (١) فهي اشبه شيء بأمَّة اضيفت الى أُخرى واذا كانت الحيوانات العليا لا تستطيع ان تبقى حية بعد تقطيعها الى حدّ معلوم فذلك لان اختصاص الاعمال فيها اتمُّ منهُ في الحيوانات السافلة فهي أشبه شيءٍ باجتماعات بعض انواع الحيوان التامة الانتظام كالنمل فان المتعوّد منها على تحصيل قوتهِ بواسطة غيرهِ يموت اذا فصل عن البعض الآخر

* * *

وهذا التعاون بين اعضاءِ الاجسام الحيَّة بحيث ان الواحد يعمل لنفسهِ وللكل في آن واحد جرَّ معهُ قضيتين فاسدتين في حقيقة الحياة احداهما تتعلق بالسبب والاخرى بالغاية . اما الاولى فيفرض فيها ان كلَّ جزءٍ من الاجزاء الحيَّة لهُ فوق ميلهِ الخاص قوة خاصة تتولى امرهُ بالنسبة الى نفسهِ والى غيرهِ وهي القوة الحيوية التي عضدها رجال

(١) من غريب ما يزعم بعضهم ان الارجل المنزوعة من حيوان والملصقة بحيوان آخر لا تزال تخصُّ المنزوعة منه وانها تحيا بقوته الحيوية . قال والدليل على ذلك هو ان لون الشعر لا يتغير كأنه لا يمكن تعليل ذلك بتكوين الشعر نفسه وباستقلال الاعضاء التي تغذيه فيه مع استمدادها الغذاء والحياة من الحيوان الثاني ويترتب على زعمه هذا ان الحيوان يمكن انقسامه بدون انقسام حياته وهو من اغرب الاسرار

سنن الاجتماع وسنن الحياة وشفل الالماني يصف الجسم الاجتماعي كأنهُ يصف حيواناً وصفاً طبيعياً فيصف الخليَّة الاجتماعية اي العائلة والانسجة الاجتماعية واعضاء الاجتماع وروح الاجتماع وجيجري يجمل الاجتماعات بين الاحياء في كتاب لهُ في الحيوان ويصفها وصفاً طبيعياً وغيرهم ممَّن حذا حذوهم في هـذا العصر كثير . فلنبحث معهم لنرى اولاً هل يصحُّ تشبيـه العمران بجسم حي وهل السنن الفاعلة في الجسم الحي كالحيوان هي نفس السنن الفاعلة في العمران

فالجسم الحي مركب من اعضاء مختلفة ولكل عضو من هذه الاعضاء عمل خاص ومشترك معاً اعني ان العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الآخر ويعمل لهُ في آنٍ واحد فان المعدة مثلاً تعمل غير ما يعمل القلب والقلب غير ما يعمل الدماغ وكلٌّ من الدماغ والقلب والمعدة لازم للآخر . وكذلك العمران فانهُ مركب ايضاً من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة فالزارع يعمل غير ما يعمل الصانع والصانع غير ما يعمل الوازع وكلٌّ من الوازع والصانع والزارع لازم للآخر فهو من هذا القبيل كالحي تماماً . ولا تقتصر هذه المشابهة على الصفات الخاصة فقط بل تتناول العامة ايضاً فقد قال سبنسر وقولهُ حق ان القوى الكبرى في حيوان تام التركيب ثلاث وهي الغاذية وافعالها تهيئة الغذاء وآلاتها المعدة والكبد وما يتلوهما والمدبرة وافعالها تحصيل الغذاء وآلاتها الدماغ والاعصاب ومايتلوها والموزّعة وافعالها توزيع الغذاء وآلاتها القلب والشرايين وما يتلوها . وان القوى الكبرى في العمران ثـلاث كذلك وهي الصناعة وافعالها الاعمال للمعـاش والحكومة وافعالها تحصيل اسباب هذا المعاش والتجارة وافعالها توزيع هذا المعاش

* * *

ولقائل يقول اذا كان هذا التركيب شرطاً لازماً للحياة فهل يلزم منهُ ان تكون كل آلة مركبة حيَّةً وهل الساعة حيَّة فانها مركبة من آلات او اعضاءٍ مختلفة تعمل لغاية واحدة كذلك . فعلى ذلك نجيب ان الفرق بين الآلات الطبيعية الحية والصناعية غير الحية هو ان الاولى ذات اعضاءٍ حتى في أهمّ اجزائها تعمل لحفظ الكل نظيرها بخلاف الثانية فان اعضاءها نفسها غير مركبة من اعضاءٍ مختلفة نظير تلك ولا تفعل فيهـا نظير

انفصالاً . فرأوا مصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجمهور وبالعكس ارتباطاً شديداً حيث لا تتم حياة الواحد الاَّ بحياة الآخر لأنهم رأوا السنن الفاعلة في الاجتماع نفس السنن الفاعلة في الافراد . ولذلك قالوا ان الاجتماع لا تتمُّ معرفة طبيعتهِ وسننهِ الاَّ بمعرفة طبيعة الافراد وسننها كما ان الجسم الحي لا تتم معرفة سننهِ الا بمعرفة سنن الكريّات الحية التي يتركب منها . لان كل صفات الاجتماع في الخلق والاخلاق متصلة اليهِ من الافراد التي تؤلفهُ وكل صفات الافراد كذلك متوارثة فيهم ومنتقلة اليهم من الاجتماع فاذا استقرينا هذه السنن في تاريخ نشوءها الى اصلها الطبيعي خالين من الغرض والتشيُّع انتقل بنا البحث في الاجتماع من دائرة الشريعة والسياسة الى دائرة علم الحياة ودخلنا في قسم من العلم الاجتماعي يمكن تسميتهُ تاريخ الاجتماعات الطبيعي لان البحث حينئذٍ لا يقتصر على الحكم الوازع والاجتماعات السياسية بل يعم الاجتماعات البشرية كافة حتى الاجتماعات الحيوانية ايضاً . ولا يخفى ما يترتب على معرفة ذلك من الفوائد للعمران لان الفائدة انما تحصل للعمران اذا جرى الانسان فيهِ على سننهِ لا على ضدها والبحث فيهِ على هذه الصورة واجب ليعلم ايُّ السياستين أولى بهِ ألسياسة الحرة ام السياسة الاستبدادية وذلك اوَّل ما يعوّل عليهِ اصحاب العقول الحرة لتأييد آرائهم لان أصدق الادلة التي يجب الاعتماد عليها هي من العلوم الطبيعية . ثمَّ اذا استقرينا هذه السنن الى اصلها ايضاً انتقل البحثُ بنا ضرورةً الى العلوم الطبيعية لان السنن الفاعلة في الكريات الحية هي نفس السنن الفاعلة في جواهرها الفردة ولذلك كان البحث في علم الاجتماع — تاج العلوم البشرية — من اعظم المباحث لمعرفة سرّ الحياة الكلية المستولية على عامة سنن الكون

* * *

وتشبيه العمران بجسم حي قديم جدًّا . فالفلاسفة المتقدمون كافلاطون وارسطو شبهوهُ بحيوان كثير الرؤوس وفلاسفة القرن الثامن عشر كشكسبير وروسُّو وصفوا لهُ اعضاءً ايضاً ولكن هذه المشابهة مجازية عند اكثر المتقدمين قياسية عند اكثر فلاسفة القرن الثامن عشر وتعتبر مشابهة بالمطابقة اليوم . فان سبنسر الانكليزي لا يفرق بين

# المقالة الخامسة

## تاريخ الاجتماع الطبيعي

كلما ارتقى الانسان في العلوم الطبيعية قلت الحاجة به الى اجهاد القوى العقلية والالتجاء الى العلوم الجدلية والتعطش الى قراءة الاقاصيص الخيالية الخرافية والتحليلية المزعوم انها وصف حقيقي للعواطف وأصبح شأنها حقيراً وهو اليوم يحسبها من صناعات الآداب الراقية وما هي بالحقيقة الا من مختلقات الوضع المناقضة للطبع والتي ضررها اليوم أشد جداً من ضرر الفلسفة القديمة ومن ضرر علم الكلام وعلم اللاهوت في العصور المظلمة لانها طمت على الاجتماع كالسيل الجارف حتى أغرقته فيها وما كان فضل فرنسا في ثورتها الاجتماعية السياسية ليعادل ضررها بعد ذلك في منهجها هذا النهج وهي عماد هذه الاقاصيص اليوم

تقدم القول في مقالة « الاجتماع البشري والعمران » ان من الناس من يذهب الى ان الاجتماع نتيجة الفكرة وحدها وخصَّهُ بالانسان ومنهم من يذهب الى انهُ طبيعيّ فيهِ وأطلقهُ على الحيوان . اما الاول فقول اكثر الحكماء المتقدمين . وأما الثاني فقول اكثر الحكماء والطبيعيين المتأخرين وسترى مما نبسطهُ لك فيما يأتي اي القولين أحق وأولى

ان البحث في العمران لم يكن في القديم الاَّ من همّ بعض الحكماء ولم يبنَ على قواعد راهنة الاَّ في هذا العصر وقريباً من هذا العهد وعما قليل سيصير درس سننـهِ من اول الضروريات للانسان لان ارتقاء الانسان في التمدن لهُ نتيجتان لازمتان وقد طالما عدَّهما الناس متناقضتين وهما نموّ الحياة الشخصية ونموّ الحياة الاجتماعية معًا . فقد كان الاعتقاد سابقًا ان ما يبذلهُ الفرد في مصلحة الجمهور انما يبذلهُ من مصلحـة نفسهِ وبالعكس . ولم يكن يظن ان بين المصلحتين ارتباطاً شديداً ولذلك كانت شرائع البشر في القديم أشدَّ انحرافًا لجانب الاستبداد وأقلَّ احترامًا لجانب العدل في التعاون والاشتراك في المنفعة . ولم تنجلِ هذه الحقيقة كما ينبغي الاّ في هذا العصر اي بعد ان رسخت معارف البشر في العلوم الطبيعية وانجلى لهم بها ارتباط سنَّة هذا الكون فرأوا اتفاقًا حيث كان سواهم يرى

اليوم لاثبتوا لهُ السبق على داروين ولامرك في مذهبهما باحقاب متطاولة وان لم يقصد ذلك نظيرهما — هو قولهُ « واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمهى والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها . فالغزال اخو المعز والزرافة اخت البعير والحمار والبقر اخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك الاَّ لاجل ان الخصب في التلول فعل في ابدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثرهُ والجوع لحيوان القفر حسَّن في خلقها واشكالها ما شاء »

* * *

الاَّ انهُ اي ابن خلدون وان كان قد اشبع الكلام في اثر الاسباب الطبيعيَّة انما لم يذكر تأثير الاسباب الادبية كما فعل ابقراط ولا يخفى ما لهذه الاسباب من شديد الاثر في ذلك والحق يقال انهُ يصعب استيفاء الكلام في هذا الموضوع جملةً ومبوَّباً ولو في مجلدات ضخمة لكثرة هذه الاسباب وامتزاجها واختلاف نتائجها بحسب ذلك مما لا يقع تحت ضبط كما اشرنا اليهِ في ما تقدم

فهذه الاسباب الطبيعية والادبية مع ما يعرض لها من الامتزاج والاختلاف انما تؤثر تأثيراً شديداً في العمران لشدَّة تأثيرها في الانسان وهذا هو السبب في عدم تساوي البشر في صفاتهم ونظاماتهم وعلومهم وصنائعهم ولغاتهم وسائر ما يتعلق بهم لعدم استواء الاسباب المؤثرة في طبائعهم واخلاقهم انما لم يكن يمتنع اصلاح احوالهم بالاسباب الادبية لما للانسان من الاقتدار بها على التأثير في الاسباب الطبيعية نفسها وجعلها اصلح الاحوال لهُ لان الانسان وان كان منفعلاً لهذه الاسباب بحسب طبيعتها الاَّ انه قادر كذلك على تغييرها وتبديلها واتقاء شرها واستدرار خيرها بما لهُ من حدة المدارك وقوة الاستنباط . لذلك كان من الواجب عليهِ ان لا يغفل شأن معدَّات التربية العقلية كالتعليم والنظامات السياسية وسواها لئلاَّ يفقد بفقد الصالح منها عامة فوائد العمران ويسقط في مهاوي التهلكة والخسران

وبالنظر لما للانسان من الاقتدار على تغيير الاحوال الطبيعية وتحويل اثرها فيهِ لما يناسبهُ. وربما كان هناك اسباب أُخرى ايضاً كالانتخاب الطبيعي والجنسي كما يذهب دارون والقوت والامراض وغير ذلك . والحق ان التعليل عن لون البشر لا يزال غامضاً الاَّ انهُ لا ينكر ان لضوء الشمس والحرّ كسائر الاسباب الطبيعية ايضاً اثراً فيهِ لما يعلم من تأثر المادَّة الملونة للجلد ( والموجودة في جلد البشر عموماً ) تبعاً لطبيعة الاقليم بحيث يزيد افرازها ويقلُّ بحسب حرّ الاقليم وبردهِ كما يقول المشرح صابي

* * *

ثم يصف ابن خلدون تأثير ذلك في الاخلاق فيقول « ومن خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح تأثير الاقليم والحر – الى ان يقول — ونجد يسيرًا من ذلك في اهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول · واعتبر ذلك ايضاً في اهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية او قريب منها كيف تغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يذخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة اكلهم من اسواقهم » . اقول وربما كان لعدم اذخارهم القوت سبب آخر غير الغفلة التي اشار اليها ابن خلدون فلا يخفى ان ما ينشأ في بلاد باردة من انقطاع المواصلة بين اهلها بسبب البرد والمطر والثلج يولّد في سكانها الحيطة خوفاً من ذلك فيذخرون اقواتهم لسنة بل ولا كثر من سنة بخلاف سكان البلاد التي يندر مطرها ويقل بردها فهم لا يرون لزوماً لان يحتاطوا لامرٍ لا يخشون وقوعهُ

وقد ذكر تأثير الخصب والجدب بما ينطبق على قولنا « وسكان بلادٍ ليّنة التربة كثيرة السهول والبطاح كثيرة الخصب واسعة الرزق قلما يحتاجون الى جهد البدن والعقل للحصول على الرزق والإثراء فان ارضهم تنبت ما يكفيهم وربّما ثبطت منهم الهمم بقدر سعة العيش مثل بلاد مصر فان نيلها يفيض التبر وارضها تنبت الذهب »

ومن عجيب ما ذهب اليهِ في هذا الباب — مما لو اطلع عليهِ علماء طبائع الحيوان

ذلك حتى يظن في اماكن كثيرة انهُ نقل عنهُ . قال في ارجوزتهِ متكلماً عن سبب اختلاف اللون في البشر

بالزنج حرٌّ غيّر الاجسادا     حتى كسا جلودهـا سوادا
والصقلب اكتسبتِ البياضا     حتى غدت جلودها بضاضا

* * *

وممّن افاض في هذا الموضوع ابن خلدون في مقدمتهِ حيث بسط الكلام على تأثير الحرّ والبرد والهواء والقوت والمكان وغيرها بما لا يعهد لهُ مثيـل الاَّ عند علماء طبائع الحيوان اليوم . قال من كلام طويل لهُ في ذلك ما نصهُ « وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤُوسهم مرتين في كل سنة قريبـة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلهـا ويلح القيظ الشديد عليهم وتسودُّ وجوههم لافراط الحر — الى ان يقول — وليست هذه الاسماء لهم من قبل انتسابهم الى آدميٍّ اسود لا حام ولا غيرهِ . . ثم يقول . ونظير هذين الاقليمين ممـا يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما ايضاً البياض عن مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرئيّ العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها وتنتهي الى الزعورة . ويتبع ذلك ما يقتضيهِ مزاج البرد المفرط من زرقـة العين وبرش الجلد وصهوبة الشعر » وهذا التعليل ربما لا يوافقهُ فيهِ كثير من العلماء اليوم لانهُ لم يتحقق لهم اثر الحرّ والبرد في توليد اللون . فقد ذكر كنوك نقلاً عن سميث ان الهولانديين الذين قطنوا افريقيا الجنوبية لم يتغير لونهم في مدّة ثلاثة قرون وذهب دي كاترفاج الى ان طوائف النور واليهود لم يتغيروا مع انهم منتشرون في عامة الاقاليم من عهدٍ طويل . والصحيح انهم لم يتغيروا تغيراً مهمًّا الاَّ ان هذه الادلة لا تفيد شيئاً عظيماً ضـدّ هذا الاثر لقصر الاحقاب المذكورة بالنسبة الى الاعصار المتطاولة التي توالت على الانسان

الى الغزل والتصابي في شعرهم . وما كان بين ذلك كانت طباع اهلهِ بين ذلك ايضاً ولا يمكن الاطلاق في مقام التقييد لان اسباباً اخر كثيرة عامة وخاصة اذا اشتركت مع ذلك لم تبقِ هذه النتائج على حالها بل غيَّرت من امرها و بدلت تبديلاً كبيرًا

⁂

وممَّن تمعَّن من الاقدمين بما لطبيعة هذه الاسباب من الاثر في طبيعة الارض وسكانها ابو الطبّ ابقراط قال في عرض كلامٍ لهُ في هـذا المعنى ما نصهُ « ان آسيا تختلف اختلافاً عظيماً عن اوروبا بطبائع محاصيلها وسكانهـا فكل ما ينبت في آسيا اقوم خَلقًا واعدل خُلقـاً وسبب ذلك اعتدال فصولها فانها لوقوعها بين شروقي الشمس ( الشتوي والصيفي ) هي معرضة للحر بعيدة عن البرد وهـذا هو سبب خصبها وجودة محاصيلها واعتدال اقليمها . وهي ليست متساوية في كل الاماكن فما كان منهـا واقعاً متوسطاً بين الحرّ والبرد كانت اثمارهُ اخصب واشجارهُ اجمـل وهواؤُهُ ارق ومياههُ مطراً كانت ام ينابيع اصحّ اذ ليس فيهِ زيادة حرّ تحرقهُ ولا قلة مياه تيبسهُ ولابرد قارس يميتهُ بل هو دائمـاً نديّ بسبب امطارهِ الغزيرة وثلوجهِ الكثيرة فارضهُ لذلك كثيرة الخصب زرعاً مزروعاً كان ام نباتاً تنبتهُ الارض من نفسهـا وحيواناتهُ كبيرة كثيرة النتج وسكانهُ سمـان واشكالهم جميلة وقاماتهم معتدلة وقلما يختلف احدهم عن الآخر . وهذه القارة ايامهـا اشبه بالربيع لاعتدال فصولها انمـا ليس لاهلها بسالة الرجال ولا الصبر على الملمات ولا الثبات في الاعمال و يغلب عليهم حبُّ اللذات ... وامم اوروبا تختلف بعضها عن بعض بالقد والشكل لشدَّة اختلافات فصولهم وكثرتها . الى ان يقول . لذلك فيما ارى كان اهل اوروبا يختلفون فيما بينهم اكثر من اهل آسيا وكان اهل البلد الواحد يختلفون في القد لان تكوين الجنين يختلف في اقليم تكثر فيـهِ اختلافات الفصول اكثر من اقليم تتشابه فصولهُ وكذلك يحصل في الاخلاق لذلك كان اهل اوروبا اشدَّ نجدةً للحروب من اهل آسيا » اه

⁂

وكذلك تكلَّم الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب القانون وقد نحا نحو ابقراط في

الابطاء لئلاّ يستبد الرأس الحاكم بالحكم اذا طال عهدهُ وهو قابض على ذمامهِ كما وقع لنابوليون . وينتخب الرأس من آحاد الامة ويوجب لهُ هذا الانتخاب عندها ما لهُ من الحكمة والدراية بالامور فيتعاون مع رجال الحكومة على اتمام الحكم في الامة وعليها على قوانين الشورى الحقة . قالوا وهذا النظام كثيراً ما لا يبرأ من الخلل الاَّ انهُ ابلغ ما في طاقة البشر ادراكهُ بالفعل

* * *

ومن ينظر في العمران ينبغي ان لا يذهل عمَّا للاقليم من الاثر فيهِ اذ لا يستوي العمران في كل الاصقاع لاختلاف طبائع اقاليمها ولا في كل الاجيال لاختلافهم في الخلق والخلق وسبب ذلك لان الانسان متأثر لعامة الاسباب الطبيعية من حرّ وبرد وهواء وخصب وجدب ونجد وغور وجبل وسهل وبادية ومصر واختلاف فصول وغير ذلك ما بين اعتدال مزاج واختلاف تكوين وشدَّة واسترخاء وحزم وثبات وطيش وخفة وخشونة ولين ونشاط وتوانٍ وغفلة وذكاء وبلادة وكل ذلك يؤثر في عاداتهِ وسياساتهِ ونحلهِ ويؤثر بعضهُ في بعضٍ ايضاً بحيث تختلف النتائج عن ذلك اختلافاً جسيماً وتتنوع الى ما لا حدَّ لهُ . فانك اذا قابلت بين سكان صقع وصقع تجد بينهم بوناً عظيماً في التكوين والاخلاق والسياسات والعادات وكذلك الاجيال الواحدة تختلف في الاحقاب المختلفة وسكان البلد الواحد يختلفون فيما بينهم حتى لا تكاد ترى اثنين يشبه احدهما الآخر بسبب ذلك

وربما امكن الحكم على طبائع كل قومٍ من طبائع اقليمهم بقطع النظر عن تاريخهم لان متولدات كل اقليم هي شبيهة بهِ لذلك كان اليونان الاقدمون في عصر الميتولوجيا يصلون آلهتهم نار الحرب وكان اكثر شعرهم حماسيًّا كما جاء في ديوان شاعرهم اوميروس لان شعر كل قوم مرآة حال ذلك القوم ولذلك ايضاً كان المصريون القدماء يعبدون التمساح وغيرهُ من اصناف الحيوانات العجم . ولهذا السبب عينهِ كان اهل بريطانيا يغلب على طباعهم الجد وعلى تصوُّراتهم العبوسة كما يظهر من تصوُّرات شاعرهم مِلْتن ولهذا السبب ايضاً كان العرب واهل ايطاليا واسبانيا يصبون الى الالحان الشجية ويميلون

المؤسّسة على معرفـة الانسان نفسهُ وما يجب لهُ وما يجب عليهِ في العمران فتنطبع على الاقدام والقيام بالاعمال الجليلة اذ تنهض منها الهمم وتشتدُّ العزائم فتمتد شوكتهـا في الاقطار ويتسع نطاق ملكها . قال أبقراط ايضاً « ولهذا السبب كان اهل اوربا أشد نجدةً للحروب من أهل آسيـا لانهم لا تحكمهم ملوكٌ نظيرهم فالخاضعون للحكم الملكي يفقدون الشجاعة ضرورة لان نفوسهم مستعبدة فـلا يهمهم التعرض للخطر لمد شوكة غيرهم وانما تحكمهم شرائعهم لذلك هم اذا رأوا الخطر محدقاً بهم اقدموا عليهِ بجسارة لان النصر عائدهُ عليهم »

*
* *

وذهب فريق الى ان هذا الحكم انمـا هو الحكم الملكي المقيّد وقال غيرهُ بل هذا النظام يشم منهُ رائحة الاستبداد وهو محفوف بالمخاطر لان الملك وان كانت الامة تقاسمهُ الحكم بمن تستنيبهم منها لديهِ لمراقبة اعمالهِ والذود عن حقوقها الاَّ انهُ لم يخلُ من بطانةٍ وعمال يهمهم التقرب لهُ اكثر من القيام بمصالح الامة فربما عاونوهُ على استمالة نوابها اليهِ اما لذهول هؤلاء عن المقاصد التي ندبوا لها او لخوف حرمانهم من المناصب بمـا للملك وخاصتهِ من السطوة والنفوذ فانقلبت نيابتهم فيها شراً وهدايتهم لها تضليلاً وساءت بهم مصيراً . ثم لما كان هذا النظام يخوّل الملوك حق الولاية بالسلالة كان لا يمتنع ان يتولى منهم من يكون خامل الذكر فاقد الحزم فتتلاعب بهِ اغراض عمّالهِ وتتجاذبهُ اهواؤُهم وهو فاقد الرشد لا يميّز غث الامور من سمينهـا فيتطرّق الخلل الى امور المملكة من وجوهٍ شتى حتى تصبح

كريشةٍ في مهب الريح طائرةٍ لا تستقرُّ على حالٍ من القلَقِ

وبالجملة ذهبوا الى ان الحكم الوازع يمتنع ان يكون مقيّداً حق التقييد في مثل هذا النظام الاَّ اذا كان فيهِ الملك صورةً لا حقيقةً كما يعهد في بعض الامم (امّة الانكليز) وهي مع ذلك اصلح الناس حالاً . ولذلك قالوا لا بدَّ من ان يكون حكم التبديل شاملاً لعامة الهيئة من الملك الى العامل البسيط مع مراعاة جانب الحكمة في هذا التبديل اجتناباً لشر العجلة اذا كان سريعاً فتتبدَّل الدول ولا تكون فرصة للعمل وفراراً من سوء عقبى

يغلب فيهم الرياء هم قومٌ لا يصدّقون ولا يصدقون فيختل نظـام الملك ويسوء حال الرعية وتفقد على مر الزمان استقلالها في عالم الوجود . قال ابقراط في كتاب الاهوية والمياه والمساكن « لذلك كان أهل آسيا أقل نجدةً للحروب من أهل اوربا لان اعظم قسم منها تحكمهُ ملوك وحيثما كان الناس عبيداً لسواهم فهم لا يهتمون بأن يتمرنوا على السلاح بل ان يتخلصوا من التجند لان الخطر غير موزَّع على السواء . فالرعايا يذهبون للحرب متحملين مشقاتها ويموتون عن سادتهم بعيدين عن اولادهم ونسائهم واصدقائهم وسادتُهم هم الذين يجنون ثمرة اتعابهم لمد شوكتهم واما هم فلا ينالهم غير اقتحام الاهوال والموت . ومما يؤيد ذلك ان جميع الذين في اسيا من اليونان والبرابرة ممن لا سادة لهم بل هم يتولون الحكم فيهم وعليهم بشرائعهم ويشتغلون لانفسهم هم بين سكانهـا انجدهم للحروب واقدمهم على الخطر لانهم هم الذين يجنون ثمرة بسالتهم ويتحملون عار جبنهم » .

لذلك قالوا ان الحاكم ينبغي ان يكون مقيداً بسننٍ تضعها الامة وان يكون مسئولاً لها بها وهذا النظام لهُ فوائد جمة اوّلاً ان الحاكم لا يكون معهُ مطلق التصرُّف فاحكامهُ في الامر والنهي لا تجري الاَّ اذا كانت مطابقة لوضع السنن المقرَّرة والتي يحافظ عليها رجالٌ من مشارب مختلفة وآراء متباينة تعهد الامة اليهم بها . ثم لما كانت احتياجات الامة تختلف باختلاف احوالها كان هذا النظام موجباً من هؤلاء الرجال للنظر في هذه السنن لتعديلها من وقتٍ الى آخر بحيث تكون موافقة للحال ويكون ذلك بالاشتراك مع الامة التي يطَّلعون على آرائها ومناويها ويفهمون مقاصدها ومغازيهـا اذ لا يكون معهُ حجرٌ على الافكار . وهذا الامر من طبعهِ ان يثير حرباً في الآراء والمذاهب تكون نارها برداً وسلاماً على الامة . لان المضادة التي تنشأ حينئذٍ تكون نتيجتها اعطاء الاشياء حقها من التمحيص قبل اقرارها والوقوف فيها عند حد الاعتدال والاَّ ان لم تكن المضادة في الآراء لم يمكن تمحيصها بنار الانتقاد ولا الاعتدال بها اذ تنفرد بها النفوس ويقوى بها التشيع والنفس اذا خامرها تشيعٌ كان ذلك التشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد فتجمح الى ركوب متن الافراط او تسقط في مهواة التفريط . ولا يخفى ما لذلك النظام من الاثر في تحسين احوال الامة وعلومها وصنائعها لما ينمو فيها من فضائل الحرية القانونية

بالهدايا ليتقووا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا بهِ ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل . فان جاء متظلم حيل بينهُ و بين الدخول اليك فان أراد رفع قصة اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً ينظر في المظالم فلا يزال المظلوم يختلف اليهِ وهو يدافعهُ خوفاً من بطانتك فاذا صرخ بين يديك ضُرب ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيرهِ وانت تنظر ولا تنكر فما بقاء الاسلام على هذا . فان قلتَ انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله في الطفل يسقط من بطن امهِ وما لهُ في الارض مال وما من مال الاَّ ودونهُ يدٌ شحيحة فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يعظم رغبة الناس اليهِ . ولست الذي يعطي وانما الله عزَّ وجلَّ يعطي من يشاء بغير حساب . وان قلت انما اجمع المال لتسديد الملك وتقويتهِ فقد أراك الله في بني أُميّة ما أغنى عنهم ما جمعوهُ من الذهب والفضة وما اعدُّوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله ما أراد . وان قلت انما أجمعهُ لطلب غايةٍ هي اجسم من الغاية التي انت فيها فوالله ما فوق الذي انت فيهِ منزلة الاَّ منزلة ما تُنال الاَّ بخلاف ما أنت عليهِ »

فلم يكن بدٌّ في مثل هذا النظام من تعظيم شريعة الله والاكثار من الهذيد بها تذكيراً للملوك وتهويلاً كما فعل الاعرابيُّ المذكور مع المنصور وكما فعل بهرام بن بهرام في حكاية البوم حيث يقول ايها الملك ان الملك لا يتمّ عزُّهُ الاَّ بالشريعة والقيام لله بطاعتهِ والتصرف تحت امرهِ ونهيهِ . » والاَّ قلَّ عدلهم وانتفى صلاحهم وكثر جورهم وهار بناء ملكهم اذ ليس لهمْ زاجرٌ سواها لانهم غير مسئولين في ما عهد اليهم من امور العباد الاَّ لله وحدهُ . هذا على فرض ان يكون الملك حليماً عادلاً فكيف بهِ اذا كان جباراً عاتياً كتيمور الذي كان كلما فتح مملكة او مدينة يبني من رؤوس اهلها هرَماً

* * *

قالوا ولهذا النظام ايضاً أثر لا يحمد في الاخلاق اذ تنحط معهُ الهمم وتضعف العزائم وتذلُّ النفوس بما يكثر من الظلم فيسود الرياء ويفشو الكذب لان الذين يغلب فيهم الظلم يغلب عليهم الرياء حتى يصير فيهم ملكة طبيعية فيقلُّ الصدق لان القوم الذين

واختلفوا في طبيعـة الحكم الوازع فقال قوم هو الحكم الملكي المطلق ورأسهُ الملك وقد اشار انوشروان الى ذلك حيث قال « ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيتهِ بنفسهِ واقتداره على تأديبهـا حتى يملكها ولا تملكه » وقال غيرهم بل هذا النظام مفسد للعدل الذي هو اسُّ العمران بمـا يولي الملك من السلطان المطلق على عمالهِ وعلى رعيتهِ اذ لا يكون لاعمالهِ منتقد ولا لأحكامهِ معدل فيعدل الى الاستبداد في أُمور الرعية ويستخدمها لأغراضهِ الخصوصية . واذ تستحسُّ الرعية منهُ بذلك تدين لهُ خاضعة خادعـة ويسود عليها مخضوعاً لهُ مخدوعاً . فيتقرَّب لهُ اصحاب الاغراض بالكذب في موضع الصدق وبالاطراء في موضع التنديد لان الناس متطلعون الى الدنيـا من جاهٍ او ثروة والنفوس مولعة بحب الثناء . ويسلك معهُ على هذا المنهاج عمَّالهُ وتبَّاعهُ وسائر بطانتهِ فيحجبون عنهُ صحيح الاخبار متزلفين اليهِ بما يزيدهم فيهِ استئثاراً وفي احوال الرعية استبداداً

حكى ابو الفدا في تاريخهِ قال « بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول اللهمَّ اني اشكو اليـك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهلهِ من الطمع . فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسألهُ عن قولهِ فقال لهُ يا امير المؤمنين ان أمَّنتني انبأتك بالامور على جليتهـا واصولها فأمنهُ فقال ان الذي دخلهُ الطمع حتى حال بين الحق واهلهِ هو أنتَ يا أمـير المؤمنين فقال المنصور ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي . فقال الرجل لأن الله استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وحجّاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الاَّ فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما احد الاَّ ولهُ من هذا الامر حق . فلمـا رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الاموال فلا تعطيها وتجمعها ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونهُ وقد سخر لنا نفسهُ فاتفقوا على ان لا يصل اليك من اخبار الناس الاَّ ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الاَّ اقصوهُ ونفوهُ حتى تسقط منزلتهُ ويصغر قدرهُ . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم النـاس وهابوهم فكان اول من صانعهم عمالك

او بالعصبيَّة التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادَّتهِ . فاهل الكتاب المتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل الارض ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانهُ يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوَّات وانهُ ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة » . وذهب فريقٌ الى ان السنن التي اصطلح عليها الانسان في باديء اجتماعهِ انما هي سنن العوائد وهي احكام تكليفية مرعية في المعاملات والمعايش انما الحكومة لا تشدّد في المحافظة عليها وهي تحصل للناس بالتربية والمحاكاة وتنشأ فيهم عن سليقة وهي اسبق كل السنن . وذهب سبنسر الى انها اصلها جميعاً لانها هي المرعية وحدها عند بعض الاجيال من البشر المنغمسين في التوحش كاهل استراليا وطسمانيا والاسكيمو وغيرهم ممن ليس لهم نظامات سياسية ولا دينية أو هي فيهم أثر من عينٍ. قالوا وقد كان زمام هذه النظامات السياسية والدينية أولاً في يد سلطانٍ واحدٍ ولم ينفصلا الا بعد حين اي بعد ان بلغ الانسان درجةً عالية في العمران كما تدلُّ احوال كثيرٍ من أجيال البشر اليوم وكما يعلم من تاريخ الامم العظيمة والملل الشهيرة . وذهب المحققون الى ان السنن ينبغي ان تكون تابعة للانسان لا متبوعة بهِ اي ان تكون متغيرة لا ثابتة ومقيدة لا مطلقة حتى تكون نافعة لهُ لا سبباً مانعاً لارتقائه والا لما قدر الانسان ان يخطو خطوةً عما يفرضهُ له نظام معلوم ولبقي في كل عصرٍ وفي كل جيلٍ كما كان في العصر الاول والجيل الاول من اجتماعهِ لان كل جيلٍ لهُ سنن لا تصلح لسواهُ فان لم تتغير هي لم يتغير هو . والحق ان احوال الامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرةٍ واحدة ومنهاج مستقرّ كما يقول ابن خلدون انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقالٌ من حالٍ الى حال الاَّ ان هذا التبدُّل في الاحوال والعوائد والنحل بتبدُّل الاعصار ومرور الايام يذهل عنهُ الكثير من الناس اذ لا يقع الاَّ بعد احقابٍ متطاولة فلا يكاد يتفطن لهُ الا الآحاد من اهل الخليقة

* * *

بحياة الكريّات الحية المؤلف منها الجسم الحي اذا كانت منفردةً . فهو لم يستطع النهوض بهذه الاعمال الاّ مجتمعاً فحياتهُ الاجتماعية اذاً ضرورية لحفظهِ ولراحتهِ ورفاهيته ولهذا نما فيهِ هـذا الميل للاجتماع الى حدٍّ بليغ جدًّا حتى وصفهُ الحكماء بقولهم الانسان مدنيٌّ بالطبع اي لا بدَّ لهُ من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم كما يقول ابن خلدون

ولكي يتمَّ له ذلك لا بدّ لهُ من سنن تكفلهُ ولا بدَّ من العدل في هذه السنن اي مراعاة مصالح الجمهور المتبادلة ولا بدَّ من احترامها كذلك والاَّ انفصمت عروة الاجتماع وتداعت دعائمهُ . لكن لما كان الانسان كثيراً ما لا يسلك من نفسهِ الطرق المثلى المؤدية الى ذلك اما عن عتوٍّ وغرور او عن جهل وذهول كان لا بدَّ لهُ من اقامـة قوّةٍ يناط بها المحافظة على المقرّر من السنن والاقتصاص ممن يحيد عن جادَّتها والاَّ آل به الحال الى الفوضى . اي لا بدَّ لهُ من وازع يكون منـهُ اذ لا يمكن ان يكون من سواهُ يدفع عدوان بعضهِ عن بعض ويهتم باصلاح شؤونهِ . وقد اشار أرسطو الى ذلك كله في دائرته المسماة في عرف السياسيين بالدائرة السياسيـة حيث قال « العالم بستان سياجُهُ الدولة والدولة سلطان تحيا بهِ السنّة والسنّة سياسة يسوسها الملك والملك نظام يعضدهُ الجنـد والجند اعوان يكفلهم المال والمال رزقٌ تجمعه الرعية والرعية عبيدٌ يكنفهم العدل والعدل مألوف وبهِ قوام العالم »

واختلفوا في حقيقة هذه السنن فذهب قومٌ الى انها الشرع المفروض من عند الله والاَّ لم يكن لها وقع في القلوب ولا نهيٌ عن المنكر وقال غيرهم بل هي الشرع على الاطلاق والاَّ لما اقتضى ان تتم العمارة للبشر قبل الانبياء ولا لامم غير تابعة لهم . قال ابن خلدون « وتزيد الفلاسفة على هـذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوَّة بالدليل العقلي وانها خاصَّة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايتهِ وانهُ لا بدَّ للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون وذلك الحكم يكون بشرعٍ مفروضٍ من عند الله يأتي به واحدٌ من البشر وانهُ لا بدَّ ان يكون متميزاً عنهم بما اودع فيهِ من خواص هدايتهِ ليقع التسليم لهُ والقبول منهُ حتى يتمَّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكارٍ ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانيّة كما تراهُ اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضهُ الحاكم لنفسه

# المقالة الرابعة

## الاجتماع البشري او العمران (١)

الغاية من الاجتماع البشري ويسمَّى العمران ايضاً التعاون على المعاش والاعمال في تحصيلهِ من وجوههِ واكتساب اسبابهِ . وذهبت طائفة من الحكماء الى ان الاجتماع نتيجة الفكر والرويَّة وقصرتهُ على الانسان وقال قومٌ بل هو طبيعيٌّ في الحيوان لما يُعهد من اجتماع النمل والنحل والجراد والقرود كما سنبيّن ذلك في ما يأتي وانما بلغ الغاية في الانسان لانهُ اقومها تكويناً وابعدها فكراً واقواها رويَّة . واجمعوا على انهُ ضروريٌّ للبشر والاَّ لم يكمل وجودهم ولم تتم حياتهم لان الانسان مضطرٌّ لدفع شرورٍ كثيرة عنهُ مثل الجوع والعطش والبرد والتعب وعدوان بعضهِ على بعض وعدوان الحيوانات الأُخر التي تساكنهُ ارضهُ وتنازعهُ الحياة فيها ولمقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة . ومحتاج كذلك الى مواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت والكساء والمساكن والاسلحة وغير ذلك مما يقتضي اعمالاً كثيرة فان كان منفرداً فهو لا يستطيع القيام بها جميعاً لان كل عملٍ منها يستغرق فيه حياةً كاملة وقد لا تفي بجزء منه فهو لا بدَّ لهُ من الاجتماع وتقاسم الاعمال حتى يتمَّ له التعاون بحيث يكون منه الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والحكيم وحتى ينتظم وجودهُ ويحسن حالهُ . ولهذا شبَّه الحكماء العمران بجسمٍ حيّ كسائر الاجسام الحيَّة مركَّب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة وهي سلامة بعضها وسلامة الكل . ووصفهُ بعضهم وصفاً طبيعياً نظيرها كما سيأتي . ولو اقتصر الانسان على الحياة منفرداً ما استطاع ان يتغذَّى بغير الاثمار او يكتسي بغير اوراق الشجر يخصفها عليهِ او يأوي الى كهوف الارض ولما امكن له اقامة القصور الشاهقة وبناء المدن الحصينة واتخاذ الملابس الحسنة الفاخرة وطبخ الاطعمة الجيّدة اللذيذة واصطناع الاسلحة المنيعة ولكان اشبه بالحيوانات العجم ولما نما الى هذا الحد ولكانت حياتهُ اشبه

(١) نشر ذلك في مقتطف السنة التاسعة والعاشرة سنة ١٨٨٤ و١٨٨٥

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

فيولي اهلها الادبار من امام وجه البرد طالبين ملجأ في جنوبي اوربا وفي اماكن اخرى على شطوط البحر المتوسط ويتقهقر الغرب ويبرد هواء الشرق فيدب النشاط في عروق اهلهِ وتوافيه السعادة بعد الشقاء وينتقل محور التمدن اليهِ

ان البلاد كالعباد فانها تشقى كما تشقى العباد وتسعدُ

* * *

ولنذكر الآن ما استفادهُ العلماء من الادوار الجليدية . فالجيولوجيون استفادوا منها معرفة اعمار طبقات الارض المختلفة بمراقبة ظواهر الجليد فيها والانتروبولوجيون استفادوا معرفة عمر الانسان من آثاره فيها . أما الجيولوجيون فتحققوا في نصف الكرة الشمالي ثلاثة ادوار جليدية واضحة اقدمها في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية والثاني في بداية الرواسب الرباعية والاخير انهيار الجليد الاخيرة في جبال الالب وأما الانتروبولوجيون فالظاهر انهم وجدوا عظاماً بشرية حتى في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية اي في اقدم دور جليدي عرف الى الآن . فاذا اضفنا ٢١٠٠٠ سنة مدة رجوع الدور الجليدي مضروبة في ٢ عدد الدورين الجليديين الشماليين الاول والثاني الى ٩٢٥٠ سنة التي مرَّت من الدور الجليدي الشمالي الاخير الى القرن الاول للميلاد كان لنا عمر الانسان المعروف الى الآن وربما كانت الابحاث المستقبلة تبعد تاريخه عن ذلك ايضاً . على اننا نقول ان كل ذلك منقول عن ارباب هذا العلم فلا نجزم بصحتهِ بل نتبرَّأ من تبعتهِ فلا يهلّل المعتقدون ولا يتهلل الجاحدون[1] . اه

(١) لم نشأ ان نغير شيئاً في اسلوبنا في بسط الآراء او الاشارة اليها تصريحاً او تلميحاً في كل كتاباتنا الماضية والحاضرة لندل بذلك على خطتنا المقتبسة من سوانا والخاصة بنا . وكأنَّ الاسلوب الغالب في الماضي كان يميل الى التلميح اكثر من التصريح وكثيرون حتى اليوم يعدون ذلك التلميح براعة . ولكن ذلك لم يدم بنا طويلا حتى عدلنا عن تلك الحذاقة الى ما هو اصرح بياناً

والصنائع ( فان خرابات بابل ونينوى لا تزال موضوع اندهاش اهل هذا العصر مما يدلُّ على ان الصنائع فيهما كانت بالغةً من الاتقان اعلى درجة فضلاً عن ان علم الهيئة نشأ في بابل والعلوم الرياضية كانت متسعة جدًّا في بلاد الهند ) فما الذي استولى عليها حتى لم يبقَ لها بقية تذكر او ذكرٌ يشهر أليست البلاد التي اولدت طالس وارخميدس وهيبرخوس عقيمةً منذ زمان طويل فكيف وهنت قوى هؤلاء الشعوب ولماذا سكنت حركتهم عن التقدم في معراج التمدن . ان سبب ذلك يتضح من دور البرد الاخير الذي استولى على نصف الكرة الشمالي فان شدتهُ وصلت الى ابعد من حدود الانهار الجليدية بكثير ( فان دور البرد الشديد المستولي الآن على نصف الكرة الجنوبي لا يزال تأثيرهُ واصلاً الى حدود رأس الرجاء الصالح في افريقية وبونس ايرس في اميركا مع انهُ دخل في التناقص من تاريخ ١٢٥٠ سنة للميلاد ) فاهالي جبال اسيا لما داهمها الثلج حينئذٍ انسحبت من امام البرد والتجأت الى السهول المنحدرة نحو شطوط البحر المتوسط وخليج العجم وبحر الهند . وما دامت تلك الثلوج تبعث الهواء البارد الى الجنوب فتبرّد تلك الجهات دام المهاجرون اليها على نشاطهم العقلي الخاص بسكان البلاد الباردة فنما التمدن وانتشر في الشرق ولكن لما اخذت تلك الثلوج تذوب وتتقهقر اخذت طبائع تلك الاقاليم تتغير فاستولت عليها حرارة الجهات المدارية واستولى الخمول على سكانها واخذ نشاطهم ينحط وعزائمهم تضعف حتى سكنوا في رقدتهم التي نراهم فيها فنهض الغرب حينئذٍ اذ خلع عنهُ جلباب البرد القارس الذي كان كبَّل قواهُ واخمد انفاسهُ قروناً عديدة وابان للعالم اجمع كم ترك الاوائل للاواخر بما أبداهُ من النشاط الذي فاق كل نشاط . فان الذي اتصل اليه ابن المغرب من السعة في المعارف والدقة في العلوم والاتقان في الصنائع لا تبعد عنا شهودهُ ولا يترك محلاً للريب في انهُ انالهُ قصب السبق في ميدان الانسانية . ولكن لا فضل لاحد بذلك فالفضل لله ولا عار علينا بخمولنا فانهُ بحكم الدور سيأتي زمن لا يتجاوز مئة قرن بتعديل الجيولوجيين فيهِ تعود الثلوج وتغطي القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي فتمسي تلك العواصم الماهولة كبطرسبورج وفينا وبرلين وباريس ولوندرة ونيويورك

تاريخ الانسان الغربي فان اقدم آثار الانسان التي وجدت في اوربا لا يتجاوز عمرها ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة حسب تعديل الجيولوجيين بناءً على اقدم الآثار الموجودة حديثاً واما آثارهُ الدالة على تمدنهِ في الشرق فيصعد تاريخها كما في بلاد مصر الى ١٥٠٠٠ سنة حسب تقويم اعدل الجيولوجيين . وذلك موافق لرواية مانثون الذي امرهُ بطليموس فيلادلفوس فنقل عن الكتب المقدسة لهيكل اليوبوليس العظيم تاريخ مصر منذ ايامها الاولى وضمنهُ في ثلاثة مجلدات لم يصل الينا منها سوى بعض فقرات وفصول ذكرها المؤرخون القدماء الذين جاءوا بعدهُ كهيرودوطوس وغيرهِ . على انهُ لم يكن احدٌ قبل الآن يثق بصحتها لما بين التواريخ التي ينسبها الى دول مصر وبين التعاليم الشائعة من الفرق البيّن حتى جاءت اخيراً الابحاث الجيولوجية مؤيدةً صحتها . فاذا قيل ما هو السبب في كون تاريخ تمدن بعض شعوب المشرق يتقهقر الى ١٥٠ قرناً مع ان اهل اوربا لم يكونوا منذ سبعة او ثمانية آلاف سنة الاَّ قبائل متوحشة يقطنون المغاير والكهوف فالسبب واضح لمن يتدبّر مذهب الادوار الجليدية . فان بلاد مصر لعدم وجود الجبال فيها ولاتصالها من طرفها الجنوبي بمدار السرطان آمنة من نوازل الثلج والجليد فلا تعيق نمو الانسان فيها وكذلك يقال ايضاً عن السهول الواسعة الممتدة في جنوبي اسيا من حدود البحر المتوسط الى حدود الصين. بخلاف اوربا فانها لبعدها عن المدارين واتصالها بالابحر الشمالية فالبرد يشتد فيها جدًّا فيتراكم الثلج على القسم الاعظم من سطحها فتحول دون نمو الانسان فيها . وهذا هو السبب في عدم ظهور آثار الانسان السابق العهد التاريخي فيها الى ما بعد تقهقر الانهار الجليدية الاخيرة . ولا يوجد قبلها الاَّ بعض عظام بشرية يندر وجودها اكثر فاكثر كلما اقتربنا الى اسافل الاراضي التي تكوَّنت في الدور الرباعي

* * *

ثم يتضح ايضاً على مذهب الادوار الجليدية سبب امر آخر كثير الابهام كسابقهِ وذلك ان من يقابل بين امم الشرق القديمة وبين الامم الحاضرة بالنظر الى نشاط القوى العقلية يستعظم الفرق بينها . أليست بلاد الهند وايران والكلدان مهد التمدن وام العلوم

الانهار الجليدية عمَّ الآن وصار حكماً من احكام الجيولوجيا . ولما تحققوا ان القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي اكتسى بالجليد بعدما تكوَّنت اراضي الدور الثلاثي بقي عليهم ان يعرفوا مـا هو السبب لحصول ذلك فذهبوا مذاهب شتى وارتأوا آراء متعددة افضت بعد المباحث الطويلة الى ان سطح الارض لم يكتسِ بالجليد مرةً واحـدة فقط بل مراراً متعددة في ادوار متعددة وثبت عندهم ان هذه الادوار الجليدية ترجع في ادوار منسوقة على نظامٍ محدود . ولدى التأمل في هذا النظام اخذوا يبحثون عن السبب الذي تهبط به حرارة احـد نصفي كرة الارض فيبرد برداً شديداً يؤذن للجليد بالدوام ازماناً مديدة ففطنوا الى امر مبادرة الاعتدالين والى انتقال محور دائرة الارض العظيم فسهل عليهم حل هـذا المشكل . فان هذا المحور العظيم يتحرك تحركاً بطيئاً في دوران الارض حول الشمس حتى يدور دورةً كاملة بالنظر الى الاعتدالين في احدى وعشرين الف سنة تقريباً كما يعلم من علم الهيئة وفي هذه المـدة يوافق بالضرورة خط الانقلابين مرتين فينطبق عليهِ لحظة من الزمان . وقد حدثت الموافقة الاخيرة سنة ١٢٥٠ للميلاد وحينئذٍ كانت نقطة الرأس في الانقلاب الشتوي فتأتى من ذلك ان بلغت ايام الربيع والصيف في نصف الكرة الشمالي اعظمها وطالت فصول الشتاء واشتد بردها جدًّا في النصف الجنوبي بحيث تولاَّهُ دورٌ جليدي لم يزل حتى يومنا لان ظروف المناخ لم تتغير من ثمَّ كثيراً . ثم اذا تقهقرنا عشرة آلاف وخمس مئـة سنة رأينا ان نقطة الرأس كانت في الانقلاب الصيفي فحصل عكس ما تقدم اي ان فصول الشتاء طالت واشتد بردها في نصف الكرة الشمالي فاحدثت عليها دوراً جليديًّا فكل ١٠٥٠٠ سنة يحصل دورٌ باردٌ جدًّا شمالي ثم جنوبي على التعاقب بحيث تتوالى الادوار الجليدية على كلٍّ من نصفي الكرة كل احدى وعشرين الف سنة

* * *

فلننظر الآن الى الانهار الجليدية من جهة تأثيرها في نوع الانسان فاول ما يتضح لنا هو سبب الاختلاف العظيم بين اهـل الشرق والغرب من جهة تاريخهم ولولا ذلك لكان تاريخهم يبقى في غاية الابهام . فلا يخفى ان تاريخ الانسان الشرقي اقدم جدًّا من

على الارض في انحدارهـا . واول ما شاهدوا هذه الحجارة الهائلة والثلوم والخطوط في جبال ألبا . ثم رأوها في جبال اخرى في شمالي اوربا وظهر لهم انها تزداد وضوحاً كلما تقدموا الى الشمال وقد توهموا انها تتجه دائماً من الشمال الى الجنوب فقالوا ان سببهـا ارتفاع مياه الاوقيانوس المتجمد الشمالي بغتةً واندفاع الجليد منهُ قطعاً هائلةً على الارض بقوة عنيفة ساقت امامها ما اعترضها من الحجارة وغيرها وثلمت سطوح الصخور الملساء وهذا هو مذهب الطوفان . وعضد هذا المذهب كوفيه الطبيعي الشهير وبقي معوّلاً عليهِ الى سنة ١٨٣٠ وحينئذٍ قام ليَل الجيولوجي الانكليزي فناقضهُ قائلاً ان الظواهر الطبيعية الحادثة على سطح الارض ليست نتيجة انقلابات فجائية لا تدرك اسبابها بل هي حادثة عن عوامل طبيعية تتم امامنا ببطءٍ شيئاً فشيئاً وان هذه العوامل المتناقضة النتائج مرجعها كلها الى القوات النارية التي ترفع سطح الارض والى فعل الهواء الذي يفتّت الصخور ويعرّي الجبال وينقل التراب ويملأُ بهِ الاودية . ثم تحقق الجيولوجيون خلافاً لما كانوا توهموهُ ان اتجاه الخطوط من الشمال الى الجنوب ليس مطرداً بل يتبع مسير المـاء كيف كان مجراهُ فيكون ايضاً من الجنوب الى الشمال كما في جبال البرينه وهذا الاتجاه لا يصح ان يكون حادثاً عن طغيان الابحر الشمالية . فتحوّل فكر العلماء حينئذٍ للبحث عن اسبابٍ اخرى طبيعية فتحقق شِمبر احد الطبيعيين الجرمانيين من انهار الجليد الحاضرة انها تترك في سيرها حجارةً هائلةً وصخوراً مثلمةً شبيهة بمـا يوجد في الطبقات السفلى وانما الفرق بينها ان القديمة اكثر امتداداً فاستنتج من ذلك انها ( اي القديمة ) حصلت من انهار جليد اعظم من الموجودة الآن . ولكن لمـا كان بين هذا القول وبين التعاليم المعوَّل عليها حينئذٍ بونٌ عظيم لم يعبأ بهِ . وفي سنـة ١٨٤٠ نشر اكاسيز الشهير كتاباً بهذا المعنى بيَّن فيهِ وجود دور جليدي في الادهار الغابرة وابدى رأيهُ عن انهار الجليد القديمة وعن نتائج امتدادها العظيم فلشهرتهِ انتبه كثير من العلماء الى ذلك وسافر جماعة من جيولوجي الانكليز ومنهم ليَل الى جبال ألبا ليتحققوا بانفسهم فعل انهار الجليد ورجعوا مقتنعين ممـا رأوا . ثم تحقق العلماء ذلك ايضاً في جميع البلدان ذوات الجبال بوسط اوربا وشمالها وشمال اميركا وجنوبها وفي جبال اسيـا الوسطى حتى ان مذهب

والافكار الوهمية والمبادئ الخرافيـة . ولذلك لم يتيسر البحث عن الانسان بحثاً علمياً حتى زعزعت العلوم الطبيعية هـذه المبادئ الفلسفية في الاعصر المتأخرة فانحصر البحث في هذه المسألة في علمي الانتروبولوجية اي علم الانسان والسوسيولوجية اي علم الاجتماع الانساني

وعلى ذلك فعوضاً عن ان يصعد الانسان بالخيال الى الطبقات السماوية ليبحث عن اصل الانسان فانهُ ينظر اليهِ في المكان الذي ينشأ فيهِ وينمو ويموت ولا ينتقل الى غيرهِ من الابحاث الطبيعيـة الاَّ عند الضرورة لارتباط العلوم الطبيعية بعضها ببعض ارتباطاً شديداً بحيث يتعذر البحث في علمٍ منها بدون الاستناد الى سابقهِ في سلم العلوم . فالسوسيولوجية لما كانت اصولها في علم البيولوجيـة اي علم الحياة كان اعتناء علماء عصرنا بدرس فروع البيولوجية لتأسيس علم الانسان لا يماثلهُ اعتناء . ثم ان معرفة حقيقـة هذا العلم متوقفة ايضاً على امر مهمّ من متعلقات علم الفلك وهذا الامر هو مبادرة الاعتدالين وهو وان كان مذكوراً في جميع كتب الهيئة منذ هيبرخوس الاَّ انهُ لم يكن يظن أحـد قبل الآن ان لهُ تعلقاً بارتقاء الانسان واما الآن فيعتبر عند جمهور الجيولوجيين انهُ سبب حصول الادوار الجليدية في اوقات معينة . وقد ظهر من الابحاث المختلفة ان بين الانسان وبين الادوار الجليدية نسبةً شديدةً بحيث تؤثر في نموهِ وتمدنهِ وبهذا الاعتبار تنبئنا عن ماضيهِ ومستقبلهِ بامور كانت تبقى مجهولةً لولا ذلك ولهذا لا بد قبـل الشروع في هذا البحث من التكلم قليلاً عن الادوار الجليدية على ما يذهب اليهِ جمهور الجيولوجيين تمهيداً للموضوع فنقول

رأى الجيولوجيون في نقبهم بعض الجبال ان سطح الصخر الذي يؤلف جانب الجبل املس وعليهِ ثلوم متوازية كأنهـا مصنوعة بالازميل ( انظر وجه ١٩٥ من السنة الثانية ) ورأوا ايضاً حجارة هائلة بعضها مبدَّد في منحنى الجبل من سفحهِ الى قمتهِ وبعضها بعيدٌ عنهُ في السهول المجاورة وقد لاحظوا ايضاً على مسير هذه الحجارة خطوطاً متقطعة ممتدة من محل استقرارها الى قمـة الجبل فحكموا ان الحجارة المذكورة قد انفصلت من الجبل بقوةٍ ما واستقرت على ابعادٍ مختلفة بحسب القوة التي ابعدتها . وان الخطوط آثار مرورها

كل ذلك هنا الا من باب الفكاهة العامية لا تأييداً لهذا الرأي الذي هو في اعتقادنا غريبٌ جداً كما تقدّم . والشيء بالشيء يذكر فمن غرائب احلام العلماء ما خطر في القرن الماضي لأحد مشاهير الجراحين والعلماء الطبيعيين المدعو هنتر بالنظر الى وقوف ظواهر الحياة كما تقدّم وهذا يدلك على ان هذا الفكر ليس حديثاً فقد خطر له ان يجرّب ايقاف الحياة واجرى امتحاناته على بعض انواع الحيوانات الدنيا فجرّب ان يوقف حياتها بالبرد فنجح في ذلك ولكنه لما اراد ايقاظها بالحرارة وجدها لا حياة لمن تنادي وله من وراء ذلك غرض عظيم قال في بيان هذا الغرض ما نصه « قد ظننت انه يمكن اطالة الحياة الى ما لا نهاية له باجلاد انسان بوضعه في مكان بارد جداً واستندت في ذلك على ان كل عمل ومن ثم كل خسارة في مادته تقف والحالة هذه الى ان يسخَّن ثانية وقلت في نفسي اذا اراد انسان ان يقف السنين العشر الاخيرة من حياته لاجراء هذا التعاقب بين العمل والراحة يمكن اطالة حياته آلافاً من السنين يوقظ فيها كل مائة سنة مرة فيقف على كل ما جرى في العالم مدة رقاده وكنت معلقاً كل آمالي على نجاح هذا المشروع ولكن « امتحاناتي خانتني » انتهى فترى مما تقدم ان هنتر كان يحلم بالخلود الجسماني للجميع ولكنه لم ينجح والظاهر ان حلمه لن ينجح على اننا لا نريد ان نثني عزم احد من الراغبين . . . .

# المقالة الثالثة

## الادوار الجليدية وتأثيرها في الانسان (١)

لم يَرِد على الانسان سؤال اصعب من سؤالهِ : ما هو الانسان ؟ فان هذا السؤال سئل منذ نشأت الفلسفة واشتغل بهِ جميع الفلاسفة ومع ذلك بقي زماناً طويلاً ولم يتحوَّل عما تركهُ عليهِ مؤسسا المدرستين القديمتين طالس وفيثاغورس وما ذلك الاَّ لقيام الانسان حكَماً في مسئلةٍ لا يسلم فيها من الغرض مع انقيادهِ في احكامهِ الى التصوُّرات الشعرية

(١) المجلد الخامس من المقتطف سنة ١٨٨٠

ان يسخن كثيراً فاذا كان حاملاً في بعض اجزائه الباطنة بعض الجراثيم فليس من الضروري ان تحترق

ولكن يَرِد علينا حينئذٍ اعتراض آخر وهو اذا كانت الجراثيم لا تحترق فمن يضمن لنا انهـا لا تموت من شدة البرد لان برد الفضاء شديد ولكن الامتحانات الحديثة قد ذهبت بهذا الاعتراض اذ قد تبين منها ان البزور وانواع البكتيريا تحتمل برداً شديداً من دون ضرر لا درجة ٥٠ او ١٠٠ فقط بل ٢٠٠ تحت الصفر . فمن الجراثيم ما بقي حياً مائة ساعة في هواء درجة برده ١٩٠ تحت الصفر و ١١٨ يوماً على درجة تختلف بين ٣٧ و٥٣ تحت الصفر . وهذه المعلومات كثيرة الفائدة اذا ضممناها الى غيرها مما علم في هذه السنين الاخيرة

فقد كان المظنون الى ايامنا هذه ان البزور ولئن ظهرت بحالة نوم فلا تزال الحياة تعمل فيها واذا كانت تبدو لنا واقفة فما ذلك الا في الظاهر فقط فهي لا تزال تقضي بعض الوظائف الجوهرية كالتنفس والمبادلات الغذائية ولكن ببطء وضعف كليين والحال ان ذلك خطأ فان هذه الوظائف الحيوية تقف وقوفـاً تاماً على درجات البرد المذكورة كما تقف عندها في الاجسام الكيماوية الفتها وخصائصها المميزة لها كما تبين من الامتحان

* * *

وبالحقيقة كيف يمكن التصديق ببقـاء وظيفة التنفس وسائر الافعال الحيوية عاملة ونحن نرى بزوراً في الفراغ لا تفرز مقداراً من الحامض الكربونيك يشعر بهِ بالحل الطيفي ونرى بزور البرسيم (القرط) تبقى ست عشرة سنة في غاز الازوت والكلور والهيدروجين والكحول الصرف ثم تنبت اذا اخرجت الى الهواء والرطوبـة والحرارة . وحب الحمص المخنوق ضمن الزئبق يبقى حياً بعد خمس سنين الى غير ذلك من الامتحانات التي يكاد يكون التبادل الحيوي ممتنعاً فيها . ففي مثل هذه الاحوال لا بد من التسليم بوقوف الحياة وقوفاً تاماً بحالة لا هي الموت لان الحياة ما زالت ممكنة ولا هي الحيـاة لان الحياة هي التبدّل والحركة بل هي حالة متوسطة بين الموت والحياة . وعليه فـلا خوف على الجراثيم من برد الفضاء اذا صح انتقالها الينا من الاجرام الاخرى بواسطة النيازك . وما بسطنا

تخدش خده الابصار » ونقلوه الى أحد الاكواخ ونصبوه معبوداً لهم . وما امر هؤلاء السود مع هذا الحجر السماوي باعجب من امر ذلك الفلاح الانكليزي الذي رأى من عهد مائة سنة رجلاً راكباً منطاداً نزل عليه ولما سأله اين أنا جثا على ركبتيه وقال انت في كولسدون ( اسم بلدة ) ايها الاله القادر على كل شيء

ثالثاً ان تكون النيازك آتية من عوالم فيها احياء وحاملة جراثيم حيةً وغني عن البيان ان جميع النيازك لا تستطيع ان تقوم بهذا الامر . مثال ذلك النيازك المؤلفة من معدن كان مصهوراً من شدة الحرارة على انهُ يوجد نيازك شبيهة بصخورنا يمكن للجراثيم ان تستقر في شقوقها بل نعرف نيازك تتضمن مواد عضوية شبيهة بازاتينج فهذه المواد وان لم تكن الحياة نفسها الا انها في ما يرجح متكونة عن كائنات حية او فيها وجه لهذا الفرض فانتقال الجراثيم بمثل هذه النيازك اذاً ممكن . ولكن يقوم على ذلك اعتراض وهو ان النيازك التي تخترق الهواء تمرّ فيه بسرعة عظيمة جدًّا هي على تقدير لوكيار من ٤٠ الى ٦٠ كيلومترًا في الثانية فتسخن الى درجة تصير فيها نيرة من شدة ضغط الهواء ودرجة الحرارة التي قد يبلغها النيزك والحالة هذه تختلف من ٤٠٠٠ الى ستة آلاف درجة فلا تستطيع الجراثيم ان تبقى حية في كل هذه الحرارة اذ قد تبين من الامتحان ان البزور قد تقوى على احتمال ١٠٠ الى ١٢٠ درجة من الحرارة الجافّة بعض ساعات واما على حرارة ١٥٠ الى ٢٠٠ فانها تموت والمكروبات تهلك في جميع اشكالها . غير ان النيازك لا تبلغ جميعها هذه الدرجة من الحرارة ومن المؤكد ان التسخن هو غالباً سطحي وقد سقطت نيازك كانت فاترة وغيرها كان بارداً وفي سنة ١٨٦٠ تساقطت في درمسالا في الهند قطع كانت بحال وصولها الى الارض بالغة من البرد درجة صقعت منها الاكف التي لمستها

* * *

وتعليل ذلك بسيط فالنيازك التي هي عبارة عن محطات الكواكب قبل ان تصل الى الارض تمرّ في فضاء بارد جداً تختلف درجة بردهِ من ٥٠ الى ١٥٠° تحت الصفر فاذا صادمت الهواء فقد تسخن في كل كتلتها اذا كانت صغيرة ولا تسخن الا في سطحها ويبقى باطنها بارداً اذا كانت اكبر فمن الممكن اذاً ان يصل الينا بعض النيازك من دون

فما اتمّ الخطبة حتى وقف السير وليم طمسن وقال اظن الخطيب يمزح في ما يقول لانهُ لو فرضنا ان البرَد تكوّن في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الأميال . ولما جلس قام اللورد ريلي وقال انا اعرف رجلاً ارتأى رأياً اغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء »

وبديه ان الاحياء على موجب هذا الرأي لم تتساقط الى ارضنا باشكالها الحاضرة اي ان السماء لم تمطرنا من كل نوع من انواع الاحيـاء زوجين ذكراً وانثى زوجين من الكلاب وزوجين من الفيلة وزوجين من الارانب وزوجين من الحيتان الخ تكاثرت وعمرت الارض فلا الانسان ولا الحيوان لم يأتيا على هذه الصورة وانمـا الذي تساقط الى ارضنا بزور وبراعم ومكروبات نمت فيها وتحوَّلت على مقتضى ناموس النشوء والتحول وارتقت وكوَّنت الاحياء المعروفة اليوم

* * *

ولا بدَّ لتحقق هذا الرأي على فرض ان سلمنـا بهِ من ثلاثة شروط اولاً وجود صور حية في عالم آخر غير عالمنا وليس لنا ما يثبت ذلك ولا نريد بهذا القول اثبات العمارة للارض وحدها ونفيها عن سائر السيارات وانما نريد بهِ ان ليس لنـا دليل قاطع على ان سائر العوالم مأهولة باحياء شبيهة باحياء ارضنا او مختلفة عنها وان كانت عمارتها محتملة بالقياس

ثانياً وجود وسائط للنقل تحمل هذه الجراثيم من العوالم الاخرى وتنقلها الى الارض وهذا الشرط متوفر في منقضَّات النيازك وسواقط الرجم التي هي اجزاء من الاجرام السماوية تتساقط على الارض كما لو تحطم احد الاقمار وتساقطت اجزاؤه . ومثـل هذه المنقضات على الارض كثير ومن كل حجم بعضها يزن القناطير وبعضها يقل عن المثقال . وقد حسب نيوتون ولوكيار انهُ يتساقط منها على الارض كل يوم نحو عشرين مليوناً واربعين مليوناً اذا عدت الصغار منها . وقد اثارت هذه النيازك في بعض القبائل عواطف العبادة يحكى انهُ سقط في سنة ١٨٤١ في زوروما في افريقيـا الشرقية نيزك فدنا السود منه بكل احترام ومسحوه بالزيت « كأنهم تداوي منه جرحـاً » وكسوه بالحلل الثمينة « كي لا

تكون مادة ذلك العالم الذي تولدت فيهِ اولاً وقواه شبيهة بمادة عالمنا وقواه ايضاً لكي تستطيع ان تعيش فيهِ . جاء في كتابنا الحقيقة ما نصه « على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الا انهُ غير مقنع ويظهر لنا انه لا يحل المسألة وانما يزيدها ارتباكاً فان لم تكن الحيــاة قد ظهرت على الارض ذاتياً بفعل احوال طبيعية وكيماوية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداءً على أحـد كواكب نظامنا الشمسي وخصوم التولد الذاتي الذين يتعلقون باهداب هذا التعليل كالملجأ الاخير لهم انما يبعدون حلّ هذه المسألة ولا يأتون فيها بتعليل شافٍ ولا يخفى ان الحلّ الطيفى الذي استطعنا بواسطته ان نعلم تركيب الكواكب الكيماوي ارانا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منهـا سيارنا فالصوديوم والمغنيسيوم والهدروجين والاكسيجين والكربون والكلسيوم والحديد والتلوريوم والبزموت والزئبق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنـا . وقد علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تتحد هناك كما تتحد في ارضنا فلا بدَّ اذاً من ان تكون الاحياء الاوَل قد تكونت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا فوالحالة هذه ما الفائدة من الزعم بأن ارضنا انمـا اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في مروره في الفضاء اذ لا بدّ من الاقرار في كل الاحوال بأن التعضي قد وقع في المادة في احد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذاً الاصرار على انكار نشوء الحياة في الارض »

* * *

ولو لم يكن قائل هذا القول من ذوي المكانة في العلم لمـا عبأ احد بهِ لغرابته وانما الناس في المسائل العلمية كما في سواهـا كثيراً ما يعيرون الكلام التفاتاً بالنظر الى مقام قائله . فصاحب هذا الرأي الغريب هو اللورد كلفن اي السير وليم طمسن احد مشاهير العلماء الطبيعيين جاء في الحقيقة ما نصه « والذي ارتأى اولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو السير وليم طمسن الانكليزي ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكوّن البرد قال انهُ يتكوّن من بخار موجودٍ في الخلاء الذي بين الاجرام السماوية

# المقالة الثانية

## الحياة واصلها [١]

حيرة المرء في الوجود حياة كل يوم تريك منها شؤونا
خاضت الناس في الظنون ولكن ما درى الناس سرّها المكنونا

الحياة حيرة العلماء والحيرة علة البحث ولذلك لم يمرَّ عصر على الانسان الا وقام فيهِ يسأل : ما هي الحياة ومن اين اتت وكيف تولدت مسائل ثلاث مرتبط بعضها ببعض كلما اغلقت عليهِ من وجه قام يعالجها من آخر لعلها تفتح لهُ وهو في كل العصور لم يزد بها علماً عما قالهُ فيها ملتون الشرق ابو العلاء المعري

والذي حارت البرية فيهِ حيوان مستحدث من جماد

ومن المقرر في العلم اليوم ان كل حيّ مهما كان حقيراً لا يولد الا من جرثومة متضمنة فيها كل اجزاء هذا الحي وهذه الجرثومة نفسها صادرة من حي مثله . والخلاف بين العلماء والفلاسفة في اصل الجرثومة الاولى هل تولدت في الارض نفسها ومن مادتها و بقوة من قواها ام كيف . فاصحاب رأي التولد الذاتي يذهبون الى ان الاحياء جميعها نشأت في عالمنا هذا من نفس مادته و بقواه الخاصة وقد كانت في الاصل مادة حية بسيطة جداً ثم تكيفت وتحولت على مرّ السنين والعصور المتطاولة حتى رست على ما هي عليهِ اليوم . وخالفهم اصحاب مذهب الجراثيم الذين ينكرون التولد الذاتي بناءً على ما يرونه اليوم من ان كل حي لا يولد الا من حي مثله ولما سئلوا عن اصل هذه الجراثيم ذهبوا فيها مذاهب ومن اغرب ما ذهبوا اليهِ انها اتت الى عالمنا من عالم الكواكب وهو قول لو تدبرناه لرأيناه لا ينفي التولد الذاتي وانما يبعد حله لانها سواء تولدت في ارضنا او اتتها من عالم آخر فلا بد ان تكون قد تولدت اولاً في نفس هذا العالم بالنشوء ولا بد ان

(١) نشرت في البصير سنة ١٨٩٨ وهي علمية فكاهية

الاَّ ما كان قريب الغاية تقتصر محبة الذات فيهِ عليهِ ولا تجاوزهُ لانهُ يحسب ان سعادتهُ قائمة باسباب لا تتعداهُ ولا يمكن ان تتأتى لهُ مع سعادة سواهُ بل بخلاف ذلك قد يظن ان سعادة غيرهِ تعود عليهِ بالشقاء فيسعى في تحصيل سعادتهِ بمضادة سعادة غيرهِ . وهذا ناتج من جهلهِ الاسباب والوسائط التي تمكنهُ من الحصول على هذه السعادة المطلوبة منهُ فاذا زاد اختبارهُ وكثرت معارفهُ واتسعت دائرة احكامهِ رأى ان في الانضمام والتعاون واشتراك المصالح مزايا اخرى تفيدهُ ولا توجد لهُ منفرداً فينتقل من محبة الذات الفردية الى المحبة العائلية فصاعداً من النوع والجنس اذ يرى والحالة هذه في سعادة عائلتهِ بل وطنهِ بل نوعهِ ما يعود عليهِ باعظم سعادةٍ لا تتأتى لهُ من دون ذلك . فالامر متوقف اذاً على العلم بالاسباب والوسائط لان الانسان كيفما فعل انما يفعل دائماً بقصد الوصول الى غاية واحدة وهي سعادتهُ فاذا تصور انهُ يستطيع الحصول على سعادتهِ منفرداً دعتهُ محبة ذاتهِ الى اتباع السبيل الذي يرسمهُ لهُ علمهُ واذا علم ان سعادتهُ لا تحصل لهُ منفرداً بل يحتاج فيها الى التعاون مال اليهِ كما يظهر من المقابلة بين تصرُّفات الانسان في حالتي الخشونة والتمدن

## ما أطوعه . وما أطمعه (١)

في نظام الاجتماع صدوع هي كالسوس تنخره ولا بد ان تقوضه ولو طلي بقار الظلم وصفح بعسجد الوهم

يتنازع الاجتماع منذ القديم قوتان تتنازعان فيه قياد الانسان لكن كل منهما من سبيل

هاتان القوتان كانتا في الاول مجتمعتين وكان هولهما شديداً ثم انفصلتا . ولكنهما بقيتا متحالفتين . وسوف يعم اختصامهما حتى تلاشي الواحدة الاخرى فيسود سلطان الحقيقة ويتقوض سلطان الوهم

ولكن الاجتماع يخطو في ذلك خطوة خطوة وكل خطوة تنقضي فيها اجيال وتقضي على آمال

فالانسان وان زجَّ في الظلمة مقهوراً فلا يخرج الى النور الا مقسوراً : ألا ترى لسان حال الجماهير يقول في كل جيل « ليس في الامكان ابدع مما كان » حتى يحار العقل في اي حالتيه الانسان اسعد

لا ريب ان العلم اذا عم وبلغ الدرجة القصوى بلغ الانسان منتهى السعادة . ولكن - حتى يعم - اي أشقى من الانسان السابح بين الحالتين يتنازعه سلطان القوتين وهو ليس بالجاهل فيرع ولا بالماكر فيزع

ولكن الانسان وزع ام ورع . ضلع ام ظلع . ماكراً وغبياً واحد في مرماه

كنت يوماً في محفل واذا السلطان بابهى مظاهرها . ثم قفلت راجعاً الى بيتي فرأيت البواب جاثياً يصلي ويداه الى وجهه وكفاه مبسوطتان وهو يحدق اليهما ويتمتم كانه يقرأ عليهما ورداً واثر الاجتهاد بادٍ عليه فقلت في نفسي : قسمة ضيزى . ثم نظرت الى ما به من الاعتقاد الراسخ فقلت : ولكنها تعزية كبرى . فما اصعب الانسان . وما اطوعه . وفي الحالين ما اطمعه . ذاك يرث الارض . وهذا يريد ان يرث . . . ملكوت السماء

(١) نشرت في مجلة سركيس سنة ١٩٠٧

وبخلاف ذلك اذا انخدعت الحواس في نتنايا وكذب العقل في حكمهِ وضلت الارادة في شهواتها فيتولد عنهـا الدناءة والكبرياء والجبن والكذب والظلم ورياء المحكوم واستبداد الحاكم والانفراد وغير ذلك من الصفات السافلة التي ترجع على الفرد بالويل وعلى الاجتماع الانساني بالخراب

٭ ٭ ٭

انظر الى الكبرياء والشرف فهما صفتان متولدتان عن محبة الذات اولاهما ذميمة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالجهل والثانية حميدة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالعلم . فالكبرياء تحمل صاحبهـا على احترام نفسهِ باحتقار غيرهِ والشرف يحملهُ على احترام نفسهِ باحترام غيرهِ فالغايـة واحدة في كلا الامرين وهي احترام الذات الاَّ ان طريقة الحصول على ذلك مختلفة . وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف العلم بالاسباب والوسائط كما تقدَّم فلو علم صاحب الكبرياء ان السبيل الذي يسلكهُ في احترام نفسهِ وتعظيمها هو السبيل المحقَّر لما لعدل عنهُ الى ما هو احسن منهُ لان محبة الذات لا تستطيع ان تصير عالمة على ان تسلك السبيل الذي يؤدّي بها الى ما لا يسرّها كما ان صاحب الاستبداد لو علم ان استبدادهُ لا يأتي عليهِ بما تتمناهُ محبة ذاتهِ لمـا صبر عليهِ دقيقةً واحدة كما ان صاحب الرياء ايضـاً لو علم انهُ يوجد لهُ سبيل آخر غير ريائهِ لاستحصال رضى سيدهِ المستبد آمناً على نفسهِ من غدرهِ لعدل عنهُ الى الصداقة وخلوص النية واستعمال الحرية في تأدية خدمتهِ . لذلك كان سلطان الرياء قويّاً جـدًّا حيثما قوي الاستبداد والقوم الذين يستولي عليهم الرياء هم قوم لا يصدقون ولا يصدِّقون . فالرياء والموالسة والتدليس وما شاكل هي سلاح من يرغب في ان يكون مقرباً من الاستبداد متمتعاً بما يمكن تحصيلهُ من خيرات الظلم . ومن لم يتدرَّع بهذه الصفـات بل لبث مصرًّا على الصدق وخلوص النية واستعمال الحرية ليس لهُ ان يطمع بالتقرب من المستبدين بل عليهِ ان يبتعد عنهم ما امكن قبل ان يبعدوهُ من بينهم لان صفاتهِ هذه لا تحسن في عينيهم ولا ترجع عليهِ الاَّ بالوبال

٭ ٭ ٭

والانسان الذي لم تهذبهُ التجارب ولم توسع دائرة عقلهِ العلوم الصحيحة فـلا يرى

واذا أدّت احياناً الى ما يخالف ذلك فلتصرُّف الاميال والارادة غير المرتبة فيها. وبحسب ذلك تكون الصفات المتولدة منها اما جيّدة واما رديّة

* * *

واعلم ان الجيّد والرديّ لا يوجدان مجردين في الوجود الكلي بل هما هكذا نسبيان بالنظر الى ظروف الزمان والمكان بحيث ان ما لا يوافق هذا يوافق ذاك وبالعكس فلا يتأتى لنا والحالة هذه ان ننفي عن شيءٍ صفة الموافقة والملاءمة نفياً مطلقاً اذ انها لم تتجرد عنهُ الاّ بالنظر الى حالة من الحالات او موجود من الموجودات مع موافقتهِ حالات اخرى وموجودات اخرى كما انهُ لا يصح ان نلزمهُ صفة الموافقة اذ انها لا تصحُّ لهُ في كل الظروف والاحوال

ولما كانت محبة الذات من ضمن الصفات الغريزيّة والاحساسات الطبيعيّة التي تتأثر بالمؤثرات وتتغير بالمغيرات كانت لا تثبت على حال ولئن كانت غايتها ابداً ذاتية الاّ انها لا تسلك دائماً الطريقة المؤدية الى هذه الغاية لانقيادها لاحكام الارادة وما تظنهُ موصلاً الى شيءٍ يؤدّي بها احياناً كثيرة الى آخر لجهلها بالوسائط . وهذا هو السبب في قول بعضهم ان الانسان يفعل مندفعاً من غير علم منهُ الى غاية غير الغاية التي يقصدها بقوة تتصرف فيهِ مقيمين الواسطة مقام السبب وهو منقوض . لان هذه القوة سواءٌ كانت على قول بعضهم منفصلة عنهُ او على قول غيرهم متصلة بهِ اما ان تكون غير ارادتهِ او تكون هي نفس ارادتهِ . فان كان الاوّل حصل العبث اذ لا يكون للارادة البينةِ احكامها والظاهرةِ اعمالها فائدةٌ في الجسم الذي تظهر فيهِ او تكون وظيفتها ان توهمهُ السَير الى غاية غير الغاية المفروضة لهُ وبعبارة أُخرى ان تخدعهُ وكلاهما غير سديد . وان كان الثاني كان لا حاجة الى اقامة قوة اخرى بجنب الارادة طالما هي الارادة نفسها . فاذا صدقت الحواس في نقلها التأثيرات الى العقل وصدق العقل في احكامهِ واعتدلت الارادة في شهواتها تولد عن هذه الصفة الاولية الغريزية كثير من الصفات الفرعية الرفيعة كالكرم والشرف والشهامة والمروءة والصدق والعدل وحب الالفة والتعاون وغير ذلك من الصفات الحسنة التي تسبب بها راحة الانسان وسعادتهُ منفرداً ومجتمعاً

فالامة التي تتخذ هذه المبادئ شعارها لا تلبث ان ترى نفسها متقهقرة كلما خطا العالم نحو التقدُّم خطوة تأخَّرت عنهُ خطوات حتى تصبح اخيراً لا علوم لها ولا شرائع ولا صنائع مفتقرة الى غيرها من الامم المتمدنة افتقار الصلة للموصول ولا تحسن نسج ثوب ولا غزل خيط ولا صنع ابرة بل تكون كالعلق على بدن الانسانية تكدر راحتها وتمتص دمها

* * *

ان في الانسان صفة اوليَّة ضرورية جداً لحفظهِ وهي مصدر كثير من الصفات الأُخر الموجودة فيهِ . وهذه الصفة هي محبة الذات التي تدفع كل فرد من افراد الانسان لاستحصال كل ما هو موافق او يظهر لهُ انهُ كذلك واجتناب ما هو مضرّ . ولا يقتصر وجودها على الانسان فقط بل هي موجودة في الحيوان ايضاً بدليل ان الحيوان يعمل دائماً بقصد المحافظة على كونهِ والمحاماة عن ذاتهِ حتى في اعمالهِ البديهية التي لا محلّ فيها للنظر او الكسب . وهي صفة بديهية ومما يدلنا على كونها كذلك الاعمال البديهية التي يجريها الانسان بدون توسط الارادة فيها اذ تحملهُ على ان يدافع عن نفسهِ بما يقيهِ من الضرر عند المفاجأة وقبل ان تحصل فرصة للارادة لأن تتوسط في ذلك كانطباق الاجفان على العينين اذا فاجأتهما ضربة او آفة اخرى وتقاعس الانسان الى الوراء اذا عثر الى الامام او مدّ يديهِ لاستلقاء الارض بهما ليدفع هكذا بضرر اصغر ضرراً اكبر ربما يحصل لو صادف السقوط على الاعضاء المهمة كالراس وغيرهِ . الاَّ انها وان كانت بديهية فللارادة عليها سلطانٌ كبير فتتصرَّف فيها ولكن بحسب ما يتراءى لها موافقاً اي لا تقدر الارادة ان تفعل الاَّ للغاية التي تفترضها لها محبة الذات ولو مهما اختلفت القوى العقلية وفسدت احكام الارادة . وان وافقت محبة الذات الارادة احياناً فيما يعدمهما الوجود كقتل الذات فلا يكون ذلك الاَّ لغاية ذاتية ايضاً اما بقصد التخلص من مصيبة ثقل حملها على الحياة او طمعاً في تحصيل حياةٍ أُخرى جديدة ترجوها . وهذه الصفة واجبة ضرورية اذ انهُ يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الفرد الحسيَّة ويتولد عنها جميع الصفات الادبية الرفيعة ايضاً التي تتوقف عليها حياة الفرد المعنوية

عن قوة سرية تراقب اعمال الانسان فيقول هذا جزاء الضالين وهو اشد فساداً من ان يُبرهَن على فسادهِ . فلو تجاسر احد في زمن جاهلية اليونان على ان يكفر بجوبيتر ابي الآلهة أفما كان يتساقط عليهِ غضب جوبيتر متجسداً بايدي الكهنة والشعب فهل يجب والحالة هذه مع معرفتنا فساد تلك الشريعة ان نعتبر ان ذلك القصاص كان عدلاً . كلا

⁂

ولذلك لا يليق بنا ان نتمسك بما كان في الاعصر الخالية من الاوهام تمسُّك الاعمى بقائدهِ ولا ان نطرح ما تبديهِ لنا الاكتشافات والحوادث من الحقائق لمجرَّد كونهِ مخالفاً لما انطبع في عقولنا ورسخ في اذهاننا كما انهُ لا يجب ان نعتبر القصاص الذي يقع على بعض الافراد لمناقضتهم بعض المبادىء العامَّة مفعول قوة ساهرة تعدّل كل شيء على قدر الاستحقاق بل يجب علينا ان نحارب الاوهام ونبدّدها بقوة الحقيقة لكيلا يقوى امرها فنعدم اسباب التقدم . فان الانسان اذا تمكَّن الوهم منهُ سقطت قواهُ وفقد اسباب العمل اذ يستولي الخوف على طباعهِ والرعب على حواسهِ تستلفتهُ حوادث الكون فيتهيبها عوضاً عن ان يبحث فيها ويستفيد منها ولا تهمهُ شمس تسطع او قمر يلمع او ريح تهب او نار تشب واذا نظر الى السماء كفَّ عنها الطرف خشيةً واحتراماً لانهُ لا يرى كواكبها الاَّ آلهة ولا يحسب صواعقها الاَّ عذاباً واذا نظر الى الارض قال امي ارحميني ولا تحبسي عني قوتاً يغذيني وماءً يرويني ولا يتجاسر ان يقطع منها سنبلة قمح او يتناول قبضة ارز الاَّ بعد الاستغفار والتكفير اذ يرى في كل شيء آلهة قاهرة وارواحاً ساحرة فيستدعي في حركاتهِ وسكناتهِ ارواح الاشجار وقوات الجبال ونفوس الكواكب وما يستدعي الاَّ خيالات واوهاماً لا تجلب لهُ خيراً ولا تدفع عنهُ ضيراً ولا يستفيد منها الاَّ توسيع نطاق الاوهام في دائرة عقلهِ حتى تتبلَّد قواهُ وتكلَّ مشاعرهُ ولا يعود يعتبر للعمل في الارض قيمة ولا للبحث عن الكائنات فائدة ولا في التعاون مزية فيكسل وتصير حياتهُ كحياة الحيوان منفردة ذاتية منفرزة عن الهيئة الاجتماعية ولا يهمهُ الاَّ الحصول على ما يقيهِ من الموت برداً وجوعاً اذ يعتقد ان كل شيء قسمة فلا يجديهِ الاجتهاد فيهِ نفعاً فيسكن الاكواخ ويلبس المسوح ويأكل القشور وهي قسمة ليست من الانسانية في شيء

ولما كان الاوائل اقلَّ اختباراً من الاواخر كانوا بالضرورة اقلَّ علماً منهم بل كان معظم علمهم جهلاً وجلُّ افكارهم وهماً . وكان الخلف يشتغلون كل يوم باصلاح ما افسده السلف بحسب ما يتبين لهم بازدياد اختبارهم واتساع معارفهم . الا ان ازالة ما فسد من المبادئ من عقول الناس لا بدَّ وان تحول من دونها مصاعب ربما ادت الى اراقة الدماء . فان الاوهام الراسخة في العقل بواسطة النقل مدة قرون تكون كالحقائق الراهنة لا تحتمل تأويلاً ولا تدع للجدال سبيلاً ولا سيما ان افراد الامم لا يتساوون جميعهم في سيرهم المعنوي فلا نرى في كل جيل وفي كل عصر غير افراد قليلين سابقين قومهم بكثير من السنين . فعدد الجاهلين هو العدد الكثير فهو القوي من هذه الحيثية والقوة تغلب الحق في مثل هذه الاحوال ولكن غلبتها حاليَّة وقتيَّة واما في المستقبل فيتأيد هذا الحق وتجني الاواخر ثمرة اجتهاد الاوائل الذين كثيراً ما لا يحصدون ما يزرعون

☆
☆ ☆

والغريب ان الناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالادلة والبراهين اذا كانت مخالفة لآرائهم مغائرة لاهوائهم بل ينقضونها بالقوة وهذا مخالف للعقل غير موافق للنقل فقد عُلِمَ ان كثيراً من هذه الحقائق التي حاولوا اطفاء نورها تأيدت وعمَّت اخيراً فلا ينبغي للانسان العاقل ان ينبذ حقيقة لقلة نصرائها وكثرة اعدائها فكم من حقيقة ضاعت بكثرة الجلبة ثم كانت لها الغلبة بقوة الحق

ولا شك ان الامة التي تتخذ القوة القاهرة سلاحاً في نقض المبادئ المخالفة لمألوفها بعيدة عن اسباب التقدم ووسائل التمدن حتى تقطع السلاسل وتمزق الحجب الحائلة بينها وبين حرية البحث التي تطلق للعقل عنان الفكر فتزيد معرفةً بالاسباب والحقائق اذ يشتغل بكل ما يعرض لهُ فيتمسك بما تؤيدهُ الشواهد وهكذا يستخدم افكارهُ لفهم الحوادث عوضاً عن ان يستخدم الحوادث لتأييد افكارهِ حرصاً عليها . واغرب منهُ ان المصائب التي تحل باولئك الافراد الذين ساء بختهم لوجودهم قبل اوانهم والتي مصدرها البشر تعتبر قصاصاً عادلاً عند من يعتقد ان الجزاء يكون على قدر الاستحقاق صادراً

# المقالة الاولى

## حوادث وافكار (١)

لا اعلم من الفلسفة الا اسمها ولا أعي من العلوم الا رسمها ولا اعرف عن البسيطة الشيء الكثير ولا ادري عن الانسان الا اليسير فلا ترجُ ايها القارئ ان ترى مني فلسفة ارسطو او فصاحة ديموستين او رواية طاسيت او تثبت ابن رشد او احاطة ابن سينا او علم نيوتون او خواطر باسكال او اسهاب ڤولتير او اصابة روسو فما هي الاَّ حوادث يومي وافكار ليلي . وان شئت فقل حوادث يومك وافكار ليلك حوادث تتوالى على الانسان وتتناقلها الحواس فتؤثر في العقل تأثيراً يجعل فيهِ تفكيراً يقف بهِ تارةً على الارض وأُخرى يرتفع الى السماء وطوراً يدخل به الى نفسه فان في طاقة العقل ان يحكم في اعمال ذاتهِ كما يحكم في اعمال العالم الخارجي

والمؤثرات اما مرئيات او مسموعات او مشمومات او مذوقات او ملموسات وكلٌّ منها اما لذيذ واما مؤلم وبحسب درجته من اللذة والألم يكون تأثيرهُ في العقل فانَّ الحواس ليست الا ناقلة لتلك الاحساسات لا شاعرة بها فاما كيفية شعور العقل بها مع كوننا نحسبها مرسومة في الحواس نفسها فمن ادق مسائل علم المعقول ومن اقوى الادلة على وجوب تقسيم الاعمال

الاَّ ان تأثّر العقل بالمؤثرات واحكامهُ بها تختلف كثيراً بالنظر الى اختلافها واختباره اياها فكلما كانت اشد غرابةً واعظم اختلافاً كان العقل اشدّ انفعالاً بها واعظم تأثراً ولهذا كانت اميال العقل وتصوُّراته تختلف على حسب اختلاف الاقاليم . وكلما كان العقل اقل اختباراً للمؤثّرات كان اكثر توهماً فيها فانهُ كثيراً ما يتوهم بها امراً ثم لا يلبث ان ينفيه عنها بعد ان يزداد اختباراً لها وقد يصعب عليه ذلك ان تمكَّن الوهم فيه

* * *

---

(١) نشرت في جريدة مصر الفتاة سنة ١٩٠١

# بيـــان

هذا الكتاب يتضمن مباحث مختلفــة في موضوعات شتى علمية واجتماعية . وهو الجزء الثاني من مجموعة كتاباتنا . والمباحث المنشورة فيهِ كُتبت في ازمان مختلفة ونُشرَت في صحف مختلفة ايضاً . وقد جمعتها هنا غير ملتزم في ترتيبها تاريخها بحسب وضعها فقد يكون المبحث كتب اخيراً ونشر هنا اولاً وبالضدّ . وحاولت احياناً ان اضمّ الموضوعات المتقاربة بعضهــا الى بعض . ولكني لم اتعمّد ذلك دائماً اما لصعوبة الجمع واما بقصد ان يجد القارئ في التنقّل بين المختلفات راحة قد لا يجدها بين المؤتلفات . وهي مباحث ربما كان على بعضها أثر من الجدَّة بيننا في الماضي . واما اليوم فالأفكار قد ألفتها حتى يخال لي انها صارت قديمــة في هذا العهد الجديد الراقي . ولا اقلّ من ان يدلّ هذا البعض بعض الدلالة التاريخية للمتعقّب على كيفية نشوء الأفكار في الشرق وهذا حسبي من نشرها وكفى

الدكتور

مصر في ٢٤ دسمبر سنة ١٩٠٨

شبلي شميل

# الجزء الثاني

من

# مجموعة

الدكتور

شبلي شميل

وهو

يبحث في موضوعات شتى عمرانيَّة
طبيعيَّة وعلميَّة وتاريخيَّة وادبيَّة وسياسيَّة تقريريّة
وانتقاديّة وفكاهيَّة

ان اليوم الذي ينصرف الانسان فيه من تمويق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي تتقوَّم فيه طباعه فتقلّ سخافاته ويكثر جدّه ويقلّ رياؤه وينشط من الذل ويرتقي ارتقاءً حقيقياً ويحق له حينئذ ان يعد نفسه انساناً

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

لا يصلح الانسان مجتمعاً ما دام فيهِ الدينُ والوطنُ
ولم يزل من علمهِ خطلٌ يضيع فيهِ العقل والزمنُ
محلّقاً في الغيب مختبلاً كانما الغيب لَهُ عطَنُ
ويهمل الارض وما كنزت وانما الارض لَهُ سكنُ
وعلمهُ ان لم يكن عملاً يرتاض فيهِ العقل والبدنُ
يستخرج الاسرار ما خفيت وتصدق العين بها الأذنُ
وشرعهُ ان لم يكن شرعاً وسنَّة الكون لَهُ سننُ
يقتسم الاعمال مشتركاً لاواسنٌ فيهِ ولا وسِنُ (١)
وليس فيهِ مرهِق نهمٌ وليس فيهِ مرهَقٌ يهنُ
موطنهُ العالمُ اجمعهُ ودينهُ السلام لا الفتَنُ

***

لكنما القوم الألى ظعنوا لغيبهم هم الالى ضغِنوا (٢)
حبائل الدين لهم شركٌ لصيد قوم دونهم غُبِنوا
ان لم يكونوا مركباً لهم أخنى على أيديهم الشَّفَنُ (٣)
ظلمٌ عليهم منهمُ وبهم من جهلهم في رأسهم رسنُ
والمرءُ ان ما اعتاد متربةً فان تصنهُ فهو يمتهَنُ

وما هو حلمٌ ما اقول ولكنهُ الحقيقة لو انك تنظر الى الاجتماع في الدهور الطويلة فتقابل ما كان بما هو كائن لتعلم ما سيكون والبعض القليل الذي حصل يدل دلالة كافية على الكل المنتظر . وما الاجيال والدهور في عمر الاجتماع بالشيء الكثير

---

ارض الميعاد كما يستفاد من كل كلام التوراة

(١) لا يقظ ولا خامل

(٢) مالوا الى الدنيا

(٣) يراد بهِ العمل الشاق

الطبائع والكيفيّات. وهو آخذٌ اليوم بالتحوُّل كلما أخذ نظر الانسان المادّي يتقرَّر فيهِ اكثر. وسوف يبدو لهُ ذلك الجمال سخيفاً قبيحاً وتصير الحقائق البسيطة التي لا صبر لنا اليوم على التبحُّر فيها أو اننا نريدها مبهرجة (١) مما يستحبُّ الينا جدًّا وتجلب مطالعتها لنا الراحة المطلوبة واللذَّة المرغوبة وتتحوَّل لغاتنا (٢) اليها ويتغيَّر منهجنا في بسطها من المركب المعقَّد الى البسيط الصريح (٣) حينئذٍ يجد الانسان في مطالعة كتب الحقائق لذَّة لا تدانيها اللذَّة التي يجدها اليوم في كتب الخيال الموضوعة وموضوعات الادب المصنوعة (٤) ويجد كذلك في الارض التي صبا عنها فأهملها فردوساً موسويًّا (٥) حقيقيًّا مشهودًا فيهتمُّ بهِ ليجعلهُ لنفسهِ كذلك ويستغني بهِ عن ذلك الفردوس الخيالي الضائع اذ لا يعود يرى الحقيقة الاَّ في مثل هذا القول

(١) الناس حتى اليوم يكرهون البساطة في كل شيء سواء كتبوا او تكلموا او عملوا ويدخلون هذا الخيال الغريب لا في مباحثهم العلمية والادبية والدينية فقط بل في سائر امورهم الاجتماعية حتى التافهة جدًّا ايضاً . فان تصوروا ملكاً او حكماً ارادوهم بكل مظاهر الابهة ولو ظهروا فيها بمظاهر المساخر كأنهُ لا يصح ان يكونوا ببساطة ازياء العامة . ولاجل ذلك هم يميلون الى تعظيم علمائهم الغابرين اكثر من المعاصرين ويتصورونهم بهالة من المجد ترفعهم فوق سائر الناس طبقات وربما جردوهم من عيوبهم ويعظمون الذين يسمعون بهم اكثر من الذين يرونهم . وما ذلك الاَّ لانهم يحبون ان يدخلوا هذا الخيال الغريب على كل شيء ويسهل عليهم ذلك في من لا يرونهُ اكثر ممن يرونهُ

(٢) المحافظون على اللغة لا يدرون انهم لو استطاعوا ذلك اوقفوا بها متقهقرين على ان سنة التحول اقوى منهم وهي تسير باللغات ضرورة كما تسير في تحول كل شيء في الطبيعة والاجتماع وما ارتقاء اللغات الاَّ انطباقها على حاجات الاجتماع يأخذونها من افواه العامة كما يأخذونها من مباحث العلماء في اصطلاحاتهم للتعبير عن الادوات والاعمال والافكار وكأن اللغات الواقفة بحار كتابها المبرزون اذا جروا مع الزارع او الصانع او العامل او المفكر اليوم فيلجأون الى البحث والتقعر ليقولوا غير المفيد

(٣) انظر الى اسلوبنا في الكتابة ولا سيما نحن الشرقيين فان احدنا ما عدا انصبابهُ على المباحث الكلامية اذا اراد بسط قضية اعتلى ربوة خيالهِ وطار في الاجواء وملأ صفحات كثيرة ليقول شيئاً قليلاً

(٤) يروى عن غودري صاحب المباحث الشهيرة في تسلسل علم الحيوان في العصور الجيولوجية انهُ لما ظهر كتاب داروين في اصل الانواع قال ( اني قرأتهُ باعجاب وولع واذا جاز لي هذا التشبيه اقول اني شربتهُ متلذذاً كما يساغ الشراب اللذيذ نغبة نغبة )

(٥) فردوس موسى ليس الاَّ الوعد بالخلاص من العبودية والحصول على الحرية والرزق الواسع في

عليها ونسج كلامهُ على منوالها فصارت نفسهُ لا ترتاح الى مباحث الحقائق ولا تلتذّ بها كما تلتذّ بموضوعات الخيال لان اللذة والراحة انما هما المطابقة بين فعل الفاعل وقابليَّة القابل. حتى ان لغتهُ نفسها تضيق بهذه المباحث فليس لها فيها تلك السلاسة ولا تلك السعة التي أحرزتها في المباحث الادبيَّة وحتى ان عقلهُ يتعب منها . فالقول ان تصوُّرات الاحلام يلزم الاستمساك بها لانها تبدو لنا أجمل من تصوُّرات الحقائق وانها أصح كذلك لان الوجدان يرتاح اليها . وان ترويض العقل بمباحثها الكلاميَّة التافهة أنفع لنا من تدريبهِ على البحث في المحسوس المفيد لأنها اعذب لهُ وأسهل عليهِ يقتضي منهُ أن يكون الخيال أصدق من الحسّ وأن يكون كذلك الكذب على النفس أنفع من الصدق لها وأن تكون الاوهام نفسها أنفع لنا من الحقائق وأن يكون الاشتغال بالكلام الفارغ والمناقشات العقيمة أفضل من العمل (١) وأن تكون اضاعة الوقت بتنميق المقالات الخلافيَّة في مسائل جدليَّة لترسيخ الميل في العقل الى المباحث النظريَّة المجرَّدة أفضل من الاشتغال باختراع آلة لجرّ الأثقال وان يكون الطيران بمناطيد الخيال في قبب الاحلام أنفع من الطيران بمناطيد الصناعة في فسيح هذا الفضاء . فكيف لا تسوء حال الانسان الذي لا ترتاح نفسهُ الأ الى ذلك في العمران ؟ فلا الحياة مما يزدرى بهِ. ولا الافلاك تنفزّع . ولا الدهر يلتفت. ولا الصخر يُغدق حتى ولا المروج نفسها تُورِق بمثل هذا الكلام . وما هو الأ زيادة تضليل للعقل وتبذير في قوى الاجتماع على غير طائل. ولكنّ ذلك نشأ في الانسان اضطرارًا على هذه الكيفيَّة وسيتحوَّل عنهُ اضطرارًا أيضاً وما التنبيه اليهِ الأ حثٌّ للاسراع في هذا السبيل

فكما ان ذلك نشأ في العقل والطبع بغلبة الغريب والبحث في الماهيَّات والحقائق المجرَّدة أوَّلاً فهو سينقلب ضرورةً متى تمكَّن الضدّ فيهما بغلبة المحسوس والبحث في

(١) قال روزفلت في خطابهِ في الخرطوم على متخرجي المدارس الاميركية «انني أكره المجادلات والمتجادلين فاصرفوا قواكم الى العمل بدل الجدل ودعوا تلك البضاعة للعالم القديم» ولعلّ مثل هذا القول افضل ما نجاوب بهِ الذين لم يفهمونا اولم يريدوا ان يفهمونا لما أردنا التنبيه الى ما هو متأصل فينا من التهافت على المباحث الكلامية التي تصرف العقل عن العمل الى الاسترسال في التدرب على مباحث الخيال

من الحقائق او في المحراث والمعول والعمل لبيان ما فيها من المنافع بكتب اساطين الادب ولا سيما القصاصين الفرنسويين الذين أحرزوا قصب السبق اليوم في ميدان « الرومان » حتى بلغ منهم التأنق في السبك والدقة في الوصف والرقة في التصور انهم وصفوا الخيال بارق من الخيال ؟

بل اين اشعار المعرّي التقريريَّة التي تكاد تنقصم صلابةً من اشعار الفارض الخياليَّة التي تكاد تذوب رقةً ؟ بل اين وقعها في النفس من اشعار شكسبير الموضوعة وما يتخلَّلها من الخيال الرائع الذي يستفز الطبع و يستهوي العقل ؟ بل اين جمود قولك هذا

لازم الموت في الوجود حياة لازمت في وجودها الموت قسرا
حاول الناس منعهُ و بمنع الموت منع الحياة في الكون طرًّا

من لين قولك هذا

وحكيم من يزدري بحياةٍ كل يوم تزدادُ بالطول قصرا

بل أين فتور كل ذلك من حرارة هذا القول الحماسي

اذا استلَّ منا سيّدٌ غرب سيفهِ تفزَّعت الافلاك والتفت الدهرُ

بل أين جفاف مثل قولك هذا العلمي

وما الحب من أدنى فاعلى الى الرجا فما فوق الاَّ الشوق في كبد السهى
ترقى بنا حتى النهى وهو دونها كما في نيوب الليث أو في حشى الثرى

من طلاوة مثل هذا القول الخيالي

وهززتهُ بقصيدة لو أنها تليت على الصخر الاصمّ لأغدقا

بل اسأل أيّ فتى متعلم أو أية فتاة متعلمة ان تقرأ فصلاً في مخترعات الكهرباء قبل أن تقرأ رواية من سقط الوضع . بل اسأل عالمًا اليوم أن يقرأ مقالاً في تحوُّلات المادَّة قبل أن يقرأ كتابًا في مناجاة الارواح فانك لا تفلح . ولماذا ؟

لانّ لتكيفات الطبع والعقل الشأن الاول في أعداد ما فيهما من القابليّات . وأثر الخيال في هذه القابليَّات أعرق في القدم من أثر الحقائق . فالانسان لم يعرف الحقائق في أول الامر وما عرف الاَّ الاوهام فانطبع فيها وتكيَّف لها وشاد بنيانهُ العقلي والادبي

وانا اسمع من هنا غمغمة وارى اناساً يقومون و يقعدون وخاصة وعامة يهزأون او يسخطون وربما قام منهم متحمسون تحدثهم نفوسهم لو أنهم لا يصبرون. وكلهم يقولون كيف تريد ان تعيضنا بعلمك المقيد وفلسفتك المحدودة عن ذلك العلم المطلق وتلك الفلسفة التي لا تقف في سبيلها عند حدّ بل تخرق حجب المادة وتتطلع الى ما وراء المنظور. بل كيف تريد ان تصرفنا بماديتك الارضية وتصوراتك الترابية — ولو انها حقائق — عن تلك المصابئ العالية والافكار السامية التي يناجي الانسان بها امانيهُ بل آمالهُ بل نفسهُ وربهُ اذ يصعد بالخيال الى سماء المآل ويراها بذلك الجمال في فراديس الآمال — ولو ان ذلك تنقل في بروج الاوهام — وتطلع الى صروح المحال — وهل يجد العقل فيها تلك اللذة التي يجدها في هذه؟ أم هل يجد وجدانهُ (١) فيها تلك الراحة التي يرتاح اليها؟ واين عظمة كتب العلماء من عظمة كتب الانبياء؟ بل اين جمال مصنوعات تلك المشهودة من جمال موضوعات هذه الموعودة؟ بل اين مقدرة علوم اولئك المقيدة من مقدرة مواهب هؤلاء المطلقة: من غرائب عجائب العصور الميثولوجية وما تخلف لنا عنها من مأثورات التجلي الموعود بين البروق والرعود فنزول اللوح المسطور على ذلك الطور بين النار والنور فذلك الوجود والصعود المخالفين لطبيعة الوجود الى ما سال من العجائب على لعاب العناكب! ام هل تقاس كتب القصاصين الطبيعيين اليوم أم أي مؤلف آخر يؤلفهُ أي عالم في الهواء والماء والتراب لتقرير ما فيها

اطراف العالم بعضها ببعض فصار الارتقاء مطرداً كلياً في العمران تدمج فيهِ الامم الضعيفة او تنقرض بعامل النشوء التحوُّلي غالباً لا بالحروب والثورات الوحشية كما كان في الماضي ولا تنحط اليها الامم القوية

(١) الفلاسفة الاديبون لما يذكرون لك لفظة الوجدان فقط يخال لهم انهم افحموك فيبتسمون ابتسامة ظفر كأنَّ الوجدان خاص بالانسان ولو تحروا البحث لوجدوا انهُ عامٌّ على الحيوان والنبات حتى الجماد. فكما ان الاعيان تموت بموت الاجسام هكذا يموت الوجدان بموت الاعيان ايضاً. او هو لا يموت حقيقة بل يعود الى شأنهِ الاول البسيط ويتوزَّع في قوى موادها المنحلة هي اليها. ولو كان الوجدان حجة لما اقتضى ان يتعدد احياناً في الجسم الواحد لمرض يطرأ عليهِ اللهمَّ الاَّ ان يعودوا بنا الى القول بالمخالطة ويرجعوا الى طرد الارواح المشاركة بالرقى والطلاسم

وجداننا هل انت الفيت انهُ يقوم بغير الجسم ان حلَّ ما استوى
ألم ترَ انا فيهِ تحت طوارئٍ تعدَّدُ فيها او نعدُّ لهُ الرقى

التنازع عليهِ في المستقبل بينها وهي الانكليزية والالمانية والفرنساوية . وكان الراجح حتى الربع الاول من القرن الماضي ان يكون الفوز للفرنساوية لانها اسبق اللغات وامتها اسبق الامم الى المبادىء الاجتماعية الراقية لولا انهُ سطا عليها بعد ثورتها الشهيرة عاملان قويان كانا كالغل في عنقها والقيد في رجلها وهما تيار كتب الادب المجونية الخيالية التي بلغت صناعتها بينهم مبلغاً برّزوا فيهِ على سائر الامم واستغرقت فيها أعظم العقول الراقية وهوّست بها الآخرين (١) وتيار علم آخر هو علم الحقوق (٢) الذي اورثهُ نبوليون لامتهِ وللعالم ايضاً بعد ان كبح ثورتها وردها عن غايتها النبيلة وحولها الى مطامعهِ الخاصة وصرفها الى ما صارت اليهِ في زمانهِ وبعدهُ. فهذان العاملان الصارفان للافكار الراقية عن الاشتغال بالعلوم الصحيحة سيكون ضررهما على العالم اجمع وعلى فرنسا خاصة أشد من ضرر النظريات الدينية التي ما كادت تتخلص من شراكها في ثورتها الاولى حتى وقعت من ذلك في شراك اخرى اشد وادهى (٣) على ان كل ذلك اليوم عقبات صغيرة في سبيل ارتقاء الانسان الكلي (٤) في العمران لسرعة ارتقاء العلوم الطبيعية وسهولة انتشارها

***

(١) لا يرجى الخلاص من هذا الشر الاً بغلبة كتاب الادب الطبيعيين لا ليقوموا مقامهم بل لتحويل الافكار بهم اولاً ولكنَّ المقاومة حتى الآن عنيفة جداً والغلبة لا تزال في جانب الكتاب الخياليين

(٢) لقد بلغ هذا العلم اليوم من السعة في النظر والتقييد في العمل مبلغ علوم الكلام في الماضي وهو للعقول الراقية اليوم لاهوتٌ ثان . هذا عدا ما يلحق الاجتماع بسببهِ كما هو اليوم من الاضرار البالغة مادياً بالنفقات الباهظة واضاعة الوقت وادبياً بما يتسرب منهُ الى الاخلاق فيربيها على ضروب التفنن في تبديد هذا الوقت والانصراف بذلك عن العمل بما هو انفع للمجتمع

(٣) اود لمصر اليوم ان يخفض شبانها الراقون من تحمسهم في التهافت على هذه العلوم الكلامية التي لا تنيل استقلالاً ولا تقي من ضرٍّ . ولينصبوا بكليتهم على العلوم العملية والصناعات التي لا ترتقي بلاد حقيقة بدونها

(٤) الباحثون في طبائع العمران لا يهمهم قيام امم وسقوط امم في المجتمع البشري ولا ينظرون من خلال ذلك الاَّ الى النتيجة الكبرى الكلية . ولقد كان من شأن هذه النتيجة في الماضي التقهقر والوقوف في غالب الاحيان وقيام امم جديدة على اطلال امم قديمة بعامل الحروب لمنازعات الباعث عليها الدين والوطن . واما اليوم وقد ارتقت العلوم الطبيعية . واخذت بمصنوعاتها ومخترعاتها تربط

الوطنية [١] على ان هاتين الحاستين اخذتان اليوم في الضعف ولو مهما تقول فيهما المتقولون وترقق فيهما المترقفون والفضل في ذلك للعلوم الطبيعية من جهة الاختراعات الصناعية التي تربط العالم بعضهُ ببعض ولعلم درس الاحياء من جهة معرفة نسبة الكائنات بعضها الى بعض ونسبة افعالها الى الطبيعة وستزولان تماماً كلما ارتقت هذه العلوم وانتشرت بين الناس او انهما لا تبقيان بسطوتهما كما هما اليوم فتسقط حواجز الاديان [٢] وتمحى حدود الاوطان . وهكذا يصير الانسان انساناً حقيقيًّا ويكون الانسان اليوم الحلقة الواصلة بين الانسان الحقيقي والحيوان

***

والعقبة التي يقدّر لها عمرٌ اطول من سواها هي عقبة التفاهم أي اللغة . ولكن العلوم الطبيعية نفسها بجعلها العالم كأنهُ مدينة واحدة بتقريبهِ المسافات بينهُ ستجعل التنازع شديداً جدًّا بين اللغات [٣] حتى يقضى على الكثير منها الذي لم يكن لهُ في هذه العلوم شأن يذكر [٤] وكأن البقاء اليوم غير مقدور الاَّ للغات ثلاث سيقتصر

لعنةً جنى بها الخلف على السلف . فاذا اضفت الى كل ذلك انها من الوجهة العلمية متحوّلات اوهام واضغاث احلام وهي مع ذلك لا تستطيع ان تضبط المجتمع لولا الوازع المدني فلا أرى (لاختراعها) بعد ذلك ادنى منفعة قبل كل هذه الاضرار للاغضاء عنها

(١) لقد كانت الاوطان في اوروبا الى عهدٍ قريب علة الحروب يثيرونها بينهم لاقل سبب . واما اليوم فقد قلَّ الميل الى اضرام نارها لاجل ذلك ولا سيما بعد ان عرفت الامم ان الحروب لا تخدم مصالحها غالبًا وانما تخدم اغراض اناس قليلين من المتولين قيادها بل الامم اليوم ميالة الى التصافح من فوق حدود الاوطان سعيًا وراء مصالحهم العامة . والاشتراكية الصحيحة ليس لها غاية اخرى . والارجح ان حرب السبعين الهائلة هي خاتمة الحروب الوطنية الكبرى بين الامم المتمدنة

(٢) لقد كانت الثورة الفرنساوية خاتمة الثورات الكبرى لفصل المصالح الدينية عن المصالح المدنية ولتأييد هذه الاخيرة على حقوق الاشتراكية . على ان الاديان لا تزال سبب القلاقل الكثيرة في الشرق الادنى خاصة . وحتى اليوم ليس فيهِ جناية عامة خارجة عن هذا السبب ولو ضمنًا

(٣) من يوم تحوّل علم الطب في مدارس مصر وسورية الى الانكليزية والفرنساوية فقدت اللغة اقوى اركانها العلمية حتى صار من الصعب عليها جدًّا اللحاق بالعلوم الطبيعية في سيرها السريع

(٤) اللغات تحيا بحياة الامم وحياة الامم انما تكون بعلومها وصناعاتها وحياة العلوم والصناعات بالعلماء والصناع منها . فاذا خلت امة منهم ذهب استقلالها وكان القضاء عليها امرًا محتومًا

ويتمرَّن العقل عليهِ بالمزاولة ولا يعود يستعذب سواهُ فيقلُّ النظر ويكثر العمل ويقوم البرهان الرياضي والميكانيكي مقام البرهان العقلي والقياس المنطقي ولا يعود يصدق الاَّ بمعجزات العلم وحدهُ وينتفي من العالم كل ما ليس من العالم على حدّ ما في هذا القول

لو كان ربُّكم كمركوني(١) لما ضقتم وضاقت بالغريق نجاةُ(٢)
رصدَ السفينة ثم نجَّى قومها في حين لم تفدِ النجاة صلاةُ
علمٌ عجائب هديهِ مشهودة لا علم غيبٍ تدعيهِ هداةُ
هذا الصحيح وليس ما اوحى بهِ سيناءُ او طابور او عرفاتُ

وهكذا الى ان تزول سائر العقبات التي اقامتها تلك العلوم الكلامية الفلسفية في سبيل ارتقاء الانسان في اجتماعهِ والتي اشدها هولاً الحاسة الدينية(٣) والحاسة

---

واثبتناها في الجزء الثاني من مجموعتنا · ولا ريب في ان اوسابيا هذه من اقدر عرَّافات هذا العصر · ولكن لا ريب عندنا في ان كل اعمالها شعوذة راقية لا يصعب كشف الدجل فيها على المراقب البصير كما قلناعن امثال ذلك من عهدٍ بعيد في رسالة بعثنا بها من الاستانة الى جريدة الاهرام ونشرت فيها سنة ١٨٧٦ تحت عنوان « ان من العلم لسحرًا » وقد اثبتناها في الجزء الثاني من مجموعتنا

(١) اشارة الى التلغراف اللاسلكي

(٢) اشارة الى حادثة الباخرة التي غرقت ونجا ركابها بواسطة هذا التلغراف الذي لولاهُ لما اهتدي اليهم في مجاهل البحر ولذهبوا طعامًا للسمك

(٣) انا لست متعصبًا ضد الاديان بمعنى الكلمة الموجب لكراهة من لا يشاركك في اعتقادك الخاص · وفي امكاني ان امازج كل انسان مهما كان معتقدهُ وبمنتهى الاخلاص · ولكنني متعصب جدًّا لنول الحق او ما اعتقدهُ كذلك · وحتى اليوم لم يمنعني عن هذا القول محذور ولا مصلحة · فاذا شددت النكير على الاديان فليس قصدي ان احرج احدًا في ايمانهِ ولولا ما اشاهدهُ كل يوم في معاملاتنا من الشرور المتعصبة المبتلى بها المجتمع بسبب هذه الحاسة ولاسيما في وطننا الخاص لما قمت قومتي على الاديان واصحابها في كل ما كتبت حتى اليوم · وهي بحد ذاتها شرائع ليس فيها من الاصول الاجتماعية ما يخالف مصلحة الاجتماع لولا انها ككل الشرائع التي تصلح اليوم ولا تصلح غدًا وخصوصًا لولا ان الصبغة الالهية التي لها تكسبها جمودًا في نظر اتباعها لا تتزحزح عنهُ الاَّ بثورات هائلة تجري الدماء فيها انهارًا · واصحابها من المصلحين الكبار في عصورهم ويستحقون كل تعظيم لولا انها اصبحت بعدهم في ابدي الرؤساء وسيلةً للارهاق وفي ابدي الجهلاء سلاحًا للتفريق حتى في الوطن الواحد فانقلبت البركة المقصودة منها بايديهم

وسوف تجعلهُ وطناً واحداً (١) فغلبت حينئذٍ قوى التحول الارتقائي (٢) في الاجتماع غلبة ظاهرة على قوى الاحتفاظ التقهقري وصار كل عمل اليوم في قطر يرنّ صداهُ في الاقطار الاخرى بالانصياع لا بالمقاومة (٣)

***

وقد قلّ الميل اليوم الى تلك المباحث العقيمة عن ذي قبل وقل الاعتناء بالعلوم العقلية والفلسفية في المدارس الراقية (٤) مجردة كانت ام مادية . واذا كان العلماء الطبيعيون في القرن الماضي لجأوا الى الفلسفة احياناً لرد غارات مقاوميهم فانما فعلوا ذلك اضطراراً لدفع المثل بالمثل مع انصياعهم في برهانهم الى الدليل الحسي الراهن واذا كان لعلوم النظر شأن كبير في العلوم الطبيعية نفسها حتى اليوم فلأن العلوم الطبيعية نفسها لا تزال في اولها ولم تنتشر الانتشار الكافي بعد ولان مجرى الافكار أيضاً لا يزال متأثراً جداً بتلك المبادىء النظرية العريقة فيها منذ القدم (٥) . ولكنهُ سيأتي يوم وما هو في تاريخ الاجتماع ببعيد تسقط فيهِ قيمة هذه المباحث الكلامية الفلسفية بل ينظر الى اصحابها كأنهم صبية يلعبون او مصدعون يهذون اذ يصبح العلم كلهُ علم اختبار

(١) كلما اختلطت المصالح بين الامم بالاختراعات قلت الفواصل بين الاوطان واصبح شأنها في المجتمع العام كالمدن الى الوطن او كالبيوت الى المدينة

(٢) اي بالسلم خلافاً لمذهب شو العنيف

(٣) لا كما كان في الماضي يقف الوطن بازاء الوطن ويتفانيان بالحروب

(٤) ما عليك الاَّ ان تقابل بين التعليم في المدارس القديمة والحديثة لترى هذا الفرق واترى كذلك اضاعة الوقت الطويل في الاول مع قلة الفائدة بالنسبة الى عظم هذه الفائدة مع قصر الزمان في الثانية ولا ريب عندنا ان مدارس المستقبل ستكون اعظم فائدة جداً واسهل تحصيلاً للعلوم على الطلبة كذلك وبمقدار ما ستسقط علوم الادب النظرية ستقوى علوم العمل الاختبارية وتتغير كتب التدريس بحسب ذلك

(٥) اكبر شاهد على ذلك تأليف العالم الطبيعي اوليفر لودج كتابهُ في البعث بناءً على ريح ساكنة في النفس اثارها اليوم الكاتب المستهوى ستيد وخزعبلات المشعوذة اوسابيا . والمرجحات التي ساقها لبقاء الارواح خالدة مستقلة لا تخرج عن اشباه حكاية عرافة التوراة وهي كلها دليل على متمنيات في النفس لرسوخ اعتقاد بالتربية لا على تقرير حقائق مدعومة بمبادىء العلم الطبيعي وخصوصاً علم الطب . وقد لا يشك في صدق ستيد في مروّباتهِ ولكن لا شك كذلك في انهُ هو نفسهُ مخدوع ومستهوى في آن واحد كما بينا ذلك في مقالات نشرت في الصحف والمجلات

ذلك في الطبيعة الصامتة او في الاجتماع العاقل ولولا ذلك لما ارتقى الاجتماع . وعمل الارتقاء وان كان الدافع فيهِ « الانانية » الاَّ انها هي نفسها خاضعة لناموس التكافوءِ والتكافل (١) الذي بموجبهِ يتم الارتقاء قسرًا ولو بعد التذبذب الطويل باعتبار انهُ الانسب والاصلح لمصلحة المجموع لا لفئة من هذا المجموع . والاجتماع نفسهُ العاقل لا يستطيع التصرف بهذا النظام الاَّ في حدود معلومة مهما تعاظم شأنهُ وقويت ارادتهُ الى ان يصبح فيهِ ذلك بالعلم الكثير في حكم المطرَّد اضطرارًا ايضًا لا عن ارادة غالبة. وهذا ما يجعل نظرية امثال هوءُلاء الفلاسفة حلمًا قاسيًا لا حقيقة عملية وياليتهُ مع ذلك حلمٌ لمصلحة الاجتماع ولكنهُ حلمٌ لو صح لسار بهِ القهقرى حتى وهو في ارقى حالاتهِ لان ارتقاء الانسان ليس لهُ حد كما ان علمهُ ليس لهُ حد ايضًا حتى يقف عندهُ ويقصر ارتقاءهُ وعلمهُ عليهِ دون الاخذ بسواهُ

ولا يبقى عندك ادنى ريب في كل ما تقدم اذا علمت ان اوروبا نفسها لم تبتدىء تصطلح الاَّ منذ القرن الثامن عشر حين بزغت شمس العلوم الطبيعية ضئيلة في اول الامر واخذ ضياؤها ينتشر بين الناس ويبدد غيوم تلك العلوم المظلمة فتنبهت الامم حينئذٍ واخذت تتغير في نوع أحكامها تارةً بالثورات وتارةً بالنشوء التحوّلي تارة بالحروب وتارةً بالسلم . ولكن الاجتماع لم يخط الخطوة الصائبة في سبيل ارتقائهِ الحقيقي حتى صار ارتقاؤهُ اسلم الاَّ من بعد ما تأيد مذهب التحول الطبيعي (٢) وركز على قواعد ثابتة وتحولت بهِ قوى العقل من التخبط في دياجير الخيال الى الدرس الاختباري فارتقت حينئذٍ العلوم الطبيعية ارتقاءً عظيمًا كاد يربط اطراف العالم بعضها ببعض

---

(١) التكافوء والتكافل يراد بهما ان كل عمل في الطبيعة لا يمر من دون صدى وهما يتكفلان وحدهما بازالة عيوب الاجتماع كالامراض وتقليل الجنايات بمقاومة كل اسبابها المحدثة لها لا بقتل اصحابها في المجتمع على نوع خاص

(٢) اي مذهب النشوء والارتقاء الذي رقى العلوم الطبيعية ومهد السبيل السير بها لتهم شرائع المجتمع فهمًا اصح

ولا تبقي الاّ على الانسب (١)

ولكن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة الحالمين « القانطين » كما اسميهم لم يقولوا لنا متى يجب العمل بشريعتهم اليوم اوغداً وهل كان يجب العمل بها منذ البدء . لان الانسان ليس واحداً في طبيعة هذا التفوق ولا في علمهِ هو نفسهُ لتقديرهِ . ولو صحّ العمل بها في كل العصور عن ارادة ومقدرة لغلب على الاجتماع منذ البدء التقهقر حتى يعود ويندمج ثانية في الحيوان الاعجم ولبقي في صورة همجية هائلة لا عقل لهُ ولا علم كأنهُ الوحش الاكبر (٢) لان الانسان انما ابتدأ متوحشاً جاهلاً وتفوّقهُ حينئذٍ انما كان بقوتهِ البدنية وكثرتهِ . بل ماذا كانت حالة الاجتماع لو عمل بها بعد ذلك ايضاً كما في عصور الحماسة في اوربا يوم كانت صناعة الحرب ارقى الصناعات في نظر الناس وصناعة الكتابة احقرها . يوم كان الامير لا يفخر الاّ بالسيف ويهزأ بالقلم ويحتقر العلم؟ ولو عمل بها حينئذٍ لعمل بناءً على ان ذلك هو الانسب والاقوى كذلك ولما كان قدر ان يعلم شيئاً او يعمل شيئاً مما نعتبرهُ الاصلح اليوم

على ان هذه النظرية وان كان يستند بها الى مذهب داروِن كلياً الاّ انها ناقصة في جزئياتها لاختلاف العوامل الداخلة فيهِ مما يجعل الارتقاء فيهِ نتيجة عمياء سواء كان

(١) هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يقولون — وقولهم حق — ان الشريعة الطبيعية السائدة في نظام الطبيعة كلها من صامت وحي كما في مذهب النشوء هي (الانانية) او حب الذات . ولكنهم بعد هذا القول الصحيح يقعون في الوهم ولا سيما في تطبيق ذلك على الاجتماع البشري . فيقولون ان الشرائع الالهية والاجتماعية نفسها لا تنطبق تعاليمها على هذا المبدإ لان تعاليمها الوضعية مبنية على الرحمة ولذلك كانت عيوب الاجتماع وشرورهُ كثيرة . وما قالوا قولهم هذا الاّ لانهُ ذهب عليهم ان شريعة الانانية هذه خاضعة لشريعة اخرى طبيعية تجعل هذه الانانية مقيدة تمنعها هذه المنفعة الاّ اذا شاركها فيها مشارك وهي المصلحة المتبادلة . وسواء كانت الانانية عاملة كما في الاجتماع البشري او جاهلة كما في الطبيعة فهي مقصورة على هذه المشاركة التي تبدو لها مزاياها اكثر كلما زادت علماً بمصلحتها . فان كانت الانانية تحمل الكائنات على جذب النافع اليها فالمصلحة تدعوها الى توفير مصلحة سواها حباً بنفسها وعملها هذا ليس رحمة او تفانياً في حب الغير بل عن ضرورة ولو اضطرّ الى استعمال هذه القسوة احياناً في ظروف خصوصية جزئية لا كلية

(٢) والمرجح انهُ كان انقرض لان قوتهُ البدنية لم تكن كافية وحدها لتسمح لهُ بالبقاء بين خصومهِ وهي تفوقهُ بهذه القوة

اطلقنا عليهم شريعة « شو »[١] وهي كشريعة النحل في الابقاء على النافع وقتل غير النافع [٢] لوجب ان يهلكوا عن آخرهم . بل لوجب ان يباد اكثر البشر في المعمورة كلها باعتبار هذا النافع منطبقاً على مرامي ارقى فكر اليوم لان القسم العامل لصلاح المجتمع حتى في البلاد الراقية ليس الاَّ دون الطفيف لولا ان هذه النظرية من حظ الاجتماع غير ممكنة لان الاجتماع مدفوع الى الصلاح بطرق عملية اصحّ ليس فيها شيء من هذا التبذير . ولو امكن العمل بهذه الشريعة لما درينا اين يكون مقام « شو » وامثالهِ في هذا التنازع العنيد لان الاقوى ليس الاصلح دائماً ولا هو واحد في كل حال [٣]

و « شو » يزعم وزعمهُ فاسد انهُ يستند الى مذهب داروين في بقاء الانسب لا بالانتخاب الطبيعي فقط بل بالانتخاب الصناعي ايضاً . ومن رأيهِ ان هذا الانتخاب الاخير المعقول يجب ان يكون غرض الاجتماع البشري العاقل الى ان يبلغ الغاية من ارتقائهِ بخلق الانسان الاسمى او « السبرمان » كما يسميهِ بلغة الانكليز [٤] وشو متفق في ذلك مع الفيلسوفين الالمانيين « شوبنهور » و « نتشه » في ان شريعة الاجتماع كشريعة الطبيعة نفسها لا يجب ان تعرف شفقةً ولا رحمة فتقتل العاطل او تمنع تناسلهُ

---

(١) هو ( برنارد شو ) الانكليزي وهو يذهب الى وجوب تقييد الزواج وقتل الذين لا خير يرجى منهم لمصلحة المجتمع

(٢) في النحل شريعة لا تتغير وهي ان الذكور منهُ بعد ان تقضي وظيفتها التلقيحية ولا يعود لها نفع مطلقاً بل تصبح عالة على الفقير تقوم عليها الاناث وتفتك بها وتقتلها عن آخرها . ولولا ان عسلها الذي ضنت بهِ على ذكورها وجد الانسان بهِ غذاء شهياً لهُ جعلهُ يعتني بها لا نقرضت بشريعتها هذه التي كل فائدتها لها كانت حفظ تفوق اناثها بالقوة البدنية على ذكورها لان المحافظة في كل شيء وقوف يدعو الى التقهقر في هذا التنازع مع الغير

(٣) الاصلح المرغوب فيهِ ليس واحداً في نظر الاجتماع في كل الاحوال فقد يكون الجمال او القد او صغرهُ والقوّة قد تكون في جانب القوة البدنية او الحيلة العقلية وقد تكون حسنة صالحة اليوم وترى غير ذلك غداً وكل ذلك يجعل شريعة ( شو ) نظرية ناقصة والعمل بها غير ممكن لحير الاجتماع والاَّ وقف ولم يرتق البتة

(٤) طالع مقدمة سلامة موسى في ذلك المنشورة حديثاً في اللغة العربية

على ما هي عليهِ من الفرق الجسيم عما كانت عليهِ في الماضي عزة ومنعةً . فمع معرفتها ان ارتقاءها انما كان بهجرها كثيرًا من ترهات الماضي فهي لا تتنازل عن الباقي برضاها (١) بل انظر الى الجنايات الكثيرة التي ترتكب كل يوم بحق الجموع والافراد تحت طيّ هذه المبادىء القائمة عليها مرامي الاديان (٢) والاوطان (٣) كما هو شائع بين الناس حتى الآن ولا تستغرب بعد ذلك اذا كان المجتمع لا يصلح صلاحًا تامًّا بها (٤)

***

واذا نظرنا الى الاجتماع نظرًا عمليًا من حيث ذلك كلهُ لزمنا القول ان الشرقي فيهِ اليوم على نوع خاص فضلةٌ لا عمدة . وهو في علومهِ حتى اليوم حالم اي ان علمهُ نظر اكثر منهُ عمل . والمدارس التي تعلمهُ العلوم الحديثة لا تخرج في تعليمها عن هذا الحد فهو في الاجتماع شريك سلبي لاقتسام المنفعة لا ايجابي للعمل لها . بل هو يقتسمها مرغمًا في ورودها اليهِ من الخارج ويقوم في سبيلها معارضًا من الداخل . واذا استثنينا اليابان نوعًا نقول ان هذا الحكم يشمل اليوم اهل الشرق الاقصى والادنى وسواهم ممن شاركهم في جمودهم من الامم التي لا شأن لها اليوم في العلم العملي الراقي . ولو

---

على ذاك مما هو خاص بكتب الدين حتى لا يفتر هذا العرق ينبض فينا وتغمّ عواطفنا على عقولنا وتزيدنا عمى على عمانا في مصالحنا الاجتماعية

(١) امة الانكليز مع انها ارقى الامم اليوم بعد الاميركان لا تتنازل عن تقاليدها السخيفة وامتيازات حكومتها المجحفة الاّ بهزة تصل الى اعماقها كمجلس الاعيان والالقاب وحفلة التتويج وغير ذلك من السخافات الحريصة عليها جدًّا وكأني بهذه الثورة الاجتماعية قد بدأت اليوم

(٢) من مثل مذبحة سنت برتلمي في فرنسا وديوان التفتيش في اسبانيا ومذابح الارمن ومجازر اطنه في تركيا

(٣) كم صدّت الاوطان كما هي مفهومة اليوم غوث المدنية للاعتصام بحبل الهمجية

(٤) كيف ترجو هذا الصلاح وجرائدنا حتى اليوم تتغنى بمشي الامام المسلم او النصراني في جنازة ميت ليس من دينهِ كأنَّ الامر غريب في نفسهِ وهل يصلح مجتمع مؤلف من هذين المختلفين في الاعتقاد المتنابذين المتخاذلين وهما يجب ان يكونا فيهِ اخوين متعاونين متفقين

السلطة تسري من فوق الى تحت من الامير الذي كان كل شيء الى الشعب الذي لم يكن شيئاً مذكوراً فلم يكن لهُ ادنى صوت ولم يكن شأنهُ في التاريخ الاَّ شأن المتاع يباع ويشرى ولم يكن لهُ حق في اشتراع الشرائع التي تحكمهُ اوسن النظامات والقوانين التي تسوسهُ وبالجملة لم يكن لهُ وجود ادبي مطلقاً. ومع ذلك فقد كانت تلك المبادىء الفلسفية والعلوم الكلامية ولاسيما الدين القائم عليها في زهوتها وابان مجدها

بل انظر الى الحاضر اليوم لترى كيف ان اثر كل ذلك في شرائعنا ونظاماتنا وحكوماتنا وسائر معاملاتنا وغايتنا في حياتنا لا يزال يتنازعنا في مجتمعنا ويصرفنا عن تعاوننا ويدفعنا الى تمزيق بعضنا بعضاً وكيف ان الحكومات لا تزال تؤيد التعاليم المبنية عليها بالقوة والمظاهرات فتقيم لها المعاهد الخاصة[1] لتطمس بها على الشعب لحفظ السيادة العمياء عليهِ[2] بل انظر الى هذا الشعب الجاهل نفسهِ كيف انهُ ينتصر بها لسواهُ على نفسهِ فان حاولت ان تخرجهُ من جهلهِ قام عليك كأنك امتهنتهُ كما في هذا القول

والمرء ان ما اعتادمتربة فان تصنهُ فهو يمتهن

انظر الى كل ذلك لا في الشرق السخيف باممهِ وحكوماتهِ وملوكهِ حيث غاية كل هذه العلوم تفوق كل غاية في مجتمعهِ[3]. بل انظر اليهِ في ارقى الممالك اليوم

---

(١) المعاهد الدينية لا يجوز ان يكون للحكومات الراشدة يدٌ فيها مطلقاً لا لنصرها ولا لخذلها بل هي من حقوق الجماعات تشيدها بمالها الخاص على ما تهوى ومدارس الحكومات المشادة بمال الامة لا يجوز ان تشاد فيها معاهد دينية ولو كانت الامة كلها من دين واحد فكيف وهذا محال -- لان الغاية الاولى منها تعليم العلم لا تعليم الدين — فالدين يجب ان يعلم في معاهدهِ الخاصة فقط — والحكومات لا يجوز ان يكون لها دين طالما هي تحكم اقواماً من معتقدات مختلفة يطلب منها ان تجمعهم في مصالح اجتماعية واحدة مشتركة والاَّ كانت هي العاملة على الدمار وهي لسوء حظ المجتمع حتى الآن كذلك في اكثر المسكونة كما في هذا المثل «حاميها حراميها»

(٢) الحكومة الفرنسوية الجمهورية اليوم تحارب الجمعيات الدينية في بلادها من غير حق وتنصرها في الشرق من غير حق ايضاً. نزعم انها هناك تقاوم زرع سمومها وهنا تنصر بها نفوذها. فلتحاربها هناك بنشر التعليم الصحيح لا بالمصادرة ولتنصرها هنا بما اعطيته من الحقوق السياسية لحمايتها لا بالتصدر في حفلات اعيادها

(٣) الجامعة الدينية في شرقنا لا تزال فوق كل جامعة وبها تذكر المصالح الاجتماعية في وطننا الواحد وهي سبب كل الاختلافات الداخلية حتى اليوم نحشرها بيننا في كل شيء حتى في كتاباتنا الادبية وفي جرائدنا السياسية فقلما تخلو كتابة من كلام البسملة والحمدلة والصلاة على هذا والسلام

النظر الصوفية . فانصرفوا بذلك عن غاية الدين العملية المادية الى المرامي المجردة والمنازع النظرية وسائر علوم الجدل الادبية المقامة عليها حتى الى ما لا علاقة لهُ بالدين مطلقاً(١). وحلّ ذلك حتى على شعرهم نفسهِ فانقلب من خطتهِ الوصفية التقريرية كما كان الغالب فيهِ في الجاهلية الى هذه الصورة الخيالية الواهية وتبذلوا فيهِ بان صار اكثرهُ لسان حال تهتكهم في غزلهم ومرمى ذلّ نفوسهم في تزلفهم واغراقهم في اختلاقهم مدحاً او ذماً فتقهقروا وما زالوا متقهقرين حتى اليوم . ولو بقيت وجهتهم في مجتمعهم شريعة القرآن وحدها كما هي فيهِ لما قام في وجههم حائل يصدهم عن الارتقاء الاّ ما يقوم من كل شريعة اجتماعية جمدت على الايام (٢) غير ان الشارع الحكيم نفسهُ وضع لهم مخرجاً من ذلك الجمود بآيات النسخ نفسها التي اتاها في قرآنهِ في حياتهِ لعلهم يتدبرون(٣)

وقد كان لروح هذه الفلسفة اسوأ وقع في احوال الانسان الاجتماعية أيضاً ولا اكلفك الوقوف في الماضي البعيد بل انظر الى الماضي القريب . فقد كانت اوروبا حتى الى عهد قريب ( ١٥٠ سنة ) ملك الامراء يحكمونها بحق السيادة المطلقة ويستولون عليها كما يستولي المالك على ملكهِ ويضمونها او يقتسمونهـا بالميراث او بالزواج . وكانت

---

(١) أن الاسئلة السخيفة التي ترد على مجلة المنار من اطراف العالم الاسلامي واني لتجشم صاحب المنار الفضال مشقة الردّ عليها مضطرًا تدلك على مبلغ تقهقر القوم في فهم الدين من مثل جواز تأخير دفن الميت للتحقق من موتهِ . والتشبه بالافرنج في الزيّ . وغروب الشمس والافطار . وعدّة الوفاة . وجواز ذكر الله بالرقص والتواجد . وعذاب القبر والتجزوءُ عند الصوفية . واباحة الغناء الخ . وهذه الاسئلة ماخوذة من عددٍ واحد من المجلة . وغير ذلك من الاسئلة التي تضطرب لها عظام النبي في قبرهِ والقرآن وشريعتهُ بريئان منها لو انهم يفقهون

( ٢ ) قانون نابوليون كان اية في زمانهِ ولكنهُ ككل القوانين المدنونة فيهِ من الجمود ولو انهُ خال من الصبغة الدينية ما يجعل تحويرهُ على مدى الايام بطيئاً فلا تلجأ اليهِ الاّ بعد تفاقم الضرر . وياليت ذلك بل هو اليوم بما ادخل عليهِ من النظامات المرتبكة المشتبكة وبما صار اليهِ من وجوب الالتجاء الى التخريج في التاويل والتفسير كسائر علوم الكلام قيد في رجل الاجتماع يذهب بالغ بهٖ احيانًا كثيرة

(٣) الذي نفع المسلمين في الاول فارشدهم اذ صرفهم الى الحياة العملية هو الذي أضرّهم بعد ذلك اذ قيدهم بشريعة والذي اضرّ النصارى في اول الامر اذ اصبحم فاملهم عن الحياة الدنيا هو الذي نفعهم بعد ذلك لانهُ لم يقيدهم بشريعة اذ لا بدّ لكل شريعة من ان تتغير مع الانسان بحسب الزمان والمكان

من ذلك التراث القديم كأن الحقيقة اذا وصفت بسيطة تضحي مبتذلة

وناهيك بما في هذا الالتزام في البحث دون الالتجاء الى العمل والاختبار من تعويد العقل وتربيته على حبّ الاغراب ولا شيء أسهل عليه حينئذٍ من ركوب متن السفطات المنطقية حتى في العلوم المادية نفسها . ألا ترى العلماء انفسهم واصحاب العقول الراقية في المسكونة قاطبة كيف انهم يميلون حتى اليوم الى مباحث فارغة ويصرفون اثمن اوقاتهم في التنقيب عن هذه الآثار الادبية القديمة (١) ويعيرونها من الالتفات ما لو صرفوا بعضهُ في العلوم الصحيحة (٢) والاشتغال بما امامهم لافادوا الاجتماع فوائد لا تحصى ووقوهما من زيادة التضليل

ولم يقتصر ضرر هذه الفلسفة المجردة على العلوم الصحيحة والطبيعية بل تناول كل شيء حتَّى الاديان نفسها

خذ مثالاً شريعة القرآن فانها بين الشرائع الدينية الشريعة الوحيدة الاجتماعية العملية المستوفاة (٣) التي ترمي الى اغراض دنيوية حقيقية بمعنى انها لم تقتصر على الاصول الكلية الشائعة بين جميع الشرائع بل اهتمت اهتماماً خاصًّا بالاحكام الجزئية فوضعت احكام المعاملات حتى فروض العبادات أيضاً . وهي من هذه الجهة شريعة عملية مادية حتى ان الجنة نفسها لم تخرج فيها من هذا الحكم من اشجار واثمار وانهار الى آخر ما هنالك. وطالما جرى اتباعها عليها صلحت امور دنياهم على سواهم بالقياس الى حالة البشر في تلك العصور لان كل شيء نسبي في هذا الوجود . حتى دخلت عليهم علوم اليونان الفلسفية ومباحثها المجرَّدة فمالوا بها الى العلوم الكلامية واطلقوها على الدين ووضعوا الفقه الاكبر فكثرت البدع بينهم وشرُّها في تمكين هذا النوع من

(١) اذا وجد فيها احياناً بعض الفائدة فهي كما في المثل ( درهم دبس على قنطار خشب )

(٢) اذا علمت ان المشتغلين حتى اليوم في العلوم الصحيحة ليسوا الا اجزاء كسرية من ملايين تشتغل في سواها ورأيت الفوائد الكثيرة التي نجمت عن ذلك ادركت الفوائد الكبرى التي كانت تحصل للاجتماع من تناصر كل هذه القوى لو انصرفت الى العمل والى ما يؤدي اليهِ

(٣) شريعة موسى مادية عملية ايضاً ولكنها غير مستوفاة · وشريعة عيسى وان كانت حكماً ومواعظ تعتبر اصولاً كلية الاَّ انها في جملتها نظرت الى العالم الروحاني اكثر من الحياة الدنيا · بخلاف شريعة محمد فانها نظام اجتماعي عملي مادي قانوني حقيقي

بعدها في كلا الحالين عن الحقيقة ثم انظر الى سلطانها على العقول حتى الراقية وقل لي ما هي منفعتها العملية بل الادبية نفسها. أليست في جملتها تبذيرًا لقوى الاجتماع وتضليلاً للعقل في آن واحد ؟

و ينقلب ترددك في القضاء على هذه الفلسفه و كل ما بني عليها من التعاليم الموضوعة الى السخط اذا علمت انها كانت السبب لوقوف الانسان عن التقدم في علومه الصحيحة [1] قرونًا عديدة . ولا يزال اثرها فينا شديدًا حتى اليوم . وطيفها لا يزال حالاً حتى على علومنا الطبيعية نفسها سواء كان في تأييدها [2] او في اسلوب بسطها ولا نزال حتى اليوم نصعب فهمها بادخالنا عليها كل تعقيد لفظي [3] ووصفي مما لنا

اللغط الذي احدثتهُ رواية ( شنت كلار ) للشاعر الفرنساوي ( روستان ) التي جعلها على لسان الحيوانات والبس الناس جلودها كيف انها اقامت عالم الادب في اوروبا واميريكا حتى اوفدوا لها الوفود واشغلوا بها الاسلاك البرقية وعقدوا لها الفصول الطوال وتنازعوا سبق الفكر فيها كأنها ليست من حكايات كل عجوز شرقية لاطفالها · واهتم الباريسيون انفسهم بها اكثر من اهتمامهم بغرق مدينتهم باريس بالطوفان · ولا غرو اذا طغى نهرهم وتهددهم بالغرق وغفل مهندسوهم عن اخذ الحيطة دونهُ فانهم في شاغل عنهُ بما هو اهم مما يتدفق من اقلام كتابهم من السيل الجارف الذي لا يقف اليوم في سبيله سدٌ

(١) خذ مثالاً لذلك الطب فان الاطباء أنفسهم مع ان علمهم يفرض عليهم درس المرض على المريض نفسهِ لم يكن لهم همٌّ حتى القرن الثامن عشر سوى اجادة العلوم الكلامية للحصول على جواز يجيز لهم العمل بصناعتهم · فكانوا يقضون وقتهم في المدرسة او الجامعة وهم يفسرون كتب ابقراط وجالينوس كأنها منزلة ويؤولونها ويخطئون الطبيعة بها ليطبقوها على المبادئ الفلسفية والدينية معًا لا انهم يحققونها ليصلحوا فاسدها · فكانوا يصرفون وقتهم في التدرب على المشاغبات الجدلية حتى اذا اجادوها بخطاب ينمقونهُ بالالفاظ المقعرة والجمل الطويلة العريضة المعقدة العويصة على الفهم اعتبروا حينئذٍ انهم اكفاء وسيموا اطباء من يد رئيس الجامعة الديني نفسهِ سيامة دينية كما يسام الكهنة والاساقفة وتقلدوا الجبة والقلنسوة كما يتقلدها قضاتنا والمحامون اليوم · فكان كل علمهم مخرقة اي صناعة جدل وذرابة لسان كما هو شأن كثيرين اليوم

(٢) الذين ينظرون الى هذه العلوم اليوم ربما خفي عليهم ما اوجب تاييدها من العناء وما عهدنا بالمشاحنات التي اوجبتها مسائل تبدو لنا واضحة في الحاضر بعيد من مثل نفي السوائل غير القابلة الوزن واثبات تحول القوى ونفي المبداء الحيوي وتاييد مذهب النشوء والتحول الخ · مما يعدُّ اليوم في حكم المقرر واضطرار الطبيعيين أنفسهم في تأييدها احيانًا الى استعمال براهين منسوجة على نول تلك الفلسفة

(٣) هذا التعقيد منهُ اصيل من اثر خطة مباحث علماء الكلام فينا لسلوك السبل المعقدة ومنهُ لعدم انطباق الكلام المألوف على الحديث من العلوم

نقلها الينا بعده [1]

بل اقرأ فصلاً من تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد وقل لي ماذا تفهم ؟ بل الفت نظرك الى المباحث العقيمة الجدلية المقامة على القضايا المنطقية وقل لي ان كان يجوز ان يصدر كل ذلك عن عقول سليمة

بل حاول ان استطعت قرءة المجلدات الضخمة في مسائل سخافية استحالية وتحليلية وتحريمية وقل لي اذا كان ذلك يفرق كثيراً عن الهذيان !

بل انظر الى هذا السيل الجارف الذي طما اليوم حتى كاد يبتلع فيهِ كل قوى الانسان ولا سيما ان الاعتقاد فيهِ لا يزال راسخاً في العقول انهُ من منتجات العقل الراقية ولم يتطرق اليهِ الريب بعد كما تطرق الى العلوم الفلسفية والعقلية والدينية نفسها اريد به سيل كتب الادب الرائجة سوقها اليوم جدًّا وهي عبارة عن اقاصيص موضوعة خيالية ارتقت مع الانسان من حكايات الف ليلة وليلة الطافحة بكل غريب [2] الى الاقاصيص المتناهية اليوم بالتأنق في السبك والدقة في الوصف والرقة في الخيال مع

---

وهي لا تشبعهُ الاَّ اذا بقي يرح في الجهل · وفي بحثهِ في العلوم الصحيحة ووقوفهِ على اسرار الحقائق المادية والتوصل بها الى الاختراعات النافعة في معايشهِ وتطبيقها على مصالح الاجتماع غذاءٌ شهيٌّ واكلٌ طيب ولذةٌ لا تعادلها كل اللذات الموعودة · فارخميدس لما اكتشف الثقل النوعي وغليلي لما اكتشف دوران الارض وكبلر لما اكتشف الحركة الاهليلجية ونيوتون لما اكتشف ناموس الجاذبية شعروا بلذة عقلية لا تضاهيها كل اللذات الجسمانية — وهي لذة جسمانية ايضاً — حتى انهم نسوا انفسهم وعرضوها للسخرية و بعضهم استعذب الموت في سبيلها

(١) ابن سينا وابقراط وارسطوطاليس يتشابهون في انهم تركوا كتباً جمعوا فيها علوم الاقدمين حتى نسبت اليهم كأنهم واضعوها · فارسطوطاليس جمع علوم الاقدمين وفلسفتهم على ما فيها من التباين لذلك كثرت المناقضات في الكتب المنسوبة لهُ فبينا تراهُ يثبت مادية الكون اذا هو يفسح المجال للقوات السرية و بينا تراهُ يحاول وضع نظام الاجتماع على مبادئ الاشتراك والتعاون تراهُ يؤيد سلطان الاثرة والاسترقاق ولكن الغلبة انما كانت لعلومه العقلية وفلسفتهِ المجرَّدة

وابقراط جمع الطب القديم ولكنهُ هذبهُ حتى جعلهُ علماً طبيعياً · وهو قلما اعتنى بالفلسفة وهذا فضلٌ لهُ عظيم يضعهُ فوق سائر الذين تقدموهُ

اما ابن سينا او ابقراط العرب وارسطوطاليسهم معاً فقد جمع فيهِ الاثنين · وفي الفلسفة مال الى فلسفة ارسطو حتى كان الناشر لها في الشرق والغرب

(٢) كحكايات الشياطين والجنّ والعفاريت والغيلان واستنطاق الحجار وفهم لغات الحيوان والاطيار ولا يزال هذا الميل الى الغريب العريق في الطبائع غالباً على البشر حتى بين ارقى الامم بدليل

وتسفلت ايضاً الى المباحث السخافية المبتذلة وشيدت لها المعاهد الخاصة [١] حيث صارت كل هذه العلوم النظرية الكلامية الاعتقادية — الشاغلة للعقل على كثرة مشاغله والمضيعة للوقت على قصره والصارفة للفكر عن الاهتمام بالمحسوس المفيد والتي لا تشيد كوخاً ولا تقلي بيضة [٢] وحدها بضاعة العالم والفيلسوف والامام فيلبس الجبة ويطيل الاردان ويقرّن القلنسوة ويكوّر العمامة ويتهادى في مشيته اختيالاً كأنهُ اكتشف سر الخلود وما اكتشف حقيقة سوى سر الخبط والخلط حتى اذا حاك قصة اراك الحبة قبة او اراد التعليل عن قضية نظرية كلامية أمكنهُ ان يروغ ما شاء اذ هو غير مقيد في برهانه المتقلقل تقيُّد الرياضي والميكانيكي في برهانهما المحكم

واذا القيت نظرة اجمالية على المؤلفات الكثيرة التي تعد بمئات مئات الالوف في هذه الموضوعات المختلفة الفلسفية العقلية الادبية وما صرف فيها من القوى الراقية ضياعاً وما رسخ بسببها في العقل والطبائع من الميل الى المباحث الفارغة والانصراف بها عند العلوم النافعة وما احدثتهُ في الامور الاجتماعية من التضليل والتغرير فلا اعلم اذا كان يجوز لك ان تكون ممتنًّا كثيراً لارسطو الذي اورثنا هذه الفلسفة ولابن سينا الذي

(١) عدا عن الجامعات كما كانت في اول عهدها في اوربا · وعدا عن المدارس الدينية كما هي اليوم في عاصمة الكثلكة وعواصم المسلمين فان المدارس الاخرى حتى العلمانية المقامة لتعليم الشعب العلوم اللازمة لا تزال حتى اليوم قليلة الاعتناء بغير تلك العلوم وهي يصرف بها التلميذ زهرة شبابه وهو يحشو الفارغ بالفارغ حتى اذا امتلأ بها يخرج الى الدنيا مثقل الدماغ منفوخهُ كالطبل وهو في امور الحياة العملية اجهل من هبنقة · ولكنهُ يصف لك ثوب كليوبطرا وعشقها وحلم فرعون وغرام ديانا وصفاً بديعاً ثم يقول لك مثلاً « والفضيلة وما ادراك ما الفضيلة » ويملأ صفحات طويلة ليقول لك انها غير الرذيلة ثم يشكل عليه الامر في تحديد الرذيلة اطلاقاً وتخصيصاً هل هي في الشيء نفسه مجرداً ام فيه هنا او هناك مقيداً ثم يقول لك متشامخاً ان هذا البيت يعني كذا ويعرب كذا بل كذا وهو لفلان بل فلان الى آخر ما هناك من الآداب العالية في اصطلاح القوم لانها تترفع عن الانساخ باوساخ المادة وسواء عندهُ افاد او لم يفد فانهُ ملأ الصفحات واتى بالمعجزات وهو يحسب انهُ يروّض العقل ··· ولكن على السخافات

(٢) ما اسرع ما يقوم المعترضون عند سماعهم ذلك ويقولون ان الحياة ليست كلها اكلاً وشرباً والا كانت حياة حيوانية · فاذا كان البدن يتطلب غذاء مادياً فالعقل يتطلب غذاء ارق ايضاً · ولهؤلاء نقول ان ذلك لا يوجب ان يكون هذا الغذاء الرقيق للعقل اوهاماً واحلاماً وخيالات

الاختبارية نفسها ايضاً (١)

وهذه الفلسفة وعلومها هي التي انتقلت الينا بكتب ارسطوطاليس (٢) حتى غلب عليها اسم الفلسفة الارسطوطاليسية فبنينا عليها علومنا العقلية والادبية والدينية وسائر نظاماتنا الاجتماعية ونظرياتها رسخت فينا حتى مازجت عندنا كل شيء ولا يزال مفعولها يعمل في عقلنا حتى اليوم

واذا تحرينا العلوم الموضوعة وغاياتها المقصودة من عهد ارسطو الى اليوم ونظرنا الى مباحث الذين اشتهروا بعده من العلماء والفلاسفة ظهرت لنا هـذه الحقيقة باجلى بيان . بل ذكر اسماء هذه العلوم يغني عن بيان حقيقتها ويدلنا دلالة كافية على انها من موضوعات العقل المنصرف الى المباحث التجردية لا من معلومات الطبع المستفادة من البحث في المحسوس كالعلم الالهي وعلم النفس والعلم الطبيعي نفسهِ الذي هو مرادف العلم الالهي عندهم في المعنى والعلوم العقلية والعلوم الآلية وهي كالعلوم العقلية في التجرد وتحت كل علم من هذه العلوم الاصلية علوم فرعية كثيرة جداً كعلم المنطق وعلم الكلام وعلوم اللاهوت والفقه الاكبر حتى الاصغر والعلم اللدني وسائر علوم الادب كالبيان والبديع والمعاني الخ

***

وقد زاد شأن هذه العلوم استقلالاً بعد اليونان حيث كانت الاحاطة بها مقرونة بالاحاطة بسائر فروع العلوم الاختبارية ايضاً وزادت تجرداً كذلك وزادت فروعها

(١) الاجرام السماوية والاحداث الجوية وسائر الحوادث الطبيعية كان لها نظام في علمهم مقرر ومع ذلك فلم يكن يصعب عليهم التسليم بمخالفة هذا النظام في بعض الامور من غير ان يتغير النظام كله كتوقيف حركة الشمس او الارض مثلاً مع بقاء سائر العوالم على حالها

(٢) ويسمى شيخ الفلاسفة او رئيسهم · وقد احاط بكل علوم عصره وترك فيها كتباً هي عبارة عن انسيكلوبيذية حقيقية ( موسوعة ) · ولكنها ضربت بها حدّاً للعقل فوقف يشتغل فيها اجيالاً عديدة وهو يبني عليها ولا يتجاسر ان يتخطاها حتى في العلوم الصحيحة نفسها · وقد بقي كيلر خمس عشرة سنة يرى ان الحركة الاهليلجية للكواكب هي الصواب ولا يتجاسر ان يصرّح بها احتراماً لحركة ارسطو المستديرة

الطبيعة كلها من خلال ذلك . وجدُّوا في تعرف هذه الاسباب الغريبة وانتقلوا فيها من تجريد الى تجريد حتى المبدأ (١) وهكذا وضعوا علومهم الفلسفية ونظرياتهم في الكون والاجماع على مراقبة ناقصة وما بني على الناقص فهو ناقص ضرورة

وقلَّ من شذَّ منهم عن ذلك ولو انَّ بهِ ميلاً الى المحسوس او حدساً بان الاصابة ليست الاَّ في الاحكام المستفادة منهُ لقلة المستندات الاختبارية التي كانت لهُ لدفع الوهم فيضطر هو نفسهُ ايضاً الى التعويل على علوم الكلام نفسها فيدفع المثل بالمثل مما كان يجعل كلامهُ مضطرباً لا يفرق كثيرًا عن كلام مخالفيهِ في الغرابة والابهام (٢) لان جميع الفلاسفة في القديم نظروا في مباحثهم في الكون الى السبب والغاية المجردتين لا الى تعرف الكائن المحسوس فلم يدركوهما وانصرفوا بهما عن الواقع

***

فلهذه الاسباب استتبت الغلبة في علوم الاقدمين للنظر المجرد على النظر المقيد وللفلسفة الروحانية على الفلسفة المادية ولعلوم الكلام على علوم الاختبار واعتبرت نظراً الى موضوعها (٣) ووعورتها من العلوم العالية (٤) التي استغرقت فيها العقول الراقية واستنفدت فيها قواها وصرفتها عن سواها وباتت الى عهد قريب روح العلوم

---

فضلاً عما كان يراهُ من شدة غرابة ظواهر هذه الامراض كما لا تزال تبدو لنا اليوم فيسمع الانسان ولا مخاطب وينظر ويرى ولا مرئي ويحس ولا ضاغط سواءٌ كان في النوم او اليقظة ويعمل احياناً اعمالاً غريبة يعجز عنها وهو بحال الصحة . ولكن ما عذرنا نحن لا يزال كثيرون من علمائنا اليوم يتخبطون في هذه المسائل مع ان العلوم الطبيعية بلغت شأْواً سهل علينا حلَّ اكثر هذه المعضلات . ولا سيما ان علم الامراض انجلى لنا انجلاءً نفى كل غريب . كما فعل اوليفرلودج في كتابهِ الحديث في البعث كما لخصهُ المقتطف حتى اتانا بهذا القول الاغرب عن (تنقل الارواح) مع انهُ من العلماء الطبيعيين . ولو كان مع ذلك طبيباً لما غلب على امثال هذا القول

(١) لما نظروا الى المبداء اضطروا ان ينظروا الى الغاية ايضاً للزوم القصد حينئذٍ في كل عمل وجروا فيها مجراهم في المبداء نفسهِ . وقضوا فيها بالتجرد ايضاً مع ان كل اشياء هذا العالم كما هي تنفي كل ذلك اذ لا استقلال في الطبيعة مطلقاً ولا غاية الاَّ الضرورة

(٢) شان الفلاسفة الماديين انفسهم في القديم ايضاً

(٣) البحث عن المبدأ والغاية اي القصد

(٤) باعتبار انها علوم عقلية وهي فوق علوم الحواس

الميثولوجية [١] ام نسجتهُ اميالهم الوحشية في العصور الحماسية [٢] بل ننظر الى ذلك من عهد التمدن اليوناني القديم [٣] الذي بنينا عليهِ تمدننا الحديث بل من عهد الاديان المعتقد انها موحاة في نظر الامم التي تأتمر بها في اكثر المسكونة [٤] فالاقدمون كانت اكثر علومهم من موضوعات العقل الاجتهادية اكثر مما هي من معلومات الطبع التقريرية وانما كثرت عندهم هذه العلوم لان قلة اختبارهم في اول الامر لم تمكنهم في تعرف الاشياء التي حولهم والتي فيهم من الوقوف على النسبة الحقيقية فيها التي تربط الاسباب بالمسببات لاختفائها احياناً كثيرة في سلسلة من المتلازمات طويلة فتبدو لهم كأنها متفاكة منفصلة حيث هي مترابطة متصلة [٥] فغلب فيهم حيال هذا الجهل القول بالاسباب الغريبة المفارقة المتحكمة التي لا تقع في افعالها تحت ضابط [٦] ونظروا الى

(١) حيث كان كل شيء في الطبيعة الهاً او مظهر اله فكانت الآلهة عندهم كثيرة جداً تتحكم في نظام كل شيء طبيعياً كان او ادبياً فتثير الرياح وتهيج البحار وتجلب الامراض وتقسم الحظوظ وترمي البشر بسهام العشق وتساكنهم في ارضهم ولها معهم مواقع شهيرة مدونة في اشعارهم

(٢) حيث كان كل الفخر في الغزو والقتل والحروب كما تشهد بذلك اشعارهم ولا يزال روح هذه المفاخرة في الامم حتى اليوم ولكن على قلة وكأن آخر عهد هذه الحروب الحماسية الحروب النبوليونية

(٣) الذي هو لا شك ارقى تمدن وصلنا عن الاقدمين اجتمع فيهِ العمل بالعرفان

(٤) الاديان الشائعة اليوم ليست الوحيدة التي قامت بين البشر بل هي بقية راقية من معتقدات كثيرة كانت شائعة في القديم ثم اندثرت وكلها موحاة في نظر اتباعها · او هي متحوّلة عنها لغاية اجتماعية او سياسية

(٥) مثال ذلك الزهري فهو غير مذكور في الطب القديم كمرض قائم بنفسهِ وفي نظرنا انهُ قديم جداً وطبيعتهُ النوعية تدل على انهُ عريق في القدم · وهي وان لم تجعلهُ قديماً كالسرطان والسل لاسباب اوردناها في المقدمة الّا انها لا تدعهُ دون الجدري والحصبة الموصوفين منذ القديم · واذا تحرينا البحث جيداً لا نعدم ادلة على ان اعراضهُ المتفرقة مذكورة في كتب الطب القديم او انهُ مذكورٌ فيها ما ينطبق عليها · ولكن الذي لم يكونوا يعرفونهُ هو نسبة هذه الاعراض بعضها الى بعض · فلا يخفى ان لهذا المرض ثلاثة اطوار ممتازة قد تكون الهجعة بينها طويلة · فكان يصعب عليهم بعد هجوع الاعراض الاولية ان يجعلوا للاعراض الثانية علاقة بها وللاعراض الثلاثية علاقة بهما فيذهب عليهم انها مرض واحد

(٦) لا يخفى ان ابقراط هو اول من قال باسباب الامراض الطبيعية · ومع ذلك لما اعترضتهُ الامراض العصبية وشاهد ما فيها من الغرائب الخارجة عن القياس المعروف لم يستطع ان ينفي عنها الاسباب الروحانية وهو معذور في انهُ لم يتجشم مشقة نفي روحانيتها لنقص العلوم الطبيعية ومنها الطب في عصرهِ نقصاً يتعذّر معهُ اقامة الدليل العلمي كما كان يجب ان يفعل دائماً في برهانهِ

منها اختبارية . متمنيات مرغوبة اكثر مما هي حقائق مقررة

( ثانياً ) ان علوم الاقدمين وفلسفتهم انتقلت الينا وبقيت زماناً طويلاً كل علومنا وفلسفتنا ولا تزال حتى اليوم روح فلسفتنا وعلومنا العقلية والادبية والدينية

( ثالثاً ) ان حالة الانسان الاجتماعية ونظاماتهِ وشرائعهُ وقوانينهُ حتى استعداد عقلهِ واميال نفسهِ وغرضهُ في ابحاثهِ مستفادة كلها في كل اطوارهِ في التاريخ من علومهِ ونظرهِ الفلسفي في الكون

( رابعاً ) لا ينكر ان العلوم الاختبارية المادية الطبيعية قد ارتقت اليوم جدًّا عما كانت في الماضي . ولا ينكر ان علوم الكلام قد انحطت اليوم وقلّ الميل جدًّا الى مباحثها وتغير كذلك ما ترتب عليها من النظريات الاجتماعية والادبية والدينية . ولا ينكر ايضاً ان حالة الانسان الاجتماعية في الماضي كانت اتعس جدًّا منها اليوم

(خامساً ) اذا قابلنا بين الشعوب والامم والحكومات اليوم في اقطار المسكونة كافة نجد بينها تفاوتاً عظيماً جدًّا بالنظر الى كل ذلك ونجد ايضاً انهُ حيثما كانت علوم الكلام والنظريات المترتبة عليها منتشرة اكثر كانت العلوم الطبيعية منحطة وكان الانسان منحطًّا متقهقرًا وحالتهُ الاجتماعية سيئة كذلك والضد بالضد

***

وللحكم في هذه القضايا لا نصعد الى العصور الاولى للانسان الاول لننظر اليهِ من خلال آثارهِ [1] المبعثرة في طبقات الارض كشهب متناثرة ذات لمعان ضئيل يحيط بها ضباب كثيف ولا ننزل الى اعماق التاريخ غير المدون الضائع في ليل من الغموض دامس [2] حتى ولا التاريخ المدون الذي حاكتهُ قرائح القوم الشعرية في العصور

(١) كما في علم الاحافير الذي يبحث في تسلسل الانسان والحيوان في العصور الجيولوجية والذي يستدل منهُ على ان الانسان مضى عليهِ دهور طويلة وهو اقرب الى الحيوان منهُ الى نفسهِ اليوم في تكوينهِ الطبيعي ولا تزال قبائل منهُ حتى اليوم في احوالها المعيشية ليست ارقى منهُ بكثير

(٢) كما كان في حقبةٍ طويلة من عهده المسمى بما قبل التاريخ والمستدل عليها بمصنوعاتهِ القليلة الشأن كالعصر الحجري او العصر الصواني الذي كان الانسان يصنع فيهِ سلاحه وسائر آلاتهِ في معايشهِ من الحجارة الصلبة

لاختبارات الطبع لا لاحكام الوضع (١) ناظراً الى الحقيقة عارية عن كل ملابسة (٢) فلا يسعك الاَّ الاعتراف معي مضطراً بما يأتي

(اولاً) ان علوم الاقدمين علوم نظر (٣) اكثر منها علوم عمل او فلسفتهم عقلية (٤) اكثر مما هي محسوسة . مجردة اكثر مما هي مادية . متحكمة مفارقة اكثر منها لازمة ملازمة . موضوعة اكثر منها مطبوعة . روحانية اكثر منها جسمانية . كلامية (٥) اكثر

---

(١) اي للعلوم التجريبية المستفادة من مراقبة الطبيعة لتقف عند الحد الذي تفرضهُ لك لئلا اذا تخطيتها تتصرف عنها فيعسر عليك استجلاء الغامض منها لا للعلوم الاجتهادية الموضوعة التي انصرفت اليها لما انصرفت عن البحث في الطبيعة نفسها

(٢) غير ناظر فيها الاَّ الى كونها حقيقة . واما ملابساتها فيسهل الانطباع فيها والحقيقة وان جرحتك احياناً في اعتقادك الاَّ انها انفع لك في كل حال في دنياك

(٣) يراد بالنظر هنا ما اصطلحوا عليهِ وجارينام فيهِ في ما كتبنا وهو علوم التجرد او علوم الكلام على الاطلاق وهو ما نقصدهُ في هذا القول على نوع خاص والاَّ فالنظر بمعناه الحقيقي اعم من ان يختص بطائفة من العلوم وهو لازم في كل علم ولهُ شأن عظيم في العلوم الصحيحة . مثال ذلك القول بان كل شيء في الطبيعة منها وبها واليها نظرٌ ولكن دليلهُ عياني محسوس . واذا رأينا تفاحة سقطت من الشجرة الى الارض . فاذا قلنا انها سقطت بناموس الثقل ثم قلنا ان ذلك يدل على وجود ناموس في الطبيعة شامل للاجسام كافة يفعل على شرائط معينة فهذا نظر ايضاً ودليلهُ العيان ويسقط او يتأيد بالامتحان . واما اذا رأينا جسماً تكوَّن في الطبيعة من موادها وبقواها واخذ صورة معلومة ثم انحلَّ وذهبت صورتهُ وشاهدنا موادهُ بما فيها من القوى تفككت ورجعت الى مصادرها العيانية فاذا قلنا ان عين هذا الشيء لم تفقد وان احتجبت عنا وانها انتقلت الى مكان آخر غير منظور . ثم قلنا ان غير المنظور هذا ليس في الطبيعة بل فوقها او تحتها او امامها او وراءها ما لا يدرك ولا بالتصور ولا دليل عليهِ سوى الوهم الذي نشأنا فيهِ او الخبر الذي يحتمل الكذب او التمني الذي يطابق الهوى فهو نظر ايضاً ولكن على عكس الاول نظر سلبي اي مجرَّد بحت ومن مباحث علوم الكلام فقط

(٤) من معنى العقل الذي هو كالنفس عندهم جوهر مجرد . ولقد كانت هذه النفوس او العقول مترادفات مبثوثة في الكون كالقوى ولكل طائفة من العوالم والاعمال نفسها عقل او نفس او قوة تسيرها كما تشاء حين تشاء

(٥) علوم الكلام تبحث في النظر العقلي المجرد منقادة في ذلك الى احكام العقل وحدهُ للبحث في الحقائق والماهيات والجواهر لا لاحكام الاختبار الذي ينظر الى الكيفيات والطبائع وذاك يقتضي تجرداً في النظر وهذا تبيناً للعمل . على ان كل هذه التقسيمات ليست بالحصر طبيعية بل اجتهادية والاَّ فالاحكام العقلية نفسها هي اختبارية كلها وانما هي في الاول اكتفائها باختبار ناقص وتعويل على علم موهوم وفي الثاني تقيد بالمعلوم من هذا الاختبار المتزايد كل يوم

# خاتمة الكتاب

## او

## خلاصة ما تقدم

تربي المعاشر ابناءهم
ويشقى الانام بما ربتوا
وما الناس الا نبات الزما
ن فليحصد القوم ما نبتوا
( ابو العلاء المعري )

اذا كنت قد عملت بالوصية كما في صدر هذا الكتاب وطالعتهُ بكل تمعن . وكنت مع ذلك قد تمكنت من التغلب على مؤثرات تربيتك السابقة لضبط نفسك عن الاندفاع مع عوامل الهوى (١) غير مداج او متوار رغبة او رهبة او مصادٍ بدعوى الحكمة (٢) مستقلاً في احكامك (٣) غير مستهوى بكثرة تغالبك (٤) او منقادٍ لقول ليس من صميم العلم (٥) ولو ان قائلهُ عالم عظيم (٦) فالعلم مباح لك كما هوَ مباحٌ لسواك (٧) منقاداً في تسأولك (٨) لاحكام العقل لا لرغائب القلب (٩) وفي علمك

(١) الانسان ابن التربية وهو فيها ابن هواجسهِ قبل ان يكون ابن علمه

(٢) فان الجبن والكذب منشأ وهما عن مثل هذا السبيل وهما اصل كل الشرور

(٣) انت تظن انك تحكم لنفسك والحقيقة انك غالبًا تنطق عن احكام سواك

(٤) العدد ليس دليل الاصابة او هو برهان القوة الوحشية دائمًا

(٥) كقول العالم الطبيعي او لبفرلودج اليوم ( بننق ) الارواح وهو يعبر في ذلك عن هوى في النفس لا عن مسوغ في العلم

(٦) فللعلماء احلام كالعوام من اثر التربية والعقل خزانة كثيرة الادراج

(٧) عساك ان تتولد فيك الثقة بالنفس فتنظر انت وتحكم لنفسك ولا يكون كل علمك قال فلان وفلان والثقة بالنفس غير الاعتداد بها فهي خبير عن روية وهو فطير عن استسلام

(٨) الانسان مهما كان لا يقف امام الحوادث صامتًا مهما كانت وذلك اظهر في الطفل الفطري حتى يقف على تعليل ولو مصطنع

(٩) للتعرف والاستجلاء بالاختبار لا لتحقيق ما بك من الرغائب لهوى في النفس

اذا ما ترامى العقل يجلو حقائقًا    شكا القلب ان الغبن في ذلك الجلا
وما الغبن الا ان يرى القلب هائمًا    وتخفى على العقل الحقائق في الدنا

وقف السر وليم طمسن وقال اظن الخطيب يمزح في ما يقول لانهُ لو فرضنا تكوُّن البرد في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الاميال . ولما جلس قام اللورد ريلي وقال انا اعرف رجلاً ارتأى رأيًا اغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء . فقال السر وليم طمسن انا لم احتم بصحة ذلك بل قلت بامكانهِ وبانهُ لا يمكن ان يقام دليل على فسادهِ . ونقل ذلك العلامة بركتر منشئ جريدة المعرفة وعقب عليهِ قائلاً اذا صحّ قول السر وليم طمسن فالقمر مصنوع من جبن طري لانهُ لا يقام دليل على فساد ذلك

والخلاصة ان اقوال العلماء وآراءهم كثيرة وهم احرص الناس على انتقادها وتمحيصها فلا يرتئي احدٌ منهم رأيًا جديدًا حتى يتصدوا لمقاومتهِ من كل صوب ولا يقرون رأيهُ بين الآراء العلمية الاَّ اذا لم يروا فيهِ للريبة مكانًا

# اصل الحياة (١)

قال بلانشار من مقالة في اصل الحياة في جريدة العلم الفرنسوية بتاريخ ٧ شباط سنة ١٨٨٥ ما يأتي

« على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الاَّ انهُ غير مقنع ويظهر لنا انهُ لا يحل المسألة وانما يزيدها ارتباكاً فان لم تكن الحياة قد ظهرت على الارض ذاتيًّا بفعل احوال طبيعية وكيماوية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداءً على احد كواكب نظامنا الشمسي وخصوم التولد الذاتي الذين يتعلقون بحبال هذا التعليل كالملجاء الاخير لهم انما يبعدون حل هذه المسألة ولا يأتون فيها بتعليلٍ شافٍ . ولا يخفى ان الحل الطيفي الذي استطعنا بواسطتهِ ان نعلم تركيب الكواكب الكيماوي ارانا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منها سيارنا فالصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والاكسجين والكربون والكلسيوم والحديد والتلوريوم والبزموث والانتيمون والزئبق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنا . وقد علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تتحد هناك كما تتحد في ارضنا فلا بدّ اذاً من ان تكون الاحياء الأُوَل قد تكونت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا فوا الحالة هذه ما الفائدة من الزعم بان ارضنا انما اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في مرورهِ في الفضاء اذ لا بدّ من الاقرار في كل الاحوال بانّ التعضي قد وقع في المادة في احد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذاً الاصرار على انكار نشوء الحياة في الارض» انتهى . والذي ارتأى اولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو السر وليم طمسن الانكليزي. ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكون البرد وقال انهُ يتكون من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السموية فما اتم الخطبة حتى

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢

اوجه الفرق بينها وبين الاحياء تقل واوجه الشبه تزيد . فالانسان يولد من ابوين والحيوان السافل من نظيره بالانقسام او التبرعم اذ تنفصل كرية مولودة في كرية والدة والنبات من نبات نظيره . قالوا وهذا يفصل عالم الحي عن عالم الجماد الى ان قام جرنز وبين ان الجماد كالحي يتولد بعضهُ من بعض فانهُ صنع محلولاً واشبعهُ بالبورق المثمن وبالبورق المعين ولا فرق بينهما الاَّ في اختلاف نسبة الماء الذي فيهما وهذا المحلول اذا اعتني بهِ يبقى صافياً ويمكن ان يضاف اليهِ اجسام من مواد مختلفة بدون ان يحدث فيهِ حادث خصوصي لكنهُ اذا وضع فيهِ بلورة صغيرة جدًّا من البورق المثمن فللحال ترتفع حرارتهُ وفي لحظات قليلة يتبلور كل البورق المثمن الذائب فيهِ دون البورق المعين الذي يبقى ذائباً ولا يتبلور حتى يلامس بلورة معينة من جنسهِ ولا يختص ذلك بما ذكر فقط بل يتناول كل انواع الجماد ويتبين منهُ ان كل جماد يتولد من جماد آخر نظيرهِ

واذا بلغت البلورة كمالها بحيث لا يستطيع الكيماوي ولا الطبيعي بما لهما من الآلات والوسائط ان يريا في تكوينها نقصاناً قيل ان الفرد من الجماد قد بلغ اشدهُ ثم يتكاثر كالحي وهو كالحي معرض للامراض فاذا عرض لهُ من الاسباب الخارجية ما اضعف نموهُ فقد نظامهُ وظهرت على زواياهُ خدوش كالقروح واذا زالت عنهُ عادية المرض عاد الى نموهِ وبرئ من قروحهِ وان لم تزل او اشتدت فربما ترهلت قروحهُ فاعضلت علتهُ وحصل فيه تأكسد وتركب وتحلل حتى تتغير طبيعة آخر جزء منهُ ويظنّ انهُ تلاشى وهو لم يتلاشَ بل مات وانما مات كما يموت كل انسان أي كما ان جسد الانسان البالي لا يتلاشى وانما ينحل الى عناصرهِ كذلك الجماد لا يتلاشى لان الجوهر الفرد الذي يؤلف كلاًّ منهما لا يتلاشى بل ينتقل من تركيب الى تركيب راجعاً عودهُ على بدئهِ كما يرجع الليل على النهار انتهى ملخصاً

حتى نفس تغيره ثابت الى حد محدود و يتم تبعاً لشرائط معلومة . واذا تغيرت احدى هذه الشرائط تغيرت موازنته حالاً فهو متغير على الدوام الا انه لا يزول من الوجود وكما ان الحي يتأثر بالاحوال التي من خارج كذلك الجماد واذا كان بينهما فرق فانما هو في الشدة والضعف بحيث ان احدهما اشد انفعالاً واسرع تأثراً واقل ثباتاً من الآخر ولكنهما يفعلان و ينفعلان على السواء طبقاً لناموس المادة الاولى وهو التكافوء بين الفعل والانفعال

ولنأخذ أي جماد كان ولنحمه بالتدريج فللحال عند انتشار الحرارة فيه يتغير شكل تبلوره ومرونته وصلابته وصفاته الكهربائية حتى لونه فان زيدت حرارته انحلّ رباط دقائقه فتباعدت في جهة وتقاربت في اخرى الى ان يبلغ حرارة تختلف درجتها باختلاف نوعه فيذوب و يصير سائلاً . فان زيدت اكثر من ذلك تفرقت دقائقه وانتقل الى حالة هوائية ما بعدها من الحالات سوى انفصال الجوهر الفرد وخروجه من مدار الكيمياء ودخوله في مدار آخر تحت سنن اخرى لا نعلمها وعلى الفلسفة الطبيعية والميكانيكيات اكتشافها وتعيينها

وانحلال الجماد هو موته لان كل حد ينحل عنده المركب هو موت ذلك المركب وكل موت يتبعه بعث فالموت كالتولد نقطة على محيط دائرة لا أول لها يعرف ولا آخر يوصف . والطفل اول ما يهلّ يبتدىء يموت وكذلك الجماد اول ما يتكون يبتدىء يموت . فان الفلدسباث المكون معظم الارض ينحل الى عناصره [1] بفعل الهواء والماء ويبس النهار وندى الليل وحر الصيف وبرد الشتاء وسائر العوامل الميكانيكية والطبيعية والكيماوية ماراً باستحالات قد لا يحسّ بها . ثم كل عنصر من عناصره يدخل في تركيب جديد فاما ان يعود حجراً او يصير نباتاً او حيواناً وفي هذا الدور لا يرى اين هو التولد الحقيقي ولا أين هو الموت ولا يرى سوى اطوار فقط

ولقد أقام الاقدمون حدًّا فاصلاً بين النبات والحيوان وهذا الحد لا وجود له حقيقة واقاموا كذلك حدًّا بين الجماد والحي ونحن كلما تعمقنا في درس الجمادات نرى

(١) السليكا والالومينا والحديد والكلس والمغنيسيا والبوتاسا والصودا

السمك والأمفيبيا والحشرات والطيور وذوات الثدي وكل من هذه الانواع قد مرَّ ايضاً بسلسلة انواع مختلفة (٣) وجود الاعضاء الاثرية فلو كانت الاجسام الحية جرثومية ومخلوق قوة خالقة تفعل لقصدٍ معلوم لما وجب ان يكون فيها اعضاء اثرية لا نفع لها والحال انهُ لا يكاد يخلو جسم حيٍّ منها ولكن لما كانت متحولة عن بعضها كان وجود هذه الاعضاء فيها لازماً ضروريًا اذ ان وجودها وعدمهُ متوقفان على الاحوال الطبيعية التي هي الفاعل الاول فيهما وهذا لا يكون دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً ايجاداً كان او اعداماً ولا يخفى ما صادف هذا المذهب من الصعوبات في اول انتشارهِ وأما الآن فيكاد لا يختلف فيهِ اثنان من الطبيعيين

## حياة الجماد (١)

قال تولت من رسالة في هـذا الموضوع : ان القول بانّ الجماد حي كالحي ليس بجديد فقد قال كرذان في القرن السادس عشر «ان الحجر يحيا و يمرض و يهرم و يموت» وهو قول صحيح لان المادة متحولة ومتغيرة على الدوام فهي في تولد دائم وموت دائم و بعث دائم وذلك هو الحياة وحياة الجماد لا تفرق عن حياة الانسان او الحيوان او النبات اذ الكل خاضع لسنن واحدة مندفع قسراً في تيار زو بعة لا تسكن حركتها اولها وآخرها مكتنفان بظلمات بعضها فوق بعض

والتولد اول اطوار تحولات المادة وهو بقطع النظر عن افتراضات الخيال التي قد تضل والبراهين الفلسفية التي كثيراً ما تخدع واقع تحت نظر كل انسان وعامّ على الجماد والنبات والحيوان . ففي كل دقيقة بل في كل لحظه ترى الاحياء تتكون والجواهر الفردة تنضم والدقائق تتركب . ولا فرق بين البسيط والمركب من حيث السنن الفاعلة بهما اذ لكل فرد مهما كان تركيب كيماوي معلوم وصورة معلومة ونوع تبلور معلوم .

---

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢

وهي فيها سر ما نسميهِ بالامراض وسر منعها وشفائها . فالطب والتشريح والفيزيولوجيا والزوولوجيا والامبريوجنيا والبلينتولوجيا والانثروبولوجيا وغيرها من العلوم الفرعية التي تبحث عن الانسان تؤلف سجلاً شديد الارتباط بعضه ببعض يشملهُ علم واحد هو علم الحياة ويسمى البيولوجيا وعليهِ فليست الانواع تجسد افكار خالقة متميزة وليست اسبابها ارادة ذات مقاصد خفية ولكنها تتكون تبعاً لنواميس ثابتة غير متزعزعة تعمل دائماً على قياس معلوم أشبه بالنواميس الطبيعية والكيماوية وتؤدي نظيرها الى نتائج متعددة . فكل صورة لها اسبابها المتممة وتعرض لنا لا كأمر يطلب منا تقريرهُ بل كمسألة يطلب منا حلها وهذا هو سبب التقدم الذي حصل في علوم الحياة منذ انتشار الكتاب الشهير لداروين في اصل الانواع ولولا هذا السبب لما كان حصل او يحصل فيها شيء من ذلك

فمذهب التسلسل او كما يسمونهُ ايضاً مذهب الاستحالة يرينا دائماً الحركة والنزاع والغلبة حيث يرينا مذهب ثبوت الانواع او الجراثيم السكون — فالحياة ميدان خصام قد تحصل فيهِ مقاتل وملاحم يشترك فيها نوع الانسان وتنجلي عن ظفر انواع وملاشاة انواع — وهذا المذهب اقدم جدًّا من داروين فقد قال بهِ علماء كثيرون قبلهُ في اواخر القرن الماضي وفي اوائل هذا القرن نخص بالذكر منهم بوفون ولامارك وجات وجفروا سانتيلبار الذي حصل بينهُ وبين كوفيه المخالف لهُ في المذهب في جمعية العلوم في باريز جدال شاهد بفضلهما ولم يزل ذكرهُ حتى اليوم الا ان داروين منذ نحو ٢٢ سنة قد فصلهُ بجملتهِ ووضعهُ على اساس متين وهذا هو السبب في نسبتهِ اليهِ . ويراد بهِ ان جميع الاجسام الحية بما فيها من الاختلافات حيوانية كانت او نباتية منقرضة كانت او باقية هي مشتقة من صورة واحدة اصلية او من صور قليلة اصلية بسيطة جدًّا . والادلة على صحة هذا المذهب كثيرة منها واهمها (١) اشتراك نواميس الحياة في سائر الاجسام الحية فهي واحدة في جميعها (٢) تحول الاجسام الحية عن بعضها والى بعضها كما نعلم من البلينتولوجيا فان هذا العلم يعلمنا انهُ في مدة الادوار العديدة لتكون الارض كل طائفة من الحيوانات والنباتات قد مرت متحولة بالتتابع بسلسلة فصائل وانواع متعددة جدًّا . فان طائفة ذوات الفقر مثلاً قد مرت بطائفة

ولا ان يقف على ما يردها الى وحدة معلومة ويربطها بناموس ما لان كل نوع هو كما قال اجاسيز — صورة فكر خالق متميز — وليس بين فكر خالق وفكر آخر مثلهِ من النسبة الأ مجرد الارادة فلا يقدر الانسان ان يدرك النسبة بين فكر وفكر من هذهِ الافكار الخالقة المتجسدة الاَّ اذا ادرك العقل الخالق نفسهُ ولا يتم لهُ ذلك فهو يتصور الخالق كصانع (على صورتهِ) مهتم على الدوام ببناء ابنية بين جميل وقبيح وجليل وحقير ويبقيها زمناً معلوماً ثم يهدمها لانهُ يريد ذلك لا لسبب آخر ويقيم غيرها عوضاً عنها يكون انسب لما جدَّ في افكارهِ . فكيف يرجو الانسان مع ذلك ان يجد رابطاً يربط الانواع ببعضها فلا حاجة لهُ اذاً ان يسألها عن اصلها ولا عن اصلهِ ولا ان يتعب نفسهُ في البحث عن الحياة لانها سر فوق اسرار الطبيعة يستحيل ادراكهُ

وعلى القول الثاني أي على فرض كون الاجسام الحية آتية عن بعضها متسلسلة على سبيل الاستحالة المركب من البسيط والبسيط من الابسط فلا يقتصر الانسان في البحث فيها على النظر في كل نوع او كل صورة فقط بل يتعداهُ الى النسبة بين نوع ونوع وصورة وصورة وبين جميع الاجسام الحية بالنظر الى بعضها والى الاشياء التي من خارج ايضاً فيرى اولاً ان الانواع مرتبطة ببعضها ارتباطاً شديداً وان النواميس التي تفعل في كل منها هي نفس النواميس التي تتكون وتنمو بموجبها الاجسام الحية كافة وثانياً ان الاستحالة الحاصلة في الصور ناتجة عن التفاعل الحاصل بينها وبين الاشياء التي من خارج ويري غير ذلك ايضاً اذ يعلم ان كل ما يفعل في الاشياء التي من خارج يفعل بالضرورة ايضاً في ما تفعل هي فيهِ وهو يقدر ان يفعل فيها اذاً هو يقدر ان يفعل في العالم الحي المحيط بهِ ومن ثم في نفسهِ ايضاً لانهُ جزء منهُ بخلاف ما لو كان غير ذلك وسواء خرج (الانسان) من عالم الحيوان والف لهُ عالماً وحدهُ او لم يخرج فهو يجد في ماضي هذا العالم تاريخ نفسهِ . وكل جسم حي لهُ الحق ان يدعي ان لهُ معهُ بعض نسبة او قرابة لانهُ ليس سوى صورة متحولة عن نفس المادة المؤلف هو منها او عن مادة شبيهة بها فمعرفة الحيوانات والنباتات مهما كانت حقيرة هي نفس معرفة الانسان ومعرفة عمل جسمهِ ومعرفة التغيرات القابل لها لان نواميس تغيرات المادة هي واحدة اينما كانت

# الحياة واصل الاجسام الحية [1]

لنا على اصل الانواع الحيوانية والنباتية قولان احدهما انها ظهرت على الارض كما هي الآن مع فرق قليل فيها وليس بينها صلة تربطها بعضها ببعض ولم يكن بينها ذلك والآخر هو ان عالم الحيوان وعالم النبات بما فيهما من الانواع والفصائل لم يخلقا كذلك دفعة واحدة وانما ظهرت الحياة على الارض اولاً في صورة بسيطة ومنها تفرعت باقي الصور المركبة بحصول تغيرات فيها مستمرة متتابعة فلنبحث في هذين القولين لنرى ايهما الاقرب الى الصواب

ولقائل ان يقول ان تلك مسائل فوق طاقتنا ولم يعط لنا علمها فالاولى بنا ان نسلم بالعالم كما هو بدون ان نتعب انفسنا بما كان او بما سوف يكون فنجيبهُ ان الانسان لا يعرف نفسهُ جيداً حتى يضع حدًّا لمعرفتهِ فهو يخطئ خطاءً لا مريد عليهِ اذا جزم بانهُ ما من احد يستطيع في المستقبل مهما تقدمت المعارف ان يفهم ما لا ندركهُ نحن اليوم فحق الطبيعي في البحث عن اصل الكوائن الحية اذاً حق مطلق واذا ثبت ذلك قلنا ان في معرفة اصل هذه الكوائن فائدة كبيرة ولو لم يكن فيها سوى العلم فقط لكفى

ان مقام الانسان بالنظر الى هذه الاجسام الحية يختلف باختلاف ما يعتقدهُ من اصلها فعلى القول الاول أي على فرض كونها ثابتة هو غير مكلف للبحث فيها الاَّ بقدر ما تمس الحاجة من دفع ضرر قد يتأتى لهُ عنها او جلب منفعة قد تحصل لهُ منها وهذا لا يتعدى ما جاورهُ منها بحكم المساكنة العارضة . واذا نظر فيها نظر الطبيعي كان نظرهُ فيها مقتصراً على وصف صورة صورة ونوع نوع وتقرير وظيفة عضو عضو بقطع النظر عما قد يمكن ان يكون بينها من الارتباط والمناسبة وما يجمعها من النواميس اذ لا يرجو ان ينكشف لهُ سرها يوماً ما لانهُ خارج عن العالم المادي

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨١

# الحياة في اعماق المياه [١]

منذ نحو عشرين سنة كان يُظنُّ ان اعماق البحار خالية من كل شيء حي وان الاحوال الطبيعية هناك غير صالحة للحياة وبقي هذا الاعتقاد شائعاً حتى سنة ١٨٦٠ اذ بين ملن ادوار الطبيعي الفرنساوي وجود الحيوان في عمق البحر على مسافة ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ متر وعلى ضغط اكثر من ٢٠٠ ثقل من ثقل هواء الارض والحيوانات التي اكتشفها في هذه الاعماق كان بعضها مجهولاً والبعض الآخر لم يكن يختلف بشيء عن الاحافير. ثم تكاثرت الابحاث واندفع لذلك علماء الانكليز والاميركان وغيرهم وتعددت الاكتشافات حتى اصبح امر وجود الحياة في اعماق البحار الشاسعة مقرراً لا خلاف فيه وأبعد عمق صار سبره وانتشال كوائن حية منه لغاية يومنا هذا هو العمق الذي سبرته السفينة الفرنساوية المسماة لاترافاليور [٢] سنة ١٨٨١ البالغ ٥١٠٠ متر الاّ ان جميع الحيوانات المستخرجة من جميع هذه الاعماق الشاسعة لم تكن سوى ديدان وبلابيس وما شاكل من انواع الحيوانات الدنيا ولم يكن بينها شيء من السمك. وربما لم يكن السبب في ذلك عدم وجود مثل هذا الحيوان في مثل هذه الاعماق بل كان من نوع الآلات المستعملة ومما يقوي هذا الظن ما شاهدته السفينة المذكورة في مينا ستوبال الكائنة الى الجنوب من ليسبون حيث رأت حملتها العلمية رأي العين طائفة من الصيادين يلقون باشباكهم الى عمق نحو ٢٠٠٠ متر ويصطادون من السمك المعروف بالسكوالوس [٣] انواعاً خصوصية يقددون لحومها ويستعملون جلودها في صقل الخشب ويوقدون دهنها كالزيت وكانت تصل هذه الحيوانات الى سطح البحر بحالة يرثى لها من التهتك فتكون مثانتها التي تعوم بها والممتلئة هواء متمددة جدّاً ودافعة المعدة المنبثقة من الفم والعين نافرة من الحجاج والقرنية منشقة لتمدد غاز الدم وجميع الانسجة متفجرة لخفة الضغط الخارجي وفقد الموازنة بينهُ وبين الضغط الداخلي.

(١) نشرت في المقتطف سنة ١٨٨١

(٢) Le Travailleur

(٣) Squolus

لا يخفى ما قرره ُ العلم من مذهب الحرارة الميكانيكي ومذهب حفظ القوة فعلى هذين المذهبين لا تضيع قوة في الطبيعة فالحركة ليست سوى نوع من الحرارة فلا يوجد في الطبيعة الاَّ تغيرات واستحالات في القوة فكمية القوة المنتشرة في العالم لا تتغير ولا تتغير الاَّ صورها فتظهر تارةعلى صفة حرارة وتارة حركة ومرة كهربائية واخرى تركيب او تحليل كيماويين

فقوة الاجسام الحية اصلها كيماوي أي انهُ يحصل في جوهر انسجتها تا كسد وتركيب وجملة ظواهر نتيجتها ليس توليد قوة بل اظهار قوة كامنة وهذه القوة تظهر بالحرارة والحركة وبين مقدار الحرارة المنتشرة والحركة الحاصلة نسبة شديدة بحيث انهُ كلما كثرت الحركة قلَّ ظهور الحرارة وبالعكس كلما ظهرت الحرارة قلت الحركة

ونتيجة كل هذه التراكيب والتحاليل الكيماوية هي امتصاص الاكسجين وتوليد الحامض الكربونيك وهذا التبادل الغازي ضروري جدًّا لحياة الاجسام الحية لانهُ يلزم لها حرارة كافية لتقدر على مقاومة الاشياء التي من الخارج . فبامتصاص الاكسجين تحصل لها هذه القوة الضرورية ويلزم لها ايضاً ان تتحرك ومن ثم ان تكون قادرة على تجميع قوى كيماوية في انسجتها كافية لكي يحصل منها ظهور قوة عند اللزوم وهو كذلك فان فيها قوة متجمعة كامنة عظيمة جدًّا بحيث ان تنبيهاً خفيفاً جدًّا يجعل فيها حركة عظيمة لا نسبة بينها وبين السبب الخفيف كوقوع الغبار على العين مثلاً فان هذا السبب الخفيف قد يحدث جملة حركات مختلطة وطويلة كالدمع والغضب والخوف والهرب والاحتقار والالم وغير ذلك . فلا نسبة بين هذا الانفعال العظيم وذاك التنبيه الخفيف لولا انهُ يوجد في الجسم الحي من القوى كمية وافرة متجمعة كامنة تظهر دفعة واحدة لسبب صغير . وذلك اشبه بما يحصل في صندوق بارود فانهُ ان اصابتهُ شرارة يشتعل وتنبعث منهُ قوة تدك الحصون وتزلزل الجبال فلا نسبة بين هذه القوة الكبيرة وتلك الشرارة الصغيرة لولا ان البارود يحتوي قوة عظيمة متجمعة في موادهِ فالاجسام الحية كغيرها لا تولد قوة وانما تظهر قوة كامنة فيها

مهيجات والمهيجات كهربائية وكيماوية وحرارية وميكانيكية وهي انما تنبه قابلية الكرية الحية للتهيج لانها تغير تركيبها فكل المهيجات مغيرات للكرية وكل المغيرات مهيجات

وعليهِ فالجسم الحي غير فاعل من نفسهِ الاَّ ما يفعلهُ في الاشياء التي من الخارج من قبيل ما تفعلهُ هي فيهِ . فهو لا يقدر ان يتحرك ذاتيًّا فلو فرض — وهذا الفرض ممتنع مقولهُ — ان جسماً من طبع واحد وضع في وسط ساكن لبقي ساكنًا ولم يتحرك. فحركة الاجسام الحية مفعولية لا فاعلية

واعلم انهُ لا بدَّ من شروط معلومة لحصول التهيج فالمهيجات اذا كانت بطيئة جدًّا وتدريجية فالجسم الحي يكاد لا يتهيج منها . مثال ذلك اذا أجريت مجرًى كهربائيًّا على جسم حي وقويتهُ شيئًا فشيئًا فلا يحصل عنهُ حركة في ذلك الجسم وهكذا اذا وضعت سائلاً حامضاً حامضهُ قليل جدًّا على جلد ضفدع فيمكنك ان تزيد الحامض قليلاً فقليلاً حتى يبلغ درجة شديدة من الحموضة بدون فعل منعكس عنهُ وقس على ذلك جميع المهيجات مهما كانت

ولا تنفعل الانسجة الاَّ لفرق بين مهيجين : لنفرض مهيجاً (ب) مثلاً فاذا تبعهُ مهيج آخر (ب) مثلهُ غير مفصول عنهُ بفترة فالمهيج الثاني لا تحصل عنهُ نتيجة . وهذا ما يحصل خاصة في الحس المعلوم فاننا لا ندرك الاَّ فرق التهيجات وليس التهيجات نفسها فانا اذا وضعنا اليد على مادة ولم نحركها فلا تمضي بضع ثوان حتى نفقد فيها الشعور باللمس ولا نعود قادرين على الحكم بطبيعةِ المادة الملموسة

فمما تقدم لنا النتيجة الآتية وهي كل مغير للحالة مهيج لكنهُ لا يكون مهيجاً الاَّ اذا صدم الانسجة صدمات مختلفة بين الشدة والخفة

## (٢) حفظ القوة وكمونها في الاجسام الحية

كل اهتزاز في العصب وكل عمل في الدماغ وكل انقباض في العضل ترافقهُ ظواهر طبيعية وكيماوية في النسيج الذي يكون فيهِ العمل تجوّز لنا الحاق النواميس الفيزيولوجية للاجسام الحية بالنواميس الطبيعية للجماد

هذا وان الحياة مسألة من ضمنها مسائل لا يفي فيها النظر الاجمالي لانها تحتمل شرحاً طويلاً يضيق عنهُ ما خصص لمثلها في الجريدة فربما ذكر الواحد شيئاً وفاتهُ اشياء فلا بدَّ فيها من التفصيل والتبويب على الترتيب الذي يقتضيهِ الموضوع للوصول الى اجماع معلوم غير الاجماع على الاقرار بالقصور المشكور الذي هو اعم من ان يختص بالحيوة بحيث نتكلم اولاً في الانواع أجرثومية هي أم تحولية وفي الحياة أقوة هي أم غير قوة وفي القوة أملازمة للمادة أم غير ملازمة وفي المادة أأزلية هي أم فانية وفي الحياة كقوة ملازمة للمادة أيصح ان تكون الجاذبية أم لا . فربما لم يكن بيننا خلاف في الواقع او كان ولكن لم يكن جوهريّاً ونحن نتوهمهُ كذلك الأ ان البحث هكذا ربما يطول واخاف ان يملنا القراء فنسأل لهم صبرًا جميلاً ولنا عفوًا كريمًا ولكن ربما كان يطول اكثر بغير ذلك وانا متيقن بان جناب الخصم في المباحثة والصديق في المودة يسرُّ بذلك لما يعهد فيهِ من الذكاء فموعدنا اذًا الى العدد الآتي والسلام

---

# بعض ملاحظات في الحياة

## (١) قابلية التهيج

من أهم مباحث الفيزيولوجيا العامة معرفة اعمال الكرية الحية لان جميع الانسجة المؤلفة منها الاجسام الحية مرجعها اليها . واهم اعمال الكرية الحية قابليتها للتهيج فمعرفة نواميس قابلية التهيج هي اذًا معرفة نواميس الحياة

كل جسم حي وكل نسيج كذلك متغير بالقوى التي من الخارج فكل قوة خارجية تغير حال الكرية الحية تحسب مهيجة لها

الكرية الحية موجودة على حال كيماوي وطبيعي معاً فهي على حالة معلومة من الكهربائية والحرارة والضغط والتركيب الكيماوي فكل ما يعرض لها من الخارج ويغيرها عن احدى هذه الحالات يحسب مهيجاً لها . فجميع القوى التي من الخارج

وثانياً ان السفينة بولارس التي سارت بعد تشالنجر قد اكتشفت مادة بروتوبلاسمية تختلف عن الباثيبيوس بعدم وجود شيء من التجمعات الكلسية فيها وسماها الدكتور اميل بسلس بروتو باثيبيوس فان كان هذا محور الخلاف ولا اظنهُ كذلك فهذه ضالتنا قد وجدت . وما ذكرهُ من اقوال العلماء لا يستفاد منهُ سوى انهم يتعجبون ولا يدركون كيف تحصل الحياة وأي سر من الاسرار الطبيعية يدركونهُ او لا يتعجبون منهُ ولا يستفاد منهُ انهم يوافقون الحيويين فيما يقولون

وأما قولهُ ان الاجسام الاولى الحية على افتراض تولدها من الجماد بواسطة القوة الطبيعية المحضة فلا يتم لها ذلك لانها لا تقدر ان تغتذي من المواد الجمادية رأساً فلو تأمل قليلاً لوجد ان تغذية الاجسام الحية على فرض صحة افتراضهِ تحصل من المواد الآلية التي تتكون رأساً من الجماد كالالبيومن والفيبرين وغيرهما وربما كانت هي نفسها التي تظهر فيها الحياة اولاً ويجب ان يكون كذلك وهي بالحقيقة حلقة تولد الحي من غير الحي . فمن يرى ذلك كلهُ ربما يحسب جسوراً مقتحماً اذا تنبأ بان العلم سيصل بعد خمسين سنة بل خمس مئة سنة الى ان يخلق حيًّا يسعى ولكن بلا شك يحسب جباناً مرتعداً اذا كان لا يعتقد بان الانواع متكونة بالاستحالة لا بالجراثيم وان الحي متحول عن غير الحي ويستحيل غير ذلك . فلو افترض ان الحياة مجردة عن المادة لوجب ان تكون هي العامل في تركيب محلها وتحليلهِ والحال ان وجودها فيهِ متوقف على وجودهِ وهو لا يكون قبل تركيبهِ لتوقفهِ عليهِ ولا بعد تحليلهِ لانتقاضهِ بهِ فلو كانت هي العامل فيهما لكان عملها واحالة هذهِ قبل وجودها في الاول وبعد عدمها في الثاني وهو محال . واين الحكم في تجريد القوة الحيوية عن المادة بعد علمنا ان كل ما هو كائن خاضع لنواميس ازلية في مادة هي كذلك بل الحكمة في الحاق هذه القوة بغيرها من القوى الطبيعية والعلم اكبر شاهد على ذلك . وعليهِ فالقوة ملازمة للمادة وكل قوة ملازمة للمادة طبيعية والحياة قوة فالحياة ملازمة للمادة اذاً الحياة قوة طبيعية وتسميتها حيوية لا يغير شيئاً من طبعها كتسمية بعض ظواهر القوى المعروفة في الطبيعة كياوية . وعندنا انها الجاذبية باعتبار الجاذبية اعم القوى وباعتبار الحياة في ابسط ما تكون عليهِ

الاقرار بان ما نعلمهُ من تكون الانواع بالاستحالة طبقاً لنواميس عامة لا تتغير برد كل شيء الى المادة ونواميسها التي هي ثابتة غير متزعزعة تفعل مضطرة غير مختارة على قياس معلوم على حدّ سوى في الجماد والنبات والحيوان ولكن لماذا تظهر في الحي على خلاف ما تظهر في الجماد فعلى حد قولنا لماذا يعوم الخشب و يغرق الحديد . فلا يقتضي ان ينمو الجماد و يغتذي كما ينمو الحي و يغتذي والاَّ صار حيًّا . وهل تقتضي القوى اذا كانت من طبع واحد ان تكون اعمالها واحدة كيف كانت واين كانت ألا ترى ان ذلك يفضي بنا الى ان يكون الكون واحدًا متساويًا في الصورة حيوانًا واحدًا او نباتًا واحدًا او جمادًا واحدًا والواقع هو بخلاف ذلك . أما ما قالهُ من اختلاف جواهر العناصر في التركيب بين الحي والجماد وما فيهِ لنا من المسامحة الظاهرة فيحق لنا ان نسامحهُ عليهِ لا لانّ الاختلاف المذكور غير موجود ولكن لاعتمادهِ عليهِ فاصلاً بين طبيعة وطبيعة كأن الجواهر المذكورة غير مادية او كأنهُ لا يمكن الحصول على مثلها في الطبيعة وفي المعامل الكيماوية بواسطة القوى المادية

وأما قولهُ ان كون الحياة لا تفرق في الطبع عن القوى الطبيعية والكيماوية يلزم منهُ تبيين امكان تركيب العناصر والقوى تركيبًا جديدًا يظهر ظواهر الحياة فيها — فان كان المقصد منهُ امكان ذلك طبيعيًّا فهو حاصل و بيانهُ في المواد الطبيعية المركب منها الحي بقوة ملازمة غير مفارقة الا مفارقة عارضية . وأما ان كان مقصدهُ ان نخلق لهُ بالوسائط التي لنا في بواتقنا رجلاً او فيلاً فهذا لا يمكن وهو شرط غير ضروري واما ايضاح الاعمال الحيوية بالقوى الطبيعية المعروفة فاظن ان البيولوجيا والفيزيولوجيا فيهما من ذلك ما يكفي للاقتناع

وأما قولهُ ان التولد الذاتي لا يمكن بحجة انهُ لم يعلم الى الآن متولد ذاتي متفق عليهِ فهذا على فرض صحتهِ لا يوجب كونهُ لم يمكن وقولهُ ان الباثيبيوس لم يكن الاَّ راسبًا من كبريتات الكلس وان السفينة تشالنجر لم تعثر عليهِ فمردود عليهِ اولاً بما اظهر هكل فيهِ من تلونهِ باحمر اذا اضيف اليهِ راسب الدودة و باصفر اذا اضيف اليود والحامض النتريك وذلك لا يحصل في راسب بسيط من كبريتات الكلس

سلم هذا سلم لهُ ذلك ايضاً . فاذا كان الايثير لا يظهر فعلهُ في الجماد فذلك لا يتخذ حجة على اختلاف طبع ما يفعل في انفعالهِ عن طبع ما يفعل في الاجسام الحية لان القوة تختلف ظواهرها بحسب مظاهرها والحس نفسهُ غير متساوٍ في طبقات الاجسام الحية ولا انفعالهُ بالايثير فيها على حدّ واحد وقد لا يؤثر في ما كان منها بسيطاً جدًّا او لا يظهر لنا تأثيرهُ كما في المركبات الآلية . ومن المعلوم انّ من خصائص المواد الحية سرعة انحلالها فاين انحلال بعض المواد الحيوانيـة من انحلال بعض المواد النباتية التي تكاد تكون في ثبوتها كالجماد أيمنع ذلك النسبة الكائنة بينها او لا يعتبر هذا الفرق بينها نسبة متدارجة . فلماذا لا يعتبر هذا الفرق في الجماد كذلك نسبة لانحطاطه في طبقات الكوائن . ألعلهُ لا يقر باستحالة المواد والقوى فاين الفكر المركب من الحس البسيط وأين الكهربائية من الحركة . فالقوة العامة في الكون والتي اصطلح العلماء على تسميتها بالجاذبية سواء أفاد هذا الاسم شيئاً اولم يفد هي القوة التي ترجع مركبات القوى الى بسيطها وهي التي ترجع الحياة اليها ايضاً . وقولهُ ان اعتبار الانفعال في الجماد حساً بسيطاً شيء جديد لا يراهُ موافقاً لآراء العلماء ولا منطبقاً على تعاريفهم قلت ان بحثنا ليس فيما هم متفقون عليهِ بل فيما هم مختلفون فيهِ والاَّ لما كان داع لذلك كلهِ

وأما قولهُ ان العلوم غير الطبيعية تعلمنا بان القوة قد تنفك عن المادة فنجيبهُ ان العلوم الطبيعية لا تعلمنا ذلك و بحثنا فيها لا في تلك . قال ان وجود قوة لا تلازم المادة ممكن وضرب لذلك مثلاً ملازمة الحياة للمادة الى زمن محدود قلنا متى مات الجسم الحي اين تذهب القوة الحيوية اتبقى كامنة في موادهِ ام تفارقها اصلاً . أما نحن فنعلم ان المادة لا تتلاشى والقوة لا تتلاشى كذلك فلا شيء من مواد الجسم الحي يتلاشى من العالم المادي متى مات ولا شيء يتلاشى من القوى التي فيهِ فمواد الجسم الحي متى انحلت تتغير كثيراً في الصورة عما كانت عليهِ فيهِ كذلك الحياة تتغير في الخاصة ايضاً فهذا ما نذهب اليهِ ويذهب اليهِ اكثر الطبيعيين . ونحن لا ننكر بان كيفية ذلك تخفى علينا ولكن تخفى علينا امورٌ اخرى كثيرة طبيعية ايضاً الاَّ اننا لا نستطيع الاَّ

السؤال ( الذي تقدم مني والذي سدل عليهِ الستر في مقالتهِ كشفهِ الاستار عن الاسرار ) بكلام لا يدع معهُ مجالاً للتأويل انتهى

# الحياة والجاذبية (١)

ان تأييد القول في كون الحياة جاذبية وكون المادة ذات حس باعتبار الحس في ابسط ما يكون عليهِ لا بدّ فيهِ اولاً من تجريد الحياة من كل قوة فوق الطبيعة لكي يمكن حصرها في القوى الطبيعية أي في قوى المادة نفسها . وهذا هو السبب الذي جرَّنا في المباحثة الى الكلام في ملازمة القوة للمادة وفي التولد الذاتي وما يتضمنهُ من تكون الانواع الحية متسلسلة عن بعضها على سبيل الاستحالة مما تبرأ منهُ جناب المعترض بقولهِ ان تلك مسائل لا يعنيهِ امرها في هذا المقام مع انهُ يستحيل حصر الكلام في الحياة والجاذبية الاَّ بعد الاتفاق على نسبة الحياة الى المادة لتعرف أعارضة هي أم لازمة و بغير هذا الاتفاق يكون البحث في الحياة والجاذبية ضرباً من العبث فكل واحدة منها مقدمة ونتيجة معاً للباقي فلا يصح ان يعدّ النظر في هذه المسألة على هذه الصورة شروداً او عدولاً

ولقد تقدم بيان ذلك فيما سبق جملة على قدر الامكان فقال انهُ لا يزال غير وافٍ بالمقصود لا في اثبات الحس للجماد ولا في كون الحياة جاذبية ولا في غير ذلك لان الجماد لا يصدق عليهِ الانفعال الحيوي اذ لا يؤثر الايثير في انفعالهِ ولا تفعل الجاذبية فيهِ ما تفعل الحياة في الحي ولا يخفى ما في ذلك من المؤاخذة مع ان القوة التي تفعل في التبلور على قياس معلوم تختلف في عملها كثيراً عن سواها من القوى الطبيعية كالحرارة مثلاً فعلى مقتضى قياسهِ يجب ان يكون بينهما فاصل في الطبع فان

(١) نشر في مقتطف السنة السادسة سنة ١٨٨٠

ما افترضهُ من لزوم مشابهة الجماد والحيّ لو كانت الحياة جاذبية لصحّ لنا ايضاً بالقياس عليهِ ان نسألهُ لماذا لا يتشابه الكحول والسكر والنشا والصمغ والالماس والفحم ولماذا يتبلور لذهب على مثمنات هرمية والبزموث والانتيمون على مسدسات واليود والكبريت على مربعات ولماذا تتحد الاجسام بعضها ببعض على نسب مختلفة ولماذا يكون بينها تفاوت في الالفة فان القوى الطبيعية والكيماوية واحدة في جميعها وفي بعضها العناصر واحدة والمقادير ايضاً واحدة فبما يجيبنا عن هذه الفروقات الكلية الواقعيــة مع وحدة القوى الطبيعية نجيبهُ نحن ايضاً عن الاختلافات التي بين الاجسام الحية والجماد فيفهم حينئذٍ كيف ان الحياة هي الجاذبية او نوع منها اللهم الاَّ اذا قال لنا بقوى اخرى خاصة بكل مادة منها وبكل حالة على حكم القوة الحيوية تتصل بها وتنفصل عنها وتجعل هــذا الفرق بينها وذلك أقرب الوجوه للتخلص الاَّ انهُ يكون فيهِ منفرداً حتى بين طائفته ويترتب عليهِ ان يتجشم اثباتهُ ودون ذلك عقبات لا تقطع . وأما ما ذكرهُ عن هكسلي وهكل بانهما رأيا بطلان زعمهما ( أي القول بالتــولد الذاتي ) وانهما انكرا الباتيبيوس والمونير وغيرهما من جنس البروتيست كالاميب والموناس وصارا يعدانها بين الاوهام فيحتاج الى اثبات فانهما على ما اعلم لم يريا بعد بطلان مذهبهما ولم يرجعا عنهُ وسواء علينا رجعا او لم يرجعا والذي اعلمهُ علم اليقين انهما ما برحا يؤيدان هذا المذهب ولم ينفردا فيهِ وحدهما بل انصارهما كثيرون وعددهم يزداد يوماً عن يوم لازدياد الاكتشافات واتضاح الحقائق العلمية . فكيف أمكنهُ والحالة هذه ان يرد الى مذهبه عصبة قوية صعبة جدًّا بمجرد كلام ليس فيهِ صعوبة او كيف جاز لهُ ان يضرب فيهم مثل ذلك الفلكي الذي سقط الحباحب على زجاجة نظارتهِ وهو لعمر الحق اولى بطائفة الحيويين الذين اقاموا من الاوهام حقائق . ولا اقول ذلك استخفافاً بل انما اقول الواقع فان القوة الحيوية التي يزعمون بوجودها ليست والحق اولى ان يقال الاَّ بقية اوهام تجلببت بجلباب الغيوم وركبت على أجنحة الرياح وطارت وطارت في طبقات السماوات واحتجبت فيها والاَّ فليقل لي جنابهُ : — ما هي القوة الحيوية ومن اين اتت وما نسبتها الى المادة والاجسام الحية — فارجوهُ ان يجاوبني على هــذا

تتولد كما تتولد الاجسام غير الحية أي ان الحي يأتي من غير الحي وشاهدهُ المنير والأميب والموناس وغيرها من المتولدات البسيطة غير الآتية من جراثيم سابقة بل من عناصر المادة بقوة في نفس المادة ولا يعبأ بانكار بعضهم لهذه الاجسام طالما يوجد من يؤيدها من ذوي المكانة من اهل العلم . وعلى فرض صحة عدم العلم بتولد ذاتي كما يزعم فذلك لا يجعلهُ ممتنعاً . وأما في البناء فلأن بناء الاجسام الحية الاولية بسيط جدًّا فهو بالبساطة كبناء البلورات . وأما في النمو فلأن البلورات تنمو على مقتضى نواميس محدودة والاجسام الحية تنمو على مقتضى نواميس محدودة كذلك والفرق بينها ان النمو في البلورات يتم باضافة دقائق جديدة متشابهة الى سطحها الظاهر وفي الاجسام الحية باضافة دقائق جيدة متشابهة الى باطنها تتداخل فيها وهو فرق ظاهري فقط ناتج عن اختلاف في كثافة مواد الاجسام الحية والاجسام غير الحية . وأما في الشكل فلأن الحيوانات المشععة من جنس البروتيست ذات تكوين هندسي كالبلورات محدودة بسطوح وزوايا هندسية والمونير والاميب والموناس وغيرها من العادمة الشكل التي لا تثبت على شكل واحد بل تتغير في كل لحظة هي شبيهة بالاجسام غير الحية التي ليس لها شكل معين كالحجارة غير المتبلورة والرواسب الخ

ففي ما تقدم نقض لشبهاتهِ واذا بقي هناك بعض احتمال فهو منقوض بما يأتي وهو ان وحدة القوة الفاعلة في المادة لا تستلزم مشابهة المادة في سائر احوالها أي اذا كانت الجاذبية اصل الحياة وهي موجودة في الجماد فلا يلزم ان تكون اعمالها فيهِ كاعمالها في الجسم الحيّ . فكما ان المادة الموجودة في الجسم الحيّ هي نفس المادة الموجودة في الجماد مع ان الفرق بينهما جسيم فهكذا أيضاً القوة الموجودة في الجسم الحي هي نفس القوة الموجودة في الجماد ولو بعد الفرق بينهما واذا صحت استحالة المادة الى ما يجعل الفرق بينها في الجسم الحي و بينها في الجماد كلياً وهي واحدة في كليهما فلماذا لا تصحّ هذه الاستحالة نفسها في نفس القوة مع وحدة اصلها . والاستحالة في القوى امر معلوم فالجاذبية تستحيل الى حركة والحركة الى حرارة والحرارة الى كهربائية وهي الى نور و بالعكس مع ان الحركة هي غير الجاذبية والجاذبية هي غير الكهربائية في الظاهر. ولو صحّ

بل حقيقة من اثبت الحقائق العلمية واذا جاز ان يكون هناك دعوى فتكون بجانب من يدعي الخلاف وكيف يصح ان تكون دعوى ومبادئ العلوم الطبيعية تعلمنا ان المادة لا تعلم الاَّ بالقوة والقوة لا تعلم الاَّ بالمادة وتعلمنا اكثر من ذلك اذ تهمس لنا في آذاننا ان لا تصدقوا بقوة خارج المادة فهل لهُ بعد ذلك ان يذهب بنا غير هذا المذهب و يفيدنا عن قوة بلا مادة او مادة بلا قوة فنسلم لما يقول و يصفق العلم لاكتشافهِ طرباً فيرينا الحرارة والنور والكهربائية وجميع القوى الطبيعية والكيماوية اصلها وفرعها مجردة عن المادة والمادة مجردة عن الصفات اوالخصائص او القوى سمها كما شئت وحينئذ يسقط الخلاف بين العلماء بغلبة الحيويين . وان لم يستطع فليسمح لنا بتكرار قولنا ان المادة الحية انما تكيفت بالقوة الملازمة للمادة المركبة هي (أي المادة الحية) منها باستحالة في نفس القوة كما حصلت الاستحالة في نفس المادة

ثانياً . قلنا ان جميع الاعمال الحيوية مرجعها الى القوى الطبيعية والكيماوية وذكرنا لتأييد ذلك أهم الاعمال الحيوية كالتنفس والافراز والتمثيل والهضم والامتصاص والدورة الخ فاعترض بان ذلك لا يدفع الشبهات التي أوردها والتي قال ان جوابي لهُ لم يكن فيه رد على واحدة منها مع ان الرد عليها متحصل من مجمل الكلام لو تدبر . و يظهر من كلامهِ انهُ لا ينكر بان الاعمال الحيوية تتم بقوى كيماوية وعلى مقتضى نواميس طبيعية وانما يشترط لها الاشتراك بمدبر آخر غريب مجرد عنها يسميهِ بالقوة الحيوية هي مصدر شبهاتهِ وسبب هذا الاختلاف العظيم بين الاجسام الحية والجماد وقد فاتهُ ان المقابلة لكي لا تكون موهومة ينبغي ان لا تقتصر على اكمل الاجسام الحية بل ان تشتمل على ابسطها من مثل الكرية الحية التي تتألف من مجاميعها الاجسام الحية كافة والتي فيها اصل كل الحياة . فهذه الاجسام البسيطة اذا قوبل بينها و بين الجماد لم يكن فرق لا في المادة ولا في القوة ولا في المنشاء ولا في البناء ولا في النمو ولا في الشكل . أما في المادة فلأن العناصر المؤلفة منها الاجسام الحية هي نفس العناصر الموجودة في الاجسام غير الحية . واما في القوة فلأن جميع الاعمال الحيوية بدون استثناء تتم بالقوى التي تتم بها جميع اعمال المادة أي بالقوى الطبيعية الكيماوية . وأما في المنشاء فلأن الاجسام الحية

الجاذبية العامة الخ . عبارة عن حس المادة الخ : » — فيهِ من التخصيص ما هو كاف لازالة كل شبهة بالحاقي الحياة بالجاذبية فاذا كان الحس نوعاً من الجاذبية كانت الحياة بالضرورة ايضاً منها وهو على ظني كلام صريح لا يحتمل التأويل ولا يصح ان يؤخذ منهُ معنى العدول

وأما قولهُ ان الحس لا يصح ان يكون الانفعال لانّ من الانفعال ما ليس حساً وانهُ لا يسلم بحس المادة حتى نبين لهُ ان انكسار الحجر بالمطرقة هو حس لانهُ انفعال. فنجيبهُ عليهِ بما اجبناهُ بهِ في ما سبق وهو انهُ إما ان يسلم بالحس في النبات وفي أدنى الحيوان او لا فان كان الثاني كان اعتراضهُ في محلهِ وانما يبقى عليهِ ان يفصل الحس عن الحياة و يناقض الفيزيولوجيين ونفسهُ ايضاً . وان كان الاول ولا اراهُ الاَّ ميالاً اليهِ ترتب عليهِ ضرورة ان يفهم بالحس معنى الانفعال فقط لان الحس فيهِ هو من النوع غير المعلوم وهو أشبه بانفعال المادة البسيط فما دام المادة تنفعل فهي تحس وعليه تبخر الماء بالحرارة واحتراق العود بالنار واسوداد نيترات الفضة بالنور ونفور الجسم المكهرب من كهربائيتهِ وانجذابهُ بضدها حس أي تأثر أي تكيف أي انفعال فلو لم تكن المادة تحس لما كان الماء يتبخر ولا العود يحترق ولا الفضة تسود ولا المكهربات تتدافع متشابهاتها وتتجاذب متضاداتها فانكسار الحجر اذاً حس لان انكسارهُ هو عبارة عن تفرق اتصال في مادتهِ لانفعالها بقوة مقاومة غالبة لقوة اخرى هي موجب اتصالها فاجتماع مادة الحجر هو لقوة كائنة في دقائقها تفعل فيها جاذبية الالتصاق وانكسارهُ هو لقوة تفعل في مادتهِ ضد ذلك كائنة في عمل المطرقة تحس بها الدقائق المتفرقة ولو لم تكن تحس بها و بسابقها لما اجتمعت ولما تفرقت ولا تكوّن حجر ولا انكسر

وأما قولهُ في قولي : — ان ما يسمى مادة لا ينفك عن ملازمة ما يسمى قوة : — انهُ « دعوى لا استطيع اثباتها » — وان جميع الاعمال الحيوية مرجعها الى القوى الطبيعية والكيماوية . — انهُ « ترد عليهِ شبهاتهُ » فمردود عليهِ بما يأتي وهو

اولاً . القول بان ما يسمى مادة لا ينفك عن ملازمة ما يسمى قوة ليس بدعوى

الاشد بساطةً وما المانع من ان تكون كذلك مع علمنا ان الكيمياء في امكانها ان تكوّن مركبات كربونية من هذا القبيل . أليس ذلك اولى بالتصديق من الزعم بجرثومة طمسن المحمولة على نيزكٍ من النيازك او غيرها من الجراثيم المزعوم بها وما هي تلك الجرثومة او ما هي هذه الجراثيم الغريبة المصدر ومن أي العناصر هي مؤلفة وكيف تكوَّنت فاذا كانت مؤلفة من عناصر المادة فهي تحت حكم النواميس الخاضعة لها المادة فما الداعي والحالة هذه الى الخروج عن المادة لتفسير اعمال المادة التي فيها سر كل الكائنات . فهذهِ خلاصة من براهين كثيرة تتأيد بها حجة الماديين وتسقط بها دعوى الحيويين . ولكن لما كان المقام لا يسمح لنا باستيفاء كل البينات التي جاءت من هذا القبيل اجتزينا الآن بهذه العجالة وفينا شديد امل بالعود الى هذا الموضوع كلما مكنتنا الظروف . اه

طنطا ٩ ايلول ١٨١٨

# الحياة [1]

لا أعلم كيف جاز لجناب صاحب مقالة كشف الاستار عن الاسرار [2] ان يتوهم بي العدول عن أن الحياة هي الجاذبية او نوع منها مع اني لم اعدل حتى الآن وليس في كلامهِ: الحياة والجاذبية : ولا في : كشف الاستار عن الاسرار : ما يوجب بي سرعة هذا الانتقال وليس في كلامي شيء يوهمهُ ولو كان فيهِ ذلك لالتمست لهُ عذراً وأما قولي من مقالتي السابقة « واذا تبين ذلك سهل علينا الحاق هذه الخاصة ( أي الحياة ) بالجاذبية او سواها من القوى الطبيعية » فلا يجوز لأيٍّ كان ان يتوهم منهُ ذلك فهو يحصر الحياة في القوى الطبيعية وهذا لا يوجب الخروج عن الجاذبية الى غيرها للمشاركة الكائنة بين القوى الطبيعية واستحالتها بعضها الى بعض ولاعتبار الجاذبية أم الباب فضلاً عن ان قولي في المقالة المذكورة في اثبات الحس للمادة : — «فتكون

(١) نشرت في مقتطف السنة السادسة سنة ١٨٨١ (٢) الدكتور اسكندر بارودي

العلمية على ذلك . وغاية علمي ان ليس لهم ادلة موجبة بل كل ادلتهم سالبة ينقضون بها حجة الماديين و يطلبون منهم ان يخلقوا لهم جسماً حيًّا من جسم غير حيّ فلننظر اذا كان ذلك ممكناً

التولد الذاتي — اعظم حجة كان يحتجّ بها الحيويون على الماديين في التولد الذاتي هي عدم استطاعة القوى الطبيعية والكيماوية على تكوين مواد عضوية من مواد غير عضوية مما كان يجعل حجتهم في القوة الحيوية قوية بحسب الظاهر لان عجز الوسائط التي للكيماويين عن تركيب مادة لا يؤخذ منهُ عدم امكان تركيب هذه المادة طبيعياً . فان الالماس مع كونهِ من المركبات التي لاخلاف في كونها طبيعية فالكيميا لا تزال عاجزة عن تكوينهِ ولو توفرت لها كل الوسائط ولم ينقصها سوى ذلك العامل العظيم اي الزمان الذي الف سنة منهُ في عين الطبيعة نظير امس الذي عبر لنقصها كل شيء . ومع ذلك فاحتجاجهم هذا لم يعد لهُ قيمة من بعد ما بين دهلر سنة ١٨٢٨ امكان اصطناع الاوريا العضوية كيماوياً من السيانوجين والنشادر غير العضويين ومن ذلك العهد الى الآن قد تقدمت الكيمياء جدًّا وصار في امكانها استحضار اكثر المواد العضوية من المواد غير العضوية بطريقة صناعية لا دخل للحياة فيها كاستحضار الكحول والحامض الفورميك وسكر العنب والحامض الاكساليك والمواد الدهنية حتى الالبيومن والفبرين والخوندرين من مواد غير عضوية . فاذا كان مثل ذلك مستطاعاً في المعامل الكيماوية فما المانع من ان يستطاع اعظم منهُ في المعمل العظيم الذي فيهِ تعمل اعظم قوى الطبيعة فيتولد الحيّ من عناصر المادة تولدًا ذاتياً والاجسام الحية المتولدة ذاتياً حسب هكل والتي يمكن مراقبتها هي الاجسام التي اطلق عليها اسم (Moneres) اي الحية وحدها فهي غاية في البساطة والمعروف منها للآن سبعة أنواع بعضها يعيش في المياه العذبة و بعضها في المياه المالحة وهي ام الانواع وكل منها مؤلف من بزرة صغيرة من مادة كربونية البيومينية من دون نسيج . وبما انهُ لا اعضاء لها ولا تقسيم عمل بل جميع ظواهر الحياة فيها تتم بواسطة مادة واحدة من طبيعة واحدة لا شكل لها فلا يمكن ان تكون أتت من جرثومة حية فلا بد ان تكون نتيجة التولد الذاتي آتية من المركبات الكربونية

العلماء والفلاسفة على ان المذهب الاقوى دليلاً والابعد عن معارضة الحقائق هو الارجح احتمالاً » فبقي علينا ان نعرف اية هي الحقائق التي يصحُّ ان تسمى كذلك أتلك المقرَّرة في الذهن ام التي قرَّرها العلم وان نعرف ايُّ دليل اقوى أدليل الحيويين القائلين في الحياة بالقوة الحيوية المنفصلة عن المادة ام دليل الماديين القائلين في الحياة بالقوى الطبيعية والكيماوية المتصلة بالمادة واقوى دليل للحيويين على القوة الحيوية هو ان الحيّ لا يأتي الاَّ من الحيّ ولا يمكن ان يتولد من المادة غير الحية بواسطة القوى الطبيعية . فعلينا اذاً ان نبين اولاً ان القوة الحيوية المزعوم بها لا وجود لها وان الفاعل في الحياة هو القوى الطبيعية والكيماوية وثانياً ان التولد الذاتي ممكن. فاذا ثبت ذلك سقط على ظني الحاجز الحصين الذي يقيمهُ الحيويون بين الاجسام الحية والمادة فتكون كل الاختلافات العارضة على المادة في الكيفية والكمية اي في الصورة فقط لا في الماهية اذ ان جميع الاجسام العضويه وغير العضوية مؤلفة من عناصر المادة وخاضعة لنواميسها التي لا تتزعزع

القوة الحيوية لا وجود لها — انا لا نعلم الحياة الاَّ بالاجسام الحية المؤلفة من عناصر المادة ولا يوجد في الجسم الحي عنصر غير موجود في العالم المادي ونعلم ان ما يسمى قوة لا ينفكُّ عن ملازمة ما يسمى مادة . فكل ما يحصل في الجسم الحي حاصل في عناصر المادة المؤلف منها ذلك الجسم بقوى المادة نفسها التي تعمل على نسقٍ واحد في العالم العضوي والعالم غير العضوي كما نعلم من علمي الكيميا والطبيعيات اللذين لا يمكن الاستغناء عنهما في درس الفسيولوجيا . فجميع الاعمال الحيوية مرجعها الى القوى الطبيعية والكيماوية كما هو ظاهر في التنفس والافراز والتمثيل والهضم والامتصاص والدورة الخ . فاذا كانت اهم اعمال الحياة تتم بقوى كيماوية وعلى مقتضى النواميس الطبيعية فاية حجة تبقى للحيويين لاثبات القوة الحيوية او بالحري اي لزوم لها . وهنا اسأل الحيويين ومن تابعهم من أين اتوا بالقوة الحيوية أمن عالم المادة ام من غيرهِ فان كان من الاول فكيف امكنهم ان يجردوها عن المادة وان كان من غيرهِ فكيف امكنهم ان يدخلوها على المادة التي لا تنفصل عن قواها ولا تقبل سواها فما هي ادلتهم

من يقول لنا ان الجسم الحيّ لا يفعل في المادَّة ويحدث فيها تغييرًا فبلا شك ان الحياة تنفعل في بعض الاوساط واكبر دليل على ذلك الاختمار فاذا ترك محلول سكري كعصير العنب مثلاً ملامساً للهواء فلا يلبث أن تدب فيهِ ملايين من الاجسام الحية الآتية جراثيمها من الهواء . فهذه الاجسام الخميرية تنمو وتكثر بسرعة عجيبة وتحدث في المادَّة السكرية تناءلاً كيماويًّا يتحوَّل بهِ السكر بعد زمن معلوم الى حامض كربونيك وكحول ثم الكحول الى حامض خليك فوجود الاجسام الحية في هذا السائل قد غير خصائصهُ فلو لم يكن هذا السائل يتأثر بهذه الاجسام الحية لما كان يتحال عند ملامستهِ لها اذًا هو يحس بفعلها . ولا يصعب علينا ان نأتي بامثال عديدة في هذا المعنى وان نبين ان النور والحرارة والكهربائية التي تؤثر في حسنا تؤثر في المادة كما هو ظاهر من تأثير النور في المركبات الكيماوية المستعملة في الفوتوغرافيا فلو لم تكن هذه المركبات تحس بالنور لما كانت تتأثر بهِ . وكذلك اذا اجرينا مجرى من الكهربائية على قطعة حديد لين فالحديد يتأثر بالكهربائية اي يحس بها وهو ظاهرٌ من اكتسابهِ قابلية جديدة لم تكن لهُ قبل ذلك وهي اجتذابهُ الحديد اي صيرورتهُ مغناطيساً . والحرارة كما نرى كل يوم تغير المواد تغييرًا كلياً فتسيلها وتبخرها فكل هذه الظواهر تدل على ان المادة تحس بالعوامل الخارجية وهذا ما يراد بهِ في تحديد كلود برنار للحس بقولهِ انهُ « تكيف في التأثير لكيفية في المؤثر » وعلى ذلك تكون الجاذبية التي تتجاذب بها الاجسام بالنسبة الى مادَّتها وبالقلب كمربع البعد بينهما عبارةً عن حس المادة في ابسط معانيهِ واعم انواعهِ

( ٢ ) الحياة خاصة من خصائص المادة

الحياة عند الحيويين قائمة بمبدإٍ حيوي قائم بنفسهِ مجرَّد عن المادة غير خاضع لنواميسها مع كونهِ ذا سلطان عليها يدخل المادة من حيث لا نعلم ويخرج منها الى حيث لا ندري . واما عند الماديين فالحياة حالة من حالات المادة او كيفية من كيفياتها خاضعة لنواميسها . ولقد احسن صاحب مقالة الحياة والجاذبية بقولهِ « قد اجمع

حال كونها مؤثرة وتنفعل حال كونها فاعلة فيكون حس الاجسام الآلية مرتبطاً ارتباط الجزء بكلهِ بتلك القوة العظيمة التي بها تتجاذب الاجسام بالنسبة الى مادتها وبالقلب كمربع البعد بينها اعني بها الجاذبية العامة التي هي عبارةٌ عن حس المادة في أبسط معانيهِ واعمّ انواعهِ . اه

## كل السرّ في المادّة (١)

جاء في مقالتي ( الحس وانواعهُ ) المدرجة في صفحة ٢٩٤ من السنة الخامسة المقتطف ما يتحصل منهُ « ان المادّة ذات حسّ » وان « الحياة خاصة من خصائص المادة » . وهذه الحقيقة وان كانت من الحقائق التي لا تقبل الردّ في هذه الايام الاَّ انهُ لا يزال يوجد طائفة من العلماء يحاولون انكارها وعلى ذلك جرى صاحب مقالة « الحياة والجاذبية » المدرجة في صفحة ٢٣٦ من السنة السادسة للمقتطف في اعتراضهِ على ما جاء في مقالتي المذكورة من هذا القبيل فبياناً للحقيقة يترتب علينا جميعاً ان نبحث في هذه المسألة بحثاً لا يتجاوز حدّ العلم وانكاراً لما يذهب اليهِ هو واثباتاً لما ينكرهُ يترتب عليَّ اولاً ان اثبت ان المادة ذات حسّ وثانياً ان الحياة ليست سوى خاصة من خصائص المادة واذا تبين ذلك سهل علينا الحاق هذه الخاصة بالنواميس الطبيعية سواء كانت الجاذبية او سواها

### ( ١ ) المادة ذات حسّ

الحس بالشيء في ابسط معانيهِ واعم انواعهِ هو الانفعال بهِ ولا يسع صاحب الاعترض الاَّ ان يوافقنا على ذلك والاَّ يترتب عليهِ ان ينفي الحس عن النبات والحيوانات الدنيا التي لاشعور لها ولا ادراك وهذا لا يوافقهُ عليهِ احد من الطبيعيين والفيسيولوجيين المعاصرين

من المعلوم ان المادّة اذا لامست جسماً حيًّا تفعل فيهِ فتهيج فيهِ الحس ولكن

---

( ١ ) نشر في مقتطف السنة السادسة ١٨٨١

تتأثر باللمس وذلك لا شك ناتجٌ عن فقدها قوة الحس لا قوة الحركة بناءً على ما نعلمهُ من تأثير الايثير والكلوروفورم بالحس فقط دون الحركة . وهكذا اذا اخذنا احدى الحبوب السريعة التفريخ كحبة الجرجير ووضعناها على اسفنجة مشرَّبة ماءً فلا يمر عليها اكثر من ٢٤ ساعة حتى تنبت وينمو لها ساق وجذير . ولكن اذا راجعنا الامتحان مع مراعاة جميع الشروط اللازمة من الاكسجين والماء والنور والحرارة ووضعنا الاسفنجة تحت قابلة فيها ايثير فالحبَّة لا تنمو ولكنها لا تموت بل تنام نوماً بدليل انها تعود فتفرّخ متى رفعت عنها القابلة وتطاير الايثير . فهذه الحياة الخفية الساكنة التي تتضمنها الحبة لا تستطيع ان تظهر للوجود الاَّ بشروط منها خارجية ومنها داخلية . فالشروط الخارجية هي الماء والاكسجين والحرارة وكلها شروط طبيعية وكماوية واما الشروط الداخلية فمرجعها الى واحد فقط موجود في نفس الحبة هو جوهر الحياة وهو الحس فاذا عرض لهُ ما يوقف عملهُ امتنع النمو ولو كانت الشروط الاخرى مستوفاة . وهذا ليس خاصًّا بالنباتات وبزورها لان بيضة الدجاجة ايضاً لا تستطيع التفريخ في هواء فيهِ ايثير

ولا يخفى ان التعفن حاصل عن فطرٍ صغير ميكروسكوبي يحلل المواد المتعفنة فيغتذي ببعضها والبعض الباقي يتحوَّل الى صورة جديدة . فمع كون هذا الفطر دنيئاً جدًّا في سلم الكائنات الآلية فالايثر يؤثر فيهِ ويمنع عملهُ فيمتنع التعفن . وعلى ذلك فمن أدنى سلم الكائنات الحية الى أعلى ما يوجد على الارض من نبات وحيوان توجد فيهِ نفس هذه الصفة الجوهرية التي تتميز بها الحياة وهي واحدة في الذات ولو مهما تعددت انواعها فبدونها لا حياة او بالحري لا حياة ظاهرة وبها تبدو كل حياة وينمو النبات والحيوان . والعقل الذي يضع الانسان في مركز يميزهُ عن سائر المخلوقات ليس سوى نتيجة مجتمع احساساتهِ المشتركة بعضها مع بعض

هذا واذا نظرنا الى الحس من حيثية كونهِ تكيفاً في التأثير لكيفية في المؤثر ( كما في الفقرة الثانية من تحديد كلودبرنار ) فلا نستطيع ان نقفل باب الكلام في هذا الموضوع حتى نأتي ولو باشارة فقط الى كون المادة ذات حس ايضاً بدليل انها تتأثر

كل الصفات الحيّة الجوهرية ومن ثم الحس . فان فيها مادّة جوهرية تعرَف بالبروتو بلاسم وهي مادّة لا شكل لها بنفسها ذات صفات غريبة قد يتكوّن منها جسمٌ حيٌّ متحرك دنيءٌ يحيط بالدقائق الصغيرة التي يجدها في الماء فيهضمها ويمثلها لهُ . والايثير الذي هو الكاشف العظيم للحس يُفقِد هذه المادة شفافيتها وحركاتها واذا تطاير عنها رجعت لها سيولتها وصفاتها الحيوية .فهي اذًا ذات حس ولكنهُ من النوع الذي يُعرَف بالحس غير المعلوم . و كلما صعدنا في سلَّم الكائنات الآلية رأينا فيها نوعاً من الكريَّات التي تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً ويختص بها الحس ويزيد بها قوةً ونموًّا.وتعرَف هذه الكريَّات بالكريّات العصبية وهي منتشرة في الجسم الحي وتؤلف في الحيوانات العليا مجاميع مركزية تعرَف بالمراكز العصبية تنحصر فيها التأثيرات ثم تنضم أيضاً الى كريّات أخرى تعرَف بالكريّات العقلية فهذه تعرَف بها طبيعة الحس فيصير الحسّ من النوع المعلوم .فأنواع الحس المختلفة جميعها من طبيعة واحدة ويؤيّد ذلك فعل المخدّرات فيها. والحسُّ هو اعم صفات الحياة فكل ما يعيش يحسُّ ويمكن تخديرهُ حيواناً كان أم نباتاً كما يتضح ممّا يأتي

كلٌّ يعلم ان بعض النباتات اذا لمست تنفعل وان السنط الحساس تنقبض اوراقهُ وان كثيرًا من النباتات آكلة اللحم تنطبق على الذباب وغيرهِ من انواع الحيوان الذي يستقرُّ عليها فتصطادهُ وتغتذي بهِ . وليس من يجهل ايضاً تأثير النور في بعض الازهار التي تفتح في النهار وتذبل في الليل ومع ذلك فلم يكن احد يسلم بوجود الحس في النبات حتى بين ذلك كلود برنار اشهر فيسيولوجي هذا العصر وفلاسفتهِ ببراهين لا تدع معها سبيلاً للشك . فانهُ بيَّن ان المخدّرات كالايثير والكلوروفورم تخدر بالسواء ارفع اشكال الحس المعلوم وادنى اشكال الحس غير المعلوم . فاذا خدَّرنا حيواناً بهذين المخدرين يفقد منهُ اولاً الحس المعلوم فيقع في نومٍ عميق ثم اذا طال الامر يفقد منهُ الحس غير المعلوم اذ يمتد تأثير المخدّر الى جميع الدقائق العصبية المنتشرة في جسمهِ فيبطل عملها ويموت ويحدث هذا الامر عينهُ في النبات اذا خدر بالايثير والكلوروفورم فاننا اذا وضعنا احدى اوراق السنط الحساس تحت فعل احد هذين المخدّرين لم تعد

الحيوانات . ولكن وجودهُ فيها على انواع مختلفة وكلها لا تخرج عن الحدّ الذي حدّد كلود برنار الحس بهِ حيث قال « الحس هو جملة التغيُّرات الحاصلة في الجسم الحي بواسطة المهيجات او هو تكيُّف في التأثير لكيفية في المؤثر » . وقد قسم بيشات الحس الى ثلاثة انواع : الحس المعلوم وهو المستولي على الحركات الظاهرة والحس غير المعلوم وهو المستولي على الحركات الباطنة والحس غير المحسوس بهِ اي الذي لا تدركهُ العين وهو القائم بغير الحركات . وفي كلامنا نلحق النوع الاخير بالثاني ونقتصر على نوعين فقط وهما الحس المعلوم والحس غير المعلوم مبينين امكان استحالة الواحد الى الآخر الامر الدال على كونهما نوعين لصفة واحدة فنقول

اننا لا نتعلم القراءة الاَّ بجهد جهيد وقلَّ مَن يقول انهُ تعلَّم القراءة من دون اعمال النظر ولكننا بعد ذلك نقرأ صفحةً بجملتها من دون ان نفتكر فيها فلا شك والحالة هذه انهُ حصل استحالة في نوعَي الحس . كذلك في المشي وفي كثير من الاعمال الاعتيادية فانهُ كثيرًا ما يكون الدماغ الذي هو عضو الادراك لاهيًا عنها بغيرها وهي جاريةٌ من دون علمهِ . وهكذا ايضًا اذا وخزنا رجل ضفدع بابرة مثلاً فانها ترفع رجلها لشعورها بالالم وتحاول التخلص من يد عدوها . فالحس هنا من النوع المعلوم . ولكن اذا قطعنا رأسها اي مركز الادراك فجسمها المقطوع الراس لا يزال يرفع رجلهُ الموخوزة ولكنهُ لا يحاول الهرب فالحس هنا من قبيل الفعل المنعكس فقط من دون علم . فبقطع الرأس في هذا الامتحان قد تحوّل الحس من نوع الى آخر . واكثر اعضائنا الباطنة تشتغل عادةً على غير علم منا فقلبنا يضرب سبعين ضربةً في الدقيقة من دون ان نشعر بهِ ومن دون ارادتنا بل غصبًا عنا ايضًا ولكن اذا فاجأنا انفعال ما ففي الحال نشعر بشدّة إحساسهِ . ونتنفس ايضًا من دون علمنا ومن دون ارادتنا ولكن اذا انتبهنا قليلاً نعلم انا نتنفس ونتنفس كما نريد . ومتى اكلنا فبعد ازدراد الاطعمة لا نعود نعلم بشيء مما يحدث فينا ومع ذلك فان حسنا لا ينقطع عن الانفعال بهذه المواد التي تتغيّر كيماويًّا وطبيعيًّا ثم تدخل في الدم وتصل الى ادق الدقائق التشريحية وتؤثر في حسّها . ففي هذه الدقائق الاولية الآلية العديدة جدًّا التي تتألف من مجاميعها الكائنات الحيَّة توجد

العلم مأذونًا بهِ في الدين فهو منصوص عنهُ وما كان غير منصوص عنهُ فلا حاجة لنا بهِ ومثلكم لا يسامح على مثل ذلك وانتم بجانب كعبة العلم وكيف كان الامر فلا بد في كل شيء من قصدٍ وفي كل قصدٍ من افادة او استفادة

## الحس وانواعهُ المختلفة (١)

منذ اهلال الطفل الى آخر نسمةٍ من حياتهِ يتنازعهُ عاملان متناقضان يولدهما جهازهُ العصبي وهما اللذَّة والالم والفرح والغم . فان الانسان لبلوغ حسّهِ الغاية في النموّ يشعر شعورًا لا يفوقهُ شعور بفعل كل العوامل المحيطة بهِ طبيعيًّا ومعنويًّا بل هو الوحيد في جنسهِ الذي يقابل القنوط بالرجاء واليأس بالامل ويتردَّد دائمًا في جميع أعمالهِ بين الاحجام والاقدام لشدّةٍ مرهوبةٍ أو لذّة مرغوبة .وهو عالم بموتهِ ينظر في مستقبلهِ بخلاف الحيوان الذي لا يدخل في حسبانه امر موتهِ ولا شيء من مستقبلهِ . على ان الحيوانات العليا كالكلب والثور مثلًا لها حسٌّ ولها ادراك أيضًا تميّز بهِ هذا الحس . وأما اذا تقهقرنا في سلَّم الحيوان فنرى صفة الحس تتناقص كلما صار التركيب أبسط حتى لا يعود الحيوان يحسُّ بألم ولو قطعت أعضاؤهُ تقطيعًا بل يصير تقطيعهُ واسطةً لنموّهِ اذ يصير كل جزءٍ مقطوع منهُ حيوانًا شبيهًا بهِ . وتحت الحيوان عالم النبات الذي أنكر عليهِ لينيوس الشهير الحس بقولهِ النباتات تنمو وتعيش والحيوانات تنمو وتعيش وتحسُّ . وذلك أشبه بما كان يذهب اليهِ ارسطو من أن جميع الكائنات الآلية ( الحيوان والنبات ) ذات نفس تختلف قواها باختلاف الكائنات . فكان يعتقد ان لنفس النبات قوّتين وهما النموّ والتوليد ولنفس الحيوان اربعًا وهي النموّ والتوليد والحس والحركة ولنفس الانسان خمسًا وهي الاربع المتقدّم ذكرها مع النفس أو العقل. ومهما يكن من قول لينيوس وارسطو فانكارنا الحس على ادنى النباتات يحسب خطأ كانكارنا اياهُ على الحيوانات العليا لانهُ موجود في اصغر النباتات كما انهُ موجود في اكمل

(١) نشر في مقتطف السنة الخامسة سنة ١٨٨٠

مناسبة الظروف لها على نسق واحد ابدًا اي على نسق النظام الذي صنعت بموجبهِ وهذا يقضي بأن تكون مستقلّةً في صفاتها و يقضي ايضاً بأن يكون لكل عضو حسب نوعهِ وظيفة ما وهذا يقضي بأن لا تكون موجودة اعضاء تُسمَّى اثريّة والحال انَّا كثيرًا ما نرى في الانواع أفرادًا تشذُّ عن القياس الطبيعي النوعي في بعض صفاتها ممّا يدل على ان بينها و بين الانواع الاخرى من جنس واحد ومن جنسٍ آخر ايضاً كما بين الحيوان والنبات نسبة تكوينيّة حتى يرى جلد معزًى في جلد انسان مثلاً وامثال ذلك كثيرة في التاريخ الطبيعي ونرى ايضاً اكثر من ذلك اذ يشذُّ احيانًا كثيرة المتولد عن قياس النوع ونرى ايضاً اعضاء يسمُّونها اثريّة لا وظيفة لها على ان الحكمة تقتضي ان تكون هذه الانواع المتضمنة منذ البدء في جراثيم خصوصيّة مستوفية الخلق محدودة الصفات في نوعها وذات اعضاء معلومة الوظائف في نفسها ولا يمكن خلاف ذلك اذ تفقد حينئذ اهمية هذا التقييد التكويني اي اهميّة الجراثيم فهذا ما اريد ان اوجّه اليهِ فكركم الآن ولعلّ في مثل هذا البحث اعظم وسيلة للوصول الى الغاية

هذا واني استغربت جدًّا قول حضرتكم « واما اذا اعتبر الدين فالايمان عندنا مقدَّم على العيان الخ » وعلى فرض صحة قول القائلين بالتولد الذاتي فأي ضرر من ذلك على الدين على ان بين موضوع بحثنا والدين فراسخ لانهُ كيف كانت نتيجتهُ سواءً كانت موافقة للنصوص الدينيَّة المألوفة او غير موافقة فلا تمسّ اهمية الدين بشيءٍ كما ان اكتشافات دوران الارض لم يؤثر بحركة شمس يشوع بن نون وكما ان الاعتقاد العميم بأن الله موجود في كل مكان لم يؤثر بأهمية القول . ابانا الذي في السماوات. وكما ان معرفة الفلكيين حقيقة السماوات وانها لم تعد قبةً زرقاءَ مرفوعة فوق الارض بل هي مجالٌ فسيحٌ تسبح فيهِ الاجرام السماويَّة ومنها ارضنا هذه لم يغيّر شيئاً من قول موسى عليهِ السلام وخلق الله الجلد فاصلاً بين المياه تحت الجلد والمياه فوق الجلد وغير ذلك من المسائل التي رفض العالم الديني البحث فيها اولاً زعماً منهُ انها تمس الدين واخيرًا قبلها كحقيقة راهنة قبل غيرهِ ولعلَّ الآفة في ذلك وما يجري مجراهُ سبق الاقتناع ولو صح ما تقولون لاكتفى الانسان عن السعي في سبيل العلم بالقول ان كان ما يأتينا بهِ

الامتحانات عن اظهار حقيقة وجودها وان قلتم كلاً بل النتيجة في ذلك متوقفة على تنقية الهواء وعدمها قلت ان ذلك لم يذكر هناك فضلاً عن انهم لم يتفقوا على اية درجة تحصل هذه التنقية فيهِ وان اتفقوا على مبدأها وطالما الاعتراض مقبول لا يمكن الحكم لفريق دون آخر . ولقد عدلتم كل العدل بايرادكم اقوال الطرفين ومبادىء امتحاناتهما المتفقين عليها ونتائجهما المختلفين فيها من هذا القبيل فنكتفي بها هناك عما يحسب ذكرهُ هنا اعادة ونقتصر على ذكر ما يمكن استخلاصهُ من كل هذه المحاورات الطويلة والامتحانات الدقيقة وغاية ما هناك ان اقوال كلٍّ من الطرفين ذات قيمة واحدة والنتيجة من كل ذلك سلبية لغاية الآن اي لا تؤيد مذهباً ولا تنقض آخر فلا وجهَ لحاكم بينهما بالعدل ان يبشر بفوز احدهما ان لم يكن لهُ اسباب وادلة اخرى توجب لهُ ترجيح القول وان قلتم ان الاستظهار الذي اشرتم اليهِ سابقاً مسند الى امتحانات الدكتور تندل كما ذكرتم اخيرًا قلت انها لم تسلم من الاعتراض وقد ذكرتم حضرتكم بعض اوجه عللها وكنت اترقب ادلة اخرى من غير هذا الباب لانهُ طالما بقي البحث محصورًا في دائرة الامتحان على تولد البكتاريا مع ما فيهِ من الصعوبة الواضحة التي توجد لكل خصم حجتهُ ولم يساعد بمراقبات اخرى طبيعيَّة ربما اشتغل الفريقان زمانًا اطول مما يظن ولم يأتيا على نتيجة واحدة . لانهُ لو سُلم بأن السوائل الممتحنة الموضوعة ضمن اوعية زجاجية محكمة السد بالصهر هي منفصلة بهوائها عن الهواء الخارجي لا يزال في المسئلة صعوبتان كليتان احداهما . صلاحية الهواء الداخلي للحيوة الذاتية . والثانية . درجة اماتة الجراثيم بالحرارة . ومهما قيل في ذلك فما يدعيهِ الواحد بحجة ينكرهُ عليهِ الآخر بحجة ايضاً وكلاهما يدَّعي الفوز لهُ ولا نتيجة مرضية من كل ذلك فلا بدَّ للوصول الى نتيجة واحدة من النظر في هذه المسئلة من وجه آخر وبما ان حضرتكم استخلصتم بذكر فكركم بالترجيح بين القولين جاز لي ايضاً ان اذكر فكري من هذا القبيل بعد ان وضح ان لا نتيجة مرضية من كل ما تقدم فأقول

ان مذهب الجراثيم ام الانواع يقضي بالجزم بوجودها منذ البدء وهذا يقضي بأن تكون محصورة العدد لا تزيد ولا تنقص ويقضي ايضاً بأن تفعل هذه الجراثيم عند

## الحيرة علة البحث (١)

ما احسن قولكم الحيوة حيرة العلماء — والحيرة هي سبب البحث وهو علة العلم ولولاهما ربما لا ينسى الانسان شيئاً ولكنهُ بكل تأكيدٍ لا يتعلم شيئاً

قد اطلعت على ما اتيتم بهِ من الافادة . اما قولكم وظاهر الاعتراض انهُ حاصل من توهم الانقطاع بمعنى الانتزاع وهو خلاف المقصود الخ . فيوهم بانهُ اذا ارتفع هذا الوهم سقط الخلاف والحال كلاَّ . ولو جاز لي ان اتوهم ذلك من كلامكم لما جاز لي ان اتوهمهُ فيكم ولا ان اراجعكم في مسئلةٍ ترجع حينئذٍ الى ابسط مباديء الكيميا والفيسيولوجيا بل كنت متيقناً ان الكلام محتاجٌ الى بيانٍ آخر وقد اشرت الى ذلك بقولي . ولعلَّ لهُ او لغيرهِ ادلة اخرى الخ . والانقطاع في هذا المقام اعم مما تقولونه حضرتكم فهو لا يستلزم بقاء المنقطع في المنقطع عنهُ ولاسيما اذا كان الكلام علمياً عاماً تعتبر فيهِ المواد والعناصر كأنها مستقلة فيفهم منهُ الفصل ايضاً .وسواء كان هذا المعنى محتملاً او غير محتملٍ فهو ليس المقصود ولا يغير شيئاً من مركز العبارة ولا من قيمة النتيجة لان قولكم وهو بمقام الدليل « ولو انقطع الهواء عن التراكيب المشار اليها لبقيت كل ايامها خاليةً من اثر الحيوة » لا يفهم منهُ مرادكم اذ مرادكم بالتراكيب المشار اليها التراكيب المنقطع عنها الهواء الخارجي والتي ماتت جراثيمها وهو غير مذكور ولو كان مذكوراً لارتفع كل لبسٍ في فهم المقصود . ولا يرتفع هذا الالتباس بالنظر الى اصلاح معنى لفظة انقطاع كما اسلفتم لانهُ اذا كان المراد بانقطاع الهواء عن المركبات عدم وصول الهواء الخارجي اليها مع بقاء هوائها المتخلل فيها فالمسئلة لا تزيد وضوحاً . أليس الهواء المتخلل تلك المركبات والمنفصل عن الهواء الخارجي هواء ايضاً مركباً من مزيج قاعدتهُ الحيوية الاكسيجين واذا كان كذلك فلماذا لا يصلح هو نفسهُ لان يولد حيوةً كما يصلح لان يحفظ حيوة حتى تتكلف لمساعدتهِ جراثيم وبزوراً عجزت اقصى

(١) نشرت في مقتطف السنة الثالثة رداً على مقال لهُ تحت عنوان الحياة حيرة العلماء سنة ١٨٧٨

## استفهام (١)

حضرة منشئي المقتطف الفاضلين

قرأت في الجزء الاوَّل من السنة الثالثة من المقتطف المفيد كلاماً وجيزاً في ما خص الحيوة وهل هي من الظواهر الذاتيَّة الطبيعيَّة الخاضعة لنواميس الطبيعة في مبدإها ومبدإ الانواع الحيَّة ام هي خَلق خالقٍ رسم صورة كل نوعٍ واودعها في جرثومة خصوصيَّة وقد اشرتم فيهِ الى الاختلاف الكائن بين جمهور العلماء من هذا القبيل وتعسُّف بعضهم ثم قلتم ان هذه المسئلة قاربت النهاية وان الحزب القائل بخلق البزور او الجراثيم على انواعها دفعةً واحدة في باديء الخلق قد استظهر على سواهُ بناءً على تجارب احد فطاحلِ العلاَّمة تندل الشهير وقد راسل بها العلاَّمة هكسلي يصفها لهُ كما في الجرائد ويعلمهُ ان الحيوانات التي زعم الخصم بتولدها من نفسها اتت من الهواء المنتشرة فيهِ بزورها ولو انقطع الهواء عن التراكيب التي يزعم هذا الخصم ان الحيوة تتولَّد فيها لبقيت كل ايامها خاليةً من اثر الحيوة ومن عبارتكم يظهر ان كل دليلهِ قائم على انقطاع الهواء عن تلك التراكيب وهو كلام منقوض لا يبنى عليهِ حكم كما لا يخفى حضرتكم لانهُ هل يمكن ظهور حيوةٍ او حفظ حيوة ظاهرة اذا امتنع الهواء واذا كان لا يمكن فلماذا نتوهم السبب في عدم وصول البزور المزعوم بها الى هذه التراكيب وليس في انقطاع الهواء نفسهِ عنها طالما نعرف جيداً ان لا حيوة حيث لا هواء على ان العلاَّمة المذكور لم يكن ليعتمد على مثل هذا الدليل ولعلَّ لهُ او لغيرهِ ادلة اخرى علميَّة قاطعة لا تنقض حتى زعم بفوزهِ وفوز اصحابهِ. فنرجو من حضرتكم على ما عودتم قراءكم من الارشاد والافادة ان تفيدونا اذا امكن في مقتطفكم عن حقيقة هذا الامر الذي يهمُّ العلم جدًّا لما يتوقف عليهِ من الامور الكليَّة في سيرهِ جزاكم الله خيراً ولكم الفضل

(١) نشر في مقتطف السنة الثالثة سنة ١٨٧٨

# ملحق

في

# مباحث في الحياة

لتأييد

# الرأي المادي فيها

من

سنة ١٨٧٨

فلأن الطفرة في كل شيء محال فدخول العلوم الى بلادنا حديث العهد جداً ولا يخفى ما يلزم للقيام بمثل هذه الامور العظيمة من الاستعداد في النفس والتفرغ للعمل وغير ذلك من المعدات والآلات مما لا ينال الاّ بالمال الذي لا يحصل عليهِ الاّ بانضمام القلوب وانعقاد الهمم حتى ننتقل من صف الخلميات الى مراتب البشر وتصير لنا ذاتية مستقلة نعرف بها وهذا يحتاج الى الغيرة الوطنية . واني بكل اسف اقول ان تربية هذه المزية فينا لا يزال يلزم لها زمان طويل حتى تقوى . على ان ثروتنا مجتمعة هي دون ذلك بكثير فكيف بنا واغنياؤنا القادرون لاهون وافرادنا المشتغلون بالعلم قليلون وهم بسلاسل العسر مكبلون الاّ اننا ببحثنا في اعمال غيرنا على ما في امكاننا نمهد السبيل لاولادنا فيأتون من بعدنا وبهم في النفس قوة وفي العقل استعداد أعظم من قوتنا واستعدادنا فيتولون القيام بهذه الاعمال العظيمة بانفسهم وتتحقق بهم امانينا التي تصير بهم آمالاً تنال واعمالاً تتسابق في مضمارها همم الرجال . انتهى [1]

(١) قال البروفسور موريس غليري في خطبتهِ الافتتاحية في (السوربون) في فرنسا المنشورة في جريدة العلم الفرنساوية بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ ما نصهُ (واني لا أسف جداً ان ليس في امكاني ان اضع تحت نظركم لزيادة البيان كل ما يلزم من الأدلة المتوفرة في (فنبورت) في كولد سبرين هربور) او في (برزيبرام في فينا) انم معهدين حتى اليوم في العلوم التحولية لاننا لا نزال ننتظر (كرنجينا) يشير الى كرنجي المحسن الاعظم) انتهى . فاذا كانوا اليوم في فرنسا لا يزالون يقولون مثل هذا القول افلا يكون قولي السابق وقد قيل منذ ٢٥ سنة احق بان يقال فينا امس واليوم وغداً ايضاً . ولعل بعض الهازلين وذويهم في ذلك الحين يخجلون اليوم من انفسهم لانتقادهم عليَّ مثل هذا الكلام ولكن السخافة في رؤوس السخفاء في كل مكان وزمان ليس لها حد .

افعال معينة تضاف الى القوى الطبيعية لا انها تعرض على المادة فتبطل فعل هذه القوى منها وعليهِ فان كان المراد بمذهب النشوء تولد حي من لا حي بفعل القوى الطبيعية المنتشرة في العالم فهذا يصعب نقضهُ وهو كائن بالبروتو بلاسما والاّ فان كان المراد بهِ حصول التولد الذاتي اليوم فربما لم يكن ذلك ممتنعاً الاّ انهُ غير ضروري لمذهب النشوء . واما بعد ذلك فكوفيه صاحب ثبوت الانواع وهكسلي صاحب تغيرها الى ما لاحدّ لهُ يلتقيان عند هذه النقطة وهي « كل حي من حي» وتوجد اليوم ايضاً في البحار والمياه العذبة حتى الارض الندية كائنات بسيطة تعد من اقرب الصور الحية الى الصور الاصلية كالمونير والباثيبيوس والبروتو باسيبيوس واشباهها . على ان الآراء في التولد الذاتي مهما اختلفت فانها متفقة على حصول ذلك بقوى الطبيعة أي بالنشوء كما تكونت سائر العوالم بالنشوء ايضاً والعقل لا يأبى ذلك ولا سيما بعد ان مهد العلم لهُ سبيل القول بوحدة الكون بما قرّرهُ من الارتباط بين العوالم ولا يرى فيهِ ما يحط بشأن الخالق عند المؤمن خلافاً لما يظن ان كل ما خالف ما قام في مخيلتهِ هو جهل و بطلان وضلال و بهتان وهذه دعوى لا يقولها الا مثلُ من لايرى العلم الاَّ في تخريفهِ. سئل احد كبار العلماء والفلاسفة المؤمنين ما قولك في مذهب دارون وكيف نصنع معهُ بخلق الانواع فقال « اذا كان الذي يصنع ساعة يعد عظيماً فلا شك ان الذي يصنع ساعة تصنع ساعة يكون اعظم ايضاً » انتهى

## الخاتمة

### ( المال للعمل كالعلم للعقل )

هذا ولا شك ان البحث احسن الذرائع للوقوف على الحقائق لكن لما كنا غير قادرين على تحري كثير من المسائل العلمية بامتحانات نعيدها واكتشافات نبديها كان علينا ان نجدّ للبحث في اعمال غيرنا ممن توفر لهم ذلك والاستنتاج بحسب ما ترشدنا اليهِ افهامنا . واذا كنا قاصرين عن تولي امر كثير من هذه المباحث بانفسنا

بها الجواهر الفردة ابدية ازلية لا تقبل القسمة ومعلوم ان الجواهر الفردة كالحلقات الزوبعية المنتشرة في السائل المتكونة فيهِ حركات في هذا السائل لا انها اجزاؤهُ نفسها فذاتيتها قائمة بهذه الحركات . الاَّ انهُ لا يعلم اذا كانت اجزاء الهيولى التي تؤلف الجوهر الفرد لا تجدد دائماً لان هذه الاجزاء لا تظهر لنا الا بعد دخولها في الزوبعة فاذا كان ذلك كذلك فالاجسام لا توجد الاَّ بنوع من التغذية شبيه بما يحصل بالبروتوبلاسما

ومهما يكن من ذلك فاننا نرى بهذا المثل ان الحركة في الهيولى تولد ذواتاً حقيقية ثابتة يفعل بعضها في بعض متغيرة الى ما لا حدّ لهُ بدون ان تفقد استقلالها مظهرة بدوام نوع اهتزازاتها انها تحفظ نوعاً من الذكرى لما يؤثر فيها. نعم ان ذلك ليس الحياة كما يراد بها الاَّ ان معرفتنا بان صور الحركة كلما تركبت واختلطت كونت اجساماً تقترب اكثر فاكثر من الاحياء لا تكون بدون فائدة . لنفرض ان حركات متشابهة او مختلطة تتناول بعض الزوابع المتكونة في الهيولى وتركبها عوضاً عن ان تتناول الهيولى نفسها فان هذه الزوابع لا تبقى على حالها لان اشتراك الحركات حينئذ لا يحدث عنهُ نفس الحركات أي انهُ لا يتولد عن تركب الزوابع او الجواهر نفس هذه الجواهر بل ينشأ عنها كائنات اخرى مختلفة عن الدقائق التي تؤلفها ذات حجوم معينة على الدوام بدون ان تفقد جوهرها حافظة فيها نوعاً من الذكرى للتأثيرات السابقة الطارئة عليها أي انهُ ينشأ عنها انواع البروتوبلاسما

فاذا كانت انواع البروتوبلاسما قد تكونت من هذه الحركة في اول الامر كما تكونت العناصر فربما لم يكن تكونها كيماويًّا او بفعل الطبيعة ممكناً اليوم كعدم امكان ذلك في العناصر وربما كانت انواعها المتولدة في هذا الطور متعددة كما ان العناصر متعددة . الا ان ذلك لا يجعل الحياة من مصدر آخر غير مصدر القوى الطبيعية . فالحياة كسائر القوى نوع من الحركة وبهذا الاعتبار يجوز ان يقال قوة حيوية كما يقال الفة كيماوية الاَّ انها غير القوة الحيوية للحيويين . فهي هنا خلافاً لتلك كسائر انواع الحركة خاضعة لناموس الميكانيكيات وهي للبروتوبلاسما كالالفة للمعادن ذات

ثبات تركيبها . واذا اعتبرنا ان اقرب المركبات المذكورة الى البروتوبلاسما ما كان منها اقل ثباتاً من غيرهِ جاز لنا حينئذ ان نعتبر مثل هذه المركبات الفاقدة كل ثبات الحلقة المتوسطة بين الجماد والحي فانها تختلف عن الجماد بعدم ثباتها وعن الحي بعدم اقتدارها على استرداد تركيبها مع هذا التغير بخلاف البروتوبلاسما كما تقدم فان تركيبها الكيماوي يتغير على الدوام مع بقاء صفاتها الحية كأنها الزوابع التي تتكوَّن في مجاري المياه وفي البحار فانها تحفظ ذاتيها زماناً طويلاً مع تغير دقائقها دائماً وقد انتبه الفيزيولوجيون الى هذه المشابهة منذ زمان طويل فكوفيه شبه الحي بهذه الحلقات الزوبعية وهكسلي يشبههُ بها كذلك اشارة الى بقاء الحي على صورتهِ مع تجدد اجزائهِ . وصحة هذا التشبيه اكثر ظهوراً في البروتوبلاسما نظراً لبساطتها بالنسبة الى الحي المركب من اعضاء وانسجة مختلفة فليس في مادتها سوى تركيب كيماوي فقط وهي مع ذلك مقر لحركة خاصة تتناول من الخارج دقائق تحفظها في جوهر مادتها مدة معلومة ثم تنبذها وتأخذ غيرها وهكذا كما تفعل الحلقات الزوبعية المذكورة وبهذه الحركة تمتاز حقيقة البروتوبلاسما الحية عن المواد الالبيومينية وسائر المركبات الكيماوية فالحياة البروتوبلاسما نفسها بل الحركة التي تحركها

بقي علينا ان نعرف طبيعة هذه الحركة فقد تقدم ان الطبيعيين والكيماويين كانوا في اوائل هذا القرن يحسبون القوى انيات مستقلاً بعضها عن بعض ثم تحققوا بعد البحث انها ليست سوى استحالات قوة واحدة هي الحركة . وجواهر المادة كما يتحصل من مباحث طمسن التي مال اليها مشاهير علماء الكيمياء كورتز وغيرهِ ليست سوى زوابع في الهيولى وجميع ظواهر الجاذبية والالفة ناشئة عن استحالات الحركة وكل شكل من الحركة يولد نظيرهُ فاذا صدم جسمٌ جسماً آخر تحرك الجسم المصطدم بحركة الجسم الصادم فالجسم السخن يسخن الاجسام التي حولهُ والمنير ينيرها والمكهرب يكهربها وتحويل هذه القوى بعضها الى بعض لا يخفى على اهل العلم ولا يخفى عليهم ان هذه الحركات كلما تركبت عسر تحويلها ويعلمون كذلك ان هذه الحركات لا تتلاشى . وقد تحقق بالبرهان كما بيَّن هلمهلتز وطمسن ان الحلقات الزوبعية التي يشبهون

البروتو بلاسما تجانسها وقال ربما كان عدم تحققنا تعضيها ناشئاً عن ضعف الآلات البصرية المكبرة لا عن عدم الشيء بنفسه. فالجواب على ذلك ربما لم يكن صعباً وهو: لا يخفى ان العين المجردة تبصر اشياء ليس لها من الغلظ سوى جزء من مائة جزء من المليمتر قطراً كوبر الجلد وخيطان بعض انواع الرتيلاء واقوى ما لنا من المناظير يرينا اشياء اصغر من ذلك بالفي مرة أي مما قطره ليس الا جزءًا من مائتي جزء من الالف او خمسة ملايين جزء من المليمتر فاذا أمكن معرفة المسافات التي تفصل بين دقائق الاجسام ومعرفة كبر هذه الدقائق هان علينا حل هذه المسألة

وقد توصلوا الى ذلك بطرق مختلفة فاوشميدت عين قطر الدقائق من النسبة بين كثافة غاز وسائله الناتج عن تكثفه. ووندرولس من الفرق بين قابلية الغازات الحقيقية للانضغاط وقابليتها النظرية لذلك كما في ناموس مريوط. وطمسن من درس طبيعة النور في ابواق الصابون. وكلهم اتصلوا بهذه الطرق الى نتائج تكاد تكون واحدة [١] ولا يفرق بعضها عن بعض الا بكسر من المليون من المليمتر وذلك اقل قليلاً من حجم اصغر الاجزاء المنظورة باقوى تكبير ميكرسكوبي. ثم ان المواد الالبيومينية [٢] تعتبر باجماع الكيماويين من المركبات التي دقائقها ذات حجم من اكبر الحجوم فلو كانت هذه الدقائق مركبة فيها تركيباً مختلطاً كالانسجة التشريحية لما خفي ذلك علينا. وبما ان البروتو بلاسما تعتبر في طبعها كالمواد المذكورة كانت تعتبر متجانسة نظيرها طالما لا يعرف عنها ما ينقض ذلك. ثم ان كان المراد بالتعضي ترتيب اجزاء متماثلة او مختلفة ترتيباً خاصاً معيناً فالاولى ان يطلق على المركبات الاخرى الكيماوية لا على البروتو بلاسما فان دقائق تلك المركبات مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً شديداً يجعلها اثبت من البروتو بلاسما المتغيرة على الدوام والتي تمتاز عن سواها من المركبات بعدم

(١) المباحث المتعلقة بذلك مبسوطة جيداً في كتاب الرأي الجوهري للعلامة ادولف ورتز الكيماوي الشهير صفحة ٢٢٤

(٢) تركيب الالبيومن حسب ليبركهن من كربون ٢٤٠ هيدروجين ٣٩٢ ازوت ٧٥ اكسجين ٧٥ كبريت ٣ اي ان كل دقيقة من الالبيومن مؤلفة من ٧٨٥ جوهراً فرداً من عناصر مختلفة

كهربائية او غيرها . فليس في ما تقدم ما ينتقض بهِ اصل البروتوبلاسما الكيماوي وتولدها الذاتي . وعدم امكان تركيبها كيماويًا حتى الآن لا يفيد شيئًا كذلك ضد هذا الاصل لان المواد الزلالية تعتبر كسائر المركبات الكيماوية مع ان الكيمياء لم يتيسر لها تركيبها للآن الاَّ انهُ لا يقطع باستحالة ذلك عليها بناء على ما تم لها تركيبهُ بالكيمياء النموذجية وربما لا يطول الامر حتى يتم لها ذلك . الأَّ ان البروتوبلاسما وان كانت مركبة كسائر المواد الالبيومينية فهي تختلف عنها اختلافًا كبيرًا لانها عرضة لتغير سريع مع حفظ تركيبها كما هو . بخلاف هذه المركبات فان تركيبها الكيماوي لا يعود لها ولو لم يتغير الاَّ قليلاً أي انها تمتاز عنها بالتغذية . وهي ليست قائمة بنمو بسيط والا لم يكن فرق بينها و بين البلورات فان البلورة اذا وضعت في سائل مشبع من محلول مادتها تنمو كذلك وتشبه في نموها نمو البروتوبلاسما شبهًا ظاهريًا ولكن عند تدقيق النظر يرى ان هذا النمو فيها يتم على نوعين مختلفين فالبلورة انما تنمو بجذب دقائق تركيبها الكيماوي كتركيبها و بوضعها على سطحها وأما البروتوبلاسما فتجذب اليها غالبًا مواد مختلفة عنها فتحلها ممثلة بعضها ونابذة البعض الآخر ومتغيرة في حدود معلومة تغيرات كلية . فان تركيبها التشريحي والكيماوي يظهر انهُ واحد في جميع بيوض الحيوان وهي مع ذلك تولد هنا اسفنجًا وهناك سمكة ومرة ضفدعًا واخرى حيوانًا آخر وتمتاز عن البلورات كذلك بنموها المحدود فان البلورة لا حدّ لنمو حجمها بخلاف البروتوبلاسما فكل كتلة بلغت منها بعض اعشار الميليمتر تنقسم من ذاتها الى كتلتين او اكثر وتؤلف الجسيمات الصغيرة المعروفة بالخليات . فلو لم يكن في البروتوبلاسما قوة تفعل في ظاهرها كما تفعل في باطنها لم يكن مثل هذا الانقسام والتغير والتحديد فيها ممكنًا ولكان نموها لا يفرق عن نمو البلورات . فالبروتوبلاسما تختلف اذًا عن سائر المركبات الكيماوية من حيث اختصاصها بالتغذية والنمو والانقسام والتوالد اختلافًا كبيرًا و بهذه الخصائص تختلف ايضًا عن المواد الزلالية . ولذلك ربما لم تستطع الكيمياء خلق الحياة وان استطاعت اصطناع اشد المواد الزلالية اختلاطًا ولا سيما اذا صح ان البروتوبلاسما متجانسة . على ان من يذهب الى ان الحياة نتيجة التعضي ربما انكر على

لولا ان دوجاردن الطبيعي الفرنسوي بين ان في الحيوان مادة مؤلفة من حبيبات متجانسة اطلق عليها اسم السركود ثم عرف النباتيون وجود مادة في خليات النبات شبيهة بالسركود وسماها فون موهل بروتوبلاسما وقد بين المشرح الالماني مكس شلتز وحدة السركود والبروتوبلاسما ثم تغلب اسم البروتوبلاسما في العلم لما في معناهُ من المناسبة اذ معناهُ — المكون الاول —

ثم علم من التشريح انجوهر الحياة غير قائم بالانسجة والاجهزة وما اشبه لانها غير لازمة لها وان تكن مما يؤثر فيها بل في هذه البروتوبلاسما العرية عن كل صورة وعن كل بناءٍ معين فهي لا جامد ولا سائل بل بينهما متجانسة كزلال البيض ومركبة مثلهُ من كربون وهيدروجين وازوت واكسجين وقليل من الكبريت ومواد أخرى معدنية . وهذا الامر مهم جدًّا فان المادة الحية ليست بسيطة بل مركبة من عناصر كيماوية بمقادير معينةوزد على ذلك انها شبيهة بصنف من المركبات يعرف بالمركبات الزلالية وهذه لا شيء يحملنا على اعتبارها من طبيعة غير طبيعة سائر المركبات الكيماوية الاعتياديه . ومن ثم يعرض لنا سؤال مهم وهو هل يستطاع توليد البروتوبلاسما ومن ثم خلق الحياة كيماويًّا . ويجب التميز بين توليد البروتوبلاسما كيماويًّا والتولد الذاتي كما يفهم عادة فليس المراد هنا توليد احياءٍ مركبة وان كانت صغيرة جدًّا ولا تكوين عنصر تشريحي مهما كان بسيطاً وما يطلب من الكيماوي ان يصنعهُ انما هو هذه المادة المتجانسة البسيطة التي يظهر ان الحياة كائنة فيها . وفي باديء الرأي لايظهر هذا الامر غريباً لان امتحانات باستور لا تطلق على البروتوبلاسما الحرة العرية عن كل صورة والخالصة من كل صفة موروثة فيها ولكن على الخمير وانواع النقاعيات وهي اجسام حية مركبة ذات تكوين معين وصفات قديمة موروثة أي على الاحياء لا على المادة الحية نفسها . أما هذه المادة فغاية ما يعلم ان المركبات الكيماوية التي تنحل هي اليها بعد فقدها الحياة لا تستطيع ان تركبها من نفسها . وهذا ليس خاصاً بها وحدها بل يطلق على سائر المركبات الكيماوية فان الماءَ اذا انحلّ الى عنصريهِ الاكسجين والهيدروجين فعنصراهُ لا يتحدان ولا يركبان ماءً ان لم يلهبا بشررة

الكيماوية بدون استعداد سابق فيها . ومثل هذا الحي يعتبر جسماً مركباً مختلطاً بعيداً جدًّا عما تستطيع التفاعلات المذكورة ان تعملهُ . ولا يصح في مذهب الخلق كذلك اولاً لان التعويض عن الانواع المنقرضة يستلزم خلقاً متعاقباً والاَّ تلاشت الانواع مع الزمان وذلك كما تقدم لا يعلم وثانياً لانك ترى ان الخالق سلك في الخلق على نظام معلوم فهو لم يخلق العوالم كما هي الآن بل قسم الخلق الى اطوار . فاما ان يكون قادراً ولم يفعل وإما ان يكون مثل هذا الخلق ممتنعاً فخلق كل طورٍ اعداديًّا لما بعدهُ لتوقف صور المادة على وجود المادة اولاً ولتوقف الحياة على الصور الصالحة لها كذلك وفي كلا الامرين لا بدّ من مراعاة نظام معلوم ربما جازت تسميتهُ اقتصاديًّا في الاول ويسمى ضروريًّا في الثاني . وقد تقرر ان هذا النظام مطَّرد في سائر العلوم الطبيعية فالسماءِ وكواكبها والارض وطبقاتها انما تكونت بالنشوء بعضها من بعض بقوى موجودة فيها . فلماذا لا يكون كذلك في العلوم البيولوجية أي لماذا لا يكون سلوك الخالق في خلق الحياة كسلوكهِ في سائر الخلق وأي دليل على انهُ خالف هذا النظام وهل تنقص الحكمة بذلك . فلا بدّ اذاً في الخلق كما في النشوء من تكون المادة الحية من الجماد اولاً قبل الحي وهنا نقطة ملتقى الماديين بالالهيين . فاذا اردنا الكلام على نشوء الحياة وجب علينا والحالة هذه ان نبحث عنهُ لا في الحي نفسهِ مهما كان بسيطاً بل في هذه المادة الحية التي يتألف منها الحي لنعلم اذا كان مثل هذه المادة ممكناً لها ان تتكون من الجماد رأساً وان تكون ذات حياة ايضاً

---

## الفصل الثالث

( في المادة الحية او البروتوبلاسما )

اول من قال بمادة اولى حية الفيلسوف الالماني اوكن وسماها اورشليم من الالمانية وقولهُ بها كان من باب الفرض وكاد قولهُ يضعف لمناقضة الميكروغرافي أهرنبرغ لهُ

فيها بتعليل شافٍ . ولا يخفى ان الحل الطيفي الذي استطعنا بواسطتهِ ان نعلم تركيب الكواكب الكيماويّ أرانا ان هذه الكواكب متكونة من نفس المواد المتكون منها سيارنا فالصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والاكسجين والكربون والكلسيوم والحديد والتلوريوم والبزموث والانتيمون والزئبق الخ موجودة هناك كما هي موجودة هنا . وقد علم كذلك من فحص الحجار الجوية ان هذه الاجسام تحد هناك كما تحد في ارضنا فلا بدّ اذا من ان تكون الاحياء الاول قد تكوّنت فيها من مواد جامدة شبيهة بموادنا . فوالحالة هذه ما الفائدة من الزعم بان ارضنا انما اتتها الحياة من كوكب اصطدم بها في مروره في الفضاء اذ لا بدّ من الاقرار في كل الاحوال بان التعضي قد وقع في المادة في أحد نجوم نظامنا الشمسي فمن العبث اذًا الاصرار على انكار نشوء الحياة في الارض » انتهى والذي ارتأى أولاً ان جراثيم الاجسام الحية وقعت مع الرجم هو السر وليم طمسن الانكليزي . ومنذ مدة خطب بعضهم خطبة طويلة في تكوُّن البرَد وقال انهُ يتكون من بخار موجود في الخلاء الذي بين الاجرام السموية فما اتم الخطبة حتى وقف السر وليم طمسن وقال اظن الخطيب يمزح في ما يقول لانهُ لو فرضنا تكون البرَد في تلك الاعالي لذاب قبل ان بلغ الارض بملايين من الاميال . ولما جلس قام اللورد ريلي وقال أنا أعرف رجلاً ارتأى رأيًا أغرب من هذا وهو ان بزور الاحياء هبطت على الارض من السماء . فقال السر وليم طمسن انا لم احتم بصحة ذلك بل قلت بامكانهِ وبانهُ لا يمكن ان يقام دليل على فسادهِ

واذا تقرر ذلك وعلمنا بهِ ما بين الاحياء من الارتباط لا يبقى علينا الاَّ النظر الى الاصل الاول الذي تفرَّع منهُ عالم الاحياء أتكوّن بفعل خلق خاصّ ام نشأ ذاتيًّا — ويراد بالنشوء الذاتي نشوء الحياة من المادة بقوةٍ فيها — ونفي الخلق الخاص لا يلزم منه نفي الخلق الكلي ثم ما ذا كان هذا الاصل . وفي كلام النشوء والخلق لا بدّ ان يكون هذا الاصل إما حيًّا كاملاً مؤلفًا من اعضاء مختلفة او مادة حية يتألف منها الحي . ففي مذهب النشوء لا يصح ان يكون حيًّا كاملاً لان ذلك يقتضي ان يكون هذا الحي قد تكون من المادة وقواها رأسًا بتفاعلات شبيهة بالتفاعلات

الحيوانات العليا خاصة من غير ابوين . ولا يخفى كيف ان تعب بوشه وجولي وموست وبستيان وغيرهم لتوليد الاحياء الدنيا ذاتيًّا قد ذهب سدًى وكيف ان باستور قد بيَّن استحالة ذلك في الاحياء الميكروسكوبية فمن يصدق بهِ يا ترى في الاحياء العليا واستعمال لفظة الخلق عوضًا عن التولد الذاتي لا يزيل الصعوبة لان الارادة الخالقة لا تظهر لنا الاَّ بافعالها والعلم لا يستطيع أن يصعد الى تحقق ما وراء هذه الافعال فالخلق عندهُ باعتبار التعريف كالتولد الذاتي اي نشوء حيٍّ من لا حيٍّ ولا بدّ من حدوث ذلك في يوم معين ومكان معلوم فما قولك في من يقول — اني في يوم كذا وساعة كذا ومكان كذا رأيت اسدًا أو فيلاً نشأ وشبّ من الارض وهل يصدقهُ احد — فالعقل لا يجسر أن يقول بالتولد الذاتي الاَّ بعد ان يسميهُ خلقًا . ولا بالخلق الاَّ بعد ان يؤخرهُ الى زمان تحسب معهُ الازمنة الميتولوجية كامس . فكيف يكون اذًا هذا التعويض عن الانواع المنقرضة ان لم يكن بالتولد الذاتي في الاحياء العليا كما ذهب اليهِ ليل لانهُ والحالة هذه اصعب من الخلق. ولا بالخلق المتعاقب لان انقراض الانواع كما يعلم حادث بالتدريج فالتعويض عنها يقتضي أن يكون بالتدريج كذلك وليس في ما يعلم ما يؤيد بهِ مثل هذا التعويض فلم يبق الاَّ أن يكون بتحول الاحياء وتكوُّن الانواع بهذا التحول كما مرَّ في الكلام على مذهب دارون . ولو لم يكن في هذا المذهب سوى ايضاح هذه القضية ايضاحاً شافيًا لكفى بهِ فائدة للعلم

قال بلانشار من مقالة في اصل الحياة في جريدة العلم الفرنسوية بتاريخ ٧ شباط سنة ١٨٨٥ ما يأتي :

« على ان بعض الفلاسفة يذهبون الى ان الارض التي كانت في البدء قاحلة وغير مسكونة انما عرضت فيها الحياة مما اتاها من الجراثيم من بعض الكواكب المصطدمة بها وهو قول محتمل الاَّ انهُ غير مقنع ويظهر لنا انهُ لا يحل المسألة وانما يزيدها ارتباكاً فان لم تكن الحياة قد ظهرت على الارض ذاتيًّا بفعل احوال طبيعية وكماوية فيلزم ان تكون قد ظهرت ابتداءً على احد كواكب نظامنا الشمسي وخصوم التولد الذاتي الذين يتعلقون بحبال هذا التعليل كالملجا الاخير لهم انما يبعدون حل هذه المسألة ولا يأتون

هذا القول وان كان معقولاً يرد عليهِ اليوم اعتراضات كثيرة يصعب دفعها وهو وان صحّ لا يفيد شيئاً في اثبات النشوء الذاتي من الجماد رأساً لانهُ انما هو كائن في الاحياء وواقع تحت فعل الحياة نفسها فلا بدّ لنا اذاً من تدقيق النظر في هذا الموضوع من وجه آخر فنقول :

ذكرت النشرة الاسبوعية في العدد ٩٧ من السنة الماضية انقراض جيل من الناس من اعظم الاجيال كان يعرف بالغنش وموطنهُ الاصلي جزائر كناري قالت وكانت علة انقراضهِ ما مني من الاوبئة والعبودية وجور السبانيين في القرن السادس عشر. اه. وذكر الطبيعيون كذلك انقراض كثير من انواع الحيوان منذ التاريخ فالدينورنيس انقرض في زيلاندة الجديدة والابيورنيس في مدكسكر والدرنت وعدة انواع من السلاحف في جزائر سكارينا وقد قلّ الارخس في اوربا كثيراً وبعض انواع البال انقرض من بحارنا والابتريكوس والستريكبس يقلاّن بسرعة في زيلاندة الجديدة [1] وانقرض كذلك اجيال كثيرة من البشر غير من ذكر وذكروا اسباب ذلك ايضاً وليس في ما ذكروهُ منها شيء فائق الطبيعة ولما كان يعلم ان العصر الحالي لا يختلف عن العصور السالفة كان انقراض الاجيال الاحفورية القديمة قبل التاريخ ينسب الى اسباب مثل هذه الاسباب اي الى اسباب طبيعية كذلك

ثم يُعلم كذلك ان الانواع الاحفورية المنقرضة قديماً قد عوّض عنها بانواع اخرى فلا بد اذاً من التعويض عن الانواع المنقرضة اليوم كما عوض عن تلك اللهمّ الاّ ان يكون عالم الاحياء سائراً اليوم نحو الانقراض الكليّ وهذا لا يعقل ولا يسلم بهِ احد ولا بد في هذا التعويض من احد وجهين اما بالتدريج اي بتحوُّل الانواع الموجودة تحوُّلاً بطيئاً متدرجاً وأما فجأةً . فان لم يكن بالتدريج فلا بدّ من ان يكون بالخلق أو بالنشوء أي التولد الذاتي وفي كليهما لا بد من تكون الذكر والانثى في

(١) الدينورنيس والابيورنيس والدرنت كانت كالابتريكوس الذي لا يزال حياً من انواع الطير الذي لا يطير وكان قدّ الاولين اكبر شيئاً من قد النعامة والستريكبس كان نوعاً من البيغاء يقطن اوجار الارض ويشبه طيور الليل الجوارح

واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعهُ وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروّية » انتهى. والحاصل ان المسافة البعيدة التي كان يزعم انها تفصل الحياة عن سائر قوى الطبيعة فصلاً مطلقاً لم يبقَ منها اليوم سوى فرق جزئي لا يصح ان يعتبر كذلك . الاَّ ان ذلك يدعو الى النظر في مسألة اخرى ربما كانت من اكثر المسائل اشكالاً على الطبيعي وهي التولد الذاتي

---

# الفصل الثاني

## ( في التولد الذاتي )

اعترض الاستاذ بتر على الذين يجعلون الجراثيم سبب الامراض عموماً — والاستاذ المذكور ممن يذهب الى ان الجراثيم قد تكون نتيجة المرض لا سببهُ دائماً اي ممن يذهب الى التولد الذاتي للاحياء الدنيا — قال من مقالة نشرت في العدد ١٦٠ للانيون مديكال سنة ١٨٨٤ حاول فيها الفصل بين التدرن الرئوي والخنازيري ما نصهُ « ان الكيماوي الذي يعلمني ان الالفة الكيماوية تقدر بزيادة مكافىء من الكلور ان تحول مادة غير سامة كاول كلورور الزئبق ( زئبق حلو ) الى سم قتال كثاني كلوروره ( سليماني ) والذي يعلمني ايضاً ان مواد متساوية المكافئات الكيماوية كالحامض البراطريك والحامض الطرطريك تقدر بموجب ناموس الايزوميريا ان يكون لها خصائص مختلفة بحيث ان بعضها يحوّل النور المستقطب الى اليسار وبعضها الى اليمين ويعلمني كذلك ان مادة كالفصفور الابيض المتبلور السام تحول بموجب ناموس الالوتروبيا تحت حرارة ٢٤٠ الى جسم احمر عديم الشكل غير سام يريد ان ينكر عليّ التصديق بوجود الفة وايزوميريا والوتروبيا حيويات قادرة على ان تفعل في جسدي كما تفعل في الاشياء التي من خارج وتولّد في حالة المرض دقائق مريضة وانسجة مريضة كما تولد في حالة الصحة دقائق صحيحة وانسجة صحيحة ... » انتهى . الاَّ ان

نوعاً من الحركة والحركة صفة لازمة للمادة وام كل القوى . نعم اذا اريد بالحس كما يتبادر منهُ الى الفهم لغة يكون مثل هذا القول في منتهى الغرابة ولا يجوز ان يطلق على النبات ولا على غير الحيوان العالي الاَّ ان الحس كما يراد بهِ فيسيولوجيًّا يقسم قسمين كما تقسم الحياة قسمين كذلك حسًّا حيوانيًّا للحياة الحيوانية وهو يقتضي العلم بهِ ويسمى حسًّا معلوماً . وحسًّا نباتيًّا للحياة النباتية كحس المعدة والقلب والاوعية الشعرية وسائر اعضاء الحياة الآلية ويسمى حسًّا غير معلوم ومن هذا القبيل ايضاً حركات اوراق السنط الحساس وغيرهِ من جوارح النبات التي تقتنص الذباب وتهضمهُ في اوراقها الملتفة عليهِ وتغتذي بهِ . فهذا الحس ليس فيهِ شيء من الادراك وهو بعيدٌ عما يتبادرُ من معناهُ الى الذهن . فاذا صحّ ان يسمى هذا النوع من التأثر حسًّا جاز لنا مع مراعاة النسبة ان نتوسع ونقول ان المادة تحس لان نسبة تأثرات قضيب معدني الى حس النبات السافل ليست ابعد من نسبة حس هذا النبات الى حس الانسان. ثم اذا اطلقنا الحس على الحيوان والنبات وجب ان نطلقهُ على كليهما لا على بعضهما ولا يخفى ما بين انواعهما من المباينة في ابداء دلائل الحس . ولا يخفى كذلك صعوبة التميز بين عالم وعالم من العوالم الثلاثة بحيث تعتبر آفاقها مختلطة . قال الطبيب في المقالة المذكورة آنفاً « والحاصل ان كثيراً من العلماء يرون ان الكائنات متداخلة بعضها في بعض فلا توجد حدود حقيقية فاصلة بينها لان ادنى مراتب النبات والحيوان متصلة ببعض مراتب الجماد » وكيف لا توجد « حدود حقيقية » بين عالم الاحياء وعالم الجماد وتوجد هذه الحدود بين القوى الفاعلة فيهما بل كيف يمكن الاشتباه ان لم تكن القوة فيهما من طبع واحد . لعمري ان ذلك غريب

نقول ومن عجيب ما ورد في كلام الفلاسفة المتقدمين على هذا الارتباط والارتقاء ايضاً كلام لابن خلدون في مقدمتهِ قال « ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر افق المعادن متصل باول افق النبات وآخر افق النبات متصل باول افق الحيوان ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات ان آخر افق منها مستعدٌّ بالاستعداد الغريب لان يصير اول افق الذي بعدهُ

في العدد الثالث من سنتهِ التاسعة ما وقع للدكتور بتيكان مع ذلك الرأس المقطوع الذي وقع على مقطع العنق واستقر على الرمل حيث وقع فخفَّ نزف دمهِ فاخذ يتفرس في الدكتور المذكور ويجيل عينيهِ محدقًا فيهِ حتى دار الدكتور حولهُ ربع دورة وعيناهُ تتبعانهِ وترسلان اليهِ نظرًا يدل على شدة الالم وادراك الحالة التي هو فيها. وكل ذلك يدل على ان الحياة ليست جوهرًا مجردًا عن المادة وان تفاعلاتها اشبه شيء بالتفاعلات الكيماوية من حيث التعيين والضبط. ونحن نعلم ان كل عمل حيوي انما هو نتيجة لازمة لتهيج في الجهاز العصبي وان المنصرف في هذا العمل ليس قوة حيوية بل كمية معينة ومقيسة من الحرارة ناتجة عن احتراق كمية معينة كذلك من مواد محترقة يتناولها الحي على صورة طعام اوغذاء والطبيعيون يردون االحرارة الى الحركة فلماذا لا تكون الحياة التي تتحول الى حرارة والتي لا تختلف تفاعلاتها عن التفاعلات الكيماوية نوعًا كذلك من الحركة المعتبرة اصل القوى الطبيعية. فتكون نسبة الحياة الى القوى الطبيعية كنسبة الانسان الى الحيوان بمعنى ان اصل الحياة كأصل سائر قوى الطبيعة وهذا لا يلزم منهُ ان تكون ناشئة رأسًا من القوى المذكورة في حالها المعروف اليوم وان يكن ذلك غير ممتنع عقلاً كما ان الانسان ليس ناشئًا من القرد رأسًا. أي ان الحياة لا يلزم ان تكون اتصال كمال القوة المبلورة بل من اصلها كما ان الانسان ليس اتصال كمال القرد بل من اصلهِ. ولا يلزم ان تكون حركات الحيـاة كحركة دقائق الجماد كما ان اعتبار القوى المعروفة من اصل واحد كالحرارة والكهربائية والنور مثلاً لا يلزم منهُ ان تكون حركات كل قوة منها كحركات الاخرى. ولا يمنع ان تكون حركات الحياة من جنس حركات الدقائق كما ان اختلاف حركات القوى الطبيعية لا يمنع كونها من جنس واحد. وبهـذا الاعتبار لا تختلف قوى العالم بعضها عن بعض ولا تختلف موادهُ كذلك الاَّ اختـلاف المركب عن البسيط او اختلاف الفصل عن النوع والنوع عن الجنس. وهذا الاختـلاف لا يكون جوهريًّا الاَّ اذا اريد بالجوهر الكيفية لا الذات وعليهِ فلا يكون في اعتبارنا تأثرات المادة نوعًا من الحس شيءٌ غريب باعتبار الحس في ابسط احوالهِ وباعتبار الحياة نوعًا من الحرارة والحرارة

طبيعيًّا . على ان باستور قد تمكن من مجاراة الطبيعة على نوع ما وادخل عدم الانتظام في المركبات الكيماوية اذ جمع بين السنكونين ( مادة غير منتظمة ) والحامض البراطرطريك أي العنبيك فرسب طرطرات السنكونين اليساري وبقي الطرطرات اليميني ذائبًا في السائل أي انهُ حلّ الحامض العنبيك الذي لا يحول النور الى حامضين يحولانهِ احدهما الى اليمين والآخر الى اليسار . نعم قال مع ذلك انهُ لم يتمكن من ازالة الحاجز بين هذه المركبات لكنهُ لم يعن بهِ سوى ان الكيمياء لم تستطع حتى الآن ان تستخدم في صناعتها سوى القوى المنتظمة وهذا لا يستفاد منهُ انهُ يوجد حاجز مطلق بين هذين النوعين من القوى . وقد صرح هو نفسهُ بذلك اذ اشار بازالة هذا الحاجز قال « فاذا اردنا ان نماثل الطبيعة وجب ان نتخطأ الطرق التي جرينا عليها حتى الآن ونستخدم الكهربائية اللولبية والمغنيطيسية والنور ونحو ذلك من القوى غير المنتظمة » وقد قال ايضاً في غير هذا المكان « ان مركبات الحياة اذا كانت غير منتظمة فلانهُ تفعل فيها قوى عالمية غير منتظمة وهذا فيما ارى الرابط الذي يربط الحياة على سطح الارض بالعالم أي مجموع القوى المنتشرة فيهِ » فيرى مما تقدم ان لا شيء من كلام باستور يحمل على الظن بانهُ يعتقد علميًّا بان قوى الحياة من مصدر غير مصدر قوى الطبيعة ولا بانها جوهر مجرد بل هو اول من بين ظواهر الاختمار وقال انها لا تفرق بشيء عن التفاعلات الكيماوية

ذكر كرل فوجت في خطاب القاهُ في مجمع جنيفا العلمي من نحو خمس عشرة سنة ما نؤثرهُ عنهُ قال « خذ عضلة من ضفدع حي واجعلها في احوال مناسبة تمنع جفافها وفسادها وقدم لها من وقت الى وقت الدم اللازم ليقوم مقام المواد المحترقة منها باكسجين الهواء كما تقدم الفحم وقودًا للآلة البخارية فترى العضلة تحرك كلما هيجتها بالكهربائية كما يتحرك لولب الساعة اذا كانت دائرة . قال ولنفصل كذلك رأس حيوان عن جسدهِ حتى يموت ثم لنحقن فيهِ بعد هذا الموت دماً صالحاً من حيوان آخر من نوعهِ نرَ الرأس يفتح عينيهِ وكل حركاتهِ تدل على ان الحياة قد عادت اليهِ وعاد دماغهُ يشتغل كما كان يشتغل قبل القطع » وذكر المقتطف نقلاً عن الجريدة العلمية الفرنساوية

من سنة ١٨٤٤ ولخصها المقتطف — فرقاً مهماً بين المواد الآلية الطبيعية والمصطنعة فالاولى لها في حالتها الامورفية العديمة الشكل قوة على تحويل سطح النور المستقطب والثانية ليس لها ذلك او هي تفعل عكس فعلها — خلافاً للبلورات فذلك متوقف فيها على شكلها البلوري وعلى انتظام تغير نظامها المسمى بالهيدريا اي تغير زواياها المتماثلة وذلك ما تمتاز بهِ قوي الحياة او كما يقال ايضاً القوى الغير المنتظمة عن القوى الكيماوية المنتظمة قالوا وهنا « العقدة » أما كون الحياة تفعل افعالاً تختلف عن افعال القوى الطبيعية التي يستخدمها الكيماوي فمما لا ريب فيهِ كما انهُ لا ريب في ان افعال الكهربائية مختلفة عن افعال النور والحرارة مثلاً والاَّ لزم ان يكون العالم واحداً جماداً واحداً او نباتاً واحداً او حيواناً واحداً وما نراهُ هو بخلاف ذلك . واما كون هذا الامتياز يلزم منهُ فصل الحياة عن قوى الطبيعة في المصدر فمن اغرب ما يذهب اليهِ والاَّ وجب ايضاً فصل القوى الطبيعية بعضها عن بعض كذلك ولا سيما ان الفرق العظيم الذي اتخذهُ الحيويون حجة قوية لاثبات مذهبهم في الحياة قد زال معظمهُ . وفي النظر الى هذه المسألة يجب اعتبار النسبة بين ما كان يزعم سابقاً وما يعلم اليوم فأي فرق بين الامرين او لعل هذا الفرق النسبي اليوم والجزئي بالنسبة لما كان يزعم قبلاً كافٍ لتأييد هذا الفصل بل لجعل الحياة جوهراً مجرداً عن المادة . وما الدليل على ذلك سوى عدم تمكن الكيماويين من خلق الحياة رأساً من الجماد وعدم تمكنهم من مجاراتها مجاراة تامة وهل ذلك دليل يثبت بهِ الضد . فان كانت قوة تحويل سطح النور المستقطب كما يظن ناشئة عن عدم انتظام في تركيب جواهر الاجسام الفردة او دقائقها فربما كان ذلك خاصاً بالحياة وغير ممكن الحصول عليهِ بدونها الاَّ ان امتناع ذلك على الكيماويين لا يوجب جعل الحياة من مصدرٍ غير مصدر سائر القوى كما ان ظواهر الحياة في الحيوان العالي وان كانت تختلف عنها كثيراً في النبات لا توجب جعل الحياة فيهما من مصدرين مختلفين اي انهُ لا يعزز مذهب الحيويين ولا ينقض ركناً من اركان الماديين . لانهُ ان صح كما قال باستور ان سبب ذلك كيفية وقوع النور على النبات المصدر الاول لكل المركبات الآلية فيكون اصل هذه القوة

وقواها او الحركة شيئاً واحداً . وقد تبين كذلك ان القوى المذكورة تفعل في الاحياء فعلها في الجماد وان المواد الداخلة في بناء الاحياء هي نفس المواد الموجودة في الجماد وان التفاعلات التي تتم فيها من طبع التفاعلات التي تتم فيهِ

والظاهر ان اعتبار الحياة جوهراً مجرداً بقيةً موروثة من الاعتقاد القديم للقوى والمواد على ما مرّ والا فليس في العلم ما يسوغ ذلك بل ذلك ينافي ما قد تقرر بهِ من الارتباط على خط مستقيم . قالوا اولاً ان الحياة قوة مجردة تعرض على المادة فتبطل فعل القوي الطبيعية منها وليس في افعالها شيء من الارتباط السببي . ولما بين كلود برنار ان الحياة لا تبطل فعل القوى المذكورة ولا تضادها وان كل عمل في الاحياء لهُ سبب معلوم لازم لهُ كما في الجماد قالوا ولكن بناء الاحياء ليس فيهِ شيء من البساطة الهندسية للمعادن . ولما بين شوان ان الاحياء من نبات وحيوان عبارة عن مجتمع خليات مؤلفة هي نفسها من غشاء مصمت كالبيضة يتضمن حويصلة ذات منظر مختلف في النواة متضمنة هي نفسها كتلة صغيرة كروية هي النوية وان هذه الخليات ذات اشكال وحجوم لا ضابط لها فتتضام وتجتمع على ضروب شتى كما تجتمع دقائق الجماد بدون ان تفقد استقلالها وتؤلف وحدها كل الاحياء قالوا ولكن التفاعلات الحيوية غير التفاعلات الكيماوية . ولما بين باستور ان الاختمار انما هو تفاعل كيماوي بين المادة المختمرة والخمير وان الخمير ليس سوي احياء صغيرة جداً شبيهة بالخليات المذكورة فحياة نبات او حيوان مرتقٍ لا تفرق كيماويًا عن ظواهر الاختمار الا بكثرة اختلاف هذه الظواهر الناشئة عن اختلاف خصائص الكريات المختلفة الداخلة في بنائها قالوا ولكن القوى الطبيعية لا تستطيع ان تركب الهيدروجين مع الكربون كما تفعل قوي الحياة . ولما بين برثلو امكان تركيب الاستيلين رأساً من الجماد وتركيب سائر المركبات الكربورية بواسطتهِ كانواع السكر والكحول والارواح والزيوت والحوامض الآلية وبيَّن كذلك امكان تركيب كل المواد المتكونة في الاحياء من عناصرها رأساً أي من الكربون والاكسجين والهيدروجين والازوت بواسطة الكيمياء الآلية المؤسسة على النموذجات قالوا ولكن قد بين باستور — في مقالة نشرتها جريدة العلم الفرنساوية بتاريخ ٥ ك٢

ولم يتيسر ردُّ القوى الطبيعية كلها الى واحدةٍ وترجيح كون المواد من اصل واحد ترجيحاً علميًّا الاَّ من عهد قريب ولم يجرِ ربط المواليد الثلاثة بعضها ببعض كذلك الاَّ في هذا العصر .قال الطبيب من مقالةٍ في الكلام على عالم الجماد ما نصهُ « فان التميز بين النبات والحيوان يظهر في بادئ الرأي بديهيًا سهلاً الاَّ ان ذلك انما يكون في المراتب العليا منهما على انهُ بالنظر الى الحقائق العلمية من اصعب ما وقف العلماء عليهِ جهدهم ولا سيما من حيث اشتراك الحدود وتداخل الصفات المميزة في مراتبها السافلة .وكذلك التميز بين عالم الجماد وعالمي النبات والحيوان فانهُ قد يكون من اكثر المسائل اشكالاً في نظر المدققين » وقد اتضح هذا الارتباط اكثر بمذهب داروين وعظمت قيمتهُ الفلسفية. كذلك والحاصل ان من تتبع سير العلم من اوائل هذا القرن يرى انهُ مقسور على تقرير هذا الارتباط والسير في سبيل اثبات الوحدة للكائنات

على ان بعضهم مع اعترافهِ بارتباط العوالم الثلاثة وارتباط القوى الطبيعية بعضها ببعض ربما لم يسلم — ولا نعلم كيف — بارتباط هذه القوى بالحياة ولم يسلّم كذلك بارتباط قوى الحياة نفسها فجعل الحياة اكثر من واحدة من حيث الاصل . ولو فصل بينها جميعاً فصلهُ بين المواد الحية والجماد لما جاز الاعتراض ولكان هذا الفصل من الامور اللازمة في العلم لسهولة البحث في المواضيع الكثيرة التي يتناولها كفصل النور عن الحرارة وفصلهما عن سائر القوى الطبيعية مع اعتبار الرابط بينها . ولكنهُ لا يقول هذا القول بل يفصل الحياة فصلاً مطلقاً ويعتبرها جوهرًا مجردًا يتصل بالمادة اتصالاً عارضاً وينفصل عنها انفصالاً لازماً عن مركباتها بل عن المادة نفسها ومع انهُ في فعلهِ ذلك يرتكب خطأين عظيمين ضد العلم وضد الفلسفة فهو لا يبالي ولو استمسك بالمحال. فاما خطاؤهُ ضد الفلسفة فلان توحيد القوى تارةً وتعديدها اخرى وتجريدها عن المادة تارة ووصلها بها اخرى وتعديد المادة وتوحيدها امورٌ لا تتفق بعضها مع بعض ولا تنطبق على العقل ولا على التصور الفلسفي لوحدة العالم . واما ضدَّ العلم فلانهُ قد تبين اتصال مواليد الطبيعة بعضها ببعض وان القوى الطبيعية ليست سوى استحالات عن الحركة وان الحركة ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة وهذا يلزم منهُ ان تكون المادة

الضرورة وضلوا في معرفتها حتى انتهوا فيها احياناً الى نوع من الاثبات في نوع من النفي اي انهم اثبتوا للشيء وجوداً بنفي كل وجود عنهُ . واي شيءٍ اغرب من ذلك. بخلاف النظر الى الكيفيات والكميات فانهُ يتقرر بهِ اشياءُ كائنة حقيقة لا يستطاع انكارها وربما اطلقوا لفظة الحقائق على مثل هذا العلم بل قصروها عليهِ لتعذر علم سواهُ

ولا يخفى ما حصل للعلم من النهضة من اوائل هذا القرن في ايدي شعوب المغرب وما حصل عنهُ من الفوائد كذلك . واذا تحرينا حقيقة هذه النهضة نجد انها كائنة في معرفة ما بين الاشياء من الارتباط . واذا استقرينا سير الشعوب والامم في الافكار والعلوم منذ التاريخ نجد ان تقرير هذا الارتباط لم يكن بدون مشقة كما يتوهم من ينظر الى العلم اليوم بل انما صرف فيهِ الجهد الجهيد والزمن المديد . ففي عصور الميتولوجية كان عندهم لكل شيءٍ قوة خاصة بهِ تدبرهُ فإله الحرب مثلاً كان غير اله البحر كأن الاله الواحد لا يقدر على تدبير آخر غير ما اختص بهِ واله الكرم غير اله القمح كأن الواحد لا ينمو بما ينمو بهِ الآخر . وهكذا لم يكن يظن وجود ارتباط بين شيءٍ وشيءٍ من مواد الطبيعة وقواها . فنشأ مذهب تعدد المواد والقوى العام ثم فصلوا القوى الى علوية آمرة وسفلية مأمورة وفصلوا السفلية عن موادها فكان مذهب التثنية ولم يضموا القوى العلوية فلسفيًّا الى واحدة الاَّ بعد ذلك كثيراً فكان مذهب التوحيد العلوي والتثنية في الخلق والتثليث في الوجود وبقي مذهب التعدد في الخليقة ولا يمكن تتبع سير مرتب في ذلك وما يمكن تحققهُ انما هو نشوءٌ لا ارتباط معهُ في الافكار الاَّ في ما ندر وبجهد فلسفي

اما العلم فلما كان مقيداً اكثر من الفلسفة لم يتهيأ لهُ ضم القوى والمواد وربطها بعضها ببعض بالسرعة التي امكنت لبعض الفلاسفة فكانوا في اوائل هذا القرن يعتبرون القوى الطبيعية كالكهربائية والنور والحرارة سوائل مادية مستقلة بعضها عن بعض ومستقلة عن المواد نفسها وكذلك القوى الكيماوية والحيوية ويعتبرون المواد انيَّات منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً مطلقاً وعالم النبات منفصلاً عن عالم الحيوان وكل نوع منفصلاً عن سواهُ والاحياء كلها منفصلة عن عالم الجماد انفصالاً تامًّا واضحاً مطلقاً

# الباب الرابع

(في الحياة واصلها وفيهِ اربعة فصول)

## الفصل الاول

(في الحيـاة)

ليس في طاقة الطبيعي ان يعلم الحقائق والماهيات وكل علمهِ قاصرٌ على معرفة الكميات والكيفيات فهو لا يستطيع الكلام على الذوات مجردة عن صفاتها المقوّمة لها فلا يعرف الحياة الاَّ من افعالها كما انهُ لا يعرف الجاذبية او الالفة او سواها من القوى الطبيعية الاَّ من افعالها . فنظرهُ الى الحياة مجرَّدة ضرب من العبث كنظرهِ الى سائر القوى الطبيعية مجردة فالحياة في ذاتها ليست اشدَّ خفاءً من الجاذبية او سواها من القوى في ذاتها . وغاية ما يستطيعهُ في درس الطبيعة معرفة الاشياء بعضها بالنسبة الى بعض اي معرفة ما بينها من الارتباط . والعلم الصحيح يجب ان يوجه سعيهُ الى هذه الغاية فهي وحدها تتكفل لهُ بالوقوف على ما في طاقتهِ ان يقف عليهِ مما يكون بهِ للانسان فائدة عملية صحيحة . وهذا ما يمتاز بهِ العلم اليوم عما كان عليهِ في السابق وهي الصفة التي يمتاز بها شعوب المغرب عن شعوب المشرق . فان هؤلاءِ كما يقول الشهر ستاني اكثر ميلهم الى تقرير خواص الاشياءِ والحكم باحكام الماهيات والحقائق وأولئك اكثر ميلهم الى تقرير طبائع الاشياءِ والحكم بأحكام الكيفيات والكميات . ولما كان النظر الى الحقائق يقتضي النظر الى الشيءِ مجردًا عما يقوم بهِ نشأ ما يسمونهُ التجريد فاشتغل الناس بالبحث عن هذه الحقائق المجردة فتاهوا فيها بحكم

قالوا واما غير ذلك من السعادة فمن مطامع المحال ولا نرى في تعليم المحال جدوى ولا نرى فيهِ الاَّ خلاف ذلك قلنا هذا هو فقط وجه الخلاف بينهم

وأما ما جاءَ في رد المعترض من الادلة على نفي التـولد الذاتي ونفي كون الحياة قوة طبيعية الى آخر ما ذكر فقد آوى منهُ الى ركن ضعيف القواعد متداعي الدعائم ويدل على انهُ لم يقرأ علم الحياة الاَّ في غير كتبهِ ولم يسر فيهِ الاَّ في غير منهاجهِ كما سنبين ذلك في فصل الحياة في ما يأتي وهو أعم من ان يختص بهِ وحدهُ

ولما كان بهِ كذلك حاجة لاقامة الوازع منهُ بعدهم . قال ابن خلدون «وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وانها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايتهِ وانهُ لا بدّ للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي بهِ واحداً من البشر وانهُ لا بدّ ان يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيهِ من خواص هدايتهِ ليقع التسليم لهُ والقبول منهُ حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف . وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراهُ اذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضهُ الحاكم لنفسهِ او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادتهِ فاهل الكتاب المتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانهُ يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وانهُ ليس بعقلي وانما مدركهُ الشرع كما هو مذهب السلف من الامة . » انتهى

ولا يخفى ان الانسان في العمران اثنـان عاقل وجاهل فالعاقل لهُ بما يطلبهُ من المجد الصحيح وبما اكتسبهُ كذلك من العلم الصحيح باحوال العمران وازع من نفسهِ وذلك لما في طبعهِ بل وطبع كل حيوان من حب الذات فهو يترفع عن ارتكاب شرّ بحق غيرهِ لئلاَّ يعود هذا الشر بالوبال عليهِ والجاهل كالعاقل يحب ذاتهُ وانما لجهلهِ قد يخطئ الوسائط فلم يكن لهُ رادع الاَّ من سيف حاكمهِ وكلاهما ان لم يردعهما ذلك كلهُ لا يردعهما سواهُ وليجرب نزع الحكم الوازع من بين البشر مهما عظم ايمانهم فانهم يقعون في الفوضى. والافاضة في هذا المبحث لا يحتملها المقام لانها تتناول البحث في الاخلاق والطبائع وما للاقليم والتعليم والشرائع وسواها من الاثر فيها وما تؤثرهُ هي نفسها في ذلك كلهِ كذلك وما لاختلاف الناس من حيث اعتبارهم السعادة من الاثر في العمران بين ان تكون سعادة الفرد قائمة بسعادة الكل أم بالضد الى غير ذلك من المسائل التي يطول بنا شرحها

مادة البسائط المركبة لها محولة ولا فرق الاَّ في الاحياء اذ يجعل الحيويون القوة الحيوية غير القوة الطبيعية محولة مع انهم يسلمون بان مادة الاحياء هي نفس المادة الطبيعية محولة. وهنا نظر فانهم يجعلون القوة الطبيعية واحدة في اصلها وهي الحركة وربما جعلوا المادة متعددة في العناصر ثم يجعلون المادة واحدة في بناء العوالم من جمادٍ ونباتٍ وحيوان والقوة متعددة

## الفصل الثامن

(فصل الخطاب بين اصحاب الخلق واصحاب القدم)

قال الروحانيون وعليهِ فمذهب الماديين شرٌّ لا يماثلهُ شرٌّ لانهُ يلزم عنهُ ان لا خير ولا شر ولا حلال ولا حرام ولا ولا وبالجملة يمتنع معهُ العمران. فردَّ عليهم الماديون لقد أخطأتم في ما زعمتم كأنكم تجهلون طبيعة العمران فالعمران ضروري للبشر والاَّ لم تتم لهم الحياة وهو من حيث انهُ اجتماع طبيعي في الحيوان وانما بلغ الغاية القصوى في الانسان لانهُ اعدلهُ طبعاً واقومهُ تكويناً وابعدهُ فكراً واقواهُ روءية والعمران لا يكمل الا بالتعاون على المعاش والاعتمال في تحصيلهِ من وجوههِ واكتساب اسبابهِ. وهذا التعاون لا يكمل البتة بما وصفتم ولا يكمل الا بالاصطلاح على عادات معلومة تحسن معها المعاملات. وهذا الاصطلاح لا يكمل الا اذا عرف الانسان ما لهُ من الحقوق وما عليهِ من الواجبات. وهذه المعرفة لا تكمل الاَّ بالعلم والعلم هو العلم الصحيح وذلك كلهُ لا يكمل الا بالحكم الوازع. والحكم الوازع انما هو الشرع. المفروض من البشر والمتغير بحسب روح كل عصر واحتياجات كل جيل والا لما اقتضى ان يتغير الانسان عما يفرضهُ لهُ شرع معلوم وعوائد معلومة لانها لا تخلو منهُ في أي الاحوال كان ولا ان تحصل العمارة للبشر قبل الانبياء ولا لامم غير تابعة لهم

كما يطلق علينا . فنحن يتعذر علينا معرفة اصل المادة كما يتعذر علينا معرفة ملاشاتها. قيل ان ديوجانس رأى غلاماً معهُ سراج فقال لهُ أتعلم من اين تجيء هذه النار قال لهُ الغلام ان اخبرتني الى اين تذهب اخبرتك من اين تجيء .وان قلتم ان قدم المادة يلزم منهُ قدم معلولاتها وقدم المركبات من جماد ونبات وحيوان قلنا لكم ان قولكم لو صح لوجب ان يطلق على الخلق كما يطلق على النشوء فالخالقية كالناشئية بالاضطرار والا فتكون القوة الخالقة قد وجدت ساكنة قبل الخلق والسكون كالعدم لا يعقل وهو لا يليق بالمادة المنفعلة فكيف يليق بالقوة الفاعلة . على ان الاضطرار للخالقية او سواها لا يلزم منهُ استكمال الوجود دفعة واحدة لارتباط العلل والمعلولات بعضها ببعض وتحولها بعضها الى بعض فالحياة يستحيل ان تظهر قبل ان يكون ماء والماء قبل تكون هيدروجين واكسجين وهما قبل اجتماع اجزاء المادة على كون يتألف منهُ ذلك فوجود الحياة متوقف على وجود الماء ولو لحظة قبلها . ففي قياس أي عقل يصح وجودهما ووجود سائر المركبات معاً . وهل تكون السفسطة الا كذلك . وان قلتم ( ولا يرد علينا بقدم المبدع وانهُ علة العلل لانهُ عندنا فاعل مختار يفعل ما شاء متى شاء ) قلنا لكم فبقي ان القضية ليست من باب العلم بل من باب الايمان ولو وقفتم عند هذا الحد لاسترحتم انتم وارحتمونا من كل هذا النزاع . وكيف يعقل وجود ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة في صورة معقولة ولا لهُ قسمة في الكم ولا في الكيف ولا في المبادىء فعلهُ منهُ وليس منهُ متصل بهِ ومنفصل عنهُ . فلا شك ان ذلك يقتضي ايماناً شديداً وحيث يبتدىء الايمان ينتهي العلم والانسان حر في ايمانهِ الاَّ ان الايمان ليس لهُ حق بان يعترض العلم في سيرهِ والعلم لا يستطيع شيئاً ضدهُ

وعليهِ فالفرق بين اصحاب الخلق والقدم في المادة انها مخلوقة من لا شيء عند الاولين وقديمة عند الآخرين ولا فرق بعد ذلك فالمادة عند الفريقين لا تتلاشى بل تنتقل من حال الى حال بالتفاعل والتركيب والتحليل والقوة عندهما كالمادة لا تتلاشى وانما تتحول في الاجسام تحول المادة فيها . فالقوة المبلورة للاملاح هي نفس القوة الموجودة في البسائط المركبة منها هذه الاملاح محولة كما ان مادة الاملاح هي نفس

تنطبق الاَّ على الضرورة . قالوا انكم تجعلون الهيولى واحدة اي متماثلة وكيف يمكن للشيء المتماثل ان يترتب مع نفسه ويظهر بصور مختلفة . فردوا عليهم انكم نخالكم تسلمون بتحول القوة من حال الى حال وهي واحدة اي متماثلة في اصلها فكيف لا يكون للمادة ما للقوة المتصلة بها . ثم ان تماثل الذات لا يلزم منهُ تماثل الصفات والاَّ لكان العالم جمادًا واحدًا او نباتًا واحدًا او حيوانًا واحدًا والواقع بخلاف ذلك قالوا وان كنا نسلم بان القوة واحدة ولكنا لا نسلم بانها تقدر على هذا التحول الاَّ بالعناصر وهي مختلفة بخلاف هيولاكم فانها متماثلة فردَّ الماديُّون انَّا لا نفهم معنا لم ولا نفهم كيف تفهمون أنفسكم فانكم قد ناقضتم وضع مذهبكم . ألا تعلمون ان وحدة القوة يلزم منها وحدة المادة والاَّ كانت القوة متعدّدة أيضاً فالقوة —أو كما تسمُّونها أيضاً الحركة— ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة وكيف تكون القوة متماثلة ان لم تكن هذه الاجزاء المادية المهتزة متماثلة كذلك وكيف توفقون بين القولين

ثم ان المادة كيفما اعتبرت إما قديمة وإما حادثة وهي ليست قديمة على قولكم فلا بدّ لها من محدث . فاما ان تكون حادثة من شيء موجود او من لا شيء موجود ولا يصح ان تكون حادثة من شيء موجود لان هذا الشيء الموجود إما ان يكون نفس المحدث او شيئًا آخر موجودًا ايضاً فينتفي الحدوث . ولا بدّ ان تكون فعلاً من افعال المحدث والاَّ لم يكن هو المحدث فاما ان تكون نفس الفعل او نتيجتهُ والفعل ونتيجتهُ موجودان في الفاعل والفاعل قديم فينتفي الحدوث كذلك وان لم يكن الفعل ونتيجتهُ موجودين في نفس الفاعل فيقتضي ان يكونا ليس منهُ وهما منهُ وهو خُلف وان يكونا لا شيء وهما شيء وهو خلفٌ ايضاً ثم يقتضي ان يكون الفعل واقعاً على شيء هو لا شيء ومنفصل عن نفس الفعل والفعل منفصلاً عن نفس الفاعل والاَّ كان الشيء والفعل والفاعل واحدًا . وكيف يكون الشيء منفصلاً مع هذا الارتباط وان لم يكن منفصلاً فكيف يكون الشيء الحادث غير المحدث . فالعقل لا يقدر ان يسلم بهذه المتضادات . وان قلتم ان وجودًا من نفسه لا يعقل قلنا لكم ان وجود شيء موجود من لا شيء موجود لا يعقل كذلك فضلاً عن ان هذا القول ان صح يطلق عليكم

لاجلهِ ولا يحق لكم أن تنازعونا كذلك.فردَّ عليهم بل من باب العلم العقليّ أي الفلسفة والفلسفة العقلية لا ترى بدًّا من الاقرار بهِ . قال الماديون ان العقل لا يعلم شيئاً غير ما أتى بهِ الاختبار ولا يحكم بشيء الاَّ بالقياس على هذا العلم فاذا كنّا لا نعلم خلق المادة ولا ملاشاتها فكيف يمكن لنا أن نحكم بهما . وما الفلسفة الاَّ القياس العلمي بأوسع ما يقدر العقل أن يتصرف فيهِ وقد تقدم أن العلم لا يدرك ذلك فالفلسفة لا تقدر أن تدرك الاَّ ما يأذن العلم بهِ فرُدَّ عليهم وكيف جاز لكم اذاً الحكم بالجوهر الفرد وعلمكم لا يدركهُ قالوا انَّا وان كنَّا لا ندركهُ فانما حكمنا بهِ لانطباقهِ على الحوادث التي لا بدّ من الاعتراف بها فحكمنا بهِ من باب القياس العلميّ . فردَّ عليهم « على انَّا لو سلَّمنا بأن الاجسام مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ فلا نسلم بأزليتها بلا برهان ولا دليل على ذلك سوى الوهم كما هو دأبكم في كل أصول مذهبكم الماديّ »قالوا أما دليلنا فعلمي لان المادة كما تقدم لا يستطاع خلقها ولا ملاشاتها وعقلي لان العقل لا يسلم بوجود شيء من لا شيء ولا باستحالة شيء الى لا شيء فيا للعجب كيف ترموننا بعد ذلك بالوهم فما دليلكم يا ترى غير الايمان وأيٌّ أقرب الى الوهم .فردَّ بأن الشيء لا يقدر أن يوجد نفسهُ ولا بدَّ لهُ من موجدٍ سواهُ ولهذا يُحكم بخلق المادة لانها موجودة ولا تقدر أن توجد نفسها . قالوا فمن اين علمتم ان الشيء لا يوجد نفسهُ اولا ترون انهُ يصحُّ لنا ان ندفع قولكم بنفس اعتراضكم . ثم نحن لا نجعل للعالم بداية مطلقة ولا نعلم لهُ نهاية كذلك حتى يقال انهُ اوجد نفسهُ فنحن نسلم بهِ كما هو كما انكم تسلمون بالمبدع كما هو

قال اصحاب الخلق ان ما نراهُ في الوجود من النظام يدلُّ على القصد ولا بدَّ من عقل مدرك يقصد هذا القصد ومادتكم غير عاقلة فهي لا تدرك حتى تقصد فردَّ أصحاب القدم ان ما تسمونهُ قصداً نسميهِ ضرورة فالعوالم لما كان بعضها مرتبطاً ببعض بنواميس معينة كان من الضرورة انهُ اذا حصل تغيُّر في شيء يحصل تغيُّر مطابق لهُ في سائر الاشياء ولذلك لم يكن العالم ولا هو كائن ولن يكون بعضهُ بالنسبة الى بعض الاَّ منتظماً . واللانظام عندنا امر نسبيّ . ثم لو كانت علامات القصد موجودةً لاقتضى ان تكون هذه العلامات تامةً والحال اننا نرى اشياء كثيرة لا ينطبق القصد عليها ولا

ان القوى الميكانيكية البحتة تجعل تحليلاً في المواد المركبة تركيباً ضعيفاً . وكذلك قوله « ومنها ان الاتروبين وان كان يذوب في الكحول فالدقيقة منهُ لا تذوب فيهِ » فلا ندري ما مرادهُ بهِ لان التذويب انما هو عبارة عن اجتماع دقائق سائل بدقائق جسم آخر فاما ان يقع بين الدقائق فيكون مثل هذا القول لغواً واما أن يقع عليها فيكون التذويب فعلاً كيمياً وحينئذ يحصل عنهُ تحليل وتركيب لا يوجب قسمة في الجواهر بل تحليلاً . فايم الحق انا لم نكن نتوقع منهُ مثل هذا الخبط لما يعهد من علمهِ وذكائه

ثم ما الغرض يا ترى من نفي الجوهر الفرد فان كان الغرض من ذلك نفي المادة اصلاً فكيف نصنع حينئذ بوجود العوالم وهل ما نراه وهم من الحواس وان كان القصد نفي وحدتها واثبات تعددها فذلك لا ينفي وحدةً ولا يثبت تعدداً . واذا كان لا بدَّ من وجود المادة متعددة كانت ام واحدة فما المراد من نفي الحركة عنها أيثبت لها السكون وما الدليل عليهِ ( والسكون المطلق لا علم لنا بوجودهِ ) واذا كنا لا نعلم بوجود السكون فكيف استطعنا أن نحكم بهِ او نتصورهُ . وان كان الغرض من ذلك نفي النشوء واثبات الخلق فهذا لا ينفي نشوءاً ولا يثبت خلقاً فنيوتن أثبت مذهب ديموقريطس ولم ينفِ خلق الجوهر الفرد . فنفي الجوهر الفرد لا ينفي بهِ شيءٌ يراد نفيهُ ولا يثبت بهِ شيءٌ يراد اثباتهُ من هذا القبيل وما هو الاَّ وهمٌ او هو ضرب من التمويه للايهام

---

## الفصل السابع

( مناظرة اصحاب الخلق واصحاب القدم )

وخالف الماديون سواهم في أصل المادة فقالوا انها أزلية لانهم رأوا ان المادة كالقوة لا يستطاع خلقها ولا ملاشاتها فهي واحدة لا تنقص ولا تزيد ولا تتغير الاَّ في الصورة قالوا ونحن لا نعلم غير ذلك. فردَّ عليهم ان عدم العلم بالشيء لا يجعلهُ غير ممكن فالحدوث ممكن. قال الماديون ولكن ذلك ليس من باب العلم بل من باب الايمان وهذا لا ننازعكم

بعضها عن بعض لا يتغير قسم جرم منهُ ولا كثافتهُ اذا تحرك ( القسم ) وانما يتغير شكلهُ » . وقال ورتز « وهذه الزوابع مرنة وشكلها متغير ولا يتوازن الاَّ في الدائرة فاذا تغيرت عن هذا الشكل فلا تزال تتحرك حتى تعود عليهِ واذا اريد قطعها بمدية فانها تهرب من امام المدية او تلتفُّ عليها فهي تمثل شيئاً ماديًّا لا ينقسم . واذا تحركت حلقتان في جهة واحدة بحيث يكون مركز كل منهما على خط واحد وسطحهُ كذلك على موازاة هذا الخط فالحلقة المتأخرة تنقبض على نفسها وسرعتها تزيد والسابقة تتسع وسرعتها تقل حتى تسبقها المتأخرة ثم يحصل ما حصل اولاً ولكنَّ ذاتيتهما لا تفقد بتغير شكلها وسرعتها »

## الفصل السادس

( في كشف الخلط واظهار الغلط )

واما قول صاحبنا « انهُ يلزم من فرض الجوهر الفرد على كل مذاهبهِ عدَّة غرائب منها انهُ لو وضع جوهر من النيتروجين مثلاً على جوهر من الحديد وضغط باثقال العالمين ما نفذ احدهما الآخر وما تجزَّأ » فليس فيهِ من الغرائب سوى هذا القول نفسهِ ولعلهُ يذهب الى انهما يتنافذان . وانا لنعجب منهُ كيف ان معدتهُ لم تقوَ على هضم ما عدهُ من هذا القبيل سفسطة مع ان عقلهُ قوي على هضم مالا يهضم وشرب مالا يشرب مما لو اجتمعت اثقال العالمين وضغطتهُ ليدخل الى الذهن لم يدخل

وهل يرتاعُ من خوضِ السواقي فتىً قد خاضَ في البحر الكبير

وقولهُ « ومنها ان كل دقيقةٍ من دقائق المركبات لا تقسم الاَّ بالحل الكيمي والاَّ اوجب الضغط على دقيقة الماء قسمة جوهر الاكسجين الفرد الخ » فنسألهُ وهل تقسم بدون ذلك واذا قسمت فهل تبقى ماءً . ثم هو يعلم فيما نظن ان الفعل الطبيعي قد يصاحبهُ فعل كيمي لما في طبع القوى من امكان التحول بعضها الى بعض حتى

او ما ذا يقول المعترض في المواد البوليمرفية أي التي تختلف هيآتها ولا تختلف ماهيتها ولا تركيبها . وفي المواد الالوتروبية أي التي تختلف صفاتها ولا تختلف ذواتها. فلو لم يكن اختلاف الوضع كافياً لاحداث الاختلاف لما اقتضى ان تختلف خصائص البسائط كالكبريت والفصفور والاكسجين والكربون وتتفاعل تفاعلات مختلفة ولاشك ان الفرق بين الماس والفحم هو اشد جداً من الفرق بين الحديد والنحاس . ومن ينكر هذا الفرق يلزمهُ ان ينكر الفرق ايضاً بين الحرارة والنور والكهربائية والمغناطيس و بينها و بين الحركة . أليس لهذه صفات خاصة فارقة ومع ذلك اليست كلها مظاهر مختلفة لقوة واحدة

---

# الفصل الخامس

( في ان القوة والجوهر سيان )

واما كون الحركة الباطنة وتغير الشكل تقتضيان القسمة بالفعل ( وهو اجتماع النقيضين ) فهو صحيح اذا اعتبرت الحركة شيئاً مستقلاً بذاتهِ غير الجوهر الفرد .وربما عنوا بالحركة الباطنة الذات ايضاً فكانت الحركة والجوهر الفرد شيئاً واحداً . و يلزم ان يكون ذلك كذلك لان المادة في ادق اجزائها اذا فرضت ساكنة لم تعقل وكذلك الحركة اذا فرضت بدون شيء متحرك لم تعقل او تلاشتا معاً وهذا لا يعقل ايضاً . قال ورتز « ان القوة لا تكون وحدها بل يلزم ان تصدر من شيء وان تفعل على شيء وان تظهر بحركة وكيف تكون حركة بدون شيء متحرك » واذا صحَّ رأي طمسن في الجواهر الفردة فربما زال هذا الاشكال . قال المقتطف في الكلام على الهيولى « واما خصائص الحلقات الزوبعية فقد اثبتها هلمهلتز الجرماني بالبرهان على فرض كون الحلقات في جسم تام السيولة لا يقبل الانضغاط مطلقاً متجانس الاجزاء اي ان كثافتهُ واحدة في كل جانبٍ من جوانبهِ تام الاتصال اي انهُ غير مؤلف من جواهر منفصل

# الفصل الرابع

(في اختلاف الطبع باختلاف الوضع)

وأما كون المتماثلات لا يحصل من تركبها سوى متماثلات فهذا لا يصح الاَّ اذا تماثل الكم والكيف والذات والصفات والاَّ فتعطي مختلفات . ولعلَّ المعترض لا يعد الاختلاف اختلافاً حتى يكون في الطبع فيقول ان اختلاف الكم والكيف لا يحصل عنهُ اختلاف الطبع . وهذا وهم فان اسماءَ العقود كالعشرة بقطع النظر عن الشيء المدلول عليهِ بها هي غير الواحد المؤلفة منهُ والتي تنحل اليهِ والمثلث بهذا الاعتبار نفسهِ هو غير النقطة المؤلف منها والتي ينحل اليها . ثم ان مزيج عنصرين كالنيتروجين والاكسجين مثلاً هو غير مركبهما ولا فرق بينهما الاَّ في نسب جواهرهما وفي ترتيبها بعضها بالنسبة الى بعض لا بادخال شيءٍ جديد او تغيير في طبائعها الخاصة . قال ورتز « ان التركيب ليس ناشئاً عن تداخل جواهر المادة بعضها ببعض بل من ترتيبها بعضها حول بعض » ولا يخفى كذلك ان العناصر الجوهرية التي تركب المواد الحية هي الاكسجين والنيتروجين والهيدروجين والكربون ونسبها في المواد المذكورة لا تختلف الاَّ في الكم والوضع . ومع ذلك فما اكثرها وما اعظم اختلافها . ولا يرد علينا بان الكيمياء الآلية هي غير الكيمياء الغير الآلية فالاحياءُ ليس لها كيمياءُ خاصة ولا بقول المعترض « ان هذه المركبات ليست من هذا الباب لانها مركبة من عناصر مختلفة » لان هذا القول غاية في الغرابة وماذا عساهُ ان يقول في الخشب والصمغ والنشا مثلاً فان تركيبها لا يختلف الاَّ في وضع هذه العناصر او ما هو قولهُ في الكحول والحامض الخليك كذلك فان تركيبهما لا يختلف الاَّ في الكم . فلو لم يكن اختلاف الوضع والكم يحدث اختلاف الطبع لما اقتضى ان تتغير طباع هذه المواد تغيراً جوهرياً فهما اذاً كافيان وحدهما لاحداث الاختلاف وهذا كل ما يلزم لتعليل سائر الاختلافات ولا سيما اذا اعتبرنا في ذلك تغير شكل الجواهر الفردة

للحركة سبب سوى الحركة نفسها ولا واسطة لايصالها الى الاجسام سوى الاصطدام ولامحول للحركة سوى الحركة المكتسبة.والحركة نفسها غير متلاشية كالمادة ومقدارها في الكون واحد كمقدارها الاَّ انها قابلة التحول الى ما لا نهاية لهُ بحيث يصعب معرفتها في استحالاتها البعيدة فاوجب ذلك نظرًا جديدًا في بناء الاجسام الجوهري فالجوامد والسوائل والغازات التي كان يظن انها مؤلفة من اجزاءٍ صغيرة ساكنة هي بالحقيقة متحركة حركة باطنة شديدة وحرارتها كما نحس بها بحواسنا ليست سوى التأثير الواقع علينا من اهتزاز اجزائها . وظهر لهم حسب الاكتشافات الحديثة ان شكل الجواهر الفردة متوقف على الاهتزازات التي تحركها وان الحركة هي التي كونت جواهر الاجسام الفردة ودقائقها في وسط الاثير وان الاثير ليس سوى الهيولى في ابسط ما يمكن تصورهُ وان الصور التي تلبسها الهيولى انما هي ناشئة عن الحركة التي تحركها وان المادة والحركة غير منفصلتين لان وجود المادة يقتضي الحركة كما ان الحركة تطلب المادة . وهكذا ردوا هاتين الانيتين اللتين ترجع اليهما المواد والقوى الى شيءٍ واحدٍ .

هذه هي خلاصة ما دلت عليهِ مباحث مشاهير الفلاسفة وعلماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر

فيرى مما تقدم ان القول بالجواهر الفردة وتماثلها وحركتها وتغير شكلها وتحول القوى هو من مقتضيات العلم لا من مختلقات الوهم لانطباقهِ على قضايا طبيعية وكيماوية لا تعقل بدونهِ . على ان الكيماويين لم يتمكنوا من حل العناصر وردها الى الهيولى كما تمكن الطبيعيون من رد القوى كلها الى الحركة وانما حكموا بذلك من باب الترجيح لما رأوهُ اولاً من الدلائل على ان العناصر ليست بسيطة كما تقدم وثانياً لان وحدة القوة تطلب وحدة المادة كذلك . واذا صح تحول القوى بعضها الى بعض وصحَّ ان اصلها الحركة — وهي واحدة — وصحَّ ان الحركة اهتزاز اجزاء المادة فكيف لا يصح ان تكون المادة واحدة وان تتحول وتظهر بمظاهر مختلفة

هذه العناصر . وقد تنبأ أبان هذا الخلل لا بدّ من ان يسدّ ووصفا العناصر التي تنقص والتي يلزم اكتشافها . وقد اتصل لكوك الكيماوي الى نتائج شبيهة بتلك بعد درس الحل الطيفي لهذه الاجسام البسيطة اي درس طبيعة النور المنبعث عنها وهي مشتعلة . وقد جاء اكتشاف الغاليوم لهُ والسكنديوم لغلاف مصداقاً على صحة هذا الانباء العلمي ثم ان لوكير لاحظ في طيف بعض البسائط كالكلسيوم والفصفور انقساماً يدل على بداية انحلال . فترجح لهم ان الاجسام المزعومة بسيطة ليست انيات مستقلة بل انها ربما كانت صوراً مختلفة لمادة واحدة هي الهيولى الواحدة والغير المتلاشية كالاثير

وقد تقوى هذا الترجيح بما كان قد علم من وحدة القوى فلا يخفى ان القوى كانت عندهم في السابق متعددة فالنور والحرارة والكهربائية والمغناطيس كانوا يعتبرونها سوائل مادية مستقلة بعضها عن بعض تنفذ مادة الاجسام وتجتمع فيها على نسب مختلفة والجاذبية والالفة الكيماوية والالتصاق كانت قوى تحرك دقائق هذه الاجسام . وبقي هذا القول معولاً عليهِ في العلوم الطبيعية حتى قام رمفور وقال ربما كانت الحرارة متحولة عن الحركة ثم بين فرسنل ان النور حركة اهتزازية وكذلك بين ماير وجول وهرن وتندل ان الحرارة ليست سوى اهتزاز اجزاء المادة وقد برهنوا ان الحرارة تتحول الى حركة والحركة الى حرارة تبعاً لقواعد معينة . ثم بين امبر وحدة الكهربائية والمغناطيس وبين سبك كذلك انهُ يكفي احماء نقطة ملتحم معدنين لتوليد مجرى كهربائي. ولا يخفى فعل الحرارة في توليد المغناطيس والفرك في توليد الكهربائية . وتحولهما الى نور وحرارة ومن ثم الى حركة صار امراً معروفاً عادياً مستعملا في الصنائع وانارة الطرق في المدن الشهيرة فانتفى مذهب السوائل المادية من مدار العلم الطبيعي واذا ارتاب صاحبنا بصحة هذا القول فليراجع (صفحة ١١ و٢١ و ٦٥ و٤٢٨ وخاصة ٢٩٨ و٢٩٩) من كتاب الدروس الاولية في الفلسفة الطبيعية للفاضلة السيدة الن جكسن

فلم يبق عند الطبيعيين بعد هذا سوى مادة لطيفة هي الاثير المالئ الخلاء والنافذ في كل الاجسام والمحرك لها وانتفت القوة كذلك وعوض عنها بالحركة . فليس

تماثل الصفات ام هل تزول نسب التركيب المعينـة ام لا تبقى اعداد التركيب كاملة . فمذهب الجواهر المتماثلة في الذات لا ينقض المذهب الجوهري لدلتون ولا يفسدهُ وانما يعتبر تأييدًا لهُ وتوسيعاً . قال ورتز (ان مذهب الجواهر الزوبعية تتضح بهِ بعض خصائص المادة وكل الاقوال في طبيعة الجواهر الفردة ويظهر انهُ اقرب المذاهب الى الحقيقة ) نقول وان كان للعلم قيمة صحيحة فلا يسعنا ان نترك آراء مثل هؤلاء العلماء التي هي نتيجة اجتهاد العلم ونتمسك بآراء سواهم التي هي نتيجة الحرص فاقتداؤنا بهم كاقتداء غيرنا بسواهم ولافرق بيننا الاَّ فرق المنتقل عن الواقف

## الفصل الثالث

( في وحدة العناصر والقوى )

ذهبوا الى ان الجواهر الفردة متماثلة في الذات مختلفة في الصفات وانها متحركة وشكلها متغير ولا يخفى ان العناصر التي وصفها الكيميون تبلغ نحوًا من ستين عنصرًا واذا تأيدت اكتشافات السبكترسكوب فربما بلغت ٧٣ عنصرًا وقد اعتبروها بسيطة من اتحاداتها المختلفة تتألف الاجسام المختلفة . واجتهدوا اولاً في تعيين صفاتها التي تمتاز بها ثم ما لبثوا ان تساءلوا عما اذا كانت هذه العناصر بسيطة حقيقة او كان لها صفات مشتركة تجمعها وتردها الى اصل واحد . فربما كان الكيميون الاقدمون مصيبين في بحثهم عن تحول المعادن . فقام دوماس وهو من اكابر علماء الكيمياء في هذا العصر وقرر اولاً انهُ يمكن ترتيب هذه العناصر صفوفاً تتفاعل كيماويًّا تفاعلاً واحدًا وقد بين تبعاً لرأي بروست ان اوزانها الجوهرية اعداد كاملة كأن جواهر العناصر المزعومة بسيطة هي بالحقيقة مركبة من اعداد مختلفة من هذه الاجزاء المتماثلة ولا تختلف فيما بينها الاَّ بعدد هذه الاجزاء فقط . ثم اشار مندلف ولوثار ماير الى نسب شديدة بين الاوزان الجوهرية للعناصر وصفاتها الخاصة وقالا بوجود خللٍ في جدول

# الفصل الثاني

( في رأي طمسن في الجوهر الفرد )

ذهب السر وليم طمسن الانكليزي الى ان الجواهر الفردة انما هي زوابع حلقية في الاثير او الهيولى . قال ورتز « وقد شاع في هذه الايام مذهب يبين فيهِ بالبرهان كيف ان الجوهر الفرد لا يقبل القسمة بل كيف انهُ ذو وجود مستقلّ ازليّ ابديّ وهو مذهب السير وليم طمسن في الجواهر الزوبعية : قال فالعالَم على رأي طمسن مؤلف من سائل تام الاتصال مالئ للخلاء ومن هذه الحلقات الزوبعية المنتشرة فيهِ وهي ليست سوى اجزاء هذا السائل المتحركة فيهِ حركة زوبعية . وكل حلقة منها محدودة ومتميزة عن نفس السائل وعن الحلقات الاخر ايضاً لا بجوهر مادتها بل بجرمها وحركاتها . وهذه الخصائص تبقى الى الابد والحلقات المذكورة هي الجواهر الفردة » فالجواهر الفردة كما ترى وان تكن متماثلة في الذات لكنها مختلفة في الصفات وهي كذلك لا انها لا تقبل القسمة الامر الذي لا يعقل . كلاَّ . وانما لو انقسمت لزالت خصائصها الجوهرية فهي كالهيولى تقبل القسمة فرضاً لا فعلاً لان الهيولى لا تقسم فعلاً مع انها ذات امتداد والاَّ لزم ان يقسم جسم متصل مالئ للخلاء لا فراغ حولهُ ولا مسامية فيهِ وذلك مستحيل فعلاً . والجواهر من حيث انها ذات خصائص معينة لا تنقسم مع بقاء هذه الخصائص فيها كما ان الكريات الحية لا تقبل القسمة طبيعيًّا لا حيويًّا مع بقاء خصائصها كما هي . وبهذا الاعتبار تكون الجواهر الفردة للعوالم كالكريات الحية للحي

فهذه المعلومات ليست من اوهام الماديين بل نتيجة اجتهاد فحول الفلاسفة الطبيعيين والكيماويين . فمن أي الكيماويين يطلب صاحبنا ان يعجبوا من قول سبنسر أم من ايهم يطلب ان يطالبوا بخبر بما افسد من عباراتهم . أيلزم من تماثل الذات

التي لا بدّ من الاعتراف بها وانما ينطبق عليها على الفرد الاول . فلا بدّ اذاً للطبيعي ولطالب علم الكيمياء من التسليم بالجوهر الفرد ولو صعب عليهِ تعيينهُ كما انهُ لا بدَّ لطالب علم الهندسة من التسليم بالنقطة ولو صعب عليهِ تعيينها

والجوهر الفرد اليوم ليس الجوهر الفرد الذي قال بهِ ديموقريطس لاختلاف اسباب القول بهِ . فقول ديموقريطس بهِ من قبيل الحدس واما اليوم فالقول بهِ ليس من قبيل الحدس بل نتيجة لازمة لحقائق علمية كما مرّ . وهذا سبب الاختلاف بين مذهب الكيميين اليوم (لا الماديين وحدهم) ومذهب ديموقريطس وابيقورس (١) فمذهب ديموقريطس ليس «عين مذهب بخنر ومن وافقهُ من الماديين» والماديون او كما يقول صاحبنا «هؤلاء المتفلسفون» لم يجروا في مضايق فلسفة بعض الاقدمين الوهمية وانما جروا على مبادىء علم الكيمياء . ولعلهُ لم يرمهم بالوهم الاَّ ليجوز لهُ «دفع الاوهام باوهام ادنى منها» كما يقول ايضاً والاَّ فاين الوهم في التعليل عن العالم بمادتهِ وعن الطبيعة بسننها

(١) قال ورتز الكيماوي الشهير الرأي الجوهري الذي وضعهُ فلاسفة اليونان وجدَّدهُ فلاسفة الاعصار المتاخرة قد اخذ صورة بينة في اوائل هذا القرن اذ ادخلهُ دلتون اولاً في الكيمياء لتعليل نواميس التركيب الكيماوي . ثم تعزز باكتشافات غيلوساك ميتشرليخ ودولونغ و بتيت اذ ربط حوادث كثيرة مختلفة كيماوية وطبيعية بعضها ببعض . وهو اليوم الراي المعول عليهِ في بناء المادة وقال ايضاً وهو كسائر الآراء الصحيحة قد نما وتعاظم مع الزمان ولم يصدهُ حتى الآن شيء وكسائر الآراء المثمرة قد كان واسطة للنجاح حتى في ايدي محقريهِ وهؤلاء يندرون اليوم والرأي المذكور ثابت لا تزعزعهُ مقاومات البعض التقليدية واعتراضات البعض الآخر الدقيقة

الفلسفة المادية كلها خبط وان مبدأهم الاول وأُسّ فلسفتهم واصل عالمهم وهمٌ ما لهم من حجة لاثباتهِ وهو منفيٌّ من مبادئهم عينها فكل ما شادوهُ عليهِ من فلسفتهم صروح اوهام على اساس موهوم . »

وربما وهم البعض من هذا القول ان مذهب الماديين في أصل العوالم والجوهر الفرد هو غير مذهب سائر علماء الطبيعة والكمياء المعول عليهم اليوم فنحن لا نتعرض في هذا الفصل الاَّ لذكر لمع من هذا المبحث منبهين الى الاغلاط التي ارتكبها مقتصرين على الاشارة فقط الى اوجه الاتفاق والاختلاف بين الماديين وسواهم فنقول :

ذهب علماءُ الطبيعة الى أن العوالم مؤلفة من اجزاءٍ في غاية الصغر لا تقبل القسمة سموها جواهر فردة . وهم وان كانوا لم يروها الاَّ انهم لم يروا بدًّا من التسليم بهـا لموافقتها للعلوم الطبيعية وللكيمياءِ خاصةً فلا يخفى ان التركيب الكيمي هو دائمًا على نسب معينة فالهيدووجين يتحد بالاكسيجين على نسبة ٢ الى ١ فيركب ماءً . ولا يتركب الماءُ على غير هذه النسبة البتة . واذا اختلف التركيب بين العناصر الواحدة فنسبهُ انما تكون على نسبة عددية فالنيتروجين يتحد بالاكسيجين على نسبٍ مختلفة فيركب مركبات مختلفة وهذه النسب هي دائمًا كنسبة ۱ الى ۱ مثلاً او ٢ او ٣ او ٤ او ٥ واذا اتحد عنصران يتحد احدهما بالآخر على نسب معينة بعنصر آخر فنسب اتحادهما بهذا العنصر هي نفس نسب اتحادهما بعضهما ببعض وهذا كلهُ لا يجب ان يكون ان لم يكن في المادة اجزاءٌ لا تقبل القسمة قالوا وهذا ليس وهمًا بل حقيقةً وهو « حجتنا لاثبات الجوهر الفرد » . ثم ان لم تكن الاجسام مؤلفة من اجزاءٍ منفصلة غير متلاصقة لها خاصة التدافع والتجاذب فلا بدَّ ان تكون مؤلفة من مادة متصلة متلاصقة ولا يمكن غير ذلك . فان لم تكن اجزاؤها منفصلة فلا يبقى وجه لتعليل الحالات الطبيعية كالمسامية والانضغاط والانقسام والتمدد والمرونة والجمودة والسيولة والغازية ولا يعرف ما التركيب الكيماوي فان قيل انهُ تداخل شديد بين المواد المختلفة قلنا ما حقيقة هذا التداخل ولمَ يكون دائمًا على نسب معينة ثابتة ولماذا كانت النسب العددية والمكافئات او المعادلات الكيماوية فتعليل التركيب الكيماوي على هذا الفرض لا ينطبق على الحوادث

# الباب الثالث

(في آراء علماء الطبيعة في اصل العوالم وفيهِ ثمانية فصول)

## الفصل الاول

(في الجوهر الفرد)

و بعد ان نفي مذهب دارون بسط الكلام على آراء الفلاسفة «الماديين» في اصل العوالم . « قال ان مذهب اولئك الفلاسفة ان الجواهر الفردة اي اصغر اجزاء المادة التي تنتهي اليها قسمة الاجسام اصل كل ما في السماء وعلى الارض وانها ازلية انشأت كل ما يرى بالتفاعل » ثم ذكر مذهب ديموقريطس في الجوهر الفرد وقال انهُ لا فرق بينهُ و بين مذهب هؤلاء « المتفلسفين » اليوم واستطرد الى ذكر تعريف سبنسر للارتقاء انهُ تغيُّر المتماثلات وتحوُّلها الى مختلفات واستغاث على غرابة هذا القول بجمهور الكيميين اذ صرخ « فليتأمل الكيميون و يعجبوا ما شأوا » ثم ذكر مذهب دلتون المعوَّل عليهِ في الكيمياء وقال « ان كلاًّ من مذهب ماديي هذا العصر ومذهب الكيميين في الجواهر الفردة ينفي الآخر » وذكر ان الجوهر الفرد عندهم متحرك الباطن وان شكلهُ متغير قال« و يستحيل الحركة الداخلية ( كذا ) وتغير الشكل بلا تبدُّل اوضاع الاجزاء وهو القسمة بالفعل فلزم من اقوالهم ان ما لا يتجزأ فعلاً يتجزأ فعلاً وهو محال لانهُ اجتماع النقيضين » وتدرَّع بذلك كلهِ الى نفي الجوهر الفرد لينفي ما يترتب عليهِ حيث قال « ان الجواهر الفردة لم يثبت وجودها فلا يثبت لها علية ولا قدم ولا حدوث » الى ان قال متظاهراً بالظفر « وهنا نلتمس من سادتنا الماديين ان يأذنوا لنا بأن نقول ان

في أي زمن تدخل النفسُ الانسان أفي زمن الحمل أم بعد ثمانية أيام أم بعد شهرين . واذا كان هذا السرُّ لا يزعزع أيمانك في ما خصَّ الفرد فلماذا تخاف منهُ في النوع.» انتهى فمثل هذا القول خيرٌ وأبقى

وقد شعر بعض المذاهب بذلك فاستدركهُ واستعدَّ لهُ فقد جاء في كتاب اللاهوت للدكتور جمس انس الاميركاني في فصل النشوء بواسطة عناية الله ما نصهُ « ولا يخفى أن جمهورًا من أفاضل العلماء المسيحيين مستعدُّون لقبول مذهب النشوء على هذه الصورة متى أثبت بأدلة أقطع وأوضح مما لنا .الى أن يقول وعلماء الطبيعة الذين يأبون الكفر يرومون النظر الى الطبيعة بموجب مذهب النشوء على هذه الصورة لما فيهِ من تسهيل فهم أمور كثيرة لايضاح اسرار الخليقة »

وهذا يدلك على مبلغ هذا المذهب من عقول أهل العصر حتى أعدائهِ. والفضلُ ما شهدت بهِ الاعداء . ولعلهُ يقول انهُ استدرك ذلك في آخر ما كتب اقتداء بمثل هؤلاء الافاضل فنقول لهُ ان استدراكهُ ذلك لا يوازي ضحكهُ و بكاءهُ وهزءهُ بهِ في أولها كما في صفحة ٦ حيث قال « وما ذلك الاَّ هلج تبكي أوائلهُ العقلاء وتضحك أواخرهُ الاذكياء والبلداء بل تكاد القرود تهزأ بهِ والنقاعيات والكيَيسات الهلامية تسخر منهُ » وهو نقضٌ لبدء ولعلهُ من معجزات الاستنتاج أو هو ارتقاء في المذهب وتقهقر في اليقين ولا نعلم ان الضدين اجتمعا في غير ذلك . فعلى الدين ان لا يقف معترضاً في سبيل العلم وان لا يشتبك معهُ في خصامٍ مضرٍ للاثنين ولا يستطيع الدين ان يثبت فيهِ

الساعة التي يتأيد فيها هذا المذهب ينتقض بنيان الفضيلة في البشر » فاجابها دارون بقولهِ « من الواجب ان نرجو ان لا يكون دوام الفضيلة على هذه الارض قائماً على قواعد واهنة بهذا المقدار » على ان هذا الخوف في غير محلهِ ولا يشفُّ كلام دارون عنهُ لانهُ ان صحّ ان أصلنا يعود الى ذوات الايدي الاربع التي كانت تقطن غابات العالم القديم فلا خوف علينا أن نرجع نتعرش على الاشجار ولا ينقص قدرنا عما نحن الآن اناس بين الملائكة والحيوان اقرب الى الملائكة تارةً واقرب الى الحيوان اخرى كذلك ايضاً اذا صحّ ان الضمير تولد في الانسان كما يقول دارون فلا خوف علينا ان نرجع الى الضحايا البشرية والى كل بعضنا بعضاً وقتل اولادنا »

« على ان مذهب دارون قد جعل في ضمائر كثيرين خوفاً آخر حقيقيًّا وهو نفسهُ قلق منهُ قبل غيرهِ ألا هو الخوف على خلود النفس وعلى كل الافكار الروحانية التي هي رجاء الانسان وعزاؤهُ . لكنهم في خطاء من شدة خوفهم فانهم كانوا سابقاً يقولون بخلق خصوصيّ لكل نوع وللانسان خاصةً وهو قولٌ لا يمكن تأييدهُ فبم يمس جانب الله اذا بيَّن العلم الذي لا ينطبق هذا القول عليهِ ان الانواع ومنها الانسان قد تكوّنت بفعل النواميس الطبيعية الواحدة أليس في التعليل عن العالم بنواميسهِ الخاصة زيادة عظمة للقوة التي سنت هذه النواميس . ما ذا يذيع مجد الله اكثر أفلاك الاقدمين الدوار الذي هو سقفٌ مرصَّع بمسامير من ذهب ام العوالم التي لا تحصى الخاضعة لناموس الجاذبية العامّ »

« الاَّ اننا قد تعوَّدنا ان نتصور الله يصنع الانسان كما يصنع الناحت التمثال بحيث ان كلّ شيء يفقد اذا ناقض العلم هذا الفكر الحقير . وانها لدعوى غريبة ان نعارض العلم بفكرٍ تصورناهُ في حال جهلنا فكان يلزم ان لا نذهل عن ان الله اذا كان قريباً من قلبنا فهو بعيد جدًّا عن عقلنا »

« واذا كان في الامكان ان ينتقل من الحيوان الى الانسان بسلسلة انتقالات غير محسوسة فهل يلزم من ذلك أن تكون حالتنا حالة الذباب والنمل واذا لم يلزم ذلك ففي اي زمن من هذه السلسلة تظهر النفس فدارون يقول — لا اعلم الكن هل سألت نفسك

من الذكر في كانون الاول سنة ١٧٧٨ ووضعت في آذار سنة ١٧٧٩ سبعة اجرية انتهى . وامثلة ذلك كثيرة وهذا يقوينا على تصديق ما ذكرهُ الدميري في حياة الحيوان الكبرى قال في وصف البغل « وهو لا يولد لهُ لكن في تاريخ ابن البطريق في حوادث سنة اربع واربعين واربعمائة ان بغلة بنابلس ولدت في بطن حجرة سوداء وبغلاً ابيض قال وهذا اعجب ما سمع انتهى » ولعل الاحياء الاولى كان عقيمها كثر من منتجها لاسباب لا نعلمها ثم انفصلت المنتجة بالانتخاب الطبيعي وغلب فيها ذلك بالوراثة فتكاثرت الانواع وهو ظاهر

---

## خاتمة

( في ان مذهب دارون لا ينقض ايمان المؤمنين )

لقد ضيق خصوم هذا المذهب المذاهب على انفسهم بتحاملهم عليهِ من اجل الايمان وهذا ليس من الحكمة في شيء ولا سيما ان هذا المذهب آخذ بالامتداد يوماً فيوماً ورُبما لا يمرُّ ربع جيلٍ حتى يخلو لهُ الجو من كل معارض . على ان مجال الايمان أوسع من ان يضيق بمذهب النشوء كما اشرت الى ذلك في رسالة وضعتها في الاخلاق بحسب مذهب دارون وارسلتها الى المقتطف في ١٢ مارس سنة ١٨٨٣ لتنشر فيهِ ولما تنشر وكان ذلك على اثر الخلاف الذي حصل في المدرسة الكلية وانتهى بفصل بعض اساتذتها بسبب مذهب دارون في الظاهر واما في الباطن فقل ان السبب كان غير ذلك او كان كما قال لي بعضهم « ليست رمانة ولكن قلوب ملآنة » . وقد قصدت فيها وقتئذ التوفيق بين هذا المذهب والدين حسماً لهذا الخلاف الذي لم تكن نتيجتهُ لتحمد . وقلت من كلام في ختامها ما نصهُ : —

« وهذا المذهب قد هاج الخواطر ضدَّهُ في نفس انكلترا وطن دارون وقد اورد دارون كلام امرأة ساءها مذهبهُ في مقابلة اخلاق الانسان باخلاق النحل قالت « ان

يرمى بقولك « انهُ طار في مركبة الخيال » وهو تعليل طبيعي في الفرع والاصل الاً ان دارون في ملاحظته على تحديد طمسن يقول ايضاً « على ان الفرق العظيم بين هذه الحدود يدلنا كم هي الادلة ضعيفة » الى ان يقول ايضاً « وقد يمكن كما اشار اليهِ السير طمسن قصداً ان الارض كانت في اطوارها الاول معرضة في احوال الطبيعة لتغيرات اسرع وأشد مما هي الآن فحصلت تغيرات اسرع كذلك في الاحياء التي كانت تقطن سطحها في هذه الازمان البعيدة » اه

والحق يقال ان مذهب الانتقال وان كان يعلل بهِ اشياء كثيرة لا تفهم بدونهِ لكن لا ينكر انهُ ناقص كما بسطهُ دارون . قال بريز في كتابهِ — طوائف الحيوان — المطبوع بباريز سنة ١٨٨١ « ان الاسباب الاولى التي احدثت الاختلافات الشخصية والتي لا بدّ من ان كانت كثيرة جدًّا لا تزال مجهولة ويلزم تعيينها وتعيين سبب العقر في الناتج من تصالب الانواع وكذلك المسافات التي يلزم قطعها من النقاعيات حتى الانسان شاسعة جدًّا » لكنهُ يقول ايضاً « ان تلك مسائل يلزم اكتشافها ولا يصح ان تكون اعتراضات على مذهب التسلسل واي مذهب كيماوي او طبيعي لا اعتراض عليه . »

ولا يخفى ان المشهور عن الناتج من تصالب الانواع كالبغل انهُ عقيم لكن يظهر ان هذا العقم ليس مطلقاً واذا اعتبر ذلك تضعف القيمة التي تبنى عليهِ من حيث فصل الانواع . ذكر ماتياس دوفال في جريدة العلم الفرنساوية بتاريخ ٢٦ ك ٢ سنة ١٨٨٤ ان « سنسون ذكر حوادث كثيرة ثابتة فيها حملت البغلة من الحصان وقال ايضاً انهُ من بضع سنين كان في بستان الداجنات باريس بغلة مع اولادها الثلاثة اثنان مولدان منها ومن حصان جزيري والثالث من حمار مصري قال وكذلك ذكر بوفون ان كلباً وطىء في ٢٨ اذار سنة ١٧٧٣ ذئبة لاحد الامراء المسمى سيونتين بوفور فوضعت الذئبة في ٦ حزيران من السنة عينها اربعة اجراء انثى واحدة وثلاثة ذكور وقد حملت الانثى المذكورة من احد الذكور في كانون اول سنة ١٧٧٥ ووضعت في اذار سنة ١٧٧٦ اربعة اجرية ذكرين وانثيين . واعتنى بوفون بتربية زوج منها فحملت الانثى

زمن تكونها قبل ان تبلغ كمال نوعها على اطوار تحاكي الصفوف التي مرت بها انواعها في سلم ارتقائها. فجنين الانسان قبل ان يكمل يمرُّ باطوار موافقة لصفوف كوفيه الاربعة وبين انتقال كل جنين والصفوف التي مرّ بها نوعهُ نسبة شديدة بحيث تطول اقامتهُ على مشابهة صفٍّ كلما كان نوعهُ اقرب الى ذلك الصف وهذا من اقوى الادلة على صحة مذهب التسلسل كما لا يخفى

وأسخف الاعتراضات ما تعلق منها بالزمان فمن المقرر في مذهب دارون كما في مذهب ليل ان الزمان المقتضي للارتقاء ولتكوين طبقات الارض طويل جدًّا الاَّ انهُ غير متفق على تحديدهِ وربما كان تحديدهُ ممتنعاً بالوسائط التي لنا لان اقل خطاء يقع في اعتبار اقل شيء تكون نتيجتهُ مع الزمان الطويل كبيرة جدًّا ربما بلغت الملايين من السنين فقولهُ « ان بلوغ الانواع الحية الى طورها حسب مبادىء الارتقاء الدروني يقتضي ان الاحياء كانت على الارض قبل ان تصلح الارض للحياة » غير سديد لان تحديد السير وليم طمسن لعمر الارض وتحديد المستر ميفار لعمر الحياة لا يفيدان سوى قضية واحدة وهي طول الزمان ولا يفيدان سواها وهو كل ما يلزم في مذهب النشوء وأما كون تحديد ميفار يلزم منهُ ان تتقدم الحياة على تكوين الارض حسب تحديد طمسن ففيهِ نظر قال دارون « ان صح مذهبي فلا بدّ ان الزمان الذي مضى قبل تكون الطبقات الكمبرية السفلى والذي نجهلهُ كان طويلاً جدًّا وربما اطول منهُ بينها وبين اليوم ولا بدّ ان كانت الاحياء في هــذا العهد كثيرة كذلك . الاَّ انهُ يعترضنا هنا اعتراض صعب فان السير وليم طمسن يزعم ان يبس قشرة الارض لا يمكن ان يكون قد تم في اقل من عشرين مليون سنة ولا اكثر من اربعمائة مليون سنة وانهُ يقتضي ان يكون بين ثمانية وتسعين مليون سنة ومائتي مليون سنة وهــذا الزمان كما ترى غير كافٍ لبلوغ الحياة الى اطوارها اليوم بالنشوء والارتقاء » وهذا ما دعا السير وليم طمسن الى القول بان الحياة انما نشأت على الارض من جراثيم اتتها محمولة على رجم الاجرام السماوية لما فرضهُ من عمر الارض كما تقدم ولما علم من وجود مثل هذه الجراثيم الحية في هذه الحجارة المنقضة فقول طمسن بها كما ترى ليس تخيلاً حتى

الباليوثيريوم يشبه الطابير (حيوان اميريكاني شبيه بالخنزير) باطرافهِ ويختلف عنهُ باضراسهِ ويقترب من الكركدن باضراسهِ ويختلف عنهُ بقواطعهِ والانوبلوثيريوم لا يشبه شيئاً مما يوجد اليوم. وكتين مرتين الذي اكتشفهُ حديثاً الموسيو كريفي في طبقات البليوسن لجافا والذي ذكرتهُ جريدة العلم الفرنسوية بتاريخ ١٦ آب من هذه السنة فانهُ يصل بين التين الملوي لطبقة الميوسان والتين الخشن الموجود اليوم في تلك البلاد وغير ذلك كثير. نعم ان المكتشف من الصور الاحفورية المتوسطة ليس شيئاً بالنسبة الى كثرة الاحياء على ان كثرة المكتشف وقلتهُ لا تفيدان سوى كثرة الادلة او قلتها وانما المفيد وجود مثل ذلك ولو مرة حتى يعلم انهُ موجود واذا اعتبرنا الموانع الكثيرة التي تحول دون الابحاث الباليتنولوجية كبعد الزمان وصعوبة المكان وعوامل الدمار وقلة المعلوم لنا من الارض نجد ان هذا القليل المعروف من الاحافير مع ما نعلمهُ من الصور المتوسطة في الاحياء اليوم كما تقدم كاف لان يقنع كل عاقل بصحة مذهب الانتقال ومن يرى ذلك كلهُ ولا يقنع فذلك لانهُ لا يريد ان يقتنع لا لسبب آخر. فقل الآن من المكابر أأنصار هذا المذهب او خصومهُ

ومن ادلة اتصال الاحياء وارتقائها تكوين الجنين فلا يخفى ان كل جنين صادرٌ اولاً من بيضة او بذرة لا يختلف بناؤها الجوهري ولا يختلف بعضها عن بعض الا في الحجم والشكل فقط وهذه البيضة اشبه بالخلية في تكوينها وتنمو نظيرها بالانقسام. ثم ان اجنة الحيوانات اذ تنشأ من هذه البيضة تكون متشابهة. وفي الاطوار الاول يصعب تمييز اجنة ذوات الثدي من اجنة الطيور وسائر اجنة الحيوانات الفقرية. قال فون باير حفظت جنينين صغيرين في الكحول ونسيت ان اكتب اسم كل واحد عليهِ واليوم يتعذر عليّ ان اعرف من أي صف هما أمن صف القواضم أم الطيور أم ذوات الثدي نعم ان اطرافهما لم تكن قد تكونت وهب انها كانت فوجودها في اول تكونها لا يفيد شيئاً لان اطراف القواضم وذوات الثدي واجنحة الطيور وارجلها متشابهة حينئذٍ» ولا تختلف الاَّ بعد ذلك كما ترى من مقابلة صور الاشكال السابقة وهي صور جنين الانسان والكلب والدجاجة والسلحفاة في اطوار مختلفة ومعلوم ايضاً ان الاجنة تمرُّ في

نوعٍ ونوع ولا ينكرون الصعوبات التي تعترضهم في ترتيب الانواع ولذلك هم غير متفقين على عددها . فقد عد بعضهم لجنس الهيراسيوم الكثير جدًّا في اوربا ٣٠٠ نوع في المانيا وحدها وأما فريبسس فجعلها ١٠٦ ولوك ٥٢ نوعاً صحيحاً فقط . والاختلاف بينهم كثير كذلك على عدد انواع عليق الجبل فقد عدها بعضهم ١٠٠ نوع وغيرهُ نصف ذلك وغيرهُ اقل . وجعل بخستين طيور المانيا ٣٦٧ نوعاً وريخنباخ ٣٧٩ ومايرولف ٤٠٦ وبرهم رفع عددها الى ٩٠٠ فلماذا هذا الاختلاف بين الطبيعيين على عدد الانواع ان لم يكن لكثرة الصور المتوسطة التي تجعل الفصل بينها صعباً

واذا خفيت الصور المتوسطة بين كثير من الانواع فلا تخفى أسباب ذلك على الناقد البصير . فمن المعلوم ان تنازع البقاء يكون أشد كلما زاد تقارب الصور بعضها الى بعض . ونتيجة شدة هذا التنازع سرعة انقراض الصور المتوسطة فان نوعاً واحدًا اذا ولد تباينات مختلفة فالتنازع بينهُ وبين تبايناتهِ يكون اشدّ في الاقرب اليهِ منها وأضعف في الابعد عنهُ . ونتيجة ذلك بقاء الصور المتباعدة وفقدان الصور المتوسطة . ولذلك لم يكن صور متوسطة بين الصفوف التي هي في حالة الانقراض او الوقوف كالنعام والفيل والزرافة وعديمات القواطع والارنثورنكس . فانها لا تولد تباينات جديدة ولذلك تؤلف انواعاً مستقلة بخلاف طوائف الحيوان التي في حالة النمو فانها تنحل الى عدة انواع جديدة بالتباينات التي تنشأ منها ولذلك يوجد صور متوسطة كثيرة يحار فيها المرتبون ككثير من المجترات والقرود الصحيحة وقرود امركا ذات الاذناب الماسكة واكثر القواضم وغيرها بحيث ان الحد بين الانواع فيها وهميّ لا حقيقيّ

وان كان الثاني أي ان كان المراد بهِ فقدان الصور المتوسطة الاحفورية فهو ايضاً غير صحيح لانهُ يوجد صور احفورية متوسطة كثيرة وكل يوم تكشف صور جديدة كالاركيوبتركس الذي يصل بين الزحافات والطيور كما بيَّن ذلك هكسلي والهيباريون الذي يصل بين الفرس والانخيثريوم المشتقّ هو نفسهُ من الباليوثريوم كما بيَّن ذلك جودري ( البرت ) في كتابهِ تسلسل عالم الحيوان في الاطوار الجيولوجية . وكذلك بيَّن ولدمار كوالسكي وحدة اصل الخنزير والمجترات وقد عرف كوفيه ان

وهكذا في النبات فقد تكوّن منهُ اولاً انواع الفطر ثم السراخس ثم ذوات الزهور او البادية اعضاء التناسل واولاً المتعرية البزور منها ثم البادية أعضاء التناسل المغطاة البزور واولاً العديمة التويجات منها ذات الغلاف الواحد ثم التويجية ذات الغلافين واولاً الكثيرة البتلات منها ثم الملتصقة البتلات وهذا الترتيب دليل قاطع على الارتقاء

وهكذا يقال ايضاً عن تاريخ الانسان المتقدم دائماً في سبيل تقسيم الاعمال والتدرج في سلم الارتقاء .ومن ينكر ارتقاء الانسان في التاريخ يلزمهُ أن يقيم البينة على ان العصور الماضية كان فيها ما يعادل عصرنا فانهُ لا يستطيع احد أن يقول ان التاريخ في طاقتهِ أن يذكر عصراً من العصور الحالية بلغ فيهِ الانسان درجة تعادل درجتهُ اليوم من الارتقاء في العلوم والمعارف . ولا يتوهم انهُ بلغ الغاية في الكمال والنهاية في الحسن ولكن كل شيءٍ نسبيّ فالقرن التاسع عشر لا يفاخرهُ قرنٌ ما بعد المسيح ولا قبلهُ من التاريخ المعروف . على انهُ لا يقتضي أن يكون الفرق كبيراً اذ لا يخفى عليك ان المدة التي تفصل بين أطوار تاريخهِ تكاد لا تحسب لحظة بالنسبة لتاريخ العالم العضوي وتقهقر بعض الامم ووقوف البعض لا يتخذ حجة علينا لانكار الارتقاء فهما مردودٌ عليهما بما قيل من تقهقر بعض الاحياء ووقوفها اذ لا يكون ذلك الاَّ مع ارتقاء المرتقي عنهُ وهذا باعتبار الكل يحسب ارتقاءً

---

# الفصل السابع

( في دفع اعتراضات على مذهب الارتقاء والتسلسل )

أما اعتراض فقدان الصور المتوسطة التي يقتضيها مذهب التسلسل فاما أن يراد بهِ الصور الحية أو احافيرها . فان كان الاول قلنا لهُ ان الصور المذكورة موجودة بكثرة والذين يعترضون هذا الاعتراض وهم اصحاب الانواع كثيراً ما يقفون محتارين بين

في الحيوان او لوجب ان لا يكون سواها في النبات . فنقول لهُ ان ذلك دليل على عدم فهمهِ لمذهب دارون فمذهب دارون لا يعلم هذا التعليم وانما يعلم ان الاحياء كلها من اصل واحد ومن اصول واحدة كالاغصان للشجرة كما شبهها دارون نفسهُ فكل منها يسير في جهة ولا تتصل الاغصان بعضها ببعض الا بالاصل فقط فلا ينشأ بعضها من بعض رأساً . فنمو البعض غير متوقف على نمو البعض الاخر التزاماً باعتبار كونهِ ناشئاً منهُ رأساً . ولذلك قد يكون في البعض المرتقي كلهِ حالات تكوينية ناقصة عن البعض الادنى منهُ كلياً وبالعكس كما ان بعض الحالات الكمالية في البعض لا توافق الاخر فتقل ويكثر ما سواها واما من حيث النوعية والجنسية والكلية فالأكمل دائماً ارفع وفي النظر الى مذهب دارون يجب اعتبار احوال كثيرة مهمة مختلطة جدًّا تفوق حد الحصر تكيف كل شيء بحسب الزمان والمكان وما شاكل فالقضية الواحدة التي توجب شيئاً تحت احوال معلومة ينشأ عنها شيء آخر تحت احوال اخرى وهكذا تتنوع الاشياء الى ما لا حدّ لهُ خلافاً لما يتوهمهُ البعض من ان الطبيعة تفعل ببساطة كلية ولا يخفى نتيجة كل ذلك في البعض واما في الكل فالنتيجة واحدة وفي بقاء الانسب وارتقاء الكل

والارتقاء تؤيدهُ الابحاث البالنتولوجية خلافاً لما قال من انها تنقضهُ (١) ومن العجيب ان تدرج رتب الحيوان في طبقات الارض قد اثبتهُ اغاسيز نفسهُ مع انهُ من الد اعداء مذهب التسلسل وهو من اكابر علماء الطبيعة الذين يقولون بخلق الانواع . فمن المقرر ان اقدم احافير ذوات الفقر المعروفة -هي من ادنى رتبة الاسماك وبعدها النصف مائية وهي اكمل ثم الطيور وذوات الثدي وهي اكمل الجميع . واول احافير ذوات الثدي من رتبة ذوات الثدي العديمة المشيمة وما كان من هذه الرتبة انقص جاء اولاً ثم تبعهُ ما كان اكمل وهلم جرًّا ولم ينشإِ الاصل الذي خرج منهُ الانسان الاَّ في اواخر الطور الثلاثي للارض

---

(١) قال البرت جودري استاذ البالنتولوجيا في موزيوم التاريخ الطبيعي بباريس ( اننا نجهل ماذا كان قبل الطور الكمبري ولكن تاريخ الاحياء من هذا الطور الى اليوم يدل ( على الارتقاء )

# الفصل السادس

## ( في الادلة على الارتقاء والتسلسل )

ادلة الارتقاء كثيرة جدًّا نذكر منها تقسيم الاعمال في الاحياء فكلما ارتقى الحي تقسمت الاعمال وتميزت الاعضاء القائمة بها وهو واضح . فتقليل عدد الاعضاء المتماثلة يعد ارتقاءً . قابل الحيوانات المفصلة الدنيئة ذات الارجل الكثيرة بانواع الرتيلاء التي لها ثماني ارجل وبانواع الذباب التي لها ست . وقلة عدد الارجل في الحلقية ارتقاء وكثرة عدد الفقرات المتماثلة في الاسماك والنصف مائية تأخر ولذلك فهي دون الطيور وذوات الثدي . وعلى هـذا الناموس الازهار الكثيرة العُسُب انقص من الازهار الشبيهة بها والتي عسبها قليلة وبالجملة كلما نقصت الاعضاء المتماثلة في الحي عدَّ ذلك فيهِ ارتقاءً

ومن الادلة ايضاً الحالة الخنثوية فان هذه الحالة تكثر كلما هبطت في دركات سلم الاحياء وتقل كلما ارتفعت في درجاتهِ حتى يستقل الذكر والانثى كل منهما في فرد وحدهُ . قال مكس وبرفي جريدة العلم الفرنسوية بتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٨٨٤ ما نصهُ « ومما ينبغي اعتبارهُ ان الحالة الخنثوية الكثيرة في الاسماك تقل كلما ارتفعت في سلم ذوات الفقر اذ يتضح تمييز الجنس اكثر فاكثر . على ان بعض النصف مائية كالعلجوم الذي هو بالحقيقة خنثى فان فيهِ غدة غير صغيرة امام الخصية هي بالحقيقة مبيض وبيوضهُ صحيحة التكوين لكنها لا تلقح ولا تبلغ درجة النضج » قلنا وهذا دليل من الوف على سبب الاعضاء الاثرية وعلى الانتقال والارتقاء

ولعلَّ من يتوهم ان الارتقاء سلسلة متصلة الحلقات منتقلة من الجماد الى النبات ومنهُ الى الحيوان على خط مستقيم — كما يريد خصوم مذهب دارون ان يفهموه — يعترض علينا فيقول ان الحالة الخنثوية لو كانت دليلاً على الارتقاء لما اقتضى ان تكون

والطبيعة بذلك لا تفعل لغاية كما توهم حيث قال في بعض كلامهِ ما معناهُ : ان الماديين يثبتون القصد للطبيعة و ينفونهُ عن سواها .فما هذا الخبط وهل يبلغ التواءُ الفهم هذا المبلغ في من نصب نفسهُ في مقام المعترض . فالماديُّون بل الطبيعيون اجمع لا يثبتون للطبيعة قصدا ولا غايةً وانما يثبتون لها اعمالاً لازمة ضرورية لنواميس معلومة. والارتقاء لا يخرج عن هذا الحكم فانهُ لما كان التنازع يحصل لوجود الاختلاف في قابليات الاحياء المتنوعة والاحوال الخارجية كان لا بد من الانتخاب الطبيعي اي بقاء البعض وزوال البعض . ونتيجة ذلك في كل الافهام بقاء الانسب ونتيجة النتيجة الارتقاء عموماً . ولو كانت الطبيعة تفعل لقصدٍ او لو كان القصد موجوداً في اعمالها لما اقتضى ان يحصل فيها شيءٌ من الوقوف او التقهقر ولوجب ان يشمل الارتقاء كل متولداتها . فسيرها المعرّج من اقوى الادلة على نفي القصد فيها من كل نوع واثبات الضرورة . أيحتاج بعد ذلك الى دليل على كون الارتقاء امرًا طبيعيًّا واجبًا ضروريًّا لا قصد فيهِ ولا غاية

وهنا ملاحظة لا يحسن الاغضاء عنها وهي متحصلة من اقرارهِ في انكارهِ الارتقاء بأن الاحياء قديمة جدا أي منذ آلاف وربوات من السنين عملاً بشهادة الجيولوجيين والباليتولوجيين الذين استند اليهم فانكارهُ الارتقاء لم يثبت وانما ثبت عليهِ التسليم بأن الاحياء اقدم جدًّا مما يعتقد هو والمذهب المنتصر هو لهُ اللهمَّ الاَّ ان يعود يكرُّ ثانية على هؤلاء العلماء كرَّتهُ على اصحاب مذهب داروِن ويطعن تعاليمهم وتعاليم سائر علماء الارض باشعة ايمانهِ ويذبحها بقواطع برهانهِ فلا حول ولا قوة الاَّ بالله

نقول لهُ ان انكارهُ الارتقاء عموماً لعدم ارتقاء البعض كانكارنا الاسماء الممتنعة من الصرف لانصراف البعض في بعض الاحيان فهل يمنع صرف البعض امتناع صرف الكل. كذلك وقوف بعض الاحياء او تقهقرها لا يمنع الارتقاء عموماً . وان قال لنا ان صرف ما لا ينصرف جائزٌ للضرورة قلنا لهُ ان تقهقر ما يرتقي انما يكون للضرورة ايضاً والاَّ لما كان للفظة الانتخاب الطبيعي معنى في تنازع البقاء فان المناسبة في التنازع ليست واحدة في كل الاحوال لان التكوين الموافق في بعض الاحيان قد لا يوافق في البعض الآخر فيفقد مثال ذلك لو تعودت احياء حياتها مستقلة ان تعيش على غيرها كالحلميات لما عاد بها لزوم لحواسها الحادة واعصابها الشديدة وحركاتها القوية فتفقدها بل قد يكون الكمال نقصاناً . فان مثل هذه الاحياء تكون فيها اعضاؤها المذكورة في حياتها الحلمية سبباً لضعفها لاقتضائها غذاء لا حاجة بها اليهِ بدونها وفقد هذه الاعضاء يحسب فيها والحالة هذه امتيازاً في تنازع البقاء مع الحلميات المختلفة اذ يتوفر لها هذا الغذاء فتستخدمهُ لاعضائها الاخرى . لان الاحتياجات في مثل هذه الحال كلما قلت زاد امتياز اصحابها فتقوى وترتقي وغيرهما مما هو دونها يضعف ويتأخر . وما يقال على الجسم يقال ايضاً على كل عضوٍ من اعضائهِ . ولئلا يبادرنا بما ربما يحصل لهُ عن ذلك من الارتباك ويزيد في الطنبور نغمة نقول لهُ ان الارتقاء نوعان خاص وعام ولا يجب الخلط بينهما. فالخاص قد يكون نقصاً للزوم مناسبتهِ لاحوال خصوصية كما في مثال الحلميات المار ذكرهُ واما العام فارتقاء مطرد للزوم مناسبتهِ لسائر الاحوال . ونتيجة ذلك كله الارتقاء عموماً ولا ينكرهُ الاَّ من يجهل مبادئ التاريخ الطبيعي ولا يدري حقيقة مذهب دارون او يعلم ولا يريد ان يعلم او يدري ولا يريد ان يدري. فقول اصحاب مذهب دارون ان الارتقاء غالب لا مطرد انما يعنى بهِ ارتقاء الافراد والاَّ فالارتقاء مطَّردٌ وما استشهد بهِ من كلام بخنر توهمٌ منهُ او تصرف في المعاني والاَّ فهذا كلام بخنر في ذلك قال « فالنمو الى الكمال يصاحب الفرد غالباً لا دائماً » فاراء القوم ليست كما ادعى مجموع فروض وتصورات واوهام — ويا ليت شعري بما ذا يجيب لو وقف موقف المطالب بالبيّنة عن حقيقة دعواهُ

المقدمة للحشرات وللنصف مائية مما يدل على ان اصل الجميع واحدٌ ايضاً

فهل مثل هذا القول « هلجٌ يضحك الاذكياء ويبكي العقلاء بل البلداء » لا لعمري ولكن هي غايات معدودة في النفس وأميالٌ موروثة في العقل ان لأنَ الواحد لم يلن الآخر فليضحك خصوم مذهب دارون أو فليبكوا ما استطاعوا وليسخروا بهِ ما شاءوا انهُ ليبلغ بهِ البحث مبلغاً ينقلب لهُ وقتهُ سكينة فيصير المخطوف مألوفاً والوميض شهاباً ساطعاً ويعلم أنهُ هو الحق الذي لا جمجمة فيهِ . وهل يسخر بالعلم وأفراد رجالهِ احتراماً لامور لم تؤَيدها الاَّ الاكثرية المؤلفة غالباً من عامة الناس . وان كانوا يضحكون الآن من دارون ومن حذا حذوهُ فقد ضحكوا من قبلهِ على كبلر وغليلي ونيوتون وغيرهم من أكابر العلماء. وان كان لا يزال بعض العلماء الاعلام الذين يصعب عليهم في شيخوختهم تغيير ما نشأوا عليهِ وشابوا فيهِ غير موافقين لدارون في مذهبهِ فقد خطَّأ نيوتون وغليلي وكبلر علماء كثيرون من معاصريهم ومناظريهم وثبوتهم في مبادئهم من أقوى الادلة على صحة مذهب دارون بل تغييرهم لمبادئهم ربما انتقض بهِ ركن عظيم من اركانهِ اذ يضعف مفعول العادة والوراثة وتنازع البقاء وكلها ذات شأن عظيم فيهِ

---

# الفصل الخامس

## ( في الارتقاء )

نقول والارتقاء في مذهب داروين امر مقررٌ أخذاً بشهادة البالينتولوجيين والطبيعيين المعوّل عليهم وهو نتيجة لازمة للانتخاب الطبيعي. والخصم لم ينكرهُ الاَّ بناءً « على أن من الاحياء ما لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج في سلم الارتقاء فبقاياها منذ ألوفٍ وربوات من السنين لا تختلف عنها اليوم » وهو انكارٌ اصم لا يصح لاعتبار الجزء في مقام الكل ونحن نزيدهُ على قولهِ ذلك ان من الاحياء ما يتقهقر ايضاً لكن

فلنرَ اذا كان مثل ذلك يوجد في الانسان »

قالت « وفي القرود الشبيهة بالانسان ترى الحزمة العضلية للابهام تنفصل عن جسم العضلة القابضة الغائرة للاصابع اكثر فاكثر كلما ارتفعت في سلم هذه القرود كما انك ترى في الانسان في حالات شاذَّة العضلة القابضة الخاصة بالابهام تختلط بسائر القوابض. وهذا الاختلاط يكون على درجات مختلفة وقد ذكرهُ كثيرٌ من المؤلفين فلا سبيل للريب فيهِ وقد ذكر تتوانهُ رأهُ في عشرين حالة وفي ثلاث منها كان تامًّا وقد ذكر ولشم حالة من هذا القبيل وكذلك رأى كلٌّ من جروبر وجستاف وججنبور وشدزنسكي مرَّة واحدة امتزاج العضلتين القابضتين الغائرتين امتزاجاً تامًّا مع فقد وتر الابهام كما في الاوران اوتان »

أَفلا تكفي هذه الشواهد لان تقنعنا بأن استقلال العضلة القابضة للابهام في الانسان نتيجة الارتقاء والاستعمال . ولنا دليل آخر على صحة هذا الرأي في الفروع البشريَّة السفلى كالسود حيث هذه العضلة ليست مستقلة كما في الفروع المرتقية وعليهِ فالهاوية التي ارادوا ان يقيموها بين الانسان وسائر البريمات لا حقيقة لها

ولا يخفى ما بين أَيدي الحيوانات اللبونة من اختلاف الشكل في الظاهر واما في الباطن فهي متكوّنة على قياسٍ واحد ومتفقة في عدد العظام التي تكوّنها وفي وضعها كذلك كما يظهر لك من النظر الى الاشكال التسعة والسابقة هي صور الهيكل العظمي لايدي الحيوانات اللبونة التسعة . وليس العجب انك ترى هذه المشابهة بين يد الانسان ( ش ١ ) والكوريلاَّ ( ش ٢ ) والاوران ( ش ٣ ) لكن العجب انك تراها كذلك بين يد الانسان والكلب ( ش ٤ ) وزعنفة الفقمّ ( ش ٥ ) والدلفين الصدريّة ( ش ٦ ) حتى جناح الخفاش ( ش ٧ ) ويد الخلد الشبيهة بالمعول ( ش ٨ ) والطرف المقدم لاول هذه الحيوانات وهو الارنيثورنكوس ( ش ٩ ) ايضاً . فبم يعلل هذا الاتفاق في عدد العظام ووضعها وارتباطها العضلي مع هذا الاختلاف في شكلها الظاهر الاَّ باشتراك اصلها واثر الوراثة والمطابقة فيها . واعجب من ذلك كلهِ ان هذا الاتفاق محفوظ ايضاً في سائر ذوات الفقر التي هي ادنى من الحيوانات اللبونة كما في اجنحة الطيور والاطراف

يجعلهُ نوعاً قائماً بنفسهِ لا صلة بينهُ وبين القرد فلم ينجحوا . واقوى حججهم ان الانسان لهُ عضلة طويلة خصوصية قابضة للابهام متميزة عن سائر القوابض والقرد ليس لهُ ذلك . فقالوا ان بناء الابهام العضلي كاف وحدهُ لجعل الانسان منفصلاً عن الحيوان الاَّ ان هذه الدعوى باطلة فقد جاء في جريدة العلم الفرنساوية بتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٨٨٤ ما نصهُ « لقد بالغوا كثيراً بالقيمة التي يعدونها لهذه الصفة . ويصح لنا ان نرد على ذلك كما رد عليهِ كارل فوخت ودلي بقولنا ان هذه الصفة وان صحت لا تفيد سوى وصف يصح على التباين فقط لولا ان لنا ادلة تشريحية تكفينا مؤونة هذا القول » ثم بسطت ذلك بكلامٍ نؤثرهُ عنها قالت :

« ان اصابع الانسان تنقبض بواسطة عضلتين منفصلتين الواحدة عن الاخرى احداهما قابضة مشتركة تنشأ من الوجه المقدم للزند ومن النصف الانسي للرباط بين العظمين وتنتهي في سلاميات الاصابع الاربع الاخيرة . والثانية قابضة خصوصية للابهام تنشأ من النصف الوحشي للرباط بين العظمين ومن السطح المقدم للكعبرة وتندغم بسلامى الابهام الظفرية . فهذا الوضع يجعل حركات الابهام مستقلة فلا يشترك بحركة الاصابع كما في بعض القرود ولا ينقبض اضطراراً لانقباض السبابة كما في بعض القرود الشبيهة بالانسان كالكوريلاَّ والشمبانزي »

« فخصوم مذهب النشوء يسألونك دائماً ان تريهم في القرود اوضاعاً تشريحية خاصة بالانسان على ان احتجاجهم هذا فاسد كاحتجاج من ينكر ان الفرس آتٍ من الهيبوريون فيطلب اليك ان تريهُ هيباريوناً ذا ظلف واحد كحافر الفرس . على ان الهيباريون الوحيد الظلف لا يكون حقيقةً الهيباريون نفسهُ وانما يكون الفرس او الاصل المشتق منهُ وهكذا القرد ذو القابضة الابهامية المستقلة لا يكون القرد بل الاصل المرتقي عنهُ الانسان . ولكن لو رأوا فرساً ذا ثلاثة اظلف ( وهذه الحالة التقهقرية كثيرة) لما امكن فهم ذلك فيهِ الاَّ بناموس الاتافيسم ( اي الرجعة كما اصطلحنا عليهِ في كتاب بخنر ويراد بها ظهور صفات في النسل غير موجودة في آبائهِ القريبة ولا توجد الاَّ في اجدادهِ البعيدة ولا حاجة الى القول بان هذا الناموس يثبت القربى )

سادساً  كم هي الانواع وهل جمهور الطبيعيين متفق على عددها واذا كان غير متفق فلماذا هذا الخلاف . وهل من فاصلٍ يفصل النوع عن التباين فصلاً تامًّا واذا كان هذا الفاصل لا يوجد فما سبب هذا الارتباط ان لم يكن تكوُّن الانواع من التباينات والتباينات من الافراد

سابعاً  واخيرًا . لو كانت الانواع نتيجة خلق خصوصي لما اقتضى ان يكون فيها شيء من الاعضاء المسماة اثرية او لم يكن من الواجب ان كل نوعٍ يتضمن فيهِ وفي جرثومتهِ كل الاعضاء اللازمة لهُ لا اكثر ولا اقل . والاَّ فما ( معنى الخلق على هذه الصورة واين الحكمة وما هي الغاية وهل يمكن تعليل هذه الاعضاء تعليلاً يرضي العالم ويقنع العاقل بغير مذهب دارون أليست رابطًا يربط الصور بعضها ببعض وبما تقدمها من الاجداد البالية التي تقادمت عليهِ العصور وتقلبت عليها الدهور . أيحتاج بعد ذلك الى دليل على كون الحيّ متصلاً بعضهُ ببعض بسلسلة انتقالات وان خفيت في البعض لاسباب طبيعية معلومة الاَّ انها ظاهرة في البعض الآخر بما يصح معهُ القياس ويتأيد بهِ البرهان او يا ترى لا يجوز للطبيعيين القياس على الاختبار ويجب لسواهم بدون ذلك ام هل يعدُّ مثل هذه المعلومات افتراضات واباطيل واضاليل وغيرها مما لا يستند الى شيء من العلوم الطبيعية يحسب حقائق ام لعلَّ اعظم الحقائق ما بني على الاوهام كما يقول الفارياق في كتاب الساق على الساق

---

## الفصل الرابع

( في الانسان وسائر الحيوان )

ان الانسان كالحيوان متكوّن على نفس النواميس التى تكوّن بموجبها عالم الاحياء والانثروبولوجيون بعد تشريح اعضائهِ ومراقبة قواهُ العاقلة ومقابلتها بالحيوانات الاخر الاقرب اليهِ لم يروا بدًّا من اثبات حيوانيتهِ اي اثبات الاصل الحيواني لهُ . وقد اجتهد خصوم التسلسل كثيرًا لكي يقيموا بينهُ وبين الحيوان فاصلاً تشريحيًا

وتزيد في طوله . . . وهذا التكوين نشأ في الاصل عن العادة ثم صار مع الزمان طبيعيًا لا حاجة فيه الى العادة . فان المني يأتي من كل اجزاء البدن صحيحًا من الاجزاء الصحيحة وغير صحيح من الاجزاء غير الصحيحة . فاذا كان الآباء الصلع يلدون اولادًا صلعًا وذوو العيون الزرق يلدون اولادًا بعيون زرق مثلهم والحول حولاً نظيرهم الخ . فما المانع ان اناسًا طوال الرؤوس يلدون اولادًا طوال الرؤوس نظيرهم . . . واما اليوم فانقرض هذا الجيل لان العادة قد ضاعت بمخالطة الشعوب الاخر له » اه

خامسًا لماذا كانت الاعضاء والصفات تضعف وربما تلاشت بالاهمال والترك وتنمو وتقوى بالاستعمال والتمرين ان لم يكن للعادة تأثير ظاهر . ولو لم يكن للعادة مفعول لما اقتضى ان يكون شيء من ذلك كله . اذكر اني من ثلاث سنوات شاهدت رجلاً المانيًا اقطع الذراعين خلقةً من عند قرب مفصل الكتف وسائر جسده نامٍ جدًّا وكان طويلاً ضخماً فكان يستعمل رجليه لقضاء جميع حاجاته كاستعمال امهر الناس ليديه ويأكل بالسكين والشوكة برجليه وهو جالس على المائدة ورافعهما عليها حتى كان يتعذر على من يجهله ان يعرف انهما رجلاه ورأيته يلعب بهما على ( المندولينا ) وهي آلة كالقانون عندنا واصغر منهُ بما يطرب القلوب ويذهل العقول . وفتح بهما زجاجة بيرا بالآلة المعروفة ولعب بالورق مع احد الحضور باللعبة المعروفة ( بالاكرته ) فكان يخلط الورق برجليه وهو رافعهما على مائدة اللعب خلطًا يعجز عنهُ مهرة اللاعبين وزد على ذلك انهُ كان يجمعهُ بصناعة غريبة حتى انهُ غلب خصمهُ مع كونه من الماهرين بهذا الفن وقد اطلق برجله رفولفرًا واصاب الهدف بالرصاص وعند تأملي اصابع رجليه وجدت ان الابهام اكتسب بالعادة قوة الانضمام الى سائر الاصابع كابهام اليد والاصبع الثاني بعد الابهام اكتسب طولاً يكاد يبلغ طول السبابة ولا ريب ان هذا الرجل اذا ولد اولادًا بلا يدين مثلهُ وولد اولادهُ مثلهم على بضعة اجيال تحول الرجل فيهم بالوراثة والمطابقة يدًا بكل صفاتها . لان التغير الذي حصل في رجليه كما رأينا مهم جدًّا والزمان الذي تم فيه ذلك ليس شيئًا بالنسبة الى الاجيال الطويلة لتاريخ الحياة فانهُ لا يكاد يحسب معها طرفة عين

# الفصل الثالث

( مسائل على الخصم مشاكل )

وان بقي عندك ريب فقل لي

أولاً لماذا هذا الاختلاف في الاحياء باختلاف جنس المعيشة والاقليم وما شاكل ان لم يكن فيها ميل الى التغيّـر بحسب الاحوال الخارجية ولماذا نفس هذا الميل الى التغيّـر ان لم يكن هو أصلهُ ناشئاً عن مثل هذه الاحوال

ثانياً لماذا هذا التنازع بين الاحياء ان لم يكن هذا الاختلاف يكسبها قابليّـات وجوديّـة مختلفة بعضها اصلح من بعض في بعض الاحوال وغير صالح في البعض الآخر

ثالثاً ان لم يكن الانتخاب الطبيعي نتيجةً لازمة للتنازع فلماذا كان هذا النوع مثلاً لا يقوى على الثبات في مكانٍ ويقوى عليهِ في مكانٍ آخر أو لماذا كان بعض الانواع يضعف وربما تلاشى امام البعض الآخر

رابعاً ان لم يكن للوراثة الطبيعية يد قوية في نقل الصفات فلماذا كانت الصفات الطبيعية والادبية العارضة كالعيوب والالوان والامراض والاميال العقلية وسائر الصفات المسمَّاة أدبية تنتقل في النسل واذا توفرت لها الاسباب الطبيعية كجنس المعيشة والاقليم والتوليد فلماذا كانت تنحصر في النسل وتصير لازمة ضرورية أي جوهرية

قال ابقراط في كتاب الاهوية والمياه والبلدان « اني أغضُّ النظر عن الامم التي تختلف قليلاً فيما بينها واقتصر على ذكر الاختلافات العظيمة الناشئة اما من الطبيعة واما من العادة واذكر أوّلاً جيل الميكروسفال ( ذا الرأس المتطاول ) فان هذا الجيل لا يوجد جيل يشبههُ في تكوين الرأس ... وفي الاصل كانت العادة سبباً لطولهِ وأما الآن فقد صار للطبيعة يدٌ في ذلك واصل هذه العادة انهم يعتبرون طول الرأس من علامات النبالة . . . واوّل ما يولد الطفل اذ تكون اعضاؤهُ مسترخيةً ورأسهُ ليناً يضغطون الرأس بين اليدين حتى يتطاول ويشدُّونهُ بربط وآلات مناسبة يفقد بها شكلهُ الكروي

مع ذلك . فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الاوَّل فاذا جاءَت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت للاولى أشدَّ مخالفةً ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة » اه وهذا القول اذا أطلق على أثر الطبيعة وأطوارها في الاحياء لم يلزم أن يضاف اليهِ شيء لتعليل المباينة في مذهب داروين

قلنا واذا لم يمكن بعد قطع هذهِ المسافات الطويلة أن تبقى الابناء كالآباء أفلا يصير الاختلاف بعيداً جدًّا واذا بعد أفلا يصير جوهريًّا (لا تنسَ ربوات الاجيال) أولاً تكون نتيجتهُ تكوُّن التباينات والانواع وما شاكل . مثال ذلك لو نمت نباتات مختلفة في أرض يابسة لاقتضى أن تتنازع أولاً مع اليبوسة وثانياً بعضها مع بعض . ولما كان الوبر الدقيق الذي يكسو الوَرَق يفيد لامتصاص الرطوبة من الهواء كان من الضروري أن يفوز في هذا التنازع ما كان هذا الوبر في ورقهِ كثيراً ويهلك ما سواهُ ثم يقوى هذا الوبر في الجيل الثاني بالوراثة والانتخاب والتنازع ويتميز جيلاً عن جيلٍ حتى يتكوَّن منهُ نوع جديد . ثم ان نتائج الاختلاف لا تقتصر على عضو واحد بل تمتد الى سائر الاعضاء فيحصل عن زيادة نمو وبر الورق نقصانٌ في نمو أعضاءٍ أخرى كالزهر مثلاً لانصراف جزء من غذائهِ في نمو الاوراق فيكون لتنازع البقاء نتيجة أخرى غير الانتخاب الطبيعي وهي « التحويل » أيضاً . وهذا كل ما يلزم لتحول الاحياء وتكوُّن الانواع فكان الاولى بهؤلاء الخصوم الحريصين على الموروث أن يقصروا تشبُّثهم على مبدإ الحياة لا على فعلها في تحويل الانواع لان الاتفاق على الحياة — أقوة طبيعية هي أم قوة فائقة الطبيعة — ربما كان أبعد من الاتفاق على تحوُّل الاحياء ولا يخفى انهُ كلما بعد الاتفاق كان ذلك أنسب لهم

الطبيعي ليس فرضاً بدون اثبات أو رأياً من صوَر الوهم كما قدمت وكما يدَّعي خصوم داروِن لان داروِن كما رأيت لا يقول في تحوُّل الاحياء بأسباب طبيعية مجهولة حتى يكون الانتخاب فرضاً بل يجعلهُ نتيجة لازمة لاعمال حيوية معروفة كالمطابقة التي هي نتيجة التغذية والاختلاف الذي هو نتيجة المطابقة والتنازع الذي هو نتيجة الاختلاف . فالانتخاب الطبيعي نتيجة لازمة للتنازع ولا يصح في قياس عاقل أن يجعل الانتخاب الطبيعي بعد ذلك فرضاً ولا سيما اذا كان عندهُ أقل المام بمباديء الفيسيولوجية

وربما سلَّم خصوم داروِن بالاختلافات المذكورة ولكنهم لم يسلموا بصيرورتها جوهرية بحيث تتكوَّن عنها الانواع فقالوا ان الاختلافات لا تتناول الاَّ الاعراض فقط . فنقول لهم انهُ لا يلزم لاثبات مذهب الانتقال غير التسليم بحصول الاختلاف لاختلاف الاحوال . فالاختلاف الذي يكون بين الاحياء يجعل الاولاد تختلف فيما بينها وتختلف عن الاصل المتولدة منهُ .و بتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي يهلك بعض الاولاد و يبقى البعض الآخر .فهذا الباقي مختلف عن أصلهِ كما رأيت ومختلف فيما بينهُ ولا يخفى ان في البيولوجية ناموساً معلوماً كثير الاعتبار جدًّا هو ناموس ( الوراثة ) فهذا الباقي المختلف والمتميز ببعض صفات مناسبة لاحوال المكان والزمان تنتقل صفاتهُ المتميز بها في بذارتهِ أو نسلهِ وتتوضح أكثر وتتكيَّف بكيفيات أخر تختلف عنها في الاصل . وقُل مثل ذلك أيضاً عن بذارة هذا الباقي وهكذا عن بذارة بذارتهِ وانظر الى ذلك بتلسكوب الزمان في الوف الاجيال . بل ربواتها ثم قُل لي اذا كان يمكن بعد ذلك ان تبقى الابناء كالآباء وان لم تستطع فاهمس لي في أذني فاني أقبل عذرك فليس جميع الناس سواءً في التصريح عن آرائهم وأكثرهم على ما وصف الامام الغزالي في بعض كتبهِ حيث قال «ان الآراء ثلاثة أقسام : رأي يشارك فيهِ الجمهور فيما هم عليهِ ورأي يكون بحسب ما يخاطب بهِ كل سائل ومسترشد ورأيٌ يكون بين الانسان و بين نفسهِ لا يطَّلع عليهِ الاَّ من هو شريكهُ في اعتقادهِ اه . »

قال ابن خلدون متكلماً في التاريخ « وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة فلا بدَّ وأن يفزعوا الى عوائد من قبلهم و يأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم

الحقيقية المثبتة لا الفرضيَّة

واذ تقرّر ذلك فاسمح لنا أن ننظر الى نتيجتهِ . فالاختلاف الذي ينشأ عن (المطابقة) أي عن انفعال القوة الغاذية بالاحوال الخارجية الطبيعية وان كان قليلاً يجعل في الاحياء قابليات وجودية مختلفة فيطلب الضعيف القوت فينازعهُ القوي عليهِ واذا كان القوت قليلاً يهلك الضعيف . أو اذا اشتد البرد أو قلّ الماء فلا يثبت الاَّ ما كان اقوى على تحمل البرد واصلح لتناول الرطوبات من الهواء ولا يخفى عليك ان عدد البيوض او الجراثيم التي تولدها الاحياء والتي يقدر كلٌّ منها ان يولد حيًّا اذا وافقتهُ الظروف هو اكثر كثيرًا من عدد الاحياء المتولدة حقيقةً فالعدد الاكبر من هذه الجراثيم يهلك في اوائل حياتهِ ولا يسلم الاَّ القليل المتميز ببعض صفات تسهل لهُ قطع هذا الطور من الحياة الكثير الاخطار كما يتضح لك من مقابلة عدد بيوض كل نوع بعدد الاحياء فيهِ او من مقابلة عدد الاحياء الكثيرة الجراثيم او البيض بغيرها من القليل الجراثيم فلا تجد نسبة بينهما . فان عدداً كبيرًا من الحيوانات الفقرية القليلة الوجود يبيض بيوضاً كثيرة حال كون غيرها من الفقرية اكثر منها وجودًا مع انهُ لا يبيض الاَّ بيوضاً قليلة . وكما في الحيوان كذلك في النبات ايضاً فان كثيرًا من الطائفة الثعلبية يلد الوفاً من الجراثيم وهو مع ذلك قليل جدًّا حال كون بعض المشعَّعة من الطائفة المركبة كثيرًا جدًّا مع ان بزورهُ قليلة فعدد الاشخاص التي تحيا لا يتوقف ضرورة على عدد الجراثيم بل على احوال مختلفة غالباً على نسبة متبادلة بين الحي والاشياء التي من خارج . فما كان من الاحياء انسب من غيرهِ سلم وبالعكس وقس على ذلك سائر الاحياء مع سائر الاحوال الطبيعية الحيوية . فهذا ما يسمى في مذهب التحوُّل (تنازع البقاء) فهل يشك الآن في ان تنازع البقاء حقيقة وجودية كحقيقة الاختلاف

ثم اذا سلمت بهذا التنازع بين الاحياء وجب عليك ضرورة ان تسلم ببقاء البعض وفناء البعض للاسباب المار ذكرها . وهذا ما يراد (بالانتخاب) ويسمى (طبيعيًّا) اذا كان بين الاشياء التي من خارج وبين الاحياء او بينها بعضها مع بعض (وصناعيًّا) اذا كان بواسطة الانسان كما في الزراعة وتربية المواشي كما مرَّ. فالانتخاب

الاسرار كيف انهم لا يقدرون على ادراك ما هو امامهم وواقع تحت حواسهم كما هو حقيقة . والغريب انهم يوميًّا في زرع النبات وتربية المواشي يجرون على قواعد هذا المذهب عمليًّا واذا سألتهم عنها نظريًّا أنكروها . وذلك دليل من أقوى الادلة على ما لسبق الاقتناع من السطوة وما للعمل من القابليات المختلفة الخاضعة لاحكام الحياة من مثل التغذية والوراثة . فمن يجهل يا ترى اختلاف أفراد النبات والحيوان وهل يستطيع احدٌ زارعًا بسيطًا كان ام عالمًا ان ينكر ان من هذا الاختلاف ما هو صالح لبعض الاحوال وغير صالح للبعض الآخر . او ينكر ما للغذاء والاحوال الاخرى الطبيعية من اليد القوية في احداث هذا الاختلاف تبعًا لناموس ( المطابقة ) وما للوراثة من القوة في نقل صفات هذا الاختلاف في النسل وكيف ان هذه الصفات تقوى اذا ناسبتها الاحوال وتضعف اذا لم تناسبها . لا لعمري فالزارع كالعالم يعرف ان البذار الجيدة أي المتميزة ببعض الصفات لمناسبتها لبعض الاحوال احسن من البذار الرديئة التي ليس لها ذلك فيفضلها عليها ويعرف كذلك ان الارض الجيدة انسب من الارض الرديئة فيفضلها عليها او يعتني بها فيقدم لها المواد اللازمة لاصلاحها ويقتلع منها كل الاعشاب لعلمهِ بما يحصل بينها وبين مزروعهِ من التنازع على الغذاء والمكان وما يلحق بمزروعهِ من الضعف بسبب هذا التنازع فيمهد لهُ الارض حتى تنصرف كل قواهُ الى التغذية والنمو . ويعرف كذلك ان المواشي الحسنة المنظر والصحيحة البدن والشديدة انسب من سواها مما ليس فيهِ هذه الامتيازات فيعتني بتربيتها وتوليدها فهل رأيت امرءًا يريد شراء دابة ولا يقلبها ظهرًا وبطنًا وما غايتهُ بذلك سوى قنية ما يعتبرهُ انسب لهُ . ثم اذا اقتناها ألا يعتني بغذائها ومسكنها وما شاكل مفضّلًا مبدّلًا . ولماذا هذا التفضيل والتبديل لولا معرفتهُ بما لذلك من التأثير في تغيير صفاتها في الشكل والقد والحسن والقوة الخ . واذا اراد استيلادها ألا ينتخب لها الاحسن من نوعها ولمَ ذلك لولا يقينهُ بما لعمل التوليد من القوة على نقل الصفات المختلفة حسنة كانت أم قبيحة . فالزارع البسيط لا يجهل مثل هذه الامور بل هو من أشد الناس اعتبارًا لها وكل طبيعيّ عارف بالفيسيولوجية يعلم أن التغذية كالوراثة من قوى الحياة

مطويًّا في زوايا الاهمال حتى قام داروين في هذا العصر وأخرجهُ الى عالم البحث والنظر . وقد عزَّزهُ بأن بسطهُ بسطًا كافيًا وشرحهُ شرحًا وافيًا مستندًا فيهِ الى اكتشافات العلماء المتفرقة وكانت قد كثرت فصادف هذه المرة أرضًا معدَّة وعقولاً مستعدة فنبت ونما وتعالى وطما حتى كادت أبحاث العلماء تقتصر عليهِ ولا تنظر الاّ اليهِ

ولا نقول انهُ لم يقم لهُ خصوم فخصومهُ كثيرون فبعضهم خاف منهُ على اعتقاد موروث وهم أصحاب التقاليد . فشرعوا الاسنة وأطلقوا الاعنة ونادوا الجهاد الجهاد في سبيل الحقيقة والسداد لانهُ كما لا يخفى عليك كل واحد يدّعي الحقيقة لهُ وهي واحدة والناس منقسمون فصاروا يقومون ويقعدون ويجأرون ويزأرون ويكفرون ويعطلون وهم يخطئون مرة ويصوّبون أخرى حتى وهنت منهم القوى فتحصنّ عقلاؤهم وراء حصن الحياة وأعقلهم وراء حصن الخلق الكلي تحت نظام كلي وسنن كلية وتركوا الطبيعة تدبر أمرها باذن باريها.وقد أثبتوا بذلك حكمة الخلق أكثر من سواهم من فرقتهم اذ أثبتوا وحدة الخلق في الطبيعة أو كادوا واتفقوا مع الواقع أو كادوا وبعضهم وهم فرقة من العلماء رأوا ما رأوا وعلموا ما علموا ولكنهم حاروا بين المنقول المتأصل والمنقول المتحصل . وبعضهم وهم فرقة من العلماء أيضًا رأوا ذلك وعلموهُ جيدًا الاَّ انهم تصعبوا فيهِ فطلبوا أن يروا بالعيان انسانًا منشقًّا من حيوان وربما كان السبب الاكبر لعدم انضمامهم اليهِ رفعة مقامهم في عالم العلم . والعين قالوا لا تحب نظيرها فكان ذلك فيهم مصداقًا لما في مذهب داروين ألا وهو تنازع البقاء

## الفصل الثاني

### (في تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي)

ان مذهب داروين بسيط جدًّا ويقدر كل انسان أن يدركهُ اذا نظر الى الاشياء كما تعرض لهُ وتأملها بعين العقل التي لا يشوبها كدورة سبق الاقتناع . وانـا نعجب من اولئك الذين يشقون حجب الغيب بقوة عقلهم ويدركون ما وراءها من

وفي كل ذلك من النظر ما يحتمل بحثاً طويلاً ربما ضاق عنهُ الكلام ان لم يضق صدر المقام فنجتزي بذكر شيء من كليات هذا المذهب دفعاً للاعتراضات المذكورة ومن تبقَّى عنده أدنى ريب نردُّهُ الى مطولات القوم . ونحن الآن لا نطمع بالفوز في طريق كهذا كثير العقبات وانما نقول كما قال الامام الغزالي « ولو لم يكن في ذلك الا ما يشككك في اعتقادك الموروث لكفى بهِ نفعاً فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يُبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة » . اه

# الفصل الاول

## ( في تغير الانواع )

نقول لقد كان الاعتقاد سابقاً ان الانواع خلقٌ خصوصي كل نوع مخلوق وحده الاَّ أن الطبيعيين رأوا في الاحياء أشياء كثيرة لا تتفق مع هذا القول . أولاً قابلية كل فرد بل كل نوع للتغيُّر تبعاً لنواميس حيوية حقيقية لا فرضيَّة كتغيُّر الجماد تبعاً لنواميس طبيعية . ثانياً وجود أعضاء كثيرة لا فائدة لها في الحال ولا تفهم غايتها الاَّ انها كانت في الماضي أو ربما صارت في المستقبل ذات فائدة في أحوال أخرى ثالثاً وحدة الناموس الرابط للاحياء بعضها ببعض وهذا كلهُ يجب أن لا يكون في مذهب الانواع الذي يقتضي أن تكون ثابتة وان كل نوع منها يتضمن فيهِ وفي جرثومتهِ كلَّ الاعضاء اللازمة لهُ لا أكثر ولا أقل . فقام في ذهن بعض المحققين انهُ ربما كانت الاحياء كلها من مصدر واحد متكوناً بعضها من بعض متحولاً بعضها عن بعض كما تكوَّن أصناف الحجارة في عالم الجماد

وأوَّل من قال هذا القول وأسندهُ الى بعض مستندات علميَّة لامرك الفرنسوي . الاَّ أن قولهُ هذا صادف وقتئذ من التقاليد ونقصان الابحاث العلمية موانع جمَّة حالت دونهُ ودون انتشارهِ فقوبل بالاعراض شأن كل أمر لم تستعدَّ لهُ العقول ولبث

# الباب الثاني

## في ثبوت مذهب دارون وفساد نقيضهِ

( وفيهِ ديباجة وسبعة فصول )

## الديباجة

ألاَ قل لمن عدَّ مذهب دارون وساوس واجتهاد أصحابهِ دسائس فحمل عليهِ يريد طعنهُ بأسنَّة ايمانهِ وذبحهُ بقواطع برهانهِ . رويدك انك لقد استسهلت الصعب وما الصعب بهيّن . ألاَ راعك بعد الشُقة . أم لم تدرِ ما أوجبت على نفسك من المشقَّة . أم كيف ساغ لك طعن تعليم دارون وقد بحث فيهِ السنين الطوال ونقضَ ما شُيّد عليهِ وهو أرسى من الجبال أم بأي قوة نسفتهُ نسفاً وتركتهُ قاعاً صفصفاً لا ترى فيهِ عوجاً ولا امتاً . بل كيف ساغ لك هدمُ ابحاث علماء الارض بالطول والعرض ألعلَّك ظننتها شذرات أفكار فدفعتها بشذرات أفكار لم تكلفك البحث الاَّ سواد الليل وبياض النهار ثم قلت انك مُشبعنا ولم تطعمنا الاَّ ضاهساً ومروينا ولم تسقنا الاَّ قارساً . دع عنك هذه الوساوس فما كانت الحقائق لتطرَّس بترَّهات البسابس

ذكر بعض ادباء اللغة مذهب دارون في النشوء والارتقاء وقفَّى عليهِ بما معناهُ انهُ مذهب باطل بالادلة العقلية والطبيعية . قال بعد تعريفهِ لهُ ما نصُّهُ « ان ركن النشوء والارتقاء عند دارون — الانتخاب الطبيعي — وهو فرض بلا اثبات ورأي من صور الوهم . اه . » ثم حصر اعتراضاتهِ عليهِ في ثلاثة

أولاً أنكر الارتقاء بدليل أن كثيرًا من الاحياء لم يظهر فيهِ شيءٌ من علامات التدرج . ثانياً أنكر الصوَر المتوسطة اللازمة في مذهب التسلسل . ثالثاً طول الزمان اللازم للانتقال من أدنى صور الحياة الى أرفعها بالنشوء والارتقاء المنقوض بالابحاث الجيولوجية كما قال وهي أهم اعتراضات خصوم هذا المذهب

والنبات كما لا يخفى على علماء هذين الفنين . وفي هذا القدر كفاية لغرضنا فلو كانت الغاية موجودة لما وجب ان يكون في هذه الكائنات شيء لا فائدة لهُ وربما كان مضرًّا ايضاً . وكم حار علماء طبائع الحيوان والنبات بهذه الاعضاء الاثرية قبل دارون وذهبوا فيها مذاهب شتى حتى ظهر مذهب دارون فقطعت جهيزة قول كل خطيب لان كل عضوٍ لازم نما بالاستعمال وكل عضو لا لزوم لهُ ضمر لعدم الاستعمال فعرف ان الاعضاء الأثرية كانت اعضاءً نامية في اجداد كانت لازمة فيها وضمرت حيث لم يبقَ لها لزوم وفي البعض زالت بالكلية فلا دخل للغاية هنا وانما الدخل للضرورة . وما نراهُ من النظام فهو كذلك ضروري لا مقصود لان التغير الحاصل في جزء من اجزاء هذا العالم يتبعهُ تغير في سائر الاجزاء على حكم الضرورة كنتيجة لسببٍ فاذا كانت العوالم موجودة على النظام الذي نراها فيهِ فلانها هي من الارتباط بعضها مع بعض بحيث لا يمكن ان تكون على خلاف ذلك . فلو تغير نظام احدها لوجب ان يكون التغير شاملاً لعموم النظام . ولذلك لم يكن الكون بعضهُ بالنسبة الى بعض ولا هو كائن ولن يكون الاَّ منتظماً وان اختلف في الازمنة الثلاثة لارتباطهِ بعضهِ ببعض وجريهِ على سنن شاملة لجميعهِ وكذلك يقال في الارتقاء فان العالم لا يسير الاَّ متقدماً لضرورة تغلُّب الانسب في منازعة هذا الوجود كما هو مقرر في مذهب دارون

الى اسفل لنبحث عن اشياء موجودة امامنا وواقعة تحت حواسنا

وقال ايضاً انا ذكرنا الحياة ولم نعرفهُ ما هي والحال ان موافقتهُ لنا في ملازمة القوة للمادة والمادة للقوة لا تجوّز لهُ هذا السؤال وهل يا ترى في امكانهِ ان يعرّفنا ما هي الحياة على مذهبهِ او مذاهب اصحاب ما وراء الطبيعة ببيان مشبع اقرب الى العقل من بيان الطبيعيين فان علماء الطبيعة لما كان غرضهم في البحث عن اشياء هذا الكون تقرير خصائصها ومعرفة احوالها لم يكن يهمهم من ذلك كلهِ الاَّ الوقوف على اسباب ظاهرة كافية للتعليل عن كل ما يحصل فيها . وقد عرف بالاختبار ان المواد كلها ذات خصائص او قوى تتحوّل فيها وتكون بسيطة في البسيط ومركبة في المركب سموها تارةً طبيعية وتارةً كياوية وتارةً حيوية بحسب ظواهرها في المواد المختلفة لا انها قوى مختلفة بعضها عن بعض بالطبع فكلها بالحقيقة طبيعية . فكما انهُ في امكان المادة الاولى التحول الى مواد كثيرة مختلفة جدًّا في الصورة كذلك في امكان القوة الاولى المتصلة بهذه المادة التحول الى قوى كثيرة مختلفة في الخصائص

اما الماعهُ الى الغاية والنظام المقصود فمنقوضٌ بما في الحيوانات والنباتات من الاعضاء الزائدة التي يسمونها أثرية والتي لا فائدة لها وفيما يسمونهُ حكم الضرورة فمثال الاعضاء التي لا فائدة لها الاسنان القواطع في اجنة كثير من الحيوانات المجترة فهذه تكون في سمك عظم ما بين الفكين ولا تبرز ابدًا ولذلك لا فائدة لها فما الغاية من وجودها . والانسان في غنى عن تحريك اذنيهِ فما الفائدة من العضلات المرتبطة بهما وربما اكتسب الانسان بالمزاولة والتمرين القدرة على تحريكهما واما فائدتها فظاهرة في بعض الحيوان . ومن هذا القبيل ايضاً العيون الاثرية التي لا تبصر في بعض الحيوانات التي تقطن الكهوف او تقيم تحت الارض . وفي اكثر ذوات الفقار يوجد زوجان من الاطراف زوج امامي وزوج خلفي ويكون احد هذين الزوجين ضامرًا غالبًا وفي النادر يكون الاثنان ضامرين كما في الحيات على ان بعض الافاعي ( كالبوابيتون ) لهُ زائدتان عظميتان في القسم الخلفي لا فائدة لهما وانما هما اثران لطرفين كانا موجودين في اجدادهِ . وامثلة ذلك كثيرة جدًّا في الحيوان

الحرارة كالكهربائية والكهربائية كالنور لامكان كلٍّ منهما ان يتحوَّل الى غيرهِ . ولذلك فلا يسوغ لنا ان نقول ان القوة التي ترجع اليها جميع القوى تدرك كالانسان لانهُ في امكانها التحول الى ما فيهِ من الصفات . فجعل المادة والقوة لا القوة وحدها ( خلافاً لما يستفاد من كلام حضرة المعترض ) كلاً عاقلاً يتصرف في الاشياء كما يريد لا نجد في الطبيعة ما يسوّغ لنا القول بهِ ولا ينطبق على القياس. فان كان مرادهُ بقوتهِ المدبرة المتصرفة في الكون السنن التي تجري عليها الطبيعة فلا يكون بيننا خلاف في ذلك الاَّ انها لا تكون عاقلة ومريدة كما يريد هو وماذا تفيدها ارادتها وهي حينئذ لا تفعل مختارة اي انها لا تقدر ان تنشيء وتخرب وتبني وتهدم وتخرق نظام الكائنات كيف شاءت ومتى شاءت بل تفعل مضطرَّة على حكم الضرورة . وحينئذ لا يبقى لهُ ما يخالف بهِ الماديين سوى الاسم وهذا لا ينازعهُ احد منهم فيهِ فليسمها ما شاء وهو لم يتكلف هـذه المشقة الا لكي يتذرع بها لالقاء اساس — كما يقول — يوافق اهل الاديان وعلماء الكلام . ولقد احسن السير وليم طمسن حيث قال ان الضلال الذي نشأ عن علم الكلام غرق اناساً اكثر من جهل رباني السفن على ان حضرة المعترض منفرد فيما ذهب اليهِ ولايجد بينهم من يوافقهُ عليهِ وهو مع ذلك لو سلم لهُ لا يكسبهُ شيئاً فيما نرى لانهُ يبقى عليهِ ان يفصل نفس الانسان عن نفس الحيوان وكيف يتأتى لهُ ذلك وقد جعلهما من مصدر واحد روحانيًّا وجسمانيًّا بل يبقى عليهِ ان يفصل في الانسان كل نفس عن نفس في هذا الوجود الكلي حتى يجوز لهُ ان يخبرنا على مذهب الاديان بمعادٍ وجزاء في نعيم وعقاب في جحيم في هذا الوجود المشهود او في غيرهِ .

وعلى ما ارى ان هذا المذهب الذي ذهب اليهِ حضرة المعترض لا يدانيهِ مذهب في الغرابة على ان الباحث في العلم لغاية غير معرفة الحقيقة لا يؤمن شططهُ فنحن ليس غرضنا ان نبحث في العلم لنجد فيهِ ما نؤيد بهِ افكاراً واوهاماً نشأت في الانسان اذ كان في مهد الطفولية وصارت بطمعهِ من جهة وجهلهِ من جهة اخرى حقائق أدخلت في رأسهِ رغبةً او رهبةً تارةً بالوعد وتارةً بالوعيد . وانما غرضنا الوحيد البحث عن الحقيقة نقبلها كما تنجلي لنا على صفحات كتاب الطبيعة لا نصعد الى فوق ولا نهبط

زعمهِ عاقلة مدركة تعمل في المادة اعمالاً مغياة على نظام مقصود وهذا ما لا نوافقهُ عليهِ ولا يتحصل من مبدإهِ فانهُ جعل القوة والمادة اولاً ازليتين ثم جعل القوة متسلطة على المادة . وكيف يصح التوفيق بين القولين لانهُ في القول الاول جعلهما موجودتين معاً وفي القول الثاني فضل القوة على المادة وسلطها عليها تتصرف فيها كما تشاء ولا يخفى ما في هذا القول من معنى الفاعلية التي فيها معنى السبق ايضاً فتكون القوة في قولهِ سابقة المادة ولو بالمعنى واذا صح ذلك فكيف يصح ان تكون المادة ازلية كالقوة . اما الماديون فليس عندهم فرق بين القوة والمادة اذ ليس بينهما عندهم فاضل ومفضول وسابق ومسبوق او فاعل ومفعول فهما بالحقيقة واحد لا ينفصلان . فهو من هذه الحيثية غير متفق مع اصحاب ما وراء الطبيعة وعلماء الاديان لانه جعل القوة الفاعلة والعاقلة محصورة في المادة ولا مع العلماء الماديين لانهُ مع حصرهِ القوة في المادة ضمنها معنى السبق عليها ولا مع علماء الكلام لما في كل ذلك من التناقض

واما كون القوة المذكورة ذات ادراك كلي في المادة الاولى البسيطة كادراك الانسان الجزئي في المادة المركبة فهذا يوجب على مبدإهِ ان تكون المادة البسيطة مدركة ايضاً اذ لا يجب ان يكون فرق بين المادة والقوة على ما سلم بهِ من ملازمة الواحدة للاخرى بل يوجب ايضاً ان تكون المادة الاولى ذات خصائص اكمل منها في المواد المركبة . ولا شيء مما نعلمهُ عن مواد الطبيعة يجوّز لنا هذا الوهم . ونحن في بحثنا لا نحب ان نتخطى الطبيعة ولا ما ترشدنا اليهِ ظواهرها . فقبول المادة الاولى البسيطة للتركب على احوال مختلفة والظهور بمظاهر مختلفة لاسباب ربما كانت اختلاف وضع في جواهرها الفردة لا يلزم منهُ ان تكون فيها صفات سائر الكائنات المتولدة عنها بالفعل وان كانت فيها بالقوة . فالقابلية لا يلزم منها الفاعلية والقوة التي ترجع اليها سائر القوى وهي الحركة على ما اتفق عليهِ عموم علماء الطبيعة من كل المذاهب وان يكن في امكانها ان تحوّل الى جميع القوى الطبيعية كالحرارة والكهربائية والنور وغيرها الا انهُ لا يسعنا القول انها نيرة بالفعل كالنور وان كان لها ذلك بالقوة كما انهُ لا يسعنا ان نقول ان

الصحيح تامًّا عامًّا ولا بد منهُ يومًا ما الاَّ ان ذلك الزمان بعيدٌ جدًّا وربما لزم لهُ ميئات من الاجيال لان ازالة ما رسخ في العقل من المبادئ في الوف من الاجيال ليست بالامر السهل على ان ما لا ينال كلهُ لا يترك كلهُ والطفرة في كل شيء محال فانتقال الانسان من الجهل التام الى العلم التام يستحيل في نظام هذا الكون دفعةً واحدة الاَّ على سبيل المعجزات ولا اظنك تجهل مبلغ المعجزات من الحقيقة . فلا بدَّ اذًا من السير البطيء في ارتقاء درج الكمال . فحال الانسان من ذلك ادبيًا كحالهِ طبيعيًّا فهو لم يوجد كما هو الآن دفعة واحدة بل اقتضى لهُ ملايين من السنين حتى خرج من الحيوانية الى الانسانية وهكذا لا بد لهُ في قطع المسافات البعيدة التي تفصل بين احوالهِ الادبية من السير البطيء المتمهل

---

## ملحق بالباب الاول

كان حضرة المعترض المشار اليهِ وقد ستر اسمهُ قد نشر قبل رسالتهِ الثانية التي ظهرت في العدد ١١٧٩ من جريدة المحروسة والمردود عليها هنا رسالة اولى في العدد ١١٧٥ منها يعترض بها على المذهب المذكور وقد رددنا عليها في العدد ١١٧٨ من الجريدة المذكورة بمقالة مختصرة وهي هذه

## ردٌّ على ردٍّ

محصل ما في الرد المنشور في العدد ١١٧٥ من جريدة المحروسة على ما جاء في كتاب بخنر على مذهب دارون ان حضرة صاحبهِ يوافقنا في امور ويخالفنا في امور . يوافقنا في كون المادة ازلية ابدية وان الموجودات متكونة منها ومتحولة عنها بقوة فيها ملازمة غير مفارقة . وهذا ما نذهب اليهِ ويذهب اليهِ جمهور الماديين فلا خلاف بيننا من هذا القبيل ولذلك فلا حاجة لنا الى اعادة الكلام عليهِ . ويخالفنا في ان القوة اللابسة المادة والمتحولة فيها تحولها في الاجسام كافة من جماد ونبات وحيوان هي على

وجوداً جديداً فتتغير اخلاقهُ وفلسفتهُ وسياستهُ وشرائعهُ وحكوماتهُ وغير ذلك مما يتعلق بهيئتهِ الاجتماعية

ولا يسبق الى فهمك على سبيل الجد او المزاح ان هذا التغيير تكون نتيجتهُ رجوع الانسان الى الاخلاق الوحشية او كما قالت احدى السيدات الانكليزيات لداروين « ان الساعة التي يتأيد فيها هذا المذهب ينتقض بنيان الفضيلة في البشر » كلاَّ بل بالضد من ذلك يقوى بنيان الفضيلة و يستقيم أمرها عمَّا هي اليوم عليهِ اذ هي اليوم غائيةً لا يعملها الانسان الاَّ خوفاً من عقاب أو طمعاً بالثواب وأما تلك فتكون اضطرارية قياسية لاستقامة أحكام العقل بميزان العلم الصحيح ( ولا يوهمنَّك ما جاء في احدى المجلات وقد قسمت الصدق الى أربعة أقسام . منها اثنان صدق بالفطرة وصدق بالخوف من الدين مفضلة هذا الاخير على الاوَّل تفضيل الشرير المغلول الذي لا يقدر على عمل الشر لتقيدهِ على الصالح المطلق الحريَّة الذي انما يصنع الصلاح لانهُ تعودهُ ولا أعلم كيف صحَّ في قياسها هذا التفضيل ولعل السبب ما نحن في صددهِ )

ولا يخفى عليك أن مصائب الانسان الكثيرة الالوان منشأها الجهل ولولا الجهل لما رأينا الزارع الذي هو أهم أركان الهيئة الاجتماعية يتضوَّر جوعاً حال كون الملك يكاد ينشق من تخم . ولو لا الجهل لما سنَّ الناس الشرائع التي يهضم بها الكبير حقوق الصغير ( ولما رأيت بعضهم يعربد علينا كالبعير ) ولما كثر تحامل الناس بعضهم على بعض ولما فشا الكذب في نوع الانسان وطال لسان الرياء وقصر لسان الحرية وزاد الشر في بني البشر فالانسان كالشجرة لا تستقيم اذا نمت عوجاء ولا تعوج اذا نمت مقوَّمة لان صفات الانسان تنمو فيهِ قويمة اذا استقامت بالعلوم الحقيقية والمبادىء الصحيحة ومعوَّجة اذا تعوَّجت بالمبادىء الكاذبة . فاذا كانت مبادىء الانسان صحيحة كان صحيح القياس صحيح الحكم والاَّ فان كانت فاسدة كان فاسد القياس فاسد الحكم قضية مسلمة لا يصح فيها خلاف . وكأني بك وقد تأملت صحة هذا القول تنقبض نفسك يأساً اذ تقنط من صلاح الهيئة الاجتماعية لعلمك ان الحقائق سلطانها قليل وان السائد انما هو سلطان الاوهام . نعم ان صلاح الهيئة الاجتماعية صلاحاً تامًّا عامًّا لا يكون الا اذا كان العلم

ولذلك كان انتشار الحقائق المخالفة لمألوف الناس صعباً جدًّا . فكوبرنيكوس وكبلر وغليلي سحقوا بتعاليمهم الافلاك البلورية التي اختلقتها اوهام الاقدمين واصلحوا علم الهيئة من هذا الخطاء المبين وقرروا ان السماوات ليست قبة زرقاء مرفوعة فوق الارض ومرصعة بمسامير من ذهب وان الجلَد ليس فاصلاً يفصل المياه التي فوق الجلد عن المياه التي تحت الجلد كما توهم اسلافنا وانما هي فضاء فسيح تسبح فيهِ الاجرام السماوية ومنها ارضنا هذه المتحركة حول الشمس خلافاً لما كان يظن من ان الارض ثابتة والشمس تدور حولها خدمة لها . وان العوالم خاضعة في مجراها لسنن ثابتة لا معلقة تمسكها يد خفية وتديرها كما تشاء وبحسب ما لها من الاهواء . ولا يخفى عنك ما اقتضى نشر هذا التعليم من العناء وما اعترض في سبيلهِ من الموانع وما اوجب على ذويهِ من الاضطهاد حتى بلغ ما بلغ اليهِ من الانتشار وقبل ان سكن كل ثائر ضدهُ وقعد كل قائم عليهِ . ولا يخفى عنك ما اوجب ايضاً من الثورة في تاريخ الانسان فشمر الانسان عن ساعد الجد وارسل طرفهُ الى الافلاك يستجليها نواميسها ويستقصيها مادتها ومد يدهُ الى جوف الارض يستلبها كنوزها ويستكشفها اسرارها . فانجلت لهُ غوامض الطبيعة وانكشفت لهُ اسرار الكيمياء وعرف المواد والعناصر وما لها من الشرائع وما حوتهُ من الخصائص ودان لهُ النبات وذلَّ لهُ الحيوان وانكشفت اسرار البيولوجيا وبرزت دفائن البلينتولوجيا فسأل عن اصل الحياة في آثارها

وما الفضل في معرفة اصل الانسان باقل من ذلك ومرجع هذا الفضل الى لامرك وداروين اللذين ردّ الانسان « الهابط من السماء والذي لا يزال يصبو اليها » الى مقامهِ الحقيقي في الطبيعة . ولما انتشر هذا المذهب قامت عليهِ قيامة اصحاب التقليد المحافظين على المقرر وان كان خطاء الكارهين لكل مستجد وان كان صواباً . على ان سرعة انتشار هذا المذهب مع ما هو عليهِ من الحداثة يتبين منها ما لهُ من القيمة الصحيحة والحركة التي اثارها في الخواطر ليس لها مثيل في تاريخ الانسانية . وقد ظهرت مفاعيلها وينتظر منها شيء كثير في المستقبل فانها لا تقتصر على تقرير هذه الحقيقة بل لا بدّ لها من تغيير الانسان تغييرًا جوهريًّا بحيث يتجدد كليًّا كأنهُ وجد

فلا قيمة اذاً للحجة التي يستند اليها النظريون بقولهم ان ذلك مطابق للعقل اوغير مطابق لهُ الاَّ اذا اتفقت هذه الحجة مع سواها من البراهين الحسية . قلنا واذا تكرر هذا الانخداع على العقل شبّ عليهِ ونما حتى يغدو فيهِ من الغرائز فيصير عندهُ كل امر مخالف لما تربى عليهِ خطاء وان كان صحيحاً . وكل خطاء استحكم امرهُ صعب استئصالهُ لانهُ لا يقتصر على نفسهِ ولا يقف عند حدهِ بل يتناول كل شيء دونهُ فيتطلب في استئصالهِ استئصال كل ما نتج عنهُ وربما اقتضى نقض بنيان الهيئة الاجتماعية نقضاً تاماً ولا يخفى ما دون ذلك من الموانع

على ان كل عصر لا يعدم اناساً متقدين ذكاء تطاول هممهم الافلاك وان بعدت ويسبرون بثاقب عقلهم الاسرار وان خفيت . ولو اردنا تعداد مثل هؤلاء الرجال الذين قاموا في كل عصر وكان لهم في تاريخ الانسانية يدٌ بيضاء لضاق بنا المقام فنقتصر على اسماهم عقلاً واوسعهم فضلاً واعلاهم همةً الذين قلبوا بتعاليمهم وجه الهيئة الاجتماعية اذ زجروا الانسان من سماء الخيال وردوهُ الى ارض الحقيقة غير محترمين تقليداً ولا راهبين وعيداً لا ملاذ لهم الاَّ العلم ولا دين لهم الاَّ الحق ولا غاية لهم الاَّ تخفيف مصائب الانسان وتقليل ويلاتهِ بانهاضهم اياهُ من حضيض الجهل الى سماء العلم

---

# الفصل الرابع

## (في اصل معرفة الإنسان)

انّ من الاوهام التي تقاضت الانسان حياتهُ زماناً طويلاً وكانت اعظم اسباب شقائهِ ودواعي عنائهِ اثنين عظيمين وهما اولاً اعتقادهُ القديم في الارض انها مركز تدور حولهُ الافلاك وثانياً اعتقادهُ في نفسهِ انهُ من اصل سماوي فاهبطهُ الخالق من فسيح جنانهِ ( ولماذا ) واسكنهُ ضيق ارضهِ وانما خلق لهُ كل شيء من منظور وغير منظور . وعلى هذين الاعتقادين نشأ الانسان في الاخلاق والعادات والسياسة . فتقويض هذين الركنين يلزم منهُ انتقاض البنيان العظيم الذي شادهُ الانسان عليهما

اعمالاً من نفسها على نظام معلوم وسنن واحدة . فيا للغرابة كيف يقع كل هذا التناقض في كلامك وانت بهِ مرتضٍ قانع

على ان الذكاء وحدة الذهن لا يقتضي ان يكون صاحبهما في مأمن من ضلال الافكار بل العقل يتصرف في المعاني بحسب قوتهِ سواءٌ كانت المبادئ المؤسس عليها صحيحة او فاسدة . فالمبادئ لا تؤثر في قوة العقل بل في مجرى افكارهِ ولا في قوة استنباطهِ الادلة العقلية بل في صحة احكامهِ وعدمها . ففي كل عصر وفي كل مذهب نبغ رجال معدودون من افراد الزمان لما لهم من الذكاء وحدة الذهن وسعة الصدر ولا يصح ان يكون جميعهم على هدى لتباينهم في الآراء والمذاهب . فالعقل يسير في الطريق التي يألفها وينمو على المبادئ التي ينشأ فيها صحيحة كانت او فاسدة وينبغ فيها بحسب ما لهُ من الذكاء فلا غرو اذا كان ضلال الافكار في العالم نشأ عن اناسٍ متوقدي الذهن كثيري التفنن في اساليب الكلام شديدي قوة التصرف في المعاني وان كانوا كثيري الخطاء في الاحكام يسحرون العقول التي لا تقوى على مناضلتهم بما يظهر لها من ساحر بيانهم ويفتنون الالباب التي لا قبل لها بمجادلتهم بما تراهُ من فاتن برهانهم . ولا يغير مجرى الافكار الا تغير المبادئ واقرب المبادئ الى الحقيقة ما وافق الاختبار

قال احد الحكماء لا ينبغي قبول آراء آبائنا كما يفعل الاولاد بحجة ان آباءنا قبلوها ونقول ان جهل الانسان لحوادث الكون كان سبباً لانخداع عقلهِ واستحكام الخطاء من افكاره واستفحال الاوهام فيهِ . فان من كان قليل الخبرة في شيء كان شديد التوهم فيهِ كالطفل الذي يحاول ان يتناول بيديهِ ما يراهُ بعينهِ فيمد يدهُ الى القمر كما يمدها الى فيهِ ولا يعلم ان القمر بعيد المنال ولا يتيسر لهُ معرفة الابعاد الا بتكرار التجربة . فهذه المعرفة في العقل ليست اصلية بل مكتسبة بالاختبار وقس عليها سائر معارف الانسان الصادرة عن سائر الحواس . واذا علمت ان جميع معارف الانسان مكتسبة حكمت معنا بان افكارهُ مكتسبة ايضاً وعقلهُ مكتسب كذلك واذا كان العقل مكتسباً كان عرضة للانخداع لعدم تبينهِ الاشياء كما هي في كل الاحوال ولاول وهلة

العارضة في الجسم من المعيشة والاقليم والحاصلة عن اسباب اخرى اكثر اختلاطاً تنتقل بالوراثة والانتخاب الطبيعي وتصير جوهرية كما في الالوان وتشقق الجلد وازدياد عدد الاصابع والامراض والاميال العقلية وغير ذلك مما لا يسعك انكارهُ

واغرب ما في ذلك قولك « لانهُ يوجد في الطبيعة قوة مهذبة مربية وفي بعض الاحوال مولدة بادعة » فانت تعترف هنا بان الطبيعة فيها قوة التوليد والابداع الا انك تجعل هذه القوة مودعة فيها من بادع الوجود . فيا للعجب كيف جاز لك هذا القول أما رأيت ما فيهِ من التناقض فانك زعمت اولاً ان المادة البسيطة يجب ان يكون فيها من الادراك الكلي ما في الانسان من الادراك الجزئي . و بعبارة اخرى ان الحجر يجب ان يكون فيهِ قوة تدرك كالانسان وان لم يظهر لنا ذلك فيهِ ولا يجب الاعتماد على المحسوس فانهُ قد يضل. ولما بينا لك ان البسائط لا يلزم ان تكون متضمنة نفس الخصائص والقوى التي في المركبات وان كانت قابلة للظهور فيها عند بلوغها مبلغها قلت فاذاً القوى الفاعلة في البسائط ليست القوى الفاعلة في المركبات ولا يخفى ما في هذا القول من الاضطراب . ثم جئت لنا بتعليل آخر اي الوجود المعنوي والوجود المادي وقلت لنا انهُ المذهب الذي تذهب اليهِ هذه المرة وقد رأيت ما لهُ من القيمة . ثم ما لبثت ان هدمت كل ما بنيتهُ بقولك « ان في الطبيعة قوة مولدة مهذبة » فكأنك قد اثبتّ لها ما يثبتهُ لها الماديون أي أثبتّ لها التوليد الذاتي والفرق بينك و بينهم ان هذه القوة عندك ليست اصلية فيها بل مودعة فيها من بادع الوجود وهذه العبارة الاخيرة لم اقدر ان افهمها لانهُ كما لا يخفى عليك بعد اثباتك قوة التوليد للطبيعة لم تذكر ما دليلك على انها مودعة ولعلّ ذلك من المسائل التي تعلو فوق طور العقل والتي لم يعطَ حلها الاَّ الراسخين في العلم بطريق الالهام والوحي فانا معذور اذا كنت لا افهمها فانهُ لم يعط لي حل الرموز والاقتناع بالالفاظ المجوفة والكلام المقعر ومن العجب العجاب انك لم تشترط حينئذ على طبيعتك ما اشترطتهُ على طبيعة الماديين من ضرورة وجود صفات المركبات في بسائطها كما هي فيها مع انهُ لا فرق بينهما الا من حيث الحركة الاولى او بادع الوجود . واما بعد ذلك فكل واحدة منها تعمل

منهُ نفي ما تحقق عن اكثرها وما يترتب عليهِ من الكليات . ولو جاز ذلك لكان الاولى ان تسقط كليات النظريين باسرها فانها لا تكاد تتفق مع شيء من قضايا العلم الذي لا تزال تعترضهُ في سيرهِ . وكم رأيناها مشتبكة معهُ في نزاع شديد ولم نرَ العلم دان لها ولا مرة واحدة . فتلتزم اخيراً ان تذل لهُ متصرفة في المعاني والالفاظ لان دائرتها كما لا يخفى عليك واسعة فلا يضيق بها مجال . واذا كنا نعرف من المسائل تسعين مسألة مثلاً ولكل مسألة سبباً طبيعياً وكنا نجهل اسباب عشر مسائل أفمن العقل ان يحملنا جهلنا على ان ننتحل لهذا المجهول قوى ما فوق الطبيعة أم من الحكمة ان نقيسهُ على اخواتهِ ونلحقهُ بها املاً بان ينكشف لنا سرهُ الطبيعي يوماً ما . على ان الاعضاء الاثرية التي نحن بصددها ليست في شيء من ذلك فقد تقرر وجودها وعرفت الاسباب الطبيعية لكثير منها ووضح امرها وقلّ غامضها وهي تنقض الغاية وتنفي القصد وتثبت القربى بين الانسان وسائر الحيوان . وربما بعدت هذه النسبه بين الانسان والحيوان بالعلم وقربت بالجهل فكان اقربهم اليهِ اجهلهم بمعرفة اصلهِ وابعدهم عنهُ اعلمهم بهِ

ومن العجب انك اثبتّ مذهب دارون وانت تحاول نقضهُ بقولك « وقد تكون هذه الامور فلتات طبيعية مستفادة من الظروف والحوادث والاهوية والاقاليم ونحوها » اذ لا يخفى عليك ان الخلق على مذهبك ومذهب انصارك كائن بالانواع وهذا يقتضي اولاً ثبوت الانواع وثانياً اشتمال كل نوع على الاعضاء اللازمة لهُ لا اكثر ولا اقل . لان كل نوع خلق خصوصي مختصر في جرثومة قابلة للنمو ومتضمنة كل صفاتهِ الجوهرية والاَّ فلا يكون في الخلق معنى لحدوث نقصان او زيادة فيهِ تأباهما الحكمة وقد تنزه الصانع الحكيم عن كل عمل لاحكمة فيهِ . على ان معاني هذه الاعضاء الاثرية ظاهرة بنسبة التكوين المتسلسل كما يظهر لمن يدقق النظر في طبائع الحيوان والنبات او ينظر فقط الى كلياتها نظراً عاماً دقيقاً فلا يسعهُ والحالة هذهِ ان ينكر ما بين الانواع والتباينات من النسبة الشديدة والقرابة والتسلسل وسائر ما هو مقرر في مذهب دارون الاَّ ان يكون سابق اقتناعهِ حاجباً بينهُ وبين ما يرى . وقولك « وهي بجملتها امور عرضية » غير سديد لانهُ يلزمك ان تعلم ان الاشياء

تكون قد فهمت القوة في قولنا « بالقوة » كما تتصورها انت . والاَّ فليس في كلامنا ما يوجب ذلك ولا سيما بعد ان عرفناك ان القوة والمدة في عرف الماديين شيء واحد والظواهر او الصفات او القوى ليست سوى تغيرات مادية كما قد تبين فيما تقدم وكما يتضح ايضاً مما يأتي . فانهُ في فحص جميع الظواهر الكهربائية المعروفة لسنا نعرف ظاهرةً واحدة لا تدل على تغير في ادق اجزاء المواد المتهيجة كهربائيتها . فانا اذا اطلقنا محمول قنينة ليدن في سلك من البلاتين نرى هذا السلك يقصر حتى يتجعد لحصول تغير في ادق اجزائهِ وكذلك يحصل في سلك من الرصاص فتتكون فيهِ عقد يضغط بعضها بعضاً . وسائر الاسلاك المعدنية المستعملة في الاعمال الكهربائية اذا طال استعمالها في ذلك يحصل تغير جوهري في اجزائها فقد تتصلب وقد تصير سهلة القصم وكذلك مجرى المغناطيس يؤثر في مرونة الحديد والفولاذ فان قضيباً من الحديد ملتوياً من ثقلهِ يتقوم اذا تمغنط . وهكذا تفعل ايضاً سائر القوى في الاجسام كما يسهل تبيينهُ فان القوى الميكانيكية كالتموجات التي يحدثها الصوت في الهواء مثلاً قد تحدث تحليلاً كيماوياً في المواد المركبة تركيباً ضعيفاً

واما قولك ردًّا علينا « ان وجود الزوائد في بعض الحيوان ( والصحيح في عالم الحيوان والنبات ) التي لا لزوم لها لا يلزم منهُ عدم الانتظام ( ولعلك تريد القصد والغاية لاننا لا نذكر انا جئنا بهذه اللفظة واللانظام عندنا امر نسبيٌّ لا حقيقي كما تقدم في مقالتنا السابقة ) اولاً لعدم امكان الانسان ان يحيط علماً بكل شيء وربما ادرك الخلف ما لم ندركهُ نحن » فعلى ذلك نجيب ان علماء طبائع الحيوان والنبات لا يدعون انهم بلغوا علم كل شيء بل هم لا يزالون يبحثون وكل سنة بل كل يوم يكتشفون حقائق كانت غير معروفة عندهم وما لا يثبتونهُ يطرحونهُ بين المسائل الخلافية وهي ليست بالعدد القليل عندهم . الاَّ ان ما لا يعلم سببهُ الطبيعي لا يزالون يعالجونهُ حتى تنجلي لهم الحقيقة فيهِ بجهد التنقيب والتنقير فلا يطفرون فيهِ حالاً الى ما وراء الطبيعة كما يفعل جزافاً سادتنا الفلاسفة النظريون الذين لا يصعب عليهم وجود سببٍ لكل شيء وهم في سماء خيالهم تائهون . على ان عدم الاحاطة علماً ببعض مفردات الاشياء لا يقتضي

صفتين او خاصتين او قوتين وهما الجاذبة والدافعة . وهكذا المعاني الذاتية اذا حللت الى بسيطها دلت على احد معنيين جاذب او دافع ومحبوب او مبغض ومرغوب او مرهوب ومقبول او مكروه وترتسم صورة ذلك على جميع حركات الجسد. ألا ترى كيف ان حركات الانسان او الحيوان المتكرّه من شيء تدل كلها على محاولته ابعاد ذلك الشيء عنهُ واذا احب شيئاً دلت حركاتهُ على محاولتهِ ضمهُ اليهِ . وكما يكون ذلك في الحركات يكون كذلك ايضاً في اللغات فان اللغات كالحركات في الدلالة على المعاني واللغات كالحركات موجودة في الحيوان والانسان كوجود المعاني فيهما . الاَّ ان اللغات اوسع في الانسان لاتساع المعاني واكتمال الآلات فيهِ اكثر منها في الحيوان . ومن دقق النظر رأى المعاني مرسومة على الالفاظ ومبانيها كما ترتسم على سائر الحركات فان اباءتك للشيء جعلتك تعبر عنها في اللغة العربية مثلاً بلفظة « لا » وقبولك لهُ بلفظ « اي ونعم » . ولا يخفى ما في لفظ هاتين اللفظتين من الحركات الدالة على معنى كلٍّ منهما فانك بلفظك « لا » تحاول بحركات الفم كل علامات التبعيد و بلفظك « اي ونعم » كل علامات التقريب وقس على ذلك سائر الالفاظ في سائر اللغات الاَّ ان هذه الدلالة لا تكون دائماً بسيطة وواضحة كما في هاتين اللفظتين البسيطتين بل تتنوع وتتركب كثيراً بقدر تنوع المعاني وتركبها وربما فعلت فيها اسباب مختلطة جدًّا بحيث لا تظهر لك هذه النسبة الاَّ عند التدقيق الكلي . اقول وربما كان في الموضوع مبحث دقيق جدًّا ولذيذ للغاية عند من يحب الخوض فيهِ

---

## الفصل الثالث

### ( صدد وردٌ )

ولا نعلم كيف جاز لك الاعتراض على قولنا « ان الصفات الموجودة في الاجسام المركبة موجودة بالقوة في المادة البسيطة ووجودها فيها بالقوة لا يستلزم وجودها بالفعل » بقولك « ان ذلك غير مشبع ومناقض لرأي الطبيعيين انفسهم » الاَّ ان

وهو لا يفيد شيئاً في تأييد ما تذهب اليهِ كمثل الاسباب والمسببات عموماً فان ما كان منها علة لشيء فهو نفسهُ معلول لشيء آخر . فالسبق هنا نسبي لا مطلق وانت لم تنكر علينا ذلك حيث استدركت على نفسك بما معناهُ « وربما اعترض علينا ان المعاني حاصلة من تأثير المادة في الدماغ » وانما نحن ننكر عليك اعتمادك عليهِ بعد عرفانك ذلك فانت هنا تسلم معنا بان المعاني في العقل ليست غريزية بل مكتسبة وصادرة عن المادة بواسطة الحواس. وان كان عندك ادنى شك في ذلك فنحن نقول لك ان المعنى العقلي ليس الاَّ تأثيراً مادياً او هو صورة المادة المرتسمة في الدماغ كما ترتسم الصورة في المرآة . فالنور لولا العين لم يكن لهُ في عقل الانسان معنى ولم يفتكر الانسان ان يضع لهُ علامة او لفظة تدل عليهِ . ولو صح هذا القياس على الوجود المطلق لكان لاولى ان تعتبر المادة قبل معناها في العقل لانها أسبق منهُ من حيث هذا الوجود النسبي . فاسبقية المعنى على اللفظ كاسبقية المادة على المعنى نسبياً واما اذا اعتبرت الحقيقة فالمادة لا تنفصل عن معناها ولا يقصد بالمعنى ما ندركهُ فقط فالاعمى لا يبصر النور فهو لا يتصورهُ ولا يعرف لهُ معنى في عقلهِ ومع ذلك فمادة النور متصلة بمعناها وعدم ادراك الاعمى لها لا يسلخ عنها وجود المعنى فيها . وعدم وجود المعنى في اركان لفظهِ أي الحروف عوضاً عن ان يكون حجة علينا فهو حجة لنا فالالفاظ تدل على معاني لا تدل عليها حروفها دلالة صريحة كما ان المواد المركبة تكون ذات خصائص لا تدل عليها عناصرها دلالة واضحة . فقياسك هذا اذاً فاسد .

واعلم ان الدلالة على المعاني لا تقتصر على الالفاظ فقط بل تتناول كل حركات الجسد وربما اقتصرت عليها في الحيوانات الدنيا التي لا يسمع لها صوت . وبهذا الاعتبار تكون الحركات من قبيل اللغات فاللغات اعمُّ من ابداء المعاني بالالفاظ التي هي حركات خصوصية صوتية يشترك في تقطيعها اعضاء الحلق واللسان والشفتين وترافقها حركات موافقة لها في سائر اعضاء الجسد تظهر لك في البعض وتخفى عنك في البعض الآخر . اقول واذا توسعت في حقيقة هذه المعانى رأيت فيها من البساطة ما يدلك على تقارب الاشياء في الطبيعة ووحدة اصلها . فان صفات المادة اذا حللت الى بسيطها دلت على

الاختبار في سالف الازمان ورسخت في العقل حتى كادت تكون ثابتة فاعتبرت غريزية . وحجتهم الكبرى هي انهُ لا بدّ لكل معلول من علةٍ . وقد فاتهم انهُ في هذا الدور المتسلسل لا بدّ لهم من الوقوف عند نقطة يثبتون فيها حصول الوجود بالمعجزة . الاَّ انهم عوضاً عن ان يقفوا فيهِ عند حد الابحاث الطبيعية المؤيدة بالاختبار ويثبتوهُ للمحسوس يطفرون بهِ الى ما وراء الطبيعة ولو فاتهم الدليل ونقصهم البرهان . فمن أين عرفوا ان القوة قد توجد مجردة عن المادة والحال ان المادة لا تنفصل عن قواها . ام كيف جاز لهم التصديق بوجود شيء من لا شيء وهل ضلال اشد من هذا الضلال على العقل . فتكوُّن العالم من العدم امرٌ مستحيل لا يقبلهُ العقل ولا يثبتهُ الاختبار والعدم لفظة لا معنى لها . ومن المقرر ان المادة دائمة الوجود لا تتغير وهذا يقتضي كونها قديمة . ولو فرضنا وجود قوة مبدعة لما امكن وجودها باعتبار الزمان لا قبل الخلق ولا بعدهُ . لا قبل الخلق لان ذلك يقتضي بقاءها مدة من الزمان بلا عمل وفي حالة السكون امام المادة اللاصورة لها والساكنة ايضاً وهذا غير سديد . ولا بعدهُ لان هذا ظاهر البطلان . فاذا كانت القوة المبدعة لا تقدر ان توجد قبل الاشياء ولا بعدها واذا كانت المادة لا تدثر واذا لم تكن مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة فلا شك ان العالم قديم فما لا ينفصل لم يكن منفصلاً وما لم يدثر لم يبدع

---

# الفصل الثاني

## ( في الوجود المعنوي والوجود المادي )

وأما مثل المعاني والالفاظ الذي ضربتهُ للوجود المعنوي السابق والوجود المادي المسبوق فقول غير سديد وفيهِ من السفسطة ما كان يغنيك تدبرهُ عن اسهاب الشرح عليهِ لان اسبقية المعنى على اللفظ نسبية كما لا يخفى عليك . وانت تريد بتقديم الوجود المعنوي على الوجود المادي اسبقية مطلقة والاَّ فأي مثل غير هذا المثل يقوم مقامهُ .

السكون . فالقوة في المادة تنبه تنبيهاً لا انها تحل فيها حلولاً جديداً . فالمغناطيسية مثلاً لا تنتقل من جسم الى آخر كما ربما يتوهم وانما تهيج فتظهر بتغيير حالة دقائق الجسم المتهيجة فيهِ فهي متصلة باجزاء الحديد وهي في قضيب ممغنط مثلاً متجمعة خاصة في المكان الذي لا تظهر فيهِ او تظهر فيه قليلاً

لنتصور اذا امكن كهربائية او مغناطيسية بلا الحديد ولا الاجسام التي رأينا ظواهرهما فيها ولنفرض ايضاً الاجزاء التي نسبها المتبادلة واوضاعها الجوهرية هي بالحقيقة اسباب الظواهر الكهربائية والمغناطيسية فلا يبقى والحالة هذه سوى تجرُّد لا صورة لهُ وعلم لا معنى لهُ بحد نفسهِ وانما نتذكر بهِ جملة ظواهر خصوصية معلومة لانهُ لو لم تكن اجزاء قابلة لان تتكهرب لم يكن كهربائية ولما استطعنا بواسطة التجرُّد وحدهُ ان نعلم عنها شيئاً او ان نتصورها ولم يكن لها وجود لولا هذه الاجزاء. فكل الاجسام المسماة عديمة الوزن كالحرارة والكهربائية والنور والمغناطيسية وغيرها ليست شيئاً آخر سوى تغيرات مادية اي تغيرات في وضع الدقائق المؤلفة المادة منها فالحرارة والنور والصوت انما هي اهتزازات ارتجاجية في الاولين وتموجية في الاخير . والظواهر الكهربائية والمغناطيسية تتم بتغيرات نسبيَّة في اجزاء المادة وجواهرها الفردة . ولاجل ذلك عرَّف العلماء القوة بانها خاصة من خصائص المادة او هي الحركة او هي حالة من حالات المادة وانهُ يستحيل ادراك القوة بلا مادة كما انهُ يستحيل البصر بلا عين او الفكر بلا دماغ او القول بقوة مفرزة بلا غدة او بقوة انقباضية بلا ليفة عضلية . فلا شيء امكنهُ في زمان من الازمنة ان يدلنا على وجود قوة سوى التغيرات التي ندركها في الاجسام بواسطة حواسنا . وعلى هذه التغيرات المرتبة حسب نسبها والمسماة باسماء مختلفة يطلق اسم الجنس « القوة » . وليس سوى هذه الواسطة لفهم المعنى المراد بهذه اللفظة . فما هي اذاً النتيجة الكبرى الفلسفية لهذه المعرفة البسيطة الطبيعية

لا شك ان الذين يقولون بوجود قوة ابدعت العالم من لا شيء لا يستندون في قولهم هذا الى شيء من العلوم الطبيعية والفلسفة العملية التي تتبع العلم في سيرهِ وتتغير مع تغير الافكار بتغيرهِ وانما يفعلون ذلك انقياداً لفلسفة موهومة نشأت عن نقصان

والوظائف . فبحثك في الطبيعة بدون الاستناد الى المحسوس اعتقاداً منك ان العقل وحدهُ قادر ان يتوصل الى حل هذه المسائل حلاً يقرب من الصحة وهمٌ وأي وهم

لقد جئتنا هذه المرة بمذهب غير مذهبك الاول وقلت لنا ان الوجود في عرفك نوعان معنوي سابق ومادي مسبوق . و بعبارة أخرى معنوي خالق ومادي مخلوق وضربت لذلك مثل المعاني والالفاظ الموضوعة لها . وقبل ان نتعرَّض لنفي هذا القياس وتبيين وجه فسادهِ لا بدَّ لنا — وقد عدلت الآن عن قدم المادة — من بسط شيءٍ عما يعلم عن المادة والقوة نجعلهُ تمهيداً للكلام على الوجود المعنوي والوجود المادي كما تقول (١)

لا حاجة بنا الى ان نعرّفك ان العلم قد توصل في الامور الطبيعية الى هذه النتيجة الكبرى وهي : ان القوة والمادة لا تنفصلان البتة . ولا اظنك تستطيع ان تعرفنا بمادة مجردة عن كل قوة او حركة او تطمع ان تبين لنا قوة او حركة مجردة عن كل مادة .فالقوة لا تعرف الاَّ بالمادة والمادة لا تعرف الاَّ بالقوة فلا تدرك الواحدة بدون الاخرى . لنتصوَّر ادق الدقائق المركب الجسم منها خالية من كل قوة اي من رباط قوّتي الجذب والدفع الذي يتكفل بحفظها و يؤلف صور الاجسام ولنفترض ان قوى الالفة قد زالت فماذا ينبغي ان تكون النتيجة . ألا يلزم ان تدخل المادة في عدم لا صورة لهُ ولا يدرك . على انا لا نعرف في عالم الطبيعة جوهراً فرداً بلا قوة فهو انما يظهر بفعل القوة فيهِ تارة على صورة وطوراً على صورة أخرى وآونةً مركبًا من اجزاء متشابهة وأخرى من اجزاء متباينة . ولا يستطيع العقل ان يتصوَّر المادة بلا قوة فانا اذا تصورنا مادة اولية مهما كانت فلا بد ان تكون دقائقها تحت فعل الجذب والدفع والاَّ فانها تتلاشى من ذهننا

كذلك القول بقوة بلا مادة فارغٌ ولا اساس لهُ . واذا كان من المقرَّر ان القوة لا تقدر ان تظهر الاَّ بالمادة فلا تكون القوة اذاً سوى الصفة المتصلة بالمادة وكل صفات المادة كائنةٌ فيها جوهريًا الاَّ انها قد لا تظهر فتكون هاجعة فيها اي في حالة

(١) انظر الملحق في آخر هذا الباب

# الفصل الاول

## (في المادة والقوة)

ان العالم الطبيعي والحاسب الرياضي والعامل الميكانيكي اقصر كلاماً وانصح بياناً وابسط اسلوباً واثبت حجة واصدق كذلك من الاديب اللغوي والعالم اللاهوتي والفيلسوف المنطقي وسائر علماء الجدل الكلاميين لانهُ ألف البرهان الطبيعي الرياضي الذي لا يقبل المغالطة والتمويه

أما انت ايها الفيلسوف الداخل ميدان النزال من ابوابهِ الطالب الجدال باسبابهِ فاهلاً وسهلاً بك ومرحباً لقد سقطت على من يجل قدرك ولا يبخسك فضلك ولكن ما لي اراك لا تثبت على حال ولا يقر لك قرار شأن من يزعم ان المعقول يقوم بدون المحسوس. وافقتنا على مبدإٍ لم تلبث ان نقضتهُ بما بنيت عليهِ من النتائج. جعلت المادة قديمة ثم خلقتها ولما تبين لك فساد ذلك عدلت عنهُ وحاولت التستر بقولك ان موافقتك لنا افتراضية لا حقيقية وان مذهبك هو غير ما ذكرت. فصرح لنا على أي مبدإٍ تعتمد ألعلك لا تعلم ان التردد في المبادىء يوجب الاضطراب في القياس والفساد في الاحكام. فانك لا تقر هنيهة على المحسوس حتى تطير على جناح الافكار في سماء الخيال ولا تلبث لحظة على الفلسفة العملية حتى تتيه في مضايق الفلسفة النظرية فتستنتج على غير مبدإٍ وتحكم على غير قياس الأَّ ما صورتهُ لك حدة الذهن وقوة الخيال. ولا يخفى ان البحث على هذه الصورة خبط عشواء في ليل بهيم ولا يمكني متابعتك في هذا التيه الذي لا يمكن السلوك فيهِ الاَّ بطريق الهداية وهي نعمة وان خص بها البعض لكنها لا تعم وانما يمكنني متابعتك اذا سلكت معي سبيل العلم. الا ما رجعت معي من سماء غيبك الى ارض المحسوس ومن فضاء فلسفتك النظرية الى دائرة الفلسفة العملية. ولا يخدعنك عقلك المجرد وارادتك الحرة وافكارك الغريزية فدقق النظر طويلاً وتساهل قليلاً ترَ ان ما تظنهُ كذلك خاضع لاحوال المادة ومكتسب كسائر الاعضاء

# الباب الاول

## في مذهب داروين وعلماء النظر

### وفيهِ ديباجة واربعة فصول

## الديباجة

بربك أيها الفلكُ المدارُ أقصدٌ ذا المسير ام اضطرارُ
مسيرك قل لنا في أي شيءٍ ففي افهامنا منك انبهارُ

لقد خاض الكتاب على اختلاف طبقاتهم في الكلام على مذهب داروين وما يترتب عليهِ من النتائج كما في شرح بخنر. فمن حاطب ليل تخبط فيهِ تخبط من ضلّ السبيل وخانهُ الدليل فاكثر من القول الهراء و بالغ في التسخط والاغراء. ومن اديب متقد ذكاءً نظر اليهِ نظر الفيلسوف المسترشد بعقلهِ المتمسك بنقلهِ. ومن عالم لا يسبر غور علمهِ بحث فيهِ البحث الدقيق وعمق كل التعميق فنفاهُ بعضٌ وشك فيهِ بعض

فمهلاً ايها الكاتب الحاطب فلقد طالما اصغيت الى بيانك لعلي استضيء بضوء برهانك فاذا انت كرجلٍ متقلد هراوة مقطوعة من غابات الغباوة تهش بها على الانام كراعي الاغنام ولا غرو فقد تعودت ان ترى الناس كالانعام ولو انك جئت بقضية علمية او فلسفية لانصفتك بذكرها وعرفت قدرك بقدرها لكنك جعلت ردودك جعبة طعن وقذف وكنانة سب وشتم فوطنت نفسي على عدم الاجابة وقلت الصمت في في مقام مثلك اصابة فما انا ممن ينازل هذا النزال ولا قبل لي بمثل هذا الجدال

لقد أُظلف النفس عن مطعمٍ اذا ما تهافت ذبانهُ
فتبًّا لدهرٍ رجالهُ صبيان كبار

# ديباجة الطبعة الاولى:

مالبث كتاب بخنر في مذهب داروِن ان نشر حتى بادر بعضهم للاعتراض عليهِ في مقالة نشرت في العدد ١١٧٥ من جريدة المحروسة قال فيها ان هذا المذهب ناقص في الكليات وطلب الينا ان نتجاول معهُ في ميدان الجدال علنا نصل واياهُ الى نقطة وفاق يكون فيها التوفيق بين اصحاب هذا المذهب واهل النظر فاضطرنا ذلك الى اجابة سؤلهِ بمقالة مختصرة نشرت في العدد ١١٧٧ من الجريدة المذكورة والحقناها بالباب الاول من هذه الرسالة تحت عنوان « رد على رد » ولما كانت هذه المقالة بعيدة جدًّا عن الوفاق الذي ابتغاهُ نشر مقالة ثانية في العدد ١١٧٩ من الجريدة المذكورة شدد فيها النكير على اصول هذا المذهب وعلى كليات الماديين ثم نشرت بعض الجرائد مقالات نضرب عن ذكرها لانها لم تنهج فيها منهاج البحث ولم تتعمد سوى القذف والطعن . ثم نشر بعضهم رسالة سماها مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء وقد زعم فيها انهُ مقوّ لاركان هذا المذهب ناقض لدعائم الفلسفة المادية في اصل العوالم. وقد كنا شرعنا في الرد على كل ما تقدم في الجريدة المذكورة في مقالات نشرت تباعاً حتى طرأ على صديقنا الابر المأسوف عليهِ صاحب هذه الجريدة من صروف الحدثان ونوائب الايام التي لا يسلم منها انسان ما اضطرها الى الاحتجاب حيناً من الدهر واضطرنا الى تأجيل تتمة الرد كذلك

انما نحن مثل خامة زرعٍ فمتى يأنِ يأتِ محتصدوهُ

وما زال هذا الرد تام التأليف غير تام النشر حتى تيسر لنا طبعهُ اخيرًا في هذه الرسالة التي سميناها الحقيقة [١] وضمناها من البراهين القاطعة ما عددناهُ كافلاً للبيان وافياً بالمرام في هذا المقام

مصر ١٨٨٥ شبلي شميل

(١) طبعت لاول مرة بمطبعة المقتطف سنة ١٨٨٥

# الحقيقة

وهي رسالةٌ تتضمَّن ردوداً

## لاثبات مذهب دارون

في

## النشوء والارتقاء

للدكتور

شبلي شميل

الخطاء فيها اكثر من مرة الاَّ ان هذا الخطاء لا يضر بل يفيد لاكتشاف الحقيقة على حد ما في المثل الالماني القائل «لا ينتقل من الخطاء الى الصواب الاَّ العاقل ولا يقف الاَّ المجنون»

واعلم ان زعماء الرأي المادي اليوم لا يزالون يضطهدون كما كانوا يضطهدون في الماضي الاَّ ان اهل المستقبل سيرفعون شأنهم و يعلون مكانهم ويقيمون لهم التماثيل والانصاب كما فعلوا اليوم لشاعرنا شيلر اذ انفقوا لاجلهِ الملايين ولشد ما كان مهملاً في عصره حتى انهم لم يهتدوا الى قبره وجمع رميمهِ الاَّ بعد جهدٍ جهيد وعناء شديد

( انتهى شرح بخنر ويليهِ كتاب الحقيقة )

السماوية . وثبوت نواميس الطبيعة . ووحدة المواد والقوى في كل العالم المنظور . ومذهب الخلايا . والتاريخ الطبيعي للارض والعالم العضوي . وشدة ارتباط الظواهر العضوية وغير العضوية بعضها ببعض . والاكتشافات في عمر الانسان واصلهِ . والدلالة الفيسيولوجية على ان الدماغ عضو النفس . ونفي المبدإ الحيوي والاسباب الغائية . وبالجملة نفي كل القوى السرية من العلم والطبيعة وتحديد معنى البداهة وعدم الفرق جوهريًّا بين نفس الانسان ونفس الحيوان الاَّ من حيث الارتقاء فقط الخ

فيرى من ذلك ان قول القائلين ان الرأي المادي اليوم رأي فند ونفي منذ زمان طويل فاسد لسببين: احدهما انهُ لا يعلم ان الرأي المادي نفي ابدًا بل كان يهجع ويثور بحسب احوال الامم المتغيرة وهو قديم جدًّا .وثانيًا لان الرأي المادي اليوم ليس الرأي المادي لابيقوروس اوالانسيكلو بيذيين لما حدث من الاكتشافات العلمية . ويختلف عن التعاليم القديمة بانهُ ليس مذهبًا نظيرها وانما هو حقيقة فلسفية موضوعها البحث عن المبادىء الواحدة في عالم الطبيعة والروح وبيان الارتباط الطبيعي المنتظم بين جميع ظواهر الكون . فاطلاق اسم الرأي المادي على هذا الانصباب العام بمعنى انهُ مذهب معلوم لا يصح او هو بالحري قاصرٌ جدًّا لا يفي بالمقصود . فالرأي المادي اليوم لا يجعل المادة وحدها فوق كل شيء . بل يعتبر القوة والمادة غير منفصلتين كأنهما شيء واحد ولا فرق عندهُ في جعل القوة او المادة قاعدة كل شيء اذا كان اقتضاء لذلك . او هو كما يسمونهُ ايضًا الرأي « الحقيقي » . وهذا الرأي لا ينفي الفلسفة كما يزعم بعضهم بل بالحري يجعلها روح كل علمٍ مع الفرق بان الفلسفة ليست معهُ كما كانت قبل علمًا مستقلاًّ بمقدماتهِ ونتائجهِ . بل هي مركز تجتمع اليهِ نتائج كل العلوم الاخرى حيث يصير تحويرها « وهذا الحصر يعليها علوًّا صحيحًا » كما يقول سبيس . وهذه الفلسفة لا تدعي لقضاياها العصمة المطلقة ولا تستنزل من سوابح الافكار في ذرى سماء الخيال نواميس للكون بل بالضد من ذلك تقف عند حد ابحاث العلوم الصحيحة . وهذا الحد غير ثابت بل يزداد بعدًا سنة عن سنة كلما تقدمت هذه العلوم . وقد يقع

يقول : « لما كانت المادة لا تقدر ان توجد وتعمل الآَّ بالروح ولا الروح الآَّ بالمادة كانت المادة اذا قادرة ان تتركب كما ان الروح لا تتخلى عن قوتي الجذب والدفع » الخ

وان لم يكن في هذا العصر في المانيا كتاب مادي بحت الأَ ان اعظم زعماء الرأي المادي فيهِ كان ملك بروسيا فريدريك الكبير الذي ضم الى بلاطهِ كل نوابغ عصرهِ وقدا شتغل معهم بالفلسفة والآداب ونظم حكومتهُ على مبادىء حرية المعتقدوالضمير وكتاباته تدل على انهُ مادي محض ومثله كانت ابنة عمهِ العظيمة كاترين الثانيـة امبراطورة روسيا في اكرام وفادة العلماء كما مرّ

***

## الرأي المادي

### ( في القرن التاسع عشر )

لا نطيل لك الشرح على الفلسفة المادية لهذا القرن لانك رأيت بنفسك كيف نشأت وانتشرت ولا اظنك تجهل مبادئها ومفعولها وما هو محتوم لها في المستقبل . واعلم ان المانيا هي القائمة بها هذه المرة في مقدمة الامم بعد ان وقفت قرنين او ثلاثة قرون ناظرة لا تبدي عملاً . ففي القرن السادس عشر كانت ايطاليا في مقدمة الامم في ذلك . ثم في السابع عشر انكلترا . وفي الثامن عشر فرنسا . واما في القرن التاسع عشر فالسابقة المانيا . ولقد ابطأت المانيا السير جدًّا ولكن عن حكمة فلم تتهافت على الرأي المادي او الفلسفة المادية الاَّ بعد ان وجدت في العلوم الصحيحة مستندات قوية لم تكن لها من قبل

ولئن كان الاعتماد في الماضي على الاختبار الاَ ان موادهِ لم تكن بالحقيقة كفاء الواجب . وكل ما اتت بهِ التعاليم المادية السابقة ناتج عن النظريات الفلسفية لا عن التجربة والاختبار خلافًا لليوم فان الرأي المادي اليوم يستند الى جملة معلومات صريحة لم تكن في السابق . كعدم ملاشاة المادة او الجواهر الفردة . وحفظ القوة . وعدم انفصال القوة عن المادة ومعرفة تبـدل المادة معرفة واضحة . وعدم نهاية الاجرام

المعول فيها هي فلسفة ليبتز بما فيها من الارواح والقصد في نظام الحيوان . ثم سادت فلسفة كريستيان ولف الذي قال فيهِ لانج « انهُ رجل جليل وحر الافكار الاَّ انهُ من صغار الفلاسفة . وليس في فلسفتهِ شيءٌ من المادية وقال « ان النفس جوهر بسيط روحاني » . ثم كثرت الابحاث في بسيكولوجية الحيوانات على منهاج ليبنتز . وجعلت نفس الحيوان خالدة كنفس الانسان . واشهر ما اتصل بنا من ذلك مؤلف لريماروس «مراقبة اميال الحيوان الصناعية » سنة ١٧٦٠ . وآخر للاستاذ ماير (١٧٠٩) الذي حاول وضع مذهب جديد في نفس الحيوان وماير من المتعصبين ضد الرأي المادي وقد نشر سنة ١٧٤٣ رسالة بين فيها ان المادة لا تستطيع ان تفتكر . وكذلك الاستاذ مارتن كنوتزن كتب نظيرهُ . ولا يزال اصحاب ما وراء الطبيعة اليوم متمسكين بهذهِ الحجة . وقد فاتهم انهُ لا يزال ينقصهم الدليل البين . بل الادلة ضدهم كثيرة . ولقد اضحكت هذه الحجة دلامتري فقال « ان قولهم المادة لا تقدر ان تفتكر على حد قولك المادة لا تقدر ان تدق الساعات » . وقال الفيلسوف شوبنهور « اذا كان في امكان المادة ان تصير تراباً ففي امكانها ان تفتكر ايضاً » . فالمادة كما هي مادة لا تفتكر كما انها لا تدق الساعات ولا تصير تراباً ولكنها اذا تركبت على حالات معلومة كان في امكانها ان تدق الساعات وان تصير تراباً وان تفتكر ايضاً

وكتاب دلامتري « الانسان الآلة » صادف في المانيا مقاومة عنيفة وليس ما يستوقف النظر في المناقضات الكثيرة التي وجهت ضده

ومع ذلك فلم تكن المانيا خلواً من الرأي المادي كلياً . بل مال فيها اليهِ رجال نظير فورستر وليختنبرج وهردر ولواتر او بالحري ادخلوا في تعاليمهم بعض مباديء منهُ وكل يوم كان يمتد عن يوم ولا سيما في العلوم الصحيحة . وهو وان لم يعم الفلسفة الاَّ انهُ مهد السبيل لنقض التعاليم القديمة لما وراء الطبيعة . فان ليسنج وغاتي وشيلر وان لم يكونوا بالحقيقة ماديين الاَّ انهم تحولوا عن الفلسفة القديمة المقررة واعتاضوا عنها بالبحث عن الحياة والانصباب على الشعر واي اقرب الى المادية من غاتي حيث

الافكار في رجال فرنسا هكذا كان رجال فرنسا سبباً في رد فعل هذه الشعلة على انكلترا .

واشهر رجال الانكليز في هذا العصر « دافيد هوم » ولد سنة ١٧١٤ وقرأ العلوم في باريز سنة ١٧٣٤ ثم عاد الى « اكوسا » ونشر كتابات في مواضيع مختلفة من سنة ١٧٣٩ الى سنة ١٧٥٧ . ثم في سنة ١٧٦٣ رجع الى باريز بصفة كاتب اسرار السفارة . وتوفي سنة ١٧٧٦

وفلسفة دافيد هوم كفلسفة لوك ويختلف عنهُ بانهُ لا يعتبر النفس روحاً خالدة ولا يصدق الوحي ولا يؤمن بما وراء الطبيعة . ويقول انهُ ما من دين خالٍ من التناقض ومنزه عن الشك وما عدا كونهُ فيلسوفاً كان مؤرخاً ومن رجال الحكومة ايضاً

وممن اثرت فيه ثورة الخواطر الفرنساوية المؤرخ الانكليزي جيبون (١٧٣٤ — ١٧٩٤ ) اقتفى لوك وبيل وفولطير ومونتسكيو في تاريخهِ الشهير « سقوط السلطنة الرومانية » بجعل نشأة النصرانية سبب هذا السقوط . وقد افرغ سهام جعبتهِ طعناً في المعجزات والرهبان والرهبنة

على ان اعظم زعماء الرأي المادي في انكلترا هو يوسف بريستلي ولد سنة ١٧٣٣ وكان اعظم طبيعي في عصرهِ . واكتشف اكتشافات مهمة في الطبيعيات والكيميا وهو من اتباع دافيد هرتلي الطبيعي والفيلسوف معاً . كان بقرب عهد الانسيكلوبيذية ( ١٧٠٥ — ١٧٥٧ ) وجل اعتمادهُ في الفلسفة على الفيسيولوجية . فبريستلي حذا حذوهُ الا انهُ بالغ عنهُ في النتيجة وجعل الفكر والحس من اعمال الدماغ المادية وانكر الارادة الحرة . وكان يعتقد وجود الله ولذلك ندد بكتاب « نظام الطبيعة » ثم اضطر ان يهرب فرحل الى اميركا وتوفي في فيلادلفيا سنة ١٨٠٨

***

واما المانيا فليس لنا عنها في هذا العصر شيءٌ كبير . والفلسفة التي كان عليها

لغات اوروبا . وقد اعتبر خطأً اصدق بيان لحالة فرنسا من انتباه الافكار في القرن الثامن عشر . ويظهر ان يوفون وفولطير وديدرو ودلامبرت اعتصبوا ضد هذا الكتاب

وكان كسائر ماديي ذلك العصر حليماً محسناً كريماً ملجاء الفقير وملاذ ذوي العقول والاستحقاق وقد عين رواتب كبيرة لكثير من العلماء . وسعى بتنشيط الزراعة والصناعة . وكان لهُ مكانة عالية عند فريدريك الكبير وتوفي سنة ١٧٧١

***

ولا يسعنا تعداد الفوائد التي حصلت للانسانيـة قاطبة بواسطة تعاليم رجال القرن الثامن عشر لفرنسا . فمهما اطنبنا فيهـا فاننا لا ندرك شأوها . فانهـا كانت سبباً قويـًا لنهوض الهمم وانتعاش العقول وتغير مجرى الآراء والافكار تغيرًا شديدًا ليس لهُ نظير في التاريخ . والثورة التي حصلت بسبب ذلك في الثيولوجية اي علم اللاهوت حصلت ايضاً في الفلسفة فاستردت مقامها بعد ان اصبحت نسياً منسيًّا . ولا يعلم عصر سادت فيهِ الفلسفة نظير هذا العصر . والرجال الذين اشتهروا فيـهِ كانوا كلهم يبثون المحبة متقدين بنار الغيرة على الانسانية وحرية الفكر وحرية المعتقد والتعليم معتصبين عصبة مقدسة ضد التعصب والظلم وتقييد العقل . قال هنتر ما نصه(١)
« فلو كان هؤلاء الرجال مفسدين متهتكين قائمين بنصرة الرذيلة كما يقول بعضهم لما كان تأتى لهم ان يتركوا آثارهم في معتقدات الاجيال الذين جاؤوا بعدهم وفي افكارهم وسلوكهم » . اه

وانا لا نخطي اذا قلنا ان خلاصة الرأي المادي في القرن الثامن عشر محصورة في تعاليم رجال فرنسا لان فرنسا كانت في هذا القرن في مقدمة الامم في هذا الامر واما انكلترا والمانيا فكانتا في المقام الثاني من ذلك وهاك طرفاً مما كانتا عليهِ

***

انهُ كما كان كبار رجال انكلترا كباكون ونيوتون ولوك وغيرهم سبباً لايقاد شعلة

(١) احد مشاهير مؤرخي علم الأدب

في هذه الصفات او النواميس وهي التي يسميها فان هلمونت أمر الله

وبواسطة كونديلياك وكبانيس والانسيكلوبيذيين تأيد الرأي الحسي في فرنسا وصار لهُ اتباع في عهد الجمهورية الاولى عند سائر المتنورين وامتد تأثيرهُ ايضاً جدًا في القرن التاسع عشر

ومن مشاهير الفرنساويين ايضاً هلفتيوس واسمهُ لا ينفصل عن اسم دلامتري لتوسعهِ بالمادية نظيرهُ . ولد بباريز سنة ١٧١٥ من ابوين المانيين وكان يحب المجد جدًّا فترك كل شيء وتعلق على العلم . وبعد تعب عشر سنين نشر كتابه « في العقل » فاشتهر بهِ جدًّا وبين ان الحس مصدر كل معرفة . وهو يعبر عن قوة الحس بالنفس . وعن جملة التأثيرات والمعارف المتحصلة للنفس بالعقل . فالعقل نتيجة النفس وحالة تكوينا من الدقة والخشونة وكل الافكار ناشئة عن الحواس وبدون الحواس لا فكر . والطفل لهُ نفس أي هو قادر ان يحس . وليس لهُ عقل لان العقل ينمو شيئاً فشيئاً بما يتحصل للنفس من المعلومات بواسطة الحواس . فالانسان يولد اذًا مع كل نفسهِ ولكن ليس مع كل عقلهِ

فمحبة الذات والمصلحة الخصوصية هما حسب هلفتيوس مصدر كل اعمالنا واحكامنا . فالانسان لا يعمل عملاً الاَّ لمصلحتهِ . واما عمل الخير لانهُ خير فقول فاسد كعمل الشر لانهُ شر . وقاعدتهُ الادبية هي هذه « فتش عن الراحة وابعد عن الشقاء » والفضيلة عندهُ قائمة بتقديم مصلحة الحكومة والجمعية والانسانية على المصلحة الذاتية

وهو يعتبر ان التربية اعظم شيء اذ يتوقف عليها كل شيء . فالافراد كالامم هم كما صيرهم مشترعون ومعلموهم . وقد قاوم بشدة طرق التعليم المعوَّل عليها في عصره

وهذا الطعن العنيف الذي تضمنهُ كتابهُ في الهيئة السياسية والدينية جلب عليهِ اضطهادًا شديدًا . واحرق كتابهُ بالنار جهارًا بامر الحكومة سنة ١٧٩٥ وقد اضطر ان يهرب من فرنسا على ان كتابهُ طبع خمسين مرة في مدة قصيرة وترجم الى سائر

ممكناً فهل المادة ازلية ؟ وان كانت أزلية فهل هذا الصانع متصل بها او منفصل عنها ؟ وان كان متصلاً بها فهل المادة الله والله المادة ؟ وان كان منفصلاً عنها فكيف الصانع الذي ليس مادة يفعل في المادة ؟ فلا جواب على ذلك سوى « لا ادري » وهكذا يقول في امر النفس وخلودها على ان في شكه هذا من المادية ما هو ظاهر في كلامهِ

***

ويلحق بالانسيكلو بيذيين ومدرستهم اثنان آخران احدهما الاب كونديلياك المولود قبل دلامبرت بسنتين اي سنة ١٧١٥ تعلق على البحث في مسألة الادراك وانتهى بها الى نتائج حسية والثاني الطبيب كبانيس المولود سنة ١٧٥٧ حذا حذو كونديلياك ولا سيما في المسائل الفيسيولوجية . وكتابهِ في « نسبة الجسد والنفس في الانسان » سنة ١٧٩٨ — ١٧٩٩ ترجم الى سائر لغات اوروبا وما زال يطبع حتى اخيراً . فكبانيس يقول ان الجسد والنفس لا يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً شديداً فقط بل هما شيء واحد . فالفيسيولوجية والبسيكولوجية اي علم النفس وعلم الاخلاق فروع ثلاثة لعلم واحدهو الانثرو بولوجية اي علم الانسان . والنفس والعقل ليسا الأ حركات الاعصاب والدماغ واحساساتها . واليهِ ينسب المثل الشهير « الانسان كلهُ اعصاب ». ويؤكد ان الدماغ عضو الفكر . وهو كشارل فوجت حيث يقول «الدماغ للفكر كالمعدة للهضم او الكبد لافراز الصفراء من الدم . والمؤثرات الداخلة اليهِ تحركهُ كما تحرك الاطعمة المعدة . ووظيفة الدماغ حفظ صورة لكل تأثير وجمع هذه الصور ثم المقابلة بينها واستخراج أحكام منها كما ان وظيفة المعدة حل الاطعمة وتحويلها الى دم

وكما يكون الانسان كذلك يكون إلههُ وامر الله ليس سوى النظام اللازم للكون أي ناموس المادة الطبيعي . قال « ان جميع ظواهر الكون لم تكن ولا هي كائنة ولن تكون سوى نتيجة لازمة للمادة او للنواميس التي تسوس جميع العوالم فسبب كل شيء

الكل عظيم هو واحد . ولا موت فالولادة والحياة والموت تغير في الصورة فقط . والنفس ليست سوى نتيجة التكوين والبسيكولوجيـة او علم النفس ليست الاَّ فيسيولوجية الاعصاب . ولا يوجد ارادة حرة ولا نفس خالدة . وخلود الانسان في عمله لان عمله لا يزول ويبقى الى الابد . والسعادة والفضيلة شيء واحد ولا يجب مقاومة الاميال لانها سبب الاعمال العظيمة . وبالجملة لا توجد مسألة من الرأي المادي الاَّ وقد بحث ديدرو فيها وبلغ بها الى قمتهـا . والرأي المادي الحديث يسعى بواسطة تقدم العلوم الطبيعية لتأييد هذه القمم التي هي واحدة بنفسها »

***

أما دلامبرت فمن اشهر كتبة فرنسا بسبب تعليق اسمه على الانسيكلوبيذية . وشهرتهُ في العلوم الرياضية . وكان من اعضاء الاكاذمية ومن اخص اصدقاء فريدريك الكبير والامبراطورة كاترينا . ولد في باريز سنة ١٧١٧ واشتهر منذ حداثته بكتابات في العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية ثم في علم الهيئة . وكان نبيل الطبع حسن الاخلاق محسناً كريماً عفيفاً مكتفياً بنفسهِ على انهُ كان ضعيفاً قليل الحزم حتى في حجتهِ . وهو على مذهب باكون ولوك في الفلسفة والمنطق اي مادي حسي الاَّ أنهُ لا يتعرض لله ولا لخلود النفس ولا لروحانيتها ولا للارادة الحرة او بالحري يشك فيها لانهُ بالحقيقة شكوكي او من اللادريين كما يظهر من كلامهِ حيث كتب الى فولطير سنه ١٧٦٩ قال « اقسم بي اني لا أجد في ظلمات ما وراء الطبيعة الاَّ الشك امرًا معقولاً فاني لا أفهم المادة ولا اي شيء آخر وأتيه كلما افتكرت بذلك واراني ميالاً للتصديق بان كل ما نراهُ وهم من الحواس وانهُ لا يوجد شيء خارج عنا يشبه ما نظن اننا نراهُ وكثيرًا ما أردد في نفسي سؤال الملك الهندي لماذا يوجد شيء ؟ فهذا هو بالحقيقة العجب العجاب » وفي سنة ١٧٧٠ كتب الى فريدريك الكبير يقول لهُ « يظهر لي ان عبارة مونتين « لا ادري » هي المعقولة وحدها في المسائل الفلسفية ولا سيما في امر الله على ان في نظام العالم ما يدل على صانع صنعهُ كما تدل الساعة على صانع صنعها . ولكن كيف هو هذا الصانع ؟ وهل خلق المادة ام نظمها فقط ؟ وهل الخلق ممكن ؟ وان لم يكن

وقد وصفهُ بعض واصفيهِ قال « لو اراد المصوّر ان يصور رأس بلاتون او ارسطو لما وجد اليق لذلك من رأس ديدرو . فان جبينهُ العريض الصلت يدل على ذكاء فائق وهو وان كان في هيئتهِ تراخٍ الاَّ انهُ لما كان يحتد في الكلام كان يكتسي وجههُ هيبةً وجلالاً . وربما دلت هيئتهُ وهو في حالة السكون على اضطراب او سذاجة او تعب ايضاً ولكن ديدرو لم يكن غير ديدرو لما كانت قوة فكرهِ تملكهُ

وكان على جانب عظيم من الرأفة والدعة حليماً غير متعصب ضد الذين ليسوا من مشربهِ قيل ان الدوك دورليان اقترح رسالة في هجوهِ وعين ثمنها خمسة وعشرين ذهباً تدفع لمؤلفها فكتب ديدرو رسالة هجا بها نفسهُ ونسبها الى احد المعوزين ليكسبهُ هذا المال . وقد وصف ديدرو نفسهُ في بعض كتاباتهِ قال « اني لا احتقر لذات الحواس فلي حلق يحب الاطعمة الشهية والخمره الجيدة . ولي قلب ولي عينان وأحب ان يكون لي امرأة جميلة اضمها الى صدري واقبل شفتيها بشفتيَّ . ولا اكره الاجتماع بالاحباب في ليلة طرب بل في ليلة متهتكة . الاَّ اني لا اخفي عنك ان مساعدة مسكين واتمام عمل شاق واعطاء نصيحة جيدة وقرأة كتاب مفيد والتنزه مع صاحب صديق وصرف اوقات مفيدة مع اولادي وكتابة صفحة جيداً وذكر اشياء رقيقة لطيفة لحليلتي تجعلني استحق منها قبلة لأحبُّ اليَّ من ذلك كلهِ »

***

وقد مر ديدرو بدرجات ثلاث فآمن اولاً بالوحي ثم بالله وحدهُ ثم صار ماديًّا معطلاً . وجعل اصل كل شيء في المادة وادق اجزائها المتحركة منذ الازل . واهم ما لهُ في هذا الموضوع ( ١٧٧٠ ) رسالة في « المادة والحركة » . ورسالة موسومة « مباحثة دلامبرت وديدرو وحلم دلامبرت » وهذه الاخيرة لم تنشر حتى سنة ١٨٣١ ومن جملة ما يذكرهُ ديدرو مثال البيضة كيف انهُ بالحرارة فقط يخرج من كتلة لا حركة فيها ولا حس كائن حي قال « انك بذلك تنقض كل تعاليم اللاهوتيين وتهدم كل هيا كل الارض » فالوجود عندهُ اختمار دائم وتبادل في المادة لا يفتر وحركة في الحياة لا تسكنُ . فلا شيء ثابت بل كل شيء متغير . والافراد ليست سوى اجزاء

ارتفاع سعرهِ . وطبع منهُ في المرة الاولى ثلاثون الف نسخة . وترجم اربع مرات الى سنة ١٧٧٤ . وربح بهِ الكتبيون نحواً من ثلاثة او اربعة ملايين فرنك

وقد اثرت الانسيكلوبيذية جدًّا في افكار ذلك العصر ومعتقداتهِ . وقد سماها كابانيس « الاتحاد المقدس ضد الوهم والظلم » وهي السبب على قول روزانكرانز في تحول افكار الفرنساويين عن التثنية الديكارتية ( نسبة الى ديكارتوس ) وانتقاض رأي ما وراء الطبيعة وانتشار فلسفة الانكليز العملية

***

والرجلان اللذان تميزا في الانسيكلوبيذيا هما ديدرو ودلامبرت

فديدر وكفولطير يقتبس من نيوتون ولوك . لكنهُ اعلم من فولطير واثبت منهُ في المادية والجحود . وحياتهُ كانت عيشة سكون واعتزال شأن العلماء . ولا خلاف في انهُ كان شريف الاخلاق حميد الخصال . ولد سنة ١٧١٣ . ولم يتخذ صناعة معلومة بل وقف نفسهُ للعلم . وكان كثير الاعتماد على باكون ولوك وبيل . ومن سنة ١٧٤٥ حتى سنة ١٧٤٩ نشر عدة رسالات مهمة سجن لاجلها مائة يوم في فنسان . ثم في سنة ١٧٤٩ ظهر مشروع الانسيكلوبيذية فاشتغل بهِ عشرين سنة محاطاً بانواع الصعوبات والاضطهادات والمعاكسات . ثم ان امبراطورة روسيا كاترينا الشهيرة دعتهُ مراراً الى بلاطها فذهب الى بطرسبورج سنة ١٧٧٣ حيث نزل على الرحب والسعة واجزلت لهُ الامبراطورة الصلات والهدايا . الا انهُ لم يستطع لمرضهِ ان يبقى هناك فعاد الى وطنهِ . فاي فرق بين ذلك العصر واليوم حيث لا ترى سوى الخسة والدناءة والموالسة والافكار الدنيئة مقربة من الرؤوس المتوجة (١)

وتوفي ديدرو سنه ١٧٨٤ وآخر ما قالهُ هذه العبارة « الكفر اول خطوة نحو الفلسفة » وقد رتبت امبراطورة روسيا معاشاً لارملتهِ مدة حياتها

---

(١) اذا كان ذلك في الغرب فكيف الحال في الشرق والامراء جهلاء والعلماء اندر من الكبريت الاحمر ضعفاء وحتى صار التفوّق بتلك الاخلاق السافلة منتهى الذكاء وسلماً للعلياء مثراة لطالب الثراء

وجود الله بل عارض مذهب البانتايسم . و بين انهُ يصح وجود اناس لا يعتقدون وجود الآلهة وهو من رأي بيل ان الجحود لا يضر بالفضيلة ولكنهُ يقول ان الجمهور لا يقـدر على الجحود لانهُ لا يستطيع لاختلاف المشرب وضيق الوقت ان يستغرق البحث في هذه المسألة الصعبة و يقتنع بها بواسطة العلم . الاَّ انهُ يطلب الى الحكومة ان لا تقيد حرية الفكر . و يقول ان الافكار المتناقضة يقدر ان يكون بعضها بجانب بعض بدون ضرر واذا لم تستعمل القسوة لتأييد البعض وابادة البعض الآخر فيتيسر لعموم الناس مع الزمان ان يرسوا على الحقيقة

ويختم كلامهُ بالقول ان الاحترام لا يجوز الاَّ لبنات الطبيعة الثلاث الفضيلة والحكمة والحقيقة ولا آلهة سواها

***

و يلحق « بنظام الطبيعة » مشاهير الانسيكلو بيذيين الفرنساو يين الذين عدوا هولباخ منهم . ووجودهم كان بين ظهور كتاب « الانسان الآلة » وكتاب « نظام الطبيعة »

فالانسيكلو بيذيةاو موسوعة العلوم او دائرة المعارف للكتبي لابرتون يراد بها مختصر المعارف الموجودة وصاحب هذا المشروع شامبرس الانكليزي فانهُ نشر في سنة ١٧٢٧ مؤلفاً سماهُ « سيكلو بيذية او قاموساً عامًّا للصنائع والعلوم » فاراد لابرتون في اول الامر ترجمتهُ ثم رأى ان يؤلفهُ فاستدعى اليهِ الكاتب الشهير ديدرو وسلمهُ عهدة تحريرهِ وانضم الى ديدرو دلامبرت وجمهور من مشاهير الكتبة منهم فولطير الذي ساعد فيهِ كثيرًا

والمجلدان الاولان ظهرا في سنة ١٧٥١ وسنة ١٧٥٢ تحت هذا الاسم «انسيكلو بيذية او قاموس مبرهن للعلوم والصنائع تأليف جماعة من الكتبة رتبهُ ونشرهُ ديدرو . والجزء الرياضي منهُ تأليف دلامبرت الخ » فهيجا ضدهما خواطر الكهنة ومن على شاكلتهم من العلماء . ولولا مساعدة الحكومة ولا سيما احد وزراءها المدعو ملارب لما امكن تكميل نشر الانسيكلو بيذية . وقد انتشر هذا المؤلف انتشارًا عظيماً على رغم

حيث غلبت . واذا كان يصعب علينا معرفة الاسباب الاخيرة التي نعتمد عليها في افعالنا فلكثرة الاسباب التي تنازعنا قبل اعتمادنا ولشدة اختلاطها

وقال فيما خص خلود النفس ما معناهُ ان من يزعم ان النفس لا تزال تحس وتفتكر بعد الموت يلزمهُ ان يقول ان الساعة المكسورة لا تزال تعين الوقت بعد الكسر كما كانت قبلهُ . ومن الغريب انك ترى شديدي الاعتقاد بخلود النفس احرص الناس على الحياة الدنيا واجبنهم لدى الموت . على ان هذا الاعتقاد لا فائدة فيهِ اذ لا يمنع الاشرار عن ارتكاب الشر . واما الذي لا يعتقد الحياة الاخرى فيسعى بانهُ يجعل الحياة الدنيا سعيدة وهذه السعادة لا يجدها الاَّ بنيل محبة قريبهِ

***

وفي الفصول السياسية من هذا الكتاب يندد كثيرًا بالاحوال المقررة ويبسط افكارهُ وآرائهُ بكل جسارة في ما هو كائن وما يلزم ان يكون . ولا شك ان تعليمهُ كان من جملة بواعث الثورة الفرنساوية قال في هذا المعنى ما نصهُ « اننا لا نرى هذا القدر من الجنايات على الارض الاَّ لتضافر كل شيء على جعل البشر اشرارًا جانين فان دياناتهم وحكوماتهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر . فما عسى ان ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايتهِ وتجل قدر المسيء واساءتهِ ولا تقاص اقبح الذنوب الاَّ اذا كان مرتكبوها ضعافًا . فان الهيئة الاجتماعية تقاص الصعاليك لذنوب ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كبارًا . وكثيرًا ما تقضي بالموت على اناسٍ لم يرتكبوا القبيح الاَّ لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتعزيز شأنها »

واما القسم الثاني للكتاب ففيهِ معارضة للدين ولوجود الله . والرأي المادي مبسوط فيهِ بجسارة لم يسبقهُ اليها احد ممن تقدمهُ . ومعارضة هولباخ للدين لاسباب علمية وادبية . فاراد نقضهُ لانهُ يراهُ اصل جميع مصائب الانسان . واما حجتهُ لتبطيل الادلة على وجود الله فضعيفة ومملة وربما كان ذلك لان هذه الادلة لا قيمة لها فلسفيًا . فان المؤمن بالله يؤمن بهِ لاسباب خارجة عن الفلسفة . على انهُ لم يقتصر على نفي

من حوادث الطبيعة كما انهُ لا يصح اطلاق الصدفة العمياء عليها ولا صحة لذلك الاَّ في جهلنا . فكل ما تفوتنا اسبابه نظنهُ صدفة . وهذا النظام في الطبيعة ليس فيهِ شيء من المعجزة . « فليس في الطبيعة امر عجيب الاَّ للذين لم يدرسوها جيدًا » والجيد والردي اعتباريان نسبيان في الوجود مثل النظام والصدفة وما شاكل

وقد تظاهر ضد ديكارتوس وتعليمهِ لانهُ جعل ما يفتكر منفصلاً عن المادة . قال لو جعلت المادة ذات خاصة لان ترتفع في الانسان الى درجة الافتكار لكان ذلك ابسط واصح . وسائر تغيرات النفس على رأيهِ متوقف على عمل الدماغ . وهذا العمل تنبههُ المنبهات وتدعوهُ الى خارج . قال في هذا المعنى ما نصهُ « ان الذين يفصلون النفس عن الجسد لا يفصلون عنهم الاَّ دماغهم . والدماغ هو المركز الذي تجتمع اليهِ الاعصاب من جميع جهات الجسد . وكل الاعمال التي ينسبونها للنفس يعملها هذا العضو . وهو ينفعل للمؤثرات الخارجية فيحرك اعضاء الجسد . او يفعل على نفسهِ ويولد انواعًا مختلفة من الحركة سميت قوى النفس »

فالنفس ليست سوى خاصة من خصائص المادة او عملاً من اعمالها وبالحصر من اعمال الدماغ . قال « اذا حركت النفس ذراعي على فرض ان لا يكون هناك مانع يمنع ذلك وحمل ثقلاً كبيرًا فلا تعود تقدر على تحريكهِ فيتعطل عملها اذًا بسبب مادي ولو كانت النفس روحًا لا نسبة بينها وبين المادة لما كان يقتضي ان يكون كذلك لان الروح لا ينبغي لها ان تجد صعوبة في تحريك العالم اعظم منها في تحريك ذرة منهُ . فمثل هذا الروح اذًا وهم »

وبالنتيجة لا يوجد افكار غريزية ولا اميال ادبية غريزية ولا ارادة حرة مطلقة بل كل شيء ناتج من الحواس والتربية والتشبه والعادة . وتعليم الارادة الحرة يجعل الانسان يجهل ضرورة ارتباطهُ الكلي بالطبيعة . فارادة الانسان لا تطلب النافع وتنفرُ من الضار لما لها من الحرية بل لما في ذلك من الضرورة لكيانها فاننا نظنُّ انها تختار مما بين الاشياء عن حرية . والحال ان في الامر سببًا قوي على الارادة فمال بها من

حكم الضرورة كما تنبت الشجرة اثماراً . و يعلم ان غروره بنفسهِ ناشيء عن كونهِ شاهداً وجزءًا من العالم معاً وان التفضيل الذي يجعل شخصه موضوعاً له سببه محبة ذاتهِ ومصلحته الخصوصية

فالعالم عنده ليس الا مادة وحركة وسلسلة اسباب ومسببات لا نهاية لها فكل ما فيهِ متحرك ومتغير والسكون فيهِ ظاهري فقط واثبت الاجسام يتغير على الدوام . والمادة والحركة ازليتان . والخلق من لا شيء لفظة لا معنى لها واما في ما خص جوهر المادة فهو غير متمسك جداً بهِ بل يقول ان هذا الجوهر مجهول قال ما نصه « ذلك هو سر الطبيعة الذي لا يتحول او هو الدائرة التي يدورها كل موجود فالحركة تكوّن اجزاء العالم وتحفظها ثم تلاشيها شيئاً فشيئاً و بعضها ببعض مع بقاء الكمية على حالها . فالطبيعة تولد الشموس ونظامها والسيارات التي تدور حولها والحركة تغيرها جميعاً على نوع غير محسوس وربما بددت اجزاءها يوماً من الايام » (١)

وخطأ هولباخ في اعتبارهِ تغيرات المادة هو انه كهرقليط وابيقوروس ولوكرس وجسندي يجعل النار مبدأ كل حياة . ثم بعد اربع سنوات من ذلك اكتشف بريستلي الاكسيجين وفي هذا العهد اشتهرت امتحانات لافوازيه العظيمة التي اتضحت بها ظواهر الاشتعال وكانت قاعدة مذهب التغيرات الكيماوية الواسع

***

وعلل هولباخ حركة الاجزاء الصغيرة المادية بالجذب والدفع كما عللها امبيدقل بالمحبة والنفور . وقال ان كل ما يحدث في الطبيعة شديد الانتظام وسبب هذا الانتظام قوى الطبيعة الاساسية الازلية . ولداعي الاسباب والمسببات كانت الضرورة ناموس الاعمال في العالم الحسي كما في العالم المعنوي اي كل حادث حادث بالاضطرار

وقد بين في فصل النظام ان المراد بهذه اللفظة تعاقب الظواهر الناشئة عن النواميس الطبيعية الثابتة تعاقباً منتظماً . ولا يصح اطلاق لفظة عدم النظام على شيء

(١) وكأن العلوم الطبيعية شرعت تحقيق هذا المبدأ اليوم ولا سيما بعد ان ثبت فيها ان كل شيء متحول غير ثابت حتى الجوهر الفرد نفسهُ كما تقدم في المقدمة الثانية

قطن باريز وكان غنيـاً جداً محسناً الى الفقراء محباً للعلماء كثير العـلم غير معجب بنفسهِ . ولد في هدلشيم سنة ١٧٢٣ وتوفي في باريز سنة ١٧٨٩

وهذا الكتاب مقسوم الى قسمين انساني ولاهوتي . فالقسم الانساني اهمها وقاعدته ادبية كمذهب ابيقورس . ويفتتح الكلام بهذه القضية وهي ان الانسان اذا كان تعيساً فلجهلهِ طبيعته . فيقتضي له اذن حتى يصير سعيداً ان يتحرر من الاوهام المتكبل بها منذ طفوليتهِ فانها سبب النير الثقيل الذي يلقيهِ الظالمون والرؤساء على عاتق الامم وسبب الاضطهاد والترفض والحروب الدائمة واراقة الدماء وما شاكل . وفيهِ ايضاً ما نصه « فلنجتهد بان نزيل شر الاوهام وبان نرد على الانسان نشاطه ونجعله يحترم عقله . اما الذي لا يستطيع ان يعدل عن احلامهِ فلا أقل من ان يدع غيره يفتكر لنفسهِ ويقتنع من نفسهِ فان ما يهم اهل الارض خاصة ان يكونوا عادلين ومحسنين ومحبين للسلم » . والفضيلة عند هولباخ مرادفة للسعادة

وبحث في الفصول الخمسة اللاحقة عن نظام الطبيعة وعن المادة والحركة وانتظام الاعمال الطبيعية الخ على المبادئ المعروفة للرأي المادي . وخصّ الفصل الاخير منها بتفنيد القول بالاسباب الغائية وجعلها الحد الفاصل بين الماديين والالهيين الذين منهم فولطير ولاجل ذلك انبرى فولطير لمعارضة « نظام الطبيعة » وأثار ضده حرباً عواناً

***

قال هولباخ ان كل شيء محصور في الطبيعة وليس وراءها من موجود غير ما جاء بهِ التصور . والانسان ليس الاّ صنع الطبيعة فهو كائن طبيعي خاضع لنواميسهـا ولا طاقة له حتى ولا بالفكر على مجاوزة الحـدود التي وضعتها له . وقواه المعنوية حالة خصوصية من طبيعتهِ المادية ليس الاّ وبالتفاعل بينه وبين الطبيعة المحيطة بهِ وبالنمو التدريجي بلغ رويداً رويداً مبلغه اليوم . الى ان قال في آخر الفصل العاشر من القسم الاول ما نصه « فالانسان لا حق له اذن ان يعتبر نفسه فوق الطبيعة اذ انه خاضع لنفس التغيرات التي تقع على سائر الكائنات . فليرتفع بالفكر الى ما وراء حدود هذا العالم وليرمق بعينٍ واحـدة جنسه والكوائن الاخرى يرَ انه يعمل اعمالاً على

واما كون المادة مخلوقة او ازلية فهو يقول ان ذلك فوق ادراكنا . ولا يتعرض لنفي وجود الله وربما أقر بوجوده ايضاً الا أنهُ يزعم ان لا دخل لهُ في راحتنا وسلوكنا وعلمنا بهِ لا يزيد في سعادتنا والاخلاق لا تعلق لها بالايمان ولا بالدين . وهكذا يقول في خلود النفس فربما كانت خالدة ايضاً

ويقول أيضاً ان مبدأ الحياة ليس في الكل فقط بل في كل جزء كذلك ويذكر لذلك امثلة فيزيولوجية . كقابلية العضلات للتهيج بعد الموت . وبقاء حركة بعض الاعضاء كالقلب مثلاً بعد قطع الرأس وعود بعض الاعضاء بعد نزعها في الحيوانات الدنيئة وغير ذلك

وربما اخذ على دلامتري نشرهُ بعض كتابات متعلقة بالملاذ والشهوات الجسدية . لكنهُ لم يذكرها الا لكي ينبه الى وجوب معاملة الهائم بها معاملة المريض . وقد اراد بذلك ان يشير الى قساوة شريعة ذلك العصر . واما سيرتهُ الخصوصية فلم يكن فيها شيء من الخلاعة او عدم الاستقامة وخصومهُ الذين شنعوا عليهِ فيها كثيراً لم يستطيعوا ان يذكروا لهُ شائبة صحيحة من الشوائب التي لم يخل منها كثير غيرهُ من كبار الرجال .فلم يرم باولادهِ بين اللقطاء كروسو . ولا غش خطيبتين كسويفت . ولا باع ضميرهُ كباكون . ولا زور كتابات كفولطير بل عاش كرجلٍ هذبتهُ العلوم وطبختهُ الفلسفة (١) وتوفي في برلين سنة ١٧٥١

***

ثم في سنة ١٧٧٠ ظهر كتاب « نظام الطبيعة » للبارون هولباخ وهو الماني الاصل

---

(١) ليس لهذه المدافعة عن سيرة دلامتري كبير معنى في صحة نظره في الطبيعة وعدمها وكثيراً ما يحاول خصوم الماديين تشنيع سيرتهم امام اتباعهم كأنهم هم الذين يدعون الهدى عنوان الفضيلة دائماً ولو انصف الرائي لعرف ان العيوب التي تنسب الى ضعف الطبيعة حتى في اقوم الرجال مبادىء منشاوها الارث الذي اتصل اليهم من التربية الاجتماعية السالفة والمسؤول عنها هم اصحاب المبادىء الروحانية لان التربية كانت في يدهم حتى اليوم · ولا ينكر ان الحالة الاجتماعية اليوم بعد انتشار المبادىء الطبيعية اصلح منها جداً في الماضي من كل الوجوه هكذا تكون المقابلة في التربية لا بالنظر الى افراد مخصوصين اذا ساءت افعالهم فالذنب فيها ليس عليهم باكثر منهُ على سلفائهم

وكذلك يدحض القول بالافكار الغريزية خلافاً لدكارتوس ومعارضة لهُ قال العبارة الآتية « لا حواس اذن لا افكار »

***

ويقول في كتابهِ « الانسان الآلة » ( ١٧٤٨ ) ما نصهُ « لا ينبغي ان نعتمد الاَّ على المراقبة والاختبار وهما خاصان بالاطباء الفلاسفة لا بالفلاسفة الذين ليسوا اطباءً . ولايحق لسوى الاطباء الذين يراقبون النفس في مجدها وفي تعاستها ان يتكلموا في هذا الموضوع

فبم يستطيع ان ينبئنا سواهم ولا سيما اللاهوتيون ? أليس من المضحك المبكي ان نسمعهم يبتون ولا يخجلون في امور يجهلونها وانصرفوا عن البحث فيها لتعلقهم على مباحث مبهمة أدت بهم الى الاستمساك بالاديان ودفعتهم الى التعصب فوق ما بهم من جهلهم تركيب الجسد

وهو يبين كذلك كيف يتعلق العقل باحوال الجسد المختلفة تعلقاً شديداً باعتبار المرضى والمجانين والمعاتيه وافعال الافيون والخمر والقهوة الخ فاذا عُلَّ دماغ انسان جُنَّ . واذا كانت العلة المادية في الدماغ لا تظهر لنا في بعض انواع الجنون فلوقوعها في اعضاء دقيقة جداً لا نراها قال « ان اقل شيء كليفة صغيرة او غيرها مما لا يستطيع التشريح الدقيق جداً ان يدركهُ كان في امكانهِ ان يجعل ارازموس وفونتنال[1] مجنونين » ويقول ايضاً ان عمل الدماغ امرٌ لازم فيلزمهُ ان يفتكر اي ان يراقب ويقابل ويستنتج حالما يقع تأثير الاشياء الخارجية عليهِ . كما يلزم العين ان تبصر اذا وقع عليها النور والاذن ان تسمع اذا بلغتها التموّجات الصوتية . ولا فرق جوهري بين نفس الانسان ونفس الحيوان . فالحيوان يحس ويفتكر ويقابل ويستنتج كالانسان والفرق بينهما ان الحيوان دون الانسان في الكمال فقط . فهما مركبان من عناصر واحدة متألفة على نواميس واحدة . غير ان جسد الانسان اشد اختلاطاً من جسد الحيوان كآلة الساعة الفلكية فانها اكثر اختلاطاً من آلة الساعة الدارجة

---

(١) الاول هولاندي والثاني فرنساوي

بينهُ و بين ارباب السلطة في باريز خلاف ونفور وقد هجاهم هجوًا مرًّا . ولما اضطر الى الهرب من باريز عاد الى ليد . وهناك طبع تاريخه الطبيعي في النفس و بعدسنة الف كتابهُ الشهير « الانسان الآلة » قيل انهُ اصيب بحمى محرقة فاستدل من مراقبتها على نفسه ان الفكر نتيجة تركيب الجسد

وقد بين في اول كتابهِ « تاريخ النفس الطبيعي « ١٧٤٥ » ان لا احد من الفلاسفة قدر ان يقول ما هو جوهر النفس . وسيبقى هذا الامر مجهولاً . وان القول بنفس بدون جسد ضرب من الهذيان[1] فالنفس والجسد متصلان غير منفصلين وليس من مرشد الى المعرفة اصح من الحواس فهي فلاسفة الانسان كما يقول هو . ولا يمكن تجريد المادة والقوة الاَّ بالعقل واما في الواقع فهما شيء واحد و بناء عليهِ فالمادة قادرة ان تحس[2]

وقد فند فلسفة دكارتوس مشيرًا الى ما فيها من القضايا الضعيفة . و يعول في الحس على امور تشريحية وفيسيولوجية و يعلل عن كيفية وقوع التأثير على الاعصاب والدماغ ببراهين قريبة للعقل واذا شط احيانًا فلفقدان الادلة العلمية

و يذكر في آخر فصل من كتابهِ امثلة كثيرة من الصم البكم والعميان المولودين هكذا ومن اناس لم يتعلموا ليبين بها ان « كل الافكار صادرة عن الحواس» فان الانسان الرابي في حجر الوحدة والهدو محجوبًا عن سائر المؤثرات الخارجية لا ينمو عقلهُ ولو كان العقل جوهرًا مستقلاًّ ينمو بقوة فيهِ خاصة بهِ لما كان كذلك.

---

( ١ ) قال فولطير ( اني جسد وانا افتكر ولا اعرف عني اكثر من ذلك ) اه

( ٢ ) ودلامتري في هذا القول البسيط الصريح يعدُّ من اعظم الفلاسفة المتقدمين والمتاخرين اللهمَّ الاَّ في نظر اولئك الذين لا يروق لهم من الفلسفة الاَّ الكلام المبهم المعقد الذي لا معنى لهُ والذي ترى على كل عبارة منهُ اثر الاجتهاد والتعقيد كالفلاسفة النفسيين وعلماء اللاهوت وعلماء الكلام وغيرهم ممن يصفون لك الكلام في مجلدات ليقولوا لك شيئًا ولا يقولون شيئًا وسماع صوت مطرقة الحداد ألذ من كل خطبهم ومراقبة دواليب الاطفال على مجاري المياه اجدى من كل كتبهم ولا يصلح شأن الامم و يندفعون في طريق الارتقاء الصحيح الاَّ متى تكاتفوا ومزقوا كل هذه المأثورات التي لا تزال كل امة تعتبرها كنزها الثمين وهي بالحقيقة تاريخ جهلها المشين

ومثله قال ايضاً فريدريك ستوش ١٦٩٢ فانهُ انكر خلود النفس وروحانيتها وذهب الى ان نفس الانسان ليست الاَّ اعتدالاً بين الدم والاخلاط التي تجري في العروق السليمة وتولد جميع الاعمال الارادية وغير الارادية

***

## ﴿ الرأي المادي ﴾

( في القرن الثامن عشر )

الرأي المادي في هذا القرن والرأي المادي في القرن الذي تقدمهُ يتفقان ويختلفان معاً . يتفقان من حيث اقتصارهما على الخاصة . ويختلفان من حيث ان الرأى المادي في هذان القرن لا يقف عند حدٍ خلافاً لسابقه . واصحابهُ هم الذين هيأوا الثورة الفرنساوية التي قلبت وجه العالم بتغييرها مجرى السياسة والافكار . ومن زعمائهِ في فرنسا الكاتب دلامترى وهو من اعظم الماديين الفرنساويين وكان طبيباً ماهرًا . وفلسفتهُ من الطبقة العالية خلافاً لقول بعضهم انها دنيئة وربما قال هذا القول من دون ان يطلع عليها . واطواره انبل جدًّا من اطوار خصميهِ فولطير وروسو . وفريدريك الكبير الذى ضمهُ الى بلاطهِ يقول عنهُ انهُ حسن المعاشرة بشوش الوجه ويمدح طهارة نفسهِ ونبالة اخلاقهِ . فلا نعلم كيف وصفهُ بعض المؤرخين كمهتر بالفحش وانهُ لم يتبع الرأي المادي الاَّ لكي يجد عذرًا لشبقهِ . ولعلهُ كتب عن هوى وتعصب

***

ولد دلامتري سنة ١٧٠٩ في سان مالو . وقرأ العلوم والآداب . وتميز في المدرسة منذ حداثتهِ اذ نال كل جوائز صفهِ في السنة الاولى . وكان فصيحاً يحب الشعر . وانصب في اول الامر على آداب اللغة وترشح اخيرًا للقسيسية ثم تحول عنها . ودرس الطب ومارسهُ حتى سنة ١٧٣٣ . فرحل الى هولاندة ودخل في مدرسة ليد حيث قرأ على بوهراف الشهير وترجم الى الفرنساوية كثيرًا من كتبهِ . وبسبب ذلك حصل

انتشر هذا الكتاب جدًّا وكان لهُ تأثير عظيم بين الناس . فتعقب اهل السلطة مؤلفهُ حتى اضطر ان يهرب من انكلترا . ولم يكن في كتابهِ هذا شيءٌ ضد الدين الاَّ من حيث الاسرار ثم تطرف اكثر فاكثر حتى انهُ في رسائلهِ الى سيرينا ( شارلوط ملكة بروسيا وكانت من الفلاسفة ) صرح بالرأي المادي وجعل اصل كل شيءٍ في القوة والمادة . فالمادة عندهُ حية ومتحركة من نفسها . وكل شيءٍ تبادل في المواد والصور لا يفتر . ولا يوجد جسم [1] ساكن سكونًا مطلقًا . والفكر ليس سوى حركة جسدية دماغية مرتبطة بالعالم المادي

وممن سار على خطوات لوك دافيد هوم الانكليزي وكونديلياك الفرنساوي وكلاهما من رجال القرن الثامن عشر الذي انتشرت الفلسفة المادية فيهِ جدًّا . وقبل الخوض في هذا العصر يليق بنا ان نحول نظرنا الى المانيا في القرن السابع عشر لاننا لم نذكر في ما تقدم الاَّ اسماء فلاسفة من الطليان والانكليز والفرنساويين فنقول :

***

ان المانيا في هذا العصر لم يكن فيها أحد يعادل من ذكرهُ وليس لنا منها سوى رسالة في جوهر النفس مجهولة اسم المؤلف ركيكة العبارة بين اللاتينية والفرنساوية . وقد قام فيها مؤلفها ضد الافكار الفلسفية اللاهوتية المتعلقة بجوهر النفس وضد الآراء المتضادة في ما خص مقرها في الجسد . ويعرّف العقل انهُ حركة في الياف الدماغ الدقيقة . ولا يسلم بوجود نفس منفصلة عن الجسد

ثم ان الطبيب الالماني بنكراسيوس واف ــ سنة ١٦٩٧ ــ قال ان الافكار ليست من اعمال النفس الروحانية بل هي اعمال مادية للجسد وبالتخصيص للدماغ

---

( ١ ) روي تولند عن اللورد شفتسبوري وهو فيلسوف وكاتب حرّ الفكر يذهب الى ان الدين لا يوجب الفضيلة ضرورة ولا يبعث عليها انهُ قال في مجلس من اصدقائه في عرض كلامهِ على اختلاف الاديان (ان جميع العقلاء من دين واحد ) فسألتهُ احدى السيدات الحاضرات قائلة ( اي الاديان هو ) فاجابها شفتسبوري ( هو الذي لا يصرّح بهِ العقلاء ) وكانهُ بهذا الجواب عنى قول المعري

اذا قلت المحال رفعتُ صوتي وان قلت الصحيح اطلت همسي

واما اليوم فلحسن الحظ لم يعد التصريح يوجب ذلك الحذر

فعقل الانسان أشبه بلوح صقيل او قرطاس ابيض تنطبع عليهِ المحسوسات الآتية من خارج . وهذه المحسوسات الخارجية هي مصدر ما يكتسبهُ عقلنا من المعلومات . قال كوك « كل معلوم متوقف على الاختبار . ومراقبتنا التي موضوعها إما الاشياء الخارجية المحسوسة او اعمال عقلنا الباطنة الحاصلة بالتأمل هي التي تقدم لعقلنا كل مواد الافتكار وفي سوى هذين المصدرين لا يوجد فكر » . والولد لا يكتسب معرفة بعض الصور التي هي مواد معرفتهِ في المستقبل الاَّ بواسطة حواسهِ شيئاً فشيئاً فلو اردنا لامكن لنا ان نربي ولداً بحيث لا يكتسب الاَّ شيئاً دون الطفيف من الافكار المألوفة وفي حداثتنا يغرسون في روؤسنا كثيراً مما يسمونهُ مبادىء او اوليَّات لا اصل لها الاَّ وهم جدتنا اوعجوز اخرى . فاذا بلغنا سن الادراك نجد فينا افكاراً لا نعلم كيف نشأت فينا فنقول انها من الله او من الطبيعة اي انها غريزية . وخلاصة هذه الملاحظات هي في هذه القضية وهي « لا شيء في العقل لم يكن في الحواس من قبل»

ولوك يسلم بان للمعرفة نوعين كما تقدم احدهما حسي والثاني تأملي أي معرفة الاشياء الخارجة عنا ومعرفة الاشياء الباطنة فينا . الاَّ انهُ يعتبر هذا الاخير من طبيعة حسية ايضاً اذ لا يسلم بمعرفة آتية بغير الحواس فالافكار التأملية ليست غريزية ولا روحانية بل نتيجة الاختبار

ثم انطوني كولونس تلميذ كوك ذهب الى أبعد من معلمهِ وفي كتابه « الفكر الحر » المنشور سنة ١٧١٣ طعن في التوراة ونفى الدين وانحى على علم اللاهوت ولم يسلم بشريعة غير شريعة العقل

وممن ذهب هذا المذهب في الوقت نفسهِ أحد المفكرين الفرنساويين المدعو بطرس بيل . توفي سنة ١٧٠٦ في سن ٣٢ سنة وهو صاحب قاموس كبير في التمحيص التاريخي لهُ افكار من مثل قولهِ « الجحود أفضل من الاستمساك بالاوهام وتقوم الامة بدون الاعتقاد بالله وبخلود النفس »

والى تأثير فلسفة كوك ينسب الكتاب الذي ألفهُ جون تولند الانكليزي وموضوعهُ — النصرانية بلا اسرار — والطبعة الثالثة منهُ كانت سنة ١٧٠٢ . وقد

منها في معاملاتها كما هي العادة عندها اكثر من سواها . فانهُ لما انقضى فيها عصر القسوة والضغط على الافكار وانتفى موجب الرياء اشتد الميل في حكامها الى تنشيط العلوم والمعارف الاختبارية . وكارلوس الثاني الذي كان يود هوبس جدًّا حتى اجرى عليهِ الرواتب وعلق رسمهُ في غرفتهِ كان طبيعيًّا ماهرًا وكان عندهُ في قصرهِ معمل للاختبارات الطبيعية وقد انتشر حب العلوم الطبيعية والكيماوية بين الجميع وصارت السيدات النبيلات تتردد على حلقات العلماء وتحضر امتحاناتهم المغنطيسية والكهربائية وهكذا تقدمت انكلترا في العلوم الطبيعية تقدمًا سريعًا ونهجت بها منهجًا ماديًّا عمليًّا جيدًا حصلت منهُ على فوائد عظيمة حتى اصبحت في قرون قليلة اغنى الامم واقواها

***

ومن الذين تميزوا في الفلسفة المادية في انكلترا بعد هوبس الشهير جون لوك ( المولود ١٦٣٢ ) وهو وان لم يكن ماديًّا الاَّ انهُ مهد السبيل للفلسفة المادية بمضادتهِ الافكار الغريزية والعقل المجرد عن الحواس . ثم بعد ان اشتغل بالفلسفة اشتغل ايضًا بالطب . ولم يتداخل في الامور السياسية خلافًا لهوبس وكان على ضد مبدأ هوبس في الامور الاجتماعية ديموقراطيًّا بخلاف هوبس فكان من انصار الاثرة الارستوقراطية وعاش زمانًا طويلاً متغيبًا عن وطنهِ لمضادة الحكومة لهُ بسبب افكارهِ حتى حصلت ثورة سنة ١٦٨٨ فعاد اليهِ . وكتابهُ — في الادراك البشرى — او في اصل معرفة الانسان وحدودها الذي ظهر سنة ١٦٩٠ واضح جدًّا وجلي للغاية بحيث انضمَّ اليهِ سريعًا كل متنور في انكلترا . وهذا ملخص اهم ما فيهِ :

لا يوجد افكار ولا مبادئ ولا معلومات غريزية خلافًا لبلاتون وديكارتوس . وفي الجملة لا يوجد فينا افكار اولية ولا حقائق ادبية او منطقية غريزية . لاننا لا نعلم حقيقة ادبية او قضية منطقية ذات اعتبار واحد في كل مكان وزمان وفي الشعوب المختلفة . والذين لم تتهذب عقولهم لا يعلمون بوجود قضايانا المجردة ولا باكثر حقائقنا الادبية فكيف تكون اذن غريزية . وفضلاً عن ذلك فاننا في معارفنا التي نتحصل عليها بالاختبار لا ندرك الكلي قبل الجزئي بل بالضد ندرك الجزئي اولاً ثم الكلي

عن الروح على رأي دكارتوس ولا بالفصل بين جوهر فاكر حال وجوهر محلول فيهِ . ولا حاجة الى بسط الكلام عنهُ اكثر من ذلك لانهُ يستند في كل مذهبهِ الى ابيقوروس

***

واما توما هوبس [1] المولود سنة ١٥٨٨ فبحث في فلسفتهِ ليعرف اي شيءٍ هو ذلك الذي يولد الشعور والصور في الكائنات الحية ومذهبهُ في الشعور حسي محض اي انهُ يرد كل شيءٍ الى الحواس . فالاحساس عندهُ حركة في اجزاء الجسد مسببة عن حركة الاشياء من خارج . وهو يفصل صفة الاحساس التي انما تحصل فينا كالنور واللون والصوت عن حركة الاشياء نفسها . وهو يقول ان كل معرفة آتية من الاختبار الخارجي . والعقل والادراك ليسا الاَّ مقابلة في نسبة الصور والافكار المتولدة من انفعال الحواس . وتبليغ هذه الانفعالات الى باطن الحيوان يكون بواسطة الاعصاب وتصور الاشياء الخارجية الذي يحصل عن ذلك ليس الاَّ « رد فعل في الحيوان كلهِ » واما في ما تعلق بالعالم فيقتصر على ما تدرك اسبابهُ منهُ ويترك ما بقي لعلماء اللاهوت وينظر الى الله في تعليلهِ عنهُ كأَنهُ كائن جسماني

وهوبس هرب من انكلترا خوفًا من الشعب والتجأ الى باريس حيث عاش بالاتصال مع جسندي وقد اخذ عنهُ كثيرًا . وهو يعرّف الفلسفة بقولهِ انها علم موضوعهُ الوصول بالاستنتاج الصحيح الى معرفة الاسباب بالمسببات والمسببات بالاسباب . وقد اراد ان يكون للفلسفة فائدة عملية فقال انها يجب ان تخدم السياسة والصناعة . ولا يعتبر الدين الاَّ اوهامًا ونتيجة الخوف . فاذا صادقت الشريعة على هذا الخوف وحافظت الحكومة عليهِ صار دينًا والاَّ فهو خرافة

وقد أثرت تعاليم هوبس وباكون تأثيرًا حميدًا جدًّا في انكلترا التي استفادت

---

(١) هوبس من اعظم فلاسفة انكلترا في تاريخ الفلسفة المادية ويعتبرون (بوكل) في تاريخ تمدّن انكلترا من الد اعداء الاكليروس في القرن السابع عشر ومن اعلى الكتاب كعبًا ومن ابعد المفكرين نظرًا

الروح عن النفس اذ يجعل الروح شيئاً لا يدرك واما النفس فمتعلقة بالجسد ومقرها الدماغ . وقد ظن بعضهم ان ذلك منهُ سياسة لبث افكاره في المادة

واما دكارتوس — ١٥٩٦ ــ ١٦٥٠ — فيفصل بين الروح والجسد فصلاً تاماً فهو صاحب مذهب التثنية الحقيقي في الفلسفة والمذهب الروحاني وهو الذي يثنى عنهُ قولهُ الذي صار مثلاً « انا افتكر اذاً انا موجود » وهو يعتمد في فلسفتهِ خلافاً لباكون لا على الاستقراء بل على الاستدلال أو التجريد على انهُ في امور كثيرة هو من الرأي المادي . ويطول بنا الشرح اذا فصلنا ذلك هنا فنقتصر على القول بان دلامتري اعظم مادي في القرن الثامن عشر أسس فلسفتهُ في بعضها على مبادىء دكارتوس

فباكون ودكارتوس اذا هما غير متفقين في فلسفتهما وكل منهما سار في طريق لا يزال مفتوحاً حتى اليوم . أحدهما عملي او مادي او حسي . والثاني نظري أو روحاني وممن سار في طريق دكارتوس بعدهُ « سبينوزا » و« لبنيتز » « وكنت » و« فيخت » و « شلين » و « هجل » وغيرهم كثير . وفي طريق باكون « جسندي » و « هوبس » ولوك . حتى نصل الى الرأي المادي للفرنسيس في القرن الثامن عشر ومنهُ الى اليوم

***

فجسندي ولد في فرنسا سنة ١٥٩٢ ويعتبر انهُ مجدد الرأي المادي لما كتبهُ عن ابيقوروس منتصراً لهُ لا على سبيل الجهر ولكن على سبيل الخفية كسائر معاصريهِ من الطبيعيين الذين كانوا قبل بسط مبادئهم المادية يفتتحون كلامهم بالتصريح بانهم راضخون الرضوخ المطلق للدين نظير دكارتوس مثلاً . فانهُ قبل الشروع في بسط مذهبهِ في ظهور العالم يقول ليس عندي شك في ان الله تعالى خلق العالم دفعة واحدة الاَّ انهُ لا بأس من معرفة كيف كان يمكن العالم ان يتكوَّن من نفسهِ

فجسندي ومعاصرهُ دكارتوس كانا على طرفي نقيض ولم يتفقا الاَّ على كراهتهما لارسطو . فدكارتوس يعتمد على العقل . وجسندي يعتمد على الاختبار وقد اجتهد في تأييد المذهب الجوهري ضد مذهب جسيمات دكارتوس . ولم يسلم بانفصال الجسد

وهو واحد لا يتغير . فلا شيء ثابت حقيقة خالد وجدير باسم المبدإ الا المادة فقط فانها تتضمن فيها وحدها كل الصور وكل المقادير والصور التي تلبسها المادة وتفوق كل حصر لا تأتيها من خارج بل تتولد في باطنها . وحيث يقع موت لا يحصل حقيقة الاَّ توليد وجود جديد او انحلال مركب وتركيب آخر »

فهذا الرأي في الحقيقة مادي لان المادة فيهِ الجوهر الصحيح لكل شيء وهي التي تكون الصور خلافاً لارسطو فان الصورة عندهُ هي التي تحدد المادة كما رأينا

واضطهد برونو كثيرًا فرحل الى انكلترا وفرنسا والمانيا ووقع اخيرًا في ايدي قضاة الدين في فنيسيا فحكم عليهِ واحرق بالنار في رومه سنة ١٦٠٠ وقد كان لتعاليمهِ تأثير عظيم في مجرى الفلسفة

***

على ان الفضل الاعظم في تجديد الفلسفة راجع الى باكون وكارتوس والرأي المادي الى جساندي وهوبس وذلك في اوائل القرن السابع عشر

فباكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) ويلقب بابي العلوم الطبيعية الحديثة وبصاحب طريقة الاستقراء يجعل جل اعتمادهِ في معارفهِ العلمية والفلسفية على المعاينة والاختبار . وهو قريب جدًّا من الرأي المادي . والبرهان على ذلك انهُ لم يتبع من مذاهب الفلسفة القديمة الاَّ مذهب دموقريط حيث يقول ان الطبيعة لا يمكن التعليل عنها الاَّ بالجواهر الفردة . ولم يكن متعصباً ضد الدين لانهُ يقول ان الحقائق الدينية قد تظهر لنا باطلة نظرًا لقلة علمنا . ولم يهمل في فلسفتهِ شأن الملائكة والارواح . ويقول ان درس الانسان المصنوع على صورة الله لا يراد بهِ توسيع معارفنا فقط بل غايتهُ ارفع من ذلك وهذا الميل الروحاني فيهِ مع ما لهُ من النظر الطبيعي في الاشياء كثيرًا ما يوقعهُ في تناقض مع نفسهِ . وهو يذهب الى ان اللاهوت علم . ويقسم النفس الى عاقلة ويجعلها روحاً منفصلة عن المادة . والى غير عاقلة تتولد عن المادة ويطلقها على الحيوان ايضاً . ووقد قال كونوفيشر ان باكون يقربان فلسفتهُ تعجز عن ادراك الروح لانهُ يفصل

ان جميع فلاسفة هذا العصر حتى نصف القرن السابع عشر كانوا نظيرهُ . وربما كان ذلك لخوفهم من الحريق بالنار الذي لم ينج منهُ من صرح بافكارهِ ولعلّ السبب ايضاً شدة تأصل الايمان في نفوس اهل ذلك الزمان

ثم في سنة ١٥٤٣ ظهر كتاب دوائر الاجرام السماوية لنيقولا كوبرنيخ فزعزع اركان الايمان واضعف الثقة بارسطوطاليس ومن حذا حذوهُ اذ بين حركة الارض المزدوجة على نفسها وحول الشمس

***

ومن اعظم زعماء هذا التعليم الحديث جيوردانو برونو وهو فيلسوف طلياني ايضاً من مذهب البانتايسم [1] الاَّ انهُ يتفق مع الماديين في مسائل شتى وقد جمع الى دقة النظر الفلسفي سعة الاطلاع وعندهُ ان الارض والعالم والمادة شي واحد والعالم وجود لا نهاية لهُ حيّ في كل أجزائهِ وهو مظهر من مظاهر الله ونفس الانسان جزء من العقل الالهي ولذلك هي خالدة نظيرهُ . فكوبرنيخ كان يعتمد على بيثاغوروس وأما برونو فجل اعتمادهُ كان على لوكرس . وهومثلهُ يرى ان العوالم لاحدّ لها وقد وقف بين هذا الرأي ونظام كوبرنيخ وفسر النجوم الثابتة بانها شموس تفوق العد والحصر تحيطها سيارات . والمادة على رأيهِ امّ كل شيء حي وتحتوى فيها كل الاصول وكل الصور قال « ان ما كان في اول الامر بذرة صار سنبلة ثم خبزًا فكيلوساً فدماً فمنيًّا فجنيناً فانساناً فجثة هامدة والجثة تتحول الى تراب او حجر او مادة اخرى غشيمة ثم يرجع هذه الدور وهكذا على الدوام . فيوجد على ذلك شيء يتحول الى سائر الاشياء

(١) مذهب فلسفي ودبني معاً يجعل الله والكائنات شيئاً واحداً مع اعتبارهما صورتين مختلفتين ولكنهما غير منفصلتين عن الوجود المطلق . فعلى موجب هذا المذهب الله المطلق التصرف وغير المتناهي يخلق الكائنات المتناهية منهُ بالفيض او بالتحول او بالانتشار ثم يردها اليهِ . وهو على نوعين البانتايسم التصوري او الفكري الذي ينظر الى الطبيعة كأنها مجموع ظواهر وصور من صور الله من دون وجود مادي متميز وعليهِ مذهب الصوفيين المعروف والثاني البانتايسم الطبيعي الذي يجعل الله صورة عامة منتشرة في الطبيعة والطبيعة نفسها ليست الاَّ هو . والاول يميل الى الاعتقاد بالاسرار والثاني يؤدي الى القول بمادية الكون كما في مذهب الماديين نفسهِ

علم الهيئة . عند ذلك حصل في الافكار ثورة غيرت وجه الفلسفة اذ اقتضى لها ان تتبع مجرى العلوم الطبيعية والذين تبعوا مجراها هذا أطلق عليهم اسم عمليين او طبيعيين او ماديين

وفي اول الامر لم يستطع الفلاسفة الماديون المحدثون ان يتحرروا دفعة واحدة من فلسفة ارسطو لانهُ ليس من السهل هجر مبادئ اختمرت بها الافكار مدة خمسة عشر قرناً فلم ينبذوها كليًّا بل اجتهدوا في توضيحها بدعوى تأييد الصحيح منها . واول من ضرب معولاً في اساسها فيلسوف طلياني اسمهُ بطرس بومبوناتيوس

***

نشر هذا الفيلسوف سنة ١٥١٦ كتاباً في خلود النفس بين فيهِ ان خلود النفس امرٌ يستحيل التسليم بهِ حسب ارسطو لان الصورة والجسم او الصورة والمادة صفتان لا تفترقان قال « اذا اريد التسليم بخلود الانسان يقتضي اولاً ان يبرهن كيف ان النفس تحيا بدون جسم يعمل فيها او تعمل فيهِ فانهُ بدون افكار لا يمكن لنا ان نفتكر والافكار نفسها تتوقف على الجسد واعضائهِ . ولا ينكر ان الفكر بذاته ازلي وغير مادي الاَّ انهُ مرتبط بالحواس فلا يدرك الكلي الاَّ بالجزئي . وهو ليس مجرداً عن الزمان ولا في وقت من الاوقات لان الافكار تغيب وتحضر فنفسنا اذًا مائتة اذ لا يبقى فيها علم ولا ذكر

وقال ايضاً « ان عمل الفضيلة لانها فضيلة لا نبل جدًّا من عملها طمعاً بالمكافأة على انهُ لا يذم ارباب السياسة الذين لاجل مصلحة العموم يعلمون خلود النفس حتى يسير الضعاف والاشرار خوفاً او رجاءً في السبيل القويم الذي يتبعهُ سواهم عن لذة وهوى . لانهُ غير صحيح ما يقال انهُ لا يوجد سوى علماء اشرار ينكرون خلود النفس واما الحكماء الافاضل فيقرون بهِ فان اوميروس وبلينوس وسيمونيد وسناك لم يكونوا اشرارًا لانهم لم يعتقدوا ذلك بل كانوا احرارًا وليسوا عبيد اغراضهم »

ومع ذلك فبومبوناتيوس يؤكد رضوخهُ لشريعة المسيح . ويقول ان الوحي يجلب تعزية ويقيناً لا تستطيعها الفلسفة ولا ندري امراءٌ ذلك منهُ ام اقتناع . الاَّ

# المقالة السادسة

فهرست : النصرانيه والنهضة العلمية في القرن الخامس عشر — مذهب الماديين الحديث — بومبوناتيوس — جيوردانو برونو — باكون — دكرت — غسندي — هوبس — لوك — كولنس — بيل — تولان — مراسلة في وجود النفس — ولف — ستوش — دلامتري — نظام الطبيعة — الانسيكلبيذيون — ديدرو — دلامار — كوتدياك — كبانيس — هلفتيوس — داودهوم — جيبون — بريستلي الخ — مذهب الماديين في المانيا ومذهب الماديين في القرن التاسع عشر — الفرق بينهُ وبين مذهب الماديين في القديم — غرض الفلسفة اليوم

ان الرأي المادي في الفلسفة بقي هاجعاً من عهد ابيقوروس حتى القرن الخامس عشر للمسيح . وفي بحر هذه المدة الطويلة سادت الفلسفة المجردة ولا سيما فلسفة ارسطوطاليس . ومما ساعد جدًّا على تأييدها في العصور الوسطى انتشار النصرانية في المملكة الرومانية وقد تداعت المملكة المذكورة الى السقوط . فارسطوطاليس قلما يعتدّ بالمادة وينفي عنها كل حركة ذاتية . ويجعل الصورة الضرورية للمادة خارجة عنها ومضادة لها . ويقول بضرورة وجود محرك اول . والفرق بينهُ وبين فلاسفة النصرانية في ذلك ان الكائن الاول عندهُ غير خالق للعالم او صانع لهُ لان المادة لها ذلك وانما هو محرك لهُ (١)

وبقيت الافكار الفلسفية في النصرانية على هذا النهج لا غرض لها الاَّ خدمة الغاية اللاهوتية حتى اكتشفت اميريكا وقام كوبرنيخ وكوبلر ووضعا تعاليمهما في

(١) بزعم بلاتون ان المادة ليس لها بنفسها صفات ولا خصائص وليس لها ذلك الاَّ باتحادها مع الصورة فالاجسام عندهُ قائمة بعنصرين المادة والصورة احدهما انثى والآخر ذكر بولدان باجتماعهما صور الوجود

كجو بتير . ومن كلامهِ كلما قلت احتياجات الانسان كان القيـام بها سهلاً وكانت السعادة اعظم . والمحبة كنزٌ ثمين والانسان ينبغي عليهِ ان يقدم على الموت لاجل صديقهِ . واما الفضيلة فهي اعتيادية نسبية عندهُ اذ يقول انهُ لا شيء جيد او ردي بنفسهِ بل كل شيءٍ يتوقف على الموافقة والمناسبة . واما الشرائع وحدها فهي ذات فائدة . وعند ابيقوروس ومدرستهِ تقف الفلسفة المادية في القديم [1]

(١) ابيقوروس قال المبادئ اثنان الخلاء والصور . واما الخلاء فمكان فارغ واما الصور فهي فوق المكان والخلاء ومنها ابدعت الموجودات وكل ما كوّن منها فانهُ ينحل اليها . فمنها المبدا واليها المعاد . وليس بعد الفراق حساب ولا قضاء ولا مكافأة وجزاء بل كلها تضمحل وتدثر . والانسان كالحيوان مرسل مهمل في هذا العالم . والحالات التي ترد على الانفس في هذا العالم كلها من تلقائها على قدر حركاتها وافاعيلها فان فعلت خيرًا وحسنًا فيرد عليها سرور وفرح . وان فعلت شرًا وقبيحًا فيرد عليها حزن وترح . وانما سرور كل نفس بالانفس الاخرى وكذا حزنها مع الانفس الاخرى بقدر ما يظهر لها من افاعيلها اه — الملل —

كان يفتخر بكونهِ من مذهب ابيقوروس كهوراس فانهُ كان يصف نفسهُ بقولهِ « انا خنزير من قطيع ابيقورس الخ » وأما شيشرون فكان من خصوم هذا المذهب وقد بذل جهدهُ في تحقيرهِ . واثنان من كبار الجمهوريين اعداء قيصر احدهما بروتوس كان ستويسيًّا . والثاني كاسيوس كان ابيقوروسيًّا . وقد بلغت فلسفة ابيقورس اوج مجدها على عهد الامبراطور اوغوسطوس ولم يكن احد من شعراء عصرهِ غير تابع لها

وفضل فلسفة ابيقوروس ظاهر في ما تعلق منها بعلم الاخلاق الذي اعتبرهُ اهم المسائل . وقد راعى ايضاً في فلسفتهِ الاقسام الثلاثة المعتمد عليها في فلسفة اليونان وهي المنطق والطبيعيات وعلم الأدب الاَّ انهُ لم يجعل المنطق والطبيعيات سوى مساعدين لهذا العلم اللازم ضرورة في الحياة حتى تكون الحياة سعيدة على قدر الامكان بتخفيف مصائبها بالحكمة والتخلق بالاخلاق الحسنة

وقد حذا حذو ديموقريط في الطبيعيات وقال نظيرهُ بالجواهر الفردة والفراغ غير ان الجواهر متحركة حركة دائمة في فراغ هذا الخلاء الذي لا نهاية لهُ وحركتها فيهِ بانحراف بعضها على موازاة بعض بحيث تصطدم بعضها ببعض وتحدث حركة لولبية مخروطية كحركة الزوابع وهــذه الحركة تؤدي الى تراكيب وصور عديدة متنوعة ومتغيرة . ومن هذا استنتج البعض ان دموقريط كابيقوروس لم يرَ في جميع ظواهر الطبيعة الاَّ فعل الصدفة العمياء

وابيقوروس لا يعتبر اللذة الجسدية كاريستيب بل يفضل عليها جدًّا اللذة العقلية [1] ويقول اني برغيف من خبز الشعير وقدح من الماء اقدر ان اكون سعيداً

---

(١) اما ابيقوروس الذي تفلسف في ايام ديمقراطيس فكان يرى ان مبادئ الموجودات اجسام تدرك عقلاً وهي كانت تتحرك من الخلاء في الخلا اللاَّنهاية لهُ . وكذلك الاجسام لا نهاية لها الاَّ ان لها ثلثة اشياء الشكل والعظم والثقل وديمقراطيس كان يرى ان لها شيئين العظم والشكل فقط . وذكر ان تلك الاجسام لا تتجزأ اي لا تنفعل ولا تنكسر . وهي معقولة اي موهومة غير محسوسة . فاصطكت تلك الاجزاء في حركاتها اضطرارًا واتفاقًا فحصل من اصطكاكها صور هذا العالم واشكالها وتحركت على انحاء من جهات تحرك . وذلك هو الذي يحكى عنهم انهم قالوا بالاتفاق فلم يثبتوا لها صانعًا اوجب الاصطكاك واوجد هذه الصورة فلزمهم حصول العالم بالاتفاق والخبطة . اه . (الملل)

الارتباكات السياسية التي وقعت فيها اثينا بعد موت الاسكندر الكبير . ولم يرجع اليها الاَّ وقد تقدم في السن فاشترى فيها بستانًا وعاش محاطًا بتلامذتهِ كأنهُ بين ذوي قرباهُ وكان يحترم الآلهة على ما هو متواتر في اعتقاد اهل بلادهِ ولكنهُ كان يخرجها دائماً من مباحث الفلسفة وكان يتمثلها كائنات ازلية خالدة لا عمل لها مقيمة في المساحات الكائنة بين العوالم لا يهمها شيء من الارض ولا من مجرى الطبيعة وعندهُ ان احترام الآلهة غير واجب الاَّ بالنظر لكمالها . ولا يعتبرها الاَّ بشرًا اكمل من البشر عائشة في حالة شبيهة بما يتصورهُ في فلسفتهِ وهو وجود سعيد خال من كل وجع . وهذا هو غاية القصد من مدرستهِ التي كانت مؤلفة من الاحبة المجتمعين على صدق الولاء المتبادل بينهم على ان المدرسة ومؤسسها اصبحا عرضة للتهم الكاذبة ونسب اليهما كل شنعة ولكن بدون اسناد صحيح . لانهُ مقرر ان حيــاة ابيقورس كانت طاهرة جدًّا وقد توفي في سن ٧٢ سنة وبقي تلاميذهُ يجتمعون في البستان الذي تركهُ لهم في اليوم العشرين من كل شهر زمانًا طويلاً بعد موتهِ وكان ابيقورس قد قرر مبلغاً معلوماً لهذا النيروز

وقد كتب ابيقورس نحوًا من ثلاثمائة كتاب ليس لنا منها الاَّ ملخصاتها واحسن الموارد التي يعتمد عليها لمعرفة تعاليمــهِ هو ارجوزة الشاعر اللاتيني « لوكراسيوس كاروس» أعظم زعماء هذا المذهب بعد ابيقوروس (٩٥ — ٥٢ ق . م . ) في « طبيعة الاشياء » وهــذه الارجوزة ربما كانت نسخة من بعض كتب ابيقوروس وقد تغير اسمها

***

واعلم ان الرومان لم يعولوا من فلسفة اليونان الاَّ على مذهبين فقط وهما المذهب الستويسي او مذهب زنون (١) ومذهب ابيقوروس وكثير من رجال رومه العظام

(١) مذهب يجعل السعادة في عمل الفضيلة ويأمر بالصبر على الشدائد ومن الفلاسفة زنون الرواقيين سمي كذلك لانهُ كان يلقي تعاليمهُ تحت احد اروقة اثينا المسمى ( بسيل ) ومن هذا سميت فلسفتهُ بالفلسفة الرواقية وهي فلسفة في الفضيلة عالية جدًّا وكان هو نفسهُ فيها يقرن القول بالعمل . ومات شيخًا شبعان من الايام ومحاطًا بكل اسباب الوقار من اهل وطنه

وكان اريستيب يغشى كثيرًا مجالس الاكابر في ذلك العصر حسن المعاشرة كثير التردد كذلك على الحكام وقد اتفق لهُ ان اجتمع مرارًا كثيرة بخصمهِ العظيم « بلاتون » الحكيم عند « لانيس السيراقوسي » وقد خرج من مدرسة اريستيب ثيودورس الجاحد

***

واريستيب كان آخر الفلاسفة الماديين قبل سقراط ثم خلا الجو للفلسفة النظرية واشتهر فيها الفيلسوفان الشهيران بلاتون وارسطوطالس ونضرب هنا صفحًا عن ذكرهما وعن ذكر معلمهما سقراط لانهُ ليس في فلسفتهم شيءٌ يختص بتاريخ الفلسفة المادية

الاَّ ان احد تلامذة ارسطوطاليس وهو ستراتون صاحب الفلسفة الطبيعية الشهير يظهر من تعاليمهِ التي لم يبلغنا منها الاَّ القليل انهُ كان لهُ مذهب مادي . فان القوة او العقل الذي عند ارسطو يدبر العالم لا يعتبرهُ ستراتون الاَّ العلم المبني على الاحساس . وهو يعتبر ان كل شيء بل كل حي مشتق من المادة بقوى طبيعية متصلة بها . ولا يجد لزومًا للمبدإ الروحي الذي يضعهُ ارسطو في باطن كل شيء . بل كل الطبيعة اله والعقل عندهُ قوة حسية لان كل فكر يقتضي شعور الحواس قبلهُ ضرورة

***

ثم بعد سقراط بمئة سنة ظهر الفيلسوف العظيم ابيقوروس ولد سنة ٣٤٢ ق . م في قرية من اطيكا وحدث لهُ اذ كان ابن ١٤ سنة وهو يقرأ في المدرسة تكوين زيود [١] حيث يجعل الكاوس مبدأ كل شيء فسأل معلمهُ حينئذ من اين اتى الكاوس فحار في الجواب . ومن ثم هام في الفلسفة واخذ ينظر بنفسهِ فقرأ دمقريط وتعليمهُ في الجواهر الفردة . وفي اثينا قرأ على تلامذة ارسطو . ثم عاد الى وطنهِ هربًا من

(١) اسم شاعر يوناني كان في القرن التاسع قبل الميلاد ويقول البعض انهُ كان معاصرًا لهوميروس نظم عدة اشعار في موضوعات مختلفة منها شعره في تسلسل الآلهة وتكوين العالم وقد ترجم الى اكثر اللغات الحية

الضرورة لا الصدفة الحاكمة في الكل . فدموقريط لا ينكر انهُ يوجد ناموس . لكنهُ لايسلم بان هذا الناموس يفعل لغاية ويسمى الصدفة عذر جهل الانسان

خامساً . مذهبهُ في ادراك الحواس الذي ليس العالم بموجبهِ الاَّ جواهر متحركة وليست الاصوات والروائح والالوان الاَّ شعوراً ذاتيًّا لوجداننا او لحواسنا هو مطابق للمذاهب المعوَّل عليها في الاحساس اليوم

سادساً . واخيرًا رأيهُ في جوهر النفس هو كرأينا والفرق بيننا ان جواهر النار لدموقريط يعبر عنها عندنا بافعال الدماغ والاعصاب المجهولة في زمانهِ

فيرى مما تقدم ان دموقريط اقرب الى افكارنا من سائر الفلاسفة الاقدمين . وقد اشتهر رأيهُ المادي في عصرهِ واضطهد كثيرًا كما لا يزال يضطهد رأي الماديين اليوم . ومن مضطهديهِ ارسطوطاليس فقد قسى عليهِ القول ثم نسبوا اليهِ في المستقبل كل شائبة واوسعوهُ كل طعن وهو براء من كل ذلك كما يتضح مما ذكرناهُ عنهُ

***

ثم بعد دموقريط جاء السفسطائيون والقوا الشك في قلب الانسان بحقيقة ما هو معلوم وما سيعلم وليس لهم اهمية في نظرنا الاَّ باستطالتهم في شكهم حتى الى الآلهة منهم بروثاغوراس (٤٤٠ ق . م ) قال انهُ لا يستطاع ان يقال عن الآلهة انهم موجودون او غير موجودين . فاتهم بالجحود وطرد من اثينا واحرق كتابهُ فالاضطهاد الذي ملأ العالم مظالم لاجل الدين قديم جدًّا حتى من عهد ميثولوجية اليونان

ثم تجاسر السفسطائيون مع الزمان واحدهم كريتياس الملقب برئيس الثلاثين ظالماً شرع يعلم جهارًا ان الآلهة ليسو سوى اختراع اناس دهاة ليخدعو الشعب الجاهل ومعلوم ان السفسطائيين ينكرون الخير المطلق ويجعلون العدل والظلم من اصطلاح الهيئة الاجتماعية . ثم تطرف اريستيب الذي كان في القرن الرابع قبل المسيح ووضع علماً جديداً في الاخلاق اسمهُ على اللذة التي اعتبرها غاية الوجود . فاللذة عندهُ هي السعادة ولا يستطيع ان يجمع بين التأمل وضبط النفس ويكون سعيداً الاَّ العاقل ولذة الجسد افضل من لذة النفس . وعذاب الجسد اشد من عذاب النفس

من شيء بل لانهُ واجب . وانهُ يلزم ان يخجل الانسان من نفسهِ لا من غيرهِ . فالحياة التي لا قلق فيها ولا غمّ اكبر سعادة في الارض

وقد كان لدموقريط شيخوخة طويلة وهنيئة وعاش جليل القدر عند الناس طول حياتهِ . وقد عرفوا فضلهُ وغزارة معارفهِ ولا سيما في الطب فيظهر انهُ كان طويل الباع فيهِ . والنصائح التي وضعها في ما ينبغي ان تصرف الحياة فيهِ لا تدل على سعة اختبارهِ فقط (لانهُ صرف كل مالهِ في صباه على السياحة حباً بالعلم) بل على ما لهُ من الوقار ايضاً . وفي فلسفتهِ من الدقة والارتباط والتحديد ما لا يوجد في فلسفة من تقدمهُ من الفلاسفة وهي اقرب منها الى العلم اليوم وهذا صحيح :

اولاً في مذهبهِ الجوهري الذي يشبه مذهبنا في الجواهر بجميع الامور الجوهرية والفرق بيننا وبينهُ ان الجواهر عندهُ ليس لها الاَّ اشكال هندسية مختلفة واما عندنا فالاختلاف بينها بالصفات الكيماوية . وهو ينسب لها حركة اولى وأما حركتها عندنا فمن تضاد قوتي الجذب والدفع اللتين نعتبرهما غريزيتين في الجواهر . وجواهرنا اصغر جداً من جواهرهِ التي يشبهها بالغبار المنير في الهواء (١) ولا يخفى ان جواهرهُ تصورية لتسهيل التعليل عن احوال الكون . وأما جواهرنا وان كانت تصورية ايضاً الاَّ انها تستند الى ملاحظات وامتحانات علمية شتى

ثانياً مذهبهُ في كثرة العوالم الى ما لا نهاية لهُ وزوال بعضها وقيام آخر يشبه مذهبنا في علم الهيئة اليوم

ثالثاً . قاعدتهُ التي يقول فيها لا شيء كائن من لا شيء ولا شيء يتلاشى هي كمذهبنا في عدم تلاشي المادة وفي حفظ القوة

رابعاً . هو ينكر الاسباب الغائية نظيرنا . وهذا جلب عليهِ في القديم من الطعن ما لا يزال يتحملهُ الماديون اليوم كجعلهِ «الصدفة العمياء» ربة الكون وفي الحقيقة هي

(١) قال فالنتن حبة الملح التي لاتكاد نشعر بطعمها فيها ميليارات من مجاميع الجواهر الفردة التي لاتبصرها عيننا

لا يدرك عادةً ولا يظهر الاَّ في شعاع الشمس . ومن اتحاداتها المختلفة تتكون سائر المواد من جماد وحيّ .واختلاف المواد متوقف على اختلاف هذه الدقائق او الجواهر في العظم والصورة والوضع . وهي منفصلة بعضها عن بعض بمساحات فارغة اكبر منها ولها بعضها بالنظر الى البعض الآخر حركتان حركة دائرة وحركة اصطدام مستقيمة . وعدد العوالم لا نهاية لهُ كسعتها . ولا تزال تتولد عوالم وتتلاشى عوالم . والنفس مركبة من جواهر فردة لطيفة جدًّا كروية شبيهة بجواهر النار تولد حرارة الجسد.ولكل جسد نفس وحرارة معينة . والنفس لا تنفك تطلب الانفصال عن الجسم الاَّ انها ممنوعة عن ذلك بتصعد التنفس فاذا وقف التنفس وقع الموت

ولد موقريط مذهب في ما خص ادراك الحواس خاص بهِ قال النفس تتأثر وحركاتها الافكار . ولكن الافكار لا تحصل الاَّ عن انفعال جسدي او عن ادخال صور جسمية الى النفس . وهذه الصور المنبعثة من كل جسم تدخل النفس وتؤثر فيها عن طريق الحواس وتأثيرها في النفس غير مطابق لطبيعة الاشياء اذ لا تدرك حقيقة الجواهر والجواهر وحدها حقيقة . فاننا نرى الالوان ونسمع الاصوات الخ حيث لم يكن يلزم ان ندرك الاَّ صورًا هندسية فلا يصح الاكتفاء بادراك الحواس بل يلزم الاعتماد على العقل ايضاً — والآلهة كذلك ليسوا سوى جواهر فردة متجمعة والفرق بينها و بين الانسان ان جواهرها اقوى واكثر حياة من جواهر الانسان . والنفس ليست خالدة لانها مؤلفة من جواهر محترقة فاذا حصل الموت انحلت هذه الجواهر وصارت جواهر نار

وهو كبارمنيدس وضع هذه القاعدة (لاشيء من لا شيء ولا يتلاشى شيء ) وهذه القاعدة الاخرى ايضاً وهي اهم « كل شيء بالاضطرار لا بالاختيار »

*
* *

وادب ديموقريط بسيط جدًّا فهو يقول انهُ يلزم عمل الفضيلة لان الفضيلة تجلب السعادة. وهذا شأن اكثر الاقدمين فانهم يعتبرون انهُ يلزم عمل الخير لاخوفاً

وامبيدوقل كهرقليط يعتبر العالم ازليّاً وغير مخلوق

ثم قال ان جميع العناصر المتجمعة كرة واحدة بالشوق الذي فيها كانت في اول الامر ساكنة ثم حصل التنافر والانقسام اللذان يضادهما الشوق وهذا هو سبب التجاذب والتدافع اللذين كوّنا العالم فيما بعد

و بعد أن تكوَّن العالم يقول ان الارض والعالم العضوي تكوَّنا شيئاً فشيئاً الا كمل من الانقص وربما كان في هذا النمو صور غير قياسية او غير منتظمة لا طاقة لها على الثبات على ما هي عليهِ فتخلصت من هذه الموانع ونالت تركيباً انسب

وهو يعتقد تحول المادة لانهُ يقول ان العناصر المركب منها الانسان ربما كانت قد مرّت بسائر المركبات الممكنة

و يعتقد ايضاً مفارقة الانفس و ينسب ذلك الى غاية معنوية ترجع النفس فيها الى الحالة الاولى من الراحة والشوق او الحب

***

على ان اهم الفلاسفة لتاريخ الفلسفة المادية قبل سقراط هم اصحاب القول بالجواهر الفردة واعظمهم لوسيب ودموقريط . واصل دموقريط من القاطنة اليونانية في ابدير حيث ولد سنة ٤٥٠ ق.م

فلوسيب او لوسيبوس ايضاً لا يعلم عنهُ شيءٌ كثير . والظاهر انهُ ابو مذهب الجواهر الفردة وان يكن الفيلسوف انكزاجوراس قال قبلهُ بوجود بذور اولى او دقائق مادية متساوية لا عداد لها . وهذا المذهب الجوهري لهُ شأن عظيم في العلوم الطبيعية ولا يزال حتى اليوم وقد تعاظم جدًّا

فيوجد على رأي لوسيبوس « فراغ تتحرك فيهِ منذ الازل دقائق لا تدرك بالحواس لا عداد لها . والاشياء تظهر وتختفي بحسب ما تجتمع هذه الدقائق او تنفصل وهي لا تتجزأ ولا تتلاشى »

واما تلميذهُ دموقريط فاشهر منهُ وتعليمهُ ان الدقائق منتشرة بسيطة لا تتجزأ ازلية تفوق الحصر ولا تدرك لصغرها . وقد شبهها بالغبار الموجود في الهواء والذي

جديداً فهرقليط ويسمى بالغامض لغموض كتابهِ في الطبيعة عاش سنة ٥٠٠ ق . م . وكان عبوساً يحب العزلة . فالآلياويون كانوا يعتبرون الكينونة خاصة . واما هو فلم يكن يهمهُ الاَّ الصيرورة . وقد قال « ان الاشياء هي دائماً في حالة المصير فانها تظهر وتزول ولكنها غير كائنة في وقت ما » وقد زاد على عناصر اليونانيين الهواء والماء والمادة عنصراً رابعاً النار ويعتبرها اعظم من الثلاثة الاولى . وقال ايضاً ( ان العالم الواحد الكل لم يصنعهُ احد لا آلهة ولا بشر .وانما هو كان وكائن وسيكون الى الابد ناراً دائمة تشتعل وتخمد الى حدٍ محدود فهو لعبة يلعبها جوبتر مع نفسهِ

ونفس الانسان على قول هرقليط نار ويعلل عنها بانها تصعد من النار الازلية الالهية[1] ويقول انا نظن أننا نرى اشياء ثابتة والحال انها في حالة التغير والمصير .فمعارفنا اذاً ناقصة وفارغة . والحياة نفسها باطلة ولا غاية لها

وهذا العدم في الاشياء الارضية يذكرنا بتعليم بودا ولقد اسهب هرقليط فيهِ حتى اطلق عليهِ لاجلهِ اسم « الباكي او المنتحب »

***

ثم ظهر امبيدقلوس ( سنة ٤٥٠ ق.م. ) وكان طبيباً فاجتهد في التوفيق بين كينونة الالياويين وصيرورة هرقليط . والذي يزيد اعتبارهُ عندنا كونهُ الاب الاول لمذهب داروِن . وللوصول الى هذا الغرض اعتبر الصيرورة عبارة عن تجديد ما كان اي انهُ ضرب من ضروب الكينونة . وقدزاد على العناصر الثلاثة الموجودة النار والماء والهواء عنصراً رابعاً وهو التراب . وعلى ذلك فهو صاحب العناصر الاربعة التي دامت زماناً طويلاً في العلم . وتسميتها عناصر ارسطو خطأ لان ارسطو لم يضعها وانما اثبتها في فلسفتهِ . وقد اضاف اليها الجوهر الخامس وهو عنصر اثيري ارق منها وربما كان على رأيهِ سبب الظواهر الروحية

(١) قال ان مبدأ الموجودات هو النار فما تكاثف منها وتحجر فهو الارض وما تحلل من الارض بالنار صار ماء وما تحلل من الماء بحرارة النار صار هواء فالنار مبدأ وبعدها الارض وبعدها الماء وبعدها الهواء والنار هي المبدأ واليها المنتهى فمنها التكون واليها الفساد ٠ اه — الملل —

العبارة الآتية قال « ان بيثاغوروس لما اكتشف قاعدتهُ الكبرى ضحى للآلهة مائة ثور — فكلما اكتشفت حقيقة جديدة تملأ الثيران الجو بخوارها »

***

أما المدرسة الالياوية فتهمنا اكثر من مدرسة بيثاغوروس ومؤسسها الشهير اكزينوفانوس من كولوفون ( آسيا الوسطى ) وقد اخذت اسمها من مدينة آليا في سيسيليا ووجودها كان في سنة ٥٤٠ ق . م .

واكزينوفانوس اول من قام ضد الاوهام الدينية . وينسبون الى الفيلسوف لويس فورباخ العبارة الآتية « كل تصوّر بالله محوّل عن الانسان » اي انهُ منسوخ عن صورة الانسان وذاته . والحال ان اكزينوفانوس هو السابق الى هذا المعنى حيث قال لاهل وطنه وقد غاصوا في بحر الاوهام هذه العبارة الشهيرة « يظهر للبشر ان الآلهة لها صورة البشر واثوابهم ولسانهم فالأسود آلهتهُ سود وانفها افطس .وابن طراس يصور آلهتهُ بعيون زرق وشعر احمر . ولو ان للبقر والاسود يدين لصورت آلهتها على صورتها » ولقد مر في مقالتي الاولى ان اكزينوفانوس عرف المتحجرات في بطن الارض كما هي حقيقة اي انها احافير حيوانات كانت موجودة سابقاً وظن انهُ توجد عوالم لا نهاية لها الاَّ انهُ لم يحسب الكواكب الظاهرة في السماء من عداد العوالم وانما اعتبرها تصعدات نارية من الارض

***

ومن مشاهير هذه المدرسة ايضاً بارمنيدس من اسيا . ولد سنة ٥٢٠ ق.م . فانهُ في ارجوزتهِ في الطبيعة ينكر العدم والفراغ . فوجود شيءٍ من لا شيءٍ امر مستحيل عندهُ وهو يقول « ان ما يفتكر فينا وتكوين الكل شيءٌ واحد »

ويقول بُوَر ( تاريخ الفلسفة ) ان الالياويين صرحوا بالبنتايسم ومعناهُ ان الله في الكل والكل هو الله لمضادة اصحاب الدين في الكون

***

واحد تلامذة اكزينوفانوس هرقليط انفصل عن المدرسة الالياوية واقام تعليماً

سطح الارض وفي السماء طبيعي . ونعلم كما كان يعلم « انكزيمندر » انهُ توجد مادة اولى ازلية لا تتلاشى فيهاقوة الحركة والنمو .ونعلم كما كان يعلم « انكزيمانيس » أن كل الاجسام هواء متكثف او متلطف . ونظن نظيرهُ ان ارضنا والاجرام السماوية متكونة من الهواء او من مادة هوائية . ونحن نعتبر ايضاً ان النيازك التي لا تزال تحصل في السماء اجسام من اصل هوائي او غازي تتكثف عند دخولها في الهواء وتسخن وتنقض على الارض . ونعتبر الماء هواء متكثفاً . ونعلل عن الحر والبرد بحركة انقباض وانبساط في المادة . ونعلم ايضاً ان الغازات باجتماعها على ضروب من التركيب تفوق الحصر والعد تؤلف جسدنا وكل الاحياء وسائر مواد الكون . نعم اننا تقدمنا جداً عن الفيلسوف اليوناني وصارت لفظة هواء عندنا اعم جداً مما كان يظنهُ اذ صار عندنا مركباً ما كان عندهُ بسيطاً

* * *

ثم انهُ بعد هؤلاء اليونان الذين لم يقتصروا على الفلسفة فقط بل اعتمدوا ايضاً على المراقبة والذين ادخلوا في العلم القواعد الكبرى الثلاث — الماء والهواء والمادة — قامت المدرسة البيثاغوروسية التى اسسها بيثاغوروس المتوفي سنة ٥٤٠ ق م . واصحاب هذه المدرسة لا يعدون من هذه الطبقة فانهم هم الذين ادخلوا الاشياء الغامضة في الفلسفة . وعوضاً عن ان تكون قاعدتهم مراقبة الطبيعة كاليونان كانت الاستناد الى المسائل الحسابية . فبيثاغوروس رسم اركان الفلسفة المصرية الاربعة وهي المادة الاولى والروح الاول والخلاء والزمان الاولين في واحد مربع . والبيثاغوروسيون اشتغلوا كثيراً بالحساب والهيئة والموسيقى . وقد وضعوا قضايا من مثل « جوهر كل شيء في العدد » او « كل شيء عدد » . وهكذا ادخلوا اشياء كثيرة لا قياس لها في الفلسفة وافكارهم في التكوين غير واضحة على ان احدهم اوكلوس لوكانوس قال ما معناهُ

ومهما عشت في دنياك هذي فما تخليك من قمرٍ وشمسِ

وقد علق الكاتب الشهير بيرن على القاعدة الشهيرة لبيثاغوروس « ان مربع الضلع المقابلة للزاوية القائمة في مثلث قائم الزاوية تعدل حاصل مربع الضلعين الاخيرتين »

شيئاً ابسط . فجعل المادة نفسها قبل كل شيء واصل كل شيء . وقال انها غير متلاشية وغير متناهية وانها دون رقة الهواء وارق من الماء متحركة نامية من نفسها . قال « ان المادة الاولى تشمل كل شيء وتدبر كل شيء » وقال ايضاً « كل شيء سيهلك ضرورة و يعود الى حيث اتى »

***

ثم جاء انكزيمانيس . وهو الثالث من الفلاسفة الميلتيين . وانكر على انكزيمندر مادته الاولى انها لا تقوى على توليد الحياة لانها ساكنة واخذ يبحث عن مادة اخرى تكون اقبل لذلك . فرأى ان حياة الانسان متوقفة على دوام نفسهِ والانسان يتنفس الهواء فقال ان الهواء اذاً شرط الحياة في الانسان والحيوان . وانهُ اذا كانت الحياة تتوقف على الهواء في المخلوقات العليا فبالاولى ان تكون كذلك في المخلوقات الدنيا . واذا كان الهواء شرطاً لها فيصح ان يكون سبباً لها ايضاً . فالهواء غير منظور ونفس الانسان كذلك . والهواء يتحرك ونفس الانسان كذلك . فربما كان الهواء نفس الانسان ونفس كل حي في الطبيعة ولذلك اعتبر النفس او النسمة والحياة والنفس شيئاً واحداً . وقال ان الهواء ليس نفس الانسان فقط بل نفس العالم اجمع . اي انهُ مادتهُ الاولى وقوتهُ الاولى كما هو ظاهر من قولهِ « انهُ كما ان نفسنا التي هي هواء تشملنا وتتسلط علينا هكذا الهواء يشمل كل شيء » فالهواء على رأي هذا الفيلسوف لا ينفك يتحرك ولا يزال يتغير من مادة الى مادة ومن صورة الى صورة . فاذا رقّ استحال الى نار . واذا تكثف استحال الى غيم وماء وتراب وحجر . واذا رقّ ايضاً صير الحرارة واذا تكثف صير البرد . والارض ليست سوى هواء متكثف . والاجرام السماوية اللامعة عبارة عن اجزاء تطايرت من الارض ولسرعة حركتها رقت فتولدت فيهـا الحرارة والنار

فكم تقترب هذه الآراء الفلسفية التي لا تستند الى شيء من المعارف الحقيقية في الطبيعة من نتائج العلم اليوم . ولا يخفى ما اقتضى للعلم من البحث والزمان الطويل حتى بلغ هذا المبلغ . فاننا نعلم اليوم كما كان يعلم طالس ان الارض كرة . وان كل شيء على

والنفس . وهم في كثير من المسائل متوافقون مع العلم الحديث . وسبب ذلك ان فلسفة اليونان لم تنشأ عن الثيولوجية وانما نشأت عن مراقبة احوال الطبيعة . واول فلاسفتهم على قول دونكر كان طبيعيًّا وهو طالس من ميلت . واليونان يعتبرونهُ ابا الفلاسفة وهو واضع اساس المدرسة اليونانية

ولد طالس سنة ٦٣٥ ق . م وقرأ اولاً على الكهنة المصريين واطلع على حكمتهم. وعلل طغيان النيل باسباب طبيعية . وقاس ارتفاع الاهرام من ظلها . وقسم السنة كالمصريين الى ٣٦٥ يوماً . وانبأ اهل وطنهِ بكسوف اعترى الشمس فانذهلوا من هذا الامر جدًّا . ولم يتعلم من اليونان الاَّ ان القمر يستمد نورهُ من الشمس . وقدر انهُ اصغر منها بسبعمائة وعشرين مرة . وقسم السماء الى خمس مناطق . واعتبر النجوم اجساماً شبيهة بالارض ولكنها ملآنة نارًا . ورجع بقومهِ من سماء تصوراتهم الشعرية وقد ملأوها بالآلهة الى عالم الحقيقة والوجود ونفى الارواح من الارض . وقال ان اصل كل شيء من الماء . وان الارض كروية وسابحة على الماء وان الزلازل [1] فيها من فعل هذا الماء تحتها . وتابعهُ كثير من اهل وطنهِ . وبحث عن اصل الكون في المادة

ومنهم أنكزيمندر ( ولد ٦١٠ ق . م ) فصنع اول مقياس للوقت . ورسم البحر والارض على لوح من نحاس احمر اي انهُ اول من رسم خارتة جغرافية . واعتنى بضبط خطوط الانحناء للكواكب ومسافاتها ومساحتها . وزعم ان الارض كقرص مستدير معلق في وسط الكون وان المخلوقات الحية فيها من ادنى الحيوانات البحريه حتى الانسان تكونت بالتتابع . ولم يوافق طالس على ان الماء اصل كل شيء بل اراد ان يجد

(١) نقل عنهُ ان المبدع الاول هو الماء قال الماء قابل لكل صورة ومنهُ ابدع الجواهر كلها من السماء والارض وما بينهما . وهو علة كل مبدع وعلة كل مركب من العنصر الجسماني . فذكر ان من جمود الماء تكوَّنت الارض . ومن انحلاله تكون الهواء . ومن صفوة الماء تكونت النار . ومن الدخان والابخرة تكونت السماء . ومن الاشتعال الحاصل من الاثير تكونت الكواكب فدارت حول المركز دوران المسبب على سببهِ بالشوق الحاصل فيها اليه — قال والماء ذكرًا والارض انثى وهما يكونان سفلاً . والنار ذكرًا والهواء انثى وهما يكونان علوًا . قال مؤلف الكتاب والماء على القول الثاني (اي انهُ مبدأ المركبات الجسمانية لا المبداء الاول ) شديد الشبه بالماء الذي عليه العرش وكان عرشهُ على الماء — من الملل —

موجودة اختلاق محض او جهل بالتاريخ . والقضايا التي يزعمون انها خاصة بها مستعارة ايضاً كمسألة الحبل بلا دنس فانهُ قيل مثل ذلك من نحو الف او الفي سنة عن ابنة احد ملوك مصر . والتثليث على قول « ريث » كان في عقائد الشعب المصري

***

والمصريون كانوا يعتقدون وجود اربعة عناصر جوهرية او اسباب اولى لا تدرك ذاتيتها : المادة . والروح . والخلاء . والزمان من مجموعها يتكون الاله الاول . فالمادة الاولى ونقتصر عليها هنا وتسمى عندهم « نيث » كانوا يشخصونها حية ذات قوة كائنة من نفسها ومتحركة بدون انقطاع . والكتابة الموجودة على صنم نيث في مدينة سايس القديمة والمكتوب فيها « انا ما كان وسيكون » اشارة واضحة الى ذات المادة . وهذا يظهر اكثر ايضاً في الاسم المعطى لنيث وهو « الام العظمى »

وهذه رواية الخليقة على مذهب المصريين قالوا ان الاله الاول فصل جزءًا من مادتهِ وكوّن العالم منهُ فالعالم على رواية هذا المذهب ليس بشيءٍ جديد وانما هو نمو او استحالة في ما كان موجوداً منــذ الازل . وهذا العالم ذو شكل مستدير ويسمى بيضة الكون ايضاً . وفيهِ تتكون الآلهة صادرة من مادتهِ لا خالقة لها ثم يتكمل هذا العالم رويداً رويداً في الدهور الطويلة

***

واذا انتقلنا من الرأي المادي الديني في الشرق الى الرأي المادى الفلسفي في الغرب نجد اولاً في بلاد اليونان جمهوراً من الفلاسفة يعد واضع كل فلسفة وقد ظهر في مدة نحو قرن ونصف من اول القرن الســادس الى زمان سقراط الذي ولد سنة ٤٤٩ قبــل المسيح . وجميع هؤلاء الفلاسفة اشتغلوا بمسألة تكوين العالم ولذلك سموا كوسمولوجيين وقالوا فيهِ باسباب مادية طبيعية وجعلوا اصــل كل شيءٍ من مادة اولى [1] . ولا احد منهم ذكر التثنية التي وضعت بعد ذلك اي الروح والمادة والجسد

(١) قد تقدم في اول هذه المقالة ان القول بمادة اولى كان كثير الانتشار في القديم فربما اخذ اليونان افكارهم في الطبيعة من هذا القول

دليل على ضعف العقل وضيقهِ لان العاقل لا يضطهد احداً لدينهِ الى ان قالوا انتم تجعلون كل اتكالكم على الله واما نحن فلا نتكل الاَّ على انفسنا والدين المسيحي مصدرهُ من شعب من اصل سامي وهذا الاصل ادنى من اصلنا وليس عندهُ فكر فلسفي غير مستعار فنحن لا نقبل مثل هذه العقائد البتة » ولم يستطع البراهمة ان يفهموا التكوين بحسب نص التوراة

* * *

فالتعليم بالمحبة ونشر الدين في سائر الاقطار ليس خاصًّا بالدين المسيحي وحدهُ كما يظن وربما اخذ ذلك عن الهند . قال شوبنهور وهو يزعم ان النصرانية اخذت تعاليمها من الهند عن طريق مصر ما نصهُ . « ان النصرانية لم تعلّم الاَّ ما كان يعلّم في اسيا زماناً طويلاً قبلها » . ولا يخفى ان التعاليم الادبية للتوراة كانت موجودة عند البوديين . وقد قال بودنوف ان حكاية الابن الشاطر موجودة في الكتب البودية مع بعض اختلاف فيها . وما عدا ذلك فان النصرانية تتشابه جدًّا مع البودية في مسائل شتى كالاماتة وانفصال الطبيعة والروح وتضادهما واحتقار الجسد والحياة الدنيا والنسك والزهد والاعتزال في الاديرة وما شاكل

فلا يوجد اذاً شيء في النصرانية لم يكن موجوداً قبلها . وقد قال المؤرخ الانكليزي بوكل « ان القول بان النصرانية جاءت بحقائق ادبية جديدة لم تكن

---

حاجة لنا الى الرسول . وان لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً اذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الانسانية ودخول في حريم البهيمية . ومنها ان قال انهُ اكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب حتى تكون بالنسبة اليهِ كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً او كحيوان يصرفك اماماً وخلفاً او كعبد يتقدم اليك امراً ونهياً . فاي تمييز لهُ عليك واية فضيلة اوجبت استخدامك وما دليلهُ على صدق دعواهُ . فان اغتررتم بمجرد قولهِ فلا تمييز لقول على قول . وان انحسرتم بحجتهِ ومعجزتهِ فعندنا من خصائص الجواهر والاجسام ما لا يحصى كثرةً ومن المخبرين عن مغيبات الامور من لا يساوي خبرهُ . اهـ . – من كتاب الملل والنحل — قال صاحب الكتاب المذكور والعرب والهند يتقاربان على مذهب واحد واكثر ميلهم الى تقرير خواص الاشياء والحكم باحكام الماهيات والحقائق واستعمال الامور الروحانية والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد واكثر ميلهم الى تقرير طبائع الاشياء والحكم باحكام الكيفيات والكميات واستعمال الامور الجسمانية

والبعث لهُ مقام عظيم في عقائد الهند . فالنيروانا هو اذا تخلص من كل فكر وشعور وعود الى السكون العام اي الى العدم الاول ( سونجا ) الذي هو عبارة عن السعادة العظمى

ثم ان البراهمة قد حولوا النيروانا عما هو عند البوديين حتى استخلصوا منهُ البطالة عن كل عمل فالانسان يقول أم أم [١] و بالتأمل الشديد ونكران الذات يتحول شيئاً فشيئاً الى الله او الى براهما . على ان هذا التحول غير مستطاع الاَّ للبراهمة فقط

وكما ان دين البراهمة استعار كثيراً من دين البودية هكذا دين البودية استعار كثيراً من دين البراهمة . ثم فقد ما كان عليهِ من البساطة وفسد بانتشارهِ في الشعوب. فاكثر من القديسين والصور والقون والاديرة والاماتة والكهنة والرتب . ومن هذه الحيثية يشبه الدين الكاثوليكي جدًّا مع شدة ما بينهما من التناقض في المبداٴ ثم صار بودا نفسهُ إلهاً يعبدونهُ

ومبادئ هذا الدين رغماً عن فسادهِ لا تزال حتى اليوم ذات مفعول عظيم ظاهر في حسن معاملة المتدينين بهِ حتى البراهمة انفسهم لاصحاب الاديان الاخرى . ذكر الدكتور هوج استاذ السنسكريت في مدرسة بوما الانكليزية ( قصبة بومباي ) ان البراهمة قالوا لهُ منددين بترفض النصارى الديني ما نصهُ [٢] «ان هذا الترفض فيهم

(١) وهؤلاء اصحاب الفكرة يعظمون امر الفكر و يقولون هو المتوسط بين المحسوس . والمعقول . فالصور من المحسوسات ترد عليهِ . والحقائق من المعقولات ترد عليهِ ايضاً . فهو مورد العلمين من العالمين . فيجتهدون كل الجهد حتى يصرفوا الوهم والفكر عن المحسوسات بالرياضة البليغة والاجتهادات المجتهدة . حتى اذا تجرد الفكر عن هذا العالم تجلى لهُ ذلك العالم . فربما يخبر عن مغيبات الاحوال . وربما يقوى على حبس الامطار . وربما يوقع الوهم على رجل حيّ فيقتلهُ في الحال . ولهذا كانت عادتهم اذا دهمهم امر ان يجتمع اربعون رجلاً من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد في الاصابة فيتجلى لهم المهم الذي يهضهم حملهُ وبندفع عنهم البلاء الملم الذي يكاد دهم ثقلهُ . اهـ . من كتاب الملل والنحل — قلت وعنهم اخذ بعضهم هذه العادة التي لا تزال عند بعض الملل حتى اليوم وتعرف بالذكر ايضاً

(٢) والبراهمة ينتسبون الى رجل منهم يقال لهُ برهام قد مهد لهم نفي النبوات اصلاً وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه منها ان قال ان الذي يأتي بهِ الرسول لا يخلو من احد امرين اما ان يكون معقولاً واما ان لا يكون معقولاً . فان كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بادراكهِ والوصول اليه فاي

ولما خاف البراهمة على مذهبهم ان ينقضهُ مذهب بودا حركوا الامراءَ على اضطهادهِ . ودام هذا الاضطهاد الشديد من القرن الثالث الى القرن السابع للمسيح . وبعد هراقة دماء كثيرة انحصر مذهب بودا في الهند القديمة اي في مكان منشائهِ وفي ما جاورهُ من البلدان كسيلان والصين واليابان وتيبت ومنكوليا حتى انهُ اليوم اكثر الاديان انتشارًا بعد دين المسيح فان البوديين يبلغون ٤٥٠ مليونًا والمسيحيين ٤٧٥ مليونًا

ولم يتقلص ظل البودية (١) من الهند كليًّا بل ادخل البراهمة في دينهم بعض مبادىءَ منهُ كازلية المادة والنيروانا وهما القاعدتان الجوهريتان في مذهب بودا

***

واما النيروانا فهو غاية مذهب بودا . وقد اختلفوا في معنى هذه اللفظة والصحيح انها تعني لا شيءَ او العدم . وعليهِ فيكون مذهب بودا عبارة عن العدمية في اتم معانيها وعن الوجع العام . فالعالم على رأيهِ مركب من الوجع وكل شيءٍ فيهِ باطل وسوف يهلك . والاوجاع الكبرى عندهُ اربعة : الولادة . والشيخوخة . والمرض . والموت . والحياة كلها عذاب وللخلاص من هذه الاوجاع ومن هذا العذاب ينبغي على الانسان ان يتحرر شيئًا فشيئًا بواسطة الدين والفلسفة من كل حاسة ومن كل فكر حتى يرجع اخيرًا الى راحة العدم . وللنيروانا غاية اخرى ايضًا وهي الخلاص من عذاب البعث

(١) وفي النحل البوديسعية قال ودون مرتبة البدّ مرتبة البوديسعية ومعناها الانسان الطالب سبيل الحق . وانما يصل الى تلك المرتبة بالصبر والعطية وبالرغبة فيما يجب ان يرغب فيهِ وبالامتناع والتخلي عن الدنيا والعروض عن شهواتها ولذاتها والعفة عن محارمها والرحمة على جميع الخلق والاجتناب عن الذنوب العشرة : قتل كل ذي روح واستحلال اموال الناس . والزنا . والكذب . والنميمة . والبذاء . والشتم . وشناعة الالقاب . والسفه . والجحد لجزاء الآخرة . وباستكمال عشر خصال : احداها الجود والكرم . الثانية العفو عن المسيء ودفع الغضب بالحلم . الثالثة التعفف عن الشهوات الدنياوية . والرابعة الفكرة في التخلص الى ذلك العالم الدائم الوجود من هذا العالم الفاني . الخامسة رياضة العقل بالعلم والادب وكثرة النظر الى عواقب الامور . السادسة القوة على تصريف النفس في طلب العليات . السابعة لين القول وطيب الكلام مع كل واحد . الثامنة حسن المعاشرة مع الاخوان بايثار اختيارهم على اختيار نفسهِ . التاسعة الاعراض عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق بالكلية . العاشرة بذل الروح شوقًا الى الحق ووصولاً الى جناب الحق اه . قلت والوصايا العشر على شكل الذنوب العشرة حذو القذّة بالقذّة

ويعظم الفرق اكثر بين هذين المذهبين من حيث الفروض فان تعليم بودا يهم الشعب اكثر وغايتهُ تحرير الانسان . والفروض التي يفرضها عليهِ هي الفضيلة والمحبة والشفقة والاتضاع والرحمة والحسنة والصبر والعفة ومحبة الغريب ومساعدة المسكين والرأفة ولا سيما بالحيوانات وعدم الحقد والعروض عن الانتقام الخ . ويأمر بها حبًّا بالخير لا طمعاً بالمكافأة ولا خوفاً من القصاص . ويعلم ايضاً المساواة والاخاء بين جمع البشر وينفي سائر الامتيازات من جهة المولد والمقام . وبودا يقول « ان جسد الامير لا يساوي اكثر من جسد العبد »

وقد تميز بودا عن سواهُ بان كتب تعليمهُ بلغة العامة لا بالصنسكريت اي لغة الخاصة خلافاً لباقي الاديان في ذلك الزمان. وقد انكر الودا اي الكتب المقدسة للهنود وطرد الالهة والارواح البراهمية بدون ان يرتكب التعصب او يتهور بسوء المعاملة . وكان يقتضي ان يسلك هذا المسلك لانهُ كان يريد ان يجعل دينهُ ديناً عاماً .ولذلك انتشرت رسلهُ في سائر اقطار المسكونة كرسل الدين المسيحي اليوم . لان غايتهُ الاخاء والتسوية بين جميع الناس وانهاض جميع الشعوب الذين يعدهم بالخلاص من جميع الآلام والمصائب بدخولهم في « النيروانا » اي العدم . فغاية بودا ان يزيل من العالم كل ضيق خلافاً للبراهمة الذين لا يهتمون الاَّ بامر انفسهم . ولذلك انتشر مذهب بودا كثيرًا وسريعاً

ذكر دونكر في تاريخهِ القديم ان اسوكا ملك مغاده ( ٢٥٠ سنة ق.م ) اقام دين بودا في مملكتهِ ولم يعامل المخالفين بالقسوة بل بالحسنى كما يأمر بهِ التعليم المذكور . فلم يضطهد البراهمةاو الكهنة ولم يقتل اسيرًا خلافاً للعادة في الشرق. قيل انه منع القصاص بالموت . وقد زرع الاشجار على عرض الطرق واقام السبل لراحة المسافرين واستقاهم واعتنى كثيرًا بالفقراء وانشأ مستشفيات ليس للبشر فقط بل للحيوانات العاجزة والمريضة ايضاً

---

يعلم كل الذهب او من جارحة كل الفولاذ هكذا براهما ايضاً هو مادة كل شيء وقوة كل شيء . وهو المادة التي تحول من نفسها وليس هو سبب كل شيء فقط بل هو كل شيء ايضاً ) . ثم دخلت فيهِ الارواح شيئاً فشيئاً خلافاً لفلسفة سنكياه ولمذهب البوديين المشتق منها فانهما ما زالا يعظمان المادة

الهنود منهما في دينهم اشير بذلك الى تعاليم بودا [١] او جوطامى [٢] التي وضعها بودا او جوطامى ابن ملك الهند سنة ٦٠٠ — ٥٤٣ ق.م

فهذا المذهب الذي لم ينتبه الى البحث فيهِ الاَّ حديثًا مع انهُ ممتد جدًّا في الشرق هو دين بدون اله ولا ضحايا ولا طقوس ولا صلوات اي ليس فيهِ شيءٌ مما هو مصطلح عليهِ في الاديان . وأساسهُ الادب والانسانية و بعبارة اخرى الفضيلة . وهو مأخوذ من تعليم سنكجاه الذي ليس فيهِ اله ولا آلهة ولا ما يسمى العالم . بل يعلم بمادة ازلية لا تتلاشى يحركها عاملان هما الطبيعة والنفس . وهي تتغير بالقوى الطبيعية المتصلة بها . فالموت ظاهري فقط ولا يوجد في الحقيقة الاَّ تغير دائم ما خلا نفس الانسان فانها موجودة لنفسها ومنفصلة عن الجسد فالطبيعة والروح امران متضادان .

فهذان العاملان موجودان في مذهب بودا الذي لا يسلم بالوجود الحقيقي الاَّ لبرا كريتي العظيم اي المادة الاولى الكائن بهاقوّتا السكون والحركة او الراحة والعمل. والحركة هي التي كونت العالم الذي لم يكن بد منهُ طبيعياً كنتيجة لسبب والذي هو كائن بتخريب ما كان موجودًا وتحويلهِ على الدوام

***

ومذهب بودا على ضد مذهب براهما الذي ينكر وجود المادة و يعتبرها انها وهم من الحواس وهذا الوهم اصل التثنية اي الجسد والروح واصل اماتة الجسد وانكار العالم وكل وجود [٣]

---

(١) وفي النحل بدّ ومعنى البدّ عندهم شخص في هذا العالم لم يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت

(٢) وفي النحل . اول بدّ ظهر في العالم اسمهُ شاكمين وتفسيرهُ السيد الشريف ومن وقت ظهورهِ الى وقت الهجرة خمسة آلاف سنة

(٣) يظهر ان روحانية مذهب براهما ليست اصلية فيهِ بل دخلت عليهِ بعد زمان طويل من وجودهِ لانهُ ابتدأ كسائر الاديان بناءً ليهوتوي الطبيعة وان براهما كان في الاصل مرادفًا للمادة في المعنى اي انهُ مادة وخالق المادة او محركها معًا . جاءَ في الودا اي كتاب شريعة الهنود ما نصهُ : ( كما انهُ من كرة صغيرة من الجص يعرف كل الجص وكما انهُ لا يوجد حقيقة الاجص واحد وكما انهُ يا صاح من حلي واحد من الذهب

ولذلك كانت فلسفتهم واضحة جداً ومتفقة كذلك . بخلاف سواهم الذين تكثر عندهم المناقضات وتكاد لا تجد اتفاقاً بينهم في امر من الامور وانك لتضيع في مذاهبهم حتى تقول اخيراً كما قال التلميذ في رواية فوست للشاعر غاثي

وانى ليعروني دوارٌ لذكرها كأن رحى قامت برأسي تدورُ

ولا يرضى بذلك الفلاسفة الذين يقولون ان كل ما يقال عنهم من هذا القبيل انما هو من باب الوقيعة.ولكن قل لي الى اين وصلوا مع كل اجتهادهم.فقد وصلوا الى حيث قال احد مشاهيرهم اذ قال « ان تاريخ الفلسفة هو تاريخ خطأ يتخلله اشعة ضئيلة من النور قليلة جداً (١) » وهو قول لم يقل اصح منه . واما الفلسفة التي لا ينالها هذا القول فهي الفلسفة التي نحن بصددها . ولنبحث اولاً في

***

## ( الرأي المادي القديم )

جرت العادة ان يبحثوا عن اقدم الفلاسفة الماديين بين اليونان لانهم هم حقيقة اول من وضع المذاهب الفلسفية و بحث في الكون . ولهذا السبب سمي فلاسفة اليونان قبل سقراط كوسمولوجيين (٢) . الا اننا نعلم اليوم انه كان في الشرق قبل اليونان شعوب بالغون في التمدن وهذا يجعلنا نفتكر أن تمدن اليونان العظيم لم يكن من مستنبطاتهم كما ظن زماناً طويلاً بل انما جاءهم اكثره من الشرق ولا سيما مصر

فلنبحث لنرى اذا كان للافكار الفلسفية المادية وجود في القديم في بلاد مصر والهند.على اننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن فلسفة الهند وما نعلمه قليل جداً.قيل ان بعض فلاسفة الهند بلغ في المادية حتى زعم ان العالم نتيجة افعال متضادة لمبدأين اولين ازليين هما المادة والصورة . ومن الامور الغريبة ان المادية والجحود هما اقلّ في فلسفة

(١) من كتاب للفيلسوف جروب في الفلسفة في المانيا في الحال والمستقبل

(٢) نسبة الى الكوسمولوجية اي علم الاكوان

وفولطر لم يهملوا ان يستعملوا ضد الرأي المادي الحجة القديمة التي لا تزال تكرر لما لها من الوقع العظيم على الجمهور وهي ان العمل يقتضي لهُ عامل ضرورة والبيت بانٍ كذلك

واما اليوم فقد اختلف الامر لما بين مذهب داروين والفلسفة المادية من الارتباط الشديد . اذ بيَّن هذا المذهب ان التعليل الطبيعي ليس بالممتنع كما كان يظن من قبل . على ان الذين اعتقدوا وحدة الكون قبل داروين قد بينوا فلسفيًّا ان ظهور الاحياء امر طبيعي وكذلك ظهور الانسان . واني من الذين قالوا بهذا الرأي مع التأكيد الممكن اذ ذاك وذلك قبل داروين بسنين عديدة

***

على ان مثل هذه النتائج الفلسفية المستخرجة من مبادىء عامة لا قيمة لها الا لعدد قليل من ذوي العلم والافكار الراقية. واما القسم الاكبر (الذى كما يقول الفيلسوف بركلي لا يفتكر لنفسهِ ويريد لهُ رأيًا ) فيقتضي لهُ ادلة حسية واضحة وتعليلات كذلك . وهذه موجودة في مذهب داروين الذي انتقضت بهِ كل الافكار الفلسفية المبنية على النظر فخلا الجو للفلسفة الطبيعية او المادية التي تستند في براهينها الى الطبيعة والمواد نفسها

وهو واضح بعد ذلك ان الفلسفة المادية استفادت كثيرًا من مذهب داروين ولا يسعها ان تنحرف عنهُ لا للنسبة الكائنة بينهما والتي ذكرناها فقط . بل لان هذا المذهب هو الذى مهد السبيل اولاً لتشييد فلسفة في الطبيعة صحيحة. والفرق بين الفلسفة المادية على ما صارت اليهِ اليوم وما كانت في الماضي واضح كذلك . فانها كانت في الماضي تستند الى بعض المشابهات وربما اهملت اكبر الاختلافات . ثم تبني نتائجها في امر الكون على ما لا يخرج عن حد الاراء والحدس فكانت تعدم قيمتها لذلك. واما اليوم فصارت بمذهب داروين ليس فلسفة فقط بل علمًا ايضًا وعلمًا وطيدًا

واذ قد تقرر ذلك وعرفنا ما لمذهبنا من الشأن في فلسفة الطبيعة بقي علينا ان ننظر الى اولئك الذين كان لهم هذه الافكار او مثلها وقد جاهروا بها في ما تقدم من العصور . وسنرى انهم نظرًا لمبدئهم الطبيعي والبسيط هم يتوافقون في الامور الجوهرية

وعند الفرس الخلق كائن من مادة اولى كذلك ذات قوة اولى متصلة بها . اي من الكاوس الذي ينشأ فيهِ هرمز واهرمن إلاهاهم العظيمان فهرمز اله النور خلق العالم في ستة ايام كما في رواية التوراة مع الفرق في الترتيب. فخلق في اليوم الاول النور والسماء والكواكب . وفي اليوم الثاني المياه والغيوم. وفي اليوم الثالث الارض والجبال والسهول. ثم في الرابع النبات . ثم في الخامس الحيوانات . وفي السادس الانسان

واهل بابل يعتقدون ان كل شيء كان في الاصل ماء وظلمات مسكونة بالجن . ثم فصل الاله « بل » من هذا الكاوس السماء والارض وصنع الكواكب . ثم كلف الآلهة فخلقت البشر والحيوانات .

والمصريون كانوا يعتقدون ان الاله « فتا » كوّن العالم من بيضة خرج منها

وهذا الانقسام في العقائد والتصورات الى قسمين موجود في تاريخ العقل البشري من اولهِ الى آخرهِ . احدهما يجعل اصل كل شيء في المادة . والآخر في اله حي مستقل . وهذه التثنية لا تزال اليوم كما كانت في القديم ويعبر عنها تارة بالقوة والمادة. وطورًا بالروح والجسم . وبالطبيعة وبما وراء الطبيعة

***

وما عدا هذه الروايات الدينية فانهُ يوجد ايضاً آراء فلسفية بحتة قديمة تقترب احيانًا من آراء العلم اليوم في ما خص ظهور العالم وسكانهِ . وربما كان سبب هذه الموافقة ان اكثر الفلاسفة في القديم كانوا اطباء او طبيعيين لا يعتمدون الاَّ على المراقبة والاختبار. الاَّ ان الفلسفة ما لبثت ان استقلت بعدهم وصارت علمًا قائمًا بنفسهِ. فأخذ الفلاسفة يتقلبون في تيه التصورات وكثرت الآراء كثيرًا واختلفت . على انهُ وجد في كل زمان قوم منهم ميالون للرأي المادي وسنأتي على بيان ذلك في ما يأتي . واذا كان الفلاسفة الماديون لم يفوزوا على خصومهم فلسطوة الدين على الفلسفة من جهة ولقلة ما كان لهم من المعلومات الصحيحة من جهة اخرى . فانهُ لما لم يكن للماديين من البراهين الحسية ما يؤيدون بهِ رايهم في مادية الوجود ولا سيما ظهور العالم العضوى طبيعيًا كانت دعوى الروحيين ان لم تكن اقنع فأرضى . حتى ان فلاسفة كارسطو

السنين الشمسية . فخلق من الفلقة الواحدة السماءَ ومن الفلقة الاخرى الارض التي فصل اليابسة منها عن المياه. ثم شطر نفسهُ شطرين خلق من الشطر الواحد الذكر ومن الشطر الآخر الانثى . اي انهُ تقلد طبيعتين طبيعة فاعلة وطبيعة قابلة . ولذلك كان الارمن يتهادون البيض في رأس السنة . ثم اجاز النصارى هذه العادة وقد نقلوها الى عيد الفصح

ورواية سكان جزائر البحر الجنوبي في الخليقة على ما نقلهُ لنا المرسل تورنر ابسط من ذلك . فانهم يعتقدون ان الارض كانت أولاً مغطاة كلها بالماء ثم انسحب الماء شيئاً فشيئاً . فأرسل أبو الالهة ابنتهُ على صورة حمامة ومعها قبضة تراب ونبات حيّ فوضعت التراب على الحجار وغرست النبات ولما امتدت أصولهُ تغطى بالذباب ومنهُ تكوّن الرجال والنساء . و بعض السمك الذي كان في الماء حيث اليابسة اليوم تحوَّل الى حجار . ولهذا السبب كنا نجد حجاراً كثيرة كانت من قبل اسماكاً أو حيوانات أخرى

***

وعند اليهود خلق الله العالم واتمهُ في ستة ايام. و بعد ان خلق النور في اليوم الاول خلق الشمس والقمر والكواكب في اليوم الرابع فقط ! واخيراً خلق الانسان على صورتهِ . وهو اي الله فوق كل مادة وفيهِ اصل كل شيء . وقد خلق العالم من العدم خلافاً لمعتقدات الشعوب غير السامية الذين عندهم مادة اولى ازلية هي اصل كل شيء والذين تبتدئ عقائدهم بتأليه النور او الشمس (١) . وفي كل عقائد الهنود على قول الاستاذ « دياتاريشي » الخلق كائن من مادة ازلية فيها قوة ازلية متصلة بها اي عبارة عن غراب ( كاوس ) ازلي تنمو فيهِ القوة الخالقة

---

(١) ان في لغة العائلة الآرية او الهند وجرمانية العظمى لفظة اصلية ( ديف ) ومعناها النور او اللامع يشتق منها سائر الاسماء المستعملة عند الشعوب المذكورة للدلالة على الله · ففي لغة السنسكريت يعبر عنهُ بلفظة (ديفاس اودبواس اودبو ) · وعن السماء بلفظة ( دبوس) هو عند اليونان ( ذبوس ) · وعند اللاتين ( دووس او ديوفيس)· ثم قالوا (جوفيس) ومنهُ ( جوبتر)· والغوث يعبرون عنهُ بلفظة( تيوس) وعند الفرنساويين ( ديو ) مرخمة · وعند الايطاليين ( ديو ) · وعند الاسبانيول والبورتغال ( دبوس ) كلها مشتقة من اصل واحد · وفي اللغة الالمانية القديمة يعبرون عنهُ بلفظة ( ذيو ) · وفي السلاف اللوثاني دبواس ) وفي اسكنديناف الادّي ( تيوار ) · وفي اشعار ادّا الحماسية لفظة تيوار تعني الهة او ابطالاً ايضاً · ولفظة ( تير ) المشتقة منها تعني اله الحرب عند امم الشمال

# المقالة الخامسة

فهرست : نسبة مذهب دارون الى مذهب الماديين والفلسفة المادية — اقوال في الخلق — مذهب الماديين عند القدماء — عند الهنود — عند المصريين — في بلاد اليونان — طالس — انكزيمندر — انكزيمنوس — كزانوفانوس — برمنيدوس — هرقليط — امبيدقل — لوسيب — ديموقريط — بروتاغوراس — أريستيب — ستراتون — ابيقورس — ارجوزة لوكرس في الطبيعة — انتقاد الفلسفه القديمة بوجه عام

اني أبسط في هاتين المقالتين الاخيرتين الرابط الذي يربط مذهب دارون بالرأي المادي وبالفلسفة المادية للماضي والحال . وهذا الارتباط واضح كما انهُ طبيعي. والانسان اذا تأمل قليلاً بنفسهِ وبالاشياء التي تحيط بهِ فأول مايعرض لهُ بعد السماوات والارض هو نفسهُ وعالم الاحياء الذي يقرب منهُ . وأول سؤال يخطر لهُ هو هذا: من أين اتت هذه الاحياء وكيف أتت ومن خلقها ؟ . والانسان الذي هو سلطان الارض واكمل المخلوقات من اين اتى هو ايضاً ؟

ولما كان الجواب على هذه السؤالات جواباً مقنعاً يمتنع بدون واسطة العلم كان اقدم الروايات في الخليقة عند الشعوب المختلفة مشحوناً بالخرافات مملوءًا من كل عجيب وغريب من التصورات الخاصة بالشعوب اذ كانوا في مهد الطفولية

وهذه رواية الخليقة عند الارمن على ما في كتاب ارمان

ان الكائن الاول الازلي غير المنظور والذي لا يدرك الاَّ بالعقل أراد أن يتجلى بكل قدرتهِ وبكل مجدهِ . فخلق اولاً الماء من فكر واحد ووضع فيهِ بذرة الخليقة فصارت البذرة بيضة تلمع كالذهب وتضيء كالشمس . ثم دخل في هذه البيضة على صورة بارام براما اي الانسان الاله . ثم انفلقت البيضة فلقتين بعد ملايين ملايين من

الارض حتى لا يبقى الاَّ شعب واحد اضعف افرادهِ عقلاً يعادل اكبر عقولنا وربما كان اعلى منهُ ايضاً . وكل واحد حينئذٍ يجد ان سعادتهُ قائمة بسعادة قريبهِ وتكون الحرية كاملة اذ لا يتعدى الواحد على الآخر . ولا يعود لزوم للشرائع الصارمة وتقوم مقامها الجمعيات الاختيارية للقيام بالمصالح العمومية المفيدة حتى تستحيل الارض اخيرًا من وادي البكا وميدان المطامع غير المرتبة الى فردوس جميل لم يخطر على قلب ملهم ولا تصورهُ فكر شاعر »

فهذا المذهب الذي لا اسلم بهِ كلهُ حرفاً بحرف والذي لم ابسطهُ هنا الاَّ اجماليًّا اذا كان صحيحاً فلعل فيهِ ما يعوض على الانسان في مستقبلهِ ماقد خسرهُ من أصلهِ باطلاق مذهب التحوُّل عليهِ . ولئن لم يكن فيهِ شيءٌ يجعل فينا أملاً بأن سنصير يوماً ما ملائكة بأجنحة الاَّ أن نظرنا بهِ الى مستقبل الجنس البشري أرضى حينئذٍ لكبريائنا من النظر الى ماضيهِ في كل حال

وقبل الفراغ من هذا الموضوع لا بد لي من بسط الكلام قليلا على رأي احد علماء الانكليز « الفردولاَّس » في مستقبل الانسان وهو قريب جدًّا من دارون في المبداء والافكار قال : —

« ان الانسان في اوَّل امرهِ وقبل ان تنمو قواهُ العقلية إذ كان بلا ريب يقطن الاماكن المحرقة في المنطقة الحارة في زمن الايوسن والميوسن[1] كان خاضعاً للانتخاب الطبيعي كالحيوان. ثم لما اخذ عقلهُ ودماغهُ وقواهُ الاجتماعية ترتقي اخذ يتخلص ايضاً من فعل هذا الناموس . وربما لم يتغير في جسدهِ من بعد ان صار قادرًا على التكلم. لان التكاثف الذي يحصل في الجمعية وتهيئة الكساء والاسلحة والمساكن كل ذلك قويَ بهِ الانسان على مقاومة الاحوال الخارجية الى حد معلوم فأضعف فعل تنازع البقاء فيهِ بحماية الضعيف منهُ والاعتناء بهِ عوضاً عن قتلهِ وسهل لقليل النشاط سبل الكسب في الحياة الاجتماعية اذ قسّم الاعمال . فالانسان يداوي المريض ويعتني بالمسكين عوضاً عن ان يتركهما ليهلكا كما يفعل الحيوان . كل ذلك يجعلهُ في حالة موافقة لطبيعة ما يحيط بهِ بدون ان يتغير جسدهُ تغيرًا جوهريا . »

واوّل ما اتخذ جلد الحيوان كساءً واصطُنع السهم للصيد و بذرت الحبوب وزرع النبات حصل في الطبيعة ثورة عظيمة لا مثال لها في ما تقدم من تاريخ الارض. اذ ظهر فيها كائن لا يلزمهُ ان يتغير ضرورةً مع العالم لهُ سلطان على الطبيعة . وان كان محدودًا . لانهُ يدرك عملهُ ويزنهُ و يتفق معها لا بتغيير جسدهِ بل بتقدم في عقلهِ »

« ولا يقتصر الانسان على الخروج بنفسهِ من تحت حكم الانتخاب الطبيعي بل يخرج معهُ غيرهُ ايضاً من تحت حكمهِ وسوف يأتي زمن لا يبقى فيهِ سوى الحيوانات الاهلية والنباتات المزروعة اذ يقوم فيهِ الانتخاب الصناعي مقام الانتخاب الطبيعي الاَّ في البحر »

« على ان ما تحرّر الانسان منهُ جسديًّا لا يزال يفعل فيهِ عقليًّا ونتيجة ذلك ان الشعوب التي ترتقي بعقلها فوق غيرها تبقى وحدها أخيرًا اذ تلاشي غيرها وتحكم على

(١) القسم الاول والمتوسط للدور الثلاثي

واقوي كذلك . قال ليل في ذلك ما معناهُ ان الارتقاء الصناعي والعلمي في عصرنا هو على نسبة هندسية مع التمدن والمعارف العمومية و ينقص على نفس هذه النسبة كلما تقهقرنا في الماضي بحيث ان التقدم الحاصل في عشرة قرون في الماضي لا يقتضي لهُ اكثر من قرن في ما يأتي بعدهُ . وقال ايضاً : ان الانسان في القديم كان يشبه الحيوان اكثر جداً بالميل الغريزي لان يتقلد كل فرع من فروعهِ الفرع الذي تقدمهُ اي يشبههُ بميلهِ للوقوف . واذا قابلنا تقدم المدن بتقدم القرى نرى ان الاشياء تسير فيها على نفس هذا الناموس فان القرى لقلة المهيجات الداخلية والخارجية فيها ترى انها شديدة الحرص على الاشياء المقررة كثيرة الاحترام لنظامها

فلا غرو ان مرَّ على الانسان في العهد السابق التاريخ الوف من السنين وربما ألوف من القرون قبل ان بلغ درجة راقية من التهذيب أو صار لهُ تاريخ فقط.وأما بعد ذلك أي بعد أن رسخت قدمهُ في التمدن فصار ارتقاؤهُ أسرع فأسرع يوماً عن يوم . وما قيل عن الانسان صحيح أيضاً على سائر العالم العضوي . فان الارتقاء في الحيوان لا يكون واضحاً ومنتظماً وسريعاً الاَّ في ما كان منهُ أكمل من غيرهِ كذوات الفقر وذوات الثدي خاصَّةً . وأعظم ارتقاء في الطبيعة والتاريخ هو ما حصل في الانسان اذ تفلَّت من الاصول العليا لذوات الثدي حتى صار بينها و بينهُ بون شاسع . ولا نستغرب هذا الفرق بينهما لان من امكنهُ ان يقطع العقبة الموصلة الى الانسان لا شك انهُ قابل لضروب متنوعة من الارتقاء . و بعد ان سار على طريق التمدن صارت كل خطوة من خطواتهِ تبعدهُ اكثر فأكثر عن صورتهِ الاولى

وللانسان اخوة كثيرون لا يزالون متأخرين جداً . فلا يظن من كان بالغاً شيئاً كبيراً من الارتقاء ان ذلك موهبة مجانية معطاة لهُ من فوق . بل فليعلم انهُ نتيجة تربية متمهلة وارتقاء صعب . وعلمهُ هذا اعظم منشط لهُ يحثهُ للسير في هذا السبيل.ولا ايعلم الى اين يبلغ بهِ هذا الارتقاء . على انني متيقن بأنهُ لا يوجد امر مستحيل على لانسان اذا احسن استعمال ما فيهِ من القوى وما لهُ من العقل. فتزداد قابليتهُ و يتسع طاق سلطانهِ على الطبيعة الى ما وراء الحد الذي يظهر انهُ مفروض لهُ الآن

يحاكيها ايضاً . فان مملكة الصين القديمة العهد في التمدن بعد ان بلغت منهُ ما بلغت منذ زمان قديم وقفت ولم تزل واقفة لا تتقدم حتى اليوم وربما لم يعد في طاقتها ان تتقدم فهي ستهلك مع الزمان من دون ريب (١)

وقد شبهوا الارتقاء البشري الذي ليس هو حقيقة حسب مذهب التحول الا استمرار ارتقاء العالم العضوي منذ الازمان الاولى بلولب صاعد يظهر بدورانهِ انهُ يتقهقر والحال انهُ يرتفع دائماً وعلى نوع منتظم ويمكن تشبيههُ بالشجرة على ما ذكر في ما مرَّ اذ تنبت اغصان جديدة على اغصان قديمة وكل نابت جديد اكثر قوة واعلى مما نبت عليهِ (٢) وربما شبهوهُ بغير ذلك ايضاً

وهذا الارتقاء لا يتم بسرعة بل ببطءٍ كلي . وكما ان تاريخ العالم الماضي لا يحسب الاَّ بالملايين من السنين هكذا اسباب الارتقاء لا تتيسر الاَّ مع الزمان الطويل جدًّا ولكن ما هو الزمان بالنظر الى السير الطويل في الطبيعة والتاريخ . فالانسان يبخل بالدقائق لانهُ يرى نفسهُ يقترب من نهايتهِ ساعة عن ساعة ويوماً عن يوم واما العالم فيسير من الازل والى الابد والملايين من السنين كيوم واحد فيهِ

***

وللفروغ من هذا الباب لا بدَّ من التنبيه الى أن مبدأ التربية يكون اشد واقوى كلما كانت الصور الفاعل فيها اكمل . وسبب ذلك بسيط وواحد في الطبيعة والتاريخ فكلما كان التكوين واحوال الحياة الخارجية اكثر اختلافاً كان العقل والاحتياجات والافكار وكل ما يتعلق بها اعلى مطلباً وكانت المهيجات ووسائط التكميل اكثر

(١) ان هلكت فالقياس طبيعي وان لم تهلك اليوم كما هو الارجح فانما يكون ذلك بارتقائها الى مقام سواها من الامم الراقية بدون ادنى خوف من انحطاط هذه الى محاذاتها

(٢) داروين يعتمد جدًّا على هذا التشبيه في وصف سير الارتقاء العضوي فيشبه الاغصان النضيرة بالانواع الحاضرة والاغصان القديمة بالانواع المنقرضة وكل الفروع التي تنبت تتنازع بعضها مع بعض والاغصان الكبيرة كانت في الاول افانين صغيرة ولم يبق من الافانين الكثيرة التي كانت في الاصل سوى اثنين او ثلاثة تحمل الباقي وفروع كثيرة يبست او زالت او لا تزال واقفة غير نامية الخ . فالفروع اليابسة او الساقطة عبارة عن الصفوف والطوائف والانواع المنقرضة والباقية في الاحافير وهذا الترتيب حسب داروين لا يقتضي بنفسهِ لا ارتقاءً ولا تكميلاً بل هو حركة دائمة بحيث تتغير الانواع بدون ان ترتقي ضرورة

الكمال وقفت وقام مقامها فروع اخرى من جنسها اكثر فتوة واعظم قوة . هكذا ايضاً في التاريخ . فان بلاد اليونان قامت على اثر مصر ورومه على اثر اليونان والشعوب الجرمانية على اثر رومه متدرجات على سلم التقدم العظيم ولم يصب التقدم الاَّ وقوف زمني فقط . واوروبا بكل مجدها وعظمة تمدنها ستسقط يوماً ما ويقوم على اثرها فرع من البشر اكثر فتوة واعظم قوة فتسقط المدن العظيمة وتنطفي الاسماء الشهيرة وتفتقر البلاد الغنية ويزول التمدن الرفيع

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا  انيس ولم يسمر بمكة سامر (١)

ثم تقوم امم اقل استكمالاً لهذه المزايا الاَّ انهُ يكون فيها جرثومة ارتقاء اعلى فلا تلبث ان تبلغها وتزيد عنها فالتقهقر ليس سوى ظرف مكان وزمان بخلاف الارتقاء فانهُ مستمر وعام وان كان ارتقاء الامم الحديثة متوقفاً على قيامها على آثارها مستعينة بمتروكاتها مغتذية بها بدون ان تكون استكمال اتصالها فاوجه الشبه في ذلك واحدة ايضاً مع الطبيعة . لان المجاميع العضوية الحديثة تأخذ معظم ارتقائها من الارتقاء العالي الذي بلغتهُ في تقدمها بدون ان تتصل بهِ راساً . واما باقي الاجسام الحيــة الموجودة اليوم في الطبيعة كما كانت في الماضي ( كالجرابية وكثير من انواع السمك ) والتي بعد ان بلغت مبلغاً معلوماً من الارتقاء وقفت ولم تتقدم فلنا في تاريخ البشر ما

(١) بخنر هنا نسي قياسهُ الصحيح وهجر ماديتهُ الراسخة وعاد الى نغمتهِ الشعرية الخيالة · والحق الذي لا مرية فيهِ اليوم هو ان الانسان من يوم اهتدى الى مذهب التحول العام واطلقهُ على الطبيعة كلها واتجه بمباحثهِ فيها الى هذا الصوب صار ارتقاؤهُ في العمران اكيداً مطرداً شاملاً تاماً عاماً بحيث ترتقي فيهِ الامم المنحطة الى مقام الامم الراقية ولا تسقط هذه الى محاذاتها مهما كان الامر لان المبادئ القائم عليها العمران اليوم هي غير تلك التي كانت لهُ في الماضي فقد كانت في الماضي ادبية محدورة واما اليوم فقد صارت طبيعية عامة وكانت موجباتها ادبنية خيالة متزعزعة فصارت معقولة حقيقية ثابتة وكانت غايتها بعيدة فصارت قريبة وسيمتد العمران بعدائهِ هذه الى كل المعمورة الاَّ ما يقوم فيها دونهُ من الحوائل الطبيعية التي لا يستطيع تحويلها الى ملاءمتهِ منها لا منهُ وستزول فواصل الاديان ايضاً وان كان هناك غلبة فللراقي منهُ فقط بدمج فيه المنحط فيرقيهِ اليهِ ولكنهُ لا ينسحب من امامهِ ليخلي لهُ المكان وينحط هو نفسهُ · وهذه هي مزية ارتقاء العمران بالمبادئ الطبيعية الراسخة على انواع ارتقائهِ بالمبادئ الادبية والدينية المتقلقلة بحيث صار ارتقاء العمران اليوم مطرداً غير متذبذب كلياً غير محدود . وهذا وحدهُ كاف لاقناع العقلاء بهذه المزية لا الاغرار الذين هم دائماً عقبات في سبيل كل اصلاح يعيقونهُ ولكنهم لا يمنعونهُ

على ان وقوف بعض الشعوب في الخشونة الاولى لم يمنع تقدم البعض الآخر في التمدن طبقاً لما يحصل في الطبيعة

***

وكما اننا نجد صوراً بالغة في التكوين في اقدم الطبقات الارضية المعروفة هكذا نجد تمدناً بالغاً ايضاً في العصور القديمة للتاريخ . مثال ذلك بلاد مصر التي كانت مهد التمدن والعلم . فلا يخفى ما انتهت اليهِ ابحاث العلماء وتنقيبهم في ارض هذه البلاد القديمة ولا سيما ابحاث ماريت الفرنسوي الحديثة . فانهُ اكتشف نقوشاً وكتابات واصناماً من عهد ٤٠٠٠ الى ٤٥٠٠ سنة قبل المسيح . وقد وجد على جدران قبور هذه العصور رسوماً وكتابات تدل على ان مصر كانت في درجة عالية من التمدن (١) فاذا انكرنا الارتقاء لاجل ذلك فاننا نسقط في نفس الخطأ الذي يتظاهر لنا في الجولوجيا . وكل ما ينبغي ان نستنتجهُ من هذا التمدن هو انه آخر المراحل التي بلغها الانسان في سيرهِ الطويل والتي لا يخبرنا التاريخ عنها بشيءٍ . وهذا القول لا شيء من الغلو فيهِ لان الابحاث في اصل الانسان وقدمهِ قد صيرت الاربعة آلاف او الخمسة آلاف سنة التي يفرضها لهُ التاريخ لا شيء بالنسبة الى وجودهِ قبل العهد التاريخي . فان وجود الانسان على الارض ليس من عهد الطوفان الذي يصعد الى ما قبل دورنا في تكوين الارض بل من عهد ابعد جداً اي من عهد الدور الثلاثي من عهد طبقاتهِ الاخيرة او الوسطى. وهذا كما يصح هنا يصح ايضاً على الاشياء في الطبيعة

***

وهكذا تنقض ايضاً باقي الاعتراضات على الارتقاء في التاريخ . فالامم او الممالك التي بعد ان بلغت درجة عالية من التمدن اما هلكت او بقيت واقفة او تقهقرت تشبه هذه المجاميع التي ذكرناها في تاريخ عالم الاحياء والتي بعد ان بلغت مبلغاً معلوماً من

(١) ان الكهنة المصريين اروا هرودوتس سنة ٤٥٠ قبل المسيح حول جدران هيكل تيبس ٣٤١ مدفناً فيها موميات الكهنة العظام الذين تعاقبوا ابناً عن اب على رياسة المدينة فهذه السلسلة يقتضي لها بضعة آلاف من القرون

عن أدنى ذوات الثدي المشيمية وأقلها ادراكاً الاَّ خطوة واحدة [١] » الى أن يقول ايضاً « كأن الطبيعة نفسها شعرت بما سيكون للانسان من العُجب بنفسهِ فأرادت ان تجعل عقل الانسان يتذكر عند انتصارهِ كما كان يذكّر العبيد في رومه الظافر « بأنهُ ليس الاَّ تراباً »

***

فلم يبق علينا الاَّ اعتراض واحد على مذهب الارتقاء اريد تفنيدهُ وهو وجود اصولٍ نابتة او واقفة . وقد تقدم في المقالة الاولى ان مثل هذه الصور الاولية الدنيا ما زال يتولد في جميع الادوار حتى وان لم يكن كذلك فوجودها لا يفيد شيئاً ضد الارتقاء عموماً وان افاد خصوصاً . لانهُ اذا لم تتغير هذه الصور الحقيرة لشدة بساطة تكوينها ولاستواء احوالها الخارجية البسيطة . فلا ينكر ان احياء اخرى اعلى تكويناً واكثر اختلافاً في احوال حياتها ترتقي على الدوام . ولا عجب في ذلك فان في التاريخ ايضاً شعوباً واقفين لم يتغيروا عن خشونتهم التي كانوا فيها منذ آلاف من السنين . فيوجد في اقاصي القارات الكبيرة كما في جزائر المناطق الحارة شعوب متوحشون قلما يفرقون عن الحيوان [٢] . وآخرون لا يزالون كما كان في اوروبا الانسان السابق العهد التاريخي. اي انهم يصنعون اسلحتهم من الحجر ويشتغلون الخشب والعظم لاحتياجات شتى . يعيشون ويموتون وهم واقفون عند حد واحد . وهذا يرينا انهُ لا يوجد في طبيعة الانسان ولا في الطبيعة الكبرى ميل غريزي للارتقاء بل هو نتيجة فعل بعض الاحوال الخارجية والداخلية

---

(١) ذوات الثدي المشيمية هي ما كان جنينهُ يغتذي بواسطة المشيمة تمييزاً لها عن الجرابية التي تحمل صغارها وترضعها في جراب موضوع تحت بطنها . وذوات الثدي المشيمية اعلى اصل ذوات الثدي الذي هو اعلى اصل ذوات الفقرات

(٢) روى الدكتور غليسبرج والعهدة عليهِ ان في بلاد الحبشة فرعاً من السود لهُ ذنب انما لم تقس سعة جمجمتهِ . ولهُ صوت كصوت الحيوان . صغير القد دقيق العضل لا نسبة بين بدنهِ واطرافهِ . فهو يشبه القرد ولا يفرق عنهُ الاَّ بالنطق والاسنان وتكوين الرجل

اعضاء خصوصية كان هذا الجسم أرقى . فان الحيوانات الدنيا ليس لها اعضاء خاصة بل جسمها يقضي كل وظائفها بتبادل بسيط بينهُ وبين ما يحيط بهِ . واما الحيوانات العليا فبالضد من ذلك لها عضوٌ خاص لكل وظيفة فالقلب للدورة . والرئتان للتنفس . والقناة الهضمية للهضم . والكليتان لافراز البول . والدماغ لوظائف العقل الخ . وهذا ما يجعل هذه الحيوانات راقية [1] ويجب الحذر من الوقوع في خطاء آخر ايضاً وهو ان الاصل الفقري الذي يكون الارتقاء فيهِ اظهر من الجميع لا يؤلف صفاً بسيطاً . بل يوجد فيهِ تحت صفوف كثيرة أيضاً يرى فيها بعض المجاميع اذ يبلغ نموهُ يفوق مجاميع أخرى مع انها مستعدة لنمو أعلى منهُ جداً . وهذا صحيح ولا سيما على مجموع لذوات الفقر العليا يهمنا جداً لان الانسان منهُ . اعني بهِ مجموع ذوات الاربع أيدي أو البريمات كما يقول لينوس وهكسلي . فهذا المجموع الذي يوجد الانسان في أعلاهُ والذي فيهِ عدة صور متوسطة ( مثال ذلك القرود الشبيهة بالانسان بجانب الانسان ) تمتدُّ أصوله بواسطة حيواناتهِ الدنيا ليس الى أعلا طبقات أصل ذوات الثدي المشيمية كما ربما يظن بل الى أدناها . فمع ان هذا المجموع عالٍ جداً بنفسهِ فهو يتاخم صفاً دنيئاً أيضاً . وهكسلي الذي يقسم البريمات الى سبعة تحت صفوف أو طوائف يصف ذلك جيداً اذ يقول :

« ليس في صفوف ذوات الثدي ما يتضمن فيهِ درجات كثيرة اكثر من صف البريمات . فانه يهبط فيهِ على نوع غير محسوس من أعلى الخلق الى مخلوقات لا تفصلها

(١) هكل يرى ان هذا التخصيص المتزايد في الاجسام الحية كما في امور الدنيا هو علة الارتقاء فالارتقاء ليس لهُ ناموس موضوع يدفع اليهِ بل هو نتيجة لازمة ضرورية للاعمال الميكانيكية والكيماوية ونتيجة هذه الاعمال الارتقاء غالباً . وقد تكون التقهقر احياناً . بحيث ان ناموس الارتقاء وناموس التباعد ليسا لفظتين مترادفتين لمعنى واحد ولا يصح القول بان الارتقاء ثابت وعام سواء كان في الطبيعة او في التاريخ الاَّ بالنظر الى الكل . واما في الجزء فقد يحصل تقهقر عظيم احياناً كثيرة . فلا يوجد على رأي هكل لا رسم ولا قصد في الارتقاء الحيوي

فلا شبهة في ان هذا النمو في الانواع سار سيرًا صاعدًا وكل صف ابتدأ بصور بسيطة أخذت تنمو بعد ذلك شيئًا فشيئًا كما يعلم من الاختبار في الماضي والحال . والاَّ لو كان مذهب الارتقاء غير صحيح لحصل ضد ذلك ان لم يكن في الكل ففي البعض

***

فبهذا التعليل البسيط يفهم لماذا هذه المناقضات الكثيرة وهذا الخروج عن القياس وهذا التقهقر أيضاً في البالنتولوجية من غير أن يكون في ذلك داعٍ الى انكار مذهب الارتقاء . اذ لا شبهة في ان الطوائف العليا من حيث ارتقاؤُهما الكلي جاءَت أخيرًا . وكلامنا في الكلي لا في الجزئي . وعليهِ فعالم الحيوان هو فوق عالم النبات الذي سبقهُ بوجهِ العموم والاصل الفقري أعلى من الاصل العديم الفقر المتكون قبلهُ . وما كان من الاصل الفقري اتم واكمل جاءَ بعد ما كان منهُ دونهُ . فجاءَت الحشرات بعد الاسماك. وذوات الثدي والطيور بعد الحشرات . والانسان بعد الطيور . وهكذا في كل صف من صفوف ذوات الفقر . ولا يعلم انهُ حصل عكس ذلك في الطبيعة البتة . ولئن كانت نواميس الارتقاء الجولوجي في الحيوانات العديمة الفقر غير واضحة وكان فيها عدم انتظام في التقدم والتأخر كثيرًا الاَّ أن الصور الابسط تتقدم دائمًا الصور الاكمل كما يتضح جليًّا من « السفالوبد » الذي هو أعلى صف الحيوانات الرخوة . واذا كانت صور الحيوانات الرخوة اكثر تنوعاً في متكونات الارض الاولى . فينبغي ان نعتبر ايضاً انهُ كلما كانت تلك الاصول الدنيا تنقص كانت الاصول العليا تزيد كذلك—وقد ذكروا ضد الارتقاء ايضاً ان بعض الانواع الاولى كليس البحر المار ذكرهُ ذو تكوين كثير الاختلاط جدًّا . على ان الاختلاط ليس بنفسهِ علامة على الارتقاء بل بالضد من ذلك المختلط يسبق البسيط غالباً . لان الطبيعة تحاول دائماً ان توزع الصفات المجتمعة في تكوين واحد اولاً وتفصل بينها على صور متميزة . وان تسهّل بهذه القسمة ارتقاء الصورة المتميزة ارتقاءً عظيماً . وهذا المبدأ في قسمة العمل جوهري في الطبيعة كما في حياة الانسان الاجتماعية والسياسية والصناعية . فكل فرد يكون اقدر على قضاء امر كلما كان تكوينهُ اكثر استعدادًا لهُ . وكلما تخصصت وظائف جسم اي كان لها

عالٍ في الاصل الفقري الاَّ انهُ ابتداء باصل ذي تكوين دنيء جدًّا بحيث كان يشتبه بالديدان أو بنوع من الحلزون لا صدف لهُ . مثال ذلك الامفيوكسوس والمكسين . فالامفيوكسوس الرمحي أو السمك الرمحي لا يزال موجودًا حتى اليوم في البحر الشمالي ويظهر ان أصلهُ من هذه الصور الاولى الدنيئة . وليس لهُ جمجمة ولا دماغ ولا قلب ولا دم أحمر . وتكوينهُ التشريحي يضعهُ تحت أكمل أصول الحيوانات الرخوة والمفصلة مع انها من صف أدنى جدًّا من صفّهِ أي من صف ذوات الفقر [١] . وفي وسعي ايراد كثير من هذه الامثلة التي يتضح منها ان الصفوف المختلفة لا تتصل بعضها ببعض رأسًا بل كل أصلٍ متى انفصل من المنبت الاول ينمو نموّهُ الخاص بهِ . والتي يتضح منها أيضًا ان بعض الاصول أصلح من بعض في قابليتهِ للارتقاء . والاصل الفقري هو في الواقع أصلحها من هذا القبيل ولذلك قد سبق باقي الصفوف جدًّا ولو انهُ ابتدأ كما قلت بصور أدنى جدًّا من أكمل صور هذه الصفوف

فلا نستغرب بعد ذلك اذا بلغ بعض الفروع او الطوائف نموًّا أكمل من نمو بعض الطوائف المعاصرة لهُ والاعلى منهُ . لانهُ أمرٌ واضح ان مجاميع الاجسام الحيَّة كالافراد لها دورة حياة معلومة . فاذا قطعتها فاما أن تقف عند النقطة التي وصلت اليها واما أن ترجع متقهقرة بينما يبقى غيرها متقدمًا حتى يبلغ درجة أعلى منها سواءٌ نشأ معها أو نشأ بعدها بزمان طويل . كالشجرة التي تيبس فروعها السفلى أو تبقى على حالة واحدة حال كون أغصانها العليا تمتد وتفرخ وتكبر يومًا عن يوم. قال توطل « ان الاغصان تبقى ما دامت قادرة أن تنمو فاذا وقف نموها ضعفت وتلاشت مع الزمان » [٢]

(١) السمك الرمحي شبيه بورقة رمحية الشكل . وهو دقيق لا لون لهُ او هو ذو لون ضارب الى الحمرة شفاف . وطولهُ نحو قيراطين . ويعرف انهُ فقري من حبلهِ الشوكي ومن الشريطة الغضروفية الموجودة تحتهُ ولا شك ان هـذا الحيوان آخر حيٍّ من صف دون لذوات الفقر كان ناميًا كثيرًا في احد الادوار الجولوجية ( قبل عهد السيلور ) . وانما لم يبقَ منهُ آثار احفورية لعدم وجود عظام فيهِ

(٢) ان دوام النوع هو بالنسبة الى انتشاره الجغرافي والنوع على موجب ناموس النمو العددي الذي اثبتهُ درشياك نظريًا ينشأ ويتكاثر حتى يبلغ عددًا معلومًا فياخذ بالتقهقر وينقرض ويجب اعتبار هذين الناموسين في مذهب دارون

وفي هذا الاعتراض خطاءٌ آخر أيضاً فان الصفوف الاربعة او الخمسة الكبرى لعالم الحيوان لم تنشأ بعضها من بعض. ولم ينشأ أدناها من عالم النبات كما يفهم منهُ بل تكونت بعضها بجانب بعض كاغصان الشجرة. فالمشععة ليست اصلاً للرخوة. ولا الرخوة اصلاً للمفصلة. ولا المفصلة اصلاً لذوات الفقر. ولا النبات اصلاً للحيوان. بل كل من ذلك تكون بعضهُ بجانب بعض من عناصر واحدة. وربما ارتسمت صور الفروع الفقرية الاصلية منذ الاول. وبعد ان تكونت اخذ كل واحد منها ينمو على حدته بدون ان يكون بينها صلة الاَّ ما كان في اول الامر. وكلما خطت خطوة ابتعدت بعضها عن بعض كذلك (١)

على ان ذوات الفقر لم تكن موجودة في الادوار القديمة جدًّا. لان رسومها او اشكالها الاولى غير موجودة في الطبقات السفلى المعتبرة اقدم المتكونات الارضية. فالقول ان الفروع الكبرى لعالم الحيوان موجودة في الطبقات السيلورية خطاءٌ. وليل الذي يعتمد عليهِ في هذه المادة يتفق مع باقي المؤلفين وهو يقول ما نصهُ «كان يظن قبل سنة ١٨٣٨ ان اصل السمك الاحفوري لا يتجاوز طبقات الفحم الحجري. على انهُ قد وجد في الطبقات الدفونية حتى في السيلورية ايضاً في طبقاتها العليا لا في طبقاتها السفلى حيث لا يوجد لهُ اثر. ولا في المنطقة «لبرند» الاولية الاقدم منها ويستنتج من ذلك ان الاصل الفقري لم يكن موجوداً او كان نادرًا جدًّا في اقدم الطبقات المعروفة التي اعتبرت خطاءً انها اول الطبقات مع انها آخر سلسلة طويلة من الطبقات التي كانت مأهولة بالاحياءِ

واعلم ان أقدم السمك المعروف هو من أدنى السمك أي من السمك الغضروفي. ولا يظهر السمك العظمي الحقيقي الاَّ بعدهُ بزمان طويل. ولئن كان السمك ذا مقام

(١) رسم الاستاذ هكل شجرة فروع العالمين في ثمانية مواضيع فكل شجرة تخرج من اصلها ثلاثة فروع اصلية. فرع لعالم الحيوان. وفرع لعالم النبات وفرع لما بينهما اي العالم البروتيست. ثم ان فرع الحيوان يتفرع الى كولنتار. واكينودرم. ومفصلة. ورخوة. وفقرية. وفرع الفقرية يتفرع الى سمك. ونصف مائية. وحشرات. وطيور. وذوات ثدي اعظمها الانسان

فالحياة لم تبتدئ حيث توجد الآثار العضوية بكثرة فقط . ولا بد ان يكون قد مضى عليها آلاف من القرون قبل ان امكنها ترك آثارها في قلب الحجار . فالمتكونات الحيوانية الاولى لا تقع اذاً تحت المشاهدة . والحجارة التي اعتبروها حتى اليوم كأنها اول المتكونات الجيولوجية والتي ليس فيها اثر او فيها آثار مشتبهة للحياة لا بد ان مضى عليها زمان طويل حتى تكونت نظرًا لعظم سماكتها . فاذا لم نجد آثار الاحياء الاولى بكثرة فلعدم حفظها لصغرها ولقلة متانتها ولنقص تكوينها من جهة ولشدة تغير الحجار القديمة جدًّا في جوف الارض من جهة اخرى . وكما تقدم يجب ان ننتظر العثور على حجار أقدم فأقدم يوماً عن يوم كما يدل على ذلك اكتشاف الطبقة اللورنسية الحديث

***

وهكل يقول ان الطبقات النبتونية او السيلورية التي اعتبرت خطاء حتى اليوم اقدم الطبقات . والتي يوجد فيها آثار حيوانات نامية جدًّا ومتميزة كذلك هي حديثة العهد بالنسبة الى غيرها . ويظن ان الزمان الذي اقتضاهُ تكون الطبقات السابقة في الجولوجية العضوية أطول جدًّا منهُ في اللاحقة . كما يستدل من عظم سماكة النظامين الكمبري واللورنسي . وهذه الاعتبارات تضعف ايضاً قيمة الاعتراض المأخوذ من وجود آثار الاربعة او الخمسة صفوف الحيوانية معاً في اعمق طبقات الارض لانهُ لما كنا لا نعرف او نعرف ولكن معرفة ناقصة أقدم الطبقات حقيقة ولا نعرف الاحياء التي تتضمنها لم يكن يجوز لنا ان نستنتج من طبيعة ما نجدهُ في الطبقات المتكونة حديثاً بالنسبة الى سواها ان التقدم غير حاصل بل بالضد من ذلك ينبغي ان نسلم بان الحياة موجودة منذ ملايين من السنين قبل تكون هذه الطبقات أي منذ الزمان اللازم لبلوغ الحياة مبلغ الحيوان العالي في الارتقاء البطيء

---

وهذه المتكونات اللورنسية التي توجد في بافيارا و بوهيميا هي اقدم ما يعلم من الطبقات المحتوية على آثار عضوية وتحت الرواسب المحتوية على آثار عضوية معلومة تمتد على سمك عظيم المتكونات البلورية للتحول الشمسي لاقدم الرواسب ٠ والآثار العضوية التي كانت فيها تكاد لا تعرف بسبب التغير الشديد ٠

او من اصل واحد ثم انبثت متشعبة الى ما يفوق حد الحصر عدًّا واختلافًا . وقبل بسط هذه القضية المهمة لا بد من تفنيد الاعتراضات المعترض بها على مذهب الارتقاء واحدًا واحدًا فاقول

ان الحجة التي يستند اليها اوطو فولجر اي وجود صور ذات تكوين عال في الطبقات القديمة جدًّا للارض حيث لم يكن يظن — على فرض صحتها — لا تنقض مذهب الارتقاء وانما تبعد اصل الحياة ومتفرعاتها الى ازمنة ابعد وادوار جولوجية اقدم ومن المسلم به ان الحي كلما كان ارقى كان زمان تكوينه اطول . ولا صعوبة في قبول ذلك اذ ان الزمان لا ينقص الجولوجية . فلا ينبغي ان نتوهم اننا نعرف اقدم طبقات الارض . كلاَّ بل يجب ان ننتظر اكتشاف طبقات اقدم فاقدم يومًا فيومًا . و بقطع النظر عن النظام الكمبري [1] السابق الطبقات السيلوريَّة [2] السميك جدًّا والذي لزم لتكونه ملايين من السنين والذي ليس للحياة فيه الاَّ آثار مشتبه فيها — قد اكتشفوا حديثًا في اميريكا كما مر في مقالتي السابقة في الكلام على « الايوزون كنادنس» عدة طبقات بلورية سموها الطبقة اللورنسية . وهذه الصخور اسبق من اقدم الطبقات الاوروباوية التي تسرعوا في اعتبارها الأولى . وقد وجدوا فيها بقايا حيوان اسمهُ « الايوزون كنادنس » قال السير شارل ليل في خطاب التاه في افتتاح مجمع الطبيعيين الانكليز في باث سنة ١٨٦٤ ما نصهُ : انهُ يحق لنا الظن بان هذه الحجار الموجود فيها هذه الآثار الحيوانية هي من عمر طبقات اوروبا المسماة عديمة الحيوان ان لم تكن اقدم منها اي انها تقدمت الطبقات التي كانوا يعتبرونها سابقة كل حياة [3]

(١) يراد بهِ اقدم الطبقات الارضية التي اكتشفت فيها آثار الحياة

(٢) و بالاراضي السيلورية اقدم طبقات الحياة الحيوانية وهي فوق الطبقات الكمبرية

(٣) قال الاستاذ قطه في الجولوجية ما معناهُ ان السر لوجان اكتشف في كنادا طبقات يوجد فيها الايوزون كنادنس . وهي تحت اسفل حجارها السيلورية بنحو ١٨٠٠٠ قدم . وهي بلورية في بعضها . وقد قسموها الى لورنسية عليا وسمكها نحو ١٠٠٠٠ قدم . ولورنسية سفلى سمكها ٢٠٠٠٠ قدم . وهي مؤلفة (من الغنيس نوع من الحجر) والكوارتز ومجمعات كلسية حبيبية والايوزون يوجد في الطبقات الكلسية البلورية . واما الطبقات التي سمكها نحو ١٨٠٠٠ قدم والممتدة بين الطبقة السيلورية والطبقة اللورنسية والتي تقابل النظام الكمبري تقريبًا فتسمى في اميريكا بالحجار الهيرونية

البحر بدون ان تترك لوجودها اثرًا الاَّ مكانًا فارغًا تملأهُ موجة جديدة تنسحب ثم يأتي غيرها وهكذا الى ما لا نهاية لهُ (١)

على ان ما نعلمهُ يجعلنا نجزم بان القول بسكون أبدي او بحركة دائمة لا تقدم فيها خطأ واي خطاءٍ فان الاشياء في الطبيعة والتاريخ تدلنا بالضد من ذلك على تقدم دائم ولو بطيء . ولايراد من هذا القول ان الاعتراضات المذكورة غير صحيحة او لا قيمة لها . كلاَّ وانما تدل على ان الاشياء ليست بسيطة كما كان يظن وكما لا يزال يظن ايضاً كثيرون . فقد كن الاعتقاد زمانًا طويلاً ان جميع الاجسام الحية تؤلف من اعلى الى ادنى سلسلة بسيطة منتظمة . وانهُ لم يكن للنمو في المـاضي والحاضر الاَّ سيرٌ صاعد . وهذه السلسلة التي اخرها الانسان لا بد ان كان اولها في ذي الكرية الواحدة او الاسفنج او بعض الصور النباتية الدنيئة جدًّا . وعليهِ فالنباتات لاعتبارها ادنى الاحياء وجدت اولاً ثم الحيوانات الدنيا التي خرجت منها الحيوانات المشععة والرخوة . ثم المفصلة الناشئة من الرخوة . ثم الاسماك من المفصلة . فالحشرات من الاسماك . ثم ذوات الثدي والطيور من الحشرات . ثم الانسان واعتقدوا كذلك ان مثل هذا الترتيب كائن في نفس الصف وان كل صورة ناشئة من صورة ادنى منها فهذا المذهب قد انتقض اليوم اذ لا يتفق مع سائر الاشياء ولا سيما مع تحوُّل طائفة كبيرة الى اخرى

***

فسير النمو العضوي والارتقاء المتعلق بهِ هو غير ذلك واكثر اختلاطًا ايضاً . فهو ليس سلسلة واحدة فقط بل سلاسل كثيرة متوازية نشأت في الاصل من اصول واحدة

(١) بخنر مع انهُ من غلاة الماديين المعاصرين لم يستطع في هذا القول ان يخرج من مفعول تربية الاحلام الخيالية التي مرت عليهِ في الاجيال واستعمال معانيها . لان كلامهُ هذا شعري لا معنى لهُ اذا نظرنا من خلالهِ الى مصير الوجود الكلي والجزئي لان المعاد هنا لا يهم الفرد حقيقة . ولو قال ان هذا القول لو صحَّ لانتفت غاية العلم وهي الوقوف على اسرار الارتقاء الطبيعية واستخدام الانسان لها في كل اموره المعاشية والاجتماعية واوقف بهِ عن كل سعي لاصلاح حال لا تصلح هي نفسها . مع ان الحقيقة هي غير ذلك ولو قال هذا القول لكان كلامهُ انصع بيانًا واقوى حجة واثبت حقيقة و بالواقع هو لا يريد بهِ سواهُ ولكنهُ استهوتهُ المعاني الشعرية والفاظها الفارغة

« ثم بعد خمسمائة سنة مررت ثالثة بنفس المكان فوجدت بحراً متلاطم الامواج وعلى شاطئهِ صياد يلقي شبكتهُ فسألتهُ وكان قد وقف ليستريح من عهد كم البحر هنا فقال وقد ضحك من سؤالي «من عهد وجود الامواج المزبدة اصطاد الناس ويصطادون في هذا المرفأ »

« ثم بعد خمسمائة سنة مررت رابعة بالمكان عينهِ فوجدت غابة ورجلاً يقطع شجرة فيها فسألتهُ عن عمر هذه الغابة فقال « الغابة مسكن ازلي ومنذ زمان اقطن فيها وهذه الاشجار ستنبت هنا الى الابد »

ثم بعد خمسمائة سنة مررت خامسة بهذا المكان فوجدت مدينة زاهرة تتزاحم فيها الاقدام فسألت عن عهد بنائها واين الغابة والبحر وقصبة الراعي فقيل لي ولم يعبأ بقولي « الحال هنا لم تتغير منذ القديم وستبقى كذلك الى الابد »

« وسأجد نفس الشيء بعد خمسمائة سنة ايضاً »

فتاريخ الارض وتاريخ الانسان على مذهب الذين ينكرون الارتقاء معبر عنهما بتصور هذا الشاعر . وهذا التصور يوافق ايضاً اصحاب الارتقاء اذ يريهم اعظم التغيرات يتعاقب في الطبيعة وفي تاريخ الانسان الاَّ ان الازمنة التي يقتضيها ذلك لا يدركها الانسان الذي يرى ان كل شيء حولهُ ساكن ولا يدركها الاَّ من اعطي لهُ علم كل شيء . واله هذا الشاعر حقيقة هو العلم الذي لا يقتصر نظرهُ على الحاضر القصير بل يمتد الى ما وراء ذلك . وما يؤاخذ بهِ على الشاعر روكرت علميًّا انما هو قصر الزمان الذي اعتمد عليهِ في ادوار سياحة سائحهِ فلو قال خمسة آلاف سنة عوضاً عن خمسمائة لكان اقرب الى الحقيقة ولزاد شعرهُ رونقاً ايضاً

***

فلو صح ذلك وصحت الاعتراضات على الارتقاء لكنا في اسواء الحالات التي كشفها لنا العلم واضعفها للعزيمة اذ يكون وجودنا ووجود الشعوب والامم والحياة في عموم الطبيعة منذ ملايين من السنين عبارة عن عود الاشياء على نفسها لابدأة ولا آخر ولا غاية ولا تكميل فتظهر الافراد والشعوب والامم والنظامات وتختفي كامواج

لم يفد بعد اكثر من الف سنة الاَّ لتنصيب القوة الوحشية والقساوة البربرية على تخت اعظم الامم تمدناً [١]

فمجرى الاشياء اذاً واحد في التاريخ والطبيعة أي انهُ يحصل تغير دائم في الزمان والمكان والبشر فيحصل تعاقب دائم بين التقدم والتأخر والعمار والخراب والنمو والوقوف والولادة والموت . واما الارتقاء الدائم فيعد من الاماني التي لا تنال بل كل شيء يتحرك في دائرة مصمتة اشبه بالحية الرمزية التي تعض ذنبها . او ان الاشياء تجري كما في مرسح تتغير فيهِ المناظر والاشخاص على الدوامِ حيث يظهر ان كل شيء يتحرك بنشاط مع انهُ لا يزال في مكانهِ

***

وقد اشار أحد شعراء الالمان روكرت الى مشهد هذا التغير في التاريخ بقصيدة غناء جعل موضوعها سياحة أحد أشخاص ميتولوجية الفرس واسمهُ الخضر [٣] في العالم وهو نبي لا يزال حيًّا ولا يفارقهُ الشباب وقد التزمنا تعريبها بحسب ترتيبها قال

قال الخضر الشباب الازلي مررت ذات يوم باحدى المدن فرأيت رجلاً يقطف اثمارًا من بستان فسألتهُ عن عمر المدينة فقال وقد رجع الى عملهِ « المدينة موجودة منذ الازل وستبقى الى الابد »

« ثم بعد خمسمائة سنة مررت ثانية بالمكان عينهِ فلم اجد للمدينة اثرًا بل وجدت راعيًا منفردًا يعزف على مزمارهِ والقطيع يرعى النبات والشجر فسألتـهُ من عهد كم اختفت المدينة فقال وقد عاد الى النفخ في قصبتهِ « هذا ينبت متى يبس ذاك وهذا المكان مرعى منذ القديم »

(١) ان اشد نتائج هـذه الحال الاستبداد وحشد الجنود . والامم الذين يسطو ذلك عليهم لا تفقد ثروتهم فقط بل هم في خطر من زوال كل مزية عقلية وادبية منهم ايضاً

(٢) الخضر اسم نبيّ شرب من عين ماء الحياة الدائمة وقد لا يفرقون بينهُ و بين ايليا النبيّ . وعلى ما يتحصل من رواية العرب ان الخضر قائد لاحد ملوك الفرس الاقدمين خريجو باد شرب من عين ماء الحياة وصار خالدًا . وبحث الاسكندر عن هذه العين في القوقاس فلم يجدها

ومن الامثلة الدالة على تقهقر بعض الصفوف يذكرون الحيّات مثالاً لصف الحشرات . والطيور الكبيرة والاوز الدهني بسبب ضمار جناحيه مثالاً لصف الطيور ثم الحيتان لصف ذوات الثدي الخ

***

ويدفعون الارتقاء في التاريخ بنفس الحجج ايضاً قالوا

اولاً ان بعض الشعوب لا يزالون حتى الآن كما كانوا في الاصل أي لايزالون على عادات الانسان السابق العهد التاريخي المعاصر للمموث ولدب الكهوف وللايل العظيم ولوحيد القرن الاول .ومنهم حتى يحارب حتى اليوم باسلحة من الحجر ولهُ آلات مصطنعة من الحجر . ويسكن اكواخاً من ورق الشجر او ما شاكل . ويعيش كالحيوان وهو واقف لا يتقدم لا جسديًّا ولا عقليًّا

ثانياً ان بعض الشعوب يقف بعد ان يبلغ درجة معلومة من التمدن ساكناً زماناً طويلاً ربما كان الف سنة مثال ذلك الصينيون

ثالثاً واخيراً ان بعض الشعوب بعد ان بلغ ذرى المجد والتمدن انحطّ الى حضيض الجهل والغباوة : قابل العصور القديمة الزاهية لليونان والرومان بما عقبها من العصور التي انحطت فيها العلوم والصنائع عندهم . وقابل عصر بريكلس بالعصور المظلمة بعدهُ . وافتكر بما كانت عليهِ بلاد مصر والعجم والهند واسيا الوسطى وافريقيا الرومانية واليونان وايطاليا واسبانيا ومكسيكا الخ وبابل ونينوى واكبتان وبرسبوليس ورومة وغيرها . ثم افتكر بما لحق بها من السقوط . واعلم ان الاكتشافات الجديدة ترينا التمدن في الماضي أبعد فأبعد يوماً عن يوم كما في بلاد مصر

ولقد تقهقرنا كذلك في امور عديدة عقليًّا وادبيًّا . قابل سياسة اليونان والرومان الناضجة المستقلة بسياستنا العجراء المذبذبة. والفلسفة الحرة قبل عهد المسيح بما آلت اليهِ بعدهُ اذ صارت خادمة لعلم اللاهوت . او قابل كذلك الفضائل النبيلة للجمهوريات القديمة بحب الملاذ الدنيئة والاميال الذاتية وحب المكسب حلالاً كان ام حراماً التي هي صفات بالغة في هيئتنا السياسية والاجتماعية.واعتبر ايضاً ان ارتقاء ما نسميهِ الحق

بالغاً من التكوين درجة عالية . فان أقدم النباتات البحرية المعروفة يعادل اليوم اعلى صور طائفتها الدنيئة جداً في سلم الاحياء كما لا يخفى

ثالثاً اننا نجد في الطبقات الحديثة اجناساً او انواعاً ادنى منها في الماضي وبعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جداً . وبعض الاكينيودرم والحيوانات المشععة على قول اجاسيز ذو تكوين اعلى منهُ في الرخوة او المفصلة وربما في بعض ذوات الفقر ايضاً . ويوجد ايضاً في طائفة الحيوانات المفصلة ذباب يصعب اظهار ارتفاعهِ على القشرية وان كانت ادنى منهُ جداً في سلم الاحياء . وبعض الديدان قد يكون اعلى من بعض القشرية . وبعض عديمات الرأس قد يكون احسن تكويناً من بعض البطنية الارجل او الحلزون الخ

رابعاً واخيراً ان كثيراً من الاجناس والطوائف كان في الايام الاولى اكمل منهُ اليوم فلو كان الارتقاء يحصل دائماً وابداً لما كان فيهِ ذلك . والحيوانات الرخوة كالسفالوبود (١) والبراشيوبود (٢) كانت في الدور الاول بالغة في النمو ومتنوعة جداً في الصور خلافاً لليوم فانهُ لم يبق من هاتين الطائفتين الا الشيء القليل المعروف . ويلتقى ايضاً في هذه الادوار القديمة صور نامية جداً وبالغة في التكوين مثل (ليس) البحر الموجود في المتكونات الاولية والثلاثية للارض فان صدفتهُ مؤلفة من ثلاثين الف قطعة متميزة موضوعة احسن وضع لموافقة سائر احتياجاتهِ . وليس ذلك خاصاً بالحيوانات الرخوة بل يوجد في سائر طوائف الحيوان . فان تكوين بعض حشرات الدور الثاني اكمل منهُ في امثالها اليوم كالتمساح مثلاً وكان للحشرات انواع تفوق حد الحصر وبعضها كان يبلغ كبراً هائلاً . ولم تقل الاَّ بعد حين لمنازعة ما كان من ذوات الفقرات اكمل منها لها وكانت الطيور وذوات الثدي في الدور الثلاثي تبلغ نمواً كبيراً جداً هي في الحاضر دونهُ . وقد ذكرت في ما تقدم تقهقر بعض الانواع كالديدان البطنية والحيوانات الحلمية الخ

---

(١) الرأسية الارجل
(٢) الذراعية الارجل

وجود طوائف في الادوار الاولى تكونت قبل طوائف ادنى منها . وكما انهُ يحصل تقدم في بعض الاحوال يحصل تأخر كذلك في البعض الآخر . ويظهر ان الصور العليا تتعاقب مع الصور الدنيا غالبًا بدون ناموس ظاهر . فيحصل تجدد دائم في الصور كما يقول فوجلر . لا يعلم ناموسهُ ولا يوجد ناموس عام للارتقاء ففوجلر يسلم بالتحول في اهم معانيهِ ولكنهُ لا يسلم بالارتقاء

***

وقد ذكر الدكتور « موهر » في كتابهِ « تاريخ الارض » ( سنة ١٨٦٦ ) ما يشبه ذلك . قال ان التميز الذى يميزون بهِ تاريخ الادوار الارضية المختلفة بحسب نظامها مغلوط وان الارتقاء والتقهقر في عالم الاحياء وان كانا يحصلان في الجزء قبل ملاشاتهِ الاَّ انهما متعادلان في الكل فالارتقاء الدائم الى ما لا نهاية لهُ حلم جميل وهكذا يقال عن التاريخ ايضًا على رأيهِ ورأي باقي خصوم الارتقاء والبراهين التي يستندون اليها واحدة في التاريخ والطبيعة

والبراهين المأخوذة من الطبيعة هي :

اولاً ان الاحياء والحيوانات البحرية الاولى الدنيا (١) هي اليوم كما كانت في ابتداء العالم فاين الارتقاء هنا ؟ (٢) ثانيًا ان طوائف الاحياء الاربع او الخمس الكبرى اي النباتات والحيوانات الاولى والمشععة والرخوة والمفصلة حتى ذوات الفقرات توجد منها آثار مجتمعة او متجاورة في اسفل طبقات الارض فلو كان مذهب الارتقاء صحيحًا لاقتضى ان يكون الاعلى منها بعد الادنى فتكون النباتات اولاً ثم الحيوانات الاولى ثم وثم الى الحيوانات الفقرية التي يقتضي ان تكون في الآخر . وقد يكون اقدم الصور

(١) كالريزوبود والنقاعيات والفورامينيفارا ( المثقبة او ذات العيون ) والاسفنج والطحالب الخ

(٢) ان اقدم انواع البراشيبود المعروف يعادل الانواع الحاضرة بكل الصفات الجوهرية والفرق انهُ كان في الماضي اكثر عددًا منهُ في الحاضر واكثر اختلافًا في الصور . ويزعم هكسلي ان مثل هذا الوقوف عرض ايضًا للاسماك في بعض الادوار الجيولوجية مع تغير كل شيء حولهُ . واقدم حيوان معروف من الحيوانات الرخوة هو البراشيبود لينكولا وهو نوع من الصدف يوجد في سائر طبقات الارض ويوجد حيًا اليوم ولكن بدون ان تخرج منهُ فروع

فالعلماء ولا سيما علماء الانكليز الذين بحثوا كثيرًا في هذه المسألة منقسمون الى قسمين اصحاب مذهب التحول واصحاب مذهب الارتقاء . فمن القسم الاول من ينكر الارتقاء ومن القسم الثاني من ينكر التحول ومثل هذا الاختلاف حصل بين العلماء في المانيا ايضاً وقد اشتدَّ بينهم الخصام ولا سيما على مذهب جيولوجي وضعهُ اولاً الاستاذ بيشوف من ( بون ) فاصحاب هذا المذهب ينكرون كل ارتقاء في العالم العضوي ولا يستغربون وجود آثار بشرية في الصخور السيلورية والدفونية أي في باطن الطبقات المشهورة انها اقدم المتكونات الارضية وذلك موافق لرأيهم في تكوين الارض اذ يعتقدون ان الارض لم تتغير في احوالها منذ الازل فلم تتغير في موجوداتها وكل دور من ادوارها عود على بدء — على ان الجيولوجيا لاتستطيع فصل المسألة وحدها بل يلزم في ذلك اعتبار البالنتولوجيا والتشريح والفيزيولوجيا والامبريولوجيا ايضاً فلا يصح الحكم الاَّ بعد اتفاق سائر هذه العلوم —

***

ومن زعماء هذا الرأي اطوفولجر ظهر اولاً بكتاب سماهُ « الارض والازل » ( سنة ١٨٥٧ ) ثم برسالة تلاها على مجمع الطبيعيين في ستيبين سنة ١٨٦٣ فهو يرى ان المذهب القديم المعول عليهِ حتى اليوم اي « العالم الاول للاسماك » و « العالم الثاني للجرذان » و « العالم الثالث لذوات الثدي والطيور » و « العالم الرابع للانسان » تنقضهُ الاكتشافات الحديثة . وان اصل طوائف الحيوان المختلفة ابعد كثيرًا مما يظن فانهُ تعلم الآن ذوات ثدي وطيور من الدور الثاني . وجرذان من الطبقة الكلسية الصدفية حتى في الشيست [1] النحاسي وفي أنتراسيت [2] الدور الاول ايضاً الخ . ولا يزال يوجد اليوم صور متوسطة غير الاحفورية مثل الخفاش فانهُ بين ذوات الثدي والطيور . ومثل طوائف الحيتان فانها بين ذوات الثدي والسمك الخ . ويوجد اليوم ايضاً احياء او طبائع مركبة تعتبر اصولاً خاصة بالادوار الاولى تنحل بالنمو . ولا يندر

(١) طبقة معدنية ذات صفائح اشبه بلوح الحجر

(٢) نوع من فحم الحجر

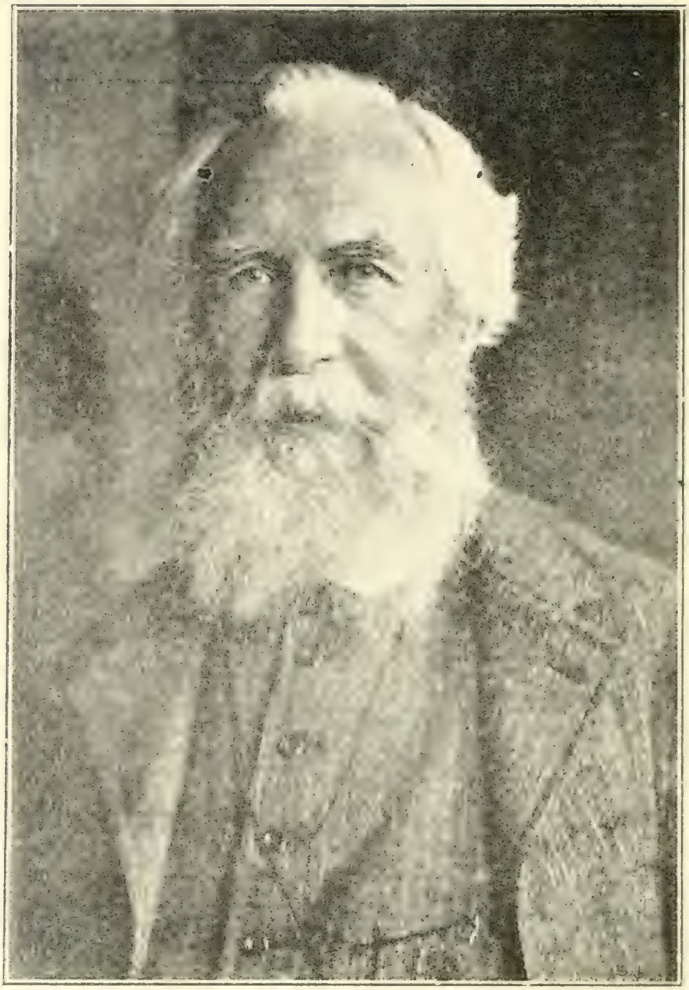
# المقالة الرابعة



نفحص في هذه المقالة مذهب دارون بالنظر الى مذهب التقدم ونواميسه في الطبيعة والتاريخ

تقدم في ما مرّ ان الارتقاء في التحول نتيجة غالبة لا لازمة . وقد ذكرت شاهداً على ذلك الاصول الباقية على حالها للحيوانات البحرية الدنيا فانها لم تستفد شيئاً بالانتخاب الطبيعي او استفادت شيئاً لا يذكر لشدة بساطة تركيبها ولاستواء احوال الاشياء التي من خارج المحيطة بها . وذكرت ايضاً بعض امثلة تدل على تقهقر بعض الاحياء وقلت ان الانتخاب الطبيعي قد تكون نتيجتهُ في بعض الاحوال تقهقراً لا تقدماً . وفي وسعي ان اضيف الى ذلك ايضاً بعض طوائف من الحيوانات الدنيا خاصة كانت في الاصل اعلى تركيباً واكثر اختلافاً منها اليوم

فبناءً على ذلك وعلى امور اخرى قد انكر بعض العلماء الارتقاء في الاحياء ومنهم قوم من مذهب دارون . ووليل مع كونهِ من مذهب الارتقاء مرتاب في مسائل كثيرة وخصومهُ مع اضطرارهم للاقرار بارتقاء بعض الطوائف والاجناس يزعمون ان ذلك لا يدل دلالة صريحة على ان الارتقاء مطَّرد في سائر الاحوال



ارنست هیکل

فانا من هذا الرأي واختم مقالتي بكلام استعرتهُ من كتاب تاريخ الرأي المادي للفاضل لانج حيث قال :

« لا يليق بالفيلسوف ان يحمر خجلاً كما فعل بلينوس من حقارة اصلنا لان ما يظهر لنا انهُ حقير هو بالحقيقة اجل شيء وقد صرفت الطبيعة فيهِ اعظم صناعة حتى لو كان الانسان من اصل ادنى ايضاً لما اقتضى ان ينحطّ عن كونهِ اشرف الكائنات » (١)

(١) كأنّ الانسان في بحثهِ عن اصل الانسان لا يتوخى الحقيقة العلمية بل ان يثبت شرف الانسان فقط ولو تدبر ان هذا الشرف انما يكون بالارتقاء لما فاخر بعظاميّ بال ولفضل عليه العصاميّ الغضّ ولاستمسك اذًا بالطارف المتكامل لا بالتليد المنحطّ

فيهِ شيءٌ من المذهب الذي تكلمنا عنهُ في ما مرَّ اي مذهب التكوين الكثير الطبائع للاستاذ كوليكر

فمن اراد تصديق هذا الرأي فهو مخير . واما انا فلا اراهُ ضرورياً بل الارتقاء البطيء كافٍ للتعليل عن كل امر . والنوابغ لا يسقطون من السماء كما يظهر من كلام ليل. بل هم نتيجة فعل النواميس الطبيعيـة المحدودة الاموال المناسبة كطبيعة الوالدين وامتزاج صفاتهما المتضادة امتزاجاً حسناً . واضف الى ذلك التربية والاسرة والمكان والزمان وغير ذلك من الشروط التي لا تنبغ النوابغ بدونها وما عدا ذلك ففي الطبيعة ناموس عام هو ان صغار الحيوانات والقرود والبشر الذين هم من ادنى جنسهم يتشابهون اكثر من البالغين في تكوين الجمجمة وقابلية العقل . فان صغار القرود خاصة يشبهون جداً الاطفال باستدارة جمجمتهم ولا تتميز فيهم صفات القرد الاَّ مع السن فتبدو الانخفاضات والبروزات والشكل الزاوي وبروز الوجه عن الجمجمة . وكذلك يحصل في الاخلاق فتزداد القرود شراسة وقساوة ولا تذعن للتربية كلما طعنت في السن .وهكذا ايضاً في اولاد السود كما يعلم من روايات يوثق بها فانهـم يظهرون في المدارس ذكاءً وقابلية للتهذيب لا مزيد عليهما . فاذا بلغوا اشدهم تخلقوا باخلاقهم الوحشية وخسروا كلما اكتسبوهُ بالتعليم كأَن لم يكن شيءٌ من ذلك. فمثل هذه الشواهد يعلمنا انهُ يوجد في سن الصبوة استعداد خصوصي لقبول الارتقاء فاذا وافقت الاحوال الخارجيـة فربما شب اصل من الاصول لما فيهِ من القابلية وهو صغير فبلغ ارتقاء عالياً حسيًّا ومعنويًّا

* * *

فما هي الآن نتيجة اطلاق مذهب التحوُّل على الانسان هل هي جيدة ام ردية معظّمة ام محقَّرة مكروهة ام مقبولة وهل اصاب — ولفجان منزل — في تنديدهِ بي حيث صرخ متكرهاً « الانسان ابن قرد . آلة مصنوعة للبهيمية » او يجب اتباع رأي هكسلي الذي يقول انهُ عوضاً عن ان نرى في انحطاط اصل الانسان عاراً وسبباً للقنوط ينبغي علينا باعتبار اصلنا وما وصلنا اليهِ بالتربية ان نزداد رغبةً ونشاطـاً لبلوغ غاية اعظم فاعظم واعلى فاعلى دائماً

فربما لا يحرم العلم من هذه الاكتشافات. وانا من رأي جورج بوشه في هذا المعنى حيث يقول من رسالة في الانثروبولوجية ما نصه :

« ان البالنتولوجية البشرية ربما تظهر لنا يوماً من الايام اجساماً حيَّة نحتار فيها أبشرٌ هي ام قرود بشرية »

وهو يقول ايضاً من كتاب في كثرة الفروع البشرية ( سنة ١٨٦٤ ) من فصل منهُ ما نصه :

« من يقول اننا لا نجد غداً جمجمة قد نضطر لوضعها بين القرد الشبيه بالانسان والانسان »

وانهُ لامر مقرر في سائر الاحوال ان ما اكتشفهُ وحصلهُ العلم مهما كان قليلاً وناقصاً فجميعهُ يشير الى معنىً واحد اي الى رباط شديد يربط الانسان بالحيوان . واذا كان غير ذلك فلماذا لم نجد امراً واحداً يدل على الضد منهُ او شيئاً يدل على الفردوس او على صورة بشرية اكمل من الصورة الحاضرة من الصور الكاملة التي خلقها الله والتي نحن اولاد لها ولحق بهم النقص بسبب الخطية . فالجواب لان ذلك امر مستحيل اذ لا يمكن ان يكون شيء يضاد وحدة الطبيعة قال بوشه « الطبيعة واحدة وسعي العلوم الحديثة انما هو للوصول الى هذه الوحدة »

***

واذ تقرر ذلك لم يبق علينا الاَّ ان نعرف كيف تخلص عقل الانسان وصورتهُ من عقل الحيوان وصورتهِ وبأي الطرق

ليس لنا من المواد ما يكفي للجواب على هذه المسألة جواباً صريحاً اكيداً . الاَّ انهُ يمكن توضيح بعضها والبحث في هل حصل ذلك فجأة أو رويداً رويداً فليل الذي بحث فيها في كتابهِ — قدم الجنس البشري — يزعم انهذا الارتقاء حصل للانسان فجأة مستنداً فيهِ الى النوابغ الذين نبغوا في التاريخ بدون ان يكون في اجدادهم شيء من الذكاء يدل على مجيبهم . فربما حصل هكذا في بعض الافراد او الاصول الحيوانية فثبتت فيهِ بعض الصفات البشرية فنشأ عنهُ فرع اقرب الى الانسان وهذا الزعم

واسنانهُ اكثر شبهاً بأسنان الانسان من الشمبانزي اي كان اقرب الى الانسان من سائر القرود الحاضرة الشبيهة بالانسان

فاذا كان مثل ذلك وجد في اوروبا حيث كان الامل بهِ قليلاً جدًّا فكم يجب ان يكون كثيرًا في الجهات الاستوائية التي هي موطن القرود الكبيرة . ولا سيما في طبقات البليوسن والبليوسن الاخير. واما زوال الصور المتوسطة وعدم بقائها زمانًا طويلاً فلما حصل بينها وبين الانسان من المنازعة الشديدة في تنازع البقاء

***

فمن الجهة الواحدة قد وجد اذًا قرود احفورية أقرب الى الانسان من القرود الحاضرة ويرجى وجود أخرى تكون دليلاً أوضح أيضًا . ومن الجهة الاخرى قد وجد أيضًا في هذه السنين الاخيرة كثير من صور البشر الاحفورية ومن المصنوعات البشرية وهي قديمة العهد جدًّا . والاربعة أو الخمسة آلاف سنة المعروفة لتاريخ الانسان ليست شيئًا بالنظر الى وجودهِ السابق العهد التاريخي . وتكوين هذه الآثار التشريحي يضيّق المسافة التي تفصل الانسان عن الحيوان ايضًا . ويطول بنا الشرح اذا اردنا فحص هذه المسألة المهمة بالتدقيق فلتراجع في مؤلفات ليل وشارل فوجت وهكسلي وبوشه وغيرهم من العلماء الذين بحثوا فيها . فقط اقول ان جميع الجماجم والعظام البشرية القديمة العهد جدًّا خصوصًا الجمجمة الشهيرة لنياندرسال والفك السفلي الاحفوري الذي وجدهُ ديبون حديثًا في مغارة نولات على اللاس في بلجيكا كلها ذات تكوين دنيء جدًّا شبيهة بتكوين الحيوان وقريبة من القرد اي تدل على اصل حيواني . ثم ولئن يكن تكوين الاحافير البشرية السافلة أدنى من تكوين أدنى المتوحشين اليوم الاَّ ان الانسان القرد كما يقول شفهوزن الذي لا بد من ان نعثر عليهِ يومًا ما لم يوجد بعد . والسبب العظيم لذلك — بقطع النظر عن قلة المعلوم لنا من الارض — هو عدم موافقة الاحوال الجيولوجية في الماضي القديم جدًّا لحفظ العظام البشرية خلافًا للعصر الذي وجد فيهِ الانسان المعاصر المموث والحيوانات الكهفية . ولهذا السبب كما يقول شفهوزن ايضًا لا يرجى العثور على آثار الانسان القديمة جدًّا الاَّ في احوال غير اعتيادية ومع ذلك

من بعض بل تكونت بعضها بجانب بعض ولئن كان جدها واحداً الاّ انهُ يمكن ان تكون مختلفة جدًّا

كذلك اذا اردنا شق الانسان من عالم الحيوان على مذهب داروِن فلا يجوز لنا ان نبحث عن صور متوسطة بينهُ وبين الكورلاَّ بل بينهُ وبين جدٍّ او اجداد مجهولة نشاء منها فرع الانسان من جهة وفرع القرد من جهة اخرى

***

ورب قائل يسأل هل مثل هذه الصور الانتقالية وجد او وُجد مايدل على وجوده فأجيب نعم . فان الاكتشافات العلمية في هذه السنين المتأخرة قد جادت علينا بكثير من ذلك . على ان هذه الاكتشافات على فرض انها لم تعلم لا يجب ان تحول بيننا وبين اطلاق مذهب داروِن على الانسان . لانهُ كما تقدم في المقالة السابقة جواباً على اعتراض فقدان الصور الاحفورية المتوسطة لا قيمة لهذا الاعتراض لقلة المعلوم لنا من الارض ويتضح ذلك اكثر مما يأتي . فان القارّات التي تعيش فيها القرود الشبيهة بالانسان الكبيرة والتي يلزم أن تكون فيها الصور المتوسطة لا تزال محجوبة عن الابحاث البالنتولوجية . وهي المناطق الحارة لقارّة افريقيا وجزائر جافا وبورنيو وصومترا . ولا نعرف شيئاً أيضاً عن ذوات الثدي التي كانت تعيش في طبقة البليوسن والبليوسن الاخير لهذه الاماكن . وأما في أوروبا فقد وجد في طبقات الميوسن أي في متكوّنات الارض ايام كانت أوروبا حارّة اكثر من اليوم بقايا قرود احفورية . وكان يظن من عهد غير بعيد انهُ لا يوجد قرود احفورية في اوروبا كما كان يظن ايضاً انهُ لا توجد احافير بشرية لا سبيل اليوم الى الشك بوجودها . وقد استخرج من اوروبا في زمن قصير ستة انواع من القرود الاحفورية بعضها يجمع فيهِ بعض الصفات الموجودة في القرود والانسان اليوم . وروتيمير وجد في الاراضي الثلاثية لسويسرا قرداً احفوريًا يجمع فيهِ صفات ثلاثة انواع من القرود الحية ( وهي الكترهين والبلاتيرهين والماكي ) . والقرد المسمى دريوبيتكوس لارتت نوع من الجيبون طويل الذراعين وجدت بقاياهُ في سفح جبال البيرنيز الفرنساوية سنة ١٨٥٦ في طبقات الميوسان الاعلى وكان اكبر من الكورلاَّ

مئات او بضعة آلاف من السنين بحيث يتعذر قطعها على علماء ذلك ذلك العصر البعيد ان لم يروا في الكتب مستندات يستندون اليها

على ان اكتشافات السياح والفوائد الناجمة للعلم منها نتيجتها تسهيل الصعب من ذلك . فانهُ في اواخر القرن الثامن عشر وفي اوائل التاسع عشر لم يكن يعلم الاَّ القليل النزر عن القرود الشبيهة بالانسان وما كان يذكر عنها حملهُ كوفيه على محمل الخرافة وقال انهُ من مختلقات زميلهِ بوفون . واما اليوم فنعرف اربعة قرود شبيهة بالانسان : الجيبون والشمبانزي والاوران اوتان والكورلاَّ ومعرفة هذا الاخير حديثة العهد . فالكورلاَّ يشبه الانسان كثيرًا بالقد والهيكل وكيان اليد والرجل والتسنين وغير ذلك ومهما روي عن قوة هذا الحيوان وشراستهِ من المبالغة فقد تحقق انهُ صحيح في اكثرهِ . وهو اقوى القرود الشبيهة بالانسان على القيام والمشي واقفاً الاَّ انها تشبه الانسان في بعض اشياء اكثر منهُ . فالشمبانزي لهُ رأس ودماغ قريبان من رأس الانسان ودماغه . والجيبون وان كان لا يتجاوز قدهُ ثلاثة اقدام الاَّ انهُ يشبه الانسان كثيرًا بقفص صدرهِ وانواع جلوسهِ

***

فأوجه الشبه مع الانسان غير محصورة في نوع واحد من القرود بل متفرقة في انواع كثيرة . وهذا كافٍ لاظهار غلط اولئك الذين يريدون ان يحصروها على ما يفهمون من مذهب دارون في صورة واحدة تصل بينهُ وبين القرود رأساً وقد بيَّنت هذا الغلط في ما تقدم حيث قلت انهُ لا يجوز البحث عن صور انتقالية بين الصور الحاضرة ولكن بينها وبين جد قديم انقرض من زمان طويل وكان يجمع فيهِ الصفات المختلفة للانواع الحاضرة . وقلت ايضاً وقد ذكرت مثال الصور الاربع الحاضرة الفرس وحمار الوحش والحمار والكواجا انهُ لا شك في ان اصلها واحد الاَّ انهُ لا يجوز ان نطمع بوجود صور حيَّة متوسطة بينها . قال الاستاذ هليار « ان الاجسام الحيَّة المقيمة بعضها بجانب بعض قد تكون مختلفة جدًّا ولا حاجة الى ان يكون بينها صور انتقالية لانها لم تتكون بعضها

ولا شبهة ان الرجل البشرية لم تخسر حركتها الا شيئاً فشيئاً لاستخدامها لعمل آخر ولاستعمال الحذاء . ولنا شاهد على ذلك في سكان جنوبي فرنسا فان عادتهم على التعرش على الاشجار جعلت عندهم سهولة كلية في تحريك اصابع رجليهم بحيث يقابلون ابهامهم لباقي الاصابع كالقرود ويتناولون بارجلهم اصغر الاشياء « شفهوزن »

على ان وقوف الانسان عمودياً منتصباً على قدميه ليس كلهُ طبيعياً لان وضع العمود الفقري لا يقتضيهِ لزوماً اذ لا يرتبط الجسد بهِ الا من جانب واحد فقط . ولذلك كان الاطفال والشيوخ كثيري السقوط الى الامام . والاطفال لا يتعلمون المشي منتصبين الا بكل صعوبة . ولما كان ثقل الجسد كلهُ متعلقاً بهذا العمود من جانب واحد فقط كان ذلك فيهِ سبباً للانحناء الكثير الحصول لانهُ كثيراً ما لا يقوى على حمل هذا الثقل

ولكي نفرغ من هذا الموضوع لم يبقَ علينا سوى امرٍ واحد كثيراً ما اعتبروه ذا شأن عظيم وعند الفحص الدقيق تسقط قيمتهُ كغيرهِ اعني بهِ غشاء البكارة والحيض اللذين اعتبرا انهما خاصان بانثى الانسان . فكلاهما يوجدان في القرود وفي غيرها من ذوات الثدي ايضاً . وقد ذكر الدكتور نوبرت من ستوتكاردت ان بعض اجناس القرود ولا سيما قرود العالم القديم تحيض حيضاً صحيحاً بعضها كل اربعة اسابيع وبعضها مرتين في السنة

***

فيظهر مما تقدم انهُ لا يوجد فرق مطلق او كيفيّ بين الانسان والحيوان لا جسمانياً ولا روحانياً بل الفرق بينهما نسبي او كميّ فقط . على ان الفراغ العظيم الكائن بينهما سيتسع يوماً عن يوم لازدياد التمدن وموت الاصول المتوسطة . ولذلك كلما بعد الانسان عن اصلهِ الاول زادت الصعوبة في معرفة الحقيقة فان الاصول العليا للقرود والفروع السفلى للبشر صارت في حالة التلاشي منذ زمان طويل وكل منها يقل سنة عن سنة بخلاف الانسان المتمدن فانهُ لا يزال يزداد ارتقاء وانتشاراً على سطح الارض فسوف تصير المسافة التي تفصل الانسان عن الحيوان اكبر جداً منها اليوم بعد بضع

وأما المشي عموديًا فموجود في كثير من القرود وربما كان فيها اكثر لولا انها تقيم غالبًا على الاشجار ولولا انها ماسكة . فالجيبون وهو اصغر القرود الشبيهة بالانسان يكون اكثر قيامهُ منتصبًا اذ يكون على الارض . وكاستلنو يقول عن اللاكوتريش (١) انهُ اذا ربطت يداهُ وراء ظهرهِ مشى ساعات طويلة على رجليهِ ولم يتعب والاتل او القرد ذو الصنارة متحرك جدًّا ونبيه كذلك يقف غالبًا منتصبًا . والشمبانزي والكورلا لا يلمسان الارض في مشيهما الاَّ باصابع اليد او بقفاها وهي تشبه يد الانسان كثيرًا . وقد قلنا في ما تقدم ان مشي الكورلا متوسط بين مشي الانسان ومشي الحيوان . ويوجد ايضًا كثير من القوم المتوحشين يقيمون غالبًا على الاشجار كالقرود وفيهم الرجل كما في القرود ابهامها موضوعة كما في الرجل الماسكة . فرجل اهالي كالادونيا الجديدة على قول روكاس تفيدهم للامساك كما تفيدهم للتعرش على الاشجار اذ انهم يتمسكون بها بالغصون كما تفعل اليد . واهالي جزائر فيليبين (٢) لا يتجاوزون اربع اقدام ونصف قدم وهم قوم متوحشون يقومون عراة او يشدون على وسطهم فقط منطقة من قشر الشجر ويقيمون تارة على الاشجار وتارة على الارض واصابع رجليهم ولا سيما الابهام منها موضوعة وضعًا يمكنها من التمسك بها بالاغصان والحبال كاليد واحدى قبائلهم المتوحشة واسمها الاجطاس ينصبون غفرهم على الاشجار . ويوجد في الملازيين سكان جافا الذين يستعملون ارجلهم ايضًا كايديهم بعض صفات خاصة بالقرد لا وجود لها في الفرع القوقاسي فلا يصيبهم الدوار وينامون معلقين في الهواء مستندين الى غصن او ما شاكل (٣)

---

(١) نوع من القرود نبيه ويدجن بسهولة

(٢) هم والبابواي اهالي هولاندة الجديدة من اصل واحد

(٣) والملازيون معرَّضون ايضًا لمرض يدعى (لاتا) كالقرود يجعل ما فيهِ يتقلد كل ما يراهُ يفعل امامهُ — واحد الالمان كتب عما رآهُ عن الطبقات السفلى للبشر في الهند الانكليزية قال (انهم يشبهون القرد كثيرًا في عاداتهم وفي وقوفهم وجلوسهم وغير ذلك من احوال جسدهم . وهم لا يقتلون القرد لانهم يعتبرونهُ انسانًا ممسوخًا وانا اظن انهم بالحري قرود ممسوخة . والدكتور أوي لالمان يختم رسالة كتبها في انسان الغاب البرازيلي اي البوتوكودي بقولهِ (انني قد اقتنعت بكمل اسف بانهُ يوجد قرود من ذوي اليدين

( ليس من العدل ان نقيم حاجزًا حصينًا بين الانسان والحيوان بقولنا — الانسان عاقل والحيوان غير عاقل — . وكيف يجوز جعل العقل صفة مميزة لسائر البشر على السواء . ونحن نعلم ان بين فروع البشر بل الافراد تفاوتًا من هـذا القبيل [١] فكل واحد عقلهُ بقدر ما قسم لهُ من التهذيب واين العقل البشري اذ يقتل المتوحش عدوّهُ ويشرب من دمهِ ؟ وان قيل ان ما يميز الانسان عن سواهُ ان لم يكن العقل نفسهُ فقابليتهُ لان يصير عاقلاً فالاختبار يكذب ذلك لانهُ اذا كنا قادرين ان نعقل فالفضل في ذلك لحواسنا ولجميع وسائطنا العقلية . الاَّ ان نمو هذه القوى العالي الذي يضعنا فوق الحيوان ليس واحدًا في سائر الناس » . ولقد اصاب ليل بقولهِ « ان عاملاً واحدًا روحيًّا لا فرق في تسميتهِ بديهة او نفسًا او عقلاً يتحرك في سائر العالم الحي من اسفل الى اعلى » وعلى زاي شفهوزن : ان القول بان الانسان يتميز عن سائر الحيوان لاستعانتهِ بالالات وحدهُ خطاءٌ مبين . لاننا نعلم عن ثقة ان القرد يكسر الجوز بالحجر وانهُ يرمي الحجر بين طبقتي صدفة ام الخلول لكي يفترسها

وانا لفي غنى عن اطالة البحث في هذه الاختلافات بين الانسان والحيوان فانها لا تخفى على احد . وهي ذات شأن عظيم في المدارس . وكتب التعليم مشحونة بها والمعلمون يدخلونها جبرًا اولا وثانيًا وثالثًا في رؤوس التلامذة الذين تأخذهم هزة العزة لعلو مقامهم البشري . واكتفي منها بذكر قضيتين كافيتين وحدهما لتبيين فساد المذهب كلهِ . وهما الانتصاب في المشي والنظر المتجه نحو السماء . والقضية الاخيرة مغلوطة لان الانسان لا ينظر الى السماء دائمًا كما ان الحيوان لا ينظر الى الارض دائمًا وانما كلاهما ينظران امامهما طبيعيًّا واما اولئك الذين يوجهون انفهم نحو السماء اكثر مما الى الاشياء التي امامهم فمما يسخر بهم وبكل الاحوال لا يعتبرون من طبقة اصحاب الافكار

(١) بل ربما فقد ايضًا قال كوزربنس في رسالة عن السود ما نصهُ « اننا في يقين من ان الفرع الافريقي لا يستطيع ان يبلغ مبلغ الفرع الابيض فقوة التجريد والتنسيق وادراك نواميس العقل كل ذلك مفقود منهُ فلا يعرف الحياة العقلية بل كل حياته طبيعية

الانسان والحيوان فيلزم ان لا تكون مع اكثر الناس تمدنًا اذ ان الفرق بينهما عظيم بل مع متوحش افريقيا او اوستراليا القريب الى الحيوان جدًا وان كان يطلق عليهِ اسم الانسان نظيرنا . واذا كان الاستاذ بيشوف المشرح والفيسيولوجي الشهير يرى فرقًا بين الانسان والحيوان في ان الانسان لهُ ما عدا الضمير شعور بالذات ايضاً يعرّفهُ « انهُ قوة يقدر الانسان بها ان يتأمل بذاتهِ وبسائر احوال الاشياء ونسبتها الى باقي الخلق» فيليق بنا ان نسألهُ اذا كان يعتقد ان ابن زلاندا الجديدة او متوحش الامازون او ابن جزائر فيلبين او الاسكيمي او البوتوكودي حتى الصعلوك الاوروباوي لهُ ذلك ايضاً اي انهُ يستطيع ان يتأمل في هذه الاشياء الجميلة . لكنهُ يقول هو عنهم انهم اناس تأيهون متوحشون لم تنمُ فيهم « الصفة البشرية الخاصة » ولسوء البخت لا يذكر من أين جاءنا بما يسميهِ « الصفة البشرية الخاصة » ان لم يكن من مراقبة نفس الانسان . وهو ينقض كلامهُ بكلامهِ اذ ينفي عن اناس هم بالحقيقة بشر الصفة المميزة للبشر على زعمهِ ولم يبين امكان ظهور هذه الصفة بطريقة من الطرق على اننا نعلم علم اليقين من الحوادث الجلية كما قلنا مرارًا أن الفروع السفلى الاقرب الى الحيوان منها الى هذا الانسان التصوري الذي خلقهُ بيشوف ليس انها لا تقبل التهذيب فقط بل تهلك اذا اريد اخضاعها لهُ ايضاً

* * *

وبيشوف منفرد وحدهُ بين الفلاسفة الذين حشر نفسهُ بينهم في تعريفهِ الانسان. فالانسان من أي طبقة كان والحيوان كذلك لهما هذا الوجدان او العلم بما يسمونهُ « انا » او كما يقولون ايضاً الشعور بالذات . ولا ينفيهِ كما يقول شوبنهور عن الحيوان بدون ادنى سبب ظاهر الاَّ الفلاسفة الذين لا شعور لهم . ويقول ايضاً انهُ يلزم ان يقع احد هؤلاء الفلاسفة بين مخالب النمر حتى يتعلم على نفقتهِ كيف يفرق الحيوان بين ما هو ( انا ) وما ليس ( بانا )

والعقل ليس قوة خصوصية بل مجتمع القوى العاقلة كالتأمل والاستقراء والتصور يسمى عقلاً وهو ليس خاصًا بالانسان وحدهُ بل هو في الحيوان ايضاً قال شفهوزن

الاسباب واستخراج النتائج يتمان في كليهما على شرائط واحدة . وكل النظامات السياسية والاجتماعية للانسان موجودة في الحيوان ولكن على سبيل الرسم . وقد تكون اكمل فيهِ منها في الانسان . والخلاصة ان حياة الحيوان العقليَّة لم تعلم الاَّ قليلاً حتى اليوم وقد حطت جدًّا عن مقامها لان اساتذتنا الفلاسفة الذين جعلوا درس هذه المسائل محصورًا بهم قد بنوا احكامهم على امور مجردة لا على الاختبار . واما الذين يدرسون هذه الاشياء عن قرب فانهم يرون امورًا غريبة كثيرة تدلهم على مايستطيعهُ عقل الحيوان . ولفهم ذلك لا ينبغي الاعتماد على العلماء الذين يجلسون وراء مكاتبهم بل على الناس الذين يخالطون هذه الحيوانات كالصيَّادين والرعاة والفلاحين واصحاب معارض الحيوانات والمحافظين عليها وغيرهم الذين يتيسر لهم مراقبة اعمالها العقليَّة فمنهم نعلم اشياء مختلفة عما يقال عادة . فالحيوانات ليس لها عقل وعواطف كالانسان فقط بل لها ايضاً لغات وجمعيَّات قد تكون منتظمة احياناً اكثر من جمعيَّاتهِ . وتبني بيوتاً وقصورًا تفاخر بها قصورنا . وعندها جنود واسرى وسجون ومحاكم . وتعتني كبارها جدًّا بتهذيب صغارها وربما كان اعتناؤها بذلك اكثر من اعتناء الانسان بهِ . وتغير أخلاقها وتكتسب كثيرًا بمخالطة الانسان ( والحيوانات الاهلية شاهد على ذلك ) خلافاً لزعم من ينفي هذه القابليَّة عنها توسلاً لجعل ذلك فاصلاً لها . حتى ولو صح هذا الزعم لما ساغ جعلهُ صفة خاصة بهِ دون غيرهِ اذ أن متوحشي البشر قلما يكتسبون كذلك . وجميع فروع البشر غير متساوين في هذه القابلية فان أحمر الجلد والاسكيمي والبولينزياوي والماوري والاوسترالي الخ يتلاشون جميعهم كما لا يخفى بمخالطة القوم المتمدنين . ولا نعلم من قوي على ذلك وارتفع فوق حالتهِ الاصلية سوى الاسود الذي أدخل الى أميركا الشمالية وهذا أيضاً في حالة العبودية وبمخالطتهِ الانسان ( نظير الحيوان تماماً ) . واذا قالوا ان الانسان لهُ خاصة النطق للتعبير عن أفكار مجردة فانهم أيضاً لا يثبتون شيئاً اذ أن الالفاظ المعبرة عن ذلك لا وجود لها في جميع اللغات الاميركانية كما يعلم من فيلولوجية المقابلة . وكذلك اللغات الاوسترالية وبعض اللغات البولينزياوية واكثر الالسنة التي يتكلمها سود اواسط افريقيا . واذا أريد المقابلة بين

الاَّ فرعاً من الزولوجية او علم الحيوان

وعليهِ فلا يوجد فرق جوهري بين الانسان والحيوان ينفصل بهِ الواحد عن الآخر انفصالاً تاماً لا في الجسماني ولا في الروحاني أو العقل لانهُ لا شبهة اليوم في أن الدماغ عضو الفكر وأن العقل يختلف بحسب كبر الدماغ وشكلهِ ووضعهِ ونموهِ أي ان الانسان والحيوان سيان جسمانيًّا وروحانيًّا والفرق بينهما في النمو والارتقاء فقط

***

على انهُ يوجد كثيرٌ من الفلاسفة واللاهوتيين والطبيعيين لا يسلم بأن الانسان حيوان الاَّ في الجسماني فقط وأما في الروحاني فهو غير خاضع لنواميس الحياة الحيوانية

ونجيب على ذلك بأن المقابلة بين عقل الانسان وعقل الحيوان القريب منهُ تؤدي الى نفس النتيجة التي يؤدي اليها تشريح المقابلة . و يعرض للفلاسفة ولاصحاب ماوراء الطبيعة عند ما يحاولون بيان الفاصل بينهما نفس الصعوبات التي تعرض للمشرحين . فلا يوجد فاصل بين الانسان والحيوان عقليًّا كما انهُ لا يوجد جسديًّا فان أعلى قوى الانسان العاقلة موجودٌ جرثوميًّا في ادنى طبقات الحياة.وأرفع حاساتهِ وأقواها كالمحبة والمودة واللَّـذة والالم والحقد والحزن الخ موجود في الحيوان ايضاً فكل ما يتميز بهِ الانسان من الصفات النبيلة موجود في الحيوان كفي حالة موعود بها والفضل في ارتقائها فيهِ الى ناموس الانتخاب الطبيعي . فالانسان لا يتميز عن الحيوان الا بكون الصفات المشتركة بينهما أبلغ فيهِ واظهر و بناءُ الانسب أرقى (١) . وهذا الذي جعل القوى العقلية فيهِ تقوى على الاميال السافلة والشهوات الفاسدة

ولا ينبغي أن يظن من ذلك ان هذه القوى العاقلة غير موجودة في الحيوان كلاًّ . فالحيوان يقابل و يستقري و يستنتج و يتعلم بالاختبار و يتأمل كالانسان وانحطاطهُ عنهُ في ذلك كمي فقط . ونواميس الفكر في الحيوانات العليا هي كما في الانسان.ومعرفة

(١) ان ما يميز الانسان على راي هكسلي عن الحيوان هو ان الخالة اعضاء كثيرة نامية جدًّا اي ان فيهِ صفات كثيرة مجتمعة لا توجد في الحيوان الاَّ متفرقة مثلاً حسن توقيع او كمال في بناءِ الحنجرة والدماغ والاطراف الخ نتيجتهُ قوة التكلم وكثرة التصور والانتصاب في المشي الخ

قد طبعها بعض المشرحين الهولانديين (فروليك وشرادرفان در كولك ). لانهم تحققوا أن أدمغة القرود فيها كذلك القرن الخلفي للتجويفين الجانبيين والرجل الصغيرة لفرس البحر وان الفصين الخلفيين للدماغ فيها مطلفان على المخيخ ايضاً واحياناً اكثر مما في الانسان [1] ولزيادة الاسباب فليراجع القسم الثاني من كتاب هكسلي في مقام الانسان في الطبيعة

واما حجم الدماغ الذي ينبغي اعتبارهُ ايضاً فقد بين هكسلي ان الفرق بين اصغر جمجمة بشرية واكبر جمجمة للكورلا وان كان عظيماً الاَّ انهُ اقل مما هو بين فروع البشر المختلفة وقد قاس مورتون جماجم بشرية فبلغت مساحة اعظمها من الباطن ١١٤ قيراطاً واصغرها ٦٣ قيراطاً . وقيل انهم رأوا جماجم هنود لا تتجاوز مساحتها ٤٦ قيراطاً ومساحة اعظم جمجمة للكورلاَّ لا تتجاوز ٣٤ قيراطاً وعليهِ فان حجم الدماغ يختلف من ادنى الانسان الى اعلاه اكثر مما يختلف بين الانسان والقرد . واما تلافيف الدماغ التي ارادوا ان يجعلوها امتيازاً خاصًّا بالانسان فانها موجودة في دماغ القرود وبالغة كل درجات النمو من الدماغ الملس للنسناس الى دماغ الاوران اوتان والشمبانزي الذي قلما تختلف تلافيفه عن تلافيف دماغ الانسان

وهكذا اي عضو او اي جهاز فحصناهُ كان لنا نفس النتيجة التي ذكرها هكسلي والتي هي خلاصة ابحاثهِ وهي ان الفرق من حيث البناء اقل بين الانسان والقرد منهُ بين طوائف القرود المختلفة

والاستاذ هكسلي يقول كذلك ان الفرق بين ادنى الانسان واعلى الحيوان في الكم فقط اي في العدد والحجم وهو اقل مما بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا والفرق على رأيهِ اعظم بين رجلين احدهما من الطبقة العليا والآخر من الطبقة السفلى منهُ بين أدنى الناس وأعلى الحيوانات . وعندهُ ان الانثروبولوجية أو علم الانسان ليس

(١) وقد عرف اون غلطهُ حديثاً حيث قال ( انهم يبينون ان كل الاجزاء الكائنة في بناء دماغ الانسان موجودة في ذوات الاربع ايدي ( القرود ) ايضاً الاَّ انها مختلفة كثيراً وادنى جدًّا مما هي في الانسان ) ومع ذلك فان هذا الفرق النسبي كافٍ عند هذا العالم لوضع الانسان في صف وحدهُ

والصور الأدنى منهُ كما يقول شمهوزن ليست في الحياة الجنينية فقط كما هو معروف من زمان طويل بل في حالة نموّهِ وبلوغهِ الكمال أيضاً . ولا يزول أثرها الاَّ شيئاً فشيئاً » وعلى قول هذا المؤلف يوجد من المشابهة بين القرود والانسان في بناء ثلاث من اعظم الحواس ( العين والاذن والجلد ) ما ليس لباقي ذوات الثدي « فالقرد بعد الانسان هو الحيوان الوحيد الذي لهُ الجسيمات الحساسة التي تحس بأخف التأثيرات . وهو الوحيد ايضاً الذي لهُ البقعة الصفراء في الشبكية والذي الدهليز فيهِ ( الاذن الباطنة ) شبيهٌ بما في الانسان خلافاً لانصاف القرود التي يختلف فيها ذلك عنهُ »

***

وآخر دعوى واقواها ايضاً لفصل الانسان عن الحيوان تشريحيًّا كانت الدماغ . على انهُ وجد بعد الفحص الدقيق ان لا فرق بينهُ وبين ادمغة باقي الحيوان من حيث البناء التشريحي . ولما كان هذا العضو مهماً جدًّا كان لا بد من بسط الكلام عليهِ فأقول

ان الاستاذ أون احد مشاهير مشرحي الانكليز سعى من بين كثيرين آخرين في ان يجد في دماغ الانسان فاصلاً يفصلهُ عن الحيوان ويضعهُ في صف خاص بين ذوات الثدي . فذكر لذلك ثلاث صفات وهي اولاً الفصَّان الخلفيَّان للدماغ المغطيان المخيخ والمطفان عليهِ . ثانياً القرن الخلفي للتجويفين الجانبيين الكبيرين . ثالثاً الرجل الصغيرة لفرس البحر . ويراد بها عقدة صغيرة بيضاء مستطيلة مستقرة في الجدار الانسي للقرن الخلفي او في قعرهِ تنشأ من شرم او التواء وحشي مقابل . فعلى زعم أون ان هذا التكوين الذي هو اكمل هنا منهُ في الحيوان يجب ان يضع الانسان في صف قائم بنفسهِ بين ذوات الثدي سمي صف الارشنسفال اي المتسلط تمييزًا لهُ عن صف الجيرنسفال اي الخاضع

***

ولما انتشر مقال أون سنة ١٨٤٧ كثرت مناقضات العلماء لهُ نظير رولستون وهكسلي وفلاور وغيرهم وكثر البحث في دماغ القرود كذلك . وكانت النتيجة ان ما قالهُ أون مغلوط وانهُ استند في بعضهِ على رسوم مغلوطة وناقصة لدماغ شمبانزي كان

الحيوانات وضع عظام الرسغ واحد . ولها من العضلات القابضة والباسطة القصيرتان والقصبية الطويلة مما يجعل القائمة الخليفة تشريحيًا رجلاً لا يجوز توهمها يدًا . لذلك يرفض هكسلي تسمية ذوات الاربع ايدي . ولا يعتبر الانسان سوى طائفة خصوصية من البريات . ولا يجوز غير ذلك حتى ولو كان الفرق بين رجل الانسان ورجل الكورلاَّ اعظم مما ذكر ايضاً . والفرق اعظم بين تكوين رجل الاوران اوتان مثلاً والكورلاَّ منهُ بين الكورلاَّ والانسان

***

ويؤكد هكسلي انهُ لا يوجد فرق جوهري كذلك بين باقي الاعضاء كالعضلات والاحشاء والاسنان والدماغ الخ . فالتسنين الذي هو اوضح الادلة على تقارب ذوات الثدي واحد في الانسان والكورلا من حيث عدد الاسنان وانواعها وتكوين التاج . والفرق بينهما في أشياء عرضية فقط وربما كان أعظم بين أنواع القرود المختلفة. وقد بيَّن شفهوزن ان أسنان اللبن في الانسان لا فرق بينها وبين اسنان القرد بشيء لان الاضراس الكاذبة التي تنبت فيما بعد والتي تتميز بتاج صغير وجذور ملتصق بعضها ببعض لا توجد في التسنين الاول ويوجد مكانها اضراس صحيحة ذات تاج وجذور اشبه بما في القرد أي ان الانسان يكون في التسنين الاول ادنى في التكوين أي أقرب الى أصلهِ . ولا يبلغ الانسانية حقيقة الاَّ في التسنين الثاني . وفي هذا التسنين أيضاً تشبه أسنان الانسان أسنان القرود العليا في جميع صفاتها ما خلا الحجم . وقد استنتج شفهوزن من ذلك « ان الانسان كان في السابق يعيش على الاثمار » . وبناء القرود العليا يشبه بناء الانسان في كثير من الامور التشريحية . وقد بين هكسلي انهُ في تشريح جثث البشر كثيرًا ما تلتقي العضلات موضوعة كما في القرود تقريباً . « وعليهِ فالمشابهة بين الانسان

---

تحمل فوقها جسم الانسان المنتصب . واما حالة الكورلا من ذلك فهي بين انتصاب الانسان وبين وقوف ذوات الاربع . فالكورلا يقف غالبًا منحنيًا ورسغهُ مشيًا او ركضًا يبقى عموديًا مع ان جسمهُ لا يستقر على القائمتين الخليفتين وحدهما فقط بل قسم منهُ يستقر على مؤخر اليدين المستقرتين على الارض . وفي الجملة فانهُ لا يستطاع تصور الانتقال بين الحيوان والانسان الاَّ كما هو موجود في الكورلا ) . اه

اذا نظرنا الى طرق الترتيب التي نهجها الزولوجيون ( علماء طبائع الحيوان ) والى ذهاب تعب الذين منهم حاولوا جعل الانسان عالمًا مستقلاً عن الحيوان والنبات سدى . على ان لينوس الذي هو أعظم من وضع طرق الترتيب في علم الحيوان لم يفتهُ ذلك لانهُ ضمّ في صفهِ الاول المسمى « بريمات » الانسان والقرد والنصف قرد [١] غير ان بلومنباخ سنة ١٧٧٩ قد انحاز عن هذا الترتيب ووضع صف ذي اليدين ( وخصهُ بالانسان ) تميزًا لهُ عن صف ذي الاربع أيدي ( وخصهُ بالقرود ) وقد عرّف الانسان انهُ — حيوان منتصب ذو يدين — فكل الصفات التي يتميز بها الانسان على رأيهِ اذًا ( وقوفهُ منتصبًا ) وحصولهُ على « يدين » وهذا الترتيب عرفهُ بوفون وتبعهُ كوفيه الشهير وهو الذي أدخلهُ في العلم والى اليوم لم يخرج منهُ تمامًا على ان عددًا كثيرًا من الزولوجيين قد رجع الى ترتيب لينوس وهذا الترتيب أصح ما يمكن وضعهُ . فالتميز بين ذي اليدين وذي الاربع أيدي لا وجه لهُ تشريحيًّا والفضل في هذا البيان الدقيق للمشرح الانكليزي هكسلي . فانهُ قابل بين بناء عظام اليد والرجل وعضلاتهما تشريحيًّا في الانسان والقرد وبيَّن أن الاعتماد على الظاهر لا يكفي في مثل هذه القضية بل يجب النظر الى الباطن ايضًا . ومن بحثهِ يتبين أن اليد والرجل « في الانسان والقرد الشبيه بالانسان ولا سيما الكورلا » مكونتان على مبداء واحد أي ان الكورلا ليس لهُ أربع أيدٍ كما زعم بل يدان ورجلان فقائمة الكورلا الخلفية ليست سوى رجل ذات ابهام كبيرة اشبه بابهام اليد من جهة مقابلتها لباقي الاصابع اي ان لهُ رجلاً ماسكة [٢] وهكذا سائر انواع القرود والنصف قرود ايضًا في سائر هذه

(١) قال لينوس ( قد يظهر ان الفرق اعظم بين الانسان والقرد منهُ بين النهار والليل . لكنهم اذا قابلوا بين الاوروباوي العريق في المدنية وبين متوحش رأس الرجا الصالح يصعب عليهم التصديق انهما من اصل واحد . كما انهُ يصعب اقتناعهم بان سيدة نبيلة من سيدات البلاط الملوكي ورجلاً بسيطًا يعيش في الغاب هما من نوع واحد ) . اه

(٢) اعترض الاستاذ شفهوزن على هذه القضية قال ( انهُ يمكن التوفيق بين الاقوال المتناقضة في الكورلا لان قائمتهُ الخليفة هي في بعضها رجل وفي البعض الآخر يد . فان جانب العقب رجل . وجانب الاصابع يد . وذلك في غاية الموافقة لوظيفة هذا العضو . والذي يميز رجل الانسان من جهة الشكل كونها نظير قنطرة

متعددة كانت الروايات في اصل الانسان كثيرة ايضاً واحياناً غريبة للغاية . فانك تكاد ترى روايات تتعلق بهذه القضية عند جميع الشعوب على اختلاف طبقتهم في المعتقد والتمدن . وهذا دليل على ما للانسان حتى المتوحش من الميل الى معرفة اصلهِ الذي هو « سر الاسرار » كما قال عنهُ احد فلاسفة الانكليز

وأما اليوم فتعرض لنا هذه المسألة على وجه آخر نظراً الى تقدمنا في المعارف. ودخولها في الابحاث العلميَّة بعد ان كانت تحسب فوق طور العقل من اكبر الادلة على ما للعقل من الاقتدار [1] فالعقل لا حدّ لهُ خلافاً لما ذهب اليهِ بعضهم لاحباً بالحقيقة بل لغاية في النفس دينية او فلسفية. ولذلك لا يجوز لنا ان نيأس من حل أشكل المسائل وأغمضها وينبغي أن نسعى الى الحقيقة جهدنا بجميع الوسائط التي لنا ابحاثاً كانت أم افتراضات

***

لا شكّ أن العوامل العاملة في الانسان هي نفس العوامل الطبيعية لان كل ناموس يطلق على سائر الطبيعة الحية ينبغي أن يطلق على الانسان أيضاً . اذ ان النواميس التي تكوّن هذا العالم على مقتضاها واحدة وثابتة . وعلم التشريح وعلم الفيزيولوجية أي علم بناء جسم الحيوان وعلم منافع أعضائهِ لا يدعان محلاً للريب في كون الانسان تشريحيًّا وفيزيولوجيًّا اكمل طائفة ذوات الفقرات . وهذه الطائفة التي هي أعلى طبقات الحيوان رتبة تنزل كلما ابتعدت عن الانسان في سلسلة دركات لا تحصى فاذا كان بين الانسان وبين ما هو قريب منهُ من ذوات الثدي فراغ تشريحي أو فيزيولوجي فهو ليس أعظم من الفراغات الموجودة بين أجناس اخرى منها . ويدل فقط على اختلاف عرضي أو نسبي لا جوهري أو مطلق [2] وهذه الحقيقة تنجلي لنا خاصة

---

(١) قال الاستاذ شفهوزن ( ان معرفة اصل الانسان الصحيح اكتشاف كثير النتائج في جميع فروع الفكر البشري وربما عدها المستقبل اعظم ما في طاقة العقل الوصول اليه )

(٢) قال هكسلي في كتابه — معرفة اسباب الظواهر الحية — ما نصهُ انهُ من السهل ان يبين ان الانسان بالنظر الى بنائه لا يختلف عن الحيوانات التي دونهُ والقريبة منهُ اكثر مما تختلف هذه الحيوانات نفسها عن التي من صنفها )

# المقالة الثالثة

فهرست : تطبيق مذهب دارون على الانسان: اصل الانسان وتكوينهُ ونسبتهُ الى الحيوان — تقسيم لينوس وجعل الانسان من صف البريمات — الاعاضة عن صف البريمات بتقسيم بلومباخ الى ذي اليدين والى ذي الاربع ايدي ثم الرجوع الى تقسيم لينوس — صف الارخنتفال أي المتسلط للبروفسور اون — الحياة العقلية في الحيوان . الفرق بين الانسان والحيوان ليس مطلقاً بل نسبياً - الضمير والوجدان — الانتصاب على القدمين — في ان الثغرة الكائنة بين الانسان والحيوان تتسع كل يوم بالارتقاء الحاصل بالتربية وبموت الاصول المتوسطة — اشباه الانسان أو انواع القرود التي تشبه الانسان كالجيبون والشمبانزي والاوران اوتان والكوريلاَّ — قرود احفورية وبشر احفوريون — قدم الجنس البشري — في هل تكوَّن عقل الانسان من عقل الحيوان بالتدريج ام بغتةً

مذهب دارون على ما بسطناهُ في المقالتين السابقتين مهم لانهُ يكشف لنا عن أهم الظواهر واوسعها ألا وهو أصل العالم العضوي اذ يهيئ لنا المعدات التي يتيسر لنا بتوجيها الحكم باسبابهِ وهل هي في الاسباب الطبيعية أم في الاسباب الغائية المعول عليها حتى اليوم

ويعظم شأنهُ أكثر اذا اطلق على الانسان ليعلم ما اذا كان يصح أيضاً عليهِ واذا ما كانت النواميس العاملة في باقي الاجسام الحية هي العاملة في اصلهِ كذلك أم هو خارج عن حكم هذه النواميس؟

فلا يخفى أن أكثر الفلاسفة والطبيعيين أيضاً (ما خلا المدعوين ماديين من فلاسفة اليونان) كانوا يعتقدون ان الانسان مختلف جوهرياً عن عالم الحيوان ولا اتصال لهُ بهِ لا جسمانيًّا ولا روحانيًّا . وبقي هذا الاعتقاد معوَّلاً عليهِ حتى اليوم لفقدان الادلة التي يبنى عليها ما يخالفهُ ولو ناقض الوحدة العامة للطبيعة والتصور الفلسفي للكون . فمسألة « من أين اتى الانسان وكيف اتى » لم يستطع العلم حلها طبيعيًّا واعتبرت انها تعلو على العلم فلم يكن حلها ممكناً الا للدين وحده لكن لما كانت الاديان

كثيرة مثل بديهة الطير لبناء اعشاشهِ . وبديهة كلب الصيد المكتسبة بالتعويد حتى صارت موروثة فيهِ . و بديهة الحيوانات الاهلية التي تجعلها شديدة الميل الى الانسان و بديهة الكوكو التي تجعلهُ يضع بيضهُ في اعشاش غيرهِ . والبديهة العجيبة التي يأسر النمل بها النمل الغريب . والبديهة التي يبني النحل بها خلاياه وغير ذلك من الاميال والبدائه التي جعلوها ادلة على الاسباب الغائية مع انها نتيجة الانتخاب الطبيعي . على ان هذه الاميال تتغير بتغير جنس المعيشة وهذا دليل على أنها غير غريزية وغير ثابتة . مثال ذلك ناقر الخشب الاميركاني فانهُ فقد هناك عادة التعرش على الاشجار وصار يصطاد الذباب وهو طائر وكذلك الكوكو في اميركا فانهُ لا يفعل ككوكو أوروبا أي لا يبيض في اعشاش غيرهِ . وطيور أخرى غيرهُ تفعل ذلك

⁂

ففي ما تقدم من بسط مذهب دارون في انتقال الانواع ما يكفي على ظني لفهمهِ وهذا المذهب يزداد شأنهُ يوماً عن يوم ليس بالنظر الى العلم فقط بل بالنظر الى فلسفة الكون أيضاً ومهما يكن من أمرهِ في حد نفسهِ فشأنهِ يعظم أكثر باعتبار ما اذا كان يصح على الانسان واذا صح عليهِ فما هي نتائج ذلك . ثم ما نسبتهُ لباقي المذاهب المعوَّل عليها حتى اليوم في ما تعلق بارتقاء العالم العضوي هل يؤيدها واذا أيدها فما هي النواميس التي تترتب عليهِ لارتقاء العالم العضوي عموماً والانسان خصوصاً فهذه المسائل المهمة ستكون موضوع بحثنا في المقالات الآتية

---

حيوانات لم تتعود ذلك . وجميع خيل اميركا الاسبانيولية تناقلت المبل لمشي الخبب حتى صار موروثاً فيها والحمام القلاب الانكليزي تربت فيهِ هذه العادة حتى صارت وراثية . والغنم الانكليزي لم يتعود اكل الشلجم الذي ادخل الى تلك البلاد الاَّ بعد ثلاثة أجيال . والخلاصة ان الحيوانات المولودة من حيوانات تربت على عادات معلومة تكون اقبل لهذه العادات من سواها

عضو لا يرى فيهِ عند التدقيق انهُ كان يمكن ان يكون اصلح مما هو للغاية التي وضع لها . واننا نتعجب اليوم من صنع العين الدقيق التي هي اكمل الاعضاء والطفها والتي اصلها حسب تعليل داروننقطة عصبية حساسة ارتقت حتى بلغت حالتها الحاضرة بعد ان مرت بدرجات من التغير غير محدودة ومع ذلك فهي ليست في غاية الاتقان والاحكام لان احسن العيون لا يمنع تبدد النور . ووضع القناتين الهوائية والغذائية الواحدة بجانب الاخرى وسد احداهما بلسان المزمار سدًّا ناقصاً نقص في التكوين قد يؤدي الى الاسفكسيا وآفات أخرى بدخول أجسام غريبة في المسالك الهوائية ولا يعلم سبب ذلك الاَّ من تشريح المقابلة

***

ومذهب دارون يعلل لنا ايضاً سبب الاميال والبداهة في الحيوان التي يعتبرها خصومهُ شاهداً عظيماً على ما أودعتهُ من القصد لغايات معلومة . قالوا ان الميل للمهاجرة في الطيور غريزي اودع فيها حفظاً لها ومراعاة لامر راحتها . مع ان سببهُ طبيعي وقد تولد من تعاقب الحر والبرد فان الشتاء القاسي كان يجعل الطيور السريعة الحركة تنسحب من الشمال نحو الجنوب فاذا جاء الصيف حملها حب الوطن على الرجوع الى الاماكن التي نشأت فيها وتكرر هذا الامر مراراً كثيرة وكل سنة كانت الطيور تدفع الى ابعد لاشتداد البرد وامتدادهِ نحو الجنوب حتى صار فيها هذا الميل السنوي الى المهاجرة عادة والعادة صارت وراثية فصار هذا الميل كانهُ غريزي . والى مثل هذه الاسباب ايضاً يجب ان ينسب نوم الحيوانات الشاتية فانها لبطء حركتها لم تكن تهرب من امام البرد فتنسحب الى اماكن مظلمة حيث كانت تنام مدة فصل الشتاء وما زال هذا الامر يتكرر فيها حتى صار عادة والعادة وراثة (١) . وداروين يذكر غير ذلك اميالاً وبدائه

(١) قد تقدم في المقالة الاولى في الكلام على الوراثة ان العادات والاميال المكتسبة في الحياة تنقل الى النسل وتثبت فيهِ وهذه المعلومات ماخوذة من تربية الحيوانات خاصة . فميل كلب الراعي للطواف حول القطيع موروث فيهِ . وتفضيل القط صيد الجرذ على صيد الفار متوارث فيهِ ايضاً . والحيوانات المولودة من حيوانات متعودة على جر العربات ( من بقر وخيل ) اقبل لهذا العمل من سواها المولود من

من الموافقة فمن الجهة الواحدة على مبدأ الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء تقوى الاعضاء الموافقة والصفات المناسبة على سواها في الدهور الطويلة بحيث تثبت اخيرًا . ومن الجهة الثانية على مبدأ الارتقاء والوراثة تحفظ في الاجسام الحية اعضاء لا فائدة لها وقد تكون مضرة ايضاً . وقد ذكر داروِن مثالاً لهذه آذان النباتات المتعرشة فانها مفيدة في مثل هذه النباتات ولكنها توجد ايضاً في نباتات اخرى لا تتعرش حيث لا فائدة لها . وتعرّي جلد رأس دود الجثث يظهر انهُ في غاية الاحكام لمعيشتهِ لانهُ يغل في الجثث المتعفنة ولكننا نرى ذلك ايضاً في رأس ديك الحبش الذي ليس لهُ هذه الضرورة . وقالوا ان تداريز الجمجمة في صغار ذوات الثدي هي لقصد تسهيل الولادة . ولا ننكر فائدتها والحالة هذه . ولكن لا يصح القول بانها وضعت لذلك لانها موجودة ايضاً في جماجم صغار الحشرات وصغار الطير التي تخرج من البيضة . والغشاء بين الاصابع في الفرقاطة وفي الاوز الارضي لا فائدة لهُ فيهما بل هو مضر في حالتهما الحاضرة ولكن لايزال فيهما بسبب الوراثة . والعظام المتفقة الكائنة في ذراع القرود وفي القائمتين المقدمتين للفرس وفي جناح الخفاش وفي زعنفة القنم لا تفيد هذه الحيوانات شيئاً . وانما هي بقايا موروثة من اجدادٍ انقرضت منذ زمان طويل . وناب الافعى السام وقناة البيض في الاكنمون لا ينطبق وجودهما على الاسباب الغائية او الفائدة لانهما مضران بغيرهما من الكائنات الحية . وحمة الزنابير والنحل لا فائدة بها لان صاحبها يموت بعد استعمالها وغير ذلك كثير . والانسان الذي هو غاية في الاتقان فيهِ اعضاء كثيرة لا فائدة لها وقد تكون مضرة وسبباً لامراض قتالة . مثال ذلك الغدة الدرقية [1] التي ينشأ فيها المرض المعروف بالجواتر . واللوزتان اللتان قد يسبب ورمهما والتهابهما الاختناق . والزائدة الدودية التي هي في الاولاد منشأ التهابات قتالة . والاعور الذي كثيرًا ما تجمع المواد فيهِ تجمعاً خطرًا . والغدد الصعترية والعصعص واثداء الذكور الخ . وفي الجملة لا يوجد في بدننا

---

(١) نزع الدكتور كوخر من سويسرا نحو ١٥٠ غدة درقية من المصابين بالجواتر وظهر لهُ ان نزعها يؤثر جدًّا في الدماغ فان بعض المنزوعة منهم قد وقعوا في البلاهة التامة على ان المرأة لهُ تحتمل التثبت

معهُ كل اجتهاد للتعميم فكان يلزم رجل واسع الاطلاع صحيح العلم جامعاً الى علمهِ الميل الفلسفي الصحيح حتى يقدم على مثل هذا الامر غير خاشٍ غضب اصحاب التقاليد او خائف ان يتيه في تعاريج الفلسفة القديمة للطبيعة . لان المتعلقين على الدروس الخاصة هم بواقع الامر قاصرون عن ذلك فالاشجار على رأي المثل تمنعهم ان يبصروا الغابة

ولادخال الفلسفة في العلوم الصحيحة نتيجة اخرى ربما كانت اعظم من مذهب دارون نفسهِ فلسفيًّا ألا وهي ازالة الاعتقاد بالاسباب الغائية من دائرة العلوم الطبيعية او العلم عموماً ببراهين قاطعة . ولا يخفى ان بعض فلاسفة الطبيعيين كانوا قد فندوا هذا الاعتقاد من قبل بالحجج المنطقية ونجحوا بعض النجاح ولا سيما في علم الطبيعيات حيث لم يبقَ لهُ اثر خلافاً لباقي العلوم ولا سيما علم اللاهوت الذي يجعل الاسباب الغائية اساس حجتهِ وغاية برهانهِ اذ يجد بها ان وضع الانف في وسط الوجهِ وعدم وضع العينين في ابهام الرجل غاية في الاحكام ونهاية في الحكمة

نعم ان الذي ينظر الى هذه الاعضاء نظراً بسيطاً باعتبار فائدتها ونسبتها الى الاحوال المختلفة للطبيعة بقطع النظر عن الماضي يجد فيها من الموافقة والمطابقة ما يحسبهُ مقصوداً . واما العلم فلا يبحث فيما هي عليهِ من النظام اليوم فقط بل في ما كانت عليهِ في الماضي ايضاً . وباي الطرق الطبيعية وصلت الى ما وصلت اليهِ من الاحكام على نوع غير محسوس . وهنا يبسط لنا مذهب دارون التعليلات الصريحة والادلة المأخوذة ليس من الفلسفة وحدها فقط بل من الحوادث والامثلة الحية ايضاً . والدُّ اعداء الفلسفة المادية وهو الاستاذ شليدن لما قرأ كتاب دارون اضطر ان يصرح جهاراً ببطلان القول بالاسباب الغائية في الطبيعة (١)

* * *

ففي ما تقدم من الامثلة ما يكفي على ظني للتعليل طبيعياً عن سبب ما في الاعضاء

(١) قال الاستاذ هكل في كتابهِ — استحالة الاجسام الحية — « انا نرى في اكتشاف داروين الانتخاب الطبيعي في تنازع البقاء اعظم الادلة على استقلال الاسباب الميكانيكية في البيولوجيا ونرى ايضاً نقوض اركان القول بالاسباب الغائية او الحيوية في الاجسام الحية »

ـ وللتحوُّل ـ وايضاً السهولة التي بها يتغير الجنين في اطواره الاولى من التكوين لاقل الاسباب تغيرا يبعد بهِ كثيراً عن اشكال نموهِ الاصلي مما يستنتج منهُ ان العالم العضوي قائم على رسم اساسي يكون بموجبهِ ميل لابسط الصور للبروز في اشكال متغيرة اكثر فاكثر

واني وان كنت مع داروِن لا اسلم بوجود رسم اساسي لاسباب اعدها كافية الاَّ انني اعتبر فكر كوليكر قابلاً لان يكون ذا شأن عظيم اذا اتسع وتأيد بالابحاث الحقيقية. وهو الآن مستند الى كثير من الحوادث التي تتبين قابلية الجراثيم والبيوض والاجنة للانفعال بالعوامل التي من خارج . وعليهِ فانهُ يمكن تغيير التفريخ من بيض الفراخ على نوع معلوم بوسائط معلومة . ويمكن ايضاً توليد متولدات غريبة باحداث بعض عاهات في الجنين . ومما يؤثر جدًّا في تحول الاجنة طعام الوالدين من حيث الكثرة والقلة . والنحل يحوّل فروخ العاملات منهُ فيجعل منها ملكات وذلك بعزلها وحدها والاعتناء بها اعتناءً خصوصياً وتقديمهِ لها طعاماً وافراً . والنمل يجعل الشاغلات منهُ تبلغ غاية نموها باعتناء خصوصي بها . وبعكس ذلك فعل ادوار فانهُ منع فروخ الضفدع من ان تبلغ وتصير ضفادع بحجب النور عنها . ليس لان نموها توقف كلاَّ فانها بلغت قدراً هائلاً انما بقيت في حالتها الفرخية وباذنابها . واجاسيز قال انهُ اذا اعترضت احوال خارجية نمو جرثومتين متشابهتين في درجات مختلفة من نموهما فقد ينشأ عنهما نوعان مختلفان

ولئن كان مذهب داروِن غير كاف لرفع الحجاب عن سرّ الحياة مرة واحدة بل اقتضى لذلك عوامل اخرى ايضاً الا اني لست ارى في ذلك ما يحط من قدرهِ لان التقدم ولو خطوة واحدة في سبيل كثير العقبات كهذا يحسب نجاحاً كبيراً. ففضل داروِن لا ينقص اذا وجد العلم ان الطبيعة تستخدم عوامل اخرى ايضاً لتحويل الاحياء

* * *

ولداروِن فضلٌ في ادخال الفلسفة في العلوم الطبيعية وفي نقض ما كان من الاوهام سائداً على العقول فان هذه العلوم لم يكن يسمح لها من قبل الا بالمراقبة وتجميع المواد وترتيبها وما شاكل ولا سيما ان تقسيم الاعمال قد بلغ في عصرنا مبلغاً يستحيل

على ان هذا القول تطرف لكن لو عدلنا الى الحالة الوسطى وقسمنا العمل بين الانتخاب الطبيعي من جهة والاحوال الخارجية من جهة اخرى لسهل الامر علينا جدًّا وكان لنا حينئذٍ عاملان قويان صحيحان لتعليل التحول

***

ولا بدَّ ايضاً من التسليم بعامل ثالث لم يبسط كما ينبغي ولم يذكرهُ دارون ولكنهُ يتم في الاحياء بحالتها الجرثومية مدة أطوار التكوين ويجعل ما يسمونهُ — تغير التكوين — وهذا القول غير حديث وقد ذكر مرارًا عديدة والاستاذ بمجرتنر من فريبورج قال فيهِ سنة ١٨٥٥ ما معناهُ ان الحيوانات العليا ربما كانت قد خرجت من جراثيم او بيوض حيوانات أدنى بانقسام الجراثيم أو بتحولها غير ان الادلة على ذلك كانت قليلة وغامضة فلم يمكن الاستناد عليها . أما مذهب دارون فنبه العقول لاعادة البحث في هذه المسألة حتى جعلها بعض العلماء الجديرين بهذا الاسم موضوع بحثهِ أعني بهِ المشرح والفزيولوجي الشهير الاستاذ كوليكر فانهُ جمع أبحاثهُ في تقرير تلاهُ على مجمع العلوم الطبيعية والطبية في ورزبورج وهذا التقرير طبع في لبزيج سنة ١٨٦٤ فكوليكر بعد أن بين في تقريرهِ ما في مذهب دارون من النقص شرع في تبيين ما لهُ من المزايا فقال ان دارون قد خطَّ الطريق الوحيد المؤدي الى حل مسألة أصل الاحياء حلاًّ صحيحاً . فظهور الاجسام الحية حسب كوليكر بصفة أحياء كاملة غير مقبول بل تتكون على مقتضى ناموس للارتقاء عام . وعندهُ أن مبدأ هذا الناموس موجود أقل في عامل — الانتخاب الطبيعي — الداروني منهُ في ما يسميهِ مذهب — التكوين الكثير الطبائع — ويراد بهِ أن بيوض الاجسام الحية الدنيا أو جراثيمها ملقحة كانت أم غير ملقحة تستطيع في بعض الاحيان ان تتحول الى صور اخرى قد تكون اعلى منها في الاصل ليس بالطريقة البطيئة التي يعول عليها دارون بل بالتحول فجأة وهو يذكر تأييدًا لمذهبهِ الاحوال العجيبة — لتغير التكوين — وللبرثنوجنزيا[1]

---

(١) التكوين المتقلب

تحجب نور الشمس وفي اميركا الجنوبية القيمان [١] والبوما [٢] والنعام والجاجوار [٣] أصغر من أمثالها في العالم القديم. وفي سوريا والعجم جميع ذوات الثدي ( حتى الصادرة من بلاد غريبة ) ذات شعر طويل أبيض . والكلاب والخيل في بلاد الكورس جلدها مرقط. وقد تضاعف غلظ الخنازير واستقامت آذانها واسودّ وبرها في جزيرة كوبا . والقطط المدخلة الى باراجي قد تغيرت جدًّا حتى صارت القطط التي يؤتى بها حديثًا من اوربا تأبى مباضعتها الاَّ بكرهٍ . وخيل سهول اميركا الجنوبية تختلف جدًّا عن خيل العرب مع ان أصلها من خيل اضاعها الاسبانيون هناك سنة ١٥٣٧ وهي عربية الاصل . فلون شعر الحيوانات وجلدها غالبًا يتغير بحسب طبيعة الاقليم . فالتربة وكل ما يحيط بالحيوان يفعل في ظاهرهِ فعلاً واضحًا . فان المناطق الحارة تولد الالوان الشديدة الزاهية . والمناطق الباردة تولد اللون الأبيض غالبًا وكل لون باهت . والحيوانات التي تقطن الرمال تتلون بلونها . والتي تقيم على اصول الشجر تأخذ لون القشور . والتي تعيش على الاوراق تكون خضراء الخ .

***

فاذا كان مثل هذه الامثلة على ضيق مجال اختبارنا كافيًا لاظهار فعل الاحوال الخارجية وتغيراتها في الاجسام الحية فلا شك اذن ان فعلها البطيء والمستمر في الادوار الطويلة لتكوّن الارض كافٍ لان يجعل في الاجسام الحية نباتًا كانت ام حيوانًا تغيرات كلية شديدة جدًّا. ولاَ سيما اذا اعتبرنا الاختلافات التي وقعت في الاقليم والهواء والحرارة وتوزيع المياه فان سطح الارض قد تغير جدًّا فارتفع في جهات وانخفض في اخرى. وكم هبطت الجبال وهادًا وكم ارتفعت الوهاد جبالاً وكم طغى الماء على اليابسة فصيرها بحرًا وكم ظهرت اليابسة في وسط المياه . وكثير من العلماء الذين لا يسلمون بمذهب داروين يجعل للاحوال الخارجية فعلاً يكتفي بهِ وحدهُ للتعليل عن تسلسل الانواع وتحولها في الماضي والحاضر [٤]

(١) نوع من التمساح (٢) الاسد الاميركاني (٣) النمر الاميركاني (٤) منهم جفروى سنتيلير الذي يجعل الفعل الاهم للتغيرات الهوائية

نتائج غريبة [١]. فان الأصل الانكليزي قد تغير جدًّا في أميركا واوستراليا في مدة قصيرة على نوع ما بحيث ان الفرق اليوم بين الانكليزي والاميركاني والاوسترالي ظاهر . واذا اردنا معرفة هذه النتائج في المدد الطوال فعلينا بالنظر الى الشعوب الهندية الجرمانيَّة التي هاجرت من اسيا ( بين نهر الكنج وجبال حملايا ) الى اوروبا . فانهُ قد تقرر بالابحاث الفيلولوجية أن الاسوجيين والهنود الاريين ذوو اصل واحد . فسائر اعضاء هذه العائلة الآرية الكبرى منشاؤها الواحد في شرقي بحر قزبين أو الجنوب الشرقي منهُ . ولكن أي فرق اليوم بين رجل هندي وأسوجي او نروجي وكم تغير عبيد ( سود ) أفريقيا تغيرًا حسنًا بنقلهم الى أميركا فان جلدهم أشرق لونهُ وعقلهم زاد ادراكهُ وتنبهُ . على ان الاسود في مذهب داروں لا يصير أبيض وبالعكس لانهما ليس بعضهما من بعض بل كل منهما آتٍ من صور بين بين لا عداد لها تختفي اصولها في أصل عالم الحيوان

***

ولنا بقطع النظر عن المهاجرة المهمة حوادث ظاهرة تبين ما للاحوال الخارجية من الفعل الخاص في تكوين الاحياء وتحولها فان في قارة اوستراليا المتميزة عن باقي القارات باحوال خصوصية من حيث الاقليم والتربة والهواء وغير ذلك حيوانات ونباتات خصوصية ذات أشكال غريبة غالبًا

فاشجارها شائكة لا خضرة فيها ذات أوراق صفراء رقيقة متجهة عموديًّا لا

(١) قال الاستاذ موريتز وجنر في رسالة عنوانها ( مذهب داروں وناموس مهاجرة الاجسام الحية ) ما معناهُ ان المهاجرة بالنظر الى مذهب داروں امرٌ مهم وهي شرط ضروري للانتخاب الطبيعي وبدونها يفقد الانتخاب ما لهُ من الفعل . فان الانواع التي لا تهاجر تموت شيئًا فشيئًا . وذكر امثلة كثيرة مفيدة تأييدًا لقولهِ . وهذا الشرط يسد خللاً جوهريًا في مذهب الانتقال ويقيهِ من اعتراضات شتى . والمهاجرات كانت في الادوار الاولى لتكوين الارض اكثر منها اليوم وقد قلت باعتناء الانسان نقام التحسين الصناعي مقام الانتخاب الطبيعي

فلا خوف على مذهب داروين من هذا القبيل . والايضاحات المذكورة لا تبقي عند من يطلع عليها شبهة في ان الانواع تكونت ولا تزال تتكون بالطرق التي ذكرت فيه . ولكن هل هذه الطرق كافية وحدها للتعليل عن سائر احوال نمو العالم العضوي . كلاَّ . فانا لو اطلقنا مذهب دارون على جميع الحوادث المفردة او على ظواهر الحياة اجمع لوجدنا كثيرًا منها لا ينطبق عليهِ وربما كان معهُ على طرفي نقيض . ويستدل منهُ على ان الطبيعة سلكت سبلاً اخرى ايضاً لتحويل الانواع . ولا شك في ان هذه السبل عديدة جدًّا لانهُ من المسلم ان الطبيعة في تفنّنها الذي لا نهاية لهُ يندر ان تبلغ غايتها بسبيل واحد وانا من رأي شارل فوجت حيث قال – في بحثهِ عن مذهب دارون في غازت دكولوين وقد أقر على صحتهِ « ان طرقًا كثيرة تؤدي الى رومه » (١) واحق ما يؤآخذ دارون بهِ كونهُ لم يعبأ كثيرًا بما للاحوال الخارجية(٢) ولاختلافاتها من الفعل الشديد في تغيير الاحياء . ولقد مرَّ بنا في المقالة السابقة ان دارون كثيرًا ما يذكر هذه الاحوال الخارجية الاَّ انهُ لا يجعل لها فعلاً الاَّ مع « الانتخاب الطبيعي » . وما ذلك الاَّ تفصيلاً لمذهبهِ لكي يجعل لهُ المقام الاول. على ان فعلها الخصوصي عظيم جدًّا في الواقع . ولا بدَّ من التسليم بان احوال سطح الارض المتغيرة على الدوام تؤثر تأثيرًا شديدًا في تحويل الاحياء ولا سيما اذا اعتبرنا ما بين القارات من الاختلاف العظيم في الشكل وغيره . وهذا الفعل كان شديدًا جدًّا حيث شاركهُ مهاجرة الحيوان والنبات. واعلم ان المهاجرة تكاد تتناول الاجسام الحية كافة .واسبابها اما القحط او ازاحة نوعٍ لنوعٍ آخر او اختلاف في الاقليم او التربة أو غير ذلك . وقد تكون المهاجرة اتفاقيَّة غير ارادية كانتقال بزور النبات من مكان الى آخر بواسطة المياه أو الرياح أو الطيور وما شاكل

***

فالاحوال الخارجية قد تتغير تغيرًا كليًّا و بغتة بسبب المهاجرة وتؤدي غالبًا الى

(١) وفي المثل العامي كل الدروب تؤدي الى الطاحون

(٢) كالاقليم والتربة والغذاء والهواء والنور والحرارة واقسام اليابسة والمياه الخ

وقد اضمحلت لغات كثيرة في بحر الدور السابق العهد المذكور وفيهِ ايضاً . وقد تكونت عنها لغات جديدة كذلك . ولا شك ان اللغات التي اضمحلت قبل التاريخ والتي لا نعرف عنها شيئاً اكثر جداً من اللغات التي عاشت بعدهُ ولم يبق في تنازعها اليوم سوى اللغات الهندوجرمانية المنتشرة جداً والمتسعة كذلك وفيها كثير من الانواع والتباينات فانه لمهاجرات الشعوب ولاسباب اخرى كثيرة قد فقدت من بينها الصور الانتقالية بحيث صارت اليوم كأنها منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً جوهرياً كائنة بعضها بجانب بعض نظير الانواع في العالم العضوي

***

فيرى مما تقدم كيف ان دارون قد نفى الصعوبات التي تعترض مذهبه—ولاسيما الاعتراض المبني على فقد الصور المتوسطة — وكيف ان ابعد مسائل العلم في الظاهر تجتمع حول مذهبهِ متقاربة متشابهة . فانهُ كما قلنا في المقالة السابقة قد اراد بعضهم ان يضع من شأن هذا المذهب فجعلهُ محض افتراض لا يمكن تبيين صحتهِ .والحال ان مثل هذا الطعن لا يفيد شيئاً لان اعظ الاكتشافات وتقدم العلوم ولا سيما الطبيعية سببها مثل هذه الافتراضات وما ينبغي اعتبارهُ في كل افتراض كون المواد المبني عليها كافية ام لا والنتيجة المستخرجة قياسية كذلك . ولا يستطاع انكار ذلك على مذهب دارون .ومما يؤيد صحتهُ هو انهُ يعلل بهِ كثير من المسائل التي لا تفهم بدونهِ ببساطة كلية وباسباب طبيعية . وكل تعليل لا يكون طبيعيًّا لا يفيد شيئاً بالحقيقة بل هو اقرار بالجهل يقيم المعجزة مقام النواميس الطبيعية والعلم لا يرضى ذلك . والطاعنون على مذهب دارون هم اصحاب الدين مع ان تعليمهم نفسه — المبني على ثبوت الانواع وتكرار الخلق — احق بلفظة الافتراض في اسوء معانيها . لانهُ ما عدا انهُ لا برهان لهم على تأييد دعواهم سوى الايمان فمذهبهم لا يتفق مع الحقائق البينة والعلم الصحيح الذي لا يعرف نسبة اخرى سوى نسبة الاسباب والمسببات . واذا كانت امورٌ كثيرة لا تزال محجوبة عنا فلا يلزمنا من ذلك ان نلبسها ثوب المعجزة ونغلق باب البحث في وجهها بل ينبغي لنا ان نبالغ في معالجتها عسى ان ينكشف سرها لنا يوماً ما

فسبب التباعد العظيم بين اللغات كما بين الانواع أيضاً هو فقد الصور المتوسطة ليس الا وكل لغة ماتت لا تحيي كما ان كل نوع انقرض لا يعود

***

ومن اراد التعمق في هذا البحث فعليهِ ما عدا كتاب ليل بكتاب شليخر — مذهب دارون وعلم اللغات ( سنة ١٨٦٣ ) — قال مؤلفهُ أن مبادىء دارون تطلق جميعها على كيفية نمو اللغات فان جميع لغات اوروبا يكاد يكون لها اصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ومنها تفرعت عدة فروع أولاً . ثم تفرع من هذه الفروع فروع اخرى وهكذا . ولا يظن أن ما قيل افتراض كلاَّ بل هو مقرر علميًّا فانهُ يمكن مراقبة لغة من اللغات وتتبع سيرها في سائر أحوال ارتقائها - وبهذا يتميز الفيلولوجي عن الطبيعي الذي يصعب عليهِ مراقبة الانواع جدًّا — كاللغة اللاتينية مثلاً فانهُ يتحقق منها أن اللغات تتغير ما دامت يتكلم بها . ولنا في الآثار الكتابيَّة الدليل الذي لا ينقض على صحة هذا القول. ولولا الآثار المذكورة لتعذرت معرفة ذلك على الفيلولوجي ولكانت عليهِ اصعب من الانواع على الطبيعي . ولما كانت تحولات لغة تحصل في زمن قصير جدًّا بالنسبة الى الانواع كان ادراكها اسهل ايضاً . وزد على ذلك ان سائر اللغات حتى اعظمها يعلم من بنائها ان ارتقاءها حصل بالتدريج مبتدئاً من ابسط الصور . فلم يكن فيها في اولها سوى الالفاظ البسيطة المعبرة عن الاحساسات والصور والافكار وما شاكل بدون ادنى تغير صرفي او نحوي . وقد تكونت هذه الاصول في اول الامر كما تكونت الكريات العضوية وكانت كثيرة نظيرها . وهذا يدلنا على انهُ كان في البدء لغات امّ كثيرة خاضعة كلها لكيفية نموٍ واحدة كالصور العضوية الاصلية ولم يسر نموها في سبل مختلفة الاَّ بعد حين نظيرها

وعلى ري شليخر فاللغات بقيت قبل دخولها في العهد التاريخي زماناً اطول منهُ بعدهُ وذلك مطابق لما يعلم عن الانسان وقدمهِ قبل العهد المذكور .ولا يخفى انا لا نعلم شيئاً عن اللغات قبل اختراع الكتابة وان هذا الاختراع يدل على درجة متقدمة جدًّا في تاريخ الارتقاء البشري

لتجمع اسباب عديدة صغيرة لا قيمة لها في الظاهر بحد نفسها كادخال عبارات اجنبية وكثرة الخطباء والكتبة والاختراعات والاكتشافات وتعلم علوم جديدة وتنازع الالفاظ المختفة الى غير ذلك مما يغير اللغة وتكون نتيجته ملاشاة الحدود او الصور التي بينَ بين . فان ترجمة لوثر للتوراة قد ايدت شان اللسان السكسوني في سائر المانيا زماناً طويلاً . واما اليوم اي من بعد ثلاثمائة سنة فيكاد لا يفهمه احد . ومن المقرران القاطنة المنقطعة علائقهم مع وطنهم الاصلي اذا مرَّ عليهم نحو خمسمائة او ستمائة سنة وهم على هذه الحال من الانقطاع فانهم لا يعودون يفهمون لغة وطنهم لما يكون قد حصل فيها من التغير بسبب المخالطات والتقدم بخلاف لغتهم التي لا تكاد تتغير لقلة ذلك عندهم . فان الامير برنار من سكس ويمر التقى في سفره الى اميركا الشمالية ( سنة ١٨١٨ — ١٨٢٦ ) بقاطنة المانية انقطعت علائقها مع اوروبا في حروب الثورة الفرنساوية ( سنة ١٧٩٢ — ١٨١٥ ) نحو ربع قرن . فوجدهم يتكلمون لساناً قديماً كان شائعاً في المانيا في القرن الماضي وقد قل استعماله فيها . وقد نزلت قاطنة نروجيه في ايزلاندا في القرن التاسع حيث بقيت مستقلة نحو ٤٠٠ سنة وتتكلم لغتها الغوثية القديمة . واما لغة نروج نفسها فقد تغيرت جدًّا عن الاصلية لعلاقاتها مع اوروبا . ولهذا السبب لا يفهم الالمان اليوم اللسان الالماني القديم ولا الانكليز الانكليزي القديم ولا الفرنسيس الفرنساوي القديم

وكلما تمدنت الامم زاد تقدم لغاتها لتوزع الاعمال حينئذٍ واتضاح الافكار واتساعها ولزوم التعبير عن كل منها بدلالة خاصة فغنى اللغة بالالفاظ دليل على حالتها من التقدم وحالة الانسان من التمدن (١)

وقد ذكر ليل مثالاً واضحاً على فقد الصور المتوسطة في اللغات وعلى مايترتب على ذلك من النتائج . فقال ان اللغة الهولاندية متوسطة بين الالمانية والانكليزية . فلو ماتت اللغة المذكورة كما لو انضمت البلاد الى بلاد غيرها استغرقتها أو طرأ عليها طارئ طبيعي أوجب مثل ذلك فيها . لابتعدت المسافة بين الانكليزية والالمانية جدًّا ولما ظنَّ الفيلولوجيون في المستقبل على فرض جهلهم ذلك انهُ كانت توجد صلة بين اللغتين

(١) اغنى لغة على قول الانكليز لغة شكسبير اي لغة الانكليز

الاصول لا يزال موجوداً كالمنك الذي يطارد السمك في الماء في الصيف والحيوانات الارضية في الشتاء

والسبب الثاني الذي تضمحل لاجلهِ الصور المتوسطة اي الانتقالية بسهولة وسرعة هو ان المنازعة والمزاحمة تبلغان الغاية في الشدة بين الصور الاقرب بعضها الى بعض. فما كان منها ضعيفاً تلاشى لمنازعة ما كان منها قوياً لهُ وتقل المنازعة بين الاحياء المتباعدة بطول المنازعة بينها فيسهل قيامها بعضها بجانب بعض وعلى ذلك فتكون اسباب تلاشي الصور الانتقالية عظيمة جداً كما كانت اسباب توليدها كثيرة كذلك . وكلما اسرع الارتقاء وتميز (كما في اعلى ذوات الفقر خاصة) خفي تحولهُ

***

ومن المقرر أن الصور التي بين بين تضمحل ايضاً في مبحث آخر غير هذا لهُ بهِ علاقة شديدة وان ظهر لنا انهُ بعيد عنهُ جداً أعني بهِ المبحث اللغوي فان اللغات المختلفة كالانواع تنمو وتنشأ بعضها من بعض وتنازع ايضاً والفرق بينها ان اللغات تتغير بسرعة اكثر من الانواع جداً ولذلك كانت في تغيرها اظهر لنا منها فالانواع قد تدوم مائة الف سنة . ولا يعلم ان لغة دامت اكثر من عشرة قرون. وهذه المشابهة المهمة جداً ذكرها داروين في صفحة ٤٢٦ من كتابه الا انهُ لم يبسطها البسط الكافي . بخلاف الجيولوجي ليل فانهُ استناداً الى ابحاث الفيلولوجي (١) الشهير مكس مولر افرد فصلاً من كتابه - قدم الجنس البشري - لاطلاق مذهب داروين على اللغات وقد بيَّن فيهِ بما لا يقبل الاعتراض ان الانواع في الطبيعة واللغات في التاريخ تتغير تبعاً لنواميس متشابهة وكما انهُ يصعب تمييز الانواع عن التباينات هكذا يصعب تمييز اللغات عن الالسنة ايضاً والفيلولوجيون غير متفقين على عدد اللغات كما ان الطبيعيين غير متفقين على عدد الانواع فهي عندهم من ٤٠٠٠ الى ٦٠٠٠ لغة . وليس لهم حدٌّ مقبول يفصل اللغة عن اللسان كما انهُ لا يوجد حدٌّ يفصل النوع عن التباين والعاملان الجوهريان في اللغات هما كما في الانواع التغير والانتخاب الطبيعي وكما يحصل في الانواع كذلك يحصل في اللغات ايضاً نتائج عظيمة

(١) اي اللغوي نسبة الى الفيلولوجيا اي علم اللغات

للدور الثنائي وعلى قول دارون انهم عرفوا في العرق الرملي الاحمر اثر ارجل ثلاثين طيرًا كبيرًا لم يعثروا على بقايا لها . وعلى ذلك فكلما كثرت الاكتشافات الجديدة اتضح لنا عدم ظهور الانواع فجأة خلافًا لما كان يعتقد سابقًا (١)

***

والجواب الثالث الذي يدحض دارون بهِ الحجة المقامة على مذهبهِ من فقد الصور المتوسطة يتعلق باحوال حياة هذه الصور فانهُ لا توجد الصور الانتقالية الاَّ نادرًا على رأيهِ لانها أقل شدة واقصر مدة من الاصول التي جاءَت بعدها ولسهولة اضمحلالها وسرعتهِ سببان :

احدهما ان مدة التغير في احوال الحياة الخارجية الموافقة خاصة لتولد الصور الجديدة بالانتخاب الطبيعي هي اقصر جدًّا من المدة التي تتكيف وتثبت فيها الصور المذكورة . ولبيان صحة هذا القول اعود الى ذكر المثال الذي ذكرهُ شارل فوجت في رسائلهِ في الانسان حيث ذكر ان الدب الاسمر الحاضر لا شبهة في ان اصلهُ دب الكهوف القديم الذي كان في الدور الطوفاني . فانا نعرف الدرجات الثلاث الانتقالية بينهما غير ان وجود بقاياها نادر بخلافهما فان وجودهما كثير ولا سيما دب الكهوف الذي لا يكاد يخلو منهُ كهف من الكهوف الكثيرة جدًّا التي استقصيت للدور الطوفاني . ولا يفهم سبب ذلك الاَّ لسرعة تغير احوال الحياة الخارجية واضمحلال هذه الصور الانتقالية في تنازعها مع هذه الاحوال الجديدة

واعلم ان تغير الاحوال الخارجية قد بلغ الغاية في التأثير والثبات حيث حصل انتقال من الحياة في الماء الى الحياة على اليابسة وفي الهواء فكل صورة حية ثبتت في هذا الانتقال كان تكوينها بالغًا من الارتقاء شيئًا غير قليل ويظن دارون ان مثل هذه

(١) علم البالنتولوجية كما تقدم لا يزال في المهد الاَّ ان الامل بهِ كبير والاكتشافات فيهِ تزداد يومًا عن يوم . ولقد جلب الطبيعي جودري احافير من بيكاري في بلاد اليونان الى باريس واكثرها من انتي بين بين وقد وصفها بتاتيار في رسالتهِ في تحوُّل الاحياء المطبوعة بباريس سنة ١٨٦٦ . فهذه الاكتشافات لا تصل بين طوائف ذوات الثدي المتقاربة فقط بل بين المتباعدة جدًّا ايضًا كما بين الدب والكلب والخنزير والفرس الخ

نظراً لكيفية توالي الحوادث الجيولوجية لا بدَّ من فقد الرابط وحصول الفراغ لان الطبقات الجولوجية المختلفة تفصلها ادوار طويلة جداً فان كل قسم من سطح الارض يحصل فيهِ على الدوام تغيرات كثيرة وبطيئة تحدث تغيراً في ارتفاعهِ فترفعهُ تارة فوق البحر وتخسفهُ طوراً تحتهُ ويشمل ذلك مساحة من الارض عظيمة » (١) فهذا التعاقب نتيجتهُ حصول فترات في الادلة الجيولوجية على تكون الاحياء لانهُ في حين الارتفاع الاصلح لتكون الصور الحية الجديدة لا ترسب تلك الرواسب اللازمة لحفظ البقايا العضوية وترسب في حين الانخفاض . وعلى ذلك فالارض التي ترتفع فوق الماء تكون انواعها حديثة مع انها هي نفسها متكونة في اماكن اخرى لكنها لا تحتوي شيئاً مدفوناً فيها من البقايا الحية التي تسمح بربطها بالانواع التي كانت عليها قبل الانغمار في الماء فلا تعلم النسبة بين أحيائها قبل الانغمار وبعدهُ ولكي يمكن ذلك ينبغي الحصول على عدد وافر من الاصول من اماكن مختلفة ولا يكاد يتيسر . ذلك على انهُ في كل سنة تحصل اكتشافات تؤيد هذا المذهب اذ يزداد عدد الاصول المعروفة التي بين بين فيقوى المذهب على دحض اغلاط الماضي ولكم بقوا لا يعتقدون وجود ذوات ثدي كبيرة قبل الدور الثلاثي أي انهُ لا توجد قرود أحفورية في ما قبلهُ . وأما اليوم فيعرفون كثيراً من القرود الاحفورية . وقد وجدوا ذوات ثدي كبيرة في الاراضي الثنائية حتى في ما هو أقدم منها ايضاً . وهكذا أيضاً كان يظن في الطيور فانهُ لغاية سنة ١٨٥٨ لم يكونوا يعرفون آثار طيور قبل الدور الثلاثي . وأما من ذاك الوقت فقد اكتشفوا في اعلى العرق الرملي الاخضر — حجر المسن — للطبقة الطباشيرية ( طبقة ثنائية عليا ) آثار طير مائي من طائفة زمج الماء المعروف بالنورس ايضاً . وقد اكتشفوا الاركوبتريكوس مكروروس في اقدم من ذلك أيضاً أي في الطبقة الاوليئية

(١) لا شبهة في صحة هذا القول فانهُ لا يزال يرى في دورنا هذا اختلافات بطيئة في علو سطح الارض في عدة اماكن منها في سكندنافيا وفي اميركا الجنوبية وفي ايطاليا وفي غيرها . فان ساحل والبارازو قد ارتفع ١٩ قدماً في ٢٢٠ سنة وحصل اعظم من ذلك ايضاً في شيلو وارتفعت الارض في كوكمبو عدة اقدام في ١٥٠ سنة وكلما حصل ذلك مرة يعقبهُ غالباً فترة طويلة وقد قرَّروا ارتفاع ارض سكندنافيا بمائتي قدم منذ العهد التاريخي

الواحدة فلو اردنا البحث في اصل كل ورقة لاقتضى ان نبحث عنه في الاغصان بل في الفروع بل في الساق بل في كل جذر من جذور الشجرة على حدته . قال دارون في هذا المعنى ما نصه « ان القاعدة التي تعلمنا ان الطفرة في الطبيعة محال لا تصح اذا اقتصرنا على الاحياء التي تقطن الارض اليوم وانما تصح اذا نظرنا الى الماضي وبحثنا عن اصل هذه الاحياء فيه . فان بينها فراغاً كبيرًا ولكنه ظاهري فقط لا حقيقي لان الصور المتوسطة التي كانت تصل بينها ماتت منذ زمان طويل » وفي الجملة فان جميع الاصول المتعددة كانت في الماضي كما قيل في المقالة السابقة اقرب بعضها الى بعض مما هي اليوم واما اليوم فقد تباعدت جدًّا متشعبة حول الاصل الاول وصار الفراغ بينها كبيرًا ايضاً كذلك

* * *

والجواب الثاني هو قلة المعلوم لنا من الارض فانه قد تقدم في المقالة السابقة ان المعلوم المستقصى منها يكاد لا يكون شيئاً يذكر . ولذلك كان علمنا بالاحياء الاولى ناقصاً جدًّا ايضاً فان ثلاثة ارباع الارض تحجبها المياه والربع الباقي قسم كبير منه تغطيه الجبال او تحول دون استقصائه موانع اخرى شتى وما بقي فلا نعرف عنه الا القليل . فلا غرو اذا كانت سلسلة الاحياء تظهر لنا مقاطعة تفصلها فراغات عظيمة وزد على ذلك ايضاً ان الاحياء الحيَّة لا تحفظ غالباً واذا حفظ منها شيء فبعضه ولا بدَّ لهُ ايضاً من احوال خصوصية موافقة فالاجسام الرخوة لا يبقى منها شيء . ولا يبقى من الاصداف والعظام ايضاً الاَّ ما كان مدفونًا في الارض غير معرض للفساد . وقد ذكر ليل في كتابه — قدم الجنس البشري — مثالاً على سرعة فساد البقايا فقال انه في سنة ١٨٥٣ لما تمَّ تجفيف بحيرة هارلم لم يوجد فيها اثر لعظام بشرية مع انه قد حصل فيها حروب وغرق فيها مئات من الاسبانيول والهولانديين وقطن على ضفاتها نحو ٤٠٠٠٠ نسمة مدة قرون ولم يلتق فيها الاَّ بعض بقايا مراكب ودراهم واسلحة وما شاكل .

فما قلناهُ كاف لمعرفة النقص في المعلومات البالنتولوجية وفقد الصلة بين الاحياء في غالب الاحيان ولدارون في سبب ذلك نظر آخر ايضاً جوهري حيث يقول « انهُ

وكثير من الجيولوجيين والزولوجيين ( علماء طبائع الحيوان ) والبالنتولوجيين يبحث عن صور متوسطة بين نوعين موجودين وذلك على رأي دارون خطأ لان الصور الحاضرة غير آتٍ بعضها من بعض رأساً بل كل منها منتهى سلسلة تحولات طويلة . ولذلك كان يقتضي اذا اريد الجمع بين صورتين معلومتين ان يبحث لهما لا عن صورة تجمع بينهما رأساً بل عن اصل مشترك مجهول . مثال ذلك الحمام الطاووسي والحمام الغليظ العنق فانهما غير مشتقين بعضهما من بعض بل من الحمام البري وكل منهما يتصل فيه بصور متوسطة خاصة بهِ . ولا يوجد صورة متوسطة بين الفرس والتابير ومع ذلك فهما متحولان عن اصل مشترك مختلف عن كليهما وقد اضمحل منذ زمان طويل . والصور الاربع الحاضرة الفرس والحمار وحمار الوحش والكواجا لم يكتشف على صور متوسطة بينها تصلها بعضها ببعض رأساً مع انه يجمعها اصل واحد احدث عهداً من الاصل السابق وقد اضمحل ايضاً . واعلم ان الصور الحاضرة كلما كانت مختلفة بعضها عن بعض جداً كانت الاصول التي تجمعها بعيدة كذلك .

***

ومما يعز فهمه ان خصوم دارون كثيراً ما يفوتهم هذا الشرط المهم جداً فيقولون لك مثلاً أتريد أن تقنعنا بان الاسد يأتي من الحمار والفيل من النمر ؟

فلو كان مذهب دارون يعلمنا شيئاً من ذلك لوجب علينا ان نلحقه بغرائب العلم . ولكنه يترفع عن مثل هذه التهمة بما بسطناه من البيان السابق وهو ان الصور الحيّة للعالم الحاضر لا يشتق بعضها من بعض وانما هي النتائج الاخيرة لتحول حاصل في اصل ماض بفعل الطبيعة البطيء في ملايين السنين . ويستحيل ان نتابع هذه الاصول لان كلاً منها منتهى تحول طويل خاص به . على انه لا يمتنع اجتماعها بعضها بجانب بعض على ارض واحدة وفي وقت واحد (١) . كما تجتمع اوراق الاغصان المختلفة في الشجرة

(١) قال الاستاذ هليار ( ان الصور الحية الكائنة بعضها بجانب بعض قد تكونت بالقرب بعضها من بعض لا بعضها من بعض وكثيرون يتوهمون ان مذهب دارون يعلم بانتقال نوع حيّ الى نوع آخر فمن كانت افكاره كذلك فلا شك انهُ لم يقرا دارون)

الثنائية والاراضي الثلاثية المتوسطة عالماً من الحيوانات البحرية مؤلفاً من نحو ثمانمائة نوع ملأ دفعةً واحدة فراغاً واسعاً ولا ريب ان مثل هذه الاكتشافات لا يزال لازماً لنا كثيراً . ولا يخفى انهم قبل دارون لم يكونوا يعبأون كثيراً بالتنوعات كأن ليس لها معنى واما اليوم فصاروا يعتنون بها و يعرفون قيمتها .

واذا نظرنا الى المسألة من وجهها الحقيقي نجد ان لا فرق ايضاً بين الحيوانات العليا كذوات الثدي مثلاً والحيوانات الرخوة البحرية من هذا القبيل . فان المموث اي الفيل الاول ليس الا منتهى سلسلة طويلة لا تتضمن اقل من ٢٦ نوعاً من الفيلة الاولى وهذه الصور الانتقالية تصل بين المستودنت ( نوع من الفيل يمكن تتبع اصله الى الدور الثلاثي ) وفيلنا الحالي . وهكذا يمكن تتبع اصل الرينوسروس اي الكركدن ذو القرن الواحد الموجود حيث يوجد الفيل الى اجداده الاول. وقد اكتشف المشرح الانكليزي ( أون ) عدة صور احفورية متوسطة بين المجترات والصفاقية الجلد بحيث ان المسافة البعيدة التي تفصل الجمل عن الخنزير مثلاً قد انتفت

***

واكتشاف الطير العجيب الاركو بيتريكوس مكروروس حديثاً وصل بين طائفتين من الحيوان منفصلة احداهما عن الاخرى انفصالاً تاماً . وهما الطيور والحشرات [1] .

(١) هذا الاكتشاف يسوغ لنا منهُ ان نجعل الطيور والحشرات من مصدر واحد كما فعل جفروى سنتيليار سنة ١٨٢٨ اذ قصد ان يبين ان الطيور صادرة عن الحشرات . والاركو بيتريكوس مكروروس اكتشف سنة ١٨٦١ في سولنهوفن في بورا العليا . وقد اشترتهُ انكلترا بخمسة آلاف ريال . وهذا كاف للدلالة على عظم قيمة هذا المكتشف . وطول هذا الحيوان قدم واحدة وثمانية قراريط . وعرضهُ قدم واربعة قراريط . ولهُ ذنب اشبه بذنب الضب طولهُ احد عشر قيراطاً ونصف قيراط مكوّن من عشرين فقرة رفيعة مستطيلة وفي كل فقرة منها ريشتان . بخلاف ذنب الطير الحالي فانهُ قصير ويجتمع على نفسهِ وليس لهُ سوى اربع او خمس فقرات قصيرة وريش الذنب في الفقرة الاخيرة منها فقط . وفقرات الذنب في الطيور الحاضرة لا تكون منفصلة الاّ في الحياة الجنينية . فان ذنب النعام لهُ من ١٨ الى ٢٠ فقرة في اول حياتهِ فاذا ارتقى صارت تسعاً . واما ريش الطرفين الاماميين للاركوبتريكوس فكما لمروحة . فهو لذلك ناقص عما هو في الطيور الحاضرة . فكل ذلك يدل على ان هذا الحيوان اصل قديم جدّاً يقرّب المسافة بين الطير والحشرات

وكان في امكان دارون الاستغناء عنه لولا انهُ راعى حاسات مواطنيه الدينيَّة . لان قاعدة مذهبه الصدفة العمياء . وكله قائم على افعال طبيعية لا شيء من القصد فيها . وهو اعرق في المادية من مذهب لامرك لان لامرك يسلم بناموس للارتقاء عام واما دارون فان ارتقاء الاحياء عنده متوقف على تجمع تدريجي في الأفعال الطبيعية العارضة الضعيفة التي لا تحصى

***

فاعتراضنا اذاً علمي لا لاهوتي . وهو مهم جدًّا لانهُ اذا صح ولم ينفَ ألم ليس فقط بمذهب دارون وحده بل بسائر مذاهب التحوُّل ايضاً . ولا سيما ما تعلق منها بالانسان لتعيين مقامه في الطبيعة وفي عالم الحيوان . وهو اذا صح ان الاحياء تكوَّنت بالتحوُّل بعضها عن بعض رويداً رويداً فلا بد من ان كان بينها صلة تدل على انتقالها اي من صور بين بَين . وكان ينبغي ان تلتقي هذه الصور في الارض . فلماذا لم يكن بينها ذلك واذا كان فلماذا لم يوجد ؟

فنقول ان لنا على فساد هذا الاعتراض ثلاثة اجوبة : احدها انه تعلم صور كثيرة متوسطة وكل يوم تلتقى صور جديدة ايضاً ولا سيما من الحيوانات الصدفية المحفوظة احسن من سواها من رتبتها الدنيا لغشائها الحجري اي الكاسي . ولذلك كان ترتيبها في سلسلة تحوُّلها اسهل ايضاً . ولنا الآن سلسلة طويلة من الاصداف المعروفة يختلف طرفاها جدًّا بحيث يستحيل الجمع بينهما لولا ما بينهما من الصور المتوسطة الدالة على بطىء التحوُّل (١) وما كان لا يزال ناقصاً من هذا القبيل قد كمل بما وجد في الطبقات المكتشفة حديثاً في الارض . فانهم قد وجدوا في هذه السنين الاخيرة بالبحث في طبقات هلستاد وسان كسيان في منحنى جبال الب النمساوية الجنوبي والشمالي بين الاراضي

---

(١) دافيدسن صاحب رسالة جليلة في وصف ( براشيبود ) انكلترا يقول ان السبيريفيرا تريجونا والسبيريفيرا كراصا طرفي طائفتهما يختلفان جدًّا بحيث لا يصدّق من لم يرَ الصور التي تربطهما انهما متقاربان - براشيبود - معناها الذراعية الارجل اسم يطلق على الرتبة الخامسة من طائفة الحيوانات الرخوة -

# المقالة الثانية

فهرست : اعتراضات على مذهب دارون : (١) اعتراضات لاهوتية ( ٢ ) اعتراضات من نقدان بين بين — وجود صور انتقالية في العالم الادنى — سوء فهم مذهب دارون — نقصان المعلومات الصور التي الجيولوجية — اسباب اخرى للنقص الكائن في تسلسل الاحياء الدنيا — اكتشافات جديدة قصر مدة الاصول المتوسطة وعدم ثباتها — بيان سهولة ملاشاتها بامثال مأخوذة من اللغات — اللغات ترتقي كالانواع في مذهب دارون — نظر شليدر في اصل اللغات الاوربية وارتقائها باعتبار اللغة الهندية الجرمانية انها الام — انتقاد مذهب دارون — ماله من المزايا وما فيه من النقص — عجز مذهب دارون عن تعليل كل الحوادث — طرق اخرى لارتقاء الاحياء : احوال خارجية — مهاجرة الحيوان والنبات — تغيير النسل — مذهب كليكر — فضل دارون في توجيه الاميال الفلسفية الى العلوم الطبيعية وتجريدها من الاسباب الغائية — ادلة ضد التيليولوجيا أي الاسباب الغائية — نظر شليدر في دارون وفي التيليولوجيا — تعليل اميال الحيوان وبداهه بمذهب دارون .

لقد تقدم الكلام في المقالة السابقة على مذهب دارون وما يترتب عليهِ على سبيل الاختصار . وما قيل فيها لا بد من ان يرسخ تأثيرهُ في رأس كل عاقل . على ان الاعتراضات على هذا المذهب كثيرة وقد عرفها دارون نفسهُ فأفرد لها قسماً كبيراً من كتابهِ . ولم يبسطها كذلك الاَّ لينفيها بمالهُ من سعة الاطلاع ودقة النظر ولكي يبين ايضاً صحة مذهبهِ بمزية التحقيق وفضل التدقيق . ولقد اظهر من خلوّ الغرض ما لا شك في انهُ لم يقصد بهِ سوى معرفة الحقيقة

وانهُ ليطول بنا الشرح اذا فحصنا كل الاعتراضات التي اعتُرض بها عليهِ او اعترضها هو على نفسهِ .فنقتصر على واحد منها فقط هو أهمها جميعاً . لانهُ يظهر في اول الامر ان نفيهِ غير ممكن .وهو غير الاعتراض اللاهوتي الذي لم ينفهِ دارون نفياً صريحاً بل اراد تقليل قيمتهُ بجعلهِ الخلق المحصور في بضعة اصول قابلة كل تغير لاحق من نفسها اولى بحكمة الخالق وعظمتهِ . ولا حاجة الى القول ان مثل هذا التعليل ساقط من نفسهِ

سابقًا لا قيمة لهُ اليوم لان الاكتشافات الكيماوية ولا سيما في العشرين سنة الاخيرة قد صيرت الممتنع ممكنًا فان الكيمياء الآن تولد مركبات عضوية كالكحول وسكر العنب والحامض الاكزاليك والحامض الفرميك والدهون حتى الالبيون والفيبرين والخندرين أيضًا من الجماد رأسًا. وكان يظن سابقًا ان مثل ذلك ممتنع بغير فعل القوى الحيوية. ولا شك ان ما يستطاع في المعامل الكيماوية يستطاع أعظم منهُ في الطبيعة فليس من العقل اذًا ان ينكر عليها طبيعيًّا ما يستطاع لغيرها صناعيًا

ولا يتوهمنَّ احد ان في طاقتنا ان نركب احياء بالغة في الارتقاء فان مثل ذلك ممتنع صناعيًّا لامتناع حصولنا على الاحوال اللازمة لهُ ولا سيما الزمان الذي هو أهم ما يكون. وكل ما يمكن ان نرجوهُ بمعالجة المركبات العضوية الصناعية بجميع مقتضيات الحياة هو الحصول على احياء دنيئة جدًّا كالتي تقدم الكلام عليها. وأما ما كان اعلى منها فيستحيل علينا لانهُ يستحيل ان نجمع الاحوال المناسبة الضرورية لهُ في مالنا من الوقت القصير حتى ولو اننا عرفناها كما ينبغي. على ان الانسان قد توصل الى اشياء جليلة جدًّا غير منتظرة فربما توصل أيضًا الى اكثر مما نرجو (١). ومهما يكن من ذلك فلا ينبغي ان نطمع ابدًا بتركيب احياء بالغة مبلغًا عظيماً من الارتقاء لان مثل ذلك نتيجة عمل شاقٍ جدًّا عملتهُ الطبيعة ولم تتمَّهُ الاَّ في زمان طويل جدًّا في ملايين من السنين (٢)

(١) قال جورج بوشه في كتابهِ — تعدد فروع البشر — (المطبوع بباريس سنة ١٨٦٤) ما نصهُ " ان عقل الانسان لا حد وليس من يعلم الى اين يصل ومن يدري اذا كان لا يفعل يومًا ما كما فعل روموثيوس وينفخ الحياة في نوع جديد يخرجهُ من معملهِ " — بروموثيوس هو ابن يابت نفخ الحياة في رجل من الجص باغتصابهِ نار السماء فغضب لذلك جوبتر فامر فلكان فربطهُ على جبل قوقاس وسلط عليهِ دودة تاكل كبدهُ فكانت كلما اكلت منها شيئًا نما

(٢) كان الاستاذ شفهوزن تفحص بالمكروسكوب حبيبات سمكها ٠٠٠ $\frac{1}{٢}$ — ٠٠٠ $\frac{1}{٣}$ من الخط فرآها تولد ذات الكرية الواحدة في اول اصل الحياة الحيوانية · ثم رأى ذات الكرية الواحدة تتحول الى الحيوانات النقيعية التي هي ارفع منها رتبةً وذلك رويدًا رويدًا · وقد وافقهُ على ما رأى جورج بناتبار حيث قال (اني اوافق شفهوزن في انهُ يمكن مشاهدة الحيوانات النقيعية كما يشاهد تكوّن البلورات في سايل فيهِ ذلك) والاستاذ ملر من يانا رأى فطرًا خيطيًا (الفطر العفني) تتغير صورته بحسب الاشياء التي يتولد فيها وقال ايضًا (ان اشياء جديدة مثل ذلك تشاهد كل يوم) اه

شيئاً غير قليل من النمو بحيث لا يصح ان تكون اول الاجسام العضوية ولو انهم حاولوا اقامة اسباب جيولوجية لتعليلها . غيران ويليم لوجان قد اكتشف في كندا فوق مجرى نهر لورنزو عدة حجار صلبة جدًّا لا شبهة في كونها سابقة اقدم الحجار السيلورية . وقد اقتضى لها الى ان بلغت درجتها الحاضرة ازمان طويلة جدًّا وقد سموها بالطبقة اللورنزية (١) .فهذه الحجار اللورنزية التي وجدت ايضاً في هونكاريا وبافيارا تطلق على عرقٍ كلسي سمكهُ الف قدم وفيهِ آثار عضوية . وهذه الآثار آثار اصداف لنوع عظيم هو الريزوبود (٢) المشتمل على حيوانات من ادنى درجات الحياة . وهي ليست سوى الكتل الصغيرة الرخوة للبلاسما التي وصفها هكل وتختلف عنها بزيادة غشاءٍ كلسي فقط . وهذا الغشاء محفوظ في الارض ويوجد مخلوطاً بالحجار الكلسية لاميريكا ويعتبر كاول آثار الحياة . واما الحيوان نفسهُ فلا يوجد منهُ شيءٌ بالضرورة ولا يزال كثير من هذه الحيوانات موجوداً في قعر بحارنا ايضاً وهي مكوَّنة من حويصلة صغيرة مخاطية حية لا بناءَ لها ولا صورة خلية ولها صدف رقيق للغاية

ولم تتغير هذه الحيوانات عن حالتها منذ ظهرت الحياة الى يومنا هذا الذي كثرت فيه سكان الماء والهواء والارض جدًّا وقد سموا الحيوان الذي وجدوه في كندا « ايوزون كنادتس » او حيوان الشفق الكندي اشارة الى انهُ شفق الحياة (١)

فهذا الحيوان او ما هو من رتبتهِ يرينا بهِ اول درجات الحياة او ما يكاد يكون كذلك ويوضح لنا سر الحياة الذي هو اعظم اسرار الطبيعة بطرق طبيعية . ورب معترض يحاول نقض ذلك فيسأل كيف تولدت المركبات العضوية التي تنمو فيها الاحياء الاولى كالمونير وما اشبه ؟ أيستطاع ان يبين انها تكونت ذاتياً من الجماد مع علمنا انها لا تتكوّن الا بفعل الاجسام العضوية نفسها ؟ الاَّ ان هذا الاعتراض المعوَّل عليهِ

(١) نسبة لنهر لورنزو المار ذكره

(٢) الريزو : د صف من ادني صفوف الحيوان يسمى بروتوز واراي الحيوانات الاولى

(٣) داروين يجعل الايوزون من ادنى رتب الحيوانات المعروفة ايضاً الاَّ انهُ يضعهُ في مقام متميز في رتبتهِ لتوقعتهِ

الذي احاط بالارض بعد ما بردت بدون ان تتغير حتى طرأ تغير على احوال الحياة الخارجية اقتضى أن تتغير لهُ هذه الاحياء ذات الاصل الواحد فتغيرت كتلتها الالبيومينية ذات الطبيعة الواحدة (١)

غير ان هكل لا يؤكد ما اذا كان التولد الذاتي لا يزال يحصل اليوم ام لا وانما يؤكد انهُ لابدَّ ان يكون قد حصل ولو مرة واحدة في الازمان الاولى . والبلنتولوجيا لا يسعها ان تكشف لنا عن شيءٍ من هذه الاحياء الاولية للاسباب التي ذكرها جيجر. وهكل كجيجر لا يسلم بحد فاصل بين النبات والحيوان . ويقول بوجود طائفة متوسطة بينهما اي طائفة البروتيست اي الاحياء الاولى . والفرق الجوهري بينهما على رأيهِ ان الكرية تكتسب في نموها قواماً في النبات هو اشد منهُ في الحيوان . وقد حصر مذهبهُ بما يأتي حيث قال : « ان جميع الاجسام العضوية التي تأهل الارض اليوم والتي كانت عليها في السابق قد تكوَّنت بتحول بطيءٍ وارتقاءٍ تدريجي في الاصول الاولى القليلة ( وربما كان الاصل واحداً فقط ) في الزمان الطويل . وهذه الاصول نفسها قد تكوَّنت من الجماد بالتولد الذاتي الخاص بابسط الاجسام العضوية البلاسموية أي المونير »

***

فجميع الصعوبات التي تعترض التولد الذاتي تزول بمذهب هكل هذا لما فيهِ من البساطة ولقد جاءت الاكتشافات البالنتوجية مؤيدة لصحتهِ أيضاً فانهم اكتشفوا اخيراً في اميريكا شيئاً من ذلك مهماً جداً ولا بدَّ من بسط الكلام عليهِ فأقول

انهم كانوا يظنون في السابق ان الحجار المسماة سيلوريّة (٢) اقدم طبقات قشرة الارض . وكانوا يستغربون ذلك وربما ارتابوا بمذهب التسلسل ايضاً . لان النباتات والحيوانات التي وجدت معاً في هذه الطبقة وان كانت من ادنى الانواع الاَّ انها بالغة

---

(١) ظهر اخيراً — في غازتة بانا في الطب والعلوم — رسالة ورسوم لهكل في وصف المونير قال المؤلف فيها ما نصه ( انه ليستحيل تصوُّر احياء ابسط من المونير واقل كمالا منه ) اه .

(٢) نسبة لبلاد السيلور القديمة في انكلترة

تسمى أرجلاً كاذبة وقد سماها هكل مونيراً [١] لبساطتها . فالمونير اذاً أجسام عضوية البومينية لاشكل لها طبيعتها واحدة ولها خاصة التغذية والتوليد . وجميع الوظائف العضوية عوضاً عن ان تتم فيها كما في الحيوانات العليا بواسطة اعضاء خاصة فانها تصدر رأساً من المادة العضوية التي لا شكل لها

وهو يقول ان هذه المونير او الكريات البلاسموية [٢] الصادر عنها جميع العالم العضوي بالتسلسل تنمو في سايل تكونت فيهِ مركبات ثلاثية ورباعية من الكربون والهيدروجين والاكسيجين والازوت ذاتياً كما ترسب البلورات في السايل رويداً رويداً بفعل القوى المتجاذبة

ويظن ان الصعوبات التي كانت تعترض التسليم بالتولد الذاتي انما كانت لعدم العلم بهذه الاحياء البسيطة للغاية أي المونير واما اليوم فلا سبيل للشك بكون هذه الاحياء أول درجات الحياة وبكون كل خلية بل كل جسم عضوي صادراً عنها . وكيفية ذلك انهُ يحصل تكثف في نقطتها المركزية فتصير نواة . ثم تحاط النواة بالمادة اللزجة رويداً رويداً ثم يظهر الغشاء الذي يحيط بالجميع . وهكذا كان يعلل تكون الكرية في السابق على رأي شليدن وشوان . فالكرية على رأي هكل تتخلص من السايل المتضمن المادة البلاسموية رأساً ولا تتكون من الجماد ذاتياً ابداً بل تتكون من المونير المتكون ذاتياً . فانهُ لاختلاف في الاحوال الطبيعية والكيماوية تولدت في البحار الاولى اصول كثيرة من المونير وربما انواع مستقلة تلاشى بعضها وهو الاكثر في تنازع البقاء وبقي البعض الآخر وصار جدّ العالم العضوي باسرهِ . وعندهُ اي (عند هكل) أن كل نوع من الاحياء صادر عن نوع من المونير . وهذا لا يمنع كون انواع المونير الكثيرة صدرت جميعها من صورة واحدة أي من مونير واحد في الكيف لا في الكم بالتغير التدريجي . وهو يقول في هذا المعنى ما نصهُ « قد يمكن ان أجيالاً عديدة من هذا الحيوان الاول بقيت تتنامى آلافاً من السنين في الاوقيانوس الاول

(١) ومعناها في اليونانية البسيط

(٢) نسبة الى البلاسما والمراد بها مادة مكونة

أو ما يقرب منها . ولذلك لم يكن للنبات والحيوان صفة معلومة خصوصية يتميز بها الواحد عن الآخر ولا يتميزان هكذا الاَّ في الطبقات العليا منها وبصفات جمة ظاهرة وليس من الغريب على رأيهِ ان يلتقى في طبقات الارض القديمة حيوانات ونباتات معاً بعضها بجانب بعض خلافاً للمذهب القديم الذي يزعم ان النبات سبق الحيوان وهو خطاء

ومن هذه الاحياء ذات الخلية الواحدة تكونت على رأيهِ الاحياء الكثيرة الخلايا (حتى اعظم الاحياء) . وعندهُ ان نمو الاجسام العضوية الاولى ذو شبه شديد بنمو الجرثومة في اطوار الحياة الجنينية . فان أقدم اصول السمك الاحنوري ليس لهُ هيكل عظمي بل غضر وفي نظير السمك الحالي في اوائل حياتهِ . واقدم ذوات الفقرات ليس لهيكلهِ سوى ثلاثة اقسام كبيرة (رأس وثقب وذنب) نظير ذوات الثدي الحاضرة في اوائل اطوار الحياة الجنينية . واذا كنا على رأيهِ لا نزال نرى اصولاً لسائر درجات الحياة العضوية حتى ادناها فلان طريقة نمو الاحياء ذات الكرية الواحدة لم تتغير احوالها اليوم عما كانت عليهِ في الاطوار الاولى . وعندهُ انهُ لا يرجى العثور على بقاياها في الارض لشدة صغرها ورخاوتها وللتغيرات الشديدة العظيمة التي حصلت في الحجار القديمة في ما مر من الدهور (١)

***

وقد تكلم الاستاذ هكل من «يانا» بهذا المعنى نظير جيجر ايضاً وزاد عنه ايضاحاً وتأكيداً . ويظهر من ابحاثهِ انهُ يوجد تحت ذات الخليـة الواحدة أحياء ادنى ايضاً لا بناء لها ولا صورة خلية ولا نواة ولا اعضاء تغتذي بالامتصاص وتنمو بالانقسام . وهي كتلٌ صغيرة من الالبيومن لها خاصة الانقباض الى حد ضعيف جداً وتقترب جداً من جنس الريزوبود (الحيوانات الجذرية الارجل) الذي يختلف عنها بقوقعتهِ الكلسية . وهي تغير منظرها باخراجها من جسمها زوائد رخوة لا شكل لها

(١) قد وجدوا في احد الحجار القديمة حيواناً من هذه الحيوانات الاولى (ابوزون كنادنس) وسناتي على تفصيله في ما يجيء

لحلها هو بلا شبهة ما تعلق بالحياة العضوية فلا شكّ ان يكون شأن هذه الحرب اعظم ما في تاريخ العلم » اه

وعند جيجر ان اول الاحياء كان في الماء وتركيبهُ من العناصر المركبة منها الاحياء الحاضرة اي من الكربون والهيدروجين والاكسيجين والازوت خاصة . ومن ثم ايضاً من مركب الكربون والاكسيجين أي الحامض الكربونيك الذي كان كثيراً في الهواء الاول . وكذلك من النشادر الكثير الازوت بحيث يظهر ان الاحياء ظهرت اولاً في سوايل من محلول كربونات النشادر

***

وأما صورة هذه الاحياء على رأيهِ فكانت كرية بسيطة أي ذات خلية واحدة وغذاؤها كان كما هو اليوم من خميرة المادة غير العضوية وخاصة من كربونات النشادر [١] وان هذا التولد لم يحدث في مكان واحد من الارض بل في القسم الاعظم من سطحها ولبساطة الاحوال الفاعلة في سطحها حينئذ كانت الصور المتكونة اولاً بسيطة جدًّا أي من ذات الخلية الواحدة ؟ ولا يبعد ان يكون كذلك لانهُ لا يزال مثل هذه الاحياء ذات الخلية الواحدة موجودًا في ارضنا حتى اليوم

وهو يظنُّ انها لا حيوان ولا نبات بل شيءٌ شبيه بكثير مما لا يزال يرى حتى اليوم من الصور المتوسطة بين العالمين وبالارتقاء انشقَّ وتحول اليهما . وقد جعلها بعضهم عالمًا ثالثًا قائمًا بنفسهِ سماهُ عالم البروتيست أي عالم الاحياء الاولى . وهو يعرف الحيوان منها بقابليتهِ للانقباض . والنبات بعدم وجود هذه القابلية فيهِ . فاذا انقبضت الكرية فهي حيوان وإلاَّ فهي نبات . على ان من الكريات ذات الخلية الواحدة ما ينقبض في بعض اطوار حياتهِ ولا ينقبضُ في البعض الآخر فهي لذلك نقطة اتصال العالمين . ومن الكريات ذات الخلايا الكثيرة ايضاً ما لهُ الخاصة المذكورة

(١) الكرية كما قلنا ذات تركيب هو من الاختلاط بحيث لا يصح معهُ اعتبارها الصورة الاولى للحياة والصورة الاولى هي ما يسمى العلقة نوع من المخاط الحيّ لهُ خاصة التصرف بمواد السوايل المحيطة بهِ فربما كانت الكريات الاولى من هذه العلقة المعروفة باسم البلاسما ايضاً

على انهُ وان كانت الامتحانات لا تؤيد حدوث التولد الذاتي اليوم الاَّ ان ذلك لا يجعل حل المسألة ممتنعاً فلسفيًّا . وربما كان عدم حدوثهِ اليوم لتغير في ما يقتضيهِ من الاحوال التي كانت لهُ في اول تكون الارض . فان الارض كما لا يخفى قد مرت بادوار كثيرة مختلفة جدًّا ربما كان بعضها اكثر مناسبة لحدوث التولد الذاتي من وقتنا الحاضر . وليس في هذا الافتراض شيء من الاغراب او الامتناع . وربما استغنينا عنهُ ايضاً لان استمرار التقدم في العلم لا بدَّ ان يقوى على هــذه العوائق .

وعندي ان التولد الذاتي لا يزال يحصل حتى اليوم . وكثير من الطبيعيين الذين تعلقوا على درس هذه المسألة منذ ظهور مذهب دارون يعتقد ذلك نظيري ايضاً

ومن جملتهم الدكتور جستاف جيجر مدير بستان الحيوان في فينا فانهُ قد خص رسالتهُ الثالثة من « رسائلهِ في الحيوان » بمسألة ظهور الاحياء الاولى واوضح ذلك جليًّا مهتدياً بمذهب دارون قال ــ بعد ان ذكر في مقدمتهِ وجود حزبين متضادين في هذه المسألة وهما اصحاب ما فوق الطبيعة والطبيعيون — ما نصهُ :

« انهُ لما تجاول هذان الحزبان في المرة الاولى وكانت معرفة الاشياء لا تزال ناقصة بما يقصر معهُ ذرع اذكى العلماء عقلاً واوسعهم علماً ضاق على الطبيعيين مجال البرهان حتى اتوا على بينات ناقصة يسخر بها »

« واما اليوم فقد انقلبت الحال اذ كثرت مستندات الطبيعيين البالنتولوجية والجيولوجية والجغرافية والنباتية والتشريحية والفيزيولوجية والامبريولوجية . واول ما ظهر كتاب دارون وبدت لهم حقائق ما لم يكونوا يدركونهُ استأنفوا الجدال فاستظهروا على خصومهم اصحاب ما فوق الطبيعة الذين كان النصر قد استتب لهم تحت قيادة كوفيه وردوهم على اعقابهــم وحصروهم ضمن استحكاماتهم التي تزعزعت اركانها بصدمات القياس والبرهان »

« والحرب القائمة بينهم اليوم حرب عوان سيكون لها شأن عظيم في تاريخ العلم كشأن حرب الثلاثين سنة في الحياة الدينية . كيف لا واعظم المسائل التي يسعى العلم

فلم يبقَ اذاً الاَّ مسألة التولد الذاتي التي هي اليوم المحور الذي يدور عليهِ علم الاحياء. فانهُ اذا امكن لنا ان نبين ان ظهور الاحياء انما هو نتيجة طبيعية لقوى طبيعية ظهرنا بمذهب دارون على كل ما تضمنهُ العالم العضوي ولم تخفَ علينا منهُ خافية لانهُ امرٌ مقرر اليوم ان الحيوانات والنباتات حتى اكثرها تركيباً مؤلفة جميعها من الصورة العضوية الاولى أي الكرية فقط كما يعلم من تكوينها الجنيني

واذا تقرر ذلك استغنينا عن التولد الذاتي في الاحياء العليا بهِ في الاحياء الدنيا أي في الكرية الاولى او في ما هو أبسط منها ايضاً. ولا يصح غير ذلك. ولقد كانوا في السابق يطلقون التولد الذاتي على الاحياء الدنيئة حيوانات كانت او نباتاتٍ كالذباب والديدان وغيرها لتعذر معرفة اصلها. ولكنهم عدلوا عن ذلك لما رأوا بواسطة الميكروسكوب ان الاحياء المذكورة اصلها من بيضات او جراثيم صغيرة جدًّا. وقد اطلعوا بهِ على سرّ الطرق التي تتكون بها هذه الجراثيم غالباً. وعرفوا بهِ ايضاً ادنى الاحياء المؤلفة من كرية واحدة فقط والمسماة حيوانات نقيعية. وسميت هكذا لانها ترى بالمكروسكوب جموعاً تتنامى بسرعة عظيمة في المناقيع العضوية. وريثما اكتشفت هذه الحيوانات النقيعية حصل جدال شديد بين الطبيعيين على ذاتية ظهورها وعدم ذاتيتهِ. ولم يفتر قليلاً حتى أثارهُ بعض علماء الفرنسيس وتطارحوهُ في جمعية العلوم بباريس. على ان البت في هذه القضية غير متيسر بالوسائل التي لنا لان الدليل الامتحاني اللازم حينئذٍ عرضة للخلل وما دامت الاحوال المناسبة في الطبيعة لتولد الكريات الاولى تولداً ذاتيًّا غير معروفة كما ينبغي فلا يمكن ايجاد هذه الاحوال بعد تجريد الهواء والماء وغيرهما من الجراثيم. على ان الكرية نفسها مع شدة بساطتها ذات بناءٍ هو من التركيب بحيث يمتنع معهُ صدورها من الجماد رأساً. بل ظهورها كذلك يعتبر في العلم معجزة او هو كظهور احدى الاحياء العليا من الجماد رأساً. وربما كانت الكرية منتهى نمو سابق فلا يرجى منها الوقوف على اصل الحياة بل يلزم ان يبحث في ما قبلها من الصور المكتشفة حديثاً التي لم تبلغ درجة الكرية بعد والتي هي نوع من الحويصلات الصغيرة الحية او هي مخاط يكاد يكون لا شكل لهُ

لنا ان نستغرب هذا الامر الذي نراهُ كل يوم باعيننا أليس الجسم العضوي حتى الاكثر كمالاً كالانسان يتكون رويداً رويداً من كرية واحدة او البيضة » اه

فالنمو بالبيضة لا يقتضي لهُ وقت طويل ويتم في بضع ساعات او ايام او اسابيع او اشهر . والبيضة حوصلة كروية صغيرة جداً مكروسكوبية غالباً ومؤلفة من غشاء دقيق شفاف يتضمن مادة لزجة ومن نواة . وهذا الكل يؤلف ايضاً نواة لحوصلة اخرى اكبر منها هي البيضة . ولا يسبق الفهم الى بيضة الدجاجة فان بيضة الدجاجة والطير تختلف عن سائر البيضات ولا سيما بيضة ذوات الثدي . لان بيضة الدجاجة يحيط بها مح مغذٍ ثم زلال ثم قشرة اي كل ما يلزم لتكوين حيوان جديد . واما بيضة ذوات الثدي فليس فيها شيءٌ من ذلك كله بل يصلها غذاؤُها مما جاورها من بدن الامّ . وعليه فكل جسم عضوي نباتاً كان او حيواناً منشأوهُ من بيضة . ونموهُ فيها بسيط بانقسام المادة اللزجة التي يتضمنها المح . فيتحول المح الى جواهر عضوية تسمى كريات جنينية وهذه الجواهر تتنامى وتتحول الى جميع الصور الممكنة وتكون الجسم الحي باضافة كريات جديدة . فالعمل كله راجع الى تنامي الكريات بالانقسام .

على ان الاحاطة بهذه المسألة من خصائص علم الامبريولوجيا اي علم تكون الاجنة . واما نحن فعلينا ان نعلم فقط ان جميع الاجسام العضوية منشأوها من ابسط الصور المعروفة اي الكرية . وان نموها كائن بانقسام هذه الكرية انقساماً بسيطاً جداً في ظاهرهِ . وهذا النمو الفردي الذي نراهُ ونراقبهُ في كل ادوارهِ جارٍ على نفس ما هو جارٍ عليهِ نمو كل العالم العضوي المتكون من كرياتٍ اولية هي نفسها متكونة منذ ملايين من السنين في قعر البحار الاولى

⁂

فبقي علينا ان نعرف مصدر هذه الكريات الاولى — اي اصل الصورة العضوية الاولى التي يقول داروِن ان الخالق نفخ فيها نسمة الحياة — أتولدت ذاتياً طبيعياً ام خلقت واودعت نواميس النمو ؟ على ان الوقوف عند هذا الحد نقص في مذهب داروِن لان خلق الصورة اذا صحّ مرة فلا مانع يمنع تكرارهُ مرات متوالية على ممر الدهور

فهذه الاشياء لا تتفق مع المذهب القديم اي مذهب الخلق اذ لا معنى لها فيهِ بل هي منافية لهُ ايضاً وربما عبثت بعلم اللاهوت . واما على مذهب دارون فمعناها واضح وهي من اعظم الادلة على صحتهِ وبدونهِ يستحيل علينا ان نفهم لماذا الاوز الذي لا يعوم لهُ غشاءٌ بين اصابع رجليهِ ولماذا كان في الاجسام الحية اعضاءٌ زائدة بل مضرة احياناً . ولماذا هذا التشابه بين الاحياء كما يعلم من تشريح المقابلة . ولماذا هذه الوحدة في التكوين الجنيني . وما معنى الاعضاء الاثرية . فلو لم تكن الاحياء مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً جوهرياً من ادناها الى اعلاها لما اقتضى ان يكون بينها ذلك

***

على ان دارون لم يحصر الاحياء في اصل واحد وربما كان ذلك لعدم جسارتهِ لا لسبب آخر . فجعل الحيوان من اربعة او خمسة أصول أولى مخلوقة منذ زمان طويل كل اصل زوج . وكذلك النبات . غير انهُ لم يصمت عن ذلك كليًّا بل قال في آخر كتابهِ « ان المشابهة واسباباً غيرها كثيرة تدعونا ضرورةً الى الاعتقاد بانَّ الاحياء اصلها واحد » « وان لا فاصل جوهري بين العالمين عالم النبات وعالم الحيوان » غير انهُ يحترس مستدركاً على نفسهِ حيث يقول أيضاً « اني أرى فيما يظهر لي ان الاحياء التي عاشت على هذه الارض جميعها من صورة واحدة اولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة على ان اساس هذه النتيجة المشابهة فالتسليم بها وعدمهُ غير جوهر بين »

فهذا القول غير قياسي ويجعل المذهب ناقصاً وربما نقضهُ ايضاً وقد قام الاستاذ برن مترجم دارون ضدَّهُ . لانا اذا سلمنا بافعال خلق خصوصية لثمانية او عشرة ازواج اصلية فما المانع من اطلاق هذا الخلق على جميع الاحياء وما الداعي بعد ذلك لتفسير ظهورها على سبيل طبيعي لانهُ سيان عند الفيلسوف حصول الفعل الخالق مرة او مرات . فالتسليم بهِ ولو مرة اقامة المعجزة مقام الناموس الطبيعي . فليس لنا الاَّ ان نتوسع بمذهب التسلسل الذي وضعهُ دارون حتى آخرهِ ونجعل العالم العضوي يشتق من صورة واحدة اصلية بسيطة جدًّا من الكرية او البييضة . قال برن « كيف يسوغ

غائي والزوائد الدودية في القناة الهضمية [١] . واعلم ان فعل الورثة في الحياة الجنينية أظهر منهُ في سواها . فان في الجنين في الادوار الاولى من حياتهِ شقوقاً على كل جانب من عنقهِ شبيهة بالاصداغ التي تتنفس بها ذوات الفقر الدنيا التي لا رئة لها . والشرايين تنعكس على نفسها لتتصل بها كأن التنفس الصدغي مزمع ان يصير ثم يتغير هذا التكوين ويتحول الى سواه . والرئة نفسها في اعلى ذوات الثدي ليست الاَّ النفَّاخة التي يعوم بها السمك ولكنها نامية ومركبة اكثر منها . والتنفس في اللابيدوزير الذي هو بين السمك والحشرات في التكوين قائم بالاصداغ والرئتين معاً . ويرى فيهِ واضحاً ان الرئة ليست سوى نفاخة مفصولة بحواجز كثيرة جدًا ومفتوحة الى الفم . ومبدأ التكوين الجنيني واحد فان جميع الحيوانات المختلفة تتشابه بعضها مع بعض في اول درجات الحياة الجنينية وتنشأ جميعها من صورة واحدة اولية . قال الشهير باير استاذ علم الاجنة : ان اجنة ذوات الثدي والطيور والجرذان والافاعي والسلاحف ( اي طوائف الحيوان المتباعدة ) تتشابه في اولها وليس بينها فرق الاَّ من جهة الكبر . ويقول ايضاً ان هذه المشابهة قد تبقى حتى اول ظهور الحياة . ويرى اكثر من ذلك ايضاً فان جنين اعلى ذوات الفقر كالانسان يمر في نموهِ بدرجات الحيوانات التي دونهُ ليس الحية فقط بل الاحفورية او السابقة ايضاً . واغاسيز وهو من خصوم داروِن يقول ايضاً ما نصهُ « انهُ لامر يسوغ لي التصريح بهِ الآن على سبيل الاطلاق ان اجنة جميع الحيوانات الحاضرة وصورها مهما كانت رتبتها هي الصور الحية المصغَّرة لاصولها الاحفورية »

(١) ان هكل يطلق اسم الدستيلولوجيا على علم الاعضاء الاثرية وهو يعدها من اعظم ما يثبت بهِ مذهب دارون وينقض بهِ مذهب الخلق ويرى فيها انتقاض دعائم التلولوجيا اي الاسباب الغائية لان من هذه الاعضاء ما هو غير نافع وقد يكون مضرًّا ومن ثم مغايرًا للغاية ولا يخلو منها نوع من الانواع . وسببها عدم استعمالها لعدم الحاجة اليها غالبًا لتغير في احوال الحياة فتضمر . وهو يكتفي من امثلتها العديدة بذكر العيون الاثرية للحيوانات الحلمية وللحيوانات التي تقيم تحت الارض وفي عمق البحار والاجنحة الاثرية لكثير من الطيور ولبعض انواع الذباب الذي لا يطير والمسمى لذلك عديم الاجنحة مع ان الذباب اصلهُ من اجداد ذات اجنحة . وفقد الاطراف الاربعة الخاصة بذوات الفقر من اكثر الحشرات . والاسماك العديمة الزعانف والنتو الذنبي الاثري في الطيور . واما عالم النبات فامثلة ذلك فيهِ كثيرة

من حول اصلها الاول وأخذت تتباعد يوماً عن يوم حتى كثرت الصور الجديدة . فالصور القديمة اذن ذات صفات تتوزع وتتخصص وتكوّن الاجناس المختلفة ويسميها اغاسيز — الصور الانبائية [١] او الاصول المتقدمة — وهذه الاصول الاولى لا تلتقى الاّ في جزائر منفردة حيث التنازع قليل كالا رنيثورنقس العجيب ( حيوان ذو منقار ) واللالبيدوزير وغيرها

***

وقد رد داروِن ايضاً على من يرى عدم ارتقاء كثير من الصور الحية مخطئةً لمذهبهِ بما معناهُ . ان كثيراً من الحيوان بل غالبهُ فيهِ اعضاء موروثة لا فائدة لها وقد تكون مضرة لاختلاف أحوال الوارث عن الموروث عنهُ كرجلي الفرقاطة [٢] مثلاً فانها في غنى عن الغشاء بين الاصابع لانها لا تعوم كاجدادها التي كان مثل هذا الغشاء لازماً لها . وامثال ذلك كثيرة جداً في الحيوان والنبات وتسمى اعضاء اثرية اي ضامرة او ناقصة النمو . ولم يكن يعنى بها سابقاً الاَّ للتعريب واما غايتهـا فلم تكن معروفة . ومن هذه الاعضاء العيون الاثرية لحيوانات الكهوف . واجنحة الطيور وانواع الذباب التي لا تطير . والاثداء في ذكور ذوات الثدي . [٣] والحوض والطرفان السفليان في الحيات والاسنان التي توجد في اجنّـة الحوتة ولا يبقى الاّ اثرها في كبارها . والاسنان القواطع الاثرية في الفك العلوي للعجول . والاسنان الاثرية في الطيور . وهذا الاخير من اعظم امثلة الوراثة وقرابة الانواع . والانسان فيهِ ايضاً بقايا كثيرة من طائفة ذوات الثدي الذي هو منها ولا فائدة لها . كعظم العصعص . وعظم ما بين الفكين الذي اكتشفهُ

(١) والاصوب تسميتها بالصور المزمعة

(٢) نوع من الاوز يعيش على الارض خارج الماء

(٣) عجبت ما شاهدهُ المعرّب من هذا القبيل ستة اثداء اثرية في رجل ثلاثة من كل جانب وذلك في نظري من اعظم ادلة الوراثة وقرابة الانواع

لاجل ذلك لولا انهم وافوهُ بالتعليل الشافي من هذا القبيل . فان هذه الصور الثابتة او المتغيرة قليلاً لا وجود لها الاَّ في عديمات الفقر أي في ادنى طبقات الحيوان . واما ذوات الفقر ( ومنها الانسان ) فتسير دائماً نحو الكمال الا في ما ندر كذوات الجراب منها فانها قلما تغيرت عما كانت عليه في الدور اليوراوي (١) الذي كان ظهورها فيهِ . وبحسب القاعدة التي وضعها ليل ان الصور العضوية تكون اثبت كما كانت أدنى في سلم الحياة واشد تغيراً كلما كانت اعلى .وسبب ذلك في الصور الدنيا بساطتها من حيث التركيب وقبول التأثير من جهة . وعدم تغير احوال حياتها الخارجية من جهة اخرى . واما في الصور العالية فسببهُ اختلاط تركيبها وشدة انفعالها مع تغير أحوال حياتها الخارجية مما يجعلها متغيرة جداً

***

وقد ضرب دارون مثلاً لادراك الرابط الذي يربط الاحياء بعضها ببعض قال : انها كشجرة ذات اغصان خضراء متفرعة هي الانواع الباقية . واغصان يابسة هي الانواع المنقرضة . فالاغصان النامية لا تنمو هكذا الاَّ حتى تضر بغيرها . ولا تنمو افانينها كذلك حتى تضر بما جاورها ايضاً . فلكي تبقى الانواع نامية لا بد لها من ان تتغير . وكل تباين فهو اشد حيوية من الاصل الصادر عنهُ . وكل نوع لا يتغير لا يثبت . واذا زال لا يعود وكلما كان الجنس قريب العهد في التكوين اي كلما طال الزمان عليهِ في الادوار الجيولوجية حتى تكوّن كان اكثر انواعاً اي كان اقدر على الحياة بخلاف الاجناس التي عهد ظهورها بعيد فان انواعها تقل حتى تتلاشى رويداً رويداً . واقوى الاحياء ما في دورنا فانهُ لا يثبت امامهُ شيء مما تقدمهُ كما هو معروف في زيلاندة الجديدة (٢) .وكانت الصور الحية في الدهور الغابرة اقرب بعضها الى بعض ثم تشعبت

(١) نسبة الى جبال يورا بين فرانسا وسويسرا ويسمى الاوليثي ايضاً نسبة الى الاوليث نوع من الطباشير مؤلف من حبيبات صغيرة جداً اشبه ببيض السمك وهو طبقة من طبقات الارض الثانوية

(٢) الماورسكان اوستراليا الاصليون عندهم في لغتهم مثل كلهُ حكمة وهو - ان فار الرجل الابيض قد طرد فارنا كما ان ذبابهُ قد طرد ذبابنا واطريفالهُ قتل سرخسنا هكذا الماوري نفسهُ سينقرض امام الرجل الابيض —

الاَّ العاجز فينتقل تكوينهُ منهُ الى نسلهِ وهو لا يخرج من مكانهِ الاَّ بعد طلوع الشمس وانكسار شدة الريح . ويكثر قيامهُ في الاماكن الرطبة بجانب الصخور التي تقيهِ من الريح . واذا وجد منهُ ما يطير في بعض الاماكن في الجزيرة المذكورة كان جناحاهُ قويين جدًّا لمقاومة الرياح . فذلك شاهد على الانتخاب الطبيعي مشتركاً مع عدم استعمال الاعضاء

***

فمن هذه الامثلة وكثير غيرها يعلم ان الانتخاب الطبيعي لا يؤدي الى الارتقاء دائمًا وان ادى اليهِ غالبًا . على ان الارتقاء كثيرًا أو قليلاً في العالم العضوي لا حقيقة لهُ واضحة . ويلزم الانتباهُ الى ذلك اذا نظر الى الشيء على مذهب داروِن فان الحال المناسب في ظروف معلومة من الزمان والمكان قد لا يناسب في غيرها . فان التكوين الكامل اذا كانت احوال الوجود بسيطة يكون نقصاً لا امتيازًا . ولذلك كان الانتخاب الطبيعي يجعل في مثلهِ والحالة هذه تقهقرًا لا ارتقاء . ولا ننسَ ما قلناهُ سابقاً وهو ان الانتخاب لا يكون في كل قوتهِ الاَّ حيث يكثر ازدحام الاحياء المتنازعة . ولهذا السبب كان وقوف بعض الانواع وارتقاء البعض الآخر . فانهُ قد يعرض لبعض الانواع ان يكون بمعزل عن كل منازعة لشدة بساطة احوال حياتهِ فيبقى ثابتاً غير متغير . كالحيوانات الرخوة الدنيئة التي لم تزل واقفة على درجة واحدة في سلم الحياة منذ زمان طويل جدًّا وهكذا غيرها مما لم يتغير الاَّ قليلاً جدًّا . وربما كانت صور قريبة منها موجودة ولكنها ارتقت سريعاً ولم تبقَ اصولها . ولا ننس ايضاً ان الحركة البطيئة التي يصدر عنها العالم العضوي لم تسكن قط وانها ما زالت كما كانت صاعدة من البسيط الى المركب . وانهُ لا تزال صور جديدة اولية تتولد ايضاً وتنمو على مقتضى نواميس النمو في الطبيعة

***

فمما تقدم يعلم لماذا لا يزال كثير من الصور غير كامل وفي حالة دنيئة جدًّا في مدى الادوار الجيولوجية على رغم الانتخاب الطبيعي وقد كاد مذهب داروِن يضعف

ان تجمع الصفات الموافقة في الفرد ودوام هذا التجمع فيهِ يسعيان بهِ نحو الكمال في كل الاحوال . فانهُ مهما كان سلطان التحسين والتكميل عظيما فلا تحصل عنهُ هذه الغاية دائمًا . لانهُ قد يكفي ان يكون في الفرد امتياز ولو قليل المعنى حتى يقوى على اقرانهِ ولو كان اضعف منها في باقي الصفات . وقد يكون الامتياز أحيانًا سببًا للانحطاط ككبر القد والعافية في حين فقد القوت . وعليهِ فالارتقاء يصاحب تغيّرات الفرد غالبًا لا دائماً ووجوبًا . فربما تتقهقر الفرد ووقع في الحؤول كما في الدب الاسمر الحالي فان اصلهُ دب الكهوف الذي كان اكبر منهُ واقوى ولكنهُ انحطَّ الى حالتهِ الحاضرة لتغيرات في سطح الارض وفي المسكن والقوت وما شاكل . وكذلك الديدان البطنية فان اصلها من دودة كانت سابقًا في الخارج اكمل منها ولكنها فقدت بعض اعضائها لتغير جنس معيشتها في القناة الهضميصة فانحطت . والسرّيبيد ( حلزون مائي ) الذي كان لهُ قوقعة كلسية لما كان مستقلاً فتعرّى من قوقعتهِ اذ صار حاميًّا يعيش على حيوانات اخرى . وذلك نتيجة الانتخاب الطبيعي . لان القوقعة النافعة لهُ في الحالة الاولى لا تنفعهُ في الثانية بل ربما أضرتهُ اذ تزيدهُ ثقلاً لا معنى لهُ . وعلى ذلك فكل جزء لا يعود فيهِ فائدة يفقد رويدًا رويدًا

ولنا في جعلان جزيرة مديرا شاهد على ما يحصل من الضرر بسبب الامتياز فقد قال دارون ان غالب الجعل هناك لا يطير لنقص في جناحيهِ . وسبب ذلك عندهُ ان ما كان منهُ قادرًا على الطيران يسوقهُ الريح ويلقيهِ في البحر فيهلكهُ ولا يبقى منهُ

---

الفعل والانفعال . فجميع صفات الاجسام الحية على رايه اما نتيجة ما يسمى مبدا التكوين الباطن وهذا المبدا ذاتي متوقف على التركيب الاول المادي للجسم الحي ووراثاتهِ . واما نتيجة ما يسمى مبدا التكوين الظاهر الحاصل عن تبادل فعل الاشيا التي من خارج وفعل المطابقة الحاصل عن هذه الاشياء . ولا يوجد غير هذين العاملين للتكوين . ويرى هكل ان لفظة المطابقة هي احسن ما يدل بهِ على فعل الانتخاب . والمطابقة عنده على نوعين لازمة ومتعدية . الاولى تلزم الوالدين والثانية تتعداهما الى الاولاد . فانا نعلم من الاختبار ان اختلاف القوت في الوالدين يؤثر جدًّا في اجسام الاولاد ولا يؤثر الا فيهم . وحبس الحيوان ووفرة غذائهِ يجعلانه عقيماً . وعليهِ فكل الاجسام الحية نظرًا لما بينها وبين الاشياء التي من خارج من الفعل المتبادل يحصل فيها تغيرات غذائية قد تظهر نتيجتها تارة فيها وتارة في اولادها

استعمالها بخلاف الوحشية فانها شديدة فيها . وكل الطيور من طائفة النعام اجنحتها ضامرة لانها لا تطير . والخلد لقيامهِ دائماً تحت الارض هو في غنى عن العينين ولذلك هما اثرٌ فيهِ وغير ذلك كثير

* * *

ويعترف دارون ايضاً بتأثير الاحوال الخارجية للحياة التي يعتبرها كثيراً جفروى سنتيلير (كالاقليم والتربة والقوت والنور والهواء وأقسام اليابسة والمياه الخ) الاَّ انهُ يجعلها دون الانتخاب الطبيعي . فان تأثير الأشياء الخارجية وتغيراتها الدائمة على سطح الارض (المتغير على الدوام) كل ذلك مهم جدًّا . حتى ظن كثير من العلماء انهُ يكفي وحدهُ للتعليل عن التغيرات الدائمة في العالم الحيّ وما حصل فيهِ من الارتقاء . فنحن نعلم مع قلة اختبارنا ان كساء الحيوانات متوقف على الاقليم . ولونها على القوت أو النور أو المساكن التي تقيم فيها عادة . وكبرها على كثرة القوت او قلتهِ وغير ذلك . غير ان هذه الاحوال الخارجية التي سيأتي بيانها مفصلاً لا يسعها على رأي دارون أن تفسر — المطابقة الكلية — في الاحياء للاشياء الخارجية المحيطة بها ولاحوال حياتها ولاحتياجاتها الخ . فمثل هذه المطابقة الكلية لا يكون الاَّ نتيجة الانتخاب الطبيعي الذي هو العامل الاكبر . وأما باقي العوامل كاحوال الحياة الخارجية واستعمال الاعضاء وعدمهِ والعادة والنمو المتناسب والوراثة والتصالب الى غير ذلك فيعمل معهُ بالاشتراك أيضاً . وانهُ ليصعب بل يستحيل علينا أن نعرف كم يخص كلاًّ من هذه الاسباب العديدة من كل من النتائج المختلطة الصادرة عن عملها المشترك . ويظن دارون اننَّا غالباً لا نعرف شيئاً عن النواميس التي تتغير الاحياء بموجبها وان ما نستطيعهُ من ذلك انما هو التأكيد بوجود هذه النواميس . على انهُ مهما كانت فلا يسعنا ان ننكر وجوب حصول تجمع ثابت في التغيرات الطفيفة الموافقة للفرد بواسطة الانتخاب الطبيعي [1] . ولا يظن

(١) ان هكل احد المنتصرين لمذهب دارون يزعم ان احوال الحياة الخارجية لا تفعل راساً الاَّ قليلاً جدًّا . ولقد بالغ بعضهم في اعتبارها على زعمهِ حتى جعل الجسم الحي في حالة المفعولية المطلقة بالنسبة اليها . وعندهُ ان ذلك خطاٌ لان الجسم يفعل ايضاً فيها وما المطابقة عندهُ سوى نتيجة مبادلة هذين الامرين اي

قد تقدّم ان لامرك يجعل سبب هذا الطول في عنق الزرافة الضرورة او العادة التي تضطرها لتطاول الى الاشجار العالية. وأما دارون فيختلف عنهُ في التعليل عن سببهِ حيث يقول — ان الزرافة الخالية آتية من اصلٍ اصغر منها وهذا الاصل قد انقرض منذ زمان طويل فلم يكن عنقها في الاصل طويلاً كما هو اليوم ولا باقي اعضائها نامياً كذلك (بناءً على ان الاعضاء متناسبة في الجسم الحي) وبقيت على هذه الحالة زماناً ربما كان مائة سنة او الف سنة او اكثر او اقل بدون تغير جوهري فيها لعدم تغير احوال حياتها حتى حصل يبس شديد ماتت بهِ كل الاشجار الاَّ اشدُّها أي اعلاها فماتت كل الزرافات الصغيرة التي في عنقها قصر يحول بينها وبين الحصول على قوتها . وبقيت الكبيرة الطويلة الاعناق وانتقل ذلك في نسلها الى اولادها . وبقيت هكذا حتى اصابها ايضاً ما اصابها في المرة الاولى فماتت قصارها وبقيت طوالها وهكذاوما زال هذا الامر يتكرر فيها حتى بلغ بها في الادوار الطويلة والاجيال العديدة الى ما هي عليهِ اليوم. وليعلم ان مثل هذه التحوُّلات يتم بمساعدة قوة شديدة يسميها دارون ـ النمو المشترك ويراد بهِ ان اعضاء جسم حي ذات نسبة بينها ثابتة لا تتغير بحيث لو تغير عضو لرافقهُ تغير ايضاً مناسب لهُ في سائر الاعضاء. فقد شوهد ان طول القوائم يكون مع طول العنق. وان الحمام القصير المنقار رجلاهُ قصيرتان ايضاً. وان القطاط التي عيونها زرق هي عادة صماء . وان الكلاب العديمة الشعر اسنانها ناقصة الخ

وقس على ذلك باقي امثلة لامرك. على انهُ لا ينبغي ان يظن من ذلك ان دارون ينكر تأثير الاسباب التي يذكرها لامرك. كلاَّ بل بالضد يعترف بتأثيرها ويضعها في مقام رفيع بجانب الانتخاب الذي يعدهُ في المقام الاول. والاسباب المذكورة هي كما تقدم العادة والاستعمال والضرورة. ومن الامثلة التي يذكرها دارون يعلم ما لهذه الاسباب عندهُ من القيمة في امر التغيرات الحادثة. فلاجلها كانت عظام رجلي البط الأهلي اقوى وعظام جناحيهِ اضعف من البط البري. وكذلك البقر والمعزى التي تحلب دائماً فان حلماتها تصير كبيرة. واكثر الحيوانات الاهلية آذانها مرتخية لقلة لزوم

بانتخابهِ الافراد التي يكون فيها بعض الصفات الموافقة لغاية ما ثم يثبتها إما بالتصالب وإما باستمرار تحسينها بعد الولادة . هكذا تفعل الطبيعة ايضاً فانها تجمع التغيرات النافعة للفرد وتنقلها في نسلهِ من جيل الى جيل . والفرق الوحيد بين عمل الانسان والطبيعة هو ان الانسان يعمل عن علم بالشيء ولذلك كان عملهُ يتم في زمن بالنسبة الى الطبيعة قصير واما الطبيعة فيلزم لنجاحها زمان اطول من ذلك بكثير . ويقول (اي دارون) ايضاً انهُ اذا كان الانسان يحصل على مثل ذلك في الانتخاب فكم يجب ان يكون هذا الامر اعظم في الطبيعة التي لا تنتخب لمصلحتها كما يفعل الانسان بل لمصلحة المنتخب نفسهِ والتي تشتغل بلباقة اكثر وقوة اعظم منهُ لذلك فانها لا تفتر لحظة واحدة عن جعل اقل التغيرات في الاحياء ممكنة فان كانت جيدة حسنتها والاَّ لاشتها . ولهذا السبب كانت الالوان التي تقي بعض الحيوانات من مطاردة اعدائها لها . وكان رأس منقار صغار الطير الرخص الذي تشق بهِ قشرة البيضة التي تكون ضمنها . ولون ناقر الخشب الذي يتسلق الاشجار ويفتش على الذباب تحت القشر وتكوين مخالبهِ ومنقارهِ وذنبهِ ولسانهِ لمناسبة ذلك لجنس معيشتهِ . ولهذا السبب عينهِ كانت قوائم المعزى السريعة العدو . وبصر الجوارح الحاد وسلاحها القويّ . ولهُ ايضاً ولانتخاب يسمى جنسيًّا قرن الايل القوي وعرف الديك [1] وكذلك ايضاً طول عنق الزرافة التي ترعى افانين الاشجار العالية وهذا المثال ذكر في الكلام على مذهب لامرك .واذ ذكرناهُ هنا فلا بدَّ لنا من ان نبين وجه الفرق فيهِ بين مذهب لامرك ومذهب دارون

---

(١) الانتخاب الجنسي يراد بهِ تنازع الذكور للحصول على الاناث وبالعكس وهو على راي هكل ذو اهمية في تغيير الاجسام الحية التي هي اعظم منها على راي دارون ولا يقتصر على الذكور فقط بل يتناول الاناث ايضاً فعفرة الاسد وغبب الثور وقرن الايل وانياب الخنزير وعرف الديك الخ كل ذلك عند هكل امتيازات حاصلة عن الانتخاب الجنسي · وكذلك الالوان الجميلة في ذكور بعض الطيور وانواع الفراش والاصوات الجميلة ايضاً· لان الاناث يفضلن ما كان منها حاوياً مثل هذه الصفات وهو (اي هكل) يؤكد انهُ يحصل بين الطيور ذات الاصوات الحسنة تنازع في اجادة التغريد للحصول على الاناث ويؤكد ايضاً ان هذا الانتخاب المعقول معول عليهِ كثيراً في الانسان وانهُ احد اسباب ارتقائهِ الجوهرية

من ذوي الثروة فيها به. فانهم لامتلاكهم عددًا وافرًا منها كان احدهم اذا وجد احد افراد القطيع مميزًا ببعض صفات حسنة يربيهِ ويعتني بهِ حتى يحسن بهِ كل القطيع رويدًا رويدًا. وهكذا توصل اهل انكلترا الى تحسين حيواناتهم الاهلية بحيث صارت بقرهم المختارة للذبح ذات بطن ضخم وسيقان نحيفة ورأس صغير لا قرون لها. وصار لهم خنزير (للجامبن) وللشحم ويسمى عندهم الممتلئ دمًا. وغنم للصوف وديوك وكلاب «بلدج» للقتال. وحمام لحسن المنظر. وخيل لحسن الصورة. واخرى للسباق. وهذه الاخيرة المولدة من جياد خيلهم وخيل العرب تفوق جدًّا الاصل المولدة منهُ. وقد توصل الانسان في تربية الازهار والاثمار والخضر بواسطة التحسين الصناعي الى نتائج عجيبة جدًّا كالجذر الذي هو في اصلهِ البري يابس وقاسٍ فانهُ اكتسب بالتربية طعمهُ المعروف. وكل الاثمار اللذيذة نتيجة اعتناء الانسان بها وانتخابهِ لافضلها على مدة طويلة من السنين. وقد لا يكفي الانتخاب الصناعي وحدهُ فيقرن بالتصالب بين الفروع للحصول على فرع جامع فيهِ كل الصفات الحسنة في غيرهِ. على ان الانتخاب وحدهُ اذا اعتني بهِ كما ينبغي فانهُ قد يعطي نتائج أغرب جدًّا من ذلك ومثالهُ غنم (اطر) في اميركا ولم يذكرهُ داروِن مع انهُ من اعظم الامثلة على ما يستطيع المربي ان ينالهُ بالتربية فقد وجد في (مصاشصتس) خروف بدنهُ طويل جدًا وساقاهُ الاماميتان قصيرتان فاستحسن فيهِ هذا التكوين لانهُ لا يستطيع معهُ ان يقفز من فوق سور الحظيرة فاعتنى بتربيتهِ حتى انتشر على قسم كبير من اميركا الشمالية حيث بقي خمسين سنة. ثم جاء غنم اسباني اسمهُ (مورينوس) او مور فازاحهُ لان صوفهُ اكثر من صوفهِ واجود منهُ. وقد ذكر «عذارا» مثالاً كذلك في باراجي حيث قال انهُ ولد سنه ١٧٧٠ ثور بلا قرون فاستحسنهُ المربون فربوهُ ولم يزل حتى اليوم بقر باراجي البلدية عديمة القرون على شهادة «رُلّ»

***

فيرى من هذه الامثلة كم هي متنوعة طرق التحسين الصناعي وداروِن يقول بالاستناد الى ذلك ما معناهُ: — «كما ان الانسان في طاقتهِ ان يحسن الفروع صناعيًّا

والنباتات الاهلية الصناعي . وهذا العلم كما لا يخفى قد بلغ مبلغاً عظيماً بنتائجهِ العجيبة ولا سيما في انكلترا وطن دارون حيث يوجد اناس متفرغون لذلك . وقد اجرى دارون نفسهُ امتحانات كثيرة من هذا القبيل . ولكي يتأكد بالعيان فعل هذه الصناعة انخرط في جمعيتين في لوندرا تشتغلان بتربية الحمام . فتحقق بنفسهِ ان التباينات الكثيرة للحمام انما اصلها كلها اليمام أي الحمام البري لانها قد تحتوي بعض الصفات الخاصة بهِ والدالة على اصلها . وربما اشتبه بها انها أنواع لشدة الاختلاف بينها فانهُ لا يقتصر فيها على الصفات الظاهرة فقط بل يتناول ايضاً تكوين الهيكل والبيضة وامر الطيران وغير ذلك . قال دارون « اني ما كنت اظن قبل تربيتي الحمام ان كل هذه التباينات يجوز ان يكون مصدرها صورة واحدة »

وعلى رأي دارون ان الانسان قد بلغ الغاية القصوى في التحسين الصناعي لانهُ يستطيع ان يجمع في اصل واحد اقل الاختلافات الفردية بواسطة الانتخاب الصناعي. وميل الصور الى التغير او الانحراف عن الصورة الاصلية يتضح جليًّا في الاحياء الواقعة تحت فعل التربية اكثر من الواقعة تحت فعل الطبيعة . لكثرة اختلافات احوال الحياة في الحالة الاولى وشدة تأثيرها . كحسن المسكن وغزارة القوت . على ان هذه القابلية أي – الميل الى التغير – لا تفقد ابداً . فان اقدم نباتاتنا الاهلية كالقمح لا يزال يعطي تباينات حتى يومنا – ومبدأ التحسين الصناعي قد كان معروفاً منذ القديم وكان الرومانيون القدماء والصينيون وغيرهم يعتنون بهِ . ويظهر انهُ معروف ايضاً عند شعوب افريقيا المتوحشين . على ان كل انسان يربي حيوانات ونباتات يستخدمهُ ولا يدري . لانهُ يختار دائماً للتربية احسن الحيوانات والنباتات ككلاب الصيد وجياد الخيل وغيرها . والمتوحشون انفسهم الذين يجهلون ذلك كليًّا يستعملونهُ على غير علم منهم بحقيقتهِ كما في زمان القحط فانهم لا يبقون الاَّ افضل الحيوانات اللازمة ويقتلون ما سواها او يتركونهُ وشأنهُ بلا عناية

***

واذا كان علم تربية الحيوان قد تقدّم كثيرًا في انكلترا فلاعتناء اصحاب الحيوانات

***

وقد وصلنا الآن الى آخر قضية من مذهب داروِن واهمها وهي

## الانتخاب الطبيعي

ويسميه « برن » التحسين الطبيعي أيضاً . ولا يكون الاَّ اذا كان للاختلافات الحاصلة في الفرد معنى في تنازع البقاء . فان الاختلافات الفردية تكون ضرورة على احدى ثلاث حالات : اما نافعة للمنازع . أو مضرة لهُ . او لا نافعة ولا مضرة . ففي الحالة الاخيرة لا يكون لها معنى فبقاؤها وعدمهُ على حد سوى . وكذلك أيضاً اذا كانت مضرة لان الاختلاف الذي يحصل والحالة هذه تكون نتيجتهُ أحد أمرين : أما ملاشاة الفرد . واما ملاشاة الصفة . وتختلف نتيجته اذا كان نافعاً فيمتاز الفرد بهِ على اخوانهِ وخصومهِ في تنازع البقاء . وينتقل هذا الامتياز الى نسلهِ وينمو فيهِ على مرور الاجيال . وهذا الامتياز في تنازع البقاء لا يحصل الاَّ بعد جهد جهيد . فلكي يؤلف الفرد بهِ نوعاً جديداً لا يكفي امتيازهُ بهِ مرة واحدة بل يلزم لذلك أحياناً مائة جيل أو الف جيل أو عشرة آلاف جيل . وهذا الامر يعتبر جدًّا في مذهب داروِن فان الزمان في تاريخ الارض ومتكوناتها لهُ المقام الاول وانَّا ليتولانا الذعر اذا افتكرنا في عدد السنين الذي اقتضاهُ تعاقب الادوار الجيولوجية فوجودنا بالنظر الى ذلك لا يكاد يحسب لحظة

فداروِن في علم الحياة اقتفى آثار ليل في علم الجيولوجية وكلاهما فتحا لنا السبيل لفهم اعظم اعمال الطبيعة القائمة على اسباب او قوى ظاهرها ضعيف وقليل الاهمية الاَّ انها ذات فعل وان كان بطيئاً فانهُ يتجمع مع الزمان الطويل ويأتي بكل ما نرى

***

فالانتخاب الطبيعي اساس مذهب داروِن ولكي يفهم معناهُ كما ينبغي لا بدَّ من معرفة الاسباب التي دعتهُ الى القول بهِ . فهو انما توصل اليهِ بدرس علم تحسين الحيوانات

حتى الموت . وقد عرف أيضاً ما سيكون لهذه المسألة من الاهمية حيث قال انها ستكون اصح ما تبنى عليهِ فلسفة الطبيعة . ولقد اصاب لانهُ بالوراثة يتوصل الى التعليل طبيعياً عن ظواهر كثيرة سواء كان ذلك في حياة الافراد الجسدية أو العقلية او حياة الشعوب أيضاً . مما كان يعمد في تعليلهِ عنهُ سابقاً الى قوى ما فوق الطبيعة او ينسب الى استعداد في الاحياء لا يدرك . فالانسان كما هو الآن وكل ما يملكهُ ليس الاَّ نتيجة عمل شاق و بطيء لم يفتر ابداً على مر الدهور الطويلة وقائم على انتقال الصفات في الاجيال العديدة بالوراثة . سواء كانت هذه الصفات حسية او معنوية ولادية او مكتسبة ليس الاَّ

فالوراثة مهمة جداً في مذهب انتقال الانواع قال داروِن في هذا المعنى ما نصهُ « اذا كان من المقرر ان الاختلافات حتى اكثرها شذوذاً والتي لا تنطبق على جنس معلوم كنقص بعض الاصابع والاظفار او زيادتها وكالجهر وتشقق الجلد وغيرها تنتقل في النسل بحرص . فكم بالحري ينبغي أن يكون كذلك في الاختلافات العادية التي يصح عليها جلياً ناموس الوراثة الشامل لكل الصفات الفردية » على انهُ يقر بان نواميس الوراثة الخاصة لا تزال مجهولة كلياً وعلى المستقبل ان يرفع الحجاب عن مكنوناتها (١)

(١) بسط الاستاذ هكل الكلام في نواميس الوراثة المشار اليها كما ياتي قال

(ا) ان الانتقال يكون اشد كلما كان الفرع المنفصل اعظم وهو في النبات الفسيلي اظهر منهُ في النبات البزري

(ب) كل جسم يكسب نسلهُ فضلاً عن صفاتهِ الموروثة بعض صفاتهِ المكتسبة في حياتهِ الخصوصية بحيث ان الانتقال يكون على نوعين محافظ ومتكامل

(ت) ان تغير الجيل ليس الاَّ عملاً من اعمال الدور الوراثي شديداً جداً

(ث) الذكور يشبهون الاب والاناث يشبهن الام غالباً

(ج) العيوب العارضة (كنزع القرون وقطع الاذناب) قد تصير وراثية

(ح) الصفات المكتسبة يكون انتقالها اسهل واثبت كلما طال تكرارها في الاجيال كما في تربية الاثمار وتحسين الازهار

(خ) يوجد ناموس انتقال وراثي خاص بادوار الحياة اي انهُ لا يظهر الاَّ في سن معلوم من العمر وهذا يكون في الامراض خاصة

الاحوال كلاً ٠فان تباينات كثيرة تتلاشى في التصالب أو الانتخاب الطبيعي . ويزعم هكل ان الانواع كلها غير متساوية في قابليتها للتغيير فبعضها متغير جدًّا وبعضها ثابت وبعضها متغير الى حد محدود ٠ وسبب هذا الاختلاف على رأيهِ أحوال الحياة الخارجية وكثرة انتشار النوع أو قلتهُ وما شاكل ذلك ٠ وعندهُ ان النوع البشري أكثر الانواع وفاقًا للاحوال

***

فهذا ما نبسطهُ بشأن ما للاحياءِ من الميل الى التغير ٠على ان ذلك لا قيمة لهُ في مذهب دارون الاَّ بالوراثة التي تنقل الصفات المميزة للانواع في النسل٠ وأعلم انها أي الوراثة تنقل الامراض كما تنقل عيوب التكوين مثل زيادة عدد الاصابع والاظفار ومثل الجهر وتشقق الجلد ولادية كانت كما تقدم أو عارضة كالعيوب الحاصلة عن آفات طارئة . وكما انها تنقل الصفات الجسدية تنقل الصفات الادبية كذلك أيضاً ٠ كالشهوات٠ والاميال٠ والعوائد٠ والاخلاق٠ والعقل الى غير ذلك ٠ومن عجيب أمرها انها كثيرًا ما تقطع الاجيال كامنة وتظهر في الاولاد بعد ذلك ٠ وهذا الامر يسمى عندهم ( الاتافيسم ) ومعناهُ الرجوع الى الجد ونصطلح عليهِ بالدور الوراثي أو الرجعة ولا فرق بين أن يكون من جهة الأَب أو الام٠ والانتقال الوراثي كان معروفًا قبل دارون لكن ليس كما ينبغي لفهم ما يترتب عليهِ ٠فكان اذا ذكر منهُ شيءٌ يذكر على سبيل الغرابة ٠وأما اليوم فهو من أعظم الامور التي يعتمد عليها في تاريخ ارتقاءِ العالم العضوي وارتقاء الجنس البشري ٠ على ان الاطباءَ منذ القديم قد انتبهوا الى الوراثة المرضية وعرفوا ان غالب الامراض المزمنة قد يصير وراثيًّا ويكمن في الجسد ولا يظهر حتى سن معلوم كالسل الذي يفشو مع سن البلوغ ٠ وعرفوا أيضاً انتقال الامراض المكتسبة . ولم يجهلوا امر الدور الوراثي الذي تقرب الاولاد بموجبهِ من اجدادهم بالاميال والعوائد والاخلاق والاستعدادات المرضية وصفات أخرى جسدية . قال فيرخو منذ نحو ١٠ أو ١٥ سنة في ذلك ما معناهُ : ان بدن الاب وبدن الام يكسبان مادة الجرثومة ومن ثم الولد الصادر عنها حركة مادية ذات طبيعة خصوصية لا تسكن

أن نحقق انتقال الانواع بانفسنا فلانحصارنا في دائرة من الاختبار ضيقة جدًا » وما قيل عن النبات يقال أيضاً عن الحيوان . فان فيهِ أصولاً كثيرة يعدها بعضهم تباينات وبعضهم أنواعاً . وقد قال جيبل أستاذ الحيوان وقد بين لخصومهِ بطلان اعتقادهم في النوع — انهم كثيرًا ما يعتمدون في تمييز الأنواع على اختلافات هي فيها أقل منها في فروع الجنس البشري . وقال هكل انهُ في صناعة تحسين النبات والحيوان كثيرًا ما يحصل على اختلافات أهم من الاختلافات الطبيعية التي يعتبرها بعض الطبيعيين كافية لتقرير النوع والجنس أيضاً . والاستاذ برن مترجم دارون يقول أيضاً « ان القول بالانواع لا أساس لهُ وليس ما يسوّغهُ في طبيعة الاشياء » ولأمر معلوم انهُ كلما كان الطبيعي واسع الاطلاع في فنهِ أشكل عليهِ تمييز الانواع لزيادة علمهِ بالتباينات والصور التي بين بين . وعليهِ فكلما اتسع العلم قل التصديق بالنوع وهذا مما يدل على ان القول بهِ لا أساس لهُ الاَّ في عقل الانسان

***

وأصحاب المذهب القديم قلما يعتبرون قيمة التباينات . بل بالضد يكرهونها لانها توقعهم في الارتباك من حيث الترتيب . وأما عند دارون ومن تابعهُ فهي ثمينة جدًا لانها أصل الانواع الجديدة . وقد تغيرت طرق الترتيب منذ قيام مذهب دارون وصار يعتنى كثيرًا بالتباينات التي كان يهمل أمرها سابقاً لعدم انطباقها على القاعدة المعوَّل عليها عندهم . وقد ذكر ليل في هذا المعنى في كتاب ( قدم الجنس البشري ) ان أحد تجار الاصداف في لوندرة المتعمق جدًا في العلوم الطبيعية قال لهُ ذات يوم انهُ لا يخشى شيئاً يقلل قيمة مجموعاتهِ مثل ظهور رسالة في وصف بعض الحيوانات الرخوة الكبيرة وصفاً جيداً لان كل نوع يدخل في صف التباينات لا يعود لهُ مشترٍ . غير ان ليل يقول أيضاً « ولكن منذ ذلك الزمن زادت قيمة الحقائق العلمية جدًا في أنكلترا حتى كثر الطالب على الصور التي تصل بين الصور المنفصلة بعضها عن بعض انفصالاً كبيرًا وأصبحت قيمتها أثمن من الصور الاصليّة »

على انهُ لا ينبغي الاستنتاج مما تقدم ان كل تباين يصير نوعاً وان وافقتهُ

فهذا الميل في الاحياء الى التغير نتيجتهُ تكوين التباينات . ولا يخفى ما لهُ من الاهمية في صناعة تحسين الحيوانات الاهلية والاثمار والازهار سواء كان ذلك بتوليد تباينات جديدة بالتصالب أو بتثبيتها بعد توليدها

وهذا على رأي دارون أصل الانواع فانها حاصلة عن انحصار بعض الصفات في بعض الافراد وانتقالها في النسل بالوراثة وثبوتها فيهِ مع الزمان الطويل . فالتباينات على رأيهِ أنواع في حالة النشأة والانواع تباينات واضحة جداً وثابتة

وربما لم يظهر الانتخاب الطبيعي واضحاً حتى يتوهم الضد كما في الاماكن التي لا تتغير فيها أحوال الحياة الخارجية كالاقليم والتربة والقوت والهواء وأقسام اليابسة والمياه . او تتغير قليلاً جداً مثل بلاد مصر فانها لموقعها الجغرافي لم يعرض لها منذ ألوف من السنين أدنى تغير يعتد بهِ لا في أقليمها ولا في سائر أحوالها الخصوصية فلم تتغير نباتاتها ولا حيواناتها ولا اناسها . وأما في الاماكن المتغيرة أحوالها فبالضد من ذلك يكون الانتخاب الطبيعي ظاهراً واضحاً جداً

***

ولا يسع خصوم دارون أن ينكروا ميل الاحياء الى الاختلاف وتكوين التباينات لما هو واضح ومسلَّم به عموماً . الاَّ انهم يزعمون انهُ لا يتناول الاَّ الاعراض فقط كاللون والجلد والقد وغير ذلك ولا يصل تأثيرهُ الى جوهر التكوين . وقد بيَّن دارون بطلان زعمهم هذا وأثبت ان الميل المذكور يصل الى الجوهر ايضاً . قال ان الفرق بين النوع والتباين يمتنع تبيينهُ علميًّا والاختلاف بين العلماء من هذا القبيل كبير وليس لهم فيهِ تعريف مقبول والذي أوقعهم في هذا الارتباك اعتبارهم النتاج حدًّا يفصل بهِ النوع

ولا تمر سنة الاَّ ويضع العلماء أنواعاً جديدة وكل منهم يميزها على هواهُ فقد ذكر دارون ان النباتي الانكليزي وستن يذكر ١٨٢ نباتاً انكليزياً عدها غيرهُ أنواعاً مع انها تباينات . وقد قال هوكر في هذا المعنى ما نصهُ « ان النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نوع من النبات . فالنوع اذاً غير محدود . واذا كنا لا نستطيع

## تكوُّن التباينات

مبني على القاعدة المتحصلة من الاختبار والتي وضعها دارون . وهي ان الاجسام الحية ميالة الى التغير على اوجه مختلفة والى حدّ محدود . أي انها تنحرف عن الاصل الصادرة عنه ببعض صفات خصوصية اما في السحنة او اللون او الكساء او القد او القوة او تكوين بعض الاعضاء . فلا تشبه الابناء الآباء شبهاً تاماً مطلقاً . ولا يجتمع اثنان مع كثرة الاجسام العضوية على شبه واحد حتى ولا ورقتان على شجرة واحدة. بل يوجد دائماً اختلاف ولو مهما كان قليلاً . فالتحول الى حدّ محدود هو اذاً ناموس عام يطلق على جميع الاحياء . ولا يقال( ان الحيّ يلد حيًّا نظيره ) . ولا يصح ان يقال أيضاً انهُ (يلد حيًّا مختلفاً عنهُ ) . لان الوراثة ليست راسخة كما انها غير متخلقة . فلو كانت راسخة لاقتضى أن يبقى العالم العضوي واحدًا في جميع الادوار وفي سائر الاحوال . وذلك بخلاف الواقع لما يعلم من اختلاف الاحياء العظيم في الادوار الجيولوجية . ولو كانت متخلقة لاقتضى أن يحصل في الصور العضوية شذوذ يشرد بها ولا يردُّ الى قياس وهو ليس كذلك أيضاً . والصحيح أن يقال ان ( كل حيّ يلد حيًّا شبيهاً بهِ ) . وعلى هذه القاعدة يشبه الابن أبويهِ بالصفات الجوهرية ولا يشبههما أبدًا بكل الصفات ولو ان الاختلاف جزئي غير محسوس . ويشتد هذا الاختلاف كلما كانت سلسلة التسلسل أطول فان النباتات والاشجار الفسيلية اكثر شبهاً باصلها من النباتات البزرية . والاشجار المثمرة المطعمة لا تنبت كذلك الاَّ اذا زرعت بالفسيلة وترجع الى اصلها البري اذا زرعت بالبزرة. على ان الاختلاف بين الابناء والآباء هو غالباً جزئي جدًّا بحيث يخفى على غير المحقق. فان قطيع الغنم قد يظهر للبعض ان كل واحد منهُ نظير الآخر وأما الراعي فيعرف كل فرد منهُ بعلامة خصوصية . وهكذا كل زوج في سرب من الطير فانهُ يعرف بعضهُ ويجتمع بهِ بسهولة

جسدها فتموت فاذا اقفر الغاب ماتت «النسّا» لفقد قوتها فاختفى « الاكنمن» كأن لم يكن شيءٌ من ذلك كلهِ

وهناك أيضاً شاهد ثالث مأخوذ من جزيرة القديسة هيلانه فان هــذه الجزيرة كانت في القرن السادس عشر يغطيها غاب كثيف فلما ادخل اهل اوربا المعز والخنازير اليها رعت الفروخ الصغيرة فتعرت الارض في ظرف قرنين فطرأ على حيواناتها تغيرات جسيمة . ويلتقي في تربتها آثار حيوانات رخوة أرضية وهي نوع كان موجوداً في القديم وقد انقرض اليوم ولم يكن يوجد الاَّ في هذه الجزيرة

***

فهذه الشواهد تكفي . وهي تبين ان كل جسم حيّ يرتبط في تكوينهِ وصفاتهِ الخاصة ارتباطاً شديداً ولو انهُ خفي غالباً بغيرهِ من الاجسام الحية التي تنازعهُ في قوتهِ ومسكنهِ وغير ذلك . وهذا الامر ظاهر جيداً كما قال دارون بانياب النمر واظفارهِ كما هو ظاهر بمخالب الذباب الذي يتعلق بشعرهِ

وقد لاحظ هكل في كتابهِ المذكور سابقاً على دارون انهُ ذكر امثالاً فاسدة بجانب أمثال صحيحــة . وعندهُ ( أي هكل ) أن تنازع البقاء بحيث يعدم الواحد الآخر لا يكون الاَّ بين الاجسام الحية فقط . وأما بينها و بين الضرورة فلا تكون غايتهُ إعدام الحي بل توفيقهُ لها كما اشرنا الى ذلك فيما تقدم بقسمنا التنــازع الى فاعليّ ومفعوليّ

فهذا ما نبسطهُ في ما خص تنازع البقاء الذي هو في الحياة الادبية أيضاً كما هو في الحياة الطبيعية . و بقي علينا لتتمة الموضوع أن نبسط الكلام على الاقسام الثلاثة الباقية . وهي تكوّن التباينات . ثم انتقال هــذه التباينات بالوراثة . وأخيراً انتخاب الطبيعة لما هو اكثر صلاحية . فالاول وهو

***

الشمال الاَّ انهُ يكاد يتلاشى حيث تتغلب القواسر المذكورة لفرط شدتها . على ان تأثير الاقليم في نوع ما قد لا يظهر الاَّ اذا كان مع تنازع انواع اخرى . فان في حدائقنا نباتات كثيرة متحملة الاقليم جيدًا ولو تركت ونفسها خارج الحدائق بعيدة عن اعتناء الانسان لما استطاعت أن تثبت لمنازعة اقرانها والحيوانات لها . ويكاد شجر القطران في اكوسيا من أعمال انكلترا يتلاشى للضرر الذي يلحقهُ من أبقارها فانها ترعاهُ وهو صغير . ولكي يتنامى فيها لا بد من ان يتداركهُ الانسان بما يصونهُ من مثل هذا الضرر وقد يتوقف نجاحهُ في بعض البلدان على عدم وجود ذباب لو وجد لأضرّ بهِ كثيرًا ولقد علم ان البقر والخيل والكلاب في بلاد باراجي لا تنتقل الى الحالة الوحشية كما هو الغالب في باقي اميريكا الجنوبية لذباب مجنح يكثر فيها ويقتل صغارها بالقاء بيضهِ في سرّاتها . فلو انتشر فيها بعض أنواع الطير الآكل الذباب لقل ذبابهـا وكثرت بقرها وخيلها الوحشية أيضاً ولحصل تغير عظيم في نباتاتها التي تقتات منها . ولأثر ذلك في أحوال طيورها أيضاً وتداعت سائر احوالها الى حصول عدة تغيرات فيها بالموازنة بينها

فهذا الشاهد يرينا ما يفعلهُ التنازع للبقاء في ظواهر الوجود من اختلاط الاعمال لما بينها من الارتباط الشديد . ولقد دقق دارون جدًّا في البحث عن هذا الارتباط وبلغ فيهِ نتيجة عظيمة . من ذلك ما فسر بهِ تلقيح كثير من النباتات بالذباب الذي يتردد عليها (كالنحل والزنابير وغيرها) حاملاً البُلن (١) من زهرة الى اخرى ولولاهُ لما تلقحت النباتات المذكورة . وعدد الزنابير يتوقف على عدد فار البيش الذي يخرب اوكارها . وعدد فار البيش متوقف على عدد القطاط والبوم التي تفترسهُ وهكـذا . بحيث ان وجود حيوان جارح في مكان يؤثر في نباتات ذلك المكان . ولنا شاهد ايضاً في ما هو معلوم من دودة تظهر في شجر القطران ثم تختفي لاختفائهِ واسمها ( نـنَّا ) . فحيثما كانت الدودة المذكورة كثر « الاكنمن » جدًّا وهو حيوان يضع بيضهُ في

(١) غبار في اعضاء ذكور النبات وهو اسم لقاح النبات

الانسان ومن هذا القبيل ما هو معروف في التاريخ من انقراض اهل اميركا واوستراليا المتوحشين لدخول اهل اوربا بينهم

***

ولا يبلغ التنازع معظمهُ الاَّ بين الانواع الاقرب بعضها الى بعض لاشتراكها في المتنازع عليهِ . ويقلُّ كلما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد . وكلما كانت الصورة قديمة كانت اضعف عن مقاومة خصومها الاحداث لاتخاذ الاحداث في التنازع صوراً أنسب للتغيرات الحاصلة في احوال الحياة تجعلها اقوى . وكل صورة غُلبت لا تعود ابداً اذ لا تعود قادرة على الثبات في التنازع . ويتضح لنا كل ذلك على نوع عجيب في اوستراليا او هولاندة الجديدة . فان هذا القسم من العالم المنعزل جغرافيًّا عن كل منازعة لم تزل حيواناتهُ ونباتاتهُ متأخرة تشبه احافيرنا المتكونة منذ زمان طويل . واعلى حيواناتهِ رتبة ذو الجراب الذى عاش في اوربا في الدور الثاني وتلاشى لتغلب انواع اخرى عليهِ اقوى واكمل . وانما بقي مثل هذا الحيوان في اوستراليا الى يومنا هذا ولم يتلاشَ لعدم وجود منازع لهُ شديد البأس . ولكن من يوم دخلها الانكليز اخذ كل ما فيها بالتلاشي حتى كاد يزول لعدم صبرهِ على منازعة ما ادخلوهُ معهم . ولم يسمع قط ضد ذلك أي انهُ لم يسمع ان موجودات اوستراليا امكنها ان تتأصل في اوربا

***

فاذا امتنع تكاثر الجانب العظيم من الحيوانات بسبب الجوارح منها فالجوارح نفسها يمتنع تكاثرها أيضاً لقلة القوت الذي يقيم من نفسهِ حدًّا لنمو الحيوان لا يتعدى . وزد على ذلك ايضاً تأثير الاقليم والبرد والحر فقد ذكر دارون ان خمس الطير هلك في بعض اماكن في انكلترا بسبب البرد القارس الذي حصل سنة ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ . وما بقي منهُ انما هو الاقوى والاكثر ريشاً والمتعود اكثر على طبيعة الاقليم . كما ان الذي يفوز باستحصال القوت في زمان القحط على مذهب دارون انما هو الشديد وصاحب الحيلة . ومن المعلوم ان التنازع مع القواسر الطبيعية ولا سيما البرد يشتد كلما صعدنا نحو

الكساء . او الحيلة . او حسن التدبير في استحصال القوت . او الحكمة في اتقاء الشر الخ . ولعموم النوع هي كثرة النتاج ( وان كان فعل الكثرة محدوداً جداً ) . وللنبات موافقة التربة . او قوة يقوى بها على المؤثرات الخارجية المضرة . فانا لو قطعنا العشب المؤلف من نباتات مختلفة على مساواة الارض وكررنا ذلك فلا يقوى منهُ والحالة هذه على ماسواهُ إلا ما كان اكثر موافقة للتربة . وقد رأوا في امتحانات من هذا القبيل ان تسعة انواع من عشرين نوعاً هلكت . او لو زرعنا بزوراً مختلفة مخلوطة معاً ثم حصدناها وزرعنا بزور المحصود وهكذا على زمان معلوم . فلا يبقى بعد حين من البزور الاصلية الاَّ القليل الاشدّ والاكثر نتاجاً والاوفق للتربة . فلو تنازع نبتان في قفرٍ لما بقي الاَّ اقواهما على احتمال اليبوسة . ولا يفوز في زمان القحط الاَّ من كان اشدَّ صبراً على الجوع . والدبق ينازع ما جاورهُ من الانواع بحلاوة اثمارهِ التي تأكلها الطيور وتنشر بذرهُ اكثر من سواهُ . وبعض انواع الغنم الجبلي اذا وضع بين انواع اخرى اكثر منهُ وفاقاً لاحوال الحياة فانهُ يهلك . وهكذا العلقة الطبية ايضاً . وذو الاجنحة الغشائية المائي انما يغوص في الماء بسهولة لتكوين خاص في رجليهِ يجعلهُ متميزاً على ما سواهُ من نوعهِ في القنص والهرب . وبعض الحيوانات يفيدهُ لونهُ كالحجل الابيض والدب الابيض اللذين يقطنان في الجهات القطبية المغطاة بالثلج على الدوام . وكذلك الذباب الاخضر الذي يعيش على اوراق النبات . وبعضها يقيهِ فروهُ الذي يتلبد اذا اقبل الشتاء وبعضها سرعتهُ في الهرب او شدتهُ في القتال . ولنا امثلة غريبة من هذا القبيل كانقراض الفار الاسود الانكليزي تحت انياب الفار الرمادي الهنوفري الذي قطع المانش على مراكب غوليوم دورانج . ولم يكن في مدينة سان فرنسيسكو في كاليفورنيا سابقاً غير الفار الابيض الاَّ انهُ انقرض امام الفار الاسود الذي جاء اليها بالمراكب الاوروباوية وقد تكاثر فيها حتى بلغ ثمن القط خمسين ريالاً . وانقرض نوع من الخطاطيف في اميريكا لنوع آخر منها . وكانت نتيجة سرعة انتشار دج الدبق في انكلترة انقراض الدج المغرد منها . وهذا التنازع في الوجود يطلق ايضاً على

الهند الشرقية نباتات ادخلت اليها منذ اكتشاف اميركا وقد امتدت من رأس كامورن الى جبال حملايا

***

فهذه الكثرة في النتاج تعترضها اسباب كثيرة منها مزاحمة الافراد بعضها لبعض من جهة وعدم موافقة الاحوال الخارجية للحياة من جهة اخرى او هو تنازع البقاء. وهذا التنازع على حالين فاعلي ومفعولي. ويراد بالفاعلي ما كان بين الاحياء بعضها مع بعض. وبالمفعولي ما كان بينها وبين قوى الطبيعة الصامتة. قال دارون ان الطبيعة تزرع الجراثيم بيدٍ سخية الاَّ ان الكثير منها لا يبلغ تمام نموهِ ويهلك ملايين منها على الدوام. لان الطبيعة وان جادت بالكثير فقد علقت هذا الكثير باسباب التلاشي والهلاك

ولدارون في وصف هذا التنازع للبقاء ما نصهُ: اننا اذ نسمع تغريد الطيور في الليالي [1] الزاهيات ونرى الطبيعة باسمة عن ثغر الصفاء والسكون. لا يخطر لنا ببال ان جميع هذه السعادة انما هي قائمة على تلاشٍ في الحياة متسع ومستمر فان الطيور تغتذي من انواع الذباب وبذور النبات. وننسى ايضاً انها هي العدد القليل الباقي من بين اخواتها التي سطت عليها الطيور الجوارح وعبثت باعشاشها اعداؤُها من كل جنس او المت بها قساوة الفصول والجوع والبرد وغير ذلك

***

ولا يخفى ان الفائز من الافراد او الانواع او غيرها على ما سواهُ في معمعة هذا التنازع للبقاء هو ما تميَّز بينها بصفات جسدية او عقلية تحقَّق لهُ هذا الفوز. وهذه الصفات كثيرة جدًّا. فقد تكون الاقدام. او القوة. او كبر القد. او صغرهُ. او وسائط الهجوم. والدفاع. او اللون. او الجمال. او السرعة. او الصبر على الجوع. او حسن

---

(١) لعلهُ اراد بذكر الليالي طائرًا مخصوصًا والاَّ فان الاسحار هي اولى ما عهد من اوقات تغريد الطيور كقول امرىء القيس

كأنَّ المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يُعلُّ بهِ برد انيابها اذا غرَّد الطائر المستحر

واول هذه العوامل واهمها هو

***

## تنازع البقاء

ان الاختبار يعلمنا ان جميع الافراد من نبات وحيوان ميالة للتكاثر الى مايقل دونهُ الغذاء وتضيق عنهُ الارض . فان السمك وفار البيش مثلاً لو صحّ نتاجهما جميعهُ وكان الغذاء كافياً لضاقت عنهُ لجج البحر وتغطت بهِ الارض و بلغ ارتفاعها بهِ اذرعاً في بضع سنين (١) ولو اخذنا انواعاً تكاثرها قليل كالفيل الذي هو اقلها نتاجاً لكان الحال كذلك ايضاً مع الزمان الطويل . فان انثى الفيل لا تلد حتى تبلغ الثلاثين . ولا تلد من هذا السن الى التسعين الا ثلاثة ازواج فقط .ومع ذلك فقد حسبوا انهُ اذا اخذ زوج واحد فقط ولم يعترضهُ ما يمنع تكاثرهُ في مدَّة ٥٠٠ سنة يبلغ الناتج ١٥ مليوناً من الفيلة . ولو اخذنا كذلك نبتاً لا يعطي سوى جرثومتين في كل سنة ففي عشرين سنة يبلغ عدد ما يعطي مليوناً . وكذلك الانسان الذي يتكاثر قليلاً و يتضاعف في كل ٢٥ سنة فلو صح جميع نتاجهِ لضاق عنهُ فسيح الارض في بضعة آلاف من السنين

ولنا على ذلك امثلة معتبرة من الانواع التي تكاثرت كثيرًا جدًّا لعدم وجود موانع كافية تمنع تكاثرها . فان الخيل والبقر الوحشية التي تسرح سُرباً لا يحصى عددها في سهول اميركا الجنوبية الواسعة انما اصلها عدد قليل اتاها من اوربا يوم غزوة الاسبانيول . وقد قدَّر همبلط عدد الخيل الوحشية في سهول بلاتا الواسعة بنحو ثلاثة ملايين . والنباتات والحيوانات التي ادخلت من اوربا الى اوستراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطي الارض هناك وفازت على الاصلية منها . و يوجد في بلاد

(١) يقال ان السمكة تبيض في المرة الواحدة من الف بيضة الى مائة الف

العقول لهُ كثيرًا في انكلترا وفرنسا والمانيا ولاسيما انكلترا . و بعد ان عرف اصحاب التحقيق فساد المذهب القديم . الاَّ انهُ كان يلزم اقامة آخر مقامهُ وهذا حصل لما ظهر

## مذهب دارون

وهذا المذهب بسيط جدًّا بنفسهِ والعجيب فيهِ ان الطبيعة تولد اشياءَ عظيمة لعوامل تكاد تكون بالنظر الينا ضعيفة وغير محسوسة بتجمع قواها فقط شيئًا فشيئًا على ممر الدهور والادوار الجيولوجية الطويلة جدًّا . وهذا المذهب يذكرنا بالمثل السائر ـ البساطة علامة الحقيقة ـ على ان جميع الاكتشافات العظيمة والاختراعات والحقائق بسيطة جدًّا وقريبة الفهم واول شيءٍ يعرض للذين يعلمونها ان يتعجبوا كيف انها لم تعلم قبل

وعنوان كتاب دارون وحدهُ يتضمن كل مذهبهِ مبدئيًّا وهذا هو

ـ تولد الانواع بواسطة الانتخاب الطبيعي او بواسطة حفظ الاصول الأكمل في تنازع البقاء ـ

***

وعندي ان هذا المذهب يقسم الى اربع مسائل جوهرية وان لم يقسمهُ دارون كذلك ودرسهُ على هذه الصورة يسهل فهمهُ جدًّا وهي :

(١) تنازع البقاء

(٢) تكون التباينات او تغير الافراد

(٣) انتقال هذه التغيرات في النسل بالوراثة

(٤) انتخاب الطبيعة للمتغير من هذه الافراد لذي يكون فيهِ بعض افضلية وهذا الانتخاب يحصل بواسطة تنازع البقاء

فهذه العوامل الاربعة اذا اجتمعت وفعلت معًا فنتيجتها التي هي استمرار تحويل الاحياءِ في الطبيعة تكون كأنها ذاتية

حجر عثرة في سبيل العلم [١] . وفي المانيا وفرنسا حصل في اول الامر هياج ضد المذهب المذكور ثم ما لبث ان هجع . واليوم اكثر علماء المانيا وفرنسا ولا سيا علماء المدرسة الحديثة متابعون لداروين في تحوُّل الانواع [٢] .واعتراض الاصوليين الوحيد على مذهب داروين هو انهُ افتراض لا يستطاع تبيين صحتهِ . ولقد جهل المعترضون ان افتراضهم الخلق واحدًا او متعاقبًا يمتنع تبيين صحتهِ اكثر لتناقضهِ مع جميع الاشياء . واما مذهب داروين فبالضد من ذلك يفسر جملة ظواهر كانت قبلهُ غير مفهومة — ولقد كان معروفًا ان امر الخلق الواحد مثلاً ممتنع لان الحيوانات والنباتات الحلمية لا تعيش الاَّ على اجسام اخرى عضوية وكثيرًا من النبات لا يعيش الاَّ في ظل نبات آخر — على ان نظر داروين ليس افتراضاً بل اكتشافاً ولا نطيل الكلام في ذلك اكثر الآن لانا سنعود اليهِ فيما يأتي

***

وقبل ان نفرغ من تاريخ هذه المسألة اقول اني من جملة الذين تكلموا بمذهب التحوُّل قبل داروين بزمان طويل وفي الطبعة الاولى ١٨٥٥ من كتابي — القوة والمادة — في فصل — التولد الاول — قلت ان تولد انواع جديدة يحصل طبيعياً بالتسلسل والتحوُّل وقد جعلت اسباب ذلك فعل الاحوال المختلفة لسطح الارض من جهة وتغييرًا تدريجيًّا في الجراثيم من جهة اخرى . ولم افصل فعل هذه الاسباب او العوامل كما ينبغي لعدم امكان ذلك حينئذٍ وما مرت خمس سنوات حتى ظهر كتاب داروين مؤيدًا مذهب التحوُّل

فيرى مما تقدم ان مذهب داروين لم يبد فجأة كما قد يظن . بل بعد ان استعدَّت

---

(١) من جملة ما قالهُ هكسلي ( لو كان لي الخيار في اجدادي من بين قرد قابل للارتقاء ورجل يهزأ جهدهُ بالبحث عن الحقيقة لاخترت القرد )

(٢) لا خلاف في ان اهم ما كتب في داروين ومذهبهِ هو كتاب هكلي — تكوين الاجسام العضوية العام ) — حيث بسط المؤلف عدة مسائل من مذهبه ولا سيما مسالة اول ظهور الاجسام العضوية وقد استعرنا كثيرًا من هذا الكتاب

فيها امتناع فهم ظهور الانواع الآنَ بالتسلسل عن أنواع سابقة متحولة . وهو كدارون يرى ان الطبيعة ميدان حرب يدافع كلُّ شيء فيهِ عن نفسهِ ويقتل القوي منهُ الضعيف ويؤلف نوعاً قائماً بنفسهِ . والانواع لا تستقرُّ على حال من الاحوال الآنَ مع الزمان الطويل وبعد ملاشاة الصور التي بين بينَ . وسنعود الى بعض هذه الامور المهمة . أما هوكر فاحدث في علم النبات ما أحدثهُ دارون في علم الحيوان من الانقلاب وعندهُ ان مذهب استمرار التحوُّل اعظم المذاهب التي جاء بها الطبيعيون

وما عدا الامور العامة الجوهرية في مذهب دارون فان فيهِ ايضاً اموراً اخرى عرضية مهمة ذكرت في بعض المؤلفات قبل دارون بكثير . فان احد الاطباء المدعو ولس تلا في مجمع لوندره الملكي في سنة ١٨١٣ رسالة في امرأة بيضاء على جلدها بقع سود ذكر فيها « الانتخاب الطبيعي » حيث قال ان الطبيعة تكوّن انواع البشر كما يغير الزارعون انواع المواشي . فالسود من البشر يتوون على السموم الميازمية اكثر من البيض لذلك نموا اكثر منهم في المناطق الحارة حتى لم يبق فيها سواهم

وفي سنة ١٨٢٠ كان ديكندل وهو نباتي فرنساوي شهير من المؤيدين لمسألة « تنازع البقاء » وعندهُ ان جميع النباتات دائماً في تنازع بينها وهو يستنتج من ذلك كل ما يترتب عليهِ

فلم يكن يقتضي والحالة هـذه لسبق دارون الا اطلاق ذلك على كل الاحياء كما فعل هو

***

وكتاب دارون مال اليهِ اعظم علماء انكلترة كليل وولاس وأوِن وغيرهم هذا ما عدا هكسلي وهوكر السابق ذكرهما . ولا يخفى ما اوجب هذا الكتاب من اللغط وفي سنة ١٨٦٠ قام مطران اكسفرد في جمعية من الطبيعيين الانكليز وقال ان هـذا التعليم مخالف للدين . فاسكتهُ الحاضرون مؤيدين دارون وقائلين لهُ دعنا ولا تكن

وفي سنة ١٨٥٢ قال «نودن» أحد أفاضل نباتييّ فرنسا ان الطبيعة كوّنت الانواع كما نكوّن نحن التباينات

وفي سنة ١٨٥٣ قال الكونت «كيزرلين» في تفسير ظهور الانواع الجديدة بفعل جسم ميازميّ قد ينتشر في بعض الاحيان على الارض فربما لقّح الجراثيم التي تولد الانواع. ومهما يكن من غرابة هذا الزعم فما هو الا وسيلة لتفسير الشيء تفسيرًا طبيعيًّا

ثم بعدهُ بسنتين أي في سنة ١٨٥٥ كما يقول داروِن بحث الفاضل «بادن بادل» في فلسفة الخلق في كتابهِ ـ وحدة العالم ـ وبيَّن جليًّا ان ظهور أنواع جديدة في الخلق ليس من العجيب بل بالضد هو شيءٌ قياسي

فداروِن اقتفى آثار ليل في علم الجيولوجيا وكلاهما فتحا لنا السبيل لفهم أعظم أعمال الطبيعة

وفي سنة ١٨٥٩ بحث في هذه المسألة اثنان شهيران من علماء الانكليز وهما الاستاذان هكسلي وهوكر في وقت واحدٍ تقريبًا مع داروِن وذهبا فيها مذهبًا لا يختلف كثيرًا عن مذهبهِ

وهكسلي هو أحد علماء تشريح المقابلة اشتهر جدًّا منذ نشر كتابهُ ـ منزلة الانسان في الطبيعة ـ قال في خطاب القاهُ في جمعية لوندرة الملكية ان الاعتقاد بالخلق المتعاقب لا يتفق

أولاً مع الواقع

ثانيًا مع التوراة

ثالثًا مع ناموس تناسب الطبيعة العامّ

ثم بيَّن كيف ان المذهب القائل بان الانواع الحاضرة ناشئة عن أنواع أُخر سابقة متحولة هو المذهب الوحيد الذي فيهِ بعض مستندات فزيولوجية

* * *

وبعد ظهور كتاب داروِن بقليل ظهرت مقدمة الدكتور هوكر ـ في نباتات طسمانيا (مقاطعة في اوستراليا) ـ والدكتور المذكور من أفاضل النباتيين. وقد بيَّن

أن تشتهر آراء لامرك وجفروى ايضاً ولو كانت على ضد مشرب الطبيعيين و بعض الناس لان معرفة الاحوال في تكوين الارض لا بدَّ أن تتناول تكوين العالم العضوي المنتشر فوقها واستمرار الحال الواحدة يقتضي استمرار الثانية

فعاد العلماء الى البحث في هذه الآراء ولكن واحداً واحداً وعلى سبيل التستر . وداروِن يذكر لنا في مقدمتهِ أسماء كثيرين منهم موافقين على رأيهِ وفيهم بعض افاضل لاهوتيّي الانكليز

***

وما زال الاعتقاد بوجود علاقة شديدة بين جميع الصور العضوية و بتسلسلها بعضها عن بعض ينحت اذهان بعض الفلاسفة في السر حتى حان لهم أن يجاهروا بحقيقتهِ مستندين فيهِ الى الحوادث المقررة

فاذاع ويليم هربرت في سنة ١٨٣٧ ان انواع النبات ليست الاَّ تباينات مرتقية وكذلك أنواع الحيوان . ثم في سنة ١٨٤٤ ظهر في انكلترا كتاب ـ آثار الخلق ـ الشهير وقد طبع مراراً والطبعة العاشرة في سنة ١٨٥٣ . بسط فيهِ مؤلفهُ وقد اخفى اسمهُ وجود عاملين يعملان التغيير في الاحياء احدهما أحوال الحياة الخارجية . والثاني القوة المتصلة بالجسم الحيّ . وهي ذاتية مستقرة فيهِ تدفعهُ الى الترقي. فمن هذين المبدأين يستنتج المؤلف ان الانواع غير ثابتة

وفي سنة ١٨٤٦ قال احد افاضل علماء الجيولوجية في الباجيك «دوماليوس دلوى» في رسالة أثبتت في ـ سجل جمعية بروكسل الملكية ـ ما معناهُ ان الانواع الجديدة متكونة بالتسلسل لا انها خلق خاصّ . وذكر انهُ أبدى هذا الرأي من سنة ١٨٣١

وفي سنة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٨ استنتج هربرت سبنسر احد مشاهير علماء الانكليز مما قررهُ الاختبار ومن التدرج العمومي المتبع في الطبيعة بعد ان قابل بين مذهبي الخلق والتحول ان الانواع لا بد أن تكون قد تغيرت للتغيرات الحاصلة في الاشياء التي من خارج

وانصاره من جهة .على تحول الانواع في جمعية العلوم باريس في ٢٢ شباط سنة ١٨٣٠ اضطر علماء المدرسة الفلسفية ان يرتدوا على اعقابهم خاسرين امام خصومهم اذ فاز الاصوليون ( الذين ينظرون الى الاشياء من حيث الواقع المنظور فقط ) على اصحاب النظر الفلسفي في الطبيعة والفوز المذكور انما كان لنقص الشواهد ولسوء فهم الموجود منها. فلم تقبل آراء جفروى بدعوى انها آراء لا دليل عليها . وصحت الغلبة ولكن الى حين لخصومه الذين اقتصروا على الواقع المنظور . واعتبرت مسأَلة البحث في اصل الانواع من المسائل التي تعلو على العلوم الطبيعية علوًّا كبيرًا

***

وذاع خبر هذا الجدال في كل اوربا . وقد كتب غاثي الذي هو كما قلنا قريب جدًّا بافكاره من جفروى وفلسفته رسالة جليلة في هذا المعنى فرغ منها قبل موته بايام قليلة ( ١٨٣٢ ) . وقد ضمنها شرحًا مستوفيًا في صفات كوفيه وجفروى ومذهب كل منهما . ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٦٠ لم يسمع ذكر علم فلسفة الطبيعة لما كان من انتصار خصومه . فنسي العلماء لما فيه من النقص والخطاء ما لهُ من المزايا التي لا تنكر حتى توهموا كما قال هكل ان الفلسفة في الامور الطبيعية لا تتفق مع العلم . ولَيل نفسهُ الذي هو أعظم المصلحين في علم الجيولوجية اعتقد ذلك ايضًا وقام ضد لامرك . وهو يذكر في كتابه ـ قدم الجنس البشري ( صفحة ٣٢١ ) كيف انهُ في كتابه ـ مبادىء الجيولوجية ـ ( ١٨٣٢ ) تظاهر ضدهُ . وكثيرًا ما يتقدم اليه في كتابه المذكور سائلاً العفو حيث يقول « ان كل ما قدمهُ لامرك في تحوُّل الانواع صحيح وفي موضع آخر منهُ ما نصهُ « كلما عرفنا صورًا جديدة اكثر بان عجزنا عن تحديد الانواع » وغير ذلك مما يدل على رجوعه الى افكار لامرك

والغريب ان لَيل رغما عن مضادته لمذهب تحوُّل الانواع في كتابه ـ مبادىء الجيولوجيا ـ هو الذي مهد لهُ السبيل بنقضه مذهب النكبات العامة المعول عليه قديمًا في علم الجيولوجيا . لانهُ لما بيَّن ليل وحدهُ فساد مذهب النكبات الارضية العامة المفاجئة . و بيَّن مع فربس شدة تأثير التربة والاقاليم في الاجسام الحيَّة . لزم ضرورة

الخارجة ولا سيما الهواء واختلافاتهِ من جهة الحرارة والرطوبة وكمية الحامض الكربونيك فيهِ الى غير ذلك مما يجب ان يؤثر في تكوين الاجسام الحية وبنائها من تأثيرهِ في التنفس . وهو يعتقد بنظام مشترك لبناء كل الاجسام العضوية

***

وبينا كان لامرك يبحث في هذا الموضوع كان في المانيا رجلان يبحثان فيهِ ايضاً وهما الشاعر « غاثي » والطبيعي الشهير والفيلسوف معاً « اوكن »

فغاثي يقترب في نظرياتهِ الفلسفية من جفروى سنتيليار وهو ذو مقام في تشريح المقابلة لاكتشافهِ عظم ما بين الفكين في الانسان ولمذهبهِ في الجمجمة انها اجتماع فقرات متحولة . وقد نشر سنة ١٧٩٠ كتابهُ — تحول النبات — وقد بسط فيهِ ببيان ودقة مبادىء مذهب التسلسل فقال ان الورقة اصل في النبات ومنها يتكوَّن باقي الاعضاء ثم رجع بعد حين عن هذا الرأي كما سيأتي الى مذهب لامرك وجفروى اي مذهب الارتقاء التدريجي او التسلسل

اما لورنس أوكن فكان طبيعيًّا اعظم من غاثي — ١٧٧٩ — ١٨٥١ — ولقد تبع في كتابهِ — فلسفة الطبيعة — نفس الترتيب الذي تبعهُ لامرك . وهو لم يبسط فيهِ مبادىء مذهب التحوُّل فقط بل مذهب الكريات المهم جدًّا ايضاً . وعندهُ ان جميع الاجسام الحية ناشئة مما يسميهِ — العَلقة الاولى — « ارشليم » وهي نفس ما نسميهِ اليوم ( بلاسما او برتو بلاسما ) — ومذهبهُ الشهير في الحيوانات النقيعية التي على موجب رأيهِ يتركب منها جميع العالم العضوي في الانسان فيهِ اشارة الى مذهب الكريات الحالي . ومهما يكن في هذين القولين وهما التحوُّل والكريات من الصحة فالعلم لم يستفد منهما سريعاً الفائدة المنتظرة للاعتماد فيهما على النظريات الفلسفية العريقة في الابهام . وزد على ذلك ان اوكن كان يضع افكارهُ في قالب من الكلام هو من الاقتضاب وعدم الصراحة بحيث كان يجعل انتشارها صعباً جدًّا

وفي الجملة فان آراء اوكن في ( فلسفة الطبيعة ) لم يزدد شأنها في الثلاثين سنة التي عقبتها الاَّ انحطاطاً . حتى انهُ في الجدال الذي حصل بين جفروى من جهة وكوفيـه

وانهُ وان كنا لا نستطيع ان نقبل قول لامرك هذا على علاتهِ الاَّ اننا لا نجد بدًّا من التسليم معهُ بأمور اخرى هو باتفاق تام فيها مع داروين وهنا يظهر فضلهُ على اقرانهِ

واول هذه الامور انكارهُ الانواع وعندهُ ان لا انواع في الطبيعة بل افراد فقط تتحوَّل تحوُّلاً غير محسوس . واذا كان ذلك يخفى علينا في مكانهِ فلقصر وقتنا وطول زمانهِ . وهذه القضية مهمة جدًّا في مذهب داروين

وثانيها ان لامرك لا يسلم بقول معاصريهِ من الجيولوجيين الذين يقولون بنكبات الارض وانقلاباتها العامة . وعندهُ ان هذه النكبات خاصة وهو قول يعجب بهِ لا سيما اذا اعتبرت حالة العلم في زمانهِ (١)

ولم يكن لهُ عضد في فرانسا الاَّ جفروى سنتيلير ( ١٧٧٢ — ١٨٤٤ ) وهو من فحول العلماء والطبيعيين ونظرياتهُ قريبة من تعاليم الطبيعيين الالمانيين.وكانت افكارهُ في الانواع نظير افكار لامرك منذ نحو سنة ١٧٩٥ الاَّ انهُ لم يتجاسر ان يجاهر بها حتى سنة ١٨٢٨ وذلك في رسالتهِ — اصل وحدة التركيب العضوي —

على انهُ جعل اسباب هذا التحوُّل غير ما جعلهُ لامرك وجل اعتمادهِ على الاحوال

---

(١) لامرك لم يقتصر في فلسفتهِ على هذه الامور فقط بل درس ايضًا مسائل اخرى عامة درسًا حقيقيًا ماديًا وحلها حلاً لا يختلف عما هو مقرر في العلم اليوم . وهذه بعض قضايا مقتطفة من كتابهِ فلسفة الحيوان

١ التقاسيم المعول عليها كالطوائف والصفوف والانواع الخ ليست طبيعية بل اجتهادية

٢ الانواع لم تتكوَّن الاَّ شيئًا فشيئًا ووجودها نسبي وثبوتها في الازمنة محدود

٣ اختلاف الاحوال الخارجية يؤثر في تكوين الحيوان وصورتهِ جزئيًا وكليًا

٤ الطبيعة كوَّنت الحيوانات اولاً فاولاً مبتدئة من ادناها ومنتهية باعلاها

٥ النباتات والحيوانات لا فرق بينها الاَّ بالحسّ

٦ الحياة ليست الاَّ طبيعية

٧ النسيج الخلوي اصل كل حيّ

٨ لا مبدأ حيوي منفصل

٩ الجهاز العصبي مولد الافكار وكل اعمال العقل

١٠ الارادة غير حرة

١١ الادراك ليس الاَّ ارتقاء في اشتراك الاحكام

والطيور المائية كالبط انما كان لها غشاء بين اصابعها لاحتياجها الى العوم واعتيادها لهُ

واللقلق الذي يعيش بقرب الماء انما كان طويل العنق والمنقار والرجلين قويهما لانهُ في التقاطهِ غذاءهُ من الماء يحاول عدم الوقوع فيهِ

وعنق الأوز انما كان منحنياً طويلاً لمحاولتهِ التقاط غذائهِ من اسفل الماء

والزارافة انما كان عنقها طويلاً جدًّا لاحتياجها لمد عنقها الى اوراق الاشجار العالية .

وميل الثور الى النطاح سبب قرونهِ وحمل القنغر اجريتهُ في جرابهِ بقرب بطنهِ سبب فيهِ لشدة رجليهِ وطول ذنبهِ وقوتهِ

***

فمن هذه الامثلة وغيرها يرى ما في هذا التعليل من الاجتهاد والنقص وهو وان صحَّ على بعض الحوادث وفي بعض الظروف الاَّ انهُ لا شك في كونهِ لا يصح على ارتباط العالم العضوي بعضهُ ببعض .ومما يزيد في فضل لامرك انهُ كان يعتبر جدًّا ناموس الوراثة الذي بسطهُ دارون جيدًّا . الاَّ انه لعدم ادراكهِ كيفية عملهِ كما ينبغي لم يستطع تبيينهُ في كل حالة . بخلاف دارون فانهُ بسطهُ في اخص الاحوال . واما لامرك فاكتفى بان قال على وجه الاجمال ان الوراثة مع الاحوال السابق ذكرها تجعل الاحياء تنشأُ وتتحوَّل وفقاً للضرورات وللاحوال الخارجية الفاعلة فيها من ادنى الحيوان حتى الانسان . وهو يظن ان الانسان نوع من القرود ارتقى حتى صارت كمالات الارتقاء فيهِ وراثية

***

وافكار لامرك تتشابه جدًّا مع افكار احد فلاسفة الالمان المتأخرين وهو «شوبنهور» الذي يجعل مبدأ كل شيء في الارادة.فانهُ نظير لامرك يقول ان احتياجات الحيوان وارادتهِ سبب اعضائهِ . وكل اعراض جسم حي انما هي مفعول ارادة ذلك الجسم . فقرنا الثور انما هما لميلهِ وارادتهِ النطاح . وسيقان الايل السريعة لارادتهِ العدو

فانهُ اوضح فيهما ببراهين طبيعية عدم ثبوت الانواع واشتقاقها بعضها من بعض من ادناها الى اعلاها وارتقاءها بالتحوُّل التدريجي

وهو يذكر لهذا النمو عدة اسباب كالعادة والضرورة وجنس المعيشة والتفنن اي استعمال الاعضاء وعدمهِ والتصالب وفعل الاشياء الخارجية والوراثة التي يجعلها في المقام الاول . و يعتقد ناموس الارتقاء التدريجي . ويقول بالتولد الذاتي في الاجسام الحية الدنيا . وا كثر اعتمادهِ على استعمال الاعضاء وعدمهِ وعلى العادة والضرورة كما يظهر من الامثلة التي يذكرها . ولا بأس من تفصيل بعض ما جاء بهِ من هذا القبيل لتبيان النسبة بينهُ وبين داروين من جهة ما يتفقان ويختلفان

***

فهما وان اتفقا من حيث مصدر الانواع الاَّ انهما يختلفان في كيفية حصول ذلك ونظر داروين من هذا القبيل اصح . فان لامرك لاعتمادهِ على العادة والضرورة وجنس المعيشة عندهُ ان الجسم يوفق للاحوال الخارجية ولاحتياجاتهِ بقوة نفسهِ . واما داروين فبالضد من ذلك يجعل التوفيق المذكور من فعل الاشياء الخارجية فيهِ لا عن استعداد فيهِ لقبولهِ .ولا تخفى اهمية الفرق بينهما لان قول لامرك فيهِ تقييد ومذهب داروين اعم. وقلما يعتبر لامرك فعل الزمان الذي يجعلهُ داروين من اهم العوامل.ولا بأس من ايراد بعض الامثلة من لامرك لزيادة الايضاح

قال ان الخلد ليس لهُ عينان او هما اثر فيهِ لانهُ لسكنهِ دائماً تحت الارض هو في غنى عنهما وعن النور . وقد توسع حتى قال انهُ اذا ربطت احدى عيني الطفل ينتهي الى ان يصير ذا عين واحدة فقط واذا تكرر ذلك عدة اجيال يتكون نسلٌ اعور

وان الافاعي انما كانت ذات شكل مستطيل وجسدٍ ملس لا اعضاء لهُ لان ضرورة مرورها في مسالك ضيقة والعادة اقتضتا ذلك

وشكل الحيوانات الرخوة البحرية الخاص واحتواؤها على مماسك طويلة نتيجة جنس معيشتها ومحاولتها امساك فريستها

الطبيعية ولا سيما الفيزيولوجية . ولذلك فهو يهم جدًّا جميع الذين يهمهم المسائل العامة التي تشملها هذه العلوم

ولم يقم بعد كتاب ليل — مبادئ الجيولوجية — اعظم من كتاب داروِن من جهة تأثيرهِ العظيم في جميع العلوم الطبيعية. فداروِن فعل في علم الحيوان ما فعل ليل في علم الجيولوجية اي انهُ جردهُ من كل مفاجئ ومجرد وجعلهُ تحت حكم التحوُّل التدريجي بفعل القوى الطبيعية

***

وقبل ان ننتقل الى البحث في مذهب داروِن لا بدّ من النظر الى من تقدمهُ في هذا السبيل من العلماء الافاضل — وهو نفسهُ يذكر في مقدمة كتابهِ اسماء كثيرين منهم للدلالة على ان مثل هذه الافكار كانت موجودة ولكنها لبثت هاجعة ولم تنتشر إما لضعف البرهان وإما لكثرة الخصوم . واقدمهم وافضلهم « لامرك » وهو ليس كما توهمهُ بعضهم فيلسوفًا لا إلمام لهُ بالعلوم بل بالضد هو من اعظم الطبيعيين الفرنساويين . ولقد تولى تعليم الحيوان في بستان النبات في باريس زمانًا طويلاً . واول ما درس من العلوم الميتورولوجية والطب ثم تعلق على النبات والحيوان اللذين نبغ فيهما جدًّا هذا ما عدا كتاباتهِ الفلسفية . ولطالما هزأ بهِ اضدادهُ لاجل هذا المذهب الذي هو اول واضع لهُ حتى جاء داروِن ووفاهُ حقهُ من الاعتبار

***

وكان الاعتقاد قبل لامرك ان الانواع ثابتة لم تتغير عن الصورة التي خلقت بها ولن تتغير . قال لينيوس اعظم نباتي القرن الماضي ما نصهُ « الانواع بقدر الصور الحية المخلوقة في الاصل » . على انهُ وجد في كل زمان من الفلاسفة والعلماء من قال انهُ ربما كانت الصور الحاضرة آتية من صور سابقة على سبيل التحوُّل . الاَّ ان ذلك لا يجوز اعتبارهُ الاَّ من قبيل الرأي فقط لخلوهِ من كل مستند طبيعي . والفضل الصحيح للامرك وحدهُ الذي كان فيلسوفًا وطبيعيًا معًا لما بسطهُ من هذا القبيل في كتابهِ فلسفة الحيوان ( سنة ١٨٠٩ ) وكتابهِ — تاريخ الحيوان العديم الفقر ( سنة ١٨١٥ )

يفهم كيف ان نوعاً حياً كالاسد او الفرس ونحوهما يوجد دفعة واحدة بدون استعداد سابق بفعل القوى الطبيعية المعروفة

فلفصل المسألة لا يكفي ان يقال انهُ تتولد انواع جديدة بل ينبغي ان يبين كيف يكون ذلك بحيث يكون مطابقاً لما يعلم عن القوى الطبيعية وكيفية عملها وهذه المسألة المهمة الصعبة قد حلها كلاًّ او بعضاً رجل من اكبر رجال هذا العصر اعني بهِ العالم الطبيعي الانكليزي

## شرل دارون [1]

***

وُلد هذا الامام المقدام والعالم المدقق والفيلسوف المحقق سنة ١٨٠٨ في انكلترا [2] وقد صرف عشرين سنة من حياتهِ في البحث فقط عن المسألة التي نحن بصددها حتى تحقق لهُ ان الاجسام الحية الماضية والحاضرة قد لا تشتق من اكثر من خمس او ست صور اصلية نباتية وحيوانية . وربما كان مرجع هذه الصور الى صور ادنى اي الى بعض كريات اصلية . فالاجسام الحية على مذهبهِ لا تنفكُّ ابداً عن التحوُّل في نشوئها الخاضع لناموس طبيعي ثابت. وكتابهُ يعدُّ من افضل الاساليب الفلسفية الطبيعية فهو لا يعتمد فيهِ في تفسير الظواهر الطبيعية وما تعلق بها الاَّ على الامتحان والعيان . ولا يخفى الصعوبات التي تعترض مذهبهُ بل بالضد من ذلك يبسطها لكي يبعدها بما في الامكان . ولقد علمنا بسببهِ اشياء كثيرة جديدة او بالحري تعلمنا ان ننظر اليها نظراً آخر . وكل ما تعرّض لهُ شديد التعلق باهم مسائل العلوم

(١) وكان قد اشتهر قبل ذلك بابحاثهِ العلمية الطبيعية في طوافهِ حول الارض على الباخرة الانكليزية ( بيكل ) من سنة ١٨٣٢ الى ١٨٣٧

(٢) وتوفي في سنة ١٨٨٢ ودفن في مدفن رجالها العظام في كنيسة ( وستمنستر ) وهي ( كالبنتيون ) في فرنسا .

وهذا المذهب لم يثبت كل هذا الزمان الطويل ولم يقوَ بمنعهُ على ما سواهُ حتى يومنا هذا الا لعدم وجود ما يفضلهُ. ولا سيما ان مبدأ ثبوت الانواع كان قد رسخ في ذهن الجميع. فكان كل نوع يعتبر انهُ ثابت على مرّ الزمان وانهُ خلق خصوصي. ولم يتزعزع هذا الزعم حتى قام داروين واخذت الابحاث الحديثة تمهد للعلم سبيل التقدم

على ان مذهب نكبات الارض وتقلباتها المارّ ذكرهُ كان قد انتقض قبل داروين بزمان طويل والفضل في ذلك راجع الى الجيولوجي الشهير السر شارل ليل الانكليزي الذي بين في كتابهِ — مبادئ الجيولوجيا — بما لا يقبل الاعتراض ان النكبات المشار اليها لم تكن عامة بل خاصة اي ان الانقلابات لم تعمّ قط سطح الارض دفعة واحدة. وانما الارض تتبع دائماً في تاريخها نشوءًا تدريجياً ثابتاً مستمراً وهي دائماً وأبداً تحت فعل نفس القوى ومعرضة لنفس الاحوال التي لا تزال تغير سطحها حتى اليوم. وقال ايضاً ان هذا النشوء بطيءٌ جداً وغير محسوس بحيث يخفى علينا وما اشتهر هذا المذهب حتى انضم اليهِ جمهور الجيولوجيين وهو الذي مهد السبيل لانحراف الافكار عن مذهب ثبوت الانواع

⁂

واما ظهور العالم الحي فلنا عليهِ احد ثلاثة افتراضات اما التسليم بمذهب تعاقب الخلق. او القول بتحوُّل العالم العضوي تحولاً تدريجياً متتابعاً بفعل القوى الطبيعية. او التسليم بالمذهب القائل بتولد جميع الانواع حتى العليا منها رأساً تولداً ذاتياً في كل الادوار بفعل القوى الطبيعية. فالاول يكاد لا يثبت والاخير فاسد لانتقاضهِ بجميع ظواهر العالم العضوي. وواضع هذا المذهب ليل الجيولوجي الشهير وهو يقول فيه ما نصهُ

«ان الاختبار يعلمنا ان كثيراً من الاحياء والانواع الحية يضمحل على الدوام من دون ان يقفر العالم فلا بدَّ اذن من ان تكون قد قامت بطريقة غير معروفة من الطرق الطبيعية انواع جديدة مقام التي اضمحلت فالقول ان هذه الانواع مكتشفة حديثاً وهي متكونة حديثاً غلط»

ولا يخفى على العارفين بالعلوم الطبيعية ما في هذا القول من الاضطراب اذ لا

على هذا المذهب . منها امتناع ملاشاة كل الاحياء في وقت معلوم من تاريخ الارض دفعةواحدة لانهُ توجد اصول ثابتة حية لم تتغير في النكبات والانقلابات الجيولوجية كالحيوانات البحرية الدنيا . وعدا ذلك فانا نرى في خلال الادوار المتعددة تكاثرًا تدريجيًا في بعض الانواع ثم انقراضًا بطيئًا فيها كذلك مما يدلُّ على ان الصور الواحدة انتقلت من دور الى دور في تنسيق طبقات الارض . فهذه الملاحظات لا يصح معها التسليم بانقراض تام يعقبهُ خلق جديد . وما نعلمهُ من وحدة النظام الاساسي في العالم العضوي ومن تقارب البنية في كل الصور الحية لا يقبل ذلك ايضًا. لاننا نجد في طبقات الارض المختلفة ليس عددًا عظيمًا من الصور المتشابهة فقط بل تدرجًا بطيئًا صاعدًا ونسبة شديدة بين احياء المكان الواحد المختلفة سواء كان بين الاصول المنقرضة والحية او بين كل منها . فاذًا يوجد رابط يربط الصور المتعددة بعضها ببعض وهذا لا يجب ان يكون في المذهب المار ذكرهُ .

ومع ذلك فعلماء كثيرون ايدوا هذا المذهب ولهُ نصراء حتى الآن . ومن اشهر نصرائهِ كوفيه الذي هو بابحاثهِ في الاحافير العظميَّة اول من مهد السبيل لدرس الآثار الاولى درسًا علميًا . ولقد عرف ايضًا في كتابهِ — تقلبات سطح الارض — هذه الامور المتناقضة وهو يذكرها ايضًا على ترتيب مطابق لافكار داروِن الاَّ انهُ لم يأخذ على نفسهِ تطبيقها على مذهبهِ . وربما كان السبب امتناع مثل ذلك في حينهِ . على انهُ يعذر بجانب اغاسيز الذي لم يخشَ فصل المسأَلة بقولهِ « ان الخالق قادر ان يعيد خلق الصورة التي اعجبهُ خلقها ». فان مثل هذا الجواب يغلق الباب في وجهِ العلم وفي وجهِ العقل البشري

ومذهب النكبات او الانقلابات الجيولوجية هو اقرار بالجهل ليس الاَّ والتسليم بهِ بدعوى ان سبب الاشياء الحقيقي والطبيعي لم يدركهُ طفورٌ الى ما وراء الطبيعة وهو شأن الناس عمومًا في تفسير كل ما اشكل عليهم معرفة سببهِ الطبيعي . على ان الرضى بذلك — وهو شأن كثير من اساتذتنا الفلاسفة — تشبّـه بهنود اميركا الذين لما رأوا خريستف كولمب نازلاً بينهم قالوا انهُ نزل من السماء

غالبًا في حالة ناقصة جدًّا . ولان المعلوم من هذا القليل المحفوظ هو دون الطفيف.واذا تذكرنا بان ثلثي الارض او ثلاثة اخماسها تحجبها البحار وان قسماً كبيرًا من الثلث الباقي تغطيهِ الجبال الشاهقة نعلم انهُ تمنعنا عن الابحاث العلمية موانع طبيعية . وانا لانعلم شيئًا عن احافير قارات اسيا وافريقيا واميريكا واوستراليا الواسعة . وما نعلمهُ من هذا القبيل انما هو آت كلهُ من قارة اوروبا الصغيرة . ولقد اصاب داروين حيث قال ان اغنى مجموعاتنا البالنتولوجية ليس شيئًا بالنسبة الى الحقيقة وهو آت من قسم من سطح الارض صغير غير مستوفى البحث فيه . على ان كثرة اختلافات هذه المجاميع تدلنا على كثرة الاحياء التي عاشت على الارض في كل الادوار بما يفوق حد الحصر

ومع كل هذه الصعوبات الناشئة عن قلة المواد المعلومة وعن نقصها في غالب الاحيان قد تحققوا ان طبقات الارض المختلفة الكثيرة تحتوي اجسامًا عضوية مختلفة . اي انهُ في الادوار العديدة لتاريخ الارض التي كل طبقة من طبقاتها تدل على كل دور من ادوارها عاشت حيوانات ونباتات خصوصية مختلفة بعضها عن بعض يزيد اختلافها كلما زاد البعد بينها

وعليه فصاروا يعينون مقام بعض الطبقات في النظام الحيواني من مجرَّد الاحافير الموجودة فيها خصوصًا الاصداف التي تحفظ جيدًا لمادتها الكلسية والتي تلتقى في الاحافير بكثرة فانها اعتبرت زمانًا طويلاً دليلاً على تعيين مقام بعض الطبقات في الارض . وهي لاتزال الى اليوم تعتبر ادلة ثمينة ولو ان كثيرًا من الاكتشافات الحديثة يناقض ذلك

فما تقدم ومن الوهم في فهم بعض الحوادث الجيولوجية نشأ المذهب العظيم القائل بنكبات الارض وتقلباتها و بالنتيجة مذهب تعاقب الخلق .وهذان المذهبان اللذان ايدهما كوفيه الشهير تغلبا على سواهما حتى هذه الايام الاخيرة ويراد بهما انقلاب عام يمحق بهِ كل اثر حياة على سطح الارض ثم تقوم على اثرهِ مخلوقات اخرى حية وهذا التعاقب حصل ٣٦ او ٤٠ او ٥٠ مرة في تاريخ الارض

***

على ان علم البالنتولوجية لم يكن يخلو من مسائل كثيرة يصعب او يستحيل تطبيقها

الغاية اليوم الا كتشافات الصادرة عن مد السكك الحديدية وخرق الجبال وفتح المقالع وتخطيط الطرق و بناء المدن وحفر الابار والاستقصاء في البلدان البعيدة الى غير ذلك مما هو الآن اكثر منهُ في الماضي . ولعدم ادراك هذه الاشياء في الماضي ادراكاً صحيحاً كان اذا وجد شيء منها لا يعبأ بهِ او عدّ من الخوارق

* * *

ولا ينبغي ان يتوهم ان جميع الاحياء الاولى او اكثرها بقيت محفوظة الى يومنا هذا فانهُ لم يحفظ منها الاَّ القليل جدًّا مما وافقتهُ الاحوال . والقسم الاكبر تلاشى لفعل الاشياء الخارجية ولا سيما ما كان منهُ غير ممكن الحفظ من طبعهِ كطائفة الحيوانات الرخوة والاجزاء الرخوة لباقي الحيوانات ومتى وجد آثار لهذه الحيوانات العديمة الهيكل ففي غاية الندرة . وما يشاهد في الاحافير غالباً انما هو اصداف وقواقع كاسية وعظام وقطع عظام وشعر وريش واسنان وحوافر ومبرزات متحجرة وما شاكل. وعلى هذه الاثار يكون البحث لمعرفة الاحياء التابعة لها وجنس معيشتها . ومن النادر ان تلتقى الهياكل العظميّة للازمنة الاولى كاملة ومحفوظة جيداً . واندر منهُ ان تلتقى الحيوانات كاملة ولا بد لذلك من احوال خصوصية . ومن اعظم امثلة هذا الاخير ماميث ( جمع مموث وهو الفيل الاول ) سيبيريا او الفيلة الاولى التي هي من اهم امثلة البالنتولوجية . فهذه الحيوانات توجد كاملة بجلدها وشعرها واحشائها وقدمرَّ عليها الوف من السنين . وزعم بعضهم انهُ وجد في معدها بقايا طعامها القديم . وسبب حفظها فعل الجليد او الارض المجلودة حيث وقعت وأندفنت حين كان الماءُ سائلاً او الارض طينة. ولكي يعلم كم يصعب على العقل البشري ادراك هذه المسائل بدون مساعدة العلم يكفي توجيه النظر الى معتقد قبائل سيبيريا الرحالة الذين يعتبرون هذه الحيوانات انها مناجذ هائلة حية تدب تحت الارض وتموت حالما تقابل النور . وصينيو اسيا الجنوبية يعتقدون ذلك ايضاً و ينسبون الزلازل الى حركتها تحت الارض

* * *

فيظهر مما تقدم ان معرفة الاحياء الاولى صعبة للغاية لقلة المحفوظ منها ووجودهِ

الجبابرة الذين كانوا في اعتقادهم يأهلون الارض زماناً طويلاً قبل الانسان

الاَّ ان بعض ذوي العقول الراجحة والافكار الثاقبة السابقين عصرهم قد ادركوا الحقيقة منذ القديم فان الفيلسوف اليوناني « اكزينوفانوس » من « كولوفنس » العدوّ الألدّ لآلهة اليونان وابو الفلسفة الآلياوية [٢] عرف الاحافير منذ ٢٤٠٠ سنة بما هي حقيقةً . فعرف انها بقايا حيوانات ونباتات كانت حيَّة في الماضي واستدل من وجود اصداف بحرية على الجبال ومن انطباع صور السمك والفقم في حجار مقالع ازمير وباروس وسيراقوس ان الماء كان يغطي هذه الاماكن سابقاً

غير ان مثل هذه الاقوال الصائبة المتفرقة هنا وهناك والصادرة من مثل اولئك النوابغ لم يكن يمكن التعويل عليها وان كانت جليلةً بحد نفسها لعدم ارتباطها بما تعززَّ به من المعلومات التي لم تدرك الاَّ قليلاً قليلاً وبالتتابع . والحقائق الراسخة المعلومة كانت دون ما يلزم لان يبنى عليها تعليم مطابق للصحة. ولم يتيسر ذلك الاَّ في اوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضي حيث قام العالم الطبيعي الشهير « كوفيه » ووضع اساس علم البالنتولوجية اي علم الاحياء الاولى . ولا يخفى كم لا يزال هـذا العلم الحديث ناقصاً ولكنهُ لا يخفى ايضاً كم ينتظر منهُ ولنا شاهد على ذلك من كلامٍ « اغاسيز » حيث يقول :

«لا يعرف كم اقتضى من العناء والصبر لتأييد هذه المسألة البسيطة وهي ان الاحافير او الآثار المتحجرة هي في الحقيقة بقايا حيوانات ونباتات كانت سابقاً حيَّـة على الارض الاَّ الواقفون على تاريخ العلم . اذ لزم اولاً ان يبين ان الاحافير ليست من خرَب الطوفان لان هذا المذهب كان المعول عليه زماناً طويلاً . فالبالنتولوجيه لم تؤسس على قاعدة الاَّ من حين ما بين كوفيه ان هذه البقايا هي بقايا حيوانات قد انقرضت ومع ذلك فكم لا يزال يعرض لنا من المسائل التي ننتظر حلها »

فهذه المسائل التي يشير اجاسيز اليها يشتغل العلم الحديث بحلها . ومما يسهل هذه

(١) نسبةً الى آليا مدينة في بلاد اليونان القديمة اصحابها لا يعوّلون الاَّ على احكام العقل ولا يعترفون للعالم الاَّ بواحد كلّيّ

## ﴿ شرح بخنر على مذهب دارون ﴾

# المقالة الاولى



خفّف الوطء ما أظن اديم الا　　رض الاّ من هذه الاجساد

انا في كل خطوة نطأ بها الارض أمنا جميعاً نمرُّ بقبور ملايين ملايين من الاحياء التي عاشت وجاهدت وتألَّمت زماناً طويلاً قبلنا ثم ماتت تاركة آثارها في الارض المنبسطة تحت اقدامنا كأنها تريد بها ان تقول لنا

تلك آثارنا تدلُّ علينا　　فانظروا بعدنا الى الآثار

ولقد رأى الناس هذه الآثار في كل زمان ومكان . ولكنهم لم يدركوا حقيقتها فاعتبروها من فلتات الطبيعة التي راق لها في زعمهم ان ترسم صور الاحياء في باطن الحجارة . وكانوا في الاعصر الوسطى يعتبرون العظام الهائلة التي وجدت في اماكن متفرقة وهي عظام الفيلة الاولى والحيوان المعروف بالمستودُنت[١] انها بقايا من طوائف

(١) نوع حيوان انقرض وقد اطلق عليهِ ( كوفيه ) اسم ( المستودنت ) اي ذا الاسنان الحلمية

فمن رام تقويمي فاني مقـوم ومن رام تعويجي فاني معـوج

فالحقيقة ليست دائماً في مالنا . ولا الخطاء دائماً في ما كان ضدنا وقد قال آباؤنا من قبلنا مثلنا . فلا بد ان يكون في الامر وجه ذو خطر . يستحق ان يستوقف النظر . والعاقل من تدبر الاشياء كما تقتضيه لا كما يشاء . والحكيم من لم يختصم احداً لفكر او بيان . بل دفع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان

وما طلب المعيشة بالتمنّي ولكن ألقِ دلوك في الدلاءِ
تجيءُ بملئها طوراً وطوراً تجيءُ بحمأة وقليـل ماءِ

طنطا سنة ١٨٨٤

شبلي شميل

للمستقبل (١) وربما لا يطول الامر حتى لا ترى ملكاً في كل اوربا لان سرعة سير العلوم الطبيعية يؤذن بسرعة حركة الافكار في طلب الاستقلال والتبصر في ما بهِ سعادة الامة التي لا تنال الاَّ بتسهيل الاسباب المؤذنة لكل فرد باستعمال قواهُ استعمالاً حراًّ

ومهما يكن من امر تغير الشرائع وتقدمها حتى في اعظم الممالك المتمدنة فلا يزال طابع التقليد والاستبداد شديد الاثر فيها ثقيل الوطأَة عليها

***

فمهلاً سادتي الجالسين على عرشكم العالي وبيدكم صولجان المجد والقوة فلا يغضبنكم انذاري ولا تقنطوا من حكم الدهر وقد عدل فلكم صبرنا على مضضهِ وكان شر الجائرين ولا تطمعوا باسترداد ما فات

فقد انقضت تلك السنون واهلها فكأَنها وكأَنهم احلامُ

وسوف يتولى ما بقي . ولربما كان حظكم من ذلك في الشرق اطول جدًّا لولا ان الغرب باسط فوقهُ يديهِ مزمع ان يقبض عليهِ . ولا تعللوا النفس بما في التاريخ من سقوط بعض الامم الباذخة الشأن وقيام أمم اضعف منها القت اليكم مقاليد احكامها وسلمتكم زمام امورها فانهُ وان حصل ذلك الاَّ انكم لن تبلغوا امانيكم لتوفر معدات التقدم في العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة آثارًا لا تمحى ولا تزول بزوال امةٍ من الامم تخلفها امة تكون في استعدادها ارفع منها شأنًا واعلى مكانًا

***

هذا واني ارجو ممن لم تُصغ معانيّ على قالب عقلهِ . ولم توافق احكامي احكام نقلهِ . ان يحدّ في النظر قبل ان يحتد في خصامي . وان يلين للبحث قبل ان يشتدّ في ملامي . فربما سدل الغرض على بصائر القوم حجابًا. فرأوا الصواب خطاءً والخطاءَ صوابًا. فعدوني على وجه مخطئًا مريبًا . وعدوني على وجه مجيدًا مصيبًا

(١) اريد بها لا كما هي اليوم بل الجمهورية الحقيقية الديموقراطية التي يتم فيها توزيع الاعمال على قدر المنافع العمومية بحيث تتوفر معها المنفعة لكل فرد في الاجتماع بدون ادنى تمييز مطلقًا والتي تتوفر معها قوى الاجتماع بحيث يقل التبذير والتفريط بهذه القوى ما امكن

بخلاف الانسان الجاهل حقيقته فانهُ تنطلي الاوهام عليهِ وتهضم حقوقهُ حتى لا يبقى لوجودهِ اثر ومما يدلك على صحة ذلك ان الامة الهائمة في قفار الوهم لا تكون شيئًا في الوجود بالنسبة الى ملكها . بل هو كلُّ شيءٍ وتاريخها ليس سوى تاريخ ملكها

وما على الله بمستنكرٍ ان يجمع العالم في واحدِ

فيذهب بهِ الغرور الى ان يتصور نفسهُ من طينة ارفع من طينة الامة واذ لا يرى لهُ من ضد ذي بال يسكر في خمرة مجدهِ ويطمح في تيه ضلالهِ حتى يخيل لهُ ان ما في السماوات والارض مخلوق لهُ او هو صنع يديهِ وربما نصب نفسهُ الهًا في عيني الامة فصدقتهُ فيستبد في الرعية ولا شريعة لهُ سوى ارادتهِ ولا قانون سوى هواهُ فيستنزف ثروتها ويضعف قوتها ويقتل اولادها وبالجملة يتصرف فيها تصرف المالك في ملكهِ والامة التي هذا شأنها تتقوض اركان استقلالها فتشخص اليها ابصار الطامعين وتمتد اليها ايدي الفاتحين ويسومونها ذل الاستلحاق وخسف الاستغراق ولا تقوى حجتها وتتألف كلمتها وتوفق لاستقلالها الاَّ بعد سقوط سلطان الاوهام وقيام تعاليم اصحاب الافكار الحرة مقامها او ضعف شوكتها بها ولن تتوفق لهُ قط ما دامت على ضد ذلك ولو نهضت اليهِ عصبة واحدة بل تكون هذه النهضة فيها كالاضطراب الذي يسبق انطفاء النور يسرع بفنائها ويذهب ببقائها فضلاً عما يوجب ذلك بينها من تفرق الكلمة وكيف تنضم كلمتها وتفرق المذاهب والملل يحول بينها وبين انضمامها وهو اكبر سبب لسقوط الامم العظيمة ولولاهُ لقويت الامم حتى الضعيفة منها على استحصال استقلالها لان صوت الشعب اذا انضم لا يغلب مهما كان خصمهُ قويًا

وقد كانت اوربا قبل الثورة في حالة شؤمى من ذلك كما مرَّ بك واما اليوم وقد قطعت بعض تلك الربط التي كانت مقيدةً حركتها فقد رأيت بعينيك وسمعت باذنيك ما بلغتهُ من عزة الشأن وصلاح الحال في الشرائع والاحكام فاسست حكوماتها على الشورى الاَّ ما كان منها باقيًا تحت حكم تلك القيود وصارت الامة هي الحاكمة عوضًا عن الملك وفي بعضها صارت جمهورية وهذه الهيئة هي الهيئة الحكومية المعدة

يسقط الطير حيث يلتقط الحبّ ويغشى منازل الكرماءِ

فكم اصبح بهم الصحيح سقيماً والبريء جانياً والكريم مهاناً

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ وتتقي مربض المستاسد الضاري

ولا يعارضون فيما يقولون او يفعلون كأنهم عن الزلل معصومون او عن الغرض منزهون . على ان الانسانية قد نفت العصمة عن رؤساء الدين ولكنها لم تتمكن بعد من نفيها عن هؤلاء الغاوين

من لي بردِّ جماحٍ من غوايتهم كما يرد جماح الخيل باللجم

اذهلوا ان العرش الذي يتبوأُونهُ قائم على قاعدة هي الامة ام هم لا يدرون ان الامة صارت بجورهم

كأن صوت شخبها المرتضِ كشيش افعى ازمعت لعضّ

فهي تحك بعضها ببعض

فاذا خلت الامة من تحتهم هوى بهم ذلك العرش كجلمود صخر حطهُ السيل من عل

او انتفضت تطلب راحةً من تعب

تزلزل فيهم عرشهم وتمزقوا شظايا وطاروا في الفضاء شذر مذر

ام هم يتوهمون ان رقي المراتب الرفيعة في امور الدنيا واحوال السياسة لا يكون دائماً الا بالاستحقاق الدال على غزارة العلم وسعة الفضل ولا يريدون ان يذكروا ان اسبابهُ تكون غالباً على ضد ذلك

وقد يلبس المرءُ خير الثياب ومن دونها حالة مُضنيه

كما يكتسي خدهُ حمرةً وعلتها ورمٌ في الريه

او لعل تسلق المقامات العالية هو في الحياة الادبية كما في الحياة الطبيعية يجلب الدوار ويطمس البصائر والابصار . فالعدل كل العدل في الانتقام من الظالمين . وسيعلم الظالمون أيَّ منقلب ينقلبون . اذ يأتي يوم تسودُّ فيهِ منهم الوجوه وتخفق القلوب وتزهق الارواح جزاءَ ما جنت ايديهم وما هم يفعلون

القدر من الجنايات على الارض الاَّ لتضافر كلّ شيء على جعل البشر اشرارًا جانين فان دياناتهم وحكوماتهم وشرائعهم وتربيتهم والامثلة التي يرونها نصب اعينهم تدفعهم الى الشر . فما عسى ان ينفع تعليم الفضيلة التي يذهب اصحابها غنيمة باردة في هيئات اجتماعية ترفع شأن الجاني وجنايتهِ وتجلُّ قدر المسيء واساءتهِ ولا تقاصُّ اقبح الذنوب الاَّ اذا كان مرتكبوها ضعافاً . فان الهيئة الاجتماعية تقاصُّ الصعاليك لذنوب ترفع شأن اصحابها اذا كانوا كبارًا . وكثيرًا ما تقضي بالموت على اناس لم يرتكبوا القبيح الاَّ لفساد احكامهم بالاعتقادات الفاسدة التي تكون الحكومة قائمة بتعزيز شأنها » فالشريعة لا يجب ان تقبل من ايدي الآلهة بل من ايدي البشر . اي لا يجب ان تؤخذ من افواه الرؤساء والامراء ولكن من لسان حال الصعاليك والفقراء حتى تكون اقرب الى الانسانية اي الى اقامة العدل الصحيح منها الى تنفيذ الاهواء والاغراض النفسانية . فلا تهدم جسدًا تعبت فيهِ الطبيعة ملايين من السنين لغرض قوي ولا تخرب بيتاً ولا تهدم آمالاً لغرض غني ولا تبث احكاماً تمس هذه الجواهر المقدسة الاَّ منعاً لما يلحق بالهيئة الاجتماعية ضررًا بليغاً جدًّا غير مختلف فيهِ وربما راعوا اليوم فيها ما يمس حياة الاجساد اكثر من ذي قبل فصعبوا اسباب الحكم بالقصاص اي اعدام الجسد . لكنهم لا يزالون يهملون سواها من حيث الحياة الادبية على ان قتل الآمال لاشد من قتل الاجساد وانا لفي عصر تفضل فيه الحياة المعنوية على الحياة الحسية وهذا هو سبب ثورة الخواطر في اكثر الممالك المتمدنة وتألف العصب السرية والايقاع باهل السلطة فان الظلم وضياع الحقوق لا يصبر عليهما ذوو النفوس الابية

فرب اناس لا تذل لكابر لها انفس من دونها النجم والسما
ولكنها تدنو الى الحق كلما سما فوق هام الدائسيهِ وخيما

ومن اين لهُ ان يسمو فوق هام اولئك الذين جلسوا على منصاتهم كالارباب وداسوهُ تحت ارجلهم دوس التراب يأمرون وينهون وهم عن مصالح الناس لاهون وفي سفههم يمرحون يميلون الى حيث يميلون

ربَّ مرءٍ بالعزم وهو ضئيلٌ دكَّ طوداً من راسيات الجبال

وأما الفوائد السياسية من العلوم الطبيعية والفلسفة المادية فكثيرة كذلك واقل ما فيها معرفة الانسان نفسهُ بالنسبة الى امثالهِ وما لهُ من الحقوق وما عليهِ من الواجبات فان الانسان البالغ شيئاً من هذه الحرية الصحيحة لا يعتقد العصمة للقوانين التي وضعها البشر بل يعتبرها على حدّ المبادىء الفائضة في تعاليمهم والمؤثرة في فطرتهم. فلا يهاب ملكاً لصولجانهِ ولا شريعة لاجماع الناس عليها الا من حيث ما يراهُ نافعاً للهيئة الاجتماعية مؤيداً لحقوقها

ولما كانت احوال هذا العصر مثلاً تختلف عن احوال ما قبلهُ او ما بعدهُ كان من العبث بالحقوق المقدسة اطلاق شريعة عصر على عصر آخر لا يمكن ان يكونا متفقين في احوالهما طبيعيًّا وادبيًّا وسياسيًّا . وانهُ يستحيل قوام العدل في مشهد الوجود بشريعة ثابتة غير متغيرة على حكم تغير الزمان وتغير كل شيءٍ بل على حكم كل مسألة وكل قضية اذ لا تكون مسألة كمسألة او قضية كقضية مهما تشابهت احوالهما كما لا يكون مرض كمرض ولو كانا من نوع واحد لاختلاف المرض الواحد في كل فردٍ ويجب مراعاة هذا الاختلاف واقامة علاج خصوصي لكل شخص في كل مرض كما يجب نظر خصوصي في كل قضية يستحيل ان تستدركهُ القوانين الموضوعة والاحكام المقررة فالناس لما خافوا ان لا يعدلوا وكان خوفهم في محلهِ ضموا الشريعة في قانون صيانة لها فالتوى عليهم المقصود اذ صارت الشريعة لصيانة القانون اي صار صاحب البيت لصيانة بيتهِ لا البيت لصيانة صاحبهِ . ولا يخفى ما يوجب ذلك من الضرر ولا سيما على غير العارف بهِ . فيدهمهُ صاحب الدهاء موصوصاً متلصصاً يسترقهُ من حيث يراهُ سائباً وقد لا يجهل القضاة ذلك في تأدية وظائفهم اذ تعرض لهم احوال يتبينون فيها خطاء القانون الثابت الاَّ انهم ينقادون اليهِ صاغرين مستنزلين من قدر ما يلحقهم من التبعة والمسؤولية في اعدام النفوس وتخريب البيوت بقدر ما يتحصنون وراءَهُ هذا اذا عدلوا وليتهم يعدلون . وكيف يجد ضميرهم راحة وراءَ حصن كهذا اقامهُ الناس على ما لهم من الاهواء والاغراض وهو لهم اطوع من الظل . قال هولباخ « انا لا نرى هذا

وربما لم يصب ذلك العلم . وان الكمال قد يكون نقصاً احياناً كأن تكون كل الاحوال الخارجية غير موافقة لهُ فانهُ لا يقدر ان يثبت امامها

قد يني الفرد لاقتضاء استواءٍ ووفاق لسائر الاحوال

لكنهُ يعلم كذلك انهُ كما تفعل الاحوال الخارجية فيه يفعل هو ايضاً فيها

غير ان الانسان يفعل في الاحوال ما قد يفعلنَ في الاشكال

ومن ثم يفعل بواسطتها في نفسهِ فيدرس فعلها من حيث ذلك ويبذل ما في وسعهِ لجعلها اقرب الاشياء لما يؤثر فيهِ تأثيرًا حميدًا يسرع بتقدمهِ نحو الكمال . بل يعلم ايضاً ان الاسباب المذكورة ليست حسية فقط بل معنوية ايضاً فيصلح امور تهذيبهِ وتعليمهِ ولا يحتقر شيئاً صغيرًا منها وانما يهتم بهِ اهتماماً كبيرًا علماً بما قد يكون لهُ من الوقع العظيم بتجمع فعلهِ على ناموس تجمع القوى فيتقيهِ من حيث يراهُ مضرًّا ويقصدهُ من حيث يراهُ نافعاً . وهكذا يحصل لهُ تغير عظيم في احوال حياتهِ الطبيعية والادبية فيزداد شكلهُ جمالاً وكمالاً وعواطفهُ وسائر قواهُ المعنوية نبالة وجلالاً ويقل الشر من بني البشر

***

والفوائد العملية كثيرة كذلك فانا اذا قابلنا بين الشرق والغرب اليوم نرى بوناً عظيماً بينهما من جهة التقدم في الصنائع وسائر اسباب الثروة على حكم المبادىء الفائضة في شرائع كلٍّ منهما او اذا قابلنا بين حالة اوربا قبل الثورة اللوثرية وبعدها نعلم ان النهضة التي حصلت لاوربا في الفلاحة والملاحةِ والصناعة والتجارة انما سببها تلك الثورة الدينية التي فكت العقل من بعض قيودهِ ومهدت تلك الثورة السياسية التي لا ينكر فائدتها الأَّ من عمي بصرهُ ببرقع الغرض . فانشئت المعامل وعقدت الشركات الزراعية والتجارية والصناعية وكثرت ثروة الامم الناهضة بها وقوي عزم الانسان على ما فيهِ من الضعف واستظهر على الطبيعة وقواها فقرّب البعيد من الاقطار اذ استنطق البرق واستسرى البخار ووصل بين البحار كل ذلك بما اكتشف من المعدات وعرف من الاسرار

يصدأ السيف بالخباء ولو كا ن شديد الصقال حد النصـال

***

واما الفائدة من ذلك فتقسم ثلاثة اقسام ادبية وعملية وسياسية

فالفوائد الادبية المترتبة على ذلك تفوق حد الحصر عداً . ولو لم يكن لنا فيها سوى معرفة الحقيقة فقط لكفانا ذلك لان الانسان لا ينبغي ان يطمع بصلاح حالهِ الاَّ بمعرفة الحقائق التي يلزمهُ ان يسعى اليها جهدهُ ولا يجب ان يخجل من معرفة اصلهِ انهُ حيوان فالحقيقة لا يخجل من معرفتها الاَّ الجاهل بل بذلك افتخارهُ اذ يرى نفسهُ اليوم اكمل منهُ في الامس واذا كان هناك وجه للخجل فهو اولى بمن كان كاملاً فنقص بالخطيّة . وهذه المعرفة تجعلهُ يفهم انهُ قابل للتقدم اذا احسن استعمال ما فيهِ من القوى اذ يعلم ان ما بلغــهُ ليس موهبةً سرية من المواهب التي تصيب الانسان بحسب مشيئة معطيها وانما هو نتيجة عمل متجمع على مر الدهور لاسباب معلومة. و يعلم كذلك ان الانسان لا ينبغي ان ينبذ كلهُ لخلة او يقبل كلهُ لمزية لانهُ قد يكون مستكملاً لمزية ناقصاً في غيرها فيبحث فيهِ عن موضوع قوتهِ وكمالهِ و يستخدم بهِ ذلك لاصلاح احوالهِ . بل ربما عدت المزية خلة والخلة مزية بالقياس لما هو مقرَّر في الذهن لا لما تحكم بهِ حرية العقل . على ان العقل نفسهُ غير حر حقيقة وانما يعمل وفقاً لاحكام هي منشأ حركتهِ غير ان عملهُ على موجب هذه الاحكام لا يوجب فيهِ تقييداً الاَّ من حيث النواميس الكلية والروابط الكبرى للكون فيتغير على حكم الضرورة وتكون نتيجة هذا التغير التحسين . بخلاف ما لو كان مقيداً بوهم او تعليم يأبى تغيراً ولا يقبل تحويراً فانهُ يبقى واقفاً كالبلية في عنقها الولية [1] حتى يموت . و يعلم ان النظر الى ما وراء الطبيعة اضاعة الوقت في ما لا يجدي نفعاً ومن تعاطى علم ما فوقهُ بلي بجهل ما تحتهُ [2]

---

(١) البلية ناقة الحشر والولية الرحل . قيل وكانوا يربطون الناقة معكوسة الراس الى مؤخرها مما يلي ظهرها او مما يلي كلكلها و بطنها و ياخذون ولية فيشدون وسطها و يقلدونها عنق الناقة . و يتركونها كذلك حتى تموت عند القبر

(٢) قالهُ الاسكندر في شبر المنجم . قال بعضهم كنا عند شبر المنجم اذ وصل الينا انهاء الملك واقامنا في جوف الليل وادخلنا بستاناً ليرينا النجوم فجعل شبر يشير بيده و يسير حتى سقط في بئر فقال المثل

للعقل من التفكير والبحث في المبادئ الفلسفية واجالة النظر في أحوال الكون والتملص من ربقة التعاليم القديمة . والبرهان الماضي والدليل القاطع هو ان الامة التي اعتنقت هذا المذهب وهي امة الانكليز اندفعت متقدمة من بين أمم أوربا حتى بلغت مبلغاً جعلها في مقدمة العالم ولا تزال فيهِ حتى اليوم على رغم صعوبة مركزها الجغرافي خلافاً لباقي أمم أوربا فانها لبثت متأخرة على نسبة المذاهب التي لها من ذلك وربما لا تبقى انكلترة في المستقبل كما هي اليوم لرسوخ قدم هذا المذهب فيها فيسبقها بعض الامم التي ربما لا تلبث زماناً طويلاً حتى تتجاوزهُ كثيراً

والمحافظون على الاحوال المقررة هم أصحاب الروحانيات ومن توكأ على عصاهم من أصحاب السلطة فيدعون ان الكون لا يعمر الاَّ بما هو مقرَّر في سياساتهم ودياناتهم وشرائعهم وعاداتهم ولغاتهم وسائر آدابهم مما ألفوهُ ويستغربون كل قول كان على ضدّ ذلك . على ان كل عصر يتغير عما تقدمهُ والعالم يتقدم ولا يتأخر ثم هم يتغيرون مع كل عصر ويؤيدون ما قررهُ هذا العصر وهم لا يزالون يكرّرون ما يقولون كأَنهم لا يدرون انهم يتغيرون . فما كان غير جائز عندهم في الامس صار أمراً واجباً عندهم اليوم لانهم تعودوهُ ولا شك ان ما يقال اليوم همساً سيصير غداً يعلَّم في المدارس . فمعارضتهم لكل مستجد ليست الاَّ عقبات يصعّبون بها السلوك في طريق التقدم واضطهادهم لمضاديهم لا يكسبهم سوى جنايات يضيفونها الى ما لهم من الجنايات ويقسّي حكم الخلف عليهم

* * *

ولا يتوهمنَّ القارئ ان مرادنا بذلك قلب الموضوع وعكس المطبوع قهراً وظلماً اي استعمال القسوة لنفي الديانات على حدّ استعمالها لتأييدها كلاَّ ثم كلاَّ وانما القصد ان الحكومات لا تكره الناس على الايمان ولا تخمد الانفاس عن ابداء ما في الصدور بل تدع كلاً وشأنهُ وتحاشى الضغط على العقول ولا تعارض الافكار المضادة فلا يمضي زمن حتى تشرق انوار الحقيقة ويهتدي الناس بنبراسها في ظلمات هذا الكون

انما المرءُ مثلما السيف يصدا عقلهُ ساكناً بلا اعمال

واجتناب الشر . والفرق بينها ان تعاليم الفلاسفة تطلق للعقل حرية الفكر لكي يتصرف بالاشياء بحسب الزمان والمكان فلا تعلمهم بخير مطلق أو شر مطلق لان المصطلح عليهِ انهُ خيرٌ او شرٌ عند قوم ليس كذلك عند قوم آخرين . وبالضد من ذلك الديانات فانها تقيد العقل اذ تعلم بخير مطلق وشر مطلق . ومن الغريب ان هذا الاطلاق لا يوافق إلاها . فيضطهد الانسان بعضهُ بعضاً ويقتل بعضهُ بعضاً ويرتكب أفظع القبائح واقبح الفظائع وهو على يقين من انهُ يفعل الخير لان شريعتهُ تريهِ ان الايقاع بمن ليس على شاكلتهِ ضروري وخير مطلق للوجود عموماً . فضلاً عن ان الديانات لالقاء مقاليدها في أيدي الرؤساء تصبح آلة لتنفيذ اغراضهم فتكثر الشرور والفتن في العالم وأي شاهد على ذلك أعظم من حشد الجنود واثارة الحروب وسفك الدماء والحريق بالنار والتعذيب بانواع العذاب التي يزلزل التاريخ لك صفوفها ويسمعك ضوضأها ويرسم لك مناقعها ويريك لهيبها ويملأ الآذان بصراخها وانينها وغير ذلك من الاضطهادات التي تفتت قلب الحجر الصلد فضلاً عن قلب الانسان . والنصرانية التي تفتخر بتعاليمها الادبية لا تقدر الاَّ أن تحمر خجلاً مما أثارتهُ من الفتن في القرون الوسطى وفي غيرها وارتكبتهُ من القتل اعتداءً وظلماً وجنتهُ من التعذيب والحريق بالنار قصاصاً لاناس ابرياء لا ذنب لهم الاَّ انهم جاؤُا قبل وقتهم أو بهم مرض . وها هي جان دارك واقفة في عرصات باريس شاهدة على شناعة تلك العصور البربرية وقساوة تلك القلوب الوحشية (١)

***

وعندي انهُ لولا الثورة الدينية التي اثارها مذهب لوثر لا يعلم الى أية دركة كان الانسان قد انحط في أوروبا فهذا المذهب أقل تقييداً للعقل من المذاهب الاخرى . ولو بحثنا عن أسباب الثورة الفرنساوية التي دفعت العالم في ميدان التقدم اجيالاً لوجب علينا أن نقول ان ثورة لوثر هي التي مهدت لها السبيل بما نبهت من الخواطر وسهلت

(١) من مفارقات اعمال رجال الدين انهم اليوم طوَّبوا جان دارك هذه وعدُّوها في مصاف القديسات وكانوا قد احرقوها في الماضي لانهم اعتبروها انها متعاهدة مع الشيطان

العظيم في تقدم الامم وتأخرهم وتعصبهم وتباغضهم وتباعدهم وتنافرهم وتحاملهم بعضهم على بعض واذا نظرنا الى التاريخ رأينا على صفحاتهِ من الدم سطوراً لو جمعت لكانت بحوراً وما سببها الاَّ العدوات التي أثارتها الديانات . ولو لم يكن في الديانات سوى تقييد حرية الفكر لكفى أن تكون علة شقاء الانسان في دنياهُ فلو تأملنا حالة الانسان السابح في بحر الاوهام لتصورناهُ رجلا مرتعداً واجف القلب متعوذاً بالرقى هائماً أناء الليل واطراف النهار لائذاً بذاك البناء الذي شادهُ دهاة الناس منقباً في الارض متخوفاً من كل شيءٍ . غير منقب في الامر متردّداً في كل شيءٍ ولسان حالهِ سواءٌ اقام بمكان او سار على طريق لا ينفك ينشد

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي من كل جني بهذا النقب

حتى أعود سالمًا وركبي

اذ يرى نفسهُ محاطاً بالارواح تراهُ من حيث لا يراها وتفعل فيهِ من حيث لا ينالها بيدها رزقهُ وحياتهُ وسعادتهُ وشقاؤهُ فكيف يستطيع أن يكون على ثقة من أمرهِ وشغلهُ الشاغل أن يتقرَّب اليها واجفاً حائراً لا يعرف كيف يرضيها اذ لا يعرف ما يغضبها

***

وقد كانت التعاليم الدينية باديءَ بدءٍ خشنة وغير موافقة للهيئة الاجتماعية . ثم رأى الانسان انهُ محتاج في قوام أمرهِ الى مساعدة أمثالهِ لهُ فوفّق هذه التعاليم لاحوال معائشهِ بحسب الزمان والمكان . والدياناتِ البالغة في التهذيب وضعت تعاليمها على قواعد ادبية وابلغ قاعدة في الدين أن يعمل الانسان مع غيرهِ ما يحب أن يعملهُ غيرهُ معهُ . وهذه القاعدة المنسوبة الى كنفوشيوس قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة لا تختص بكنفوشيوس وحدهُ . بل هي أقدم منهُ جدًّا أي منذ قدر الانسان ان يدرك انهُ تلزمهُ مساعدة اقرانهِ في حياتهِ أي انهُ محتاج الى الجمعية التي لا ينتظم أمرها الاَّ بما يدعو الى التآلف كمحبة القريب التي تجعل الانسان يطلب حقوقهُ من حيث يقوم بواجباتهِ . وهي من هذه الجهة متفقة مع تعاليم الفلاسفة اذ تعلم وجوب عمل الخير

وتتشابه في الفروض والثواب والعقاب وقد جعل بعضهم جنتهم لذات جسمانية وغيرهم روحانية . وفي الاعداد من حيث استعمال الاثنين والثلاثة والسبعة والعشرة وغير ذلك كثير فكل ما هو موجودٌ في الديانات اليوم كان في العقائد التي كانت من قبل فما التثنية والثالوث والسماء الثالثة والسبع الطباق والوصايا العشر الاَّ منقولات متحولات عما قبلها

قال فيلسوف شعراء العرب والعجم أبو العلاء المعري

عجبت لكسرى وأشياعهِ وغسل الوجوهِ ببول البقر
وقول النصارى الهٌ يضام ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود اله يحب رسيس العظام وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر

فاصل العقائد جميعاً وهم الانسان اذ كان في عهد الخشونة وكما نشأ هذا الوهم في الانسان سار معهُ ايضاً ونما فيهِ كما نما هو من ادنى الى أعلى فكان الانسان كلما ارتقى درجة في الحضارة يرقيهِ فيهِ الى ما يوافق حالتهُ منها حتى جعلهُ قاعدة أبحاثهِ العقلية ونظرياتهِ الفلسفية وصار علة قضاياهُ الاولية وأفكارهِ الغريزية لان العقل اذا أحبَّ أمرًا تفرغ لهُ وتفنن فيهِ وعززهُ بانواع التصور حتى اذا كان هناك وهم لا يعود عندهُ ريب في كونهِ حقيقة

وهمناك أن تعطي فلو لم تجد لنا لخلناك قد أعطيت من شدة الوهم

***

ولقائلٍ ما الفائدة من معرفة الانسان نفسهُ انهُ حيوان ومن نفي الديانات وهل يمكن صلاح الكون بدونها

فكون الانسان يمكن قوام شأنهِ وصلاح حالهِ بدون الديانات فما لا يجب أن يكون شك فيهِ . بل لا يصلح حال الامة الاَّ كلما ضعفت فيها شوكة الديانة ولا يقوى شأن الديانة الاَّ كلما انحط شأن الامة . ولا يسع أحداً انكار ما للديانات من الوقع

من لا يوافيه على عثراتهِ فالخلق بين مدفّعٍ او عائرِ
فاذا جاء يوم الحساب يوم ينقضي العالم
ومهما عشت في دنياك هذي فما تخليك من قمرٍ وشمسِ
لبست كل نفس جسدها وقابلت بهِ خالقها
فماذا بالقليب قليب بدرٍ من الشيزى تكلل بالسنام
يخبّرنا الرسول بان سنحيي وكيف حياة اصداء وهام

فمن اين تجمع اجزاء كل فرد وقد تبعثرت وانتشرت هباء منثورًا ودخلت في تكوين كثيرين آخرين وفي كل جزء من اجزاء هذا العالم حتى ان ذرة الكربون التي قامت بتكوين جزء من رئةابينا آدم قامت ايضاً بتكوين ملايين ملايين من الرئات وغيرها من الاعضاء والاجزاء في الحيوان والنبات والجماد

زعموا انني سأبعث حيًّا بعد طول المقام في الارماسِ
وأجوز الجنان أرتع فيها بين حورٍ وولدة اكياسِ
أيّ شيء اصاب عقلك يا مسكين حتى رميت بالوسواسِ

وان قيل ان البعث للانفس لا للاجساد والانفس منفصلة مستقلة بعضها عن بعض قلنا ان هذه القضية عدا انهُ غير متفق عليها خالية من كل اسناد علمي ومنفية بالعلوم الطبيعية عموماً وبمذهب دارون خصوصاً فنفس الانسان كنفس الحيوان عمل من اعمال المادة اي من اعمال الاعصاب والدماغ على حد عمل الهضم في المعدة والازهار في النبات فالنفس حالة من القوة المتصلة بالمادة كما ان الدماغ حالة من المادة المتصلة بالقوة فالمادة متحركة وحركتها ازلية والسكون الذي نراهُ فيها ظاهري فقط فهي في تجاذب دائم يفتت احشاءها وتنافر كذلك يقطّع افلاذها . فالمحبة والنفور ليسا في قلب الانسان وحدهُ بل في قلب الجماد ايضاً وهناك اصلهما واصل كل حياة وما الحياة والموت الاَّ تبدل في المادة وتغير في الصور ليس الاَّ

تحالف الموت والحياة فموت بعض حياة بعضِ
حياة كلٍّ وموت كلٍّ في ما تراهُ محال فرضِ

وقاعدتها الايمان و باطلاً يتعب البشر في اقامة الادلة العقلية والبراهين الفلسفية لتأييد ذلك والاولى لهم ان لا يخرجوا من وراء حصن الايمان والتسليم . فانهُ لا قوى ما لهم من الحصون وان كان لا يقوى على صدمات القياس والبرهان لعدم انطباق اقوالهم فيهِ على العلوم الطبيعية من جهة ولتناقض قضاياهم في الاعمال التي ينسبونها للقوة الصادر عنها ذلك والصفات التي يصفونها بها من جهة اخرى . قالوا ان الانسان حرٌّ فهو مسؤول باعمالهِ بعد ان قالوا انهُ صنعهُ الله على مشيئتهِ . ولا يخفى ما في ذلك من التناقض لانهُ ان صحَّ الواحد انتفى الآخر . ولاعبرة بما يتوكأُون عليهِ من البراهين الطويلة المملة والحجج العريضة المخلة التي يضيع اولها في آخرها لاثبات ما يقولون فانهُ كلهُ اجتهادي. ثم قالوا ان كل ما ينالهُ الانسان مقسوم لهُ ومقدور عليهِ بعد ان قالوا ان هذه القوة كلها عدل بل رحمة . فاين الرحمة بل اين العدل في قسمة تنيل زيداً كل نعمة في الدارين وتجلب على عمرو كل نقمة فيهما واي فضل لزيد ان اصاب واي ذنبٍ على عمرو ان اخطأ وكلاهما لم يصورا نفسهما على ارادتهما وانما صورتهما قوة اخرى اقوى منهما كما شاءَت ولم يعترضها في عملها ما يوجب عليها ظلم الواحد ورحمة الآخر

وتتشابه من حيث ان كل واحدة منها تدعي الصحة لنفسها وتنفيها عن غيرها وتعلم اضطهاد ما سواها إما صريحاً وإما ضمناً بحسب حال الامة الداينة بها من التمدن والتوحش فان كانت دعوى الديانات صحيحة فالحقيقة لا تتجزأ ولا بدَّ ان تكون في واحدة منها فقط فاي هي وما هي :

كلٌّ يعظم دينهُ يا ليت شعري ما الصحيح

وتتشابه ايضاً من حيث انها تعلم البعث وخلود النفس

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعث حديث خرافة يا امَّ عمرو

وكان بعض العرب في الجاهلية اذا حضرهُ الموت يقول لولدهِ ادفنوا معي راحلتي حتى احشر عليها فان لم تفعلوا حشرت على رجلي . قال بعضهم يوصي ابنهُ عند موتهِ

ابنيَّ زودني اذا فارقتني في القبر راحلة برحلٍ قاترِ
للبعث أركبها اذا قيل اظعنوا مستوسقين معاً لحشر الحاشرِ

كلّ شيءٍ على قدر الاستحقاق بل يجب علينا ان نحارب الاوهام ونبددها بقوة الحقيقة لكي لا يقوى امرها فنعدم اسباب التقدم فان الانسان اذا تمكن الوهم منه سقطت قواهُ وفقد اسباب العمل . اذ يستولي الخوف على طباعهِ والرعب على حواسهِ تستلفتهُ حوادث الكون فيتهيبها عوضاً عن ان يبحث فيها ويستفيد منها ولا تهمهُ شمس تسطع او قمرٌ يطلع او ريح تهب او نارٌ تشب واذا نظر الى السماء كفّ عنها الطرف خشية واحتراماً لانهُ لا يرى كواكبها الاَّ آلهة ولا يحسب صواعقها الاَّ عذاباً واذا نظر الى الارض قال اميّ ارحميني ولا تحبسي عني قوتاً يغذيني وماءً يرويني . ولا يتجاسر ان يقطع منها سنبلة قمح او يتناول قبضة ارز الاَّ بعد الاستغفار والتكفير . اذ يرى في كلِّ شيءٍ آلهة قاهرة وارواحاً ساحرة فيستدعي في حركاتهِ وسكناتهِ ارواح الاشجار وقوات الجبال ونفوس الكواكب وما يستدعي الاَّخيالات واوهاماً لا تجلب لهُ خيراً ولا تدفع عنهُ ضيراً (١) »

***

هذا اصل كل عبادة وهي اصل كل ديانة (٢) والديانات تتشابه من حيث الوحي او ما هو بمعناهُ. فانك لا ترى ديانة اضمحلت او انحطت او لا تزال قائمة الاَّ ومسندها الوحي

(١) من رسالة حوادث وافكار السالفة الذكر .

(٢) واعلم ان مذهب داروين كما يصح على الانواع يصح على الديانات ايضاً . فان الديانات المختلفة كالانواع تنشأ من اصل واحد وتحول بعضها من بعض وتتنازع نظيرها . وكما ان الفائز من الانواع في هذا التنازع هو الانسب للاحوال الخارجية هكذا الفائز من انواع الديانات ايضاً ما كان انسب لاحوال الزمان . والعاملان الجوهريان في الديانات هما كما في الانواع التغير والانتخاب الطبيعي وكما يحصل في الانواع كذلك في الديانات يحصل ايضاً نتائج عظيمة لتجمع اسباب عديدة صغيرة لا قيمة لها في الظاهر كالاختراعات والاكتشافات وتغير العلوم وازدياد اختبار الانسان وتغير احتياجاتهِ وكثرة المخالطات وادخال تعاليم ادبية ضرورية للهيئة الاجتماعية الى غير ذلك مما يغير الديانة . وقد اضمحلت ديانات كثيرة في الدور السابق العهد التاريخي وفي عهدهِ ايضاً . وقد تكونت منها ديانات جديدة كذلك ولا شك ان العبادات التي اضمحلت قبل التاريخ والتي لا نعرف عنها شيئاً اكثر جدًّا من الديانات التي عاشت بعدهُ ولم يبقَ في تنازعها اليوم سوى ديانات الشعوب الهندية الجرمانية المنتشرة جدًّا اليوم وفيها كثير من المذاهب والفرق والشيع . ولم يكن القصد من عبادات الانسان الاول الخلود الروحاني الذي بصورهُ الا بعد ان بلغ في الادراك مبلغاً كبيراً جدًّا بل كانت بقصد المحافظة على وجودهِ الظاهري فقط

تركت اللات والعزّى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصيرُ

***

وانهُ ليستحيل غير ذلك لان جميع معارف الانسان اكتسابية صادرة عن الحواس وحكمهُ بها على قدر تعرفهِ بها « فالحوادث تتوالى على الانسان وتتناقلها الحواس فتؤثر في الدماغ تأثيرًا يجعل فيها تفكيرًا الاَّ ان تأثر العقل بالمؤثرات واحكامهُ بها تختلف كثيرًا بالنظر الى اختلافها واختبارهِ اياها . ولما كان الاوائل اقل اختبارًا من الاواخر كانوا بالضرورة اقل علماً منهم بل كان معظم علمهم جهلاً وجل افكارهم وهماً . وكان الخلف يشتغلون كل يوم بما أفسدهُ السلف بحسب ما يتبين لهم بازدياد اختبارهم واتساع معارفهم . الاَّ ان ازالة ما فسد من المبادىء من عقول الناس لا بد وأن تحول من دونها مصاعب ربما أدت الى هراقة الدماء . فان الاوهام الراسخة في العقل بواسطة النقل مدة قرون تكون كالحقائق الراهنة لا تحتمل تأويلاً ولا تدع للجدال سبيلاً

«والغريب ان الناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالادلة والبراهين اذا كانت مخالفة لآرائهم مغايرة لاهوائهم بل ينقضونها بالقوة . واغرب منهُ ان المصائب التي تحل باولئك الافراد الذين ساء بختهم لوجودهم قبل اوانهم والتي مصدرها البشر تعتبر قصاصاً عادلاً عند من يعتقد ان الجزاء يكون على قدر الاستحقاق صادرًا عن قوة سرية تراقب اعمال الانسان فيقول هذا جزاء الضالين . وهو اشدّ فسادًا من ان يبرهن على فسادهِ فلو تجاسر احد في زمن جاهلية اليونان على ان يكفر بجوبيتر ابي الآلهة لما كان يتساقط عليهِ غضب جوبيتر متجسدًا بايدي الكهنة والشعب ؟ فهل يصح والحالة هذه مع معرفتنا فساد تلك الشريعة ان نعتبر ان ذلك القصاص كان عدلاً . كلاَّ

«ولذلك لا يليق بنا ان نتمسك بما كان في الاعصر الخالية من الاوهام تمسك الاعمى بقائدهِ . ولا ان نطرح ما تبديهِ لنا الاكتشافات والحوادث من الحقائق لمجرد كونهِ مخالفاً لما انطبع في عقولنا ورسخ في اذهاننا كما انهُ لا يجوز ان نعتبر القصاص الذي يقع على بعض الافراد لمناقضتهم بعض المبادىء العامة مفعول قوة ساهرة تعدل

الانتشار بين الاقوام المتوحشين فان للمتوحش شجرة او حيوانًا أو حجرًا أو شيئًا آخر يعتبرهُ متسلطًا عليهِ فيبالغ في تكريمهِ وأسباب التقرُّب اليهِ. وربما زرع امام بيتهِ شجرة واعتنى بها جدًّا لانها في زعمهِ حارسة لهُ ولجميع ما يملك واذا يبست شق الامر عليهِ جدًّا وربما نسب ذلك لغضبها عليهِ فاوجس منهُ شرًّا. ولا تزال آثار هذه العبادة في ديانات الشعوب المتمدنين حتى اليوم فكم من شجرة مقدسة تزدحم اليها أقدام الوافدين. وكم من مكان مشهور بالمعجزات تلتهب اليهِ شوقًا قلوب القاصدين. ثم بعد عباد الفتيش جاء عبدة الكواكب ولا ريب ان الانسان لم يرفع نظرهُ الى ما فوق الَّا بعد أن تمرَّغ في عبادة موجودات الارض كافة. حينئذٍ رفع نظرهُ الى السماء وقد سئم مما في أرضهِ اذ رآهُ دون ما يبتغيهِ واذا الكواكب اللامعة والشموس الساطعة استوقفتهُ حينًا من الدهر وقد رضي بها آلهة لهُ حتى ارتاب بها فهجرها كغيرها

***

ولما داخلهُ الريب في حقيقة معبودهِ هل هي في ما تخذهُ معبودًا من بين موجودات العالم ام في ما وراءها صار لحيرتهِ يشترط في دعاهُ وتضرعهِ. فصار يخاطب الشمس مثلاً بقولهِ « ما أحسنك من نور وما أبهاك وما أنورك لا تقدر الابصار أن تلتذ بالنظر اليك. فان كنت أنت النور الاول الذي لا نور فوقك فلك المجد والتسبيح وإياك نطلب واليك نسعى لندرك السكنى بقربك وننظر الى ابداعك الاعلى وان كان فوقك واعلى منك نور آخر أنت معلول لهُ فهذا التسبيح وهذا المجد لهُ وانما سعينا وتركنا جميع لذات هذا العالم لنصير مثلك ونلحق بعالمك ونتصل بمساكنك. اذا كان المعلول بهذا البهاء والجلال فكيف يكون بهاء العلة وجلالها ومجدها وكمالها »(١) وهكذا كانت الآلهة في أول الامر كثيرة جدًّا بقدر موجودات هذا العالم ثم أخذ يختصرها كلما زاد تعرُّفًا بهذه الموجودات حتى حجبها عن الابصار وحصرها في واحد أحد وقال

اربًّا واحدًا أم الف ربٍّ أدين اذا تقسمت الامورُ

(١) كتاب الغلل

جوارحهِ. ولما كان الانسان في اول أمرهِ شديد الجهل بالاشياء المحيطة بهِ وبخصائصها وكان يرى ان هذه الاشياء ذات تأثير ظاهر فيهِ خاف على نفسهِ منها لئلاَّ تكون مظهراً لقوة عاقلة مستقرة فيها لهاعليهِ سلطان مطلق فبعثهُ هذا الخوف على ان يتذلل لها. ثم تطرق الى ان جعل هذه القوة روحاً ثم الروح الهاً ثم تصور الههُ كنفسهِ يغضب لما يغضبهُ ويرضى لما يرضيهِ فنحر لهُ الهدايا وقرَّب القرابين وتقرَّب اليهِ بالمناسك والمشاعر وحلل وحرّم. ثم تأصل فيهِ هذا الميل بحكم الوراثة الطبيعية وانتقل هذا الاعتقاد في نسلهِ بحكم التقليد[١]

***

ولا شبهة ان هذا الامر أو ما هو مثلهُ أصل كل نحلة ودين اذ يستحيل وجود الانسان الهمجي بدون أحلام تنمو فتملأُ مخيلتهُ أوهاماً تتعاظم فتصير ارواحاً تكثر فتملأُ كل ما يحيط بهِ. فالانسان في أول الامر لم يرَ شيئاً مما في السماوات والارض الاَّ وظنهُ مقرَّ أرواح فتهيبها وللتقرب اليها عبدها. وأخذ يتقلب فيها تقلب الحائر. ولما لم يهتدِ اليها سبيلاً قصدها في كل الموجودات فعبدها في الشجر والحيوان والحجر والكواكب حتى الانسان. وأقام لها الاصنام المنحوتة التي صار يحج اليها وجعلها محط آمالهِ حتى تبين لهُ انها لا تقوى على مهمة ولا تدفع ملمة فلفظها لفظ النواة على حدّ قولهِ

أتينا الى سعد[٣] ليجمع شملنا ... فشتتنا سعدٌ وما نحن من سعد
وهل سعد الاَّ صخرةٌ بتنوفةٍ ... من الارض لا يدعو لغيّ ولا رشد

ولا شك ان هذه العبادة المعروفة بالفتيشية أول عبادات الانسان وهي كثيرة

(١) يزعم سبنسر ان اصل الاعتقاد بالارواح الاحلام. فالانسان الاول لما كان يحلم بانهُ يذهب ويجيءُ ويرى ويسمع ويعمل اعمالاً كثيرة وهو نائم مع انهُ لم يبرح من مكانهِ كما تأكد اولاً من شهادة الذين راوهُ نائماً ظنّ ان فيهِ وجدانين او ذاتين الذات المنتقلة والذات التي لم تنتقل اي انهُ ذو وجودين روحانيّ يفارق الجسد اذا نام ويعود اليهِ اذا صحا. وجسماني. وذلك على رايهِ اصل جميع معتقد الانسان المتوحش والمتمدن وهو اصل الاعتقاد بالارواح والنفوس والشياطين واصل عبادة الجماد والنبات والحيوان وسائر العبادات الفتيشية والاصنامية واصل جميع الاديان

(٢) صنم لبني ملكان من كنانة

وغدا عارفٌ بفضلي فيـــهِ جاحد الفضل شائناً لفعالي
وما الدهر سوى الانسان وما الزمان سوى اهلهِ

***

ولا يتوهمنّ القارىء مما ذكر ان محبة الذات صفة ردية بحد نفسها كلاَّ « وانما هي صفة واجبة ضرورية يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الانسان الحسية ويتولد عنها جميع الصفات الادبية الرفيعة التي تتوقف عليها حياتهُ المعنوية واذا ادّت احياناً الى ما يضاد ذلك فلتصرُّف الاميال والارادة غير المرتبة فيها . وبحسب ذلك تكون الصفات المتولدة منها اما جيدة واما ردية فاذا صدقت الحواس في نقلها التأثيرات الى العقل وصدق العقل في احكامهِ واعتدلت الارادة في شهواتها تولد عن هذه الصفة (الاولى الكبرى التي هي أم الصفات في الاجسـام الحية على حد الجاذبية الكبرى في الجماد والتي اصلها هذه الجاذبية أيضاً ) كثير من الصفات الفرعية الرفيعة كالكرم والشهامة والمروءة والصدق والعدل وحب الالفة والتعاون وسائر الصفات الحميدة التي هي سبب راحة الانسان وسعادتهُ منفرداً ومجتمعاً . وبالضـد من ذلك اذا انخدعت الحواس في نقلها وكذب العقل في حكمهِ وضلت الارادة في شهواتها فيتولد منها الدناءة والكبرياء والجبن والكذب والظلم ورياء المحكوم واستبداد الحاكم والانفراد وغير ذلك من الصفات السافلة التي ترجع على الفرد بالويل وعلى الاجتماع الانساني بالخراب»(١)

وعليهِ فقد تصرف بجميع الاشياء من حيث رآها لا تعبث براحتهِ الحسية والمعنوية ولم يحجم حتى ولا امام الموت . ولا بد ان ظهر لهُ الموت بادىء بدء العقدة التي لا تحل والعقبة التي تسقط دونها كل عزيمة . لانهُ لما كان الموت يقع على الجسد فعليًّا لم يكن عندهُ سبيل للشك بان موت الذات هذا واقع حقيقة . وكيف تصبر محبة الذات على هذه المصيبة التي لا مصيبة بعدها . فهام العقل في سماء الخيال ممتطياً غوارب غرائب الافكار يرجو من ذلك مهرباً فسمع همساً يقول لهُ « لن تموت فاتبعني» فوقع عندهُ هذا القول موقع المطر من الارض العطشانة فاصاخ لهُ سمعهُ وفتح لهُ قلبهُ وكل

(١) من رسالة حوادث وافكار للمعرّب نشرت سنة ١٨٧٦ في جريدة مصر الفتاة

و يسرق خالي البال مرتاح الضمير ؟ الا يأكل المتوحش بعضه بعضاً ؟ اليس ان بين ادنى البشر وارفعهم عقلاً من الفرق ما هو اعظم منه بينهُ و بين الحيوان ؟ فمن العجب كيف يخص العقل بعد ذلك بالانسان و ينفى عن الحيوان . واذا كان الانسان نظير حياته كالحيوان حسيًّا ومعنوياًّ فمن اين لهُ هذا الفرق بعدها

* * *

وبالحقيقة ليس لاصحاب الروحانيات سند يعتمدون عليهِ وملجاء يلجأون اليهِ الاَّ الوحي وسوف لايبقى لهم سواهُ وسيخدمهم زماناً طويلاً ولوقفنا عند هذا الحد لولا ان مذهب دارون يتناول كل ما يتعلق بالانسان كاللغات والعادات والشرائع والديانات وغيرها

فالنحل والديانات وما شاكل اصلها واحد وقيامها في الدنيا انما هو لعاملين حب الرئاسة في الرؤساء . وارتياح المرؤوس الى حب البقاء وكلاهما لما في الانسان من محبة الذات . فسطا دهاة الناس على ساذجي العقول منهم فساد البعض وسيد على البعض الآخر وتمّ بذلك غرض الفريقين ولكن الى حين . واعلم ان محبة الذات تجعل الانسان يتمنى لنفسهِ كل خير يعتقدهُ خيرًا ويهرب من كل شر يعتقدهُ شرًّا ولا يسلك لذلك سبيلاً واحدًا بل كلٌّ يرى خيرهُ بحسب هواهُ فيطلبهُ من حيث يراهُ ولو اخطأ السبيل احياناً فلا يخطىء الغاية التي هي دائماً السعي وراء راحة الذات ولو ارتكب القتل على نفسهِ لاعتبارهِ ذلك افضل من حياة قلقة بالهواجس وتعب الضمير او طمعاً بحياة اخرى ربما كانت اقلّ تعباً من الحياة الدنيا . وهي السبب الذي لاجلهِ ميز الانسان نفسهُ عن سائر الكائنات واراد ان يكون بينهُ وبينها فرق في الجوهر . وهذا الميل ظاهر في جميع اعمالهِ الجسدية والعقلية وفي جميع عواطفهِ فانك قلما ترى من يعترف بخطائهِ لان محبة ذاتهِ لا تصبر على الضيم عالمة بهِ وان اعترف بهِ فلاسباب ذاتية ايضاً وغالباً يجتهد بان يلقي تبعة خطائهِ على سواهُ . فان لم يجد احدًا من البشر يلقي عليهِ ذلك عمد الى شكوى الدهر والزمان

يا لدهرٍ لم القَ فيهِ صديقاً وزمانٍ قد صار من عذَّالي

فيها على مبلغها من التكوين . فالعقل موجود في الحيوان كما انهُ متفاوت جدًّا في فروع الانسان فان كثيرًا من الحيوان يعيش في جموع و يتساعد فيما بينهُ وربما اقام منهُ حرَّاساً لهذه الغاية تنذرهُ بوقوع الخطر . فالقردة تتساعد كثيرًا في قضاء كثير من حاجاتها . والذئاب تتألب اذا قصدت الافتراس . والهمادرياس ( نوع من القردة ) تقلب الحجار للتفتيش على الذباب فان عثرت بحجر كبير فانها تتكأكأ عليهِ وتقلبهُ ثم تقتسم غنيمتها فيما بينها . وذكروا ايضاً ان حيوانات عمياء غير قادرة على تحصيل قوتها بقي رفاقها يعولونها و يقدمون لها قوتها زمانًا طويلاً . وذكر براهم « ان الميامين في الحبشة وهي ذاهبة لسرقة البساتين تتبع رؤساءها صامتة فاذا ابدأ احد صغارها صوتاً ارتدت اليهِ وضربتهُ لكي تعلمهُ الصمت والطاعة » وقال ايضاً « انهُ رأى سربًا من الميامين يقطع واديًا فلما بلغ قسم منهُ الجبل وكان الباقي لم يزل في الوادي هاجمت الكلاب مؤخرتهُ . فلما رأى كبار القسم الاول الذكور ذلك ارتدت اليها وصرخت فيها صرخة شديدة جزعت لها الكلاب فتقهقرت على اعقابها على رغم تهييج اصحابها لها . فتمكن الميامين من قطع الوادي الاَّ واحد منها صغير عمرهُ نحو ستة اشهر فصعد على صخرٍ مرتفع واخذ يصرخ ويستغيث والكلاب قد احاطت بهِ من كل جانب فانفرد لهُ ميمون ذكر من اكبر الميامين وهجم كالبطل حتى وصل اليهِ وخلصهُ والكلاب وقفت مذعورة ولم تبدِ حركة » ولا يخفى ما للكلب والفيل من التحبب والتودد للانسان

وفي الانسان شعوب وقبائل متوحشون جدًّا لا يعرفون ما معنى الانسانية . ومنهم من لا يستطيع لضعف عقلهِ ان يعد العشرة ولا الاربعة . و بعض الاستراليين لا يفرق في الصورة بين رجل وفرس و بيت . فهل والحالة هذه يصح القول ان الانسان عاقل والحيوان بلا عقل ؟ اليس قتل الاولاد ولا سيما وأد البنات عند بعض القبائل عادة جارية ؟ اليس في سوء معاملة المتوحش لامهِ وامرأتهِ ما يضعهُ تحت الحيوان ؟ ايدري المتوحش ما معنى الفضيلة وهل يعتبر الخير الاَّ حسب ما اصطلح عليهِ قومهُ فيقتل

الطبيعة ولا تزال تتكوّن وتدثر على حكم هذه النواميس حتى اليوم. وان الانواع متغيرة ومتصلة بعضها ببعض بل متسلسلة بعضها عن بعض . وربما سلم اصحاب المذهب الحيوي بذلك لكنهم جعلوا الحياة مجردة عن المادة اي قالوا فيها بمبدإ حيوي . الاَّ ان هذا المبدإ منقوض بحجة ان الكيمياء في طاقتها أن تركب مواد حيوية كانَ ظن انها خاصة بالاجسام الحية وان القوى مرجعها جميعها الى قوة واحدة هي الحركة والدلائل من الكيمياءِ كثيرة على ان العناصر البسيطة مرجعها الى مادة واحدة أولى كالحركة في الهيولى . فالطبيعة واحدة ولا شيء من العلوم الطبيعية ينافي هذه الوحدة .و بالحقيقة لا يعلم كيف يحل هذا المبدأُ في المادة من حيث ليس واذا تفرقت كيف يذهب . وقال اصحاب الروحانيات ربما صح هذا الاتصال بين الاجسام العضوية على بعض العالم العضوي ولكن لا يصح على كلهِ فلا يصح على الانسان المنفصل طبيعيًّا وروحانيًّا . أما كون الانسان مفصولاً طبيعيًّا بما يثبت انهُ نوع مستقلٌ مخلوق وحدهُ فمنقوض بمذهب داورن اذ اتضح بهِ انهُ متصل اتصالاً شديدًا بما دونهُ من أنواع الحيوان.واذا كان بينهُ وبين اقرب الحيوان اليهِ فاصل لاسباب طبيعية (١) فما هو اعظم من الفاصل الكائن بين أنواع الحيوان نفسها بل بين طرفي الحيوان من نوع واحد . وان لم يثبت لهُ هذا الفصل طبيعيًّا فكيف يثبت لهُ روحانيًّا. فان قيل مما لهُ من سموّ المدارك الذي ليس للحيوان قلنا ان كل القوى الموجودة في الانسان موجودة في الحيوان كذلك ولكن على حالات متفاوتة بحسب مقامهِ من التكوين فالفرق بينهما عرضي لا جوهري. وحتى يكون غير ذلك يقتضي ان يكون الانسان واحدًا في العقل بل قادرًا ان يكون بالغًا كما هو في العقل حال كونهِ ناقصًا كما الحيوان في الجسد . اذ القوة الروحانية لا يجب ان يشترط فيها كون معلوم. واذا كان ذلك غير ممكن فكيف جاز لهم حمل هذا الفرق بينهما على مبدإ روحاني فائض على الواحد دون الآخر مع انهُ متوقف

(١) كمنازعة الحيوان بعضهُ لبعض وتغلب الانسب في المنازعة وفقدان الصور الاتصالية بسبب ذلك وسرعة اكتمال المتغالب بحيث تبعد المسافة بينهُ وبين ما دونهُ وتكوّن الانواع بعضها بجانب بعض لا رأْسًا بعضها من بعض الخ

الطبيعة. وهذه الحقيقة لم يبق سبيل الى الريب فيها اليوم ولو اصرّ على انكارها من لا يزال مشغول التعاليم القديمة راسخاً في ذهنهِ رسوخ النقش في الحجر. فالانسان يتصل اتصالاً شديداً بعالم الحسّ والشهادة وليس في تركيبهِ شيءٌ من المواد والقوى يدل على اتصالهِ بعالم الروح والغيب. فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيهِ تعمل على حكم قوى الطبيعة. فهو كالحيوان فزيولوجياً وكالجماد كيماوياً والفرق بينهُ وبينهما فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر. فالانسان يحس والحيوان يحس والانسان يدرك والحيوان يدرك ونواميس التغذية واحدة فيهما. غير ان الانسان يدرك اكثر من الحيوان لانهُ اكمل منه كما ان الحيوان العالي يدرك اكثر من الحيوان الذي دونهُ. وعناصرهُ كعناصر الجماد تتفاعل وتتركب وتنحل وتحترق وتولد حرارة والحياة كلها احتراق

* * *

ولا طاقة لاصحاب ما وراء الطبيعة على انكار ذلك لكنهم يقولون ان العوالم وان تألفت من مواد واحدة الاَّ ان كل عالم خلق خصوصي خلقهُ الخالق من مواد مخلوقة هي ايضاً ولا حياة فيها الاَّ ما اودعهُ في كل نوع من الاحياء التي جعل الانسان منها غاية عملهِ ومنتهى أملهِ اذ سخر لهُ كل شيء دونهُ مما في السموات والارض وخصّهُ وحدهُ بنفس خالدة وكلفهُ دون غيرهِ بطاعتهِ. الاَّ انهُ يتوجه على مساق هذا القول اعتراضات منها انهُ يلزمهم ان ينفوا عن المادة كل عمل صادر منها وكل تعليل ممكن بها ولا اخالهم يقوون على ذلك اما طبيعيًّا فلأَن كل ما يعلم عن المادة يدل على انها باقية فالمادة لا تدثر الاَّ من حيث الصورة فقط واما من حيث الجوهر فهي دائمة وما لا يفنى فغير مبدع. وكل ما يحصل فيها يعلل عنهُ بقوة فيها غير مفارقة وليس فيها ما يدل على الاختيار بل كلهُ عن اضطرار لانها ذات نواميس تفعل على نظام معلوم ولا يعتريها خلل لا في الكل ولا في الجزء. ومنها ان الخلق الخصوصي يقتضي ثبوت العوالم والانواع. وهذا الثبوت منفي فقد ثبت ان كل موجود متغير والاجرام السماوية متغيرة في هذا الكل المتغير فليست خلقاً خصوصياً بل انما تكوّنت على مقتضى نواميس

# مقدّمة الطبعة الاولى

يدفنّ بعضنا بعضاً ويمشي اواخرنا على هام الاوالِ

---

« الحقيقة أن تقال لا ان تعلم »

لست اخشى تخطئة الناس لي اذا كنت اعرفني مصيباً ولا يسرّني تصويبهم لي اذا كنت اعرفني مخطئاً

هذا الكتاب ألفهُ الدكتور لويس بخنر الالماني . وهو ينقسم قسمين طبيعي وفلسفي . بسط مؤلفهُ في القسم الطبيعي مذهب دارون وقد توسع فيهِ من التولد الذاتي حتى الانسان . وفي القسم الفلسفي ما تعلق بهذا المذهب من آراء اهل النحل والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين .وقد سلك فيهِ سبيل الاختصار تشويقاً للقارىء لئلا يمل . ولم يدع قضية منهُ ذات بال قاصية ام دانية تفوتهُ حرصاً على المعنى ان يخل . فأوجز واجمل. ووعى واجزل . وجعلهُ مقالاتٍ ستًّا القاها على جمهور من الطلبة في مدينة — أفنباخ ومنهيين — فجاء على صغرهِ كتاباً في بابهِ جليل الفائدة . سهل المأخذ حاوياً لكل مسألة . حالاًّ لكل معضلة . يتطلّع بهِ الطالب الى ورود ما فوقهُ من المطوّلات وقد عنيت بتعريبهِ على ما في الوسع متصرفاً فيهِ بزيادة ونقصان واصطلاح عربي بحسب مقتضى الحال

واعلم ان الانسان على رأي هـذا المذهب طبيعي هو وكل ما فيهِ مكتسب من

المدارس . بل صارت المدارس للفنون والصناعات والعلوم الصحيحة والطبيعية فقط . وفي مقدمتها مذهب التحوُّل الذي يوقفك على الصلة بين العوالم ويسهل عليك فهم تحوُّلاتها . ويمكّنك من العلم بما تحويهِ من القوى الهائلة لاستخراجها من مكامنها . ويعرّفك مقام الانسان الحقيقي في الطبيعة فيصرف المرء حينئذٍ كل جهدهِ للبحث في ما هو امامهُ ولا ينصرف عنهُ الى ما لا يجديهِ نفعاً ويحول دون ارتقائهِ في الحياة الدنيا . وبذلك يبين لك مزية فلسفة مذهب النشوء والارتقاء التي هي غرض هذا الكتاب على سائر المذاهب التي تقدّمتهُ كما تراهُ مبسوطاً بالتفصيل في ما يأتي

شبلي شميل

مصر في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩

الكهربائية وكأني اشرت فيهِ الى ما يتوقع منها اذ ختمتهُ بهذين البيتين :

لقد نظر الانسان في البرق معجزاً فأخضعهُ لما اجال بهِ طرفا
فذا الماردُ المحكيُّ عنهُ بما مضى وهذا بساط الريح والقبع الاخفى

وما قلتُ قولي هذا عن تخيل شاعر بل عن توقُّع شاعر . وكم ارتقت الكهربائية من ذلك العهد الى اليوم[٢] ومن يدري ماذا يكون مستقبل القوى الجديدة التي لا نعرف عنها الآن الاَّ القليل جداً متى عرفنا طرق ابرازها من مكامنها واستخدامها في مصالحنا مع علمنا الاكيد انها ليست الاَّ متحوّلات قوى كسائر القوى المعروفة . ولا يتأتى ذلك الاَّ من وراء البحث فيها باعتبارها انها قوى طبيعية خاضعة لناموس واحد عام لا قوى خارقة الطبيعة لا تقع تحت ضابط . لا من وراء اضاعة الوقت سدى بالتفسير والتأويل لاثبات اسرار التنزيل . ولو اكتفينا بذلك لما طار رايط ولا تكلم مركوني ولا ابدع اديصون واستولوا على السماء والهواء والارض

ولااستوى المرءُ عن محدودب قصفت يد المظالم منهُ الصلب ان قاما

ولا يستوي المرءُ الا اذا طمست يد العلم ما خطتهُ يد الجهل ولم يعد لهُ اثر في

(١) لقد عظم جداً مقام الكهربائية في هذه السنين الاخيرة . فهي قاعدة كل التفاعلات الكيماوية التي تبدو لنا كل يوم اكثر فاكثر انها تفاعلات كهربائية فهي اليوم تعتبر قوة عامة ترجع اليها سائر القوى ومن المقرر ان النور هو احد مظاهرها . ومن الغريب العجيب ان مثل هذه القوة التي لها كل هذا الانتشار وكل هذه الاهمية بقيت مجهولة آلافاً من السنين . وهذا من اعظم الشواهد في تاريخ العلم على انهُ قد يمكن ان نكون محاطين بقوى عظيمة جداً من غير ان نشعر بها وهو كذلك من الادلة التي لا ينتهي ان بها على ما في الجواهر الفردة من القوة الهائلة الكامنة ومن اوضحها ايضاً على تحول هذه الجواهر المادية نفسها وتلاشيها في القوى المتحولة اليها

ولقد كان يصعب علينا توليد الكهربائية في اول الامر جداً وكنا ننظر اليها كحادث نادر كذلك واما اليوم فصرنا نجدها في كل شيء ونعلم ان اقل تصادم بين الاجسام المتباينة يولدها . والعسير علينا اليوم ليس توليدها بل كيف نمنع توليدها في كل حادث يعرض . فسقوط نقطة ماء او تبخر جسم بحرارة الشمس او احماء سلك بالنار وكل تفاعل آخر يغير طبيعة جسم ما هو ينبوع كهربائية . وهي موجودة في الهواء الجوي وقلما تكون قوتها فيهِ في حال الصحو تحت ١٥٠ فولطاً وتبلغ ١٠٠٠ عند حصول اقل ضباب و ١٥٠٠٠ فولطاً عند سقوط اقل مطر وكما هي في التفاعلات الطبيعية هي ايضاً في تفاعلات الاحياء فما من تفاعل حيوي في الانسجة الحية او الكريات الحية الاَّ ورافقهُ ظهور كهربائية (من كتاب تحوُّل المادة لغوستاف لبون)

الجوهر الفرد واعتباره مخزن قوى متجمدة وتلاشي المادة في قواها تلاشياً بالتحول ذا نتائج لا تقدَّر فائدتها في العلم اليوم بتوجيهِ النظر الى مثل هذا المبحث الخطير. وسواء نشأ الجوهر الفرد من الاثير او تلاشى وتلاشت المادة معهُ في هذا الاثير نفسهِ فالاثير نفسهُ باقٍ لم يتلاشَ ويكون الجوهر الفرد حينئذٍ للمادَّة كالكرية الحيَّة للاحياء ويكون الاثير نفسهُ حينئذ للجوهر الفرد كالبروتوبلاسما للكريات الحية. وسواء سمَّينا جوهر الكون الاصلي اثيرًا او هيولى والقوى المتحولة عنهُ قوة او حركة فالمعنى واحد وما هو الاَّ اختلاف الفاظ فقط والمهمُّ تحوُّل هـذا الجوهر وانحصارهِ في واحد هو القوة او الحركة التي هي حقيقة ثابتة في العلم بخلاف الاثير او الهيولى التي هي فرضٌ لجلاء الكلام وتقريبهِ الى الفهم. واولى بهذه القوة ان تكون حركةً وحركة على نفسها ليستطيع الجوهر الفرد ان يكون مخزناً لها وهي بتلك القوة الهائلة المعروفة لنا والتي ينتظر من العلم ان يعرف عنها اشياء اعظم جدًّا ايضاً (١)

وليس في هذا القول شيء من المبالغة. خذ مثلاً الكهربائية التي ليست الاَّ مظهرًا من مظاهر تلك القوة العامة المنتشرة في الكون والمكونة لهُ. فلقد كانت معلوماتنا بها في اول الامر ليست اكثر من معلوماتنا بخصائص الراديوم المعلومة لنا اليوم والمعترف اليوم انها موجودة في جميع المواد قاطبة. فاين معلوماتنا الكهربائية منذ نصف قرن من معلوماتنا بها الآن. اذكر اني القيت في سنة ١٨٧٠ خطاباً في

(١) صور المادة ليست سوى التوازن في الاثير والقوى المعروفة ليس ظهورها لنا الا فقد هذا التوازن فكأن الاثير عبارة عن القوة المتحركة والمادة عبارة عن توازن في هذه القوة بعض الشيء. وهذا يفهم منهُ كيف يكون تحول المادة اذا فقدت هذا التوازن بظهور القوى المعروفة كالنور والحرارة والكهربائية الخ التي هي تحولات عنها والتي توازنها يؤلف المادة الثابتة بعض الثبوت. ولا تثبت هذه القوى ثبوتًا يرينا المادة كأنها لم تتغير او تغيرت تغيرًا غير محسوس مع انطلاق قوى عظيمة منها عند عروض اقل شيء يفقدها توازنها النسبي الاَّ اذا تجمعت هذه القوى تجمعًا عظيماً في القوة الام الصادرة عنها ولا تجمع القوة الام هذا التجمع الهائل الاَّ اذا كانت حركة وحركتها لولبية على نفسها ولذلك كان هذا التوازن اثبت في الجواهر الفردة العريقة في القدم وكانت الجواهر الفردة نفسها على صغرها مخزنًا عظيماً لقوى لا تحد وهذا اقوى برهان على كون الجواهر الفردة عبارة عن زوابع او حركات لولبية في الاثير نفسه. والفائدة الاولى المحصلة من ذلك هو عظم المنافع التي تتأتى لنا من معرفة طرق استخراج هذه القوى من مكامنها واستخدامها لمصالحنا والتمكن بها من التغلب على ما يبدو لنا من الصعوبات المعتبرة انها في حكم المستحيل اليوم

جعلتها من المسائل العلمية البحتة لا من المسائل الاستقرائية الفلسفية فقط. كما نقل مذهب النشوء والارتقاء القول بتحول الاحياء من مدار النظر للامرك وجفروا ستنيلير الى مدار التحقيق العلمي لدارون

واتجه نظر العلماء الى هذه المسألة على اسلوبٍ اقرب الى العلم منهُ الى الفلسفة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن وقد ذهب غوستاف لبون في مؤلف لهُ سماهُ « نشوء المادة » الى نفي ثبوت الجوهر الفرد ثبوتاً مطلقاً اذ اعتبرهُ مخزناً لقوى هائلة او هو متجمد قوى وانطلاقها تبديد لمادّيّتهِ . وذهب الى ان المادَّة بناءً على ذلك تتلاشى خلافاً للمقرَّر في العلم من ان المادة لا تتلاشى . والحقيقة انها تتلاشى في القوة التي تتحول اليها

وهذا القول خطير اليوم . وهو في مبدئهِ ليس بدعة في العلم اذ يطلق مذهب النشوء في الاحياء على الطبيعة كلها وعلى المادة نفسها اذ يجعلها كالاحياء تنشأ وتنمو وتموت مثلها . وينفي الفصل بين المواد القابلة الوزن والمواد غير القابلة الوزن اذ يجعلها تنشا كلها من مبدإٍ واحد هو الاثير الفرضي المسلَّم بهِ في العلم اليوم تسليماً مطلقاً [1] ولكن ذلك لا يجعل قولهُ في تلاشي المادة وخلق القوى صحيحاً . وان كان قولهُ في نشوء

---

(١) اكثر الظواهر الطبيعية كالنور والحرارة والكهربائية الاشعاعية الخ يعتبر مقرُّها في الاثير . والجاذبية التي يتوقف عليها نظام الكون وسير الكواكب يظهر انها مظهر من مظاهرهِ . وكل الابحاث النظرية لمعرفة تكوين الجواهر الفردة متفقة على التسليم بان الاثير مصدرها . وهو ان كان فرضاً مزعوماً الاَّ ان القول بهِ يظهر للبعض انهُ اثبت من القول بالمادة نفسها . وكان الاضطرار اليهِ شديداً لما ارادوا تعليل انتشار القوى . ثم اعتبر كانهُ ثابت بالامتحان لما اثبت (فرزنل) ان النور ينتشر بتموجات شبيهة بالتموجات التي تحدث عند سقوط حجر في الماء . واكد ذلك بمقاومتهِ تموّجات النور واعادة الظلمة بتسليط مقعر موجة نور على محدب موجة اخرى . ولما كان انتشار النور يحدث بالتموجات كان لا بد لهذه التموجات من شيء تموج فيهِ فاطلقوا على هذا الشيء اسم الاثير

وقد زادت اهمية الاثير جداً لما تقدمت العلوم الطبيعية لتعذر تعليل اكثر الظواهر بدونهِ . فلولاه لما كان الثقل ولا النور . ولا الكهربائية ولا الحرارة ولا شيء مما نعرفهُ . ولكان العالم صامتاً ميتاً او كان بحالةٍ لا يمكننا ان نتصورها . ولو امكن بناء غرفةٍ من زجاج ونزع الاثير منها بالكلية لما امكن للحرارة والنور ان ينفذا اليها ولبقيت في ظلمةٍ دامسة والراجح ان الجاذبية تخسر مفعولها على الاشياء التي ضمنها فلا يبقى لها حينئذٍ وزن او ثقل اه . (من كتاب تحوُّل المادة لغوستاف لبون)

خطونا من ذلك اليوم الى اليوم خطوةً واسعة في العلوم الطبيعية جعلت فهم ذلك علينا أيسر كذلك

* * *

والتوحيد في الطبيعة ينحو بنا نحوًا آخر لا تتقدَّر الغاية التي قد يبلغ اليها ولا يجوز الجزم بالوقوف فيها عند حدّ. ولقد بدا لنا اليوم كثير من هذه الاسرار التي لم يحلم آباؤنا بها والتي لو رأوها لعدوها من الخوارق. وذلك بناءً على ناموس التحوُّل الذي لا يقتصر على الاحياء فقط بل يشمل الطبيعة كلها. حتى لم يعد يجوز الاعتقاد بشيءٍ ثابت فيها لا العناصر ولا الجواهر الفردة نفسها. وحتى صارت اشعة رنتجن وخصائص الراديوم غير خاصة بنوع من مظاهر المادة بل هي عامة على اصناف المادَّة كلها اذا توفرت لها الشرائط التي تنبه فيها هذه الخواص وسواها مما لا نعلمهُ حتى الآن. ولقد نظر بعضهم الى هذه الخصائص كأنهـا قوى جديدة غير القوى المعروفة. ولا يصح ذلك الاَّ اذا صحَّ اعتبار القوى المعروفة كالحرارة والنور والكهربائية قوى ممتازة منفصلة بعضها عن بعض لا في المظهر بل في الجوهر أيضاً. ولكننا اذا اعتبرناها قوى متحوّلة وعرفنا ان في الامكان ردَّها بعضها الى بعض فمثل هذا الفصل في القوى الاخرى كأشعة رنتجن واشعة الراديوم والاشعة الكيماوية وسواها مما هو معروف ومما لم يعرف حتى الآن لا يجوز. ولا يجوز اعتبار هذه القوى الجديدة الاَّ من قبيل تحوُّل المادة وقواها كما في تلك. كما انهُ لا يجوز بناءً على ناموس تلازم المادَّة والقوَّة اعتبار هذين المظهرين اي المادة والقوّة شيئين ممتازين في الجوهر يثبتان ناموس التثنية في الطبيعة. ولقد اشرت الى هذه الوحدة واطلاق مذهب التحوُّل على الطبيعة الصامتة نفسها في مقالة نشرتها في جريدة البصير في اول عهد صدورها منذ نحو اربع عشرة سنة حيث قلت في ردّ القوى كلها الى الحركة والمادَّة الى الهيولى بعد ان اشرت الى تلازمهما ما نصهُ « والهيولى فرضٌ لبسيط المادَّة والحركة حقيقة ثابتة فالحركة اصل الكل » اه

* * *

وهذه النظريَّة الاستقرائيَّة قد خطا العلم فيها من ذلك العهد الى اليوم خطوةً

يعتقدون روحانيتها حتى اليوم ظواهر بعض الامراض العصبية كالصرع والهستيريا التي تجعل الانسان يأتي اعمالاً غريبة لا يستطيعها الانسان في حال الصحة فينبئ بامور خارقة العادة .فطالما اعتبروها حالات ناشئة عن ارواح نجسة فعالجوها بانواع التعذيب لطردها من الاجسام الحالة فيها فان تعذر عليهم ذلك — وكثيرا ما يتعذر — احرقوا المصابين بها غير مشفقين عليهم

ومنها ايضاً الانفعال الغريب الذي يكون في البعض فيشعرون بما لا يشعر بهِ سواهم مما هو غير مألوف فيحملونهُ على فعل الارواح . ومن الاسف ان كثيرين من العلماء الذين لم يستطيعوا التخلص من مفعول تربية الاوهام التي نشأوا فيها في صغرهم ساعدوا العامة على تمكين هذا الوهم فيهم . وكثيرون منهم لا يزالون حتى اليوم يشتغلون بفن مناجاة الارواح لمخاطبة ارواح الموتى و يتخبطون فيهِ على غير هدى مخدوعين للمشعوذين تارةً وواهمين في انفسهم اخرى

ولقد ازاح الطب هذا الوهم عن المصابين بالامراض العصبية ونجاهم من معاملة رجال الدين الشرسة ورفق بهم وشفى كثيرين منهم وعزَّى آخرين . ولقد مهد العلم الطبيعي السبيل لتفهُّم الخوارق الاخرى التي يتراءى انها فوق طور العلم الحقيقي كقراءة الافكار ومطلق الشعور عن بعد حتى قرع الاوهام ومناجاة الاحلام التي يطلقون عليها اسم مناجاة الارواح .واول ما كتبت في هذا الموضوع راداً مفعول القوى الروحانية المزعومة فيهِ الى الاسباب الطبيعية كان في سنة ١٨٧٦ على اثر حادث من هذا القبيل اقام الجرائد في انكلترا واقعدها حتى اهتمت الجمعيات العلمية بالبحث فيهِ مما يدل دلالة واضحة على الميل المتأصل في البشر بالوراثة والتربية الى سرعة الاندفاع مع هذا التيار لاقل عارض يعرض لهم و يشكل عليهم تعليلهُ تعليلاً طبيعياً . ومن السهل تفسير الغريب باغرب منهُ لديهم حينئذٍ كأَنهُ لا يجوز لهم ان يقرروهُ وان يضعوا وراء تعليلهِ الطبيعي علامة الاستفهام .وكنتُ يومئذٍ في الاستانة وكانت كتابتي باللغة الفرنساوية [1] ولقد

(١) وقد نشر ذلك في جريدة السكوريه دوريان التي تطبع في الاستانة بتاريخ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦

على مبدإ التوحيد الطبيعي على كل المذاهب الاخرى النظرية المبنية على مبدإ التثنية القاضي بفصل المادة فصلاً جوهرياً عن القوى المدبرة لها تبعاً لغاية سابقة في علمها . فالكون حسب هذا الاخير خلق اختياري وكل شيء فيه مخلوق خلقاً خاصاً تبعاً لغاية مقررة في مشيئة القوة الخالقة . فعلمنا لا غاية له حينئذ الاّ ان يطبق حوادث المخلوقات على غاية هذه المشيئة نفسها لا تدوين الواقع والبحث من اسبابه الطبيعية . فاذا ترآى لنا شيء عبث من مثل الاعضاء الاثرية غير اللازمة ولا النافعة في الاحياء وقفنا في تعليله عند حد الاقرار بالعجز عن ادراك مرامي هذه المشيئة التي لا يدرك كنهها واكتفينا بهذا الاقرار عن البحث في ما قد يكون لذلك من الاسباب الطبيعية الداعية اليه فقيدنا العلم بقيود التوكل هكذا وجعلناه عقيماً

بينا ان القول بالنشوء الاضطراري على مبدأ التوحيد الطبيعي يحملنا على حث مطايا البحث والتنقيب بالاعتماد على النفس فينفسح امامنا للعلم مجال لا يقف عند حدّ . وناهيك بما يترتب على ذلك من النتائج العظيمة في العلم والفوائد الجليلة في العمل . والبرهان الحسي على هذا الفرق واضح من مقابلة الانسان في حالتيه من ذلك لا في علومه فقط بل في كل ما يتوقف عليها من احواله الاجتماعية ايضاً كما تقدم

فالموحّد في الطبيعة لا يسلم بشيء غريب عنها فاعل فيها او مفعول عنها بل يعتبر ان كل الحوادث التي تحدث فيها منها وبها واليها متحولة بعضها عن بعض وراجعة بعضها الى بعض لا تستقر على حال ولا تثبت على صورة والبقاء غير متوفر فيها الاّ للكل . وهذا المبدإ ينفي القول بالقوى المجردة والارواح المستقلة التي نعمد في جهلنا اليها لتفسير كل ما يبدو لنا غامضاً ويردنا الى البحث عن اسباب هذا الغامض في الطبيعة نفسها .

***

ولقد كان كل شيء غامضاً على الانسان في اول الامر وكان ينحو في تعليله منحى القول بالقوى المجردة فاخذ يتعرفه شيئاً فشيئاً حتى تبين كثيراً من هذا الغامض وردّه الى قوى الطبيعة . ومن هذه المباحث الغامضة التي لا يزال كثيرون

ثم نظرت الى العلم الطبيعي من هذه الجهات كلها فوجدت انهُ لولاهُ لما انصرف الانسان عن ذلك المقام الى هذا المقام وعرف من الحقائق واكتشف من الاسرار واخترع من المصنوعات ما تعجز عنهُ مدّعيات معجزات كل الاديان او تصورات الاحلام . وكل ذلك ليس شيئاً يذكر لدى غاية هذا العلم الاجتماعية الحقيقية . وهي اعتبار الانسان في كل مكان اخا الانسان مما يدعو الى تصافح الامم من فوق حدود الاوطان . بل تجلت لي تلك الغاية الكبرى المنتظرة من هذا العلم الذي هو دين البشرية الحق والتي لا تتيسّر في أي تعليم آخر . ألا وهي التسامح او التساهل الداعي الى التعاون الحقيقي الضروري للعمران والمبني على معرفة الحق والواجب لا على الرفق والاحسان

*
* *

واي شيءٍ ألذّ بل افيد من معرفة تحوُّل المادة وتحوُّل قواها فيها ومعرفة انهما شيءٌ واحد لا تهدأ لهُ حركة : الفة في الجماد وانتخاب في النبات وادراك في الحيوان وارادة في الانسان على اختلاط في آفاقها سمها ما شئت: حياةً او حرارةً او كهربائية او نوراً او حركة او جاذبية اوشوقاً او حباً فهي هي واحدة في الجوهر وان اختلفت في المظهر منتقلة في جسم الكون متغيرة فيهِ لحفظ الكل كما تتغير مراكزها في جسم الجماد وفي جسم الحيّ كما في قولي

هو الحبّ اكسير الوجود بلا مرا ولولاهُ ما كان الوجود كما ترى
فكل الذي تلقاهُ في الكون سرهُ وهاديهِ في افعالهِ كيفما نحا
هو الحيّ مولودا هو الميت عائدا هو النجم قد اسرى هو الصبح والدجى
هو الكل في كلّ معيداً ومبدياً وما نحن الاّ فيهِ من صور الفنا
وليس فناءً ما نَراهُ وانما هو العود للاولى هو البعث للألى
قضوا فجئنا وانقضينا بعودنا اليهم وغير الكل ليس لهُ البقا

*
* *

وما رسخت بي مادية الكون حتى بدت لي مزية فلسفة النشوء والتحول العلمية المبنية

واين هي ؟ ولا شكّ انها قوة . ولكن هل تعرف قوة بلا مادة ؟ ولا شك انها خارج المادة . ولكن كيف تفعل في المادة وهي منفصلة عنها ؟ وان كانت متصلة بها فكيف تكون هي سواها ؟ ثم سكت ولم يزد على ذلك شيئاً .

ولا تسألني عن فعل هذه المصادرة بي حينئذ . فقد كان مثلهُ بك الآن . فعلاني الاحمرار ثم الاصفرار وجحظت عيناي من حجاجيهما على غورهما وجمعت قوة جناني واطلقت ذرابة لساني . وهي اول مرة علمت بها اني من الفلاسفة السفسطائيين او من العلماء اللاهوتيين . ثم وقفت بي حركة الدماغ فأرتج عليّ وسكتُّ وانقلبت راجعاً ولكني — ولا ازيدك علماً كما يقال — غير راض وحانق شيئاً قليلاً ايضاً .

وكأن هذا القول كان كجرثومة الاختمار فاخذ يختمر بي وانا مشغول عنهُ بسواهُ حتى تعاظم فامتلكني وصار شاغلي في تأملاتي وغرضي في مباحثي . فنظرت الى العالّ من جهة القسط في الخلق فاذا بهِ كما في قولي

قسم الناس بين خلق يجازى ثم قوم يعدُّ ذاك مجونا
بين خلق نعدُّ فيهِ المعافى ونعـدُّ المألوم والمسكينا
هل دريتم بما جنيتم فمظـلومون انتم وانتم الظالمونا

ثم نظرت اليهِ من جهة مكانهِ في العلم فلم اجد لهُ في المادة محلاً خالياً اللهمّ الاَّ ان يكون كما في قول محيي الدين العربي

فانظرهُ في شجرٍ وانظرهُ في حجرٍ وانظرهُ في كل شيءٍ ذلك الله

ثم نظرت اليهِ من الجهة الاجتماعية فوجدتهُ والتعاليم المبنية عليه على حدّ قولي

عبدنا بهِ رباًّ مثيباً معاقباً ويقضي ولا ردٌّ ويقضي كما يشا
رجوناهُ رحماناً اردناهُ عادلاً قصدناهُ جباراً كملْك اذا عتا
دعونا اليهِ الناس بالمين والدها دعوناهمُ بالنار والسيف في القلى

حتى صار الانسان ينظر الى الانسان كأنهُ عدوٌّ الانسان . وحتى صار يعتبر ان وطنهُ الحقيقي ليس في هذا المكان فالاهتمام بالحياة الدنيا لا يفيد فانصرف عن البحث في الحقائق الى الهيام في الاوهام

الاحفاد لرسوخ ذلك في الطبائع وشدة تكيفها بهِ . وعليهِ ناموس الرجعة عندهم ويراد بهِ الارتداد الى الاصل وهي حقيقة عرفها العامة قبل ان يقررها العلماء بقولهم « الاصل يحنُّ »

ولهذا كانت اعمال العقل كثيرة التناقض شديدة التغاير مملوءة بالمفارقات فترى الرجل الذكي الفؤاد والعالم المتضلع طروباً بسخافةٍ نفوراً من حقيقةٍ . فاذا نظرت الى كل ذلك من خلال مذهب النشوء والتحول تبدَّت لك الحقيقة الناصعة وسهل عليك حل هذا الاشكال . فاجأني بعضهم مرةً بقوله « انك لمصيبة على الناس لمغايرتهم في افكارهم » فاجبتهُ بقولي « اذا جازت الشكوى فمن منا اولى بالشفقة انتم الذين مصيبتكم بي واحدة ام انا الذي مصيبتي بكم متعددة »

واذا كنت كتبت ما يغاير مجرى الافكار غالباً او حددت الانتقاد احياناً فليس لاني كنت اطمع بان ارد الناس اليَّ في هذا الزمن القصير وانا لا اجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات بل لاني قصدت مباغتة الافكار للفتها الى غير مألوفها. وان كنت لا اجهل ان القاء الحجر في المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة الاَّ ريثما ينقضي حذرها فتعود الى نقيقها الاَّ اني لا اجهل ايضاً فعل الخمير المخمر . فان اقل ما يعلق بالعقول حينئذٍ من اثر الافكار المخالفة ينمو فيهــا غالباً بسرعة الاختمار نفسهِ خصوصاً اذا صادفَ استعداداً في النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليهِ فيكون مثل هذا التنبيه لهُ بمثابة الشرارة في اثارة كامن القوى المتجمعة . ولعل الناظر الى ما بين طرفي هذه الفترة القصيرة من ذلك العهد الى اليوم لا يسعهُ الاَّ الاعتراف بصحة هذا القول

***

واني لا انسى ما عرض لي في اول نشأتي وكنت قد تقلبت على مقالب التردد في الاديان من اليقين الى الشك فالنفي . ولكني بقيت مستمسكاً بعلة العلل كما يقولون فبينا كنت ذات يوم اشرح وافصّل وابسط واعلل ولسان حالي يقول

ليس يدري مقاصد الله عبدٌ  ان لله في الخليقــة سرًّا
خاضت الناس في الظنون ولكن  صاحب البيت بالذي فيهِ ادرى

واذا بصوتٍ كالهامس في الاذن صوّب اليَّ هذا السؤال قائلاً : ما هي علة عللك

وموضوع حديثي وغرضي في كل كتاباتي بعد مبارحتي المدرسة ورحلتي الى اوربا واطلاعي على هذا المذهب في مؤلفات اصحابهِ . ولم اجد حينئذ ادنى صعوبة في تطبيقهِ على اقصى ما يرمي اليهِ قبل ان اطَّلع على مؤلفات الغلاة فيهِ ككل وبخنر لان علوم المقابلة في الطب تساعد كثيرًا على ذلك . كما انهُ هو نفسهُ لم يجد ادنى صعوبة في امتلاكي لانَّ تربيتي المدرسية لم تسمني بطابعها فانَّ اعتلال صحتي في حداثتي لم يسمح لي بان اكون من متخرجي المدارس في ما خلا الطبّ . ولم اقرأ شيئًا من العلوم الكمالية التي يقولون انها توسع العقل وهي في اعتقادي تضيقهُ فكأَنَّ ذلك حفظ لي استقلال افكاري . وما ذكرت ذلك هنا الاَّ لأُؤيد ما قلتهُ في ما تقدّم من سوء تأثير التربية المدرسية كما لا تزال حتى الآن في تقييد العقول فيشبُّ التلميذ فيها ويخرج منها فاقدًا كل استقلال في افكارهِ وخصوصًا كل تسامح وناهيك بما يترتب على ذلك في الحياة الاجتماعية من الشرور

***

ولقد بلغ مني الاقتناع بصحة هذا المذهب اني صرت اعتبر مبادئهُ اوليات لا يجوز ان تخفى على ابسط متعلم واقل مفكر فاذا لم يصرّح بها فلعدم جسارة او لمصلحة . وفاتني ان هناك اسبابًا اخرى اهمّ لم انتبه لها حتى انتبهت الى تطبيق هذا المذهب على الفلسفة العقلية نفسها فانجلى لي سرُّ كل هذه المناقضات في العقول المختلفة اذ اتضح لي ان علم البسيكولوجية اي علم العقل او النفس فرع من علم الفزيولوجية اي علم منافع الاعضاء فيجب النظر في العقل كالنظر في وظائف الاعضاء باعتبار انهُ عمل ماديٌّ . فكل ما يتطرق الى المادة من نواميس النشوء والتحول ويؤثر فيها يؤثر في العقل نفسهِ الذى هو ليس الاَّ فعلاً من افعال الدماغ . فاذا كان للاقليم وسائر نواميس المطابقة والانتخاب الطبيعي والوراثة شأن عظيم في تكييف الاعضاء الحية واثر لا يمحى الاَّ في الاجيال المتطاولة اذا تغيرت الاحوال فللتربية والتعليم والعادات والاعتقادات وكل ما يؤثر في الاخلاق أثر في العقول ايضًا لا يزول الاَّ بمثل تلك الصعوبة حتى لقد يزول من الابناء اثر ما في الآباء من الاجداد ثم يعود ويظهر في

وأما اليوم فلم يعد مستنكرًا الى هذا الحد بل صار يعلّم في اكثر المدارس الحرّة. واول مدرسة ذكر فيها بالتصويب مدرسة ليون الفرنساوية الطبية وذلك في سنة ١٨٨٧ في خطاب لاحد اساتذتها المدعو تستو عنوانهُ الانسان في نظر المشرّح وقد حوّله كثيرون اليوم الى غرضهم كما طبقوا كلام غليلي في الارض على غرضهم بعد ان قاموا عليهِ وكما تحوَّلت انا الى ان اكون من الغلاة فيهِ بعد ان انكرتهُ وتأففت من ذكرهِ اول ما سمعت بهِ

ففي سنة ١٨٧١ — وكنت ادرس الطبّ في المدرسة الكلية السورية سمعت — ولا اذكر كيف سمعت — انهُ قام رجل يدعي ان اصل الانسان من القرد. فلم اتحرّ حقيقة هذا القول ولم يكن في تعليم المدرسة ما يحملني على التبصر فيهِ. وغاية ما اذكر اني لم اسمع بهِ حتى اظهرت اشمئزازي منهُ ومن قائلهِ الذي اعتبرتهُ حينئذ دعيًّا ما خالف الا ليعرف. ولا عجب فان الكيفية التي ذكر لي فيها والتي يذكرهُ بها دائمًا خصومهُ من ان القرد اصل الانسان لا يمكن ان تحدث في سامعها لاوّل مرة وهو متشرّب بالاعتقادات المخالفة الاَّ نفورًا ولو انَّ في نوع الانسان من هو احطُّ من القرد بكثير. وهو سلاحٌ يفتريهِ خصوم هذا المذهب لتحقيرهِ. والاَّ فمذهب داروين لا يقول ان القرد اصل الانسان وان الحمار اصل الفرس بل ان الانسان والقرد والفرس وسائر الاحياء في الطبيعة قاطبة من اصل واحد في نشوءها من مواد الطبيعة وبمجرد قواها وقد تغيرت تبعًا لناموس المطابقة حتى بلغت مبلغها الآن بالانتخاب الطبيعي

ثمّ مرَّت الشهور ولا اذكر اني عرفت عن هذا المذهب شيئًا جديدًا حتى نسيتهُ. ومن الغريب اني بعد ذلك بزمان عند نيلي الشهادة كان موضوع خطابي المدرسي النهائي «اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والغذاء والتربية» وقد جئت فيهِ بكثير مما يؤيد هذا المذهب وانا لا اقصد فكنت كالذي يقول النثر وهو لا يدري

***

ولكن الذي لم اكن اقصدهُ في ذلك الحين لم يلبث ان صار موقف افكاري

كونها فاعلة . فيكون حس الاجسام الاليّة مرتبطًا ارتباط الجزء بالكل بتلك القوة العظيمة التي بها تتجاذب الاجسام بالنسبة الى مادتها و بالقلب كمربع البعد بينها اعني بها الجاذبية العامة التي هي عبارة عن حس المادة في ابسط معانيهِ واعمّ انواعهِ » اه

***

وقصدت بهذا القول ان ابين ان القوى الحيوية والقوى الطبيعية واحدة من مصدر واحد . ترجع بعضها الى بعض وتتحوّل بعضها عن بعض . وما خاب ظني في ما يكون لهذا القول من التأثير فقد جرّ الى مناقشات اظهر بعضهم فيها استغرابهُ لحس المادة هذا وكأنهُ نظر الى التعريف اللغوي فقال لي «انا اشعل هذه السيكارة فهل هي تحس » وحمل عليهِ غيرهُ حملة شعواءَ انتصارًا للمبدإ الحيوي ونفيًا لما يترتب عليهِ من التولد الذاتي واهم هذه المناقشات مدرج في المقتطف في ذلك الحين

وغرضي من طرق هذا البحث على هذه الصورة انما كان لاقرار الفلسفة المادية على اساس علمي متين لازالة الوهم العالق باذهان كثيرين في تلك الايام من انها فلسفة يرمي اصحابها بها الى اغراض سافلة ويحاول خصومها تمكينهُ في اذهان العامة لتنفيرهم منها وهي خطة دنيئة في العلم وهي اليوم فوق ذلك خطة خرقْلان حبلها قصير . فالفلسفة المادية اليوم تختلف كثيرًا عن فلسفة الماديين القديمة في انها كانت كفلسفة اصحاب ما فوق الطبيعة نظرية بحتة واما اليوم فهي فلسفة قائمة على مبادىء علمية ثابتة تكاد تكون قضاياها كالقضايا الرياضية نفسها

***

وما عنيت بتقرير هذه الحقيقة اولاً الاَّ لغرض اهم وهو جعلها توطئة لتأييد مذهب دارون في النشوء والتحوُّل الى اقصاهُ باعداد الافكار لهُ . اذ لا يخفى ان هذا المذهب كان لذلك العهد لا يجسر احد بيننا ان يتكلم عنهُ الاَّ في معرض النفي . وقد جاء ذكرهُ مرَّة عرضًا في خطاب للدكتور لويس احد اساتذة المدرسة الكليـة السورية فهاج الخواطر هناك عليهِ حتى اضطرَّ الى الاستعفاء . وما ذكرت ذلك هنا الاَّ لابين مبلغ استنكار عامة العلماء لهذا المذهب ومبلغ اقصائهِ من دور العلم في ذلك العهد .—

ولما كانت الحقيقة لا تتجزأ فاما هنا واما هناك وكانت مباحث الطبيعيين اقرّت مذهب الماديين في فلسفة الكون على قرار علمي مكين اقلّ ما فيهِ انهُ يثبت مبدأ التوحيد الطبيعي في المواد والقوى رأيت ان اخوض غمار هذا البحث من وجههِ العلمي البحت غير حافل بالمصاعب التي ستعترضني في هذا السبيل وان انخعهُ بتلك الصراحة الجازرة التي لم يكن قد ألفها الجمهور بيننا منكباً عن خطة الذين يرون ان الحكمة انما هي في المصاداة لعلي ازحزح الافكار عن مألوفها لعلمي ان تحريك الافكار لا يكون غالباً الاَّ بمثل هذه المصادرة العنيفة لما يحدث ذلك فيها من الرجة القاسرة لتسهيل انتقال الانسان في العمران من حال الى حال . وما حالهُ التي هو فيها عنوان السعادة وما كانت في الماضي مما يؤسف عليهِ

فبادرت المقتطف حينئذ بكلام وجيز انتقد عليهِ انحيازه الى مبدإ الحيويين واعتبارهُ مذهب بستور خصوصاً مؤيداً لهم نافياً للقول بالتولد الذاتي وهو لا يؤيد قولاً ولا ينفي آخر كما تقدم . وكأني جهلت مركزهُ او تجاهلتهُ فختمت كلامي بتوجيه الخطاب الى منشئيهِ قائلاً « ومثلكم لا يسامح على ذلك وانتم بجانب كعبة العلم » وقد ردَّ المقتطف عليَّ بمقال عنوانهُ « الحياة حيرة العلماء » وختمهُ بهذا القول السديد المحكم في هذا المقام قال « لو قعدت كعبة العلم التي نحن بجانبها مقعدنا لما استصوبت الاَّ آيتنا »

ولما كان الغرض من كل ذلك طرق مذهب الماديين من وجههِ العلمي نشرت مقالاً اردُّ فيهِ على المقتطف تحت عنوان « الحيرة علة البحث » ثم اردفتهُ بمقال آخر عنوانهُ الحس وأنواعهُ المختلفة » بنيتهُ على قول كاود برنار « الحس تكيف في التأثير لكيفية في المؤثر » واستطردت منهُ الى هذا القول الذي كان غرضي من كلامي السابق لتوجيه النظر اليهِ لاول مرة في اللغة العربية للبحث فيهِ على وجه علمي فلسفي وهو :

« واذا نظرنا الى الحس من حيث كونهُ تكيفاً في التأثير لكيفيةٍ في المؤثر كما في قول كاود برنار فلا نستطيع ان نقفل باب الكلام في هـذا الموضوع حتى نأتي ولو باشارة فقط الى كون المادة ذات حسّ ايضاً بدليل انها تتأثر حال كونها مؤثرة وتنفعل حال

العلم فيسهل للطب غرضهُ الاول وهو العلاج المنعي لقتل جراثيم الامراض في مكامنها وصدها عن التعلق بالجسم . — ولا انكر ما في القول المتقدم من الجسارة ولكنهُ قول مبنيٌّ على تطبيق مذهب النشوء على علم الامراض بناءً على ما يعلم من ثبوت الاحياء في التنازع بحسب رتبتها في النوعية وكأن الواقع يؤيدهُ اليوم

***

واوَّل من ذكر مذهب بستور في الجراثيم باللغة العربية المقتطف اقدم مجلة عربية علمية بل المجلة العلمية الوحيدة في الشرق حتى اليوم . وذلك حوالي سنة ١٨٧٩ . ولكنهُ ذكرهُ في عرض الكلام على تأييد مذهب الحيويين ونقض مذهب المادّيين مشايعة للآراء الغالبة في ذلك الحين . كما انهُ كان اول من نقل الى هذه اللغة ايضاً كلاماً لبعضهم في مذهب دارون في النشوء ولكن لنقضهِ على اسلوب يوافق اصحاب مذهب الخلق . ومع ذلك فلم يسلم من الانتقاد خصوصاً من اصحاب المذاهب القديمة ولو على نقل المذاهب العلمية الجديدة فقط . فلم يراعوا معهُ العمل بالمثل القائل « ناقل الكفر ليس بكافر » بل اعتبروهُ شريكاً بالتضامن حتى كانت كل حياتهِ الاولى جهاداً عنيفاً الجأهُ الى الهجرة اخيرًا الى مصر

والحق يقال ان الوسط الذي كان المقتطف مقيماً فيهِ كان يجعل مركزهُ محفوفاً بالمصاعب . على انهُ في المسائل العلمية الهامة لم يسلك مسلك التشيع الأعمى ولم يوصد في وجه الباحثين حتى اشدهم مباينة لآرائهِ باب الانتقاد ونشر الآراء الجديدة بحرية تامة فكان لهُ بذلك الفضل الاول في اعداد الافكار في الشرق لقبول زرع العلم على الاطلاق . وما كان اشتدادهُ احيانًا في مقاومة آراء خصومهِ الاَّ فضلاً لهُ ايضاً جعل هذا الاعداد اتمَّ بحمل العقول على التوسع في الروية للانتقال بها من الرضوخ المغلق الى التفكير والبحث قبل التسليم . ولهُ عليَّ فضلٌ خصوصيٌّ ايضاً لا اريد ان ادع هذه الفرصة تمرُّ من غير ان اسديهُ شكري الخاص عليهِ فقد حمل عني كثيرًا من مطاعن الطاعنين بسبب مباحثي ولو لم يكن نصيري فيها . وكثيرًا ما كانوا يتناسونني ويمسكون بهِ وحدهُ وهو منتهى الفضل لهُ

وعلى هذا العلم تترتب فائدة اخرى عملية لاستكشاف المصل الواقي والشافي معاً تقوي عزائمنا في بعض الامراض وترشدنا الى السبيل الاقوم في البعض الآخر فلا تدعنا نضيع الوقت عبثاً في محاربته من حيث لا تجدي المحاربة نفعاً لعلمنا حينئذٍ ان نجاحنا انما هو في تحدي الطبيعة نفسها فحيثما لا تنجح هي فالاولى ان لا ننجح نحن فنصرف قوانا عن الممتنع الى سواه مما يكون ممكناً ليكون اهتداؤنا اليه اذا نجحنا طريقة علمية شاملة هي اهم جداً من مكتشفات التجربة التي وان افادت كثيراً احياناً الاَّ انها لا تفيد فائدة علمية حقيقية للتعويل عليها في العلم

وبناءً على ما تقدم يمكن الجزم اليوم بان استكشاف المصل الشافي والواقي ممكن في جميع الامراض التي تشفى على اسلوب استحضار المصل الدفثيري وان صعب تعيينهُ في امراض الرتبة الاولى لقصر مدة المناعة فيها بسبب شدة تحولها واختلاط آفاقها ولكن ذلك اذا افقدهُ الفائدة الخاصة فلا يفقدهُ الفائدة العامة فيها للسبب عينهِ . ويجب ان يكون ممكناً في الطاعون والهواء الاصفر ايضاً . ولا ينبغي ان يتولانا اليأس من استكشافهِ في الامراض الاخرى الحادة الخاصة . وهو ليس بالممتنع في الزهري وان كان صعباً لبطء سير هذا الداء ولعلهُ ممكن اذا عرف حالاً كيف يستخرج من المريض بعد هجوع اعراضهِ الثانوية هجوعاً تاماً . واما التدرن والجذام والسرطان فكيف يمكن ذلك فيها على نفس الطريقة المستعملة للوقاية من الامراض الاخرى وشفائها وهي نفسها لا تشفى فكأن ذلك على هذه الصورة ممتنع فيها فلم يكن بدٌّ من توجيه النظر الى مقاومتها من سبيل آخر . ومعلوم ان المرض تنازع بين الجسم والاحياء الدنيا المرضية . ومعلوم كذلك ان الامراض تختلف بحسب الاسنان والاحياء المختلفة لاسباب يجب ان تكون في الجسم نفسهِ فلعل توجيه النظر الى هذه الجهة او الى سواها ييسر لنا استكشاف مصل من جنس اخر يعيد للجسم صفاتهِ المانعة او يكسبهُ هذه الصفات لمقاومة الامراض التي لا تشفى ويجعلهِ امنع ايضاً على الامراض التي تشفى . فالطب العلمي الحقيقي هو هذا لا طب العقاقير وسيكون لهُ في المستقبل شأن عظيم جداً الى ان يتيسر للاجتماع ان يعرف بنظاماتهِ كيف يستفيد من حسنات

عظيمة سيكون لها شأن عظيم جداً في المستقبل متى توجهت الافكار اليها وهي ان علم الامراض صار بهذا الاكتشاف فرعاً من التاريخ الطبيعي داخلاً في مذهب النشوء والتحوُّل فلا بدَّ من اطلاق نواميسهِ عليهِ فقد كنا بالامس ندرس الامراض بمظاهرها اي اعراضها ونعتمد في مقاومتها على التجربة واما اليوم فقد انفتح امامنا باب واسع لدرسها من حيث اسبابها الحقيقية ايضاً والاعتماد في مقاومتها على العلم ولقد خطونا في ذلك حتى اليوم خطوات واسعة ولكنها ليست شيئاً يذكر بالنسبة الى ما سيفتحهُ علينا نظرنا فيها بهذا النظر وتمسكنا فيها بهذا الحبل الهادي

***

وكأن مسألة من اهم مسائل الطب العلمية والعملية حلَّت بذلك او اوشكت فقد كنا في الماضي لا نعرف كيف نعلل سير الامراض واما اليوم فقد صار من السهل ان نعرف لماذا هذه الامراض تعرض كثيرًا وتشفى كثيرًا ولماذا غيرها لا يعرض الاَّ مرة في العمر غالباً وسواها اذا عرض فقلما يفارق حتى الموت .فاذا علمنا ان الاحياء الدنيا التي تحدث هذه الامراض كالاحياء العليا انواع وتباينات وعلمنا كذلك ان صفات الانواع ثابتة او هي بطيئة التغير جداً وان التباينات متغيرة كثيرًا لا تثبت زمناً طويلاً انجلى لنا سر اختلاف سير هذه الامراض . فاذا كانت الامراض الميازمية كما يسمونها تعرض كثيرًا وتشفى كثيرًا فلان اسبابها احياء دنيا من رتبة التباينات المتغيرة كثيرًا القليلة الثبوت . واذا كانت الامراض النفاطية تشفى وقلما تعود فلان اسبابها الحية من رتبة الانواع الثابتة واذا كان السرطان والتدرن والجذام لا تشفى غالباً ولا تفارق حتى الموت فلانها ارقى في رتبة النوعية ايضاً فصفاتها اشدُّ ثبوتاً لذلك واذا علمنا ان الشفاء من المرض والمناعة عليهِ سيان في طبيعتهما مهما كانت اقوال العلماء في تعليلهما ولعلهما نوع من التكافوء والائتلاف سهل علينا ان نفهم لماذا كانت المناعة ضعيفة قصيرة المدة في امراض الرتبة الاولى ثابتة طويلة المدة في امراض الرتبة الثانية ممتنعة ( او هي غلبة المرض في هذا التنازع بينهُ وبين الجسم ) في امراض الرتبة الثالثة

الاحياء الدنيا اجسام تامة التكوين مختلطة التركيب قديمة العهد ليست الاولى في سلم الاحياء وان حل مسألة التولد الذاتي يجب ان يبحث عنهُ في ما هو ادنى منها مما قد تعجز عنهُ مناظيرنا المكبرة وقد يكون مونير هكل نفسهِ من الصور الراقية بالنسبة اليهِ

ولكن جراثيم بستور اذا كانت لم تفدنا شيئاً من هذا القبيل فقد افادت العلم فائدة كبرى اذ كشفت لنا عالماً كبيرا جدًّا في التاريخ الطبيعي لم يكن معلوماً لنا من قبل واثبتت ان لهذا العالم اتصالاً شديداً بنا فدرسهُ اذن يفيدنا جدًّا لتعرُّف ما لهُ من المضار وما يحرز من المنافع لتطبيق ذلك على مصالحنا الاجتماعية زراعية كانت او صناعية او طبية . وقد كان لهذا الاكتشاف شأن عظيم جدًّا خصوصاً في علم الطب اذ اثبت ان الامراض ليست الاَّ اختمارًا وان سببها جراثيم فقلب كل المذاهب الاجتهادية التي كانت شائعة قبلهُ واقرّ علم الباثولوجية على قرار مكين وتقدمت بهِ صناعة الشفاء تقدماً بيناً بتعرّف طبائع الاحياء الدنيا والوقوف على الوسائل المقاومة لها . وعلى ذلك اكتشف بستور طريقة التلقيح العامية بالمصل الشافي والواقي معاً وهي اعظم اكتشاف في علم الشفاء ختم القرن الماضي بهِ حسناتهِ وفي طليعة ذلك اهميةً وثبوتاً مصل الدفثيريا الذي اكتشفهُ تلامذتهُ بعدهُ والذي ينقذ كل سنة مئات الالوف من الاطفال من مخالب الموت المحتوم . وانما قلت طريقة التلقيح العلمية لافصل بينها وبين طريقة التلقيح الواقي التجريبية التي اكتشفها اتفاقاً جنر قبل بستور بزمان طويل كما ان استر كان اسبق منهُ الى القول بالجراثيم واعتبارها سبب التعفن واستعمال العلاج المعقم في الجراحة ولكنهُ قال قولهُ هذا بناءً على التجربة لا على العلم الحقيقي فالفضل انما هو لبستور وحدهُ في اسناد ذلك كلهِ الى علم واسع الاكناف قوي الدعائم . على ان الفرع الذي استفاد من هذا الاكتشاف فائدة كبرى هو علم الهيجين اي علم منع الامراض والوقاية منها . ولو كانت نظامات الاجتماع اصلح مما هي اليوم لعرفت كيف تستفيد منهُ كل الفائدة المترتبة عليهِ ولمنعت كثيرًا من الامراض التي لا تزال تفتك بالناس حتى اليوم فتكا ذريعاً

وعدا عن ذلك فقد استفاد الطب من هذا الاكتشاف فائدة اخرى علمية

يجعل كل نوع من الاحياء موضوع خلق خاص ليفصلوا الانسان بذلك فصلاً تاماً ويجعلوهُ في مقام ممتاز لا في سلم التحول الراقي بل في نوع الخلق نفسهِ لئلاَّ يكون وجودهُ على تلك الصورة نتيجة يترتب عليها مشاركتهُ الذاتية لسائر المخلوقات وهم يريدون ان لا تكون لهُ هذه المشاركة الاَّ في الاعراض فقط تأييداً لتعاليمهم من انهُ الغاية المقصودة بالذات والتي لاجلها خلق كل ما في الكون وهو قول لا يقبلهُ العلم اليوم

على ان هكل وهو من كبار العلماء الطبيعيين اكتشف في قاع البحار جسماً متعضياً يصح ان يكون حلقة الاتصال بين الجماد والحي ودليلاً على التولد الذاتي وقد أطلق عليهِ اسم المونير وهو عبارة عن ابسط الكريات الحية القائمة بنفسها ومهما يكن من ذلك ومن القول بالباثيبيوس ومن زعم آخرين ايضاً بانهم تمكنوا من احداث هذا التولد فحلُّ مسألة النشوء الطبيعي لم يعد متوقفاً على ذلك بعد ما ثبت تحوُّل القوى بعضها الى بعض وتحوُّل المادة بها كذلك وتحول الاحياء نفسها تبعاً لناموس المطابقة كما ان حلَّ مسألة الهيولى لم يعد متوقفاً على رد العناصر كلها الى بسيط واحد. والوقوف عند ذلك بعد ما ثبت كل هذا الارتباط تعنُّت اذا جاز لاصحاب المذهب الواحد جاز اكثر لخصومهم

* * *

وقد علا هتاف اصحاب المبدإ الحيوي جدًّا لما قام بستور واكتشف سر الاختمار واثبت علمياًّ انهُ ناشيءٌ عن جراثيم اي احياءٍ دنيا لا ترى الاَّ بالمناظير المعظمة اطلق عليها اسم المكروبات وأيد قولهُ بالبرهان اذ منع الاختمار واوقف كل فساد بقتل الجراثيم في الجسم المختمر وصدها عن النفوذ اليهِ واكتشف بذلك طريقة التعقيم العلمية واقرَّ مذهب الجراثيم على أساس علمي متين فزعموا ان اكتشاف بستور هذا قد جاءَ بالضربة القاضية على مذهب القائلين بالتولد الذاتي

على ان لياذ اصحاب المبدإ الحيوي بجراثيم بستور لم يفدهم شيئاً جديداً لاثبات مبدإهم او لدحض مذهب خصومهم وانما هذا الاكتشاف ابعد حل المسألة اذ اثبت ان

ولا سرى النجم في العلياء وانتظمت له المواقع تقصيه وتدنيه

فمرجع الفضل في اكتشاف نواميس الجاذبية وتطبيقها على العلوم الرياضية انما هو لنيوتن وحده كما ان الفضل في تقرير مذهب النشوء والتحوّل على مبادئ علمية اختبارية ثابتة هو لداروين وحده . على ان نيوتن وقف في مذهبه عند هذا الحد ولم يشر الى العلاقة بين جاذبيته وسائر قوى الطبيعة ليردّ هذه اليها او يجعل تلك منها حتى انتشر مذهب النشوء والتحول فاتمّ الرابط وصارت هذه النتيجة لازمة لدى معتنقي هذا المذهب كما في هذا القول

شوق تكامل من ادنى الوجود الى اعلى فاعلى الى اعلى اعاليه
حتى تناهى وقلبُ المرء تلهبه نار من الحبّ يذكيها وتذكيه

ولا سيما انه كان قد تقرر قبله تحوُّل قوى الطبيعة بعضها الى بعض كالحرارة والنور والكهربائية واعتبارها جميعها من اصل واحد

***

ولما كان القول بمذهب النشوء يستلزم ضرورة القول بمادية الكون لم يكن تقريره من السهل لدى اصحاب المبدإ الحيوي لصعوبة تأييد التولد الذاتي بالوسائل التي لنا اليوم وقد استمسك علماء النظر بهذا المبدإ استمساك الغريق بحبل النجاة . وبلغ التحمس في المناظرة بين الفريقين حدّ حدته بين سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي نشر داروين فيها كتابه في اصل الانواع وسنة ١٨٩٠ وهي السنة التي بدأت جلبتهم فيها تخف . وكان جل اعتراضهم ان التولد الذاتي لم يثبت علمياً كأن هذا الاعتراض لا يجوز عليهم كما يجوز على سواهم . فان كان اصحاب النشوء لم يروا حياً نبت من غير حي فهل رأى اصحاب الخلق انساناً خلق من غير انسان فكلاهما في جواز الاعتراض العلمي سواء مع الفرق بان هؤلاء يخالفون كل قضايا العلم في التحقيق والاستقراء بخلاف اولئك فانهم في كل قضاياهم متفقون مع العلم الطبيعي . ولو اقتصر اصحاب الخلق على الاستمساك بمذهب الخلق الكلي فقط لما اشتدّ النزاع بينهم وبين اصحاب النشوء للزوم اتفاقهم بعد ذلك على تكون الاحياء وتحولها بقوى الطبيعة نفسها ولكنهم ابو الاّ الاستمساك بالخلق النوعي الذي

من اذنابهم اصحاب المبدإ الحيوي . على ان الذي لم يتصل اليهِ دارون او لم يشأ ان يصرّح بهِ فعلهُ معتنقو مذهبهِ بعـدهُ على اثر انتشارهِ حالاً واطلقوهُ على سائر الطبيعة . واكبر زعمائهم هكسلي وسبنسر في انكلترا وهكل وبخنر في المانيا

وسواءٌ هبطت اصول الاحياء من السماوات العلى كما يفهم من قول دارون او وصلت الينا من بعض الاجرام محمولة على بعض النيازك كما ذهب السير وليم طمسن المعروف باللورد كلفن ايضاً صاحب المباحث الكبرى في فلسفة الكون وواضع مذهب الحلقات الزوبعية في الهيولى لتعليل الجواهر الفردة . فان ذلك لا يؤيد مذهب الخلق الفجائي الذي ليس لنا عليه كالتولد الذاتي ادنى دليل علمي او شاهد عيانيّ . ولا ينفي كون التولد الذاتي حاصلاً في الاجرام التي هبطت الجراثيم منها او ممكناً في الارض التي نمت وتحولت فيها وانما يثبت شدة تأثر العقول بالمذاهب الشائعة ولو انها بقايا اساطير تخالف العلم . وخصوصاً انقيادها للمذهب القائل بان القوى الحيوية لا علاقة لها بالقوى الطبيعية وكل علاقتها بها انما هي عارضة . وهو بقية رثة من مذهب تعدد القوى في الطبيعة لا تنطبق على فلسفة ناموس النشوء والتحوُّل الذي صار اليوم في حكم المقرر لدى جمهور العلماء والذي لا يعترف الاَّ بوحدة هذه القوى لثبوت تحوُّلها بعضها الى بعض . وكأن زعماءهُ انخفض صوتهم جدًّا اليوم

وواضع اساس هذه الوحدة في نواميس الطبيعة هو بالحقيقة اسحق نيوتن الفيلسوف الرياضي الانكليزي الشهير وذلك في القرن السابع عشر . فانهُ لسبب طفيف يعرض لكلّ منا في كل دقيقة ولا يقف في الخاطر وهو سقوط تفاحة من الشجرة الى الارض اكتشف نواميس الجاذبية العامة واقرّها على اساس علميّ واطلقها على كل الكون وقد اشار فلاسفة اليونان الى هذه الجاذبية في نظرهم الى الكواكب واعتبارها علة دورانها بعضها حول بعض . وقد نقل العرب عنهم ذلك وعبروا عنـهُ بلفظة الشوق ولم يزيدوا على ذلك . وقد استعملت عنهم هـذه اللفظة للتعبير عن الجاذبية في قولي

لولا الهوى وبديع الشوق يهديهِ ما صحّ في الكون معنى من معانيهِ

الذين قالوا بمذاهبهم في الكون نظروا الى الغاب جملةً ولكنهم لم يدخلوا فيهِ لتعرُّف كل شجرة من اشجارهِ على حدة فاتت مذاهبهم مغلوطة او غير ناضجة بخلاف داروين فانهُ تعرَّف كل شجرة من اشجارهِ ثم رجع ونظر فيهِ جملة . وهذا شأن اكثر الناس في مباحثهم فمنهم من يقف عند تعرُّف الجزئيات ولا تجد عندهُ اقل ميل للنظر في الكليات ومنهم من يمتدُّ بنظرهِ حالاً الى الكليات وما مثل الاولين الاَّ مثل الفاعل الذي يقطع الحجارة وينحتها والآخرين مثل البناء الذي يبنيها . فان ابحاث علماء الاجسام الحية في تركيبها والفوارق التي بينها والاعضاء الاثرية التي فيها واختلافهم في عدد الانواع واختلاطها في آفاقها كل ذلك كان قد زعزع مذهب الخلق النوعي المستقل . وكانت ابحاث ليل في طبقات الارض قبل ذلك قد اثبتت حصول التغير التدريجي فيها ونفت القول بمذهب النكبات الجيولوجية الكلية الفجائية واجهزت على القول بمذهب الخلق الكلي ثم جاءت الاحافير التي اكتشفت في هذه الطبقات مؤيدة للتحول البطيء في الاحياء نفسها . فلما جاء داروين لم يكن عليهِ الاَّ النظر في ذلك جملة لتأييد مذهب التحول ونسبتهِ الى اسباب مختلفة طبيعية حدت بهِ الى وضع مذهبهِ الشهير وهو الانتخاب الطبيعي تبعاً لناموس المطابقة القائم على تنازع البقاء وبقاء الانسب . وعزز قولهُ بانهُ تحدى الطبيعة وايد عملها بالانتخاب الصناعي

***

واغرب مما تقدّم ان داروين نفسهُ مع انهُ واضع اساس مذهب النشوء والتحول الطبيعي لم يستنتج من مذهبهِ كل ما يترتب عليهِ من النتائج الصريحة إما لانهُ لم يستطع او لم يجسر لشدة تأثرهِ بالمذاهب الشائعة وإما لانهُ لم يرد ليردّ عنهُ مقاومة اصحاب الخلق النوعي لصعوبة اقامة الدليل العلمي على التولد الذاتي . فقال ان الاحياء نشأت في اول الامر من خمسة او ستة اصول تامة الخلق ومنها تفرعت سائر الاحياء المعروفة اليوم والبائدة بفعل نواميس الطبيعة نفسها . ولكن التحفظ لم يغنهِ شيئاً فتدلاقى مذهبهُ مع ذلك مقاومات شديدة جدًّا من اصحاب مذهب الخلق النوعي وخصوصاً

وتضطره بحكم الضرورة الى قلب سائر ما بناه على غير هذا الاساس بسرعة لا يعادلها الاَّ تباطؤه في ما مضى عن الاندفاع في هذا السبيل القويم . — واذا علمت ان سر قوته ليس بتعرُّفهِ خصائص المادة وخواص القوى البادية فيها كالحرارة والكهربائية والنور والجاذبية على اطلاقها والالفة الكيماوية حتى القوى الحيوية بل بمعرفة تحوُّل هذه القوى بعضها الى بعض وربطها بناموس عام يشملها جميعها أعظمت شأن مذهب النشوء والتحوُّل الذي هو موضوع هذا الكتاب والذي هو من منتجات القرن الماضي وحده بل نصفهِ الاخير . بل لو علمت كم كلف من العناء تقرير هذا المبدإ الذي يبدو اليوم للعلم بسيطاً وكم اثار من الحروب القلمية واللسانية بين علماء النظر والاختبار بل بين علماء الطبيعة انفسهم قبل ان يقرَّه العلم مما يزيدك دلالةً على ما للاعتقادات الموروثة من الشأن في الضغط على العقول حتى الراقية لاعظمت جدًّا الفكرة الاستنتاجية التي حملت داروين على التصريح بهِ بل صبره واجتهاده في جمع الادلة لتأييدهِ ولأعظمت جسارة اتباعهِ واطلاقهم اياه على العالم باسرهِ وتطبيق اعمال الفكر نفسهِ عليهِ

والحق ان فضل داروين العظيم ليس في فكرة وضع اساس هذا المذهب بل بتأييدهِ له بالادلة العلمية الطبيعية . وجعلهِ صالحاً لا لان ينطبق على الاحياء وحدها فقط بل لان يشمل الطبيعة كلها لا في الارض ومواليدها الجماد والنبات والحيوان فقط بل في السماء واجرامها ايضاً . فقد سبق داروين فلاسفة وعلماء طبيعيون قالوا بهذا المذهب قبله او بما يدل عليهِ واخصهم بالذكر عالمان طبيعيان كبيران وهما لامرك وجفروى سنتيليار في اوائل القرن الماضي ولكن ابحاثهما فيهِ كانت قاصرة لقلة الادلة العلمية فلم تستطع ان توجه الافكار اليها وان تحدث الثورة التي احدثتها ابحاث داروين فاقامت العلماء واقعدتهم واثارت بينهم حرباً شعواء كانت هي السبب في جلاء هذا المذهب وانتصارهِ

والغريب ان داروين ايد مذهبه بشواهد وادلة اخذها من ابحاث علماء اعلام وبعضهم كان من معاصريهِ ومع ذلك فقد لاقى من هؤلاء المعاصرين انفسهم مقاومات عنيفة وما مثلهم كما قال هكل الاَّ مثل رجل دخل غاباً كثيفاً فاخذ ينظر في كل شجرة من اشجارهِ ولكنه لم يمتدّ ببصرهِ الى الغاب كلهِ المؤلف من مجموعها كما ان الفلاسفة

القول ان الانسان من يوم اهتدى الى الكساء وشاد البناء لم يتغير بدنهُ كثيرًا ولكنهُ في شرائعهِ لم ينظر الى نواميس الطبيعة لتطبيقها عليها واختيار الانفع منها بل صبا عنها الى ما سواها وخالف بذلك نظامها فكأَن عقلهُ هنا جنى عليهِ فصرفهُ عن تعرُّف اقرب الاشياء اليهِ والصقها بهِ حتى اوغل في الضلال وصار ردُّهُ الى الصواب صعباً جدًّا . اوَ ليس من العار ان ترى الانسان حتى الآن مشغولاً عن حاضرهِ بماضيهِ يبني عليهِ مستقبلهُ منصرفًا بالبحث في ما لا يجدي عن البحث في ما يجدي وما مثلهُ الاَّ مثل من يمشي الى الامام وهو ملتفت الى الوراء فلا غروَ اذا وقع في حفرة منجم الاسكندر وهو يمشي ويعدُّ نجوم السماء حتى قيل فيهِ المثل « من اشتغل بعلم ما فوقهُ بلي بجهل ما تحتهُ » —فلم يكن بدٌّ لونخع الاجتماع في صراط يصون لهُ توازنهُ ويسرع ارتقاءَهُ من صرف قوى الانسان فيهِ عن تلك المباحث الرثة المضيعة للعقل المضللة لهُ من فلسفة نظرية وتواريخ كنسج العناكب وعلوم عالية ككفة الميزان الفارغة واقاصيص كتماقم عفاريت الف ليلة وليلة وتوجيهها الى البحث الجدّ الذي يضمن لهُ ذلك ألا وهو العلوم الطبيعية بما فيها من فلسفة اختبارية متينة واسعة التي هي المعوَّل الوحيد كما تقدم لهدم تلك العلوم السخافية وما بني عليهـا من النظامات الاجتماعية الفاسدة والاساس المتين الذي يشاد عليهِ بنيان الاجتماع الباسق في المستقبل

***

واذا علمت ان شأن العلوم الطبيعية لم يأخذ يتعاظم الاَّ في القرن الماضي وان النواميس الكبرى التي تسوس الطبيعة لم تنجلِ حقيقة الاَّ في النصف الثاني منهُ ونظرت الى النتائج العظمى التي ترتبت على ذلك في هذا الزمن القصير من ارتفاع شأن المنافع العمومية وتقدم الصناعة والزراعة والتجارة ونشر التعليم ومعرفة حقوق الانسان وتقرير سيادة الامم وخصوصاً اتجاه قوى العقل الى النظر في القريب الداني وتولد حب البحث فيهِ عن الحقائق الملموسة لم يبدُ لك شيء من الغلو في ما تقدم من القول . فان تحوُّل مجرى افكار الانسان في جميع مباحثهِ الى هذه الجهة سيكشف لهُ اسرارًا كثيرة في الطبيعة ليس المعلوم منهـا لهُ اليوم الاَّ نزرًا يسيرًا بالنسبة اليهـا تزيدهُ علماً وقوةً

وانتشارها . ولا يخفى ما يتبع ذلك من تحسن اخلاقهم واستقامة طبائعهم فلا يفشو الكذب بينهم هرباً من عقاب او مراعاةً لمصلحة وتقلُّ السرقة المترتبة على الحاجة. وهل يصح ان يكون الامر على غير ذلك ؟ أفلسنا نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لانّا عاقبناهُ على الصدق وان يسرق لانّا حجبنا عنهُ ما يحتاج اليهِ ؟ اوَ ليس شرائعنا هي التي تمنعنا عن تلك الشجاعة الادبية التي تسمو بها اخلاق الانسان وتحملنا كرهاً على احترام هــذا الحجب المغتصب بالارهاب ؟ ولا فرق في ذلك بين شرائعنا الاوتوقراطية والثيوقراطية ففي كل فترة منها ما يرعد الفرائص بالتهديد والوعيد . ولماذا كل هذا الغضب على هذا الانسان الضعيف الذي اقل احتياج من احتياجاتهِ كافٍ لان يدفعهُ الى ارتكاب الجريمة لان الاحتياج مؤلم فالجوع فضاح والحاجة قاتلة . فلماذا لا ننظر الى ذلك بالنظر الصائب ونكفي الانسان حاجتهُ ونكتفي شرَّهُ بل ننتفع كل النفع بهِ ؟

* * *

ونحن اذا طلبنا ان يكفى الاجتماع حاجتهُ وتدرأ عنهُ عللهُ وامراضهُ فلا نكون قد تمنينا حلماً او قصدنا وهماً بل نكون قد تحدَّينا نظام جسم الحيّ نفسهِ الذي كل عضوٍ منهُ بل كل جزءٍ مهما كان دقيقاً من اجزائهِ يعمل لنفسهِ وللكل معاً والكلُّ نفسهُ يعمل لهُ وعلى صحة هــذا الجزء تتوقف صحة الكل والاَّ اضطرب جسم الحيّ كلهُ وساءَ مصيرهُ .فدرس نواميس الاجتماع البشري يجب ان يكون بدرس نواميس الجسم الحيّ نفسه ووضع نظاماتهِ على نفس نظاماتهِ لان الاجتماع البشري نفسهُ ليس الا جسماً حيــاً ايضاً ولكنهُ حيوان هائل كما قال عنهُ المقتطف منذ سنين تعقيباً على بحثٍ لي في تاريخ الاجتماع الطبيعي نشر فيهِ في ذلك الحين

ولقائل ان الاجتماع على الصورة التي هو فيها سائر على نظام الطبيعة نفسها وهو متحوّل شيئاً فشيئاً بالتدريج متذبذبٌ مثلها وثوراتهُ مثل نكباتها فالاسراع في ارتقائهِ واجتناب تذبذبهِ وثوراتهِ مخالفٌ للنظام الطبيعي . وهذا القول حقٌّ لولا ان الاجتماع عاقل والطبيعة عمياء فهو قادرٌ ان يتصرف باسرارها و يصرفها الى مصلحتهِ حتى يصحّ

بشق الانفس لشدة بواعث الضغط المتجمعة فيهِ على مدى الزمان فتنفجر بهِ انفجاراً هائلاً تبعاً لناموس تجمع القوى الطبيعي الذي تحدث بهِ النكبات الطبيعية في الارض كالزلازل ونحوها . ولذلك كان انتقال الانسان بشرائعهِ ونظاماتهِ في التاريخ مصحوباً دائماً بثورات تجري الدماء فيها انهاراً وكثيراً ما ترجع بالاجتماع القهقرى او تقف بهِ عصوراً متطاولة

ولا ينكر ان في اصول هذه الشرائع ما تراعى فيهِ مصلحة الاجتماع بل مصلحة كل فرد فيه وانما صبغها احياناً كثيرة بما يلبسها حلة الجمود وعدم معرفة تطبيقها على نظام الاجتماع الطبيعي لجهل نواميسهِ يفقدانها مزاياها الحسنة وهذا هو سبب قيام المصلحين من وقت الى آخر على اختلاف نزعاتهم بغض النظر عن مطامعهم الخاصة لمقاومة هذه الشرائع تارةً بالعنف وتارة باللين وكان السيف فيها دائماً اصدق إنباء من سواهُ . ولهذا السبب عينهِ كان مصلح الامس يبدو رزءاً كبيراً على مصلح الغد . والاجتماع هو الذي يتحمل مغبة كل ذلك . ولو سير في نظامهِ على منهاج الاجتماع الطبيعي لما كان كل هذا الشر

***

ولا نريد بهذا القول ان الناس في طبائعهم يكونون بعيدين عن كل شر بل ان سهولة انتقالهم في شرائعهم وتحولهم في نظاماتهم يلطف من هذا الشر ويزيل كثيراً من اسبابهِ. بل بمعرفتهم نواميس الاجتماع الطبيعي يحسنون تطبيق نظاماتهم عليهِ فيقدرون فيها ناموس التكافل التقاضي بتقاسم المنفعة على قدر العمل حق قدرهِ ويجتنبون بذلك شر ناموس التكافؤ التقاضي بشدة التنازع لشدة المباينة بين هذا التقاسم والعمل ويتقون بذلك شر تبذير القوى في الاجتماع عملاً بناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعي فيعلمون الانسان حقيقة واجباتهِ من نفس احترام حقوقهِ اذ لا شيء اقدر على تعريف الانسان واجباتهِ للقيام بها مثل معرفتهِ المنافع المترتبة لهُ عليها . فباحترام الحقوق تعرف الواجبات فتقل الجنايات المترتبة على الجهل بها وبمراعاة كل افراد المجتمع في احوالهم المعاشية تحسن صحتهم فتقلُّ امراضهم وتتقى الاوبئة اذ تقلُّ اسباب تولدها

نواميس الاجتماع الطبيعي التي لا يصلح الاجتماع الاَّ بها . وسواءٌ كانت إلهيــة او بشرية فالفارق فيها بين اعضاء المجتمع البشري في حقوقهم وواجباتهم عظيم جدًّا . ولا يغرّنك ما فيها من الاصول المنطبقة في ظاهرها على العقل والعدل فالعبرة انما هي في تطبيقها على العمل.والممسك بغير حبل أريانا لا بد من ان يضل في تيهِ هذا الكون وهذا الحبل ليس الاَّ الطبيعة نفسها ونواميسها . فبالشرائع الثيوقراطية يترفع الرؤساء عامةً عن الشعب ويستأثرون بامتيازات يجملون بها واجبات هذا الشعب كثيرة جدًّا الى حد الاستماتة بالتقشف وحقوقهُ معهم قليلة الى حد الاستهــانة بنفسهِ . وبالسلطة الروحية التي لهم عليهِ يسطون على عقلهِ وعواطفهِ فيقيمون عليهِ من مخاوف اوهامهِ ضاغطًا يجعلهُ يقتنع بانهُ لا يجوز لهُ ان يكون في غير الحالة التي هو فيها . وبالشرائع الاتوقراطية الاستبدادية البشرية يرهب الملوك هذا الشعب حتى تموت نفسهُ ويخيم الجهل عليهِ فيسلبونهُ حقوقهُ . ولا فرق بين عالم وجاهل في هذا الذل وموت النفس فكلاهما شرَعٌ في التبذُّل هذا يزحف ببطنهِ على الارض حتى يعفر جبينهُ بالتراب وذاك يتنزَّل بقريحتهِ فيذلها الى مواطئ الاقدام تزلفًا الى ملوك السيف وملوك المال ولو انك تأبى عليهم أن ترمقهم شزرًا لو جردتهم من ذلك كلهِ . فتضحى المصلحة العامة على مذبح الافراد ويموت الفكر لدى مظاهر القوة الغاصبــة والمجد الفارغ حتى يصير الملوك آلهة جبابرة يسلبون ويفتكون ولا وازع لهم من شرائعهم والشعوب عبيدًا ارقاء لا يستهويهم الاَّ رضى ظالميهم وحتى يصير المجد كل المجد لدى اطفال الرجال الالتفاف حولهم لنيل رتبة يلبسون لها ثوبًا مزركشًا يبرزون بهِ في زيّ يضحك حتى ارباب المساخر او للحصول على وســام يعلقونهُ على صدورهم ويبتهجون بهِ كما يبتهج صغار الاطفال بلعبهم فيموت الفخر بالأفكار النبيلة والاعمال الجليلة مجردةً عن سفساف هذه الزخارف

ويلحق بهذا النظام عيب آخر يجعل الشرائع أشد ضررًا على المجتمع من ضرر الاستبداد نفسهِ وهو جمودها من طبيعتها تارةً ولاستمساك اصحاب السلطة بها اخرى فلا يسهل تغييرها طبقًا لاحتياجات الاجتماع بحسب الزمان والمكان خلافًا لناموس الاجتماع الطبيعي الذي هو في طبيعتهِ خاضع لناموس التحوُّل العام . ولا تتغير فيهِ الاَّ

واعتبار العالم وطناً واحداً كل ذلك لم يتم بهذا العلم الأخير مع انهُ من اقصى مراميهِ وما تمت بهِ حتى الآن الاّ معجزات الحروب والتفريق وقيام الاخ على اخيهِ . ولن يتمَّ ايضاً ولا يتمّ الاّ اذا انتشرت العلوم الصحيحة انتشار تلك وعرفت اسرار الطبيعة معرفة اتمّ . ومن غريب المفارقات ان الانسان مع شدة علاقتهِ بالطبيعة لم ينظر اليها نظر المستنطق لمعرفة اسرارها الاّ من عهدٍ قريب جداً بل صبا عنها الى ما لا علاقة صريحة لهُ بهِ وعلى ذلك شاد كل آثارهِ وافرغ كل مجهودات جسدهِ وعقلهِ والذي وصل الينا من تلك الآثار الحسية والمعنوية بالنظر الى ما لم يصل الينا شيءٌ قليل جداً ومع ذلك فهذا الشيء القليل كثير جداً بالنسبة الى ما تركهُ لنا الاقدمون من مبادىء العلوم الصحيحة . خذ مثال الكتب الادبية من فلسفة نظرية وفقه على انواعهِ وتواريخ مكذوبة ملفقة واقاصيص خرافية مما لا يزال بين ايدينا وتلدهُ قرائحنا حتى الآن مما لا ينطبق على عقل او نقل فكم هو كثير في كل امة فاذا كانت منقولات التاريخ عن هذهِ الآثار صحيحة من انها كانت تعد بعشرات عشرات الالوف وتشرى بالوف بدرات الاموال على ما تشاءُ مخيلة المؤرخ الشعرية فلا اسف عليها ان كانت قد فقدت ويكون الامام عمر قد احسن بحرقهِ نظائرها اذا صحت الرواية عنهُ فهذهِ الآثار التي يتغنى بها التاريخ ويبالغ في كثرتها مبالغة في الفخر وما كثرتها الاّ اتفاق معانٍ واختلاف روي والتي يعتبرها جمهور الناس حتى اليوم كنوز كل امة هي بالحقيقة آثار مخلدة لضلال الانسان صارفة اياهُ عن النظر في ما لديهِ من الحقائق مانعة لهُ عن السلوك في الصراط المستقيم . ولكن العلوم الطبيعية وقد اخذ كعبها يعلو اليوم ستتكفل في المستقبل بما لم تستطعهُ الايام

***

فالعلوم الطبيعية هي المعوَّل الوحيد الذي يزعزع اركان تلك العلوم ويهدم بنيانها بل هي المحال الذي سيتكفل بقلب ما بني عليها من النظامات المتقلقلة والشرائع الحائفة التي هي سبب كل ما نراهُ من الاضطراب في الاجتماع لفقد التوازن فيهِ . فالشرائع التي تسوس الاجتماع حتى اليوم والمبنية على تلك العلوم شرائع استبدادية لا تنطبق على

من الاسف ان هذا الارتقاء الذي هو في بدئهِ والذي ينتظر منهُ شيء فوق احلام العقل في المستقبل وان كان قد عمَّ الزراعة والتجارة والصناعة والطب ايضاً . ان لم يكن من حيث شفاء الامراض فمن حيث طرق منعها.الاَّ ان الانسان لم يستفد منهُ كثيراً حتى الآن في شرائعهِ وحكوماتهِ وان كانت الحروب قد قلت بهِ قلة تذكر وتمرّرت بهِ سيادة الامم واخذ الملوك يهبطون من سماء أولمبهم الى محاذاة البشر . فما ذلك الاَّ لصعوبة ازالة الاثر العالق بها من تلك التعاليم الراسخة فيها مدى كل تلك الاجيال المتطاولة والتي ما زالت الحكومات تؤيدها وتنشئ لها المعاهد وتقيم لها الجامعات التي يتغنى بها بعض الشعوب حتى اليوم والتي لا يزول ضررها الاَّ بانقراضها ولكنها ستنقرض وستنقرض معها كل تلك العلوم العالية كما يسمونها اليوم حتى يعفو اثرها . وهي من يوم خطا الانسان الخطى الصائبة في علوم الطبيعة في احتضار سيجهز عليها . وكل سنة الآن في هذا السبيل بمقام قرون في الماضي

وكأن الاجتماع لا يصلح صلاحاً تاماً يتكفلُ بعفاء اثر تلك التعاليم الاَّ اذا توحدت اللغات وتوحدت الامم وهذا ايضاً لا بدَّ منهُ والسبيل اليهِ لم يعد بالممتنع اليوم ونهوض امم المشرق من سباتها دليل عليهِ . انظر الى اليابان كيف ان نور العلم الطبيعي امتدَّ اليها ونهض بها الى اوج الامم الراقية في زمن قليل بعد ان لبثت في سبات عميق مئات السنين بل انظر الى امة الصين العظيمة الراقدة منذ الف سنة ولم تتغير في ضجعتها كيف انها تحركت واخذت تفتح عينيها . ولا تظن ان نهوض الامم اليوم يكون كما كان في الماضي انتصاراً وحشياً وفوزاً همجياً تقوم فيهِ دول على اطلال دول وامم على انتقاض امم بل سيكون عدوى سلمية تمتدُّ من السليم الى الاجرب فتبرئهُ فيصحُّ هو ويبقى سواهُ صحيحاً . وما مثال انقلاب الامة العثمانية في ثورتها السلمية العجيبة ببعيد وكان مثل ذلك في الماضي تجري الدماء فيهِ انهاراً

كل ذلك من معجزات العلم الطبيعي على حداثة عهدهِ وانحصار دائرتهِ وقلة عدّتهِ وغلبة التعاليم القديمة عليهِ واين منها معجزات العلم الالهي المصبوغة بالدم . فتوحيد الامم واللغات وانتشار الانسانية الحقيقية والنظر الى البشر كأنهم اخوة

يمكن ان يقال انهُ هو الذي كان منذ خمسة عشر الف سنة ايضاً واكثر . ثم قابل ذلك بانواع الاضاءة المختلفة التي استجدت في الخمسين او الستين سنة وخصوصاً في العشرين سنة الاخيرة اي بعد انصراف عقل الانسان الى درس الطبيعة وتعرف قواها وتخلصهِ شيئاً من ربقة تلك المبادىء التي كانت تصرفهُ عنها والطالحة في تعاليمهِ وسائر آدابهِ القديمة وقل لي بعد ذلك هل تلك العلوم العالية والاداب الرائعة كما يسمونها هي مرقاة يرقى بها او سلم يصعد عليهِ الى العلوم الحقيقية ام هي بالحقيقة عقبات في سبيلها

وكيف يصح ان ينسب ذلك لا الى الاسباب المذكورة بل لتعذرهِ على عقل الانسان قبل هذا العهد لضعفهِ وقلة اختبارهِ وهو قد اظهر في العلوم الاخرى التي اضطرَّ الى البحث فيها لضرورتها ولعدم حيلولة هذهِ المبادىء بينهُ وبين النظر فيها تفوقاً عجيباً اريد بذلك علم الاعداد والمساحات فقد تفوق في هذه العلوم الى درجة لم يبق بعدها من مزيد حتى يصح ان يقال ان العلوم الرياضية بلغتنا عن الاقدمين ناضجة بل محترقة لم يستطع المتأخرون ان يزيدوا عليها شيئاً يذكر واما في العلوم الطبيعية فبقي واقفاً كالبلية رأسها في الولية لانصرافهِ عن النظر في قواها بالنظر في قوى ما فوق الطبيعة واكتفائهِ منها بالقليل الضروري كما تقدم

*
* *

فالعلوم الطبيعية هي امُّ العلوم الحقيقية ويقتضي ان تكون ام العلوم البشرية كافة وان تتقدم على كل شيء وان تدخل في تعليم كل شيء فيصح نظر الانسان حينئذ في لغاتهِ وينتظم قياسهُ في دليلهِ وتقوى فلسفتهُ بارتباطها وتعلو آدابهُ لانطباقها على العمل وتصلح شرائعهُ لتطبيقها على نظام الاجتماع الطبيعي ويتسع عقلهُ لانطلاقهِ من قيودهِ المتناقضة وتقيدهِ بنظام واحد شامل ذي اتساع لا يحدّ وتصح احكامهُ لتربيتها على القياس الصحيح ويسرع ارتقاؤهُ لانطباقهِ في سيرهِ بهِ على نواميس الكون

واذا علمت ان دائرة معارف الانسان الطبيعية لم تتسع بعض الشيء وان قوى الطبيعة لم ترتبط بعضها ببعض الربط الاَّ في القرن الماضي ورأيت ارتقاء الانسان هذا السريع خصوصاً في الربع الاخير منهُ تبدت لك اهمية العلوم الطبيعية . ولكن

قام لنقض الوثنية وهدم الاصنام ونفي تعدد الالهة فعبد الهاً واحداً مجرداً لذاته لا لصفاته فلم يمثلهُ لئلا تعود العبادة الى الاصنام . وقد تغالى بالامر فحظر نقش التماثيل الاعتيادية حتى الدمى ولولا الامم الاخرى لبادت به صناعة التصوير بالقلم والحفر وهو مع ذلك لم يترك شيئاً عظيماً من آثار المنافع العمومية التي تدل على صلاح حال الانسان في دنياه وارتقاء المجتمع . واعظم ما تركهُ آثار ادبية لخدمة الغاية الدينية وقد فاق بهذه الآثار جميع الامم التي تقدمته

ولما كانت هذه مبادئ الانسان في حياته كان كل منحاهُ في علومه ومعارفه وشرائعه وادابه وسائر نظاماته متجهاً الى هذه الغاية الادبية منصرفاً بها عن الحياة العملية ولم يجتهد في ان يتعرف ما حولهُ الا بالقدر الذي لم يكن لهُ غنى عنهُ بما يضمن له الغذاء والكساء يتقي بهما الم الجوع والبرد ولذلك ابطأ جداً في تعرف اسرار الطبيعة وما لها من القوى وما بينها من الروابط للتصرف فيها والانتفاع بها فعرف كيف يروي الزرع ويستدر الضرع وينسج الكساء ويقيم البناء ويذلل الحيوان للنقل وقطع المفاوز بل عرف نواميس الضغط والخلل والثقل النوعي فبنى السدود ورفع الاثقال وركب البحار الخ . ولولا طمعهُ لما وضع اساس الكيمياء ولكنهُ لم يحاول ان يتعرف طبائع ما فيها من القوى ليصرفها الى غرضه فيقاوم الرياح بقوة البخار ويقرب الشاسع من الاقطار بقوة البرق ويأتي بها اعمالاً تكاد تكون في عداد العجائب لاعتباره ان هذه القوى غريبة عنها

ولم يكن هذا الابطاء عن مجرد تذبذب منهُ في الاهتداء اليها لشدة استغلاقها عليه مما هو ضروري في استكشاف كل امر بل عن مجرد انصرافه عنها بما تقدم والدليل على ذلك ان النواميس التي اكتشفها والمنافع التي اهتدى اليها والمار ذكرها يصح ان يقال انهُ عرفها منذ اول الامر اي مذ اليوم الذي دخل فيه في طور الانسانية ولكنهُ بقي واقفاً بها حتى اليوم . خذ الاضاءة مثلاً فان السراج الذي نعرفهُ منذ اربعين سنة هو نفس السراج الذي كان مستعملاً منذ اربعة او خمسة آلاف سنة المكتشف في خرائب مصر ليس في الزيت الذي يضيء به بل في نفس شكله حتى

ذكرها . وبالحصر فهذا الارتقاء لم يكن الا في بعض الصنائع المتعلقة بالبناء والفنون الجميلة كاقامة الآثار الضخمة والتماثيل المتقنة وهي تدل دلالة واضحة على الضغط الشديد الى حدّ العبودية من جهة والسيادة المطلقة الى درجة التأله من جهة اخرى . وشرائع الاجتماع في كل تلك العصور السابقة كانت مبنية على هــذا التقسيم والاجحاف بمصالح الجمهور . واني لا اتمنى لك تمدنًا كتمدن عصر سقراط ولا تمدن باني الاهرام ولا تمدن الرومان حتى ولا تمدن عصر العباسيين ولا تمدن الامم النصرانية بعد خروج الاسلام من الاندلس وقبل الثورة الفرنسوية والاَّ فاكون قد تمنيت لك ان تكون عبدًا ذليلاً لا تملك ادنى حرية لا في القول ولا في الفكر ولا في العمل ومع ذلك فكل هذه العصور قد امتازت بهذه الآثار البديعة التي لا تعادلها آثار بعدها ويمكن الجزم بانهُ لا يمكن ان تعادلها آثار في المستقبل ولكنها بالحقيقة آثار لا قيمة لها في المنافع العمومية التي تعظم قيمتها وتعظم الاعمال التي تتم لها كلما ارتقى الاجتماع . فالوثنية قد ابدعت في فن النقش لانها ارادت ان تقيم الاصنام لآلهتها فاقامت لها الهياكل الفخيمة ونصبت لها التماثيل البديعة . والنصرانية اتقنت فن التصوير لانها ارادت ان تشخص وقائع دينها وصور قديسيها فتركت لنا من ذلك آثارًا لا تبارى. وما بناء الاهرام و بعلبك وتدمر وسواها من الآثار التي تعد من معجزات العصور السالفة الا دليل ناطق على ما بلغ اليهِ البشر في تلك العصور من الذل والعبودية والتفاني في عبادة معبوداتهم والخضوع لملوكهم الذين رفعوهم درجات فوقهم حــتى خلطوهم بالآلهة وباتوا بهم اذل من الحيوان

مصرُ هل انت غير ما هنَّ ان لنّـــا شدادًا وان قسونا ركاكا
ذاك خلق من صنع فرعون لما شاد اهرامها تناغي السكاكا

وهي كلها بالحقيقة آثار تخدم اغراضًا خاصة ولا قيمة لها في المنافع العمومية

واذا كان التمدن الاسلامي لم يترك لنا شيئًا يعتد بهِ من مثل هذه الآثار فليس لان حال الانسان بهِ كان اصلح منهُ في الماضي خصوصًا بعد ان اوغل في الفتح واستتبت السيادة لهُ واستأثر سلاطينهُ بالسلطة واستبدوا بالرعايا بل لان الدين نفسهُ

ولا مكن لهُ الانتقال فيها من الخطاء الى الصواب شيئاً فشيئاً من غير عناء كما زاد فيها اختباراً . ولكنهُ لم يفعل فانهُ لم يقف امامها صامتاً يسألها ان تفتح عليهِ بما استغلق من اسرارها بل لاسباب كثيرة اختلط الامر عليهِ فوقع في الشبهات وبنى على هذه الشبهات مذاهب وتعاليم كان المبدأ فيها خارجاً عن الطبيعة مستولياً عليها وحاكماً عليهِ ولكنهُ غير خاضع فيها لناموس الاَّ ما شاءت الاقدار ثم استمسك بهذه المبادئ متقلباً فيها معدداً وموحداً ولم يتحول عنها فاقامها عقبات حالت بينهُ وبين سهولة تعرُّفهِ للعلاقة التي بينهُ وبين الطبيعة وما زال يتعثر فيها حتى اليوم ولن يزال كذلك زماناً طويلاً ايضاً لشدة رسوخ هذه المبادئ فيهِ بتقادم العهد

***

وبقي الانسان يتقلب على هذه المبادئ ويتخبط فيها عصوراً متطاولة جداً ولم يتحول عنها قيد شبر في ادابهِ وعلومهِ ونظاماتهِ حتى عصور التمدن اليوناني فقد قام حينئذ فلاسفة بنوا فلسفتهم على الحدس الصادق لا على العلم الصحيح وصرحوا بعلاقة الانسان بالطبيعة علاقة شديدة . على ان الوحيد الذي قال بهذه العلاقة وبناها على العلم الطبيعي هو ابو الطب ابقراط فانهُ اول من صرح بان اسباب الامراض طبيعية مع انها لذلك العهد كانت تعتبر الهية وتعالج في المعابد وهذا واضح من كتابهِ الاهوية والمياه والبلدان . وكتابهُ هذا اعظم اثر وصلنا عن الاقدمين لا من حيث الكلام على علاقة الامراض بالطبيعة فقط بل من حيث كلامهُ ايضاً على تأثير الاقاليم والغذاء والتربية في تكييف الاحياء . فابقراط اول واضع حجراً على وجه علمي في اساس مذهب النشوء قبل لامرك وجفروا سنتيليار وداروين بزمان طويل . ومع ذلك فابقراط نفسهُ لم يستطع او لم يجسر في ذلك الوقت ان يجعل اسباب الامراض كافة طبيعية بل فصل الامراض العصبية عنها كالصرع وجعلها تحت سلطان قوى فائقة الطبيعة وهذا يدلك على شدة تأثير التربية الاولى وسلطان التعاليم الشائعة على العقول حتى الراقية .

على انهُ مهما بلغنا عن تمدن الاقدمين فان الاجتماع لم يرقَ بهِ كثيراً رغماً عن الدلائل التي يتخذها البعض حجة على هذا الارتقاء بسبب مبادئ التعليم السالف

فصارت علوم اللغة مماحكات لا طائل تحتها لا كلاماً وضع للتعبير عن الفكر والشعر اغراباً لا ابداعاً في وصف الحقائق . وعلوم الفقه سخافات يتنزل العقل فيهـا الى حد التبذل . والطب شعوذة لاستنزال الاسرار وتحويل الاقدار لا تعرّف نواميس الطبيعة لتحديها . وعلوم القوانين لاهوتاً ثانياً لا يفهم . وعلم المحاماة مخرقة وتفنناً في المشاغبات لا دليلاً مرشداً الى الحق رادعاً للباطل . وصارت علوم الآداب والفلسفة المترتبة على ذلك كله هياماً في الاوهام لا ضابط لها الاّ الخيال وعلى هذه المبادىء النخرة شاد الانسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقلة التي طالما أن الاجتماع منها حتى بلغ صراخهُ عنان السماء

وليس العجب من ان طائفة البداغوجيين يرفعون شأن هذه العلوم الى حد فائق ويطلقون عليها اسم الآداب العالية بل العجب من تهجم بعضهم على الحط من شأن العلوم الحقيقية بالنسبة اليها كما جاء في احدى خطب افتتاح الجامعة وجعلها سلماً يرتقى بهِ اليها ومصقلاً للعقول . نعم لو كان ينحى في تدريسها منحى الطبيعيين أي النظر الى نشوئها وتقلب الانسان في صوابهِ وخطائهِ فيها كما يفعل اليوم في الكلام على نشوء الكون لكانت سلماً سليماً ومصقلاً لصقل العقول واما وهي كما هي سخافات تاريخية كحكايات الغول والعنقاء وفلسفة خارقة العقول وآداب كزينة القبور المكاسة فهي سلم واهي الدرجات متناخر القوائم وصقال كصقال العقدة التي لا تحل . ولو استقرينا تاريخ هذه الجامعات والغاية التي وضعت لاجلها في اولها وآثار هذه الغاية فيها حتى اليوم لما فتناً باقتباسنا نظاماً اوشك ان يتداعى في ارض منشاءهِ ولاعتضنا منهُ باقامة الكليات المنطبقة على احتياجات العصر والتي هي بالحصر سلم الارتقاء الحقيقي

وضرر هذه التعاليم على الانسان وعلى الاجتماع واضح من انها قائمـة على تخرصات واوهام بعيدة جداً عن الحقائق الطبيعية التي هي بالحقيقة المدرسة الاولى للانسان . ولو اقتصر العيب فيها على هذا الامر فقط لما كان الضرر كبيراً جداً ولكان هذا الخطاء مما لا بد منهُ لجهل الانسان علاقتهُ بالطبيعة في اول الامر لقلة تعرفهِ لها

بما كان في غنى عنهُ لو اقتصر التعليم على العلوم الحقيقية وعلاقتها بالحياة العملية عوضاً عن هذا الاجتهاد العقيم في تطبيق المبادئ المتناقضة على حياة خيالية دينية او ادبية لا تتفق مع الواقع في شيء وتزيد الانسان شقاء في حياتهِ الاجتماعية فوق شقائهِ الطبيعي المحتوم . فالتعاليم الدينية تفصل الانسان عن هذا العالم حتى لا يعود يعتد بهِ وهو بالواقع لا يفصلهُ عنهُ شيء حتى ولا الموت . والحياة الادبية تصورهُ فوق حقيقتهِ بكثير كما تخيل هي لا كما هو فتزيدهُ ضعفاً على ضعفهِ وتجعل حياتهُ تكلفاً ورياء .وهاتان الحياتان الخياليتان تصطدمان في الاجتماع بالحيــاة العملية التي لا يسع الانسان ان ينفك عنها طرفة عين فتتنازعهُ كل هذه العوامل المتناقضة وتمزقهُ اي ممزّق وهو الخاسر في هذا التنازع . ولو بني دين الانسان على علاقتهِ الحقيقية بالطبيعــة واقيمت آدابهُ على نواميس الاجتماع الطبيعي لكان في كل اعمالهِ متناسباً مع نفسهِ متوافقاً مع تعاليمهِ غير مضطر ان يتاوم تعاليمهُ في كل خطوة يخطوها كعقبات اقامها هو نفسهُ في سبيلهِ « وكم ذا يلاقي ان يشا دكها عنى » ولاستغنى عن تلك الفلسفة النظرية المضللة المبنية على الخيال واقام مقامها الفلسفة العملية الهادية الى السبيل القويم المبنية على العلم الحقيقي ولما كان بهِ من حاجة الى اقامة تلك العلوم التي هي اشبه شيء بهذيان المصدعين الا وهي علوم الكلام على الاطلاق لتفسير ما لا يفسر وتأويل ما لا يؤوّل وتطبيق ما لا يطبق التي اضلت عقولاً كثيرة وغلت عن العمل ايدياً كثيرة فلم تنفع الاجتماع بشيء بل اضرتهُ اذ اضلتهُ واصبحت عالة عليهِ وهي فوق ذلك اغتصبت مقاماً ممتازاً لها فيهِ حتى انطبق عليها مثل هذا القول

| | |
|---|---|
| اذا شئت ان ترقى ذرى كل مقولِ | فاكثر بهِ من كل لاغٍ ومهملِ |
| وحافظ على خلط تقادم عهدهُ | كانك فيهِ بين ربٍّ ومُنزَلِ |
| وحدث بآلاء الكتاب وآيهِ | وان أنت لم تفهم ففسر واوّلِ |
| ولو أنت تأتي فيه كل غريبة | وتأنح في تأويلهِ كالمعضلِ |
| فان كلام الله ما أنت جاهل | وان كلام الفذّ ما ليس ينجلي |

ولقد حل طيف هذا النهج في النظر على سائر اعمال الانسان ونظاماتهِ حتى علومهِ

وهذا يدلك على ما للتربية الاصلية من السطوة على العواطف والعقول . وكثيرًا ما يتخذ ذلك اصحاب هذه المبادئ دليلاً على صحة مبادئهم و يقولون ان مثل هذا الانعطاف الذي يعبرون عنه بالوجدان ايضاً غريزي في الانسان فلو لم يكن صحيحاً لما كان كذلك . والحال ان ما نشاهده في الطفل الذي لا يزال على الفطرة لا يؤيد هذا القول بل ينافيه في اكثر الاحيان فما منا الاَّ من سمع من اطفال عند اول نطقهم اعتراضات معقولة ضد مبادئنا المقررة كثيرًا ما يتعوذ منها الجاهل و يبتسم لها العاقل ولكننا نصرفهم عنها بما لنا عليهم من السلطة حتى يقروا اخيرًا على ما هو مقرر عندنا

فالانسان في اكثر اعماله وافكاره ليس ابن غرائزه بل صنع تربيتنا من المهد الى اللحد ولو ترك لغرائزه لكان في مجموعه ارقى منه اليوم بكثير ولكن كيف يتسنى له ذلك ونحن بتربيتنا له نشرع بقتل كل مميزاته وهو طفل في البيت اولاً ثم في المدرسة حتى اذا خاض الاجتماع و به بقية باقية تكفلت كتبنا الدينية والادبية واقاصيصنا الخيالية والخرافية ونظاماتنا الاجتماعية بالاجهاز عليها فيزول الانسان الطبيعي بالكلية ولا يبقى الاَّ الانسان المصنوع على خلاف الطبيعة

***

والحق يقال ان الشر الاكبر من التربية المدرسية لانها تربي الطبقة الراقية من الامة التي عليها المعوَّل في تدبير شؤون الاجتماع . فالتعليم في اكثر هذه المدارس حتى في ارقى المعمورة اليوم وخصوصاً التعليم الاعدادي قاتل لهذه المميزات فعوضاً عن ان تعد العقل وتمهده لقبول زرع العلم على الاطلاق وتقوي فيه مزية الاستقلال في الاحكام تراها تشغل عقل الطفل منذ حداثته وهو الين من الشمع طواعية وتعده اعداداً مخصوصاً لغاية مخصوصة. فتنزع منه استقلاله وكل مميزاته . وهي بذلك تخدم مبدأً معلوماً لا مطلق العلم فيشب الطفل في عقله ضيق الفكر قليل التسامح اعور افلج لا يبصر بعلمه الاَّ من جهة واحدة ولا يسير به الا في سبيل معلوم

ولا تقتصر على ذلك بل تعلمه بجانب هذه المبادئ العلوم الاخرى الحقيقية وهي مناقضة لتلك ولكنها تحاول ان تطبقها عليها فتوسع مجال الاجتهاد وتزيد العقل ارتباكاً

# مقدمة الطبعة الثانية

« الاصابة ليست دائماً في جانب الاجماع فالكثرة »
« ليست حجة قاطعة او هي وحدها برهان القوة »
« الوحشية والحقيقة ما كانت ادنى الى الواقع »

كم أنت متمسك بما نشأت عليه ؟ فانا كنت مثلك وا كثر . وما استمساكك بهِ عن تروٍّ في اول الامر لانك كنت صغيراً لا تستطيع ان تقيم احكاماً لك من نفسك تستقر عليها . بل عن اعداد لك بالتربية وانطباع فيك بالوراثة. وعليه الحديث : « يولد الطفل على الفطرة وانما ابواهُ يهوّدانهِ او ينصرانهِ او يمجسانهِ ». فالتربية تجد الطفل ليناً غير قاس فلا تجد صعوبة في تكييفهِ فتؤثر فيه تأثير الطابع في الشمع . وبالتكرار والاستمرار يستقيم المرء على المطبوع وينفر اذا حاولت تحويلهُ عنه كما يستقيم العود على اعوجاجهِ وينكسر اذا حاولت تقويمهُ . وعليهِ المثل : « العلم في الصغر كالنقش في الحجر » . ثم ينتقل هذا التكييف في النسل بالوراثة فيولد الطفل وبهِ استعداد للميل مع هذا الانعطاف او ذاك

ثم لما كبرت وصرت قادراً على التفكير لم تفتكر غالباً لتمحيص ما نشأت عليهِ . بل كنت دائماً تجهد كل قوى عقلك لتأييدهِ كلما دعا داعٍ الى ذلك . بحيث لم تكن في احكامك مستقلاً البتة عن فعل المؤثرات التي نشأت عليها من التربية البيتية والمدرسية والاجتماعية . ولهذا كان اكثر الناس غير مستقلين في احكامهم خاضعين فيها للمؤثرات السابقة المكسوبة والراسخة فيهم مهما اتسعت دائرة معارفهم وسمت مداركهم . ولا يشذّ عن ذلك الا النزر اليسير لاسباب خاصة تخف فيها عليهم وطأة هذه التربية . واشد هؤلاء استقلالاً اذا سهت مداركهم قليلاً يرجعون في عواطفهم الى ما يسمونهُ بديهاتهم المكسوبة عن هذا السبيل. فيناجي الكافر ايمانهُ ويقع المصلح الاجتماعي في خطاء النظام الذي يشكو منهُ حتى اذا فكر قليلاً انكر عملهُ هذا على نفسهِ

الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لانهم سمعوا ان فيهِ مساساً باعزّ شيء لديهم هم عليه حريصون عن ارث وعادة لا عن تدبر وروية

على ان هذه الرجة التي حصلت حينئذٍ هي المقصودة مني في ذلك الحين لايقاظ الافكار من نومها العميق والحركة مهما كانت خير من السكون . ومن هنا نحن الشرقيين اليوم أولى بهزة تتصل فينا الى أعماقنا وقد تقادم علينا السبات حتى بتنا في رتبة في صف الاحياء لا هي بالميتة فتدفن جثة هامدة ولا هي بالحية فتبعث بشراً سوياً

وأنا التمس العذر من علمائنا اليوم وفي مستقبل الايام اذا لم يتيسر لي بسط هذا المذهب بسطاً علمياً كافياً وافياً كما هو مبسوط في مطولات علماء الغرب لاسباب لا تخفى عليهم في مثل أحوالنا عموماً ولا سيما ان علمي بذلك محدود وما هو الاّ نقطة مستقاة من بحارهم . ولكني اذا كنت قد قصرت في بسط جزئيات هذا العلم بالتدقيق الكلي لعذر وغرض أيضاً الاّ اني أقدر أن أؤكد لهم اني من جهة كلياته ومراميه لم ادّخر وسعاً في ابلاغها الى اقصاها صحة ومرمى واذا لم ارتفع فيها فلا اتضع الى القول باني قصرت فيها عنهم . لعلّ ذلك كلهُ يمهّد السبيل لنوابغنا فينهضوا الى مباراة أعظم علمائهم ولا اقول فلاسفتهم لان الفلسفة وان كان لا يزال لها بعض معنى اليوم فانها ستصبح مبتذلة في مستقبل الايام فالمستقبل اليوم للعلم وللعلم العملي وحدهُ فقط

مصر في ١٠ ابريل سنة ١٩١٠ — الدكتور

شبلي شميل

نسبتهِ الى هذه الطبيعة ولا نسبة الطبيعة بعضها الى بعض ولم يكن يقدر النواميس الطبيعية حقَّ تدرها في ذلك كلهِ

ولما قمت أبث مبادئ هذا المذهب بيننا ولا سيما ما بني عليهِ منذ سنة ١٨٧٦ لم يكن لهُ اتباع ولا مؤلفات في اللغة العربية بل كان انصارهُ حتى في اوربا نفسها لا يتجاوزون عدد الاصابع وكان خصومهُ حتى من العلماء أنفسهم يفوقون حد الحصر فلم يكن سوى دارون رجل القرن الماضي الاعظم الذي نظر الى الجهة العاميّة فقط ليقرر تكوّن الانواع في الاحياء بالتحول والارتقاء من اصول قليلة لم يتعرض لكيفيّة نشوئها الاصلي . وسوى أنصارهِ هكسلي وبخنر وهكل الذين وجدوا حالاً في هذا المذهب مسنداً علميًّا قويًّا للعلم المادي والفلسفة المادية . وسوى سبنسر الذي شاد عليهِ علم السوسيولوجية وتوسع فيهِ الى أقصى ما ترمي اليهِ نظرياتهُ الكبرى . وقد دامت نار الحرب بين العلماء في اوروبا مستعرة اخذاً وردًّا ونفياً واثباتاً ودحضاً وتأييداً من سنة ١٨٥٩ الى حوالي سنة ١٨٩٠ والعلماء يدخلون في هذا المذهب أفواجاً حتى يقال اليوم ان الفوز قد استتب لهُ في كلياتهِ واقتصر الخلاف بينهم على مسائل جزئية بسطاً وبياناً فقط كما في كل علم مقرر وعمَّ أيضاً حتى اطلق على كل الكون على العالم الماديّ وعلى العالم المعنوي . على العالم الطبيعي وعلى العالم الادبي بحيث لا تمر اليوم بالانسان مسألة جليلة أو حقيرة اجتماعيَّة أو علميَّة أو فلسفيَّة الا وتجد لها في هذا المذهب حلاًّ في كيفيّة نشوئها وتحوّلها حتى مصيرها أيضاً وكان ذلك عوناً كبيراً لتعزيز العلم الطبيعي ودعامة قوية للفلسفة المادية في الكون

ومن أول ما طرقتُ هذا المذهب طرقتهُ من هذه الجهة القصوى في مباحث مختلفة نشر بعضها في الجرائد واكثرها في مجلة المقتطف حتى سنة ١٨٨٤ حيث نشرت أصل هذا الكتاب أولاً تحت اسم شرح بخنر على مذهب دارون

وقد أحدث نشرهُ يومئذ لغطاً عظيماً مع انهُ لم يطبع منهُ الا خمسمائة نسخة لم تنفد الا بعد خمس عشرة سنة — لغطاً كان قليلهُ من الخاصة المعدودة فقاموا ينفونهُ كلهُ أو بعضهُ كلٌّ على قدر علمهِ أو حسب هواهُ . وكثيرهُ من العامة الذين اكثروا من

الناطق . موضحاً أن القوى الفاعلة في كل ذلك كالمواد الداخلة فيهِ من أصل طبيعي واحد متحول الى ما لا حدّ لهُ بحيث أن الافعال الظاهرة في أعلى سلم هذا التحول كما نشاهدها اليوم ليست الاَّ تلك الافعال البسيطة كامنة في أدنى هذا السلم متدرجة فيهِ وهي لا تنتظر حتى تظهر باسمى مظاهرها ارتقاءً وأعظمها شدة الاَّ توفُّر شرائط معلومة لو فقدتها بعد ذلك لعادت الى بسائطها عملاً بناموس الاقتصاد الطبيعي الذي يقضي أن كل شيءٍ في الطبيعة منها وبها واليها . مستنداً في كل ذلك الى العلم الاختباري المحسوس . وذلك لبلوغ الحقيقة المنشودة في كل زمان من الطريق الوحيد الموصل اليها والتي تلمسها الانسان في كل أطوارهِ في التاريخ من غير سبيلها فضلّ عنها ولم يهتدِ اليها الاَّ من عهد قريب جدًّا . متوخياً من كل ذلك المنفعة العملية لعلَّ الانسان يشيد اجتماعهُ على أساس متين عالماً أنّ أقل شيءٍ في الطبيعة قد يكون فيهِ أكبر نفع لهُ فلا يحتقر شيئاً بل يعتدُّ بكل شيءٍ ويصرفهُ الى غرضهِ ويسترشد بنواميس الطبيعة فيتحداها في توخي المنفعة المشتركة التي لا تكون المنفعة الذاتية بدونها الاَّ ناقصة وقد تنقلب الى الضد فيتضافر عن علم لتوفير هذه المنفعة من مصادرها الطبيعية لا لتمزيق بعضهِ بعضاً كما هو جارٍ حتى اليوم لاعتماده على ما سوى الطبيعة أو لسوء فهمهِ لنواميسها في نظامها لانهُ اذا كان نظام الطبيعة أساسهُ تنازع البقاء القاضي بالتنازع الشديد بين عناصر الكائنات جميعها من أصغرها الى أكبرها ومن أحقرها الى أعظمها عملاً بناموس محبة الذات أو الانانية التي تطلب النفع الخاص والمنتشرة في عمومها وغير المقتصرة على الاحياء فقط كما قد يظنُّ توهماً الاَّ انهُ يوجد ناموس أرقى ينقل هذا التنازع من بين الافراد المنعزلة بناءً على ناموس التكافوء والتكافل مرتقياً الى الجماعات المنضمة في مصلحة واحدة الى أن يشمل الجنس كلهُ عسى أن يتهيأ للانسان الفوز التام على الطبيعة اذا فهم هذا الانسان الكلي مصلحتهُ الكبرى من وراء ذلك كما يجب ان تكون

ولم يكن ذلك متيسراً لهُ حقيقة قبل خمسين سنة أي قبل اكتشاف مذهب النشوء والارتقاء على المبادىء التي قررها داروِن في مذهبهِ لانهُ لم يكن يعلم حقيقة

# ديباجة الكتاب

كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك
فان لم يكن رأيه كل الصواب فلا تكن انت كل
الخطاء بتشبثك . واقل ما في اطلاق حرية
الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق
وبئس الناس اذا قسروا على الجبن والكذب

يشتمل هذا الكتاب اولاً على مقالات في مذهب دارون في اصل الانواع وتحولها طبعت باللغة العربية اولاً سنة ١٨٨٤ تحت اسم « شرح بخنر على مذهب دارون »

ثانياً على كتاب الحقيقة المطبوع اولاً سنة ١٨٨٥ والمشتمل على مباحث لتأييد هذا المذهب ردًّا على الذين تعرضوا لنفيهِ على اثر نشر الطبعة الاولى من الشرح المذكور

ثالثاً على مباحث ومناقشات علمية في الحياة لاثبات الرأي المادي نشرت في المقتطف قبل التاريخ المذكور و بعده

رابعاً على مقدمتين ضافيتين احداهما نشرت مع الطبعة الاولى من شرح بخنر في ذلك الحين والثانية وضعت حديثاً للطبعة الثانية اليوم

خامساً على خاتمة في خلاصة ما تقدم نظرتُ فيها نظراً خاصًّا الى علوم الانسان وفلسفتهِ من حيث نشوءها وتحولها وحقيقتها وتأثيرها في اخلاقهِ وافكارهِ واميالهِ وافعالهِ وسائر أحوالهِ الاجتماعية من عهد التمدن اليوناني القديم الى اليوم

وقد أطلقت عليهِ اسم «فلسفة النشوء والارتقاء» لاني لم أقتصر فيهِ على النظر التقريري البسيط من حيث نشوء الاحياء وتسلسلها بعضها من بعض بل اطلقت نظريتهُ على الطبيعة كلها من جمادٍ ونباتٍ وحيوان من حيث أصلها وتحولها ونسبتها بعضها الى بعض مبيناً ان هذا الكل المشهود مترابط ترابطاً لا ينفك في كل صورهِ وافعالهِ سواء في الطبيعة الصامتة أو في الاحياء النامية أو في الحيوان الأعجم أو في الانسان

# كتاب

# فلسفة النشوء والارتقاء

طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه ،
الا بعد ان تطلق نفسك من اسر الاغراض
لئلا تعم عليك وانت واقف تطل على العالم من
شرفة عقلك تلمس الحقيقة من وراء ستارها

وهو

## الجزء الاول

من

## مجموعة

الدكتور

شبلي شميل

طبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٠